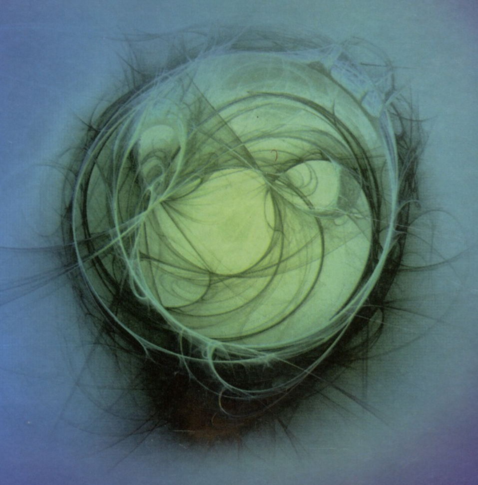
دار العيدروس للكتاب الحديث

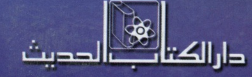
الدولة الإسلامية الثالثة
الخلافة الأموية

إسرة أبو سفيان أبو المروان الأموى



البروفيسور الدكتور

محمد حسن العيدروس



دار العيدروس للكتاب الحديث

الدولة الإسلامية الثالثة

الخلافة الأموية

أسرة أبو سفيان وأبو المروان الأموى

البروفيسور /محمد حسن العيدروس
أستاذ التاريخ والعلاقات الدولية
رئيس مركز العيدروس للدراسات والاستشارات



العيدروس ، محمد حسن

الدولة الإسلامية الثالثة : الخلافة الأموية أسرة أبو سفيان وأبو المروان الأموي / محمد حسن العيدروس . ـ القاهرة : دار الكتاب الحديث ، 2009 م

644 ص ؛ 24 سم .

تدمك 5 246 350 977

1- الدولة الأموية (661م ـ 750 م)

أ ـ العنوان

953.02

رقم الإيداع 2529 /2009

1430 هـ / 2009 م



القاهرة	94 شارع عباس العقاد – مدينة نصر – القاهرة ص.ب 7579 البريدي 11762 هاتف رقم : 22752990 (202 00) فاكس رقم : 22752992 (202 00) بريد إلكتروني : dkh_cairo@yahoo.com
الكويت	شارع الهلالي ، برج الصديق ص.ب : 22754 – 13088 الصفاه هاتف رقم 2460634 (965 00) فاكس رقم : 2460628 (965 00) بريد إلكتروني : ktbhades@ncc.moc.kw
الجزائر	B. P. No 061 – Draria Wilaya d'Alger– Lot C no 34 – Draria Tel&Fax(21)353055 Tel(21)354105 E-mail dkhadith@hotmail.com

بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

قال الله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [النور] صدق الله العظيم.

«إهداء» إلى سيدة نساء العالمين بنت رسول الله محمد ﷺ فاطمة الزهراء وإلى زوجها الإمام علي رضى الله عنه، وإلى سيدى شباب أهل الجنة سبطى رسول الله محمد ﷺ الإمام الحسن والإمام الحسين رضى الله عنهما وإلى بقية العترة الطاهرة.

وإلى والدى المرحوم السيد/ حسن أحمد علوى العيدروس طيب الله ثراه وأغمده الجنة إن شاء الله.

وإلى أبناء الأمة الإسلامية لكى يهتدوا ويسيروا فى الطريق الذى رسمه القائد العظيم رسول الله محمد ﷺ ورئيس أول دولة إسلامية ليخرجوا هذه الأمة من الذل والهوان وجاهلية أنظمة الحكم والتخلف الذى لحق بها من جراء عدم اتباع نهج رسول الله ﷺ فى تطبيق الشريعة الإسلامية فى أنظمة الحكم والسياسة والعدالة الاجتماعية والديمقراطية الإسلامية والحرية والمجتمع المدنى ودولة المؤسسات الإسلامية والعودة إلى خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر.



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله حمداً كبيراً وثناء كثيراً والصلاة على سيدنا وحبيبنا وشفيعنا رسول الله محمد(ﷺ) وعلى آل بيته الأخيار الأطهار إلى يوم الدين.

يعتبر تنازل الإمام الحسن بن على رضى الله عنهما، عن الخلافة لمعاوية بن أبى سفيان، بداية مرحلة جديدة فى التاريخ الإسلامى بكل تحولها الجذرى عن النظام السياسى الإسلامى الذى أوجده رسول الله ﷺ وخلفاؤه من بعده، وكما عرفه المسلمون ومارسوه من النظام السياسى الديمقراطى الإسلامى من الانتخاب الحر والاختيار والشورى حسب الكفاءة الدينية والسياسية إلى النظام الملكى الأوحد الوراثى التسلطى القمعى مع ما صاحبه من الترف والبذخ وحياة القصور القيصرية وغيرها مما خلق معه إشكالية عدم التوازن مع الاندماج السياسى والاجتماعى وبالتالى أدى إلى انهيار الخلافة من مضمونها الدينى والدنيوى وتعطيل الشريعة الإسلامية مما كان معه الانهيار وعدم الاستمرار.

نجد أن العراق كان يمثل البداية والنهاية لحكم الأسرة الأموية بفرعيها السفيانى والمروانى، كما أن المعارضة والثورات التى شهدتها الأقاليم فى المشرق والمغرب الإسلامى غلب عليها الطابع الاجتماعى ـ الفكرى وامتدت إلى الشام بعد ثورة القبائل اليمنية على الحكم الأموى عندما انقلب آخر حكامها مروان بن محمد ضد القبائل اليمنية التى ساندت الأسرة الأموية طوال حكمها مما جعلها تثور على الحكم الأموى وتنضم للعباسيين مما كان سببًا فى سقوط الحكم الأموى الذى اعتمد أساسا على القبائل اليمنية وإخلاصها لها، وبرغم نجاح الحكام الأمويين فى ضرب العراق العلوى إلا أنهم لم يستطيعوا وقف دوره السياسى المعارض حيث امتد هذا

الفكر الثـورى العلوى المعارض من العـراق إلى خراسان بعـدما تزايدت عـمليات الاضطهـاد والقمع مما أدى إلى تفـريغ العراق من السكان والهـجرة إلى خـراسان ومنها كـانت الانطلاقة للمـعارضة العـلوية بقيادة أسـرة آل العباس الـتى أسقطت الحكم الأموى.

بسقوط حكم النخبة الأموية خسر العـرب السيادة المطلقة بعد مجيء الفرس ثم الترك إلى الحكم العـباسى. وبالرغم من سلبيات حكم الأسـرة الأموية إلا أنها تبقـى من الصفحـات المشرقـة فى التاريخ العـربى الإسلامى فـقد امتـدت الدولة الإسلامية إلى حـدود الصين شرقا وجنوب فرنسا غربا وقرب الأناضـول البيزنطية شمالاً ونهـر النيل جنوبا وهذا بحد ذاته إنجاز كـبير يضاف إلى التـاريخ الحضارى العربى ـ الإسـلامى وسوف نتناول فى كـتابنا عن الدولة الإسلامـية الثـالثة حكم أسرتى أبى سفيان وأبى مروان الأموية ونظام الحكم السياسى والفتوحات الإسلامية والحياة الإدارية والاجتماعية والاقـتصادية والفكرية والمعارضة العلوية والثورات ثم سقوط النظام الأموى.

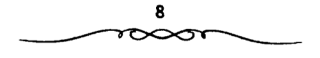
أتمنى أن أكـون قـد وفـقت فى هذا الكـتاب إلـى إعطاء صـورة عن الحكم الأموى فى الدولة الإسلامية الثالثة. ونطلب من الله فى آخر دعوانا أن يوفقنا إلى قـول الحق وعـمل الحق والدفاع عـن الحق ـ الحق الإسلامـى والحمـد لله تعـالى والصلاة على خـاتم النبيين وإمـام المتقيـن رسول الله محـمد ﷺ وعطرته من آل البيت رضوان الله عليهم.

اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محـمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم فى العالمين إنك حميد مجيد.

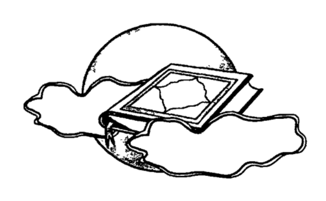
البروفيسور محمد حسن العيدروس

مدينة البحر - العين

الإمارات العربية المتحدة



الفصل الأول



حكم أسرتى أبى سفيان وأبى مروان الأموية

- تنازل الإمام الحسن عن الخلافة لمعاوية.
- حكام أسرتى أبى سفيان وبنى مروان

بنى أبى سفيان:

(1) معاوية بن أبى سفيان 40 هـ الموافق 660 م.

(2) يزيد بن معاوية - 60 هـ الموافق 679 م.

(3) معاوية بن يزيد - 64 هـ الموافق 683 م.

بنى مروان:

(4) مروان بن الحكم - 64 هـ الموافق 683 م.

(5) عبد الملك بن مروان - 65 هـ الموافق 684 م.

(6) الوليد بن عبد الملك - 86 هـ الموافق 685 م.

(7) سليمان بن عبد الملك - 96 هـ الموافق 714 م.

(8) عمر بن عبد العزيز - 99 هـ الموافق 717 م.

(9) يزيد بن عبد الملك - 101 هـ الموافق 719 م.

(10) هشام بن عبد الملك - 105 هـ الموافق 723 م.

(11) الوليد بن يزيد بن عبد الملك - 125 هـ الموافق 742 م.

(12) يزيد بن الوليد بن عبد الملك - 126 هـ الموافق 743 م.

(13) إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك - 126 هـ الموافق 743 م.

(14) مروان بن محمد بن مروان - 127 هـ الموافق 744 م.

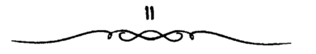
(15) سليمان بن هشام - 127 هـ الموافق 744 م.

تنازل الإمام الحسن عن الخلافة لمعاوية:

كان الإمام الحسن عليه السلام رجل صدق قد كره الفرقة وآثر اجتماع الكلمة وخاض غمرات الفتنة، على كُره منه في أكبر الظن. قاوم الفتنة ما وسعته مقاومتها أيام عثمان فلم يخض فيما خاض الناس فيه من حديثها، ولم يشارك في المعارضة حين عظم الشر. وكان من الذين أسرعوا إلى دار عثمان فقاموا دون الخليفة يريدون حمايته. ولكن الخليفة قُتل على رغم ذلك، لأن خصمه تسوروا عليه الدار. ولم يكن الإمام الحسن عليه السلام يرى أن يشترك أبوه في شيء من أمر الفتنة من قرب أو من بعد، وإنما أشار عليه أن يعتزل الناس وأن يترك المدينة فيقيم في ماله بَيَنْبع. فلم يسمع الإمام عليّ عليه السلام له، وإنما رأى أن مكانه في المدينة حيث يستطيع ان يأمر بمعروف أو ينهى عن منكر أو يصلح بين الناس. فلما قُتل عثمان لم ير الإمام الحسن عليه السلام لأبيه أن يقيم في المدينة ولا أن يتعرض للبيعة ولا أن يقبلها وإن عُرضت عليه. ولو استطاع الإمام الحسن عليه السلام لاعتزل الفتنة اعتزالا كما فعلت تلك المعتزلة من أصحاب النبي. ولكن عرف لأبيه حقَّه عليه، فأقام معه وشهد مشاهده كلها، على غير حُب لذلك أو رغبة منه فيه. ثم لم يكن الإمام الحسن عليه السلام يرى لأبيه أن يترك مُهاجَره في المدينة، وأن يرحل إلى العراق للقاء طلحة والزبير وعائشة، وإنما كان يؤثر له أن يبقى في مُهاجره مجاوراً للنبي، ويكره له أن يذهب إلى دار غربة ويتعرض للموت بمضْيعة. وكان أبوه يعصيه في كل ما كان يشير عليه من ذلك، حتى بكى الإمام الحسن عليه السلام ذات يوم حين رأى ركاب أبيه تؤم العراق، فقال له أبوه: إنك لتحن حنين الجارية. ولم يفارق الإمام الحسن عليه السلام حَزَنُه على عثمان، فكان عثمانيًا بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة، إلا أنه لم يَسُلّ سيفًا للثأر بعثمان، لأنه لم ير ذلك حقًا له، وربما غلا في عثمانيته[1].

شهد الإمام الحسن عليه السلام مع أبيه، مشاهده في البصرة وصفّين والنهروان. وأكاد أعتقد مع ذلك أنه وأخاه الإمام الحُسين عليه السلام قد شهدا هذه الحروب دون أن يشاركا فيها. بل نحن نعلم أن أباهما كان يَضن بهما على الخطر مخافة أن يُصيبهما شر فتنقطع ذريّة النبيّ صلى الله عليه وآله. كان يقيهما بنفسه وبأخيهما محمد بن

1 ـ طه حسين ـ على وبنوه ص176.



الحنفيــة، وكان يشـتد على محـمد هذا ويعنُف به إن رأى منـه فى الحرب أناة أو تقصـيراً حتى كلمه فى ذلك بعض أصـحابه. فقد كـان الإمام علىّ عليه السلام إذاً أشد الناس إيثاراً للحسن والحسين لمكانهما من النبىّ، وكان أصحابه يصنعون صنيعه فى ذلك فيؤثرونهـما بالخير والبرّ. ويُروى أن رجلا أهدى إلى الحـسن والحسين وترك محمداً فلم يُهد إليه شـيئًا، فلما رأى الإمام علىّ عليه السلام ذلك من الرجل وضع يده على كتف محمد وتمثّل:

وما شرّ الثلاثة أم عمرو بصاحبك الذى لاتُصبحينا

فذهب الرجل فأهدى إلى محمد كما أهدى إلى أخويه.

كان الإمـام الحسن عليه السلام إذاً كارهًا للفـتنة منذ ثارت. وقد روى الثـقات من أصحـاب الحديث أن النبى صلى الله عليه وآله أخذ الإمـام الحسن عليه السلام وهو صبىّ فـأجلسه إلى جانبه على المنبر، وجعل ينظر إليـه مرة، وينظر إلى الناس مرة أخرى، يفعل ذلك مراراً، ثم قال: إن ابنى هذا سـيّدٌ، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين كـبيرتين من المسلمين. فـقد وقع هذا الحديث من نفس الصبى مـوقعًا أى موقع. وكـأنه ذكرَه حين ثارت الفتنة، وكـأنه حاول بمشورته على أبيه، فى مـواطنه تلك التى ذكرناها آنفًا، أن يصلح بين هاتين الفئتين من المسلمين فيحقق نبوءة جده صلى الله عليه وآله. وكأن بكاءه حين بكى لم يكن رفقًا بأبيه وإشفاقًا عليه فحسب، وإنما كان إلى ذلك حزنًا، لأنه لم يحقق ما توسّم به جدُّه فيه. والمسلمون يختلفون، فأما المؤرخون والمحدثون من أهل السُّنة فينبئـوننا بأن عليّا أبى أن يستخلف حين طلب إليـه ذلك بعد أن أصيب ويقول قوم: إن الناس طلبوا إليه أن يستخلف الإمام الحسن عليه السلام. فقال: لا آمركم ولا أنهاكم[1].

يقول الشـيعة إن عليًّا استخلـف الإمام الحسن عليه السلام نصّا. ومهـما يكن من شىء فلم يعرض الإمام الحسن عليه السلام نفسَه على الناس، ولم يتعرض لبيعتهم، وإنما دعا إلى هذه البـيعة قيس بن سـعد بن عبُـادة. فبكى الناس واستجـابوا. وأخرج

---

1 ـ طه حسين ـ نفس المرجع ـ ص177.

الإمام الحسن عليه السلام فأجلس للبيعة، وطفق - كما يقول الزهرى - يشترط على الناس أن يسمعوا ويطيعوا، ويحاربوا من حارب ويسالموا من سالم. فلما سمع الناس منه تكراره لأمر السلم ارتابوا وظنوا أنه يريد الصلح. وقال بعضهم لبعض: ليس هذا لكم بصاحب وإنما هو صاحب صلح. وقد مكث الإمام الحسن عليه السلام بعد البيعة شهرين أو قريبًا من شهرين لايذكر الحرب ولا يظهر استعدادًا لها، حتى ألحّ عليه قيس بن سعد وعبيد الله بن عباس، وكتب إليه عبدالله بن عباس من مكة يحرّضه على الحرب. ويلحّ عليه فى أن ينهض فيما كان ينهض فيه أبوه. فنهض للحرب وقدّم بين يديه اثنى عشر ألفًا من الجند، جعل عليهم قيس بن سعد، وجعل معه عُبيد الله بن عباس. وقوم يقولون إنه جعل على هذا الجند ابن عمه، وأمره أن يستشير قيس بن سعد وسعيد بن قيس الهمدانى ولا يخالف عن رأيهما. فمضى الجند وخرج الإمام الحسن عليه السلام فى إثرهم فى عدد ضخم من أهل العراق، وكأنه خرج يُظهر لهم الحرب ويدبِّر أمر الصلح فيما بينه وبين خاصته. حتى إذا بلغ المدائن تسامع الجيش ببعض ذلك، فاضطرب الناس وماج بعضهم فى بعض، واقتحموا على الإمام الحسن عليه السلام فسطاطه وعنفوا به عنفًا شديدًا حتى انتهبوا متاعه. فخرج الإمام الحسن عليه السلام يريد المدائن. وطعنه رجل فلم يصب منه مقتلا. يقول بعض المؤرخين: إن هذا الرجل كان من أصحابه، ويقول بعضهم الآخر: إنه كان من الخوارج وأنه قال للحسن وهو يَهُمُّ به: أشركت كما أشرك أبوك. وقد أقام الإمام الحسن عليه السلام فى المدائن حتى برئ من جرحه، وتعجل السلم فى أثناء ذلك ثم رجع إلى الكوفة فاستقبل فيها سفراء معاوية الذين أعطوه كل ما أراد. أعطوه الأمان له ولأصحابه كافةً، وأعطوه خمسة ملايين من الدراهم كانت فى بيت المال بالكوفة، وأعطوه خراج كورتين من كور البصرة ما عاش. وبينما كان الإمام الحسن عليه السلام يفاوض فى الصلح كان عبُيد الله بن عباس يتعجل السلم لنفسه ويترك جيشه إلى معاوية دون أن يستخلف عليه أحدًا. رشاه معاوية بالمال، فلم يستطع أن يعصى المال. وكذلك انحرف عبدالله بن عباس عن الإمام علىّ عليه السلام، وانحرف عبيد الله بن عباس عن الإمام الحسن عليه السلام. كلاهما ينحرف عن صاحبه فى أشد الأوقات حرجًا واعسرها عسرًا. ونهض قيس بن سعد بأمر هذا الجند، حتى جاءه

أمـر الإمام الحسن عليه السلام بالدخـول فى طاعة مـعاويـة. فأظهـر الناس على ذلك وخيَّرهم بين أن يدخلوا فيـما دخل فيه إمامهم أو يقاتـلوا عدوهم على الحق بغير إمام. فـاختاروا العـافية، ووضعـت الحرب أوزارها. وفتحـت الطريق لمعاوية إلى الكوفـة، فـدخلها مـوفـوراً، وبايع له الناس ولم يبـايع قـيس بن سـعد إلابعـد خطوب[1].

لقد كان الإمام الحسن والحسين عليهـما السلام يعودان بالكثير منها على نفر من الذين فقدوا ثرواتهم فى سـبيل القضية التى ناصـروا فيها الإمام وكـانا يُغدقان برَّهما ونَداهما على أولى الأرحـام، وعلى الفقراء والمساكين. لقـد انفرد «الحسن» بأنه الرجل الذى قاسَم اللـه مالَه ثلاث مرات وخرج عنـه كله مرتين، ورجل هذه شيمته، لايطلب المال ليُـترف به، إنما يطلبه ليؤدى به حقوقًا كثـيرة، أهونُها كفالة الأرامل والأيتام الذين اسـتشهد أزواجهم وآباؤهم وهم يقـاتلون تحت راية الإمام. فمن أجل تلك الحقوق، ومن أجل شـغَفه بالخير والبر اشترط لنفـسه ولأخيه وَفْرة العطاء. وحسبنا فى هذا المقام شهادة «معاوية» نفسه، فذات يوم أعدَّ أحمال الهدايا التى كان يرسلها بين الحين والحين لِصفـوة الصحابة فى مكة والمدينة وبينما القافلة تتهيأ للسفر، نظر معاوية فيمن حوله وقال لهم: «إن شئتم أخبرتكم بما يصنع القوم بهذه الهدايا» ثم راح يسمى بعض الأسماء، ويسوق الحديث عنها، حتى جاء ذكر «الإمام الحسن والحسين عليهما السلام» فقال:

«.. وأما الحسن، فلعلَّه يدَع لزوجاته بعض الطيِّب، ثم يترك لمن حوله كل شىء. وأما «الحـسين» فيبـدأ بأيتام الذين قُتلوا مع أبيـه فى صفِّين، فـإن بقى بعد ذلك شىء نحرَ بـه الجُزر، وسقى به اللبن» أجل . هذه شـهادة «مـعاوية» وفيـها فصل الخطاب، ومن فصل الخطاب أيضًا، أن العطاء الجزيل الذى فُرض لهما، لم يكن يكفيهـما، مع أنهما لم يُعرف عنهـما قط عيش المترفين ولا حيـاة المسرفين. ولقد تراكم على «الإمام الحسن عليه السلام» دَين ثقيل، وانتهـز معاوية الفرصـة فعرض

---

1 ـ طه حسين ـ نفس المرجع ـ ص179.

عليه قدراً كبيراً من المال يقضى به ديونه، نظير بيعه عين ماء كانت للإمام «على ﷺ» بالمدينة، وكان الإمام قد أهداها فقراء المدينة وأهلها، يرتوون منها بغير حساب ورفض «الإمام الحسين ﷺ» هذا العرض. ففيم إذن كانت هذه الديون رغم وفرة العطاء لقوم لايحيَون فى ترف ولا فى سرف. إنها كانت بسبب حقوق مذخورة، وعطايا مبرورة تعودّها الكرام، أبناء الكرام. قبل معاوية شروط الصلح من فوره، وتنازل له الإمام الحسن ﷺ عن الخلافة. وسارع معاوية إلى الكوفة ليتلقى بيعة أهل العراق، وفى الجمع الحاشد من المسلمين، دعا «الإمام الحسن ﷺ» لإلقاء كلمة، فوقف «الإمام الحسن ﷺ» والأبصار شاخصة إليه، والأنفاس معلَّقة بشفتيه اللتين لايدرى أحد عن أى نوع من القول ستنفرجان وجاءت كلماته فى تلك المناسبة على وِفاق سعيد ومجيد مع صاحبها العظيم قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه: [1]

«أيها الناس إن الله هداكم بأوَّلنا وحقَن دماءكم بآخرنا، ألا إن أكْيَس الكَيْس التُّقى، وإن أعجز العجز الفُجور وإن هذا الأمر الذى اختلفت فيه ومعاوية: إما أن يكون أحقّ به منى، فقد تركتُه له وإما أن أكون أحقّ به منه فقد تركته لله عز وجل، ولخير أمة محمد ﷺ وحقْن دمائها» ثم التفتَ صوْب معاوية وقال: (وإن أدرى لعلَّه فتنة لكم ومتاع إلى حين).

إن العظمة الإنسانية لتكشف عن أصالتها فى مثل هذه المواقف، وبمثل هذه الكلمات وحيث يلتقى الصدق، والقوة، والترفع، والحكمة أسعد لقاء. ومضى كل إلى سبيله. معاوية إلى الشام عاصمة ملكه العريض و«الإمام الحسن ﷺ» إلى المدينة، قرير العين بما حقن من دماء، عظيم الغُنْم بما بذل من فداء مردِّداً كلماته المضيئة هذه: «لقد كانت جَماجِم العرب بيدى فى العراق، تُسالم من سَالَمْت وتحارب من حاربت. ثم تركتُها ابتغاء وجه الله» ولقد وفَّى بعهده مع معاوية. ووفَّى بالعهد معه أخوه «الإمام الحسين ﷺ» الذى كان قبل إبرام الصلح من أشدّ

---

1 ـ خالد محمد خالد ـ أبناء الرسول فى كربلاء ـ ص53.

مُعارضيه. تُرى، هل سيَفى معاوية؟ أم إغراء السلطة المطلقة سيجشِّمه مشقَّة الوفاء على أية حال، فقد أدّى الإمام الحسن ﷺ ما اعتقده واجبًا، وأعطى من ذات نفسه ما هو أهلٌ له. لقد ترك للآخرين دنياهم، وعكَف هو على الطاعة، والعبادة والخير. عابدًا: يحب الله ويخشاه، ويخرج إلى الحج من المدينة إلى مكة أعوامًا كثيرة ماشيًا على قدميه والنجائب تُقادُ بين يديه، حتى إذا سئل عن سبب هذا الإجهاد لنفسه أجاب. «إنى أستحى أن ألقى ربى، ولم أمشِ على قدمىَّ إلى بيته». جوادًا: لم يكن يُبقى من ماله شيئًا، لايعرف مكروبًا إلا فرَّج كُربته، ولا غارمًا إلى قضى دَينه. سيِّدًا: لايعرف الدنيَّة ولا يقبلها، ولا يعرف السوءُ طريقًا إلى لسانه ومقاله. يقول «محمد بن إسحاق»: «ما رأيت أحدًا كان إذا تحدث تمنيت الا يسكت، مثل الإمام الحسن بن على عليهما السلام وما سمعت منه كلمة سوء قط وإن أشد كلمة سمعتها منه، هى تلك التى قالها حين وقعت خصومة بينه وبين عمرو بن عثمان، فقال الإمام الحسن ﷺ: ليس له عندنا إلا ما رغم أنفه. تلك أشد كلمة سمعته يقولها» ولقد تحدث ـ رضى الله عنه ـ راسمًا للناس صورة المؤمن المثالى الرشيد، فقال: [1]

«إنه مَن تصغُر الدنيا فى عينه ويخرج على سلطان بطنه، وفرجه، وجهله. لايسخَط ولايتبرّم. إذا جالس العلماء، كان على أن يسمع أحرصَ منه على أن يتكلم وإذا غُلب على الكلام، لم يُغلب على الصمت. لايشارك فى ادِّعاء، ولايدِخل فى مِراء. لايغفُل عن إخوانه، ولا يختصّ نفسه بخير دونهم. وإذا تردَّد بين أمرين، لايَدرى أيهما أقرب إلى الحق. نظر أيهما أقرب من هواه، فخالفه واتقاه».

هذه خلاصة لدستور حياته ومنهاج نفسه، أفلا يكون قرير العين إذن بهذا السلام الذى سيوفر له فرصة العكوف على فضائله ومزاياه يُنمِّيها ويزكِّيها. بلى. ولقد استقر وأخوه وآل بيتهما بمدينة رسول الله. ولم تكد تنزاح عن الناس فى شتى الأقطار غمرات ما كانوا فيه من خلاف صراع، حتى راحت أرواحهم تهفو

1 ـ خالد محمد خالد ـ نفس المرجع ص55.

نحو المدينة، وخواطرهم تطوّف من قريب وبعيد حول ريحانتى رسول الله. يُظهرنا التأمل فى هذا كله على اتجاه نفوس الناس وقلوبهم فى ذلك الوقت إلى الدنيا أكثرَ من اتجاهها إلى الدين. وقد يظهرنا ذلك أيضًا على أن الإمام الحسن وأباه عليهما السلام، وهذه القلة القليلة من أشباههما، إنما كانوا يعيشون غُرباء فى هذه البيئة الجديدة القديمة، أو فى هذا الخلف الذى خلف من المسلمين. جماعة من هذه القلة كرهوا الفتنة واستيأسوا من بيئتهم ففروا بدينهم إلى العزلة وآثروا الله على الناس، وآخرون رأوا أن الدين لم يُوحَ به إلى النبى ليؤثر به نفسه ويفرّ به من البيئة التى ملأها الفساد، وإنما أوحى به ليصلح من أمر الناس ما فسد، ويقوّم من حياتهم ما اعوج، ويحملهم على الجادة، ويهديهم الصراط المستقيم. وقد نهض النبى بأمر ربه، لم يفر بدينه إلى غار حراء، ولم يعتزل به أهل مكة، وإنما واجه قومه بما كرهوا، عنُف بهم وعنفوا به، وألحّ فى دعائهم إلى الخير وألحّوا فى المكر به والكيد له والتأليب عليه، حتى أخرجوه من وطنه، فلم يثبط ذلك من همه، ولم يُفل من حده، ولم يكن يحفل فى سبيل الدين بأن يضع خصمهُ الشمسَ فى يمينه والقمر فى يساره إن استطاعوا، وكانت له العاقبة. فحمل الناس على الخير وهداهم إلى الدين، لم يشفق من تبعة، ولم يخف مكروهًا. وقد رأى الإمام علىّ عليه السلام وأمثاله القليلون أن النبى قد سن لهم سنة فى إنفاذ أمر الله وحَمْل الناس على الحق، فمضوا على سنة النبى وصاحبيه من بعده، واحتملوا فى ذلك ما احتملوا من البلاء والعناء والقتل فى ميادين الحرب، أو القتل غيلة أثناء الخروج إلى الصلاة ولم يكن بد من أن تصير أمور الناس إلى ما صارت إليه، فقد لقى العرب غيرَهم من الأمم، ورثوا ملكهم وعرَفوا حضارتهم وبلوا ما فى حياتهم من خير وشر، ومن حلو ومرّ. وكان من الطبيعى أن تنتهى الأمور إلى إحدى اثنتين: فإما أن يقهر الغالبون فيعرّبوا هذه الأمم المغلوبة، وإما أن يقهر المغلوبون فيفتنوا هذه الأمة الغالبة. وقد فُتنت الأمة الغالبة عن كثير من أمرها، فأعرضت عن خلافتها وعن سنتها الرشيدة، ودفعت إلى الملك تقلد فيه قيصر وكسرى أكثر مما تقلد النبى والشيخين[1].

1 ـ طه حسين ـ المرجع السابق ـ ص 181.

يكفى أن نلاحظ أن أشراف أهل العراق كانوا يتصلون بمعاوية فى أيام الإمام عليّ ﷺ، يتلقون ماله ويمهدون لـه أمره. وأن تلاحظ بعد ذلك أن الإمام الحسن ﷺ لم يكد يفـرغ من البيعـة حتى فـرغ جمـاعة من الأشراف الذين بـايعوه إلى معاوية، منهم من سار إليـه فبايعه وأقام معه حتى عادوا فى صـحبته إلى العراق، ومنهم من أرسلوا إليـه الكتب ينبـئونه بضـعف الإمام الحـسن ﷺ وانتشـار أمره واختلاف الناس عليه، ويتعجلون قدومـه إلى العراق، حتى لم يتحرج معاوية من أن يتأذن فى أصحابه من أهل الشام: أن كُـتب أهل العراق قد تواترت إليه يدعونه فيها إلى أن يسير إليهم، وأن أشراف أهل العـراق قد جعلوا يُقبلون عليه ليبايعوه. وقد غيـر معاوية سياسـته فجأة تغـييراً تامًا، فأعـرض عن العنف ومال إلى الرفق وأمعن فيه. وكأنه كان يعرف عثمانية الإمام الحسن ﷺ وبغضه للفتنة وتحرجه من سفك الدماء، كما كان يعرف كـغيره من عامة الناس مكان الإمام الحسن ﷺ من النبيّ ونزوع نفسه إلى الخير وعزوفـها عن الشر فلم يكد الإمام الحسن ﷺ يكتب إليه مع جندب بن عبـدالله الأزدى ينبئه بأن الناس قد بايعـوه ويدعوه إلى الطاعة، حتى ردّ عليه معاوية ردًا رقيقًا ليس فيه شيء مما كان فى كتبه إلى الإمام عليّ ﷺ من الشدة والغلظة والتـأنيب والامتناع. وإنما كتب إليه ينبئـه: أنه لو كان يعلم أنه أقوم بالأمـر وأضبط للناس وأكيـد للعدو وأحوط على المـسلمين وأعلم بالسيـاسة وأقوى على جمع المـال منه لأجابه إلى ما سأل، لأنه يراه لكل خـير أهلا. ويقول له إن أمرى وأمرك شـبيه بأمر أبى بكر وأمركم بعـد وفاة رسول الله ﷺ. يريد أن أبا بكر وأصحاب النبى معه عرفوا لأهل البيت مكانتهم من النبيّ واستحقاقهم لكل كرامة، ولكـنهم مع ذلك صرفوا الخلافـة عنهم. وقد عاد الأمر إلى مـثل ما كان عليه بعد وفاة النبى، لم تتغير مكانة أهل البيت ولم يتغير استحقاقهم لكل كرامة، ولكن غيرهم ـ وهو معاوية ـ أقدر منهم على النهوض بأمر الخلافة وأعباء السلطان ثم وعده أن يسـوّغه ما فى بيت مـال العراق، وأن يجـعل له خراج ما يخـتار من الكور، يستعين به على مئونته ونفقاته ما عاش[1].

عاد جُندب بكتاب معاوية إلى الإمام الحسن ﷺ، وأنبأه باجتماع أهل الشام وكثرتهم وتأهبهم للمسير إليه، وأشار عليه أن يغزوهم قبل أن يغزوه. ولكنّ الإمام

1 ـ طه حسين ـ نفس المرجع ـ ص182.

الحسن عليه السلام ظلّ ساكنًا لاينشط للحرب حتى علم أن معاوية قد سار إليه، وكاد أن يبلغ حدود العـراق. هنالك نهض للقائه وجرى له مـا علمت من الأحداث. ولم يكن قعـود الإمام الحسن عليه السلام عن الحرب جُبـنًا أو فَرَقًا، وإنما كان كراهيـة لسفك الدماء من جهة، وشكًّا فى أصحابه من جهة أخرى. وقد تـبين له بعد مسيره وما كان من أمره مع الناس حين بلغ المدائن أنه لم يكن مخطئًا. ولاسيما بعد أن عرف وفود الأشراف مـن أهل العراق على معاوية، وأن الذين لم يفـدوا عليه قد كـتبوا إليه. فكـان يقول لأهل العراق: أنـتم أكرهتم أبى على الحـرب وأكرهتمـوه على التحكيم، ثم اختلفـتم عليه وخذلتموه. وهؤلاء وجـوهكم وأشرافكم يفدون على معاوية أو يكتبون إليه مبـايعين. فلا تغرونى عن دينى. ثم تعجل الصلح. فأرسل إليه معاوية عبـد الله بن عامر عامل عثمان على البصرة، وعـبدالرحمن بن سمرة فعرضـا عليه الصلح وألحّا عليـه فيه، ورغّباه بما رغـباه به مما علمت. فقـبل مبدأ الصلح وأرسل سفيـرين إلى معاوية، هما عـمرو بن سَلَمَة الهمدانى ومـحمد بن الأشعث الكندى، ليـستوثقـا من معاوية ويعلما مـا عنده. فأعطاهما مـعاوية هذا الكتاب: بسم الله الرحمن الرحيم. هذا كتاب للحسن بن علىّ من معاوية بن أبى سفيان. إنى صالحتك على أن لك الأمر من بعدى، ولك عـهد الله وميثاقه وذمته وذمّة رسوله محمد صلى الله عليه وآله، وأشد ما أخـذه الله على أحد من خلقه من عهد وعقد. لا أبغـيك غائلة ولا مكروهًا. وعلىّ أن أعطـيك فى كل سنة ألف ألف درهم من بيت المال. وعلى أن لك خراج يَسَا ودارابجرد تبعث إليهما عمالك وتصنع بهما ما بدا لك. شهد عبـدالله بن عامر وعمرو بن سلمة الكندى وعبـدالرحمن بن سَمُرة ومحـمد بن الأشعث الـكندى وكتب فى شهـر ربيع الآخر سنة إحـدى وأربعين.

ونلاحظ أن معاوية لم يبـدأ هذا الكتاب كما كان يبدأ كتـبه إلى الإمام علىّ عليه السلام: «من معاوية بن أبى سفيان إلى علىّ بن أبى طالب»، وإنما قدم فكتب: «إلى الحسن ابن على من معـاوية بن أبى سفيـان» يُظهر بذلك تكريمَ الإمـام الحسن عليه السلام وأنه يسير معه سيرة غير سيرته مع أبيه وقد عرض معاوية على الإمام الحسن عليه السلام ثلاثة أشياء: أن يجعـله ولى عهده. وأن يجعل له مـرتبًا سنويًا من بيت المال ألف ألف درهم، وأن يترك له كورتين من كـور فارس يرسل إليهما (عُمّاله) ويـصنع بهما ما

يشاء ثم أعطى على نفسه العهد المشدد المؤكد أن يؤمن الإمام الحسن ﷺ من كل غائلة. ولم يكتف الإمام الحسن ﷺ بهذه الشروط، لأن فيها شيئًا لا يملكه معاوية فى رأيه، وهو ولاية العهد. ولأن ما عدا هذا من الشروط المالية نوع من الإغراء وليس بذى خطر عند الإمام الحسن ﷺ. فبيت مال العراق فى يده، وكور فارس كلها فى يده أيضًا، وقد أهمل معاوية فى كتابه شيئًا هو أخطر من كل ما ذكر، وهو تأمين أصحاب الإمام الحسن ﷺ الذين حاربوا مع الإمام علىّ ﷺ وهموا بالحرب مع الإمام الحسن ﷺ نفسه ولذلك احتفظ الإمام الحسن ﷺ بكتاب معاوية عنده وأرسل إليه رجلا، من بنى عبدالمطلب من جهة، وبينه وبين معاوية قرابة قريبة من جهة أخرى، وهو عبدالله بن الحارث بن نوفل بن الحارث ابن عبد المطلب، وأمه أخت معاوية. فقال له ائت خالك وقل له: إن أمَّنت الناس بايعتك. وكأن الإمام الحسن ﷺ أراد أن يصطنع شيئًا من اللباقة، فاحتفظ بشروط معاوية وطلب إلى معاوية مزيداً هو تأمين الناس. ولكن معاوية كان أدهى من ذلك وأبرع كيداً. فقد أعطى ابن أخته طوماراً ختم فى أسفله وقال له: اكتب ما شئت فجاء عبدالله بن الحارث بهذا التفويض المطلق إلى الإمام الحسن ﷺ، فكتب فيه الإمام الحسن ﷺ: «هذا ما صالح عليه الحسنُ بن علىّ معاوية بن أبى سفيان. صالحه على أن يسلم إليه ولاية أمر المسلمين على أن يعمل فيها بكتاب الله وسنة نبيه وسيرة الخلفاء الصالحين. وعلى أنه ليس لمعاوية أن يعهد لأحد من بعده، وأن يكون الأمر شورى، والناس آمنون حيث كانوا على أنفسهم وأموالهم وذراريهم، وعلى ألا يبغى الحسن بن على غائلة سراً ولا علانية ولا يخيف أحداً من أصحابه، شهد عبدالله بن الحارث وعمرو بن سلمة». ثم رد عبدالله بن الحارث إلى معاوية بكتابه هذا ليُشهد عليه من شاء من أصحابه، ففعل[1].

تم الصلح، ولكنه لم يتم دون أن يترك بين الرجلين شيئًا من اختلاف الرأى وسوء التفاهم، كما يقال فى هذه الأيام. أكان الكتاب الأول الذى أرسله معاوية إلى الإمام الحسن ﷺ قائمًا يكفل للحسن ما أعطاه معاوية من الشروط، ما عدا

1 ـ طه حسين ـ نفس المرجع ـ ص184.

ولاية العهد التى لم يرضـها الإمام الحسن عليه السلام. أم سقط بهذا الكتـاب الذى كتبه الإمام الحسن عليه السلام وأمضـاه معاوية. أما الإمـام الحسن عليه السلام فقد رأى أن كـتاب معاوية الأول ظل قـائمًا، وأن معاوية قـد التزم فيه ما وعـد به من مرتب فى كل عام، ومن خـراج هاتين الكورتين للحسـن ما عـاش. وأما مـعاوية فـقد رأى أن الكتاب الثانى قد ألغى الكتاب الأول إلغاء فليس للحسن عنده إلا ما طلب من أن يكون الأمـر شورى بعـد موت مـعاوية، ومن تأمـين الناس على أنفسـهم وعلى أموالهم وذراريهم، ومن ألا يبغى الإمام الحسن عليه السلام غائلة سراً أو جهراً، ومن أن يعمل فى أمـر المسلمين بكتاب الله وسنة رسـوله وسيرة الخلفاء الصـالحين. ومن أجل اختلاف الرأى هذا طـلب الإمام الحسن عليه السلام إلى معاوية، بعـد أن استقام له الأمر أن يفى له بشروطه المالية. فأبى عليه معاوية وقال له: ليس لك عندى إلا ما شرطت لنفسك. وكأن الإمام الحسن عليه السلام أراد تحكيمًا، وكأنه أراد أن يحكم سعد ابن أبى وقاص. فلم يقـبل معاوية تحكـيمًا ولكنه على ذلك أرضى الإمـام الحسن عليه السلام بما أعطاه وما فـرض له من المال. وتكثر المؤرخون والرواة بعـد ذلك، فزعم قوم أن معـاوية وفى بالشروط للحسن ثم أغـرى أهل البصرة سراً، فطـردوا عُمَّال الإمام الحسن عليه السلام من الكورتين، وأبوا أن يدفعوا إليه شيئًا من خراجهما، وقالوا: هذا فيـؤنا وليس لأحد غيـرنا فيه حق والأمـر كما رأينـا أيسر من ذلك. والشىء الذى ليس فيه شك، هو أن معـاوية قد بَرّ الإمام الحسن عليه السلام وأرضاه بالمال، فلم يجد فى حياته عسراً ولا ضيـقًا، وإنما عاش فى المدينة عيشة الغنىّ السخى، الذى ينفق عن سعة ولا يحسب للمـال حسابًا. ومهما يكن من شىء فقـد سار معاوية إلى الكوفة مطـمئنًا راضى البال، ينشُـر من حوله الرضى والطمـأنينة. واستـقبله الإمام الحسن عليه السلام فبايعه وبايعه الناس. وكـأن معاوية أراد أن يعلن الإمام الحسن عليه السلام رضاه عن هذا الصلح واطمئنانه إلى النظام الجديد[1].

وهذا طبـيعـى لايحتـاج فـهمـه وقـبوله إلى تكـلف من تكلّف من الرواة والمؤرخين، الذين زعموا أن عمرو بن العاص هو الذى أغرى معاوية بدعوة الإمام

1 ـ طه حسين ـ نفس المرجع ـ ص185.

الحسن عليه السلام إلى أن يتكلم؛ ليظهر للناس عجزه وضعفه أو ليسوءه أمام أنصاره وشيعته. فالحسن لم يختلس الصلح اختلاسًا، ولم يستخف به من الناس، والإمام الحسن عليه السلام قد خطب الناس غير مرة فى حياة أبيه وبعد وفاته، فلم يعرف منه عيّا أو حصراً وهو بعد ذلك أو قبل ذلك من أهل بيت لم يُعرفوا قط بعيّ أو حصَر، وإنما كانوا معدن الفصاحة واللَّسن وفصل الخطاب. وقد خطب الإمام الحسن عليه السلام فقال خير ما كان يمكن أن يقال وأصدق ما كان يمكن أن يقال أيضًا، قال: «**أيها الناس إن أكيس الكيس التُّقى، وأحمق الحمق الفجور. إن هذا الأمر الذى سلمته لمعاوية إما أن يكون حق رجل كان أحق به منى فأخذ حقه، وإما أن يكون حقى فتركته لصلاح أمة محمد وحقن دمائها. فالحمد لله الذى أكرم بنا أوّلكم وحقن دماء آخركم**».

هذا الكلام قد أغضب معاوية، وأنه لام عمرو بن العاص لأنه هو الذى ألح فى أن يتكلم الإمام الحسن عليه السلام ثم هم بعد ذلك يزيدون فى كلام الإمام الحسن عليه السلام ما عسى أن يكون منه وما عسى ألا يكون ومهما يكن من ذلك فقط سخط على الإمام الحسن عليه السلام جماعة من أصحابه الذين أخلصوا له ولأبيه، وأخلصوا فى بغض معاوية وأهل الشام. ورأوا فى هذا الصلح نوعًا من التسليم لم يكن يلائم ما بذلوا أيام الإمام علىّ عليه السلام من جهد، ولم يكن يلائم كذلك ما كان فى أيديهم من قوة. فمنهم من كان يقول للحسن: يا مُذلّ المؤمنين، ومنهم من كان يقول له: يا مُذل العرب، ومنهم من كان يقول له: يا مسود وجوه العرب ولكن الإمام الحسن عليه السلام لم يحفل بشىء من ذلك، وإنما رضى عن خطته كل الرضا، رأى فيها حقنًا للدماء ووضعًا لأوزار الحرب وجمعًا لكلمة الأمة، وتمكينًا للمسلمين من أن يستقبلوا أمورهم مؤتلفين لا مختلفين ومتفقين لا مفترقين، ومن أن يفرغ أهل الثغور لثغورهم يردون عنها طمع العدو فيها وفيما وراءها، ومن أن يفرغ الجند للفتح يستأنفونه من حيث وقفته الفتنة. ويقول الرواة: إن الإمام الحسين بن علىّ عليهما السلام لم يكن يرى رأى أخيه ولا يُقرّ ميلَه إلى السلم، وإنه ألحّ على أخيه فى أن يستمسك ويمضى فى الحرب، ولكن أخاه امتنع عليه وأنذره

بوضعه في الحديد إن لم يطعْه. وليس في هذا شيء من الغرابة: فقد كان الإمام عليّ عليه السلام نفسه يتنبأ ببعض ذلك، يتحدث بأن الإمام الحسن عليه السلام سيخرج من هذا الأمر، وبأن الإمام الحسين عليه السلام هو أشبه الناس به، وربما قسا على الإمام الحسن عليه السلام شيئًا فقال: إن الحسن فتى من الفتيان صاحب جفان وخوان. وقد فرغ الإمام الحسن عليه السلام من هذا الأمر كله وارتحل بأهل بيته إلى المدينة، وترك معاوية في الكوفة يدبر دولته الجديدة كما يشاء. ولكن الإمام الحسن عليه السلام لم يكد يبعد عن الكوفة حتى أدركه رسول معاوية يريد أن يرده إلى الكوفة ليقاتل طائفة من الخوارج خرجت عليه. فأبى الإمام الحسن عليه السلام أن يعود، وقال: لقد صالحته وما أريد إلا حقن الدماء واجتناب الحرب. وانتهى الإمام الحسن عليه السلام إلى المدينة فلقى من أهلها إثر وصوله إليها مَن لامه في الصلح كما لامه فيه أهل الكوفة، فكان يقول للائميه: كرهت أن ألقى الله عز وجل فإذا سبعون ألفًا أو أكثر تشخب أوداجهم دمًا، يقول كل منهم: ياربي، فيم قُتلت. ولم يكد الإمام الحسن عليه السلام يترك الكوفة في طريقه إلى المدينة حتى أظهر معاوية لأهل العراق شدة بعد لين، وعنفًا بعد رفق فأعلن إليهم أول الأمر ألا بيعة لهم عنده حتى يكفوه بوائقهم. ويردوا عنه خوارجهم هؤلاء الذين خرجوا عليه. فمضى أهل الكوفة إلى الخوارج فقاتلوهم كما كانوا يقاتلونهم أيام الإمام عليّ عليه السلام. واستبان لهم أن أمرهم لم يتغير وأنهم كانوا يقاتلون أبناءهم وإخوانهم وأولى مودتهم ليطيعوا عليًا، ثم هم الآن يقاتلونهم ليطيعوا معاوية. ثم أعلن إليهم آخر الأمر أن ذمته بريئة ممن لم يقبل فيعطى البيعة. وأجلهم ثلاثًا فأقبل الناس من كل أوب يبايعون. وهذا كله إن دل على شيء فإنما يدل على أن معاوية صانع أهل العراق. فلما تم له ما أراد اصطنع الحزم وساس أهل العراق سياسة لم يكونوا يعرفونها من قبل فأخرجهم من الدعة التي ألفوها، وعلمهم أن طاعة الأمراء فرض لاينبغي التردد فيه أو الالتواء به، وأن من لم يُعط الطاعة فلا أمان له، وقد برئت منه ذمة السلطان[1].

ومع مرور الأيام، كان تطلع المسلمين إلى المدينة بما فيها من هدى ونور، يفوق تطلعهم إلى دمشق رغم ما فيها من دنيا وإغراء. وراحت مجالسهم وندواتهم

1 ـ طه حسين ـ نفس المرجع ـ ص187.

فى كل بلد تردد ما نقله الشقات من أصحاب الرسول عن حبه لابنيه «الإمام الحسن، والحسين عليهما السلام». كان الناس يسمعون ويتناقلون أنباء هذا الحب العظيم الذى أضفاه عليهما جدّهما النبى، فتكاد أفئدتهم تطير شوقًا إليهما حتى بعض أولئك الذين ناصبوهُما من قبلُ العداء. وراح المسلمون يرددون تلك الأحاديث التى تصور قدرَهما، والتى حباهما الرسول بها كثيراً:

«الحسن، والحسين سيدا شباب أهل الجنة. بعد عيسى ويحيى» «هذان ابناى وابنا ابنتى اللهم إنى أحبهما فأحبهما، وأحب من يُحبهما» «اللهم هؤلاء أهل بيتى فأذهب عنهم الرجس، وطهرهم تطهيراً» «الحسن، والحسين ريحانتاى من الدنيا» «حُسين منِّى، وأنا من حسيْن، أحبَّ الله من أحبَّ حُسينًا»

وهكذا استولى على الناس ولع نبيل، بتتبع أنباء حياتهما ـ مذ أهلاً على الحياة. كيف اختار الرسول بنفسه اسميهما كيف كان يداعبهما كيف كان يحزنه أن يسمع بكاءهما. وراحت الوفود من كل مصر تشدّ رحالها إلى المدينة لتلقى بها ابنى رسول الله وأحب الناس إليه، ولترتشف من حكمة «الإمام الحسين عليه السلام» الذى عكف على إلقاء الدروس والعظات بمسجد الرسول. وكانت حلقات درسه غاية فى الجلال والمهابة وصفها معاوية نفسه فقال:

«إذا دخلت مسجد رسول الله، فرأيت حلقة فيها قوم كأن على رؤوسهم الطير؛ فتلك حلقة أبى عبدالله الحسين». كذلك أخذ الشاكون من ظلم ولاة معاوية واستهتارهم، يغذون السير إلى المدينة حاملين شكواهم إلى «الإمام الحسن والحسين عليهما السلام» فيدعُوان الناس للصبر، ويرسلان لمعاوية بالنصح.

تُرى، هل سيصبر بيت أبى سفيان على هذه المكانة المتصاعدة دومًا فى قلوب الناس للحسن وأخيه وأهل بيته؟ كلا. فذات يوم، دُسَّ للإمام الحسن عليه السلام السُّم فى الطعام. ويُمسك التاريخ فى هذه الجريمة الدنيئة، بإحدى زوجاته وهى ـ جعدة بنت الأشعث بن قيس ـ كما يمسك بأصابع الغدر الأموى. ومن عجب أن الأشعث بن قيس، والد جَعْدة، كان من أبرز أنصار الإمام علىّ عليه السلام ثم كانت له

أثناء خدعة التحكيم وبعدها مواقف مشبوهة، ومحاولات مريبة كانت سببًا فى أكثر ما نزل بالإمام يومها من آلام وأخطار[1].

ومرض «الإمام الحسن عليه السلام» مرض الموت وبقيت أصالة فطرته وإيمانه متألقة، حتى تحت وطأة هذا الاغتيال الخفىّ، والسُّقم الفاجع الأليم. ففى عِلّته هذه، أخذ أخوه «الإمام الحسين عليه السلام» يُلحّ عليه كى يبوح له بمن يعتقد أو يظن أنه صاحب هذه الجريمة النكراء لكن حفيد الرسول العظيم، لاينسى مبادئه تحت سَحْق آلامه، فيسأل أخاه: «وفيمَ سؤالك عمَّن سقانى السُّم؟ أتريد أن تُقاتلهم؟ لا إنى أكِلُ أمرهم إلى الله!!» انظروا إنه حتى فى غمرة الموت لا تتخلف إرادته عن مبادئه، ويبقى رجل الأناة والسلام فيه، متفوقًا على الألم، وعلى الكراهية بل وعلى حقه العادل فى القصاص المشروع وراح يملأ أيامه الباقيات بالصلاة والدعاء، مُردِّدًا منها ذلك الدعاء الذى كان جَدّه الرسول قد علَّمه له منذ شبابه:

«اللهم اهدنى فيمن هديت، وعافنى فيمن عافَيْت، وتولَّنى فيمن تولَّيت، وبارك لى فيما أعطيت، وقنى شرَّ ما قضيت، فإنك تَقضى، ولا يُقضى عليك، وإنه لايذِلّ من والَيت ولا يعزّ مَن عاديت تباركتَ ربَّنا، وتعاليت».

لقد هداك الله ـ أبا محمد ـ وعافاك، وتولاَّك، وبارك لك فيما أعطاك وما تركتْ مقاديرك العظيمة جُرعة السّم تأخذ طريقها إليك، إلا لتستكمل بالشهادة والفداء، شرف الانتماء إلى بيت القرابين والشهداء. وبعد . فقد آن لبطل السلام أن تُزفَّ إلى الجنة روحه ولكن لاتزال أمامنا وصية يريد أن يوصى بها، فقد كان شوقه عظيمًا لأن يُدفن مع جده الرسول وكان قد استأذن «السيدة عائشة» فى ذلك، فأذنت له. الآن، وشمس حياته تميل للغروب قال لأخيه الإمام الحسين عليه السلام:

«إذا مت فادفنى مع النبى، فإنى كنت قد طلبت ذلك من عائشة وأجابتنى .. وإذا عارضك بنو أمية، فلا تراجعهم، وادفنى فى البقيع» ومن أسف أن الذى

---

1 ـ خالد محمد خالد ـ المرجع السابق ـ ص57.

توقعه قد حدث فرفض مروان بن الحكم أمير المدينة من قبل معاوية أن تُحقَّق رغبة الشهيد المسَجَّى وأنزَل إلى الشارع حرسه المسلَّح فى خسَّة ودناءة، تليقان بمروان، وبمن على شاكلة مروان. ورأى «الحسين» رضى الله عنه ذلك، فانتضى سلاحه، وصمم على إنفاذ وصية أخيه. لكنّ نفراً من الصحابة الأجلاّء ذكروه بالفقرة الأخيرة من الوصية وحمَلوه عليها: «فإن منعوك، فلا تُراجعهم، وادفنى فى البقيع» وشَرُفَ ثرى البقيع بهذا الضيف المجيد. وآبتْ إلى وطنها فى جنات الخلد، روح السيِّد وروح الشهيد[1].

وهكذا يستبعد الإمام الحسن عليه السلام من رأسه فكرة المخاطرة، ببقايا الملتزمين بالخط السياسى الإصلاحى، ممن صمدوا فى وجه الخوف والإغراء، وجسدوا ضمير الاتجاه الإسلامى وعنصر الاستمرارية فيه. وكانت المحافظة على الفئة النخبوية فى إطار ما سيعرف بحركة التشيع - أحد الافرازات المنظمة لهذا الاتجاه - من أبرز هموم الإمام الحسن عليه السلام فى ذلك الوقت، حين جاءت وثيقة الصلح مع معاوية، تضم بين شروطها إعلان العفو العام والأمان لجماعته. ولعل مواقف الإمام الحسن عليه السلام بعد اعتزاله الحياة السياسية وإقامته فى «المدينة» تصب فى هذا المسار، متجليًا ذلك فى مقاومته الدائمة لنزعات التطرف بين شيعة الكوفة، وإلزامها بالهدوء والانضباط، كون الظروف برأيه لم تتغير، وفرص النجاح ما تزال غير قريبة. من أقوال الإمام الحسن عليه السلام لوفود الكوفة بعد تنازله عن الخلافة: «ما أردت بمصالحتى معاوية إلا أن أدفع عنكم القتل، عندما رأيت من تباطؤ أصحابى عن الحرب» أو «فصافحت بقيًا على شيعتنا خاصة من القتل ورأيت دفع هذه الحرب إلى يوما»[2].

---

1 - خالد محمد خالد - نفس المرجع ص59.

2 - د. إبراهيم بيضون - من دولة عمر إلى دولة عبدالملك - ص142.

حكام أسرتي أبي سفيان وبني مروان:

الأمويون من أبى سفيان

(1) معاوية بن أبي سفيان 40 هـ الموافق 660 م.

(2) يزيد بن معاوية – 60 هـ الموافق 679 م.

(3) معاوية بن يزيد – 64 هـ الموافق 683 م.

الأمويون من بني مروان

(4) مروان بن الحكم – 64 هـ الموافق 683 م.

(5) عبد الملك بن مروان – 65 هـ الموافق 684 م.

(6) الوليد بن عبد الملك – 86 هـ الموافق 685 م.

(7) سليمان بن عبد الملك – 96 هـ الموافق 714 م.

(8) عمر بن عبد العزيز – 99 هـ الموافق 717 م.

(9) يزيد بن عبد الملك – 101 هـ الموافق 719 م.

(10) هشام بن عبد الملك – 105 هـ الموافق 723 م.

(11) الوليد بن يزيد بن عبد الملك – 125 هـ الموافق 742 م.

(12) يزيد بن الوليد بن عبد الملك – 126 هـ الموافق 743 م.

(13) إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك – 126 هـ الموافق 743 م.

(14) مروان بن محمد بن مروان – 127 هـ الموافق 744 م.

(15) سليمان بن هشام – 127 هـ الموافق 744 م.

أ - معاوية بن أبى سفيان:

هو «معاوية بن أبى سفيان بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، وأمه «هند بنت عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف»، ويلتقى نسبه من جهة أبيه وأمه مع نسب رسول الله ﷺ فى «عبد مناف»، ولقب بخال المؤمنين لأن أخته «أم حبيبة» أم المؤمنين كانت زوجًا للنبىﷺ. ولد قبل الهجرة بنحو خمسة عشر عامًا، وأسلم عام الفتح سنة (8هـ الموافق 629م)، مع أبيه وأخيه «يزيد ابن أبى سفيان» وسائر «قريش»، وشارك فى عهد «أبى بكر الصديق» فى فتوح الشام تحت قيادة أخيه الأكبر «يزيد». وعينه «عمر بن الخطاب» واليًا على الشام، بعد وفاة أخيه «يزيد» عام (18هـ الموافق 639م)؛ وظل فى ولايته مدة خلافة «عمر»، ثم أقره «عثمان بن عفان» (34 ـ 36هـ الموافق 654 - 656م) على ولايته، فاستمر فى سياسته الحكيمة، ضابطا لعمله، حارسًا لحدود إمارته، متصديا بكل حزم لأعداء الإسلام ،حبوبًا من رعيته. استقبل بعض المسلمون حكم «معاوية» استقبالا حسنًا، فكان خبيراً بشئون الحكم وأمور السياسة، تدعمه فى ذلك خبرة واسعة، وتجربة طويلة فى الإدارة وسياسة الناس، امتدت إلى أكثر من عشرين عامًا، هى فترة ولايته على الشام، وأنه كان لمعاوية نصيب كبير من الذكاء والدهاء، وسعة الأفق، وقدرة فائقة على التعامل مع الناس على قدر أحوالهم، أعداء كانوا أم أصدقاء. وقد أفرغ «معاوية» جهده فى توطيد دعائم الدولة، واتبع فى تحقيق ذلك سياسة تقوم على دعائم ثابتة، تتلخص فيما يلى:[1]

ـ العمل على تضميد جراح الأمة، وتسكين نفوسها، وتأليف قلوبها بعد فترة مضطربة من حياتها، والإحسان والتودد إلى كبار الشخصيات من شيوخ

1 ـ د. عبدالشافى محمد عبداللطيف ـ العصر الأموى ـ ص10.

الصحابة وأبنائهم، ومباشرته أعماله بنفسه. بهذه السياسة. استقرت الدولة، فأخذ «معاوية» بالشدة، واتسمت سياسته الخارجية وبخاصة تجاه الدولة البيزنطية بمواصلة الضغط عليها، ومحاصرة «القسطنطينية» ـ عاصمتها ـ أكثر من مرة، وجعلها تقف موقف الدفاع عن نفسها. وتوفى «معاوية» فى شهر رجب عام (60هـ الموافق 679م).

2 - يزيد بن معاوية (60 ـ 64هـ - الموافق 679 ـ 683م):

هو «يزيد بن معاوية بن أبى سفيان» وأمه «ميسون بنت مخول الكلبية». ولد فى «دمشق» عام (26هـ الموافق 646م) فى خلافة «عثمان بن عفان»، حين كان أبوه واليًا على الشام، فنشأ فى بيت إمارة وجاه، وقد عنى أبوه بتربيته تربية عربية إسلامية، فأرسله وهو طفل إلى البادية عند أخواله من «بنى كلب» فشب شجاعًا كريمًا، أبى النفس عالى الهمة، شاعرًا فصيحًا، وأديبًا لبيبًا، لكنه كان ميالاً إلى حياة اللهو والفجور.

توليته الخلافة

كان «يزيد» غائبًا عن «دمشق» عند وفاة أبيه فى (رجب - 60هـ الموافق 679م) فأخذ البيعة له «الضحاك بن قيس»، ولما حضر جاءته الوفود وأمراء الأجناد، لتعزيته فى أبيه وتهنئته بالخلافة، وتجديد البيعة له. وقد ترسم «يزيد» خطى أبيه، واستوعب وصيته له التى توضح له معالم طريقه السياسى، وتبين له كيفية التعامل مع المشكلات وأحوال الرعية، وهذه الوصية تعد من أهم الوثائق السياسية فى فن الحكم وإدارة الدول. حافظ «يزيد» على سلامة الدولة وهيبتها، وحمى حدودها، واستمرت حركة الفتوحات فى عهده، فوصل «عقبة بن نافع» إلى شواطئ «المحيط الأطلسى»، مخترقًا الشمال الإفريقى كله، وعبرت طلائع الفتح نهر «جيجون» لفتح بلاد «ما وراء النهر» (آسيا الوسطى). وكان يمكن لعهد

«يزيد» أن يكون امتداداً لعهد أبيه، استقراراً واستتباباً، لولا عدة حوادث خطيرة عكرت صفو الأمة الإسلامية، وزلقت بظلال سوداء على عهد «يزيد»، وطمست إنجازاته، منها حادثة استشهاد الإمام «الحسين بن على» - رضى الله عنهما - فى «كربلاء» عام (63هـ الموافق 682م)، ثم قصف وتدمير «مكة المكرمة» للقضاء على دولة «عبدالله بن الزبير» عام (64هـ الموافق 683م) ولم تطل أيام «يزيد»، فقد توفى فى شهر ربيع الأول عام (64هـ الموافق 683م)، وهو فى الثامنة والثلاثين من عمره.

3 - معاوية بن يزيد (أربعة أشهر)

هو «معاوية بن يزيد بن معاوية بن أبى سفيان»، وأمه «أم هاشم بنت أبى هاشم بن عتبة بن ربيعة»، ومع أنه لم ينهض بعمله باعتباره خليفة، فإنه أخذ مكانه فى سلسلة خلفاء الدولة الأموية، ويسميه بعض المؤرخين «معاوية الثانى»؛ لأن أباه قد عهد إليه بالخلافة بعده، طبقًا لنظام الوراثة الذى أسسه جده «معاوية»، وقد بايعه الناس بعد وفاة أبيه، لكنه أعلن فى صراحة أنه عاجز عن النهوض بمسئولية الخلافة، وعليهم أن يبحثوا عن شخص كفء من أهل الصلاح والتقوى لتحمل عبء منصب الخلافة. ولم تطل حياة ذلك الشاب الورع، حيث توفى بعد أبيه «يزيد» بنحو أربعة أشهر، أو بعد أربعين يومًا فى قول آخر.

4 - مروان بن الحكم (64 - 65هـ الموافق 683 - 684م)

هو «مروان بن الحكم بن أبى العاص بن أمية بن عبدشمس». ولد فى السنة الأولى من الهجرة، وهو ابن عم الخليفة «عثمان بن عفان» رضى الله عنه، وكان كاتبه وأمين سره، وولاه «معاوية بن أبى سفيان» فى خلافته «المدينة المنورة» أكثر من مرة، ثقة منه بقدرته وخبرته السياسية التى اكتسبها طوال عمله مع «عثمان». «كان أبوه قد أسلم عام الفتح، ونفاه رسول الله ﷺ إلى الطائف لأنه يتجسس

عليه، ورآه النبى ﷺ يومـا يمشى ويتـخلج فى مشيـه كأنه يحكيه فـقال له: كن كذلك، فما زال كذلك حتى مـات. ولما توفى رسول الله ﷺ كلم عثمان أبا بكر فى رده، لأنه عمه، فلم يفعل فلما توفـى أبو بكر وولى عمر كلمه أيضا فى رده، فلم يفعل، فلـما ولى عثـمان رده وقال: إن رسـول الله ﷺ وعدنى أن يرده إلى المدينة، فكان ذلك مما أنكر الناس عليه». «لما مات بويـع لولده عبدالملك بن مروان فى اليـوم الذى مات فيـه وكان يقـال له ولولده بنو الزرقاء، يقـول ذلك من يريد ذمهم وعيـبهم، وهى الزرقاء بنت موهب جدة مـروان بن الحكم لأبيه وكانت من ذوات الرايات التى يستـدل بها على بيوت البـغاء، فلهذا كانوا يذمـون بها، ولعل هذا كان منهـا قبل أن يتـزوجها أبو الـعباس بن أمـية والد الحكم، فـإنه كان من أشراف قريش»[1].

اضطرب أمر «بنى أمية» بعد رفض «مـعاوية بن يزيد» أن يتولى الخلافة، أو يعهد بالأمر إلى أحد من أهل بيته، وفى هذه الأثناء أعلن «عبدالله بن الزبير» نفسه خليفة للمسلمين عام (64هـ) فى «مكة»، فبايعته «العراق» و«مصر»، حتى الشام نفسها معـقل الأمويين بايعه معظم أقاليمها، وبدا الأمـر كما لو أن دولة الزبيريين قامت، ودولة الأمـويين بادت. كان «مروان بن الحكم» وابنه يعيـشون فى «المدينة المنورة» فأخـرجهم منها «عبـدالله بن الزبير» فرحلوا إلى الشام، حـيث تجمع هناك كل أنصار «بنى أمـية» وولاتهم، من أمثـال: «عبيد الله بن زياد»، و«الحـصين بن نمير»، فأخذوا يشجعون «مروان» على تحمل قيادة البيت الأموى، ومنع دولتهم من السقوط. وبعد مداولات طويلة بين زعماء القبائل استغرقت عدة شهور عقد مؤتمر فى «الجـابية» بالقـرب من «دمـشق»، فى شهـر ذى القـعدة عـام (64هـ الموافق 683م)، بويع فيه «مروان بـن الحكم» بالخلافة، باعتباره أكبـر أبناء البيت الأموى

1 ـ د. عبدالله فهد النفيسى ـ المرجع السابق ص92 وانظر: ابن الأثير ج4 ص193.

سنًا، وأكثرهم تجربـة. كان على «مروان» بعد بيعته أن يثبت جدارته بهذا المنصب وأهليتـه له، بأن يسترد نفوذ «بنى أمـية» وسلطانهم فى الشام، معـقلهم الرئيسى، الذى خضع مـعظمه لعبـدالله بن الزبير، ومن ثم خاض «مـروان» مع أنصار «ابن الزبير» معركة كبيرة فى «مرج راهط»، شرقى «دمشق» فى نهاية عام (64هـ الموافق 683م)، كان النـصر فيـها حليف «مـروان»، وبداية الطريق لاستعادة الأمـويين لدولتهم التى كانت قاب قوسـين أو أدنى من الزوال. ولم يضع «مروان» وقتًا بعد هذا الانتصار، فعـاد إلى «دمشق» حيث تلقى وفود المهنئين والمبايعـين، وبعد فترة قصـيرة اطمـأن فيهـا على استـقرار الأوضاع فـى الشام ترك ابنه «عبـدالملك» فى «دمشق» نائبًا عنه فى حكمها، وتوجـه إلى «مصر» التى كانت تحت حكم «عبدالله ابن الزبير»، فاستردها بسهولة، وأقام بها نحو شهرين، رتب فيها أوضاعها، وعين ابنه «عبدالعـزيز» واليًا عليها، وعـاد هو إلى «دمشق»، ليستـأنف صراعه مع «ابن الزبيـر»، لكن الموت عـاجله سنة (65هـ الموافق 684م) بعـد حكم دام عـشـرة شهور[1].

5 -عبدالملك بن مروان (65 -86هـ الموافق 684 - 705م)

فى هذه السنة أمر مروان بن الحكم بالبـيعة لابنيه عبد الملك وعـبد العزيز. وكانِ السبب فى ذلك أن عمرو بن سعيد بن العاص لما هزم مصعب بن الزبير حين وجهه أخوه عبدالله إلى فلسطين رجع إلى مروان وهو بدمشق قد غلب على الشام ومصر، فبلغ مروان أن عمرا يقول: إن الأمـر لى بعد مروان، فدعا مروان حسان ابن مالك بن بحدل فأخبره أنه يريد أن يبايع لابنيه عبدالملك وعبدالعزيز وأخبره بما بلغه عن عمـرو فقال: أنا أكفيك عمـرا، فلما اجتمع الناس عند مروان عـشيا قام حسان فقال: إنه قد بلغنا أن رجالا يتمنون، قوموا فبايعوا لعبد الملك وعبدالعزيز، فبايعوا عن آخرهم».

---

1 - د. عبدالشافى محمد عبداللطيف - نفس المرجع - ص12.

ذكر موت مروان بن الحكم وولاية ابنه عبدالملك (65هـ الموافق 684م)

«في شهر رمضان من هذه السنة مات مروان بن الحكم. وكان سبب موته أن معاوية بن يزيد لما حضرته الوفاة لم يستخلف أحدا، وكان حسان بن بحدل يريد أن يجعل الأمر من بعده في أخيه خالد بن يزيد وكان صغيرا وحسان خال أبيه فبايع حسان ابن الحكم وهو يريد أن يجعل الأمر بعده لخالد، فلما بايعه هو وأهل الشام قيل لمروان تزوج أم خالد وهي بنت أبي هاشم بن عتبة، حتى يصغر شأنه فلا يطلب الخلافة، فتزوجها فدخل خالد يومًا على مروان وعنده جماعة وهو يمشي بين صفين: فقال مروان: والله انك لأحمق تعال يا ابن الرطبة الأست يقصر به ليسقطه من أعين أهل الشام. فرجع خالد إلى أمه فأخبرها، فقالت له: لا يعلمن ذلك منك إلا أنا، أنا أكفيكه فدخل عليها مروان فقال لها: هل قال لك خالد في شيئا؟ قالت: لا، إنه أشد لك تعظيما من أن يقول فيك شيئا. فصدقها ومكث أياما، ثم إن مروان قام عندها يوما فغطته بوسادة حتى قتلته، فمات بدمشق وهو ابن ثلاث وستين سنة وقيل إحدى وستين وأراد عبدالملك قتل أم خالد فقيل له: يظهر عند الخلق أن امرأة قتلت أباك، فتركها»[1].

خبر ولاية الحجاج بن يوسف العراق: في هذه السنة (75هـ الموافق 649م) ولى عبدالملك الحجاج بن يوسف العراق دون خراسان وسجستان، فأرسل إليه عبدالملك بعهده على العراق وهو بالمدينة وأمره بالمسير إلى العراق، فسار في اثني عشر راكبا على النجائب حتى دخل الكوفة حين انتشر النهار فجأة، وقد كان بشر بعث المهلّب إلى الخوارج، فبدأ الحجاج بالمسجد فصعد المنبر (فقال): إني والله يا أهل العراق ما أغمز كتغماز التين ولايقعقع لي بالشنان، ولقد مررت عن

---

1 ـ د. عبدالله فهد النفيسي ـ عندما يحكم الإسلام ص91 وانظر ابن الأثير ج4 ص981 ـ 194 ـ الطبري ج7 ـ ص 83.

ذكاء وجـريت إلى الغاية القـصوى. ثم قـرأ: (ضرب الله مـثلا قرية كـانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فـكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون). وأنتم أولئك وأشباه أولئك، إن أمير المؤمنين عبدالملك نثر كنانته فعجم عيدانها فوجدنى أمرها عودا وأصلبها مكسرا فوجهنى إليكم ورمى بى فى نحوركم، فإنكم أهل بغى وخلاف وشقاق ونفاق، فإنكم طالما أوضعتم فى الشر وسننتم سنن الغى فاستوثقوا واستقيموا، فوالله لأذيقنكم الهوان ولأمرينكم به حتـى تدرّوا، ولألحونكم لحـو العود، ولأعـصبنكم عـصب السلمة حـتى تذلّوا، ولأضربنكم ضرب غـرائب الإبل حتى تذروا العصيان وتنقـادوا، ولأفرعنكم قرع المدرة حـتى تلينوا، إنى والله مـا أعـد إلا وفـيت، ولا أخلق إلا فـريت. وهذه الجماعـات ولايركبن رجل إلا وحده، أقسم بالله لتقبـلن على الإنصاف، ولتدعن الإرحاف وقـيلا وقال وما تقـول وما يقول وأخبـرنى فلان، أو لأدعن لكل رجل منكم شغلا فى جـسده، فيم أنتم وذاك؟ والله لتستقـيمن على الحق أو لأضربنكم بالسيف ضربا يدع الـنساء أيامى، والولدان يتامى، حتى تذروا السـمهى، وتقلعوا عن هواها، إلا أنه لو ساغ لأهل المعصـية معصيتهم مـا جبى فىء ولا قوتل عدو ولعطلت الثغور ولو أنهم يغزون كرها ما غزوا طوعا[1]

خبر ما كان بين أنس بن مالك والحجاج: «وقتل مع ابن الجارود عبدالله ابن أنس بن مالك الأنصارى، فقال الحـجاج: ألا أرى أنسا يعين علىّ؟ فلما دخل البصـرة أخذ مـاله، فحـين دخل عليه أنس قـال: لا مرحبـا ولا أهلا بك يا ابن الحبشيـة! شيخ خلال جوال فى الفتن مرّه مع أبى تراب ومـره مع الزبير ومره مع ابن الجـارود أما والله لأجـردنك جـرد القضـيب، ولأعـصبنك عـصب السلمـة

---

1 ـ د. عبدالله فهـد النفيسى ـ نفس المرجع ـ ص94 ـ وانظر ابن الأثير ج4 ص375 الطبرى ج7 ـ ص210.

ولأقلعنك قلع الصمغة. فقال أنس: من يعنى الأمير؟ فقال: إياك أعنى أصم الله صداك، فرجع أنس فكتب إلى عبدالملك كتابا يشكو فيه الحجاج وما صنع به، فكتب عبدالملك إلى الحجاج: أما بعد يا ابن أم الحجاج فإنك عبد طمت بك الأمور فعلوت فيها حتى عدوت طورك وجاوزت قدرك، يا ابن المستفرمة بعجم الزبيب لأغمزنك غمزة كبعض غمزات الليوث الثعالب، ولأخبطنك خبطة تود لها أنك رجعت فى مخرجك من بطن أمك، أما تذكر حال آبائك فى الطائف حيث كانوا ينقلون الحجارة على ظهورهم ويحتفرون الآبار بأيديهم فى أوديتهم مياههم؟ أنسيت حال آبائك فى اللؤم والدناءة فى المروّة والخلق؟ وقد بلغ أمير المؤمنين الذى كان منك إلى أنس بن مالك جرأة وإقداما وأظنك أردت أن تسبر ما عند أمير المؤمنين فى أمره فتعلم إنكاره ذلك وإغضاءه عنك، فإن سوغك ما كان منك مضيت عليه قدما، فعليك لعنة الله من عبد أخفش العينين أصك الرجلين، ممسوح الجاعرتين. ولولا أن أمير المؤمنين يظن أن الكاتب أكثر فى الكتابة عن الشيخ إلى أمير المؤمنين لأرسل من يسحبك ظهرا لبطن حتى يأتى بك أنسا فيحكم فيك. فأكرم أنسا وأهل بيته واعرف له حقه وخدمته رسول الله ﷺ، ولاتقصرن فى شىء من حوائجه ولا يبلغن أمير المؤمنين عنك خلاف ما تقدم فيه إلكه من أمر أنس وبره وإكرامه فيبعث إليك من يضرب ظهرك ويهتك سترك ويشمت بك عدوك، والقه فى منزله متنصلا إليه، وليكتب إلى أمير المؤمنين برضاه عنك إن شاء الله، والسلام».

خبر خطبة عبدالملك فى الحج: «وحج عبد الملك بالناس (75هـ الموافق 694م) فخطب الناس بالمدينة فقال بعد حمد الله والثناء عليه: أما بعد فإنى لست بالخليفة المستضعف، يعنى عثمان، ولا بالخليفة المداهن، يعنى معاوية، ولا بالخليفة المأفون، يعنى يزيد، ألا وإنى لا أدارى هذه الأمة إلا بالسيف حتى تستقيم لى قناتكم، وإنكم تحفظوننا أعمال المهاجرين الأولين ولاتعملون مثل أعمالهم،

وإنكم تأمروننا بتقوى الله وتنسون ذلك من أنفسكم، والله لا يأمرنى أحد بتقوى الله بعد مقامى هذا إلا ضربت عنقه. ثم نزل».

خبر عبدالملك يفرض البيعة لأولاده: «كتب الحجاج إلى عبدالملك يزين له بيعة الوليد وأوفد فى ذلك وفدا فلما أراد عبدالملك خلع عبدالعزيز والبيعة للوليد كتب إلى عبدالعزيز: إن رأيت أن يصير هذا الأمر لابن أخيك. فأبى، فكتب إليه ليجعل الأمر له ويجعله له أيضا من بعده، فكتب إليه عبدالعزيز: إنى أرى فى ابن أبى بكر ما ترى فى الوليد، فكتب إليه عبدالملك ليحمل خراج مصر. فأجابه عبد العزيز: إنى وإياك يا أمير المؤمنين قد بلغنا سنا لم يبلغها أحد من أهل بيتك إلا كان بقاؤه قليلا، وإنا لاندرى أينا يأتيه الموت أولا، فإن رأيت أن لاتفسد على بقية عمرى فافعل. فرق له عبد الملك وتركه، وقال للوليد وسليمان: إن يرد الله أن يعطيكما الخلافة لايقدر أحد من العباد على رد ذلك. فقال عبدالملك: اللهم إنه قطعنى فاقطعه. فلما مات عبدالعزيز قال أهل الشام: رد على أمير المؤمنين أمره. فلما أتى خبر موته إلى عبدالملك أمر الناس بالبيعة لابنيه الوليد وسليمان، فبايعوا وكتب بالبيعة لهما إلى البلدان. وكان على المدينة هشام بن اسماعيل فدعا الناس إلى البيعة فأجابوا، إلا سعيد بن المسيب فإنه أبى وقال: لا أبايع وعبدالملك حى، فضربه هشام ضربا مبرحا وطاف به تبّان شعر حتى بلغ رأس الثنية التى يقتلون ويصلبون عندها ثم ردوه وحبسوه»[1]

«كان عبدالملك بن مروان أراد أن يخلع أخاه عبدالعزيز من ولاية العهد ويبايع لابنه الوليد بن عبدالملك، فنهاه عن ذلك قبيصة بن ذؤيب وقال: لاتفعل فإنك تبعث على نفسك صوت عار ولعل الموت يأتيه فتستريح منه. فكف عنه

1 ـ د. عبدالله فهد النفيسى ـ نفس المرجع ص96 وانظر ابن الاثير ج4 ص514، الطبرى ج8 ص55.

ونفسه تنازعه إلى خلعه. فدخل عليه روح بن زنباع وكان أجل الناس عند عبدالملك، فقال: يا أمير المؤمنين لو خلعته ماتنطح فيه عنزان، وأنا أول من يجيبك إلى ذلك. وقال: نصبح إن شاء الله. ونام روح عند عبدالملك، فدخل عليهما قبيصة بن ذؤيب وهما نائمان، وكان عبدالملك قد تقدم إلى حجابه أن لا يحجبوا قبيصة عنه، وكان إليه الخاتم والسكة تأتيه الأخبار قبل عبدالملك والكتب. فلما دخل سلم عليه، وقال: آجرك الله فى عبدالعزيز أخيك. قال: هل توفى؟ قال: نعم، فاسترجع ثم أقبل على روح وقال: كفانا الله ما كنا نريد. وأمر عبدالملك الناس بالبيعة لابنيه الوليد وسليمان، فبايعوا وكتب بالبيعة لهما إلى البلدان.

ولد «عبدالله بن مروان بن الحكم» فى «المدينة» عام (26هـ الموافق 684م) فى خلافة «عثمان بن عفان»، ونشأ بها نشأة علمية، وتتلمذ على كبار الصحابة، من أمثال «عبدالله بن عمر»، و«أبى سعيد الخدرى»، و«أبى هريرة» - رضى الله عنهم، وبرع فى الفقه حتى عد من فقهاء «المدينة»، وقد تواترت الأخبار عن فقهه وغزارة علمه ورجاحة عقله، قال عنه «الذهبى»: «ذكرته لغزارة علمه»، وقال «الشعبى»: «ما جالست أحداً إلا رأيت لى الفضل عليه إلا «عبدالملك بن مروان»، واحتج الإمام «مالك بن أنس» بقضائه. ومكث «عبدالملك» معظم حياته قبل أن يلى الخلافة فى «المدينة المنورة»، لم يغادرها إلا لحج أو لجهاد، فقد اشترك فى فتح وتحرير «المغرب العربى» فى عهد «معاوية بن أبى سفيان».

تولى «عبد الملك» الخلافة بعد وفاة أبيه فى رمضان عام (65هـ الموافق 684م)، ووجد الدولة الإسلامية قد تنازعتها خمس دول: دولته هو، وتتكون من «مصر» والشام وعاصمتها «دمشق»، ودولة «عبدالله بن الزبير» وتتكون من «الحجاز» وبعض «العراق» و«بلاد فارس»، وعاصمتها «مكة المكرمة»، ودولة للشيعة أقامها «المختار بن أبى عبيد الثقفى» فى جزء من «العراق»، وعاصمتها «الكوفة»، ودولة للخوارج الأزارقة فى إقليم «الأهواز»، جنوبى شرقى «العراق»،

ودولة للخوارج فى عمان وحضرموت. رأى «عبدالملك» أن هذه الدول التى برزت خلال الفوضى التى عـمت بعد وفاة «يزيد بن معاوية» لا رابط يجـمع بينها سوى العداء لبنى أمية، فتركهم فى البداية يأكل بعـضهم بعضًا، فاشتبك «ابن الزبير» مع «المختار الثقفى»، وقـضى عليه تمامًا حتى أرسل له جيشًا بقيـادة أخيه «مصعب بن الزبيـر»، فـتـمكـن من هزيمـتـه عـام (67هـ الموافق 686م)، وبذلك تخلص «عبدالملك» من واحد من أقوى خصومة دون أن يبذل أى جهد، ثم توجه هو على رأس جيـش استطاع أن يقـضى به على «مصـعب بن الزبيـر» عام (72هـ الموافق 691م)، ثم أرسل جيشًا بقيـادة «الحجاج بن يوسف» إلى «مكة» استطاع أن يقضى على «عـبدالله بن الزبيـر» عام (73هـ الموافق 692م)، كمـا نجح عبـدالملك فى القـضـاء على دولـتى الخـوارج، وبذلك تخلص من خـصـــومـه، وقـضى على الانقســامات التى أضـعفت الدولة الإســلامية، وأعـاد إليهـا وحدتهـا، ولذا عده المؤرخون المؤسس الثـانى للدولة الأموية، وعـدوا عام (73هـ الموافق 692م) عام الجماعة الثانى.

أظهر «عبدالملك» براعة فائقة فى إدارة الدولة وتـنظيم أجهزتها، مثلما أظهر براعة فى إعـادة الوحدة إلى الدولة الإسلامـية، فاعتـمد على أكثـر الرجال - فى عصره - مـهارة ومقدرة، وأعظمهم كـفاءة وخبرة، وسـياسة وإدارة، ومن أبرزهم «الحجـاج بن يوسف الثقـفى» الذى عهـد إليه «عـبدالملك» بإدارة القســم الشرقى للدولة، الذى تكون من «العـراق»، وكل أقاليم الدولة الفـارسيـة القديمـة، وكان «الحجـاج» عند حـسن الظن به، فبـذل أقصى طاقـته فى تثـبيت أركـان الدولة، والقضاء على كل مناوئيـها، وكذلك إخوة «عبـدالملك» الذين كانوا من أبرز ركائز دولته، ومنهم: «بشـر بن مروان»، «ومحمـد بن مروان» و«عبدالعـزيز بن مروان» الذى ولى «مصر» نحو عشرين عامًا (65 - 85هـ الموافق 684 - 704م). وتفقد «عبدالملك» أحوال دولته بنفســه وتابع أحوال عماله وولاته، وراقب سلوكهم، ولم يسمح لأحـد منهم بأن يداهنه أو ينافـقه. وأنجز أعـمالا إدارية ضـخمـة، دفعت بالدولة الإسلاميـة أشواطًا على طريق التقدم والحضـارة، تمثلت فى تعريب دواوين

الخراج فى الدولة الإسلامية كلهـا، وتعريب النقود، وتنظيم ديوان البريد، وجعله جـهازاً رقـابيا، يراقب العـمـال والولاة ويرفع إليه تقـارير عن سـير العـمل فى الولايات. قال أبو مـسهر: قـيل لعبد الملك بن مـروان فى مرضه: كـيف تجدك؟ قال: أجدنـى كما قال الله تعـالى: «ولقد جئتـمونا فرادى كمـا خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم». وقال سعـيد بن بشير: إن عبدالملك حين ثقل جعل يلوم نفـسه ويضرب يده على رأسـه، وقال: وددت أنى كنت أكتـسب يوما بيوم ما يقوتنى بطاعة الله، فذكر ذلـك لابن حازم، فقال: الحمدلله الذى جعلهم يتمنون عند المـوت ما نحن فيـه ولانتمنى عند الموت ماهم فـيه. وقال عـمران بن موسى المودب: يروى أن عبـدالملك بن مروان لما اشتد عليه مرضـه قال: ارفعونى على شرف. فـفعل ذلك. فـتنسم الروح ثم قال: يادنـيا ما أطيـبك، إن طويلك لقصير، وإن كبيرك لحقير، وإن كنا منك لفى غرور، وتمثل بهذين البيتين:

إن تناقـش يكن نقاشـك يار   بّ عذابا، لا طوق لى بالعذاب

أو تجاوزت فأنت ربّ صفوح   عن مسىء ذنـوبه كالـــتراب

يحق لعبدالمـلك أن يحذر هذا الحذر ويخاف، فإن من يـكن الحجاج بعض سيـئاته يعلم على أى شىء يقدم عليـه. قال عبـدالملك لسعيـد بن المسيب: يا أبا محـمد صرت أعمل الخـير فلا أسر بـه، وأصنع الشر فلا أساء به. فـقال: الآن تكامل فيك مـوت القلب. توفى عبدالملك بن مروان منـتصف شوال 86هـ الموافق 705م وكان عمره ستين سنة وقـيل ثلاثا وستين سنة. وأوصى بنيه فقال: انظروا مسلمة فاصدروا عن رأيه فإنـه نابكم الذى عنه تفترون ومحنكم الذى عنه ترمون، فأكرمـوا الحجاج فإنه الذى وطأ لكم المنابر ودوّح لكم البـلاد وأذلّ الأعداء وكونوا بنى أم بردة لاتدب بينكم العقـارب. وضعوا معروفكم عند ذوى الأحـساب فإنهم أصون له وأشكر لما يؤتى إليهم منه» [1].

1 ـ د. عبدالله فهـد النفيسى ـ المرجع السابق ص96 وانظر ابن الأثير ج4 ص514. والطبرى ج8 ص55.

6 - الوليد بن عبدالملك (86 - 96هـ)

هو «الوليد بن عبدالملك بن مروان». ولد عام (50هـ الموافق 670م)، وهو أكبر أبناء «عبدالملك»، الذى حرص على تربيتهم تربية إسلامية، فعهد بهم إلى كبار العلماء والصلحاء لتعليمهم وتربيتهم، وخص ابنه «الوليد» بعناية خاصة، لأنه ولى عهده، وخليفته فى حكم الدولة الإسلامية، فشب «الوليد» على الصلاح والتقوى، حافظًا للقرآن، دائم التلاوة له. تولى «الوليد» الخلافة بعد وفاة أبيه، الذى ترك له دولة واسعة الثراء، غنية بالموارد، قوية الساعد، مرهوبة الجانب، موحدة الأجزاء، متماسكة البناء، موطدة الأركان، فاستثمر ذلك على أحسن وجه فى الفتوحات الإسلامية، فاستكمل المسلمون فى عهده فتح وتحرير المغرب العربى كله، وفتحوا بلاد «الأندلس»، وأتموا فى المشرق فتح بلاد «ما وراء النهر» - آسيا الوسطى - وفتح إقليم «السند» فى «شبه القارة الهندية». وبرز فى عهده عدد من القادة الكبار، منهم من أشرف على فتح تلك البلاد، مثل: «الحجاج بن يوسف الثقفى»، ومنهم من قاد تلك الفتوحات بنفسه، مثل: «قتيبة بن مسلم الباهلى» فاتح بلاد «ما وراء النهر»، و «محمد بن القاسم الثقفى» فاتح «السند»، و«موسى ابن نصير» و«طارق بن زياد» فاتحى «الأندلس». كما نهض «مسلمة بن عبدالملك» أخو «الوليد» بمنازلة الدولة البيزنطية، ومواصلة الضغط عليها، والاستعداد لمحاصرة عاصمتها «القسطنطينية». وشهد عصره نهضة عمرانية كبرى، فأعاد بناء «المسجد النبوى» وأدخل عليه توسعات كبيرة، وعهد إلى ابن عمه والى «المدينة» «عمر بن عبدالعزيز» بمتابعة ذلك، كما بنى «المسجد الأقصى» فى مدينة «القدس»، وبنى «مسجد دمشق»، وأنفق عليه كثيرًا ليكون آية من آيات العمارة، وعنى عناية فائقة بتعبيد الطرق التى تربط بين أجزاء الدولة، التى امتدت أطرافها من «الصين» شرقًا إلى «الأندلس» غربًا، ومن «بحر قزوين» شمالا إلى «المحيط الهندى» جنوبًا وبخاصة الطرق التى تؤدى إلى «مكة المكرمة»، لتسهل سفر حجاج بيت الله الحرام.

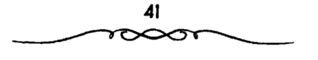
«وكـان الوليد أراد أن يخلع أخـاه سليمـان ويبـايع لولده عبـدالعزيز فـأبى سليمان، فكتـب إلى عماله ودعا الناس إلى ذلك، فلم يجـبه إلا الحجاج وقتـيبة وخواص من الناس، فكتب الوليـد إلى سليمان يأمـره بالقدوم عليه فأبطأ، فـعزم الوليد على المسير إليه ليخلعه وأخرج خيمة، فمات قبل أن يسير إليه. وكان الوليد لحانا لايحسن النحو، دخل عليه أعرابى فمت إليه بصهر بينه وبين قرابته، فقال له الوليد: مـن ختنك؟ بفتـح النون، وظن الأعرابى أنه يريد الخـتان، فقـال: بعض الأطباء. فقـال له سليمان: إنما يريد أمير المؤمنين من خـتنك؟ وضم النون. فقال الأعرابى: نعم فلان، وذكر ختنه. وعـاتبه أبوه على ذلك وقال: إنه لايلى العرب إلا من يحسن كلامهم. فجمع أهل النحو ودخل بيتا فلم يخرج منه ستة أشهر ثم خرج وهو أجل منه يوم دخل. فقال عبدالمـلك: قد أعذر. وخطب يوما فقال: يا ليتـها كانت القـاضيـة، وضم التاء، فقـال عمر بن عـبدالعزيز: عـليك وأراحتنا منك»[1].

وفى عهـده سبقت الدولة الإسـلامية كل دول الـعالم فى تقديم الخـدمات للناس مـجانًا، وبخـاصة الخـدمات الـطبيـة لأصحـاب الأمراض المزمنة، يقـول «الطبرى»: «كـان الوليد عند أهل الشام أفـضل خلائفهم، بنى المسـاجد، مسـجد دمشق، ومسجد المديـنة، ووضع المنابر، وأعطى الناس، وأعطى المجذومين، وقال لا تسألوا الناس، وأعطـى كل مقعـد خادمًا، وكل ضـرير قائدًا، وفتح فى عـهده فتـوح عظام». وتوفى الوليد بن عبـدالملك فى جمادى الآخـر عام (96هـ الموافق 714م). وخلف تسعة عشر ابنا وكـان دميما يتبختر فى مشـيته وكان سائل الأنف جدا».

7 ـسليمان بن عبدالملك (96. 98هـ الموافق 714 ـ 716م)

هو «سليمـان بن عبدالملك بن مروان». ولد فى «المدينة»، ونشـأ فى الشام، وبويع له بالخـلافة فى اليـوم الذى توفى فـيه أخـوه «الوليد بن عـبدالملك». كـان

1 ـ د. عبدالله فهد النفيسى ـ المرجع السابق ص98 وانظر: ابن الأثير ج4 ص522 ـ الطبرى ج8 ـ ص97.



«سليمـان» من أفضل أولاد «عـبد الملك»، ومن أكـبر أعـوان أخيه «الولـيد» أثناء خلافتـه، وولى له «فلسطين»، وصفه «الذهبى» بقوله: «من أمـثل الخلفاء - يعنى من أفضلهم - نشـر علم الجهاد، وكـان دينا فصيـحًا فوها، عـادلا محبًـا للغزو، استعان فى إدارة دولتـه وتصريف شئونها بعظماء الرجال وصالحيهم، من أمثال: ابن عمه «عمر بن العزيز»، و«رجاء بن حـيوة». حافظ «سليمان» على هيبة الدولة ومكانتهـا، فواصل الجهاد والـفتوحات، وأرسل جـيشًا بقـيادة أخيه «مـسلمة بن عبدالملك» لحصار «القسطنـطينية»، فدام نحو عام كامل (98 - 99هـ الموافق 716 - 717م)، وأشرف بنفسـه على هذه الحملة، حيث اتخذ مـن مدينة «مرج دابق» شمالى الشام مركز قيادة له؛ ليكون علـى مقربة من ميدان المعارك الحربية، وتوفى هناك فى شهر صفر عام (99هـ الموافق 717م)، ولذا يعده بعض العلماء أنه مات شهـيدًا، بـعد أن توج أعـماله بعـمل يدل على صلاحـه وحرصـه على مصـالح المسلمين، وهو تولية ابن عمه «عمر بن عبدالعزيز» الخلافة من بعده[1]. وكان الناس يقولون: سليمان مفتاح الخيـر، ذهب عنهم الحجاج وولى سليمان فأطلق الأسرى وأخلى السجـون وأحسن إلى الناس واستـخلف عمر بن عـبدالعزيز. وكـان موته بدابق من أرض قنسرين، لبس يومـا حلة خضراء ونظر فى المرآة فـقال: أنا الملك الفتى، فما عاش جمعة»[2].

8 -عمر بن عبدالعزيز (99 -101هـ)

هو «عمر بن عبدالعـزيز بن مروان بن الحكم»، وأمه «أم عاصم بنت عاصم ابن عـمـر بن الخطاب»، ولد فى «المدينة المنورة» عـام (62هـ الموافق 681م) على الأرجح، ونشأ بها بناء على رغبة أبيه، الذى تولى إمارة «مصر» بعد ولادة «عمر» بثلاث سنوات عام (65هـ الموافق 684م)، فنشأ بين أخـواله من أسرة «عـمر بن الخطاب»، ونهل من علم علمائها من بقـية الصحابة، وكبار التـابعين، حتى صار

1 - د. عبدالشافى محمد عبداللطيف - المرجع السابق - ص15.
2 - ابن الأثير ج4 ص522.

من كبار الـفقهاء علمًا وعـملا. ظل «عمر» فى «المدينـة» حتى عام (85هـ الموافق 704م)، وهى السنة التى توفى فيهـا أبوه، فاستدعاه عمه «عـبدالملك بن مروان» إلى «دمشق»، وخلطه بأبـنائه، وزوجه ابنته «فـاطمة»، ثم عينه واليًـا على منطقة «خناصرة» شمالى شرقى الشام، ثم عينه ابن عمه «الوليد ابن عبدالملك» واليًا على «المدينة المنورة»، فكان ذلك مـصدر سعـادة لعمر ولأهل «المديـنة» جميـعًا، ونعم الناس فى فتـرة ولايته عليـها (87 _ 93) الموافق 705م بالعدل والأمن، وأشرك معه أهل العلم والفـضل منهم فى إدارة أمور الولاية فى عام 99هـ الموافق 717م.

«وفى هذه السنة اسـتـخلف عمـر بن عـبدالعـزيز. وسبـب ذلك أن سليمـان بن عبـدالملك لما كان بدابق مرض، على ما وصـفنا، فلما ثقل عهـد فى كتاب كتـبه لبعض بنيه، وهو غلام لم يبلغ، فقال له رجاء بن حيوة: ماتصنع يا أمير المؤمنين؟ إنه مما يحـفظ الخليفـة فى قبره أن يسـتخلف على الـناس الرجل الصالح. فـقال سليمان: أنا أستـخير الله وأنظر فيه ولم أعزم، فمكث سليـمان يوما أو يومين ثم خرقه ودعا رجاء فقال: ماترى فى ولدى داود؟ فقال: هو غائب عنك بالقسطنطينة ولا تدرى أحى هو أم لا. قال: فمن ترى؟ قـال رجاء: رأيك. قال: فكيف ترى فى عمر بن عبدالعـزيز؟ قال رجاء: فقلت: أعلمه والله خيرا فـاضلا سليما. قال سليمان: هو على ذلك ولئن وليته ولـم أولّ أحدًا سواه لتكونن فتنة ولايتركونه أبدا يلى عليـهم إلا أن يجعـل أحدهم بعـده، وكان عـبدالمـلك قد عـهد إلى الوليـد وسليمـان أن يجعـلا أخاهمـا يزيد ولى عهـد، فأمر سلـيمان أن يجـعل يزيد بن عـبدالملـك بعد عـمـر وكان يـزيد غائبـا فى الموسم. قـال رجـاء: قلت رأيك. فكتب:[1].

بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من عبدالله سليمان أمير المؤمنين لعمر ابن عبدالعزيز، إنى قد وليتك الخلافة بعدى ومن بعدك يزيد بن عبدالملك فاسمعوا له وأطيعوا واتقوا الله ولا تختلفوا فيطمع فيكم. وختم الكتاب».

---

1 ـ ابن الأثير ج5 ـ ص11، الطبرى ج8 ص102.

أخذ «عمر بن عبدالعزيز» منذ أن ولى الخلافة فى بذل كل ما يملك من طاقة، وما يتمتع به من خبرة فى إصلاح أمور الدولة، واستقرار الأمن، ونشر الرخاء والعدل، وتحقيق الكفاية والوفرة فى كل أنحائها، والحرص على مال المسلمين، وإنفاقه فى وجوهه المشروعة، وحسن التصرف فى الأمور، والدقة فى اختيار الولاة والقضاة وسائر كبار رجال الدولة، وتحقيق التوازن بين طبقات المجتمع، ومجادلة الخارجين على الدولة بالحسنى، لإقناعهم بالعودة إلى حظيرة الجماعة. وقد سرت تلك الروح فى كل ناحية من نواحى الحياة فى الأمة الإسلامية، فعمها الرخاء، وسادت فيها الكفاية والعدالة الاجتماعية، حتى إن عمال الصدقات كانوا يبحثون عن فقراء لإعطائهم فلا يجدون.

رأى «عمر بن عبدالعزيز» أن الدولة اتسعت كثيراً، وأن كثيراً من المشاكل والأخطاء نشأت من ذلك الاتساع، فرأى وقف الفتوحات والاهتمام بنشر الإسلام فى البلاد التى تم فتحها، وإرسال الدعاة والعلماء لدعوة الناس بدلا من إرسال الجيوش والحملات، وقد أثمرت تلك الجهود نتائج محمودة، فأقبل أبناء الشعوب المفتوحة على اعتناق الإسلام، يجذبهم إليه سمعة الخليفة الحسنة، وسمو أخلاقه، ونبله وعدله، الذى تجاوز حدود دولته إلى غيرها من الدول، فكان موضع إعجاب وتقدير، وحمد وثناء من أهلها، وبخاصة الدولة البيزنطية. وقد استمرت خلافة «عمر» سنتين وبضعة أشهر، شهدت فيها الدولة إصلاحات عظيمة فى الداخل والخارج، وامتلأت الأرض نوراً وعدلا وسماحة ورحمة، وتجدد الأمل فى النفوس بإمكان عودة حكم الراشدين، واقعًا ملموسًا وحقيقة لا خيالا، وأن يقام المعوج، وينصلح الفاسد، ويرد المنحرف إلى جادة الصواب، إذا استشعر الحاكم مسئوليته عن الأمة أمام الله، واستعان بأهل الصلاح من ذوى الكفاءة والقدرة، ومن ثم فليس بغريب أن يطلق على «عمر» «خامس الخلفاء الراشدين»، وأن يكون موضع تقدير أشد الفرق عداء لبنى أمية كالشيعة والخوارج[1]. «توفى عمر بن عبدالعزيز

1 ـ د. عبدالشافى محمد عبداللطيف ـ نفس المرجع ـ ص16.

فى رجب سنة إحدى ومـائة وكانت شكواه عشرين يوما. ولما مرض قيل له: لو تداويت. قال: لو كان دوائى فى مسح أذنى ما مسحتها، نعم المذهوب إليه ربى، وكان موته بدير سمعان[1].

9 ـ يزيد بن عبدالملك (101 ـ 105هـ الموافق 719 ـ 723م)

هو «يزيد بن عبدالملك بن مروان»، وأمه «عاتكة بنت يزيد بن معاوية بن أبى سفيان». ولد فى «دمشق» عام (71هـ الموافق 690م) على وجه التقريب، وبويع له بالخلافة فى اليوم الذى توفى فيه ابن عمه «عمر بن العزيز» فى نهاية شهر رجب (101هـ الموافق 719م). «وفيها تولى يزيد بن عبدالملك بن مروان الخلافة، وكنيته أبو خالد، بعهد من أخيه سليمان بعد عمر بن عبدالعزيز، ولما احتضر عمر قيل له: اكتب إلى يزيد فأوصه بالأمة؟ قال: بماذا أوصيه؟ إنه من بنى عبدالملك. ثم كتب إليه: أما بعد فاتق يايزيد الصرعة بعد الغفلة حين لاتقال العثرة، ولا تقدر على الرجعة، إنك تترك ما تترك لمن لايحمدك، وتصير إلى من لايعذرك، والسلام» «وعمد يزيد إلى كل ماصنعه عمر بن عبدالعزيز مما لم يوافق هواه فرده ولم يخف شناعة عاجلة ولا إثما آجلا».

ذكر البيعة بولاية العهد لهشام والوليد (102هـ الموافق 720م): «لما وجه يزيد بن عبدالملك الجيوش إلى يزيد بن المهلب واستعمل على الجيش أخاه مسلمة ابن عبدالملك وابن أخيه العباس بن الوليد بن عبدالملك. قال له العباس: يا أمير المؤمنين إن أهل العراق أهل غدر وارجاف، وقد توجهنا محاربين، والحوادث تحدث ولا نأمن أن يرجف أهل العراق ويقولوا مات أمير المؤمنين فيفت ذلك فى أعضادنا، فلو عهدت عهد عبدالعزيز بن الوليد لكان رأيا صوابا. فبلغ ذلك مسلمة بن عبدالملك، فأتى أخاه يزيد فقال: يا أمير المؤمنين، أيهما أحب إليك أخوك أم ابن أخيك؟ فقال: بل أخى ـ فقال: فأخوك أحق بالخلافة. فقال يزيد:

1 ـ ابن الأثير ج5 ص28 ـ الطبرى ج8 ـ ص128.

إذا لم تكن فى ولدى فأخى أحق بها من ابن أخى كما ذكرت. قال فابنك لم يبلغ فبايع لهشام بن عبدالملك ثم بعده لابنك الوليد، وكان الوليد يومئذ ابن إحدى عشرة سنة، فبايع بولاية العهد لهشام بن عبدالملك أخيه وبعده لابنه الوليد بن يزيد، ثم عاش يزيد حتى بلغ ابنه الوليد، فكان إذا رآه يقول: الله بينى وبين من جعل هشاما بينى وبينك». «كان يزيد من فتيانهم، فقال يوما وقد طرب وعنده حبّابة وسلامة القس (وهما جاريتان): دعونى أطير. قالت حبابة: على من تدع الأمة؟ قال: عليك فقالت: على من تخلف الأمة والملك؟ قال: عليك والله، وقبل يدها، فخرج بعض خدمه وهو يقول: سخنت عينك فما أسخفك»[1].

تدل أخباره قبل توليه الخلافة على أنه كان يحب العلم ومجالسة العلماء، ولديه ميل إلى الاستقامة، وقد حاول بعد توليه الخلافة أن يقتدى بسلفه العظيم «عمر بن عبدالعزيز»، لكن قرناء السوء حالوا بينه وبين ذلك، وزينوا له حياة اللهو واللعب، ويعبر عن ذلك «ابن كثير» بقوله:

«فلما ولى - «يزيد بن عبدالملك» الخلافة - عزم على أن يتأسى بسيرة «عمر ابن عبدالعزيز»، فما تركه قرناء السوء، وحسنوا له الظلم». ولم تكن مناعة «يزيد» ضد الانغماس فى حياة اللهو قوية، فاستجاب لقرناء السوء ورفاق اللهو، ولولا أن الدولة الأموية كانت زاخرة بالرجال الأفذاذ، وعامرة بالأبطال من أبناء الأسرة الحاكمة لانهارت فى عصره، فقد عوض هؤلاء عدم كفاءة الخليفة لقيادة الدولة، ويأتى فى مقدمتهم أخوه: «مسلمة بن عبدالملك» فارس «بنى مروان»، وابن أخيه «العباس بن الوليد بن عبدالملك»، وابن عمه «مروان بن محمد بن مروان»، وقد نجح الأولان فى القضاء على الثورة العارمة، التى أشعلها «يزيد بن المهلب» عام (102هـ الموافق 720م)، أحد أبناء البيوتات العربية الطامحة فى الخلافة بعد ما نجح فى السيطرة على معظم «العراق»، وعرض الدولة للسقوط،

---

1 - د. عبدالله فهد النفيسى - المرجع السابق ص101 وانظر: ابن الأثير ج5 ص67 - الطبرى ج8 - ص141.

كما تصدوا لحركات الخوارج وكل مناوئى الدولة، وحافظوا على سلامتها. ولم تطل خلافة «يزيد»، فقد توفى فى أواخر شهر شعبان عام (105هـ الموافق 723م). وكانت ولايته أربع سنين وشهرا وأياما وكان مرضه السل»[1].

10 ـ هشام بن عبدالملك (105 ـ 125هـ الموافق 723 ـ 742م)

فى هذه السنة استخلف هشام بن عبدالملك لليال بقين من شعبان وكان عمره يوم استخلف أربعا وثلاثين عاما وأشهرا وكانت ولادته عام قتل مصعب بن الزبير سنة اثنين وسبعين، فسماه عبدالملك منصورا، وسمته أمه باسم أبيها هشام بن اسماعيل بن الوليد بن المغيرة المخزومى، فلم ينكر عبدالملك ذلك، وكانت أمه عائشة بنت هشام حمقاء فطلقها عبدالملك[2]. هو هشام بن عبدالملك بن مروان، رابع أبناء «عبدالملك» الذين ولوا الخلافة. ولد فى «دمشق» عام (72هـ الموافق 691م)، وبويع له بالخلافة عام (105هـ الموافق 723م). ومع أن المصادر التاريخية لم تحدثنا كثيراً عن حياته قبل الخلافة، وعمّا إذا كانت له مشاركة فى تسيير أمور الدولة أم لا، فإنها تجمع على أنه كان ذا رأى وبصيرة، وحكمة وفطنة، حازمًا ذكيًا، له بصر بالأمور، جليلها وحقيرها محشوا عقلا على حسب تعبير «الطبرى». وكان من حسن الطالع للدولة الأموية وللمسلمين أن يخلف «هشام بن عبدالملك» أخاه «يزيد»، فقد ظل فى الخلافة نحو عشرين عامًا، أدار فيها الدولة بكفاءة عالية، وأظهر حكمة سياسية فى تعامله مع الكتلتين العربيتين الرئيسيتين فى الدولة، وهما عرب الجنوب (اليمن)، وعرب الشمال الحجازيين، فلم يتحيز إلى كتلة ضد الأخرى، واحتفظ بعلاقة طيبة معهما ومع الجميع بصفة عامة، ولعل هذه السياسة هى التى كفلت للدولة الاستقرار النسبى طوال حكمه. وقد تمتع «هشام» بعديد من الصفات اللازمة لرجل الدولة، من حلم وتسامح وسعة صدر، وعدل وحزم، أما أبرز صفاته الإدارية على الإطلاق فهى قدرته الفائقة على تدبير

---

1 ـ ابن الاثير ج5 ص67 ـ الطبرى ج8 ص141.
2 ـ ابن الأثير ج5 ـ ص120 ـ الطبرى ج8 ـ ص178.

الأموال وحسن التصرف فيها، مع تحرى العدل فى جمعها وإنفاقها على حد سواء فنعمت الدولة فى عهده باستقرار مالى كبير. وأظهر «هشام» كفاءة عالية ومقدرة فائقة فى إدارة الشئون الخارجية للدولة، فحافظ على هيبتها فى عيون أعدائها، وبخاصة الدولة البيزنطية. ولم يعكر صفو الدولة فى عهد «هشام» سوى ثورة «زيد بن على بن الحسين بن على» عام (121هـ الموافق 738م)، حين حرضه العراقيون على الثورة ضد «هشام»، والخروج عليه، ثم تخلوا عنه كما فعل أسلافهم مع جده «الحسين بن على» وتركوه يلقى حتفه عام (122هـ الموافق 739م) وقد حزن هشام على قتله، لأنه كان يكره سفك الدماء. وتوفى «هشام بن عبدالملك» فى مطلع شهر ربيع الآخر عام (125هـ الموافق 742م). بالرصافة ودفن بها وكان مرضه الذبحة وكانت خلافته تسع عشرة سنة وتسعة شهور وواحداً وعشرين يوما.[1]

11 - الوليد بن يزيد بن عبدالملك (125 -126 هـ الموافق 742 - 743م)

«كانت بيعته لست مضين من شهر ربيع الآخر من السنة، وقد تقدم عقد أبيه ولاية العهد له بعد أخيه هشام بن عبدالملك وكان الوليد حين جعل ولى عهد بعد هشام ابن إحدى عشرة سنة، ثم عاش بعد ذلك فبلغ الوليد خمس عشرة فكان يزيد يقول: الله بينى وبين من جعل هشاما بينى وبينك فلما ولى هشام أكرم الوليدَ بن يزيد حتى ظهر من الوليد مجون وشرب الشراب، وكان يحمله على ذلك عبدالصمد بن عبد الأعلى مؤدبه، واتخذ له ندماء، فأراد هشام أن يقطعهم عنه فولاه الحج سنة ست عشرة ومائة، فحمل معه كلابا فى صناديق وعمل قبة على قدر الكعبة ليضعها على الكعبة وحمل معه الخمر، وأراد أن ينصب القبة على الكعبة ويشرب فيها الخمر، فخوفه أصحابه وقالوا: لا نأمن الناس عليك وعلينا معك. فلم يفعل. فى عام 126هـ قتل الوليد بن يزيد بن عبدالملك الذى يقال له

---

1 - ابن الأثير ج5 ص261 - الطبرى ج8 ص283.

الناقص فى جمادى الآخرة. وكان سبب ذلك ما تقدم ذكره من خلاعته ومجانته، فلما ولى الخلافة لم يزد من الذى كان فيه من اللهو واللذة والركوب للصيد وشرب النبيذ ومنادمة الفساق إلا تماديا، فثقل ذلك على رعيته وجنده وكرهوا أمره». «كان من فتيان بنى أمية وظرفائهم وشجعانهم وأجوادهم وأشدائهم، منهمكا فى اللهو والشرب وسماع الغناء فظن ذلك من أمره فقتل. وأشعاره حسنة فى الغزل واللهو والفسق والمجون والعتاب ووصف الخمر وغير ذلك، وقد أخذ الشعراء معانيه فى وصف الخمر فسرقوها وأدخلوها فى أشعارهم وخاصة أبو نواس فإنه أكثرهم أخذا لها. قال الوليد: المحبة للغناء تزيد فى الشهوة، وتهدم المروءة، وتنوب عن الخمر، وتفعل ما يفعل السكر، فإن كنتم لابد فاعلين فجنبوه النساء، فإن الغناء رقية الزنا، وانى لأقول ذلك على وأنه أحب إلى من كل لذة، وأشهى إلى نفسى من الماء إلى ذى الغلة، ولكن الحق أحق أن يتبع، قيل: إن يزيد بن منبه مولى ثقيف مدح الوليد وهنأه بالخلافة، فأمر أن تعد الأبيات ويعطى بكل بيت ألف درهم، فعدت فكانت خمسين بيتا فأعطى خمسين ألف درهم، وهو أول خليفة عد الشعر وأعطى بكل بيت ألف درهم. ومما شهر عنه أنه فتح المصحف فخرج: ﴿وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [سورة إبراهيم 15]، فألقاه ورماه بالسهام وقال:

تهددنى بجبار عنيد ... فها أنا ذاك جبار عنيد

إذا ما جئت ربك حشر ... فقل يارب مزقنى الوليد

فلم يلبث بعد ذلك إلا يسيرا حتى قتل». [1]

هو أول حفيد من أحفاد «عبدالملك بن مروان» يتولى الخلافة، طبقًا لنظام الوراثة الذى سار عليه الأمويون، وتعد خلافة «الوليد بن يزيد» بداية النهاية للدولة الأموية، وطليعة سقوطها؛ لأنه كان على شاكلة أبيه لهواً ولعبًا، وإذا كان أبوه قد

---

1 ـ ابن الأثير ج5 ص280 ـ 290 الطبرى ج8 ص288.

رزق من يعوض نقص كفاءته فى الحفاظ على سلامة الدولة، من إخوته وأبناء عمومته، فإن «الوليد» لم يجد مثل هذا من أفذاذ الرجال، بل ثار عليه أبناء عمومته من أبناء «الوليد بن عبدالملك» وأخيه «هشام»، وشهد عصره أول انقسام داخلى بين الأسرة الأموية وأشده خطراً. وقد حاول «الوليد» استرضاء الجند بزيادة رواتبهم، واستمالة الناس بزيادة أعطياتهم من الأموال الكثيرة التى تركها له عمه «هشام بن عبدالملك» فى خزانة الدولة، لكن ذلك لم يمنع الثائرين عليه من أبناء عمومته بزعامة «يزيد بن الوليد» من تلطيخ سمعته واتهامه بالفسق والفجور، والمبالغة فى تلك التهم والتشهير به؛ لأن «ابن الأثير» يقول: «إن خصومه نجحوا فى خطتهم، وقتلوه فى جمادى الآخرة عام (126هـ الموافق 743م)».

12 - يزيد بن الوليد بن عبدالملك (126 -127هـ الموافق 743-744م)

«فى هذه السنة بويع يزيد بن الوليد الذى يقال له الناقص، وإنما سمى الناقص لأنه نقص الزيادة التى كان الوليد زادها فى عطيات الناس، وهى عشرة عشرة، ورد العطاء إلى ما كان أيام هشام. ولما قتل الوليد بن يزيد خطب يزيد فى الناس فذمه وذكر إلحاده وأنه قتله لفعله الخبيث وقال: أيها الناس إن لكم على أن لا أضع حجرا على حجر ولا لبنة، ولا أكترى نهرا ولا أكثر مالا ولا أعطيه زوجة وولدا، ولا أنقل مالا عن بلد، حتى أسد ثغرة وخصاصة أهله بما يغنيهم، فما فضل نقلته إلى البلد الذى يليه، ولا أجمركم فى ثغوركم فأفتنكم، ولا أغلق بابى دونكم، ولا أحمل على أهل جزيتكم. . فإن وفيت لكم بما قلت فعليكم السمع والطاعة وحسن الوزارة، وإن لم أف فلكم أن تخلعونى إلا أن أتوب، وإن علمتم أحدا ممن يعرف بالصلاح يعطيكم فى نفسه مثل ما أعطيكم وأردتم أن تبايعوه فأنا أول من يبايعه. أيها الناس لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق».

ذكر بيعة إبراهيم بن الوليد بالعهد (126هـ الموافق 743م) «فى هذه السنة أمر يزيد بن الوليد بالبيعة لأخيه إبراهيم ومن بعده لعبد العزيز بن الحجاج بن

عبدالملك. وكـان السبب فى ذلك أن يزيد مرض سنة ست وعشرين ومـائة، فقيل له ليبايع لهما، ولم تزل القدرية بيزيد حتى أمر بالبيعة لهما»[1].

هو أول أموى من أم غـير عربية يتـولى الخلافة، فـأمه فارسيـة تدعى «شاه أفريد بنت فيروز بـن يزدجرد الثالث» آخر ملوك الفرس. تولى الخلافـة بعد مقتل ابن عمه «الوليد بن يزيد» عام (126هـ الموافق 743م)، وحاول أن يظهر الصلاح والتقوى، ويتـشبه بعمر بن عـبدالعزيز فى عدله وزهده، ليـمحو من أذهان الناس فعلته الشنعاء بابن عمه، لكنه لم ينجح فى ذلك، إذ اضطربت عليه الأمور، ونقم عليه الجند بعد أن أنقص أعطياتهم التى كان قد زادها الخليفة السابق، ولقبوه «يزيد الناقص». وقد اضـطربت الدولة فى عهده اضطـرابًا شديداً، وجر عليـها بفـعلته كوراث لا قبل لهـا بها، وشغل أبناء الأسرة الأموية فى صراعـات داخلية دموية، فى الوقت الذى كانوا فيه أحوج الناس إلى الوحدة والتضامن إزاء الدعوة العباسية التى نشطت استعـداداً للانقضاض على الدولة. وزاد الأمر سـوءاً أن «يزيد» عجز عن المحافظة على سياسـة التوازن بين القبائل العربية التى انتهجـها عمه «هشام بن عبدالملك»؛ فـانحاز إلى أهل «اليمن» الذين ساعدوه فـى الثورة على «الوليد»، مما أغضب «عرب الحجـاز»، فثاروا عليه فى الشام معقـل «بنى أمية»، ثم أخذ الخلل والاضطراب يسرى فى جـميع أقـاليم الدولة. وفى ظل هذه الأحداث الهـائجة، والأجواء العاصفة يتـوفى «يزيد» فجأة فى نهاية عام (126هـ الموافق 743م)، «فى هذه السنة توفى يزيد بن الوليد لعـشر بقين من ذى الحجـة، وكانت خلافتـه ستة أشهر وليلتين . . وكان موته بدمشق وكان عمره ستا وأربعين سنة وهو القائل:

أنا ابن كسرى وأبى مروان   وقيصر جدى وجدّتى خاقان

إنما جعل قيصـر وخاقان جديه لأن أم فيروز بن يزدجرد ابنة كـسرى شيرويه

---

1 ـ ابن الاثير ج5 ص291 ـ ص310 ـ الطبرى ج9 ص45.

ابن كسـرى وأمها ابنة قـيصر وأم شـيرويه ابنة خاقـان ملك الترك»[1]. توفى يزيد تاركًا الدولة غارقة فى حالة من الفوضى والغليان[2].

13 - إبراهيم بن الوليد بن عبدالملك (127هـ الموافق 744م)

على الرغم من مبايعة بعض الناس لإبراهيم بالخـلافة بعد وفاة أخيه «يزيد» الذى كان قد عهد إليه بالخلافة، فإن الأمر لم يتم له، ولم يستطع أن يمسك بزمام الأمور فى الدولة التى انفرط عقدها، لذا يقـول «الطبرى»: «كان الناس فى جمعة يسلمون على إبراهـيم بن الوليد بالخلافـة، وفى الأخرى بالإمارة، وفى الثـالثة لا يسلمون عليه لا بـالخلافة ولا بالإمارة»، كما رفـضت معظم أقاليم الشام بيـعته، وحملته هو وأخـاه «يزيد» مسئولية قتل «الولـيد بن يزيد» وما ترتب على ذلك من فتن وشرور. وفى هذه الأثناء تحرك «مروان بن محـمد بن مروان»، والى «أرمينيا» و«أذربيجان»، لإنـقاذ الدولة من السقوط والضـياع، بعد أن هاله وأفزعـه ما أقدم عليه أبناء عـمومـته، وقدم إلى «دمـشق» على رأس ثمانين ألف جندى، للقـضاء على «إبراهيم بن الوليد» الذى هرب، فدخلها فى ربيع الآخر عام (127هـ الموافق 744م)، وبايعـه الناس بالخلافة، مـؤملين إنقاذ الـدولة من الضياع، ولـكن كان للأقدار رأى آخر، فقد شاءت أن تكتب فى عهده شهادة وفاة تلك الدولة.

14 -مـروان بن مـحـمد بن مـروان بن الحكم (127 -132هـ الموافق 744 - 749م)

هو آخر خلفاء «بنى أمية»، ولى حكم «أرمينيا» و«أذربيجان» منذ خلافة ابن عمه «هشام بن عبدالملك»، وكان من أكـفأ الولاة، وأكثرهم خبرة وبصرًا بالأمور؛ فارسًا شجاعًا، بطلا مقدامًـا، غيورًا على ملك «بنى أمية». أدرك «مروان» عواقب مقتل «الوليد بن يزيد» على البيت الأموى، فـخرج من «أرمينيا» قاصدًا «دمشق»؛

1 - ابن الأثير ج5 - 310 - الطبرى - ج9 ص45.
2 - د. عبدالشافى محمد عبداللطيف - نفس المرجع - ص19.

ليثأر لمقتل «الوليد» لكن الخليفة الجديد «يزيد بن الوليد» ترضاه، ورجاه أن يرجع، ووعده بإصلاح الأحوال، فرجع مؤملا أن يفى الخليفة بوعده. غير أن الخليفة توفى فجأة، تاركًا الدولة وأحوالها مضطربة، لأخيه «إبراهيم»، الذى عجز عن النهوض بأعباء الخلافة؛ مما دفع «مروان» إلى التحرك من جديد، قاصداً «دمشق»، ليجد «إبراهيم» قد غادرها هربًا، فيدخلها، ويبايع له بالخلافة، ليقوم بآخر محاولة لإنقاذ الدولة الأموية، التى شاءت الأقدار ان تكون نهايتها على يديه. ولايستطيع احد أن يلوم مروان أو يحمله مسئولية زوال الدولة، فعوامل سقوطها كانت تتفاعل وتعمل من زمن بعيد، وكتب له أن يجنى وحده الثمار المرة لأخطاء من سبقه، على الرغم مما بذله من جهد ومثابرة، وعزم لا يلين، فحارب فى أكثر من ميدان، وصارع أحداثًا عدة، كانت كلها ضده، وأول خطر واجهه هو انقسام البيت الأموى شيعًا وأحزابًا، وإشعال أبناء عمومته الثورات العارمة ضده فى الشام والعراق، ثم انقسام القبائل العربية؛ حيث وقفت القبائل اليمنية فى وجهه، وهم الأنصار التقليديون لبنى أمية، وهبوب ثورات الخوارج الأخيرة ضد الدولة، وانفجار المشكلات فى أنحاء الدولة كلها من «الأندلس» حتى بلاد «خراسان» و«ما وراء النهر». وفى الوقت الذى يواجه فيه «مروان» كل هذه الظروف الصعبة، متنقلا من ميدان إلى ميدان، ومن جبهة إلى أخرى دون كلل أو ملل، محاولا إنقاذ الدولة، وبث روح الحياة فيها وتجديد الدماء فى أوصالها؛ تفاجئه رايات العباسيين منحدرة من «خراسان» كالسيل المنهمر، مكتسحة كل قواته فى طريقها، ولم تتوقف إلا بهزيمته وهو على رأس جيوشه فى معركة على «نهر الزاب» بالعراق، فى شهر جمادى الآخرة عام (132هـ الموافق 749م)[1].

ولم يجد «مروان» طريقًا سوى الهرب إلى «مصر»، غير أن العباسيين لاحقوه إلى هناك، واستطاع «صالح بن على بن عبدالله بن عباس»، عم أول

1 ـ د. عبدالشافى محمد عبداللطيف ـ نفس المرجع ـ ص21.

خليفة عباسى أن يقتله فى قرية تسمى «زاوية المصلوب» التابعة لبوصير الواقعة جنوبى «الجيزة»، فى ذى الحجة عام (132هـ الموافق 749م)، وبوفاته انتهت الدولة الأموية فى المشرق، وقامت الدولة العباسية، وصدق الله العظيم القائل: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: 26]

إشكالية حكم الأسرة الأموية

نلاحظ الاتجاهات السياسية فى الدولة الإسلامية بعيد وفاة الرسول، إذ كانت بداياتها الخجولة فى «السقيفة» مع ظهور أول اتجاه بزعامة «الأنصار». فقد شعر هؤلاء بأن مشاركتهم الفاعلة فى «دولة الرسول» قد لاتكون كذلك فى «دولة الخلافة» التى حظيت أو كادت بالإجماع القرشى، لمصلحة المسلمين الرواد من «المهاجرين». على أن «الأنصار» لم يحققوا، لأسباب عديدة، اتجاهًا سياسيًا مستقلا، على الرغم من وضوح موقفهم المناهض عمليًا للسلطة التى أخذت تميل لمصلحة الأسرة الأموية منذ تولى عثمان الخلافة، وبلوغ هذا الموقف ذروته من العداء فى ثورة «المدينة» على خلافة يزيد (الحرة). فقد أثبت المهاجرون أنهم القوة المعنوية والمادية المتفوقة فى الدولة الصاعدة، دون إغفال ما كان لموقعهم «التجارى» القديم، المرتبط بالنفوذ والزعامة فى الحجاز، فضلا عن موقعهم «الإسلامى» الريادى، من تأثير على المعادلة المستجدة والقدرة على إمساكها بإحكام شديد. وكان من البديهى أن يتعاطف «الأنصار» مع الاتجاه غير المنتصر فى السقيفة الذى تزعمه الإمام على عليه السلام بصورة طبيعية، فهو على الرغم من انتمائه لمجموعة «المهاجرين» التى حسمت «قرشية» الخلافة، فقد بدا واضحًا أن ثمة اتجاهًا يقوده ويلتزم بالدفاع عنه، وهو الإتجاه الإسلامى الذى كان من أبرز تطلعاته، استمرار الصيغة ـ النموذج ـ التى حققها الرسول محمد (ﷺ) فى «المدينة» والمحافظة على موروثها السياسى والاجتماعى، المتجسد فى «المؤاخاة» والمساواة والعدالة، وشتى القيم التى ظهرت فى السنوات العشر الأولى من الهجرة. لقد شدت المعاناة المشتركة «الأنصار» إلى الإمام على عليه السلام، انطلاقًا من هذا الموقع وعبر هذا الالتزام، مشكلين معًا النواة «الشعبية» للاتجاه الإسلامى الذى أخذ ينتشر مع تطور الدولة واتساعها، وما انطوى عليه ذلك من مشاكل وتناقضات، لم يكن التصدى لها على جانب من السهولة. وإذا كان الاتجاه الذى كسب معركة الخلافة فى

السقيفة، قد حقق ذلك من خلال مبادرته السريعة، واختراقه «الوسطى» للاتجاهات والكتل الأخرى، فإن ذلك لم يعد قائمًا بعد نحو سنوات قليلة فقط، بعد أن أسقط هذه المعادلة عنصران اثنان: الأول، غياب الرواد الذين عكسوا وهجهم على هذا الاتجاه وكانوا مصدر قوته، إن لم نقل مصدر وجوده، والآخر إعادة الاتجاه القبلى الاستقراطى القرشى بزعامة أبى سفيان المهزوم، تكوين نفسه مجدداً وبروزه قويًا فى أعقاب اغتيال الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه واختيار خليفة له، مما أدى إلى ذلك الفرز السياسى الواضح الذى كان عمر ونهجه الموازن من ضحاياه الكبار. وهكذا فإن الإتجاه القبلى، تظاهر بالهزيمة دون الاعتراف فعليًا بها، خصوصًا وأن سقوط مكة (8هـ الموافق 629م) تم بصورة غير قهرية، وفى ظل شىء من إعادة الاعتبار للبيت الأموى الأرستقراطى وحلفائه الذين قادوا حرب التصدى لدعوة الإسلام ودولته. ولعل السنوات العشر الأولى من قيام خلافة الراشدين فى الدولة الإسلامية الثانية، كانت فترة ترقب لزعماء هذا الاتجاه، إذ سقطت رموزهم فقط 'بوسفيان، أبو جهل، عتبة بن ربيعة، فى الوقت الذى أتيح للجيل الثانى منهم، الدخول مبكراً إلى قلب الأحداث وشغل أدوار هامة، على المستوى العسكرى (يزيد بن أبى سفيان) أو الإدارى (معاوية). وليس ثمة شك أن ارتباط معاوية بن سفيان بالولاية الشامية واتخاذه موقفًا شبه مستقل فيها، حتى فى أوج المركزية الراشدية فى عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه، قد عزز من موقعه السياسى وأعطاه حجمًا خاصًا فى الإدارة الراشدية فى الدولة الإسلامية الثانية. فما لبثت الشام أن تحولت إلى معقل عسكرى وشهدت بدايات تكوين الأسطول العربى الإسلامى، وذلك تحت مظلة التصدى للخطر البيزنطى المستهدف هذه الولاية، الذى تبين أنه لم يكن الهاجس الحقيقى للقائمين عليها، بعد أن كشفت التطورات ما يطمح إليه والى الشام من هذه القوة العسكرية الصاعدة[1].

1 ـ د. إبراهيم بيضون ـ المرجع السابق ـ ص328.

تولى معاوية بن أبى سفيان بعد وفاة أخيه يزيد على دمشق وأعمالها، ثم ولاه عمر الأردن بدلا من شرحبيل بن حسنة، فعمل معاوية على كسب رضاء الخليفة عمر عليه ليبقيه على الشام، فاهتم باستكمال فتح مدن الساحل كطرابلس وقيسارية وعسقلان وأسكنها الأربطة ووكل بها الحفظة، وعمل وفقًا لرأى عمر بن الخطاب رضى الله عنه على تحصين الثغور الإسلامية بإقامة نظام المرابطة على السواحل أثناء الصيف عندما ينفتح البحر، ورأى معاوية ضرورة اصطناع سياسة بحرية مجاراة للروم، وعمل على صناعتها فى مصر، وتهيأ له على هذا النحو إنشاء عدد كبير من السفن، واستعان فى ذلك بعمال البحر من أهل الشام ومصر، وكتب إلى الخليفة عمر يسأله فى أن يأذن له بغزو قبرص لقربها من الشام، فطلب عمر بن الخطاب من عمرو بن العاص والى مصر أن يصف له البحر، فكتب إليه: «إنى رأيت خلقًا كبيراً يركبه خلق صغير، إن ركن خرق القلوب، وإن تحرك أزاغ العقول، يزداد فيه اليقين قلة والشك كثرة، هم فيه كدود على عود، إن مال غرق، وإن نجا برق»، فلما قرأ الخليفة عمر كتاب عمرو كتب إلى معاوية يقول: «لا والذى بعث محمداً بالحق لا أحمل فيه مسلمًا أبدا». وقد امتثل معاوية لنهى الخليفة عمر إرضاء له، وترك أمر الغزو البحرى إلى فرصة أخرى. وعندما اضطر معاوية، بعد أن أصبح عاملا على الشام، إلى أن يعدل من مظهره كحاكم للبلاد إما مجاراة للحضارة البيزنطية المتغلبة على الشام أو تشبهًا بحكام الروم، حتى يفرض هيبته فى نفوس سكان الشام حسب قوله، فبدأ يتأنق فى ملبسه مثل ملوك القياصرة المسيحيين ويتخلى عن مظاهر الخشونة التى التزمها الصحابة رضوان الله عليهم، ثم أصبح لا يسير إلا فى موكب يحيط به الحراس والحجاب مثل ملوك كسرى، وقد بهت عمر عندما قدم إلى الشام، فخرج معاوية لاستقباله فى موكب حافل، ولم ترق للخليفة مشاهدة مظاهر الترف والعظمة فى هذا الاستقبال، واستنكر ذلك وقال: «أكسروية يا معاوية؟، فقال يا أمير المؤمنين إنا فى ثغر تجاه العدو وبنا إلى مباهاتهم بزينة الحرب والجهاد حاجة»، فسكت عمر ولم يخطئه لما احتج عليه معاوية بمقصد من مقاصد الحق والدين. وكان معاوية على الرغم من

اتخاذه مظاهر الأبهة والترف ممسكًا بزمام نفسـه، فلم يطلق لنفسه العنان خوفًا من شدة عمر[1].

يعود الخلاف والتنافس بين الهـاشمية والأموية إلى العصـر الجاهلى ثم أخذ شكلا أكثر عنفا بعد ظهور الإسلام، تلك الرسـالة التى جاء بها رسول الله محمد (ﷺ) الهاشمى فجهد الأمويون بوضع الصعاب فى سبيل نجاحها ولكن رسول الله محمـد (ﷺ) شق طريقه متغلبـا على الحواجز الأموية المعـترضة كافـة ناجحا فى الدعوة الإسلامية وبذلك غدا الأمويون فئة مستـضعفة عديمة القيمة ثم لا وزن لها سيـاسيـا فعـمدوا إلى العـمل سراً لكى يسـتعـيدوا مـجدهم المفـقود ومكانتـهم الأرستقـراطية الضائعة فى ظل الحكومة الإسـلامية، وكانت الحركة الانتـخابية فى السقيفة أول مناسـبة استغلوها فتحرك أبو سفيـان زعيم الحزب الأموى السرى فى الإسلام كمـا كان زعيم الحزب الأموى والكفـار قبل فتح مكة للعمل فى حـماسه ونشاطه مستغلا العناصر غير الراضـية عن نتائج الانتخاب ولكنه فشل فشلا ذريعا لما اكتشف الإمام على عليه السلام دسيـسته. على أن الحزب الأموى الأرستقراطى استفـاد من هذه المناسبة الانتـخابية شيئـين وهما، ثبوت الخلافـة فى قريش أولا، وإبعاد آل البيـت عن الحكم ثانيا، والأمويون لايحسـبون حسابًا لغيـرهم من سائر الأسر القرشية فاعتقدوا أن مصير الحكم لهم إن آجلا أو عاجلا، وهذا ما يشهد به قول أبى سفـيان بعد فوز عـثمان بالخلافـة «فو الذى يحلف به أبو سفـيان مازلت أرجوها لكم». ولنعلم مقدار نفوذهم النفسى العـميق على غيرهم من قريش فقال المسعودى: «بلغ أبا بكر رضي الله عنه عن أبى سفيان أمر فأحضره وأقبل يصيح عليه، وأبو سفيان يتملقه ويتذلل له، وأقبل أبو قحافة فسمع صياح ابنه أبى بكر فقال لقائده: على من يصيح ابنـى؟ فقال له على أبى سـفيان. فدنا مـن ابنه أبى بكر وقال له: أعلى أبى سفيان ترفع صوتك ياعتيق؟ لقـد تعديت طورك وجزت مقدارك؟ فتبسم أبو بكر رضي الله عنه ومن حوله المهاجرون والأنصار وقال له أبو بكر: يا أبت، إن الله قد

---

1 ـ د. السيد عبدالعزيز سالم ـ تاريخ الدولة العربية ـ ص602.

رفع بالاسلام قومًا وأذل به آخرين». وهذه القصة لاتحتاج إلى تعليق فيما يختص بسلطتهم على قريش ومبلغ نفوذهم، وفى دهشة أبى قحافة وجواب ابنه أبى بكر دليل على ذلك. فالذلة التى لحقتهم كما يقول أبو بكر رضي الله عنه - والمفروض فيهم أنهم الأعزاء - حملتهم حملا عنيفا على السعى الحثيث للاستحواذ على السلطة بأى ثمن وبأى وسيلة واسترداد عزتهم المدحورة[1].

يظهر أن الفشل جعل الأمويين يغيرون أسلوب العمل فعمدوا إلى تملق الخلفاء وإظهار الرغبة فى الخدمة الإدارية بإخلاص، فأكثر أبو بكر وعمر من تعيينهم فى شتى المراكز وبذلك انفسح المجال أمامهم فى سبيل العمل على ضرورة استخدام السلطة التى أصبحت فى أيديهم فهم يصرفونها على الشكل الذى يلائم مصالحهم ويخدمها، فكانت وسائلهم كثيرة ومعين أفكارهم لاينضب. فتارة يستخدمون نفوذ الحكومة وتارة يميلون إلى الإغراء والأطماع. ولم تزل الأيام تؤاتيهم وتجرى وفق أهوائهم حتى أواخر عهد عمر رضي الله عنه فقد بدأ يميل إلى بنى هاشم ميلا شديداً فهو يتوسل حين الجدب بالعباس، ويقرب ابنه عبدالله. ويشيد بسابقات الإمام على عليه السلام فى الإسلام ويقترن بابنته أم كلثوم فى أخريات أيامه ويفضى إلى عبدالله بن عباس بأشياء كثيرة عن الخلافة وأنهم -أى آل هاشم- أحق بهذا الأمر. وقد أيقن الأمويون وهم الساهرون على قضيتهم أن عمر لابد صائر إلى ترشيح الإمام على عليه السلام للخلافة وبذلك ينهار حجر الأساس من بنائهم فكان اغتيال عمر، وأن الشعوبيين كانوا يستخدمون لمآرب الأحزاب الكبيرة وكان الحزب الأموى أقوى الأحزاب القائمة وأملكهم لوسائل الإغراء فضم إليه كأدوات منفذة أبا لؤلؤة وجفينة وكعب الأحبار وسواهم وكان لكل واحد من هؤلاء دور خاص يقوم به. فهذا الاغتيال أحدث بلبلة كبيرة فى الأفكار وهيأ المجتمع لنقلة جديدة. وقد ظهرت فى سماء المجتمع برامج لا عهد للعرب بها أدت إلى زيادة التبلبل الفكرى من مثل حصر السلطات العليا فى أسرة أو قبيلة، هذه الفكرة التى روج

---

1 ـ عبدالله العلايلى ـ الإمام الحسين ـ ص245.

لها الحزب الأموى وعمل على نشرها وتعصب لها وكان رد الفعل على التمهيد لنظريتهم ظهور نظرية الخوارج بأنها لعامة العرب أو لغامة المسلمين. فنظرية الخوارج رد قوى للنظرية الأموية التى جنحوا إلى تطبيقها بغير لباقة أيقظت عنعنات العرب الآخرين فإن المعروف عن الخوارج أن أكثرهم من اليمنيين من غير الحجازيين، وزاد فى عنعنتهم حصر الصلاحية فى أسرة ثم الوراثة الملكية، فالانتقال من الديمقراطية التى هى طبيعة عربية تتصل بأسباب النفى والمزاج العقلى إلى الأرستقراطية فالملكية الوراثية، أيقظ المجتمع الإسلامى لثورات متواصلة. وكان عهد عثمان فيه نظريتان تتحاربان وهما الأموية الوراثية الملكية، والجمهورية وأشياعها جمهور العرب ومن الاحتكاك الشديد تولد العنف[1].

يدل ذلك على أن الحزب الأموى كان يعمل لأهداف ثابتة تغير السياسة دفعة واحدة ومن أساسها فى عهد عثمان الذى ترك لهم سياسة الأمور العامة وأطلق أيديهم فى كل المقدرات ولكن الشعب بدأ يستيقظ ويستفيق على أعمالهم من سباته العميق فرأى تعديًا على حقوقه ورأى انتهابًا واغتصابًا فى كل المرافق ولمس الفساد يدب فى طرق الإجراء والإدارة وشعر بالحاجة الملحة إلى الإصلاح فمضى معلنا الثورة ودق الناقوس الشعبى ولم يجد مصلحا ينسجم مع ميوله إلا الإمام على عليه السلام فترامى الشعب فى أحضانه. فالحزب الأموى كان يعمل بوحى خاص ولمآرب خاصة على منهج مقرر ورغم الظروف المختلفة التى غمرته نجد لحركاته طابعا خاصًا لايتغير، فعهد معاوية كعهد عثمان فى الجوهر السياسى عند التدقيق والعمق وميزة عهد عثمان أنه كان أكثر اتصالا بالرأى الشعبى فى السياسة العامة وذلك بسبب أنه كان التجربة الأولى من تجربات الحزب وإنه نقلة بين عهدين ثم تسنى للحزب فى الدور الثانى أى فى عهد معاوية أن يحكم مباشرة وأن يعطل الصلاحيات الشعبية ويكمم الحريات ويتحلل من كل مسؤولية أمام الشعب ولم يعترف بالرقابة الشعبية[2].

1 ـ عبدالله العلايلى ـ نفس المرجع ص247.

2 ـ عبدالله العلايلى ـ نفس المرجع ـ ص248.

وما أن توفى عمر حـتى أفصح معاوية عن نواياه فى الاستـئثار بحكم الشام كله وحقن أول مرحلة فى هذا المخطط بعد مضى عامين فقط من خلافة عثمان بن عفان، إذ أسنـد إليه الخليفة ولاية الشـام كلها، فأخذ يعـمل منذ ذلك الحين على تمكين سلطانه فى هذه الولاية مستغلا قرابتـه إلى الخليفة. وبدأ يحقق حلمه القديم فى غزو الجزر القـريبة من الساحل الشامـى، فما زال يلح على عثـمان فى غزوها حتى أذن له فى الغزو بحـراً، وأمره أن يعد فى السواحل إذا غزا أو أغزى جـيوشًا سـوى من فيـها من الرتب، وأن يقطع الرتـب القطائع ويمنحهم الأخـائذ، وأول غزوات معاوية البحرية غزوة قبرص، فقد أذن له عثمان بغزوها على شروط، منها أن يحمل معه امرأته، وأن يدعم الدفاع عن السواحل قبل خروجه فى الغزو، وألا يكره المسلمين على الغـزو معه. فحـمل معاوية معـه زوجته فاختـه بنت قرظة بن عـمرو بن نوفل، وحـمل عـبادة بن الصـامت معـه امـرأته أم حرام بنت ملحـان الأنصارية وذلك فى عام 28هـ (649م) بعد انحسار الشتاء، ففتحها معاوية وغنم المسلمون غنائم كثيرة. وعلى هذا النحو يعتبر غزو معاوية لقبرص أول غزو بحرى يقوم به المسلمون فى البحر المتوسط، ولم يكن المسلـمون قد ركبوا بحر الروم قبل هذه الغزوة. ثم استعمل معاوية على البحـر عبدالله بن قيس الحارثى الفزارى فغزا خمسين غزوة ما بين شاتية وصائفة فـى البحر ولـم يغرق فيه أحد. ثم كان انتصار الأسطول الشامى بقيادة معاوية بن أبى سفـيان والأسطول المصرى بقيادة عبدالله بن سعـد على أسطول البيزنطيـين فى واقعة ذات الصـوارى عام 34هـ الموافق 654م حداً فاصلا فى تاريخ البحر المتوسط غير مـصيره وثبت للمسلمين السيطرة البحرية على هذا البحر، وضـمن تفوقهم البحرى عـلى البيزنطيين، وكسب مـعاوية بهذا الانتصار كـسبًا أدبيًا كبـيراً دعم مكانته فى قلوب أهل الشـام بوجه خاص، وثبت قدميـه فى حكم هذه البلاد الشامية. وفى سـبيل هذا الكسب اعتمـد على القبائل اليمنية، فجعل منها فرقة خاصة زاد فى عطائها إلى مقدار الضعف، وجعلهم جنداً مستقلا لايختـلطون بسواهم، كما تقرب من القبائل اليمنيـة الغساسنة، فتزوج من ميسون بنت بجدل أم يزيد وما إن أحس بقوة مـركزه حتى ألح على عثمان، عندما

عصـفت ثورة الأمصار بـالمدينة عام 34هـ الموافق 654م، وتعرض عثـمان لخطر الاغتيال، ألح عليه أن ينتقل معه إلى دمـشق، فأهلها كانوا موالين للخليفة، وقال له غداة ودعه: «يا أمير المؤمنين، انطلق معى إلى الشام قبل أن يهجم عليك من لا قبل لك به، فإن أهل الشام على الأمر ما يزالون، ولكن عثمان رفض أن يترك دار هجرة الرسول. والظاهر أن معاوية كان يهدف من وراء دعوته للخليفة الانتقال إلى دمشق أن يكتسب بوجوده سندًا روحيًا يكفل له أن يظفر بالخلافة من بعده، بدليل أنه خاطب جمـاعة من المهاجرين فى المدينـة قبل رحيله عنها إلى الشـام فقال فى جملة ما قاله: إنكم قد علمتم أن هذا الأمر كان إذا الناس يتغالبون إلى رجال فلم يكن منكم أحـد إلا وفى فـصيلتـه من يرأسـه ويستـبد عـليه ويقطع الأمـر دونه ولايشهـده ولا يؤامره، حـتى بعث الله عز وجل نبيـه ﷺ، وأكرم به من اتبـعه، فكانوا يرأسون من جاء من بعده وأمرهم شورى بينهم يتـفاضلون بالسابقة والقدمة والاجتهاد، فإن أخذوا بذلك وقـاموا عليه كان الأمر أمرهم والناس تبع لهم، وإن أصغـوا إلى الدنيا وطلبوها بالتـغالب سلبوا ذلك، ورده الله إلى من كـان يرأسهم وإلا فليحذروا الغير، فإن الله على البدل قـادر. ويلوح معاوية فى عبارته الأخيرة بتحول الرئاسة إلى البيت الأموى إذا ما تعرض عثمان لاعتداء الثوار المسلمين عليه دون أن ينصره المهاجرون فى المدينة[1].

ولم يكن عثمـان، وهو من جيل الأوائل فى الإسلام، يمثـل مطلقًا الاتجاه القبلى الأرستقراطى الذى دأب على استعادة نفوذه واتخاذ دور قيادى فى المتغيرات الجديدة. أمـا الممثل الحقيـقى الحاكم فى الظل، فلم يكن فى دائرة الضـوء تمامًا، وإنما كان يعمل بهدوء وحذر، مخططًا لما بعد مرحلة الخليـفة الشيخ، ومستفيدًا ما أمكن من تلك الظروف غـير الطبـيعيـة. وهذا كان لدى مـعاوية الموقع السـياسى (زعامة الاتجـاه القبلى القرشى الأرستقـراطى) والمادة المقاتلة (قبائل الشـام اليمنية) والتعبئة النفسية (مقـتل عثمان)، فضلا عن المسوغ «الشرعى» (ولاية الدم) إلخ. .

1 ـ د. السيد عبدالعزيز سالم ـ نفس المرجع ـ ص605.

من أجل تفجير أزمة سياسية فى مستوى الخلافة، دون التورع عن استخدام مختلف الوسائل لتحقيق أهدافه.

وكانت الدولة المسلمة يومذاك، وبعد أن فُتحت الدنيا لها وعليها. بحاجة ماسة إلى حاكم من ذلك الطراز الربَّانى، بحاجة إلى واحد من أولئك الرجال الذين يمثلون فضائل أيام الوحى وعصر النبوة. ولم يكن الإمام على عليه السلام يومئذ الرجل الأفضل والأمثَل فحسب، بل كان الرجل الأوحد الذى تتمثل فيه وتهيب به كل حاجات دينه وأمته. وكان الخروج عليه يومذاك يشكل خروجًا أكيداً على عصر النبوة بكل ما يمثله من هُدى وعدالة ونور. ولقد كانت بصيرة الإمام على عليه السلام من النفاذ والصدق بحَيث أبصرَت أبعاد المصير إذا استقرَّ السلطان فى أيدى الأمويين فلقد يهون الأمر، لو بدأ النكوص بمعاوية، وانتهى به، غير أن الإمام على عليه السلام كان يرى ببصيرته الصادقة أن الانحراف إذا بدأ، فلن يُؤذن بانتهاء. وكان يرى أن الأمويين إذا أفلحوا فى تثبيت ملكهم المنشود، فسيتحول التراث الجليل الذى تركه الرسول إلى مُلك عَضوضٍ ودنيا جامحة ومن ثمّ صار دَحْض هذه المحاولة التعسة واجب المؤمنين كافَّة. وهذه كلمات أبى سفيان التى يجترّ بها نوايا أسرته وقومه، لاتدع مجالا للشك فى أطماعهم وما يبتغون. فهو يوصى أهله وذويه قائلا: «لقد صار الأمر إليكم فلا تدعوه يُفلت، وتلقفوه كالكرُة، فإنما هو الملك ولا أدرى ما جنَّة ولا نار» وهو يمرّ بقبر «حمزة عم الرسول» فيستعيد ذكرى الأيام الماضية ويقول «يا أبا عمارة إن الأمر الذى اجتلدْنا عليه بالسيوف قد صار إلى غلمان بنى أمية» وهو حتى من قديم، لم يكن يرى فى الإسلام إلا مُلْكَا .. فيوم فتح مكة، وقد صحبه العباس عمّ النبى إلى الرسول ليُسلم، وينجو بحياته، نظر إلى الكتائب العارمة تحمل رايات الإسلام، فإذا به ينظر إلى «العباس» ويقول: «لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيما» فيجيبه «العباس» رضي الله عنه «يا أبا سفيان إنها النبوة، لا المُلك» أجل هذا هو الفارق الكبير بين تفكير بنى هاشم وتفكير بنى أمية فبنو هاشم يرون الدين على حقيقته. نُبوةً، وهُدى، ونورا.

وبنو أمية يرونه من خلال أمانيّـهم وأطماعهم. مُلْكًا، وتسلُّطًا، وسيادة وإن «الإمام عليًا» لم يُخدع إذن عن جوهر الموقف الذى اتخـذه معاوية حين رفض بيعة الإمام، ولم يخدع عن عواقب هذا الموقف إذا تركه المسلمون يستشرى ويتفاقم وإذا كانت مقاومة هذا الجنوح الخطـير واجب المؤمنين. فمَن أولْى المؤمنين بهذا إنهم آل بيت النبى أهل التقوى، وأهل التضحية. وهكذا شرع موكب التضحيات فى مَسيرة عاليـة، كلها قِمم ومُرتـفعات مُسـتهلا بأشرف تلـكم القمم وأعلاها حيـاة الإمام الرشيـد الشهـيد «على بن أبى طالب» رضى الله عنه وأرضـاه ثم بحيـاة الشهـيد الممجَّـد والعظيم «الإمام أبى عـبدالله الحسـين بن على عليه السلام» ومعه عـشرات من إخـوانه، وأهل بيتـه وصحـبه، فى يوم يجـعل الوِلْدانَ شـيبًـا. وهكذا، لم تكن «كَربلاء» مَلْحـمةً ذات فصل واحد، بدأ وانتـهى يوم العاشر من المحـرم بل كانت ذات فصول كـثيرة. بدأت قبل كـربلاء بسنوات طوال واستمرت بعـد كربلاء دهراً طويلا. . أجَل لقد بـدأت ملحمة كـربلاء ومأساتهـا، يوم تمَّت خُدعـة التحكيم، وحين وقع التمرد الرهيب والـفتنة العمياء فى صفوف أتبـاع الإمام، ثم حين خلا الجوّ لراية الأمويين داخل الشام، وخارج الشام[1].

ليس من شك فى أن الإمام عليًا عليه السلام قد أخفق فى بسط خلافته على أقطار الأرض الإسلامية، ثم هو لم يُخفق وحده وإنما أخفق مـعه نظام الخلافة الإسلامية كلُّه. وظهر أن هذه الدولة الجديدة التى كان يُرْجى أن تكون نموذجًا للون جديد من ألوان الحكم والسياسة والنظام لم تسـتطع آخر الأمر إلا أن تسلك طريق الدول من قبلها. فيقوم الحكم فيها على مِثْل ما كان يقوم عليه من قبلُ من الأثرة والاستعلاء ونظام الطبقـات، الذى تُستذل فـيه الكثرة الضـخمة، لا مِن شـعب واحد بل من شعوب كـثيرة، لقلة قليلة من الناس وهى أسرة أبى سفـيان وبنو مروان بن الحكم الذى نفاه رسول الله مـحمد صلى الله عليه وسلم من المدينة عاصمـة الإسلام، عسى أن تكون من شعب بعـينه بين هذه الشعوب، وهو الشعب الذى اسـتقر أمر الحكم فـيه. بل لم يُخفق الإمام على عليه السلام ونظام الخلافة وحـدهما، وإنما أخفقت معهـما الثورة التى

1 ـ خالد محمد خالد ـ أبناء الرسول فى كربلاء ص29.

قامت أيام عثمـان لتحافظ، فيما كـان أصحابها يقولون، على الخلافـة الإسلامية سماحها وصلاحها ونقاءهـا من شوائب الأثرة والعبث والطغيان والفساد. فأولئك الثائرون إنما ثاروا لأن عثمان لم يُحسن سيـاسة أموالهم ومرافقهم. عجز عن هذه السـياسـة، على أحسن تقـدير، فركـب بنو أميـة رقاب الناس، وعـبث العمـال بالولايات والفيء، وأسرف الخليفة فى بيت المال يؤثر به ذوى رحـمه والمقربين إليه من سائر الناس. فهم كانوا يريدون أن يردوا أمر الخلافة إلى مثل ما كان عليه أيام الشيـخين أبو بكر وعمـر بحيث يتحـقق العدل وتُمـحى الأثرة، ولا توضع أموال الناس إلا فى مواضعها، ولا تُنفق إلا على مرافـقهم، ولاتُؤخذ إلا بحقها. ولكن زعماءهم وقادتهم قُتلوا فى سبيل هذه الثورة قـبل أن يُتموا تثبيتها: قُتل حكيم بن جَبَلة فى البصرة قبل أن تقع موقعة الجمل. وقُتل زَميله البصرى حُرْقوص بن زُهير فى النَّهروان، وقتل محمد بن أبى بكر وكنانة بن بِشْـر فى مصر، ومحمد بن أبى حُذيفة فـى الشام. ومات الأشتر مَـسمومًا فى طريـقه إلى مصر. وقُتـل عمَّار بن ياسر بصفِّين[1].

فهؤلاء زعماء الثورة، مـنهم من قُتل قبل أن تشُبّ الحروب على الإمام على عليه السلام ومنهم من قـتل أثناء هذه الحـروب، ومنهم من خـالف إمامـه ثم قُـتل أثناء الخروج عليه، ومنهم من قَـتله معاوية وأصحابه جـهرةً أو سراً. وواضح أن الذين ثاروا بعثـمان حتى حصـروه وقتلوه لم يُقتلوا عن آخـرهم، وإنما بقى منهم خلف كانوا أتباعًا لأولئك الزعماء الذين ذكـرنا قَتْلَهم. والمهم أن قادة الثورة قد ماتوا من دونها، وأن الثورة قد فـقدت بموتهم عُقولها المفكِّرة المدبِّرة، فأدرك سـائر أصحابها الفشلُ والتـخاذلُ والتواكلُ، وألقَـوا بأيديهم وآثروا العافيـة. وكانت الظروف التى أرادوا أن يقاوموها بثورتهم أقوى من أن تُقـاوَم. ولكن كلمة الظروف هذه غامضة تحـتاج إلى شيء من الوضـوح. وأول هذه الظروف وأجدرهـا بالعناية والتفكيـر: الاقتصـاد. فقد كان نظام الخـلافة، كما تصوره الشـيخان أبو بكر وعمـر، يسيراً سمحًا لا عُسر فيه، أخص ما يوصف به أنه لايستطيع أن يستقرّ ولا أن يستقيم إلا

---

1 ـ طه حسين ـ على وبنوه ص155.

إذا آمن به أشدّ الإيمان وأعمقَه أولئك الذين أقيم لهم من المسلمين. والإيمان بهذا النظام يقتـضى قبل كل شىء إيمانًا خـالصًا بالدين الذى أنشأه، إيمـانًا يتغلغل فى أعماق القلوب، ويسـيطر على دخائل الضمائر والنفوس، ويسخـر لسلطانه عقول الناس حين تفكر، وأجـسامهم حين تعـمل، وألسنتهم حين تقول. إيمـانا لايقبل شركـة مهـما يكن لونهـا، إيمانًا بالله لا شـريك له من الآلهة والأنداد، وإيـمانًا بالدين لاشريك له من المنافع والأهواء. وهذا النوع من الإيمـان، إنْ تحقق للكثرة من أصحـاب رسول الله مـحمـد ﷺ، فإنه لم يَخْلُص من بعض الـشوائب، لا بالقياس إلى الذين أسلمـوا بآخره، ولا بالقياس إلى الذين كان رسول الـله محمد ﷺ يتألَّفهم بالمال[1] ولا بالقياس إلى كثرة من الأعراب الذين قال الله فيهم:

﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: 14] وكان النبى ﷺ يعرف المنافقين من أهل المدينة ومن غيرهـم، يدله الوحى عليهم وينبئه الله بأمرهـم، وربما أنبأه الله بأن منهم قومًا لايعلمهم هو وإنما يستأثر الله وحده بعلمهم. فلما قُبض النبى انقطعت أو كادت تنقطع وسائل العلم بهؤلاء المنافقين. فكان المؤمنون المخلصون كالشعـرة البيضاء فى الثور الأسود، كما قال النبى ﷺ. كانوا قلَّة قليلة. وليس أدلّ على ذلـك من ارتداد العرب بعد وفاة رسول الله مـحمد ﷺ، وجهـاد أبى بكر وأصحابه حتى ردُّوهم إلى الطاعـة بعد تلك الخطوب الكثيرة التى نعرفهـا. ثم تجاوز الإسلام جزيرة العرب وبسط سلطانه على ما فُـتح من الأرض أيام الشيخـين وأيام عثمان، فكـثر الذين خضعـوا لهذا السلطان غير مؤمنين به ولا مُخلصين له، وإنما الخـوف وحده قوام ما كانوا يَبذلون من طاعة وكذلك كـان الفتح مصدر قُوة ومصـدر ضعف للدولة الجديدة فى وقت واحد. كـان مصـدر قوة، لأنه بـسط سلطانها ومـد ظلها على أقطار كـثيـرة من الأرض. وكان مـصدر ضعف لأنه أخـضع لها كثرة من الـناس لايؤمنون بها وإنما يخافون منها ويرهبون سطوتها. وكان مصدر قوة لأنه جبى لها كثيراً من المال الذى لم يكن يخطر لها على بال. وكان مـصدر ضعف لأن هذا المال أيقظ منافع كانت

1 ـ طه حسين ـ نفس المرجع ص156.

نائمة، ونبه مآرب كانت غافلة، ولفت إليه نفوسًا كانت لاتفكر إلا فى الدين. ثم خلق حاجات لم تكن معروفة ولا مألوفة. أظهر للعرب فنونًا من الترف وخَفْض العيش فأغراهم بها ودعاهم إليها، ثم عوّدهم إياها، ثم أخذهم بها أخذاً، إلا قلة قليلة جداً استأثر الدين بها من دون الدنيا، وشغلها التفكير فى الله عن التفكير فى المال والمنافع والحاجات.

لقى عُمر العناء كل العناء فى سياسته للعرب أيام خلافته، ثم لم يَشْق وحده بهذا العناء الذى لقيه، وإنما شقى به العرب كلهم. ضاقوا بسياسته ضيقًا شديداً. شَقّ عليهم العدل الذى يسوى بين القوى والضعيف. وشق عليهم الشَّظف الذى كان يريد أن يُمسكهم فيه ويضطرهم إليه. فلما مات سُرِّى عنهم وابتسموا للدنيا وابتسمت الدنيا لهم. ولكن هذا الابتسام لم يتصل إلا ريثما استحال إلى عبوس عابس وشرٍّ عظيم. فالابتسام للمال يُغْرى بالاستزادة منه، والاستزادة منه تفتح أبوابًا من الطمع لا سبيل إلى إغلاقها. وإذا وجد الطمع وجد معه زميله البَغْى، ووجد معه زميل آخر هو التنافس. ووجد معه زميل ثالث هو التباغض والتهالك على الدنيا. وإذا وجدت كل هذه الخصال وجد معها الحسد الذى يحرق قلوب الذين لم يُتح لهم من الثراء ما أتيح لأصحاب الثراء. وإذا وجد الحسد حاول الحاسدون إرضاءه على حساب المحسودين، وحاول المحسودون حماية أنفسهم، وكان الشر بين أولئك وهؤلاء. وهذا كله هو الذى حدث أيام عثمان، وهو الذى دفع أهل الأمصار إلى أن يثوروا بعمالهم، ثم إلى أن يثوروا بخليفتهم، ثم إلى أن يحصروه ويقتلوه. وقد هم الإمام على ﷺ أن يرد العرب إلى ما كانوا عليه أيام الخليفة عمر ﵁. ولكن أيام الخليفة عمر ﵁ كانت قد انقضت ولم يكن من الممكن أن تعود[1].

ملك المال قلوب أصحاب المال فقاتلوا عليه فى العراق وقاتلوا عليه فى الشام، وانتصر الإمام على ﷺ فى العراق ولكنه انتصار لم يكد يتم حتى نسيه المغلوبون والغالبون جميعًا. فما أسرع ما ذكر أهلُ البصرة عثمانيَّتهم بعد الجمل. وعثمانيتهم هذه ليس معناها حُب عثمان والطلب بدمه فحسب، وإنما معناه أوسع

1 ـ طه حسين ـ نفس المرجع ص158.

من ذلك وأشمل. معناها هذا النظام الذى عرفوه فألفوه، نظام الطمع والجشع والتنافس فى المال والتهالك عليه، والضيق بتلك الحياة التى فرضها الخليفة عمر ﵁ على العرب والتى كان الإمام على ﵇ يريد أن يعود إلى فرضها عليهم. وقد شكا ابن عباس أهل البصرة إلى الإمام على ﵇ أنهم بعد خروجه عنهم إثر وقعة الجمل عادوا إلى شىء من الاضطراب لم يرْضه منهم ابنُ عباس. لم يرَ منهم ما كان ينتظر أن يرى من الانقياد والطاعة السَّمحة. فكتب إليه الإمام على ﵇ هذا الكتاب الذى إن دل على شىء فإنما يدل على أن الإمام عليًا قد فهمهم حق فهمهم، وأراد أن يستصلحهم ما وجد إلى ذلك سبيلا:

«أتانى كتابك تذكر ما رأيت من أهل البصرة بعد خروجى عنهم. وإنما هم مقيمون لرغبة يرجونها أو عقوبة يخافونها. فأرغب راغبهم واحلل عقدة الخوف عن راهبهم بالعدل والإنصاف له إن شاء الله» هم مقيمون على رغبة يرجونها أو عقوبة يخافونها، هذا حق ليس فيه شك. ولكن الدواء الذى اقترحه الإمام على ﵇ لم يكن ميسوراً، فهو أراد أن يرغب الراغب ويحل عقدة الخوف عن الخائف. ولكنه أراد أن يكون هذا كله فى حدود العدل والإنصاف والعدل لايرغب راغبًا وإن حل عقدة الخوف عن الخائف. وليس أدلّ على ذلك من أن عبدالله بن عباس لم يبلغ ما أراد الإمام على ﵇ من السياسة، وإنما أراد أن يرغب الراغبين فرغب معهم. وهمّ أهل البصرة أن يستجيبوا لمعاوية وأن يثوروا بزياد، لولا أن الإمام عليًا ﵇ زاد عُقدة الخوف عليهم تعقيداً، فأرسل إليهم جارية بن قُدامة الذى حرق فريقًا منهم بالنار تحريقًا. ثم لم يكن المتنصرون مع الإمام على ﵇ يوم الجمل خيراً من المغلوبين. طمعوا فى مال أهل البصرة بعد أن انتصروا عليهم، فلما ردهم الإمام على ﵇ عن ذلك جمجموا، وقال قائلهم: يُبيح لنا دماءهم ثم لا يُبيح لنا أموالهم ثم ذهب أهل الكوفة مع الإمام على ﵇ على قبول التحكيم ومنذ ذلك اليوم ظهر أن الثورة قد أخفقت، وظهر أن الإمام عليًا ﵇ لن يبلغ من إحياء سيرة عُمر ما كان يريد. ثم لم يكن الإمام على ﵇ وحده هو الذى ظهر إخفاقه، فهذا أبو موسى الأشعرى الذى اختاره أهل اليمن حكمًا على غير رضا

من إمامهم على ﷺ، تبين فى وضوح واضح أنه كان يرى رأيًا مخالفًا أشد الخلاف لرأى الذين اختاروه. كان يريد أن يبايع للطيب ابن الطيب عبدالله بن عمر ليُحيى اسم عمر وسيرته. ولم يكن أهل اليمن يريدون عمر ولا ابنه ولا أحدًا من الذين يُشبهونهما، وإلا ففيم كانت خيانة الإمام على ﷺ وفيم كان استكراهه على ما لا يريد ثم تبين أن أهل الحجاز لم يكونوا خيرًا من أهل البصرة والكوفة، فكثيرًا منهم كانوا يتسللون إلى الشام إيثارًا لدنيا معاوية، حتى شكا أميرُ المدينة سَهْل بن حُنيف إلى الإمام على ﷺ من ذلك. فعزّاه الإمام على ﷺ عن هؤلاء المتسللين. وليس من شك فى أن كثيرًا من أهل مكة كانوا يفعلون فعل نظرائهم من أهل المدينة. بل ليس من شك فى أن كثيرًا من الذين كانوا يقيمون فى الحرمين ويؤثرون البقاء فى الحجاز على الذهاب إلى الشام كانوا يتلقّون من معاوية هداياه ومنَحه، لايرون بذلك بأسًا ولا يجدون فيه حرجًا[1].

ولكأنما كان «الإمام على ﷺ» يرى ببصيرته الثاقبة كل ذلك المصير! فذات يوم أثناء مسيره مع جيشه إلى «صفين» بلغ به السير هذه الرقعة من الأرض، فتمهل فى سيره ثم وقف يتملى مشهد الفضاء الرهيب، وسالت عبراته، واقترب منه أصحابه صامتين واجمين، لا يدرون ماذا أسال من مقلتى الأسد الدموع ثم سألهم ويُمناه ممتدة صوب تلك الأرض التى تعلقت بها عيناه: ما اسم هذا المكان؟ قالوا: كربلاء. قال: «هنا محَط رحالهم ومُهْراق دمائهم» واستأنف سيره مع المقادير. تُرى من كان يعنى، ومن كان ينعى، أكان يعنى قرة عينه «الحسين» ومَن معه من إخوة له وأبناء؟ أكان يعنى أولئك الأبطال الذين ستشهد هذه الأرض ذاتها استشهادهم الرهيب والمَهيب بعد عشرين عامًا لا غير من هذه النبوءة الصادقة؟ ربما. وربما لم يكن إلهامه ولم تكن بصيرته يومئذ معلقين بواحد بذاته من أهل بيته المباركين. فهو على أية حال يدرك تماما أن المعرَكة التى بدأها من أجل الحق لن تنتهى ويدرك أنه لن يصبر أحد من بعده مثلما سيصبر أبناؤه الذين ورثوا البطولة كابرًا عن كابر وحين يحتدم فى البصائر النقية ولاؤها لحق مقدس، أو لمبدأ جليل،

1 ـ طه حسين ـ نفس المرجع ص159.

فـإن هذا الاحتـدام يتلقى فى لحظة إشـراق روحى مدداً مـن الرؤية غيـر منظور، يكشف الغيب ويجـذب إلى دائرة الاستشراف أحـداث الزمن البعيد. ولعل شـيئا كهذا، حدث ذلك اليوم، فرأى الإمام التقى النقى بلاء أبنائه وحفدته، رأى بلاءهم العظيم فى سـبيل القـضيـة التى حـمل لواءها، ورأى «محط رحـالهم، ومُهـراق دمائهم» القـضيـة إذن، كانت كمـا قلنا، قضية «النبوة» لا «المُلْك». الـنبوة بكل تألقاتها الورعـة وموازينها العادلة لا الملك الذى يريد نفـر من الأمويين أن يردوا به وثنيـة الجاهـلية فى أثواب تنـكرية والذين يدرسـون معـارك «الجـمَل، وصفـين، وكربلاء» خارج هذه الدائرة، لا يأمنون تفكيرهم، وزيغ أحكامهم[1].

رأينا كثيرين ممن تحدثوا عن «كربلاء» يحملون «الإمام الحسين عليه السلام» مسئولية مصـيره، ومـصير الذين خـرجوا معـه. و«الإمام الحـسين عليه السلام» رضى الله عنه، يتحمل فى شجـاعة وغبطة مسئولية ذلك المصيـر، ولكن ليس بالمعنى الذى يقصده هؤلاء. فهـم يرون أنه خرج تلبـية لدعوة ثـوار الكوفة إياه، باعـتبار هـذه الدعوة فـرصة رآها سـانحة لاستـرداد الخلافـة من بيت مـعاوية إلى بيت الإمـام. وهم يلومونه، أو يكادون؛ لأنـه لم يُصغ لِنُصْح الناصحين مـن عشيـرته الأقربين؛ كى يبقى مكانه فى البلد الحرام «مكة» نافضًـا يديه من مشاكل الموقف الكالح الذى نتج عن استخلاف يزيد فهل كان ذلك كذلك؟ أبداً. وإن الأمر لمختلف جداً. فالقضية فى ضمير الإمـام الحسين عليه السلام لم تكن قضـية فرصة سنحت ولا هى قـضية حق شخصى فى الخلافة يبتغى استرداده ولا هى من القضايا التى يكون للإنسان الرشيد حق التخلى عنها.

القضيـة فى ضمير التقىّ الشجـاع، كانت قضية دين، ويسـتوى عنده تخليه عن هذه القضيـة، وتخليه عن هذا الدين. صحيح أن «الشكل الخارجى» للقـضية تمثل يومهـا فى استخلاف يزيد لكن «جـوهرها» الصحيح كان واضـحًا أمام وعى «الإمام الحسين عليه السلام» ورشده ونور بصيـرته ـ تمامًا كما كان واضحًـا من قبل أمام وعى أبيه الإمام على عليه السلام، وأمام رشده وبصيـرته. واستخلاف يزيد على هوانه، لاينفى عن القضيـة موضوعيتهـا العميقة، ولايقلل من تبعـة النهوض بها، بل هو

1 ـ خالد محمد خالد ـ نفس المرجع ص31.

يزيد من إلحاح هذه التبعات. فـ «يزيد» هذا، لايمتلك ذرة من الصلاحية التى تؤهله لأن يجلس من الأمة المسلمة حيث كان يجلس من قبل «أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلى» لقد كانت خلافة واحد من طرازه أدهى كارثة تنزل بالدولة وبالأمة. لاسيما، وهو يُستخلف فى عصر لا تفصله عن عصر النبوة والوحى سوى سنوات معدودات وفى جيل لايزال يحيا فيه رجال شامخون أبرار من أصحاب رسول الله أمثال «عبدالله بن عمر، وعبدالله بن عباس، والحسن، والحسين، وعبدالله بن الزبير، وعبدالرحمن بن أبى بكر، وأبى الدرداء، وقيس بن سعد بن عبادة». ولئن كان هناك من خيار الصحابة والمسلمين من سكن لهذا الوضع الأليم بعد وقوعه، فإنهم لم يفعلوا عن رضًا واقتناع، بل عن رغبة فى تجنيب المسلمين مزيداً من الحروب والآلام والدماء ـ الأمر الذى لم يتردد «الإمام الحسن عليه السلام» نفسه عن النهوض به ـ من قبل ـ حين تنازل عن حقه فى الخلافة لمعاوية، ولو أن معاوية وفى بالعهد الذى أبرمه مع «الإمام الحسين عليه السلام» أمام المسلمين كافة فترك الأمر من بعده لمشورة الناس واختيار الأمة؛ لتغير موقف «الإمام الحسين عليه السلام» ولتغير بالتالى مجرى الأحداث.

نستطيع أن نبصر عدالة القضية التى ناضل دونها الإمام الحسين عليه السلام وأبناؤه، أكثر مما كان متاحًا لمعاصريها فهم كانوا ينظرون إليها من خلال حدسِهم وتقديرهم لاحتمالات المستقبل حين يستقر الأمر لبيت أبى سفيان، وحين تنتهى إلى أيدى أبنائه مصاير الإسلام والمسلمين. أما نحن اليوم، فالأمر بالنسبة لنا ليس أمر حدس أو احتمال. إنّ ما كان حدسًا بالأمس، قد صار حقيقة، وما كان احتمالا وظنًا، أصبح واقعًا وتاريخًا. فها هو ذا معاوية، لا يكتفى باغتصابه الخلافة، ثم لايرغب وهو على وشك لقاء ربه فى التكفير عن خطئه، تاركًا أمر المسلمين للمسلمين بل يُمعن فى تحويل الإسلام إلى ملك عضوض وإلى مزرعة أموية فيأخذ البيعة ليزيد كولى عهد له ويأخذها بالذهب، وبالسيف. ثم ها هو يزيد يتربع على عرش أبيه بعد وفاته، فيهمل أمر المسلمين، ويعكف على اللهو بفهوده وقروده حتى يلقب بـ «يزيد القرود» ثم يسلط من قواده ورجاله من ينزلون بالعباد والبلاد من الهول مايخجل الشيطان نفسه من اقترافه. فابن زياد، فى الكوفة والبصرة، يحز رأس كل

من تســول له نفسه أن يـقول: لِمَ. ثم يقـتل أبناء الرسول وأحـفاده وآل بيـته فى كربلاء قتلا تناهى فى البشاعة والرجس. ومسلم بن عقبة، مبعوث يزيد إلى المدينة المنورة دار الهـجرة ووطن الأنصـار وعـاصمـة الإسلام، يصنـع بها وبأهلهـا من الوحشية والجريمة ما يتعاظم كل وصف. وحتى مكة بمسجدها الحرام، يرسل إليها «يزيد القرود» من يستبيحها، ويستبيح مسجدها الحرام[1].

ثم حـين يختـفى بيت أبى سـفـيان بموت يزيد، ويسـطو على الحكم بيت مروان، وهو شـعبة أخرى، وامـتداد آخر للأمويـين يظهر الحجاج لينشـر الخراب والدمار والقتـل فى كل مكان باسم الأمويين، وفى سبيل دعم ملكهم ووثـنيتهم. هذه الأهوال كلهـا، والتى نراها نحن اليوم بعـد وقوعـها، كان الإمـام على عليه السلام يحسُّهـا ببصيرته قـبل وقوعها. كان بإلهـامه الصادق يرى كل ذلك المصيـر، فقام قومتـه ليمنع الكارثة قبل نزولهـا وقام من بعده ابنه العظيم «الإمـام الحسين عليه السلام» ليمنع امـتداد الكارثة واستمـرارها. وهكذا نرى أن معركتـهم الجليلة الباسلة، لم تكن معركة حق شـخصى فى الخلافة ولا معركة ثأر جـاهلى قديم وإنما كان يمثل التيار والحزب الإسلامى. إن الذى أدركه الإمام قبل وقوعه، فنهض يتحاماه، كان يدركه معـه أولئك الذين وقفوا فى صفـه، وصمدوا معه إلى الـنهاية فى إخلاص مكين أدركه الصـحابى الجليل «عمـار بن ياسر» الذى قال عنه الرسـول: «اهتدوا بهدى عـمار» والذى قـال عنه أيضًا: «تقـتل عماراً الفـئة البـاغيـة» والذى أجمع الصحابة بلا استـثناء، وفيهم معاوية ذاته على فضله وورعه وصـدق نهجه وعظمة روحه أدرك «عمار» نفس المصير. وآمن بذات القضية، فصمم على الخروج للقتال مع «الإمام على عليه السلام» مع أنه يومئذ كان قد جاوز التسعين من عمره. إنه لم يجد عمـلا أفضل من ذلك العـمل، يختم به حـياته المجيـدة، فراح يصـول ويقاتل، ملخصًا إيمانه بقداسة القضية التى رفع «الإمام على عليه السلام» لواءها فى هذه الكلمات المضيئة الثائرة[2].

---

1 ـ خالد محمد خالد ـ نفس المرجع ص33.

2 ـ خالد محمد خالد ـ نفس المرجع ص35.

«أيهـا الناس. سـيروا بـنا نحو هؤلاء الـقوم الذين يـزعمـون أنهم يثـأرون لعثمان، ووالله ما قصدهم الأخذ بثأره، ولكنهم ذاقوا الدنيا واستمرأوها، وعلموا أن الحق يحول بينهم وبين ما يتمرغون فيـه من شهواتهم ودنياهم، وما كان لهؤلاء سـابقة فى الإسـلام يستـحقـون بهـا طاعة المسلمـين أو الولاية عليـهم. ألا إنهم ليخادعون الناس بزعمهم أنهم يثأرون لدم عثمان وما يريدون إلا أن يكونوا جبابرة وملوكًا. والذى نفـسى بيده، لقـد قاتلت بهذه الراية مـع رسول الله ﷺ وها أنذا أقاتل بها اليوم. والذى نفـسى بيده، لو هزمونا حتى يبلغوا بنا سعـفات هجر، ما وهن يقـينى بأننا على الحق وأنهم عـلى الباطل» إنهـا قـضيـة تفـوقت بعـدالتهـا وبقداستـها حتى على النصر ذاته فلم يعـد النصر مزية لها كمـا لن تكون الهزيمة إزراءً بها. . هكذا عاشت فى ضـمائر أهلها وشهدائهـا كما عبر وصـور عمار بن ياسر فى كلماته السـالفة: «والذى نفسى بيده، لو هزمونا حتى يبلغـوا بنا سعفات هجـر، ما وهـن يقينى بأنـنا على الحق وأنهم على البـاطل». والغـريب أننا حين نستعرض ما روى البلاذرى لنا من كتب الإمام على عليه السلام إلى عماله على المشرق، فلا نرى من هذه الكتب كلهـا إلا كتابين اثنين يثنى فيهـما الإمام على عليه السلام على عاملين اثنين ثناء لا تحفظ فـيه. فقد أرسل إلى سعد بن معـوذ الثقفى عامله على المدائن:

«أما بعد. فقد وفرت على المسلمـين فيئهم وأطعت ربك ونصحت إمامك، فعل المتنزه العفـيف. فقد حمدت أمرك ورضيت هديك وأبـنت رشدك. غفر الله لك. والسلام» فأما سـائر كتبه إلى أولئك العمال، ففى بعضـها التأنيب والتوبيخ، وفى بعضها العتاب والتخـويف، وفى بعضها الآخر الوعظ والتأديب. وقد علمت ما كان من مصقلة بن هبيرة ومن المنذر بن الجارود. أحدهما يلتوى بالمال حتى يفر إلى الشام. والثـانى يلتوى بالمال حتى يحـبس فيه. بل لم يكن كل الذين اعـتزلوا الفتنة بمأمن من هذه النكسة التى أصابت المسلمين بعد الفتح حين كثر عليهم المال. فإذا كان سعد بن أبى وقاص وعبدالله بن عمـر ومحمد بن مسلمة قد فروا بدينهم

من الفتـنة فلم يدخلوا فى حرب مع أحـد الفريقيـن الخصمـين، وصمـموا على عزلتهم كما أرادوها خالصة لله ودينه، فقد كان المغيرة بن شعبة مثلا معتدلا، يؤثر العافية فى الطائف، ولكنه كان ضيقًا بهذه العافية، وكان يتحرق شوقًا إلى العمل، ولعله لم يكن يضيق بشيء كـما كان يضيق بما أتيح لعمـرو بن العاص من نجاح، على حين ظل هو يعلك لجامه كالجواد القارح الذى حيل بينه وبين النشاط. وكان أبو هريرة يقيم فى المدينة ولايكره أن تناله النافلة من مال معاوية بين حين وحين. وقد نشط المغيرة بن شـعبة فى أمر معاوية بعد أن صـار إليه الأمر كله، على حين احتفظ الشيخان سعد وابن عمر بعـزلتهما الوادعة. ولم يكن أهل الحرمين يحبون القتال بعـد ما بلوا من الأحداث، فكانوا وادعيـن يقبلون ما يساق إليـهم من خير مهما يكن مـصدره، ويبايعون لصاحب السلطان والبأس. كـانوا على طاعة الإمام على ﷺ. ثم بايع أهل المدينة لمعاوية حين أخافـهم بُسْر بن أرْطاة. فأما أهل مكة فأجابوا بسراً فى غير ما خـوف ولا رهب، لأن معاوية أوصاه بهم خيراً. فلما ألم بهم قـائد الإمـام على ﷺ بعـد أن طرد بسـراً، بايع أهل مكـة لمن بايع له أهل الكوفة، دون أن يتبينوا من هو. وبايع أهل المدينة لمن بايع له أهل الكوفة، بعد أن عرفوا أنه الإمام الحسين بن على عليهما السلام[1].

كل شيء إذًا كان يدل على أن سلطان الدين على النفوس لم يكن من القوة فى المنزلة التى كان فيـه أيام عمر، وعلى أن سلطان المال والسيف كان قـد استأثر بالقلوب والنفوس. وكل شيء يدل على أن الإمام عليًا ﷺ، والذين ذهبوا مذهبه من المحافظة على سيـرة النبى والشيخين، إنما كانوا يعيـشون فى آخر الزمان الذى غلب الدين فيـه على كل شيء. وبذلك فإن أول الظروف التى كانت تقـتضى أن يُخفق الإمام على فى سـياسته هو ضعف سلطان الديـن على نفوس المحدثين من المسلمين، وتغلب سلطان الدنيا على هذه النفـوس. وكان العرب إلى أيام عمر لا يعرفـون من شؤون غيـرهم إلا قليلا، يحمل إليـهم التجار منهم، حـين يعودون بتجارتهم، أخباراً مختلطة عن الفرس والروم والحبشة، وعن الشام ومصر والعراق خاصـة. وينقل إليهم الوافـدون عليهم من التـجار الأجـانب والمجلوبون لهم من

1 ـ طه حسين ـ المرجع السابق ص161.

الرقيق أخباراً عن هذه البلاد، لعلها كانت فى نفوسهم واضحة، ولكنها كانت لاتكاد تنتقل إلى نفوس العرب حتى تختلط ويشوبها كثير من الإبهام والغموض، حتى كان علم العرب بشؤون هذه البلاد أقرب إلى الأعاجيب وأنباء الأساطير منه إلى الحقائق الصحيحة والوقائع الصادقة. فلما كان الفتح رأت جيوش المسلمين الكثير من حقائق هذه البلاد. ثم استقرت فيها واستقر العرب فعرفوا هذه البلاد معرفة صحيحة، وبلوا من أمورها وأمور أهلها أشياء لم يكونوا يحققونها. وقد أخذهم شىء من الدهش أول الأمر لما رأوا وما سمعوا، ولكنهم ألفوا هذه الأشياء وهؤلاء الناس، ثم جعلوا يختارون مما رأوا من الأخلاق والسير وضروب الحياة ما يستطيعون اختياره، مما يلائم أمزجتهم وطبائعهم وأذواقهم. وجعلت نفوس تتغير تغيراً بطيئًا أول الأمر، ولكنه جعل يسرع ويقوى كلما طالت إقامتهم فى هذه الآفاق. وقد رأوا حضارة راعتهم، وفنونًا من الترف سحرت عيونهم، وألوانًا من خفض العيش ورقته لم تكن تخطر لهم على بال. وقد تعلقت نفوس كثير منهم بهذه الطرائف التى رأوها، وتمنت ضمائرهم، شاعرة بذلك أو غير شاعرة به، أن تأخذ من هذه الحياة أطرافًا. وأثر هذا كله فى نظرها إلى الأشياء وحكمها عليها وتقديرها لقيم الحياة[1].

وقد بهرهم أول ما بهرهم جلال الملك الذى أزالوه فى بلاد الفرس، والذى نقصوه من أطرافه فى بلاد الروم. وقارن الأذكياء وأصحاب المطامع منهم، بين ما أقبلوا عليه من ذلك وما تركوا وراءهم فى المدينة أو فى غيرها من حضر البلاد العربية وباديتها، فأكبروا هذه الجديد وصغر قديمهم فى أنفسهم، واستحيا أكثرهم من إظهار ذلك. فتناجت به ضمائرهم، وهوت إليه قلوبهم، وجعلوا ينظرون إلى من وراءهم من أولئك الشيوخ أصحاب النبى فى كثير من الإجلال والإكبار، ولكن فى كثير من الرفق والرثاء أيضًا. يُجلونهم ويكبرونهم لمكانهم من النبى وسابقتهم فى الدين، ويرفقون بهم ويرثون لهم لأنهم يمثلون جيلا قديمًا قد انقضت أيامه أو أوشكت أن تنقضى. وكان الذين يعودون منهم إلى المدينة يلقون عمر فيتكلفون التجمل بسيرته ويحتالون فى ألا يظهر على دقائق أمرهم وحقائقه.

1 ـ طه حسين ـ نفس المرجع ص162.

يلقـونه مظهرين الشظف وغلظة الحـياة وخـشونة العـيش ليرضى عنهم ويطـمئن إليهم. فإذا خلوا إلى أنفسهم، أو خلا بعضهم إلى بعض، أخذوا بما ألفوا من لين الحيـاة، وأشفـقوا على عـمر من حـياته الخـشنة تلك، فى كثـير من الإكـبار له والإعجاب به. فلـما كانت خلافة عـثمان خفت عليـهم مؤونة هذا التكلف، فلم يكن عـثمـان يحب الشظف ولا خشـونة العيش، فـأظهروا من أمـرهم ما كـانوا يكتمون. ورقت الحـياة فى المدينة نفسها حتى دخلهـا الترف واستقر فيـها، وحتى جعلت الدور والقصـور ترتفع فى المدينة وما حولها، وحتى جعل الشـباب يقبلون على ألوان من اللعب لم يكن للعـرب عهـد بها من قبل. وحـتى اضطر عثـمان نفسه، على إسـماحه وإيثاره للدعة، إلى أن يقـاوم هذه الألوان من الفتنة المجلوبة التى جعلت تسلك سبيلها إلى النفوس[1].

ثم رأى العـرب جماعـة من شيـوخ الصحـابة وأصحـاب السابقـة والمكانة يستكثرون من المال ويُقبلون على شىء من اللين، فأقبلوا على ما أقبل عليه أئمتهم ومعلموهم. ثم جلب الفتحُ إلى الحجاز أعـداداً ضخمة من الرقيق، على اختلاف أجناسهم وعلى اخـتلاف طبقـاتهم، فى حياتهم القديمـة التى كانوا يحيـونها فى بلادهم قبل الفتح. فلم يترك هؤلاء الرقيق من الرجـال والنساء أخلاقهم وطباعهم وأمزجتهم وراءهم عند حدود البلاد العربيـة، وإنما حملوها معهم وأظهروا سادتهم على كثير منها، ثم أغروا سادتهم بكثـير منها. فلم يجدوا من سادتهم مقاومة ولا امتناعًا، وإنما وجدوا استجابة وإقبالا، فافتنّوا فيما أحب سادتهم من هذا كله. ثم لم يكن هذا كله مقصوراً على الرقيق الذين حملوا على الأرض العربية، وإنما كان شاملا كـذلك للرقيق الذين استـقروا مع سادتهم فى الأقطار المفتـوحة. وكل هذا جدد النفس العربيـة تجديداً يوشك أن يكون تامًا، وباعد بينها وبين الحـياة الخشنة القديمة أشد المباعدة. فلما قُتل عـثمان وأقبل الخليفة الرابع يريد أن يحملهم على الجـادة، وأن يردهم إلى السيـرة التى ألفـها المسلمـون أيام النبى والشـيخـين، لم ينشطوا لذلك ولم يطمئنوا إليه، وإنما نظروا فرأوا خليفـة قديما يدبّر جيلا جديداً،

---

1 ـ طه حسين ـ نفس المرجع ص163.

ويريد أن يدبره تدبيـراً ينافر أشـد المنافرة ما أحـب من حياة الخـفض واللين. ثم نظروا بعد ذلك فرأوا أميـراً آخر قد أقام في الشام، وقد جـدد نفسه مع هذا الجيل الجديد. ثم لـم يكتف بتـجديد نفسه والملاءمة بينهـا وبين رعيته، إنما يغرى رعـيته بالتجديد ويعينها عليه بالمال. ويحتج لذلك بما شاء الله من الحجج. فهو مقيم فى بلاد مجاورة لبلاد الروم، وهو يريد أن يُلقى فى روع الروم أنه ليس أقل منهم أبهة ولا أهون منهم شأنًا ولا أرغب منهم عن طيبات الحيـاة، وأن أصحابه يشبهونه فى ذلك. ثم هو يحـارب هؤلاء الروم فينبـغى أن يحـاربهم بمثل أسلحتـهم. ثم هو يحارب خصمه فى العراق فيـنبغى أن يكيد له ويغرى به ويخذل عنه ويفرق الناس من حوله[1]. وكان معاوية يمثل الحكم فى الظل فلم يكن فى دائرة الضوء تمامًا إنما كان يعمل بهدوء وحذر مخططا لما بعد مرحلة الخليـفة الشيخ، ومستفيداً ما أمكن من تلك الظروف غير الطبيعية فقـد كان لدى معاوية الموقع السياسى زعامة الاتجاه القبلى القـرشى الأرستقراطى والمادة المقـاتلة قبائل الشام اليـمنية القوية، والتعـبئة النفسـية مقـتل عثمـان، فضلاً عن المسوغ الـشرعى ولاية الدم. . .إلخ، من أجل تفجير أزمة سياسية فى مستـوى الخلافة دون التورع عن استخدام مختلف الوسائل الميكافيلية لتحقيق أهدافه لاستعادة نفوذ بنى سفيان واتخاذ دور قيادى فى المتغيرات الجديدة.

كان مقتل عثمان فى أعقاب انتـفاضة مسلحة، المنعطف الأكثر خطورة، فقد بدأت ملامـحه فى اغتـيال عمـر بن الخطاب الذى جاء اغـتيالا فى الوقت نفـسه لمشروعه السـياسى المتكامل، فقد كان من نتـائجه البارزة تهميش الحـجاز، بعد أن فقد دوره المؤثر مع انتشار العرب المسلمين فى إطار حركة الفتوح. ومعنى ذلك أن الصراع على الحكم، قد انتقل إلى الأمصار (الجمل وصفين)، حيث خاض الإمام على عليه السلام الحرب بالقبـائل العراقية ومـعظمها قبائل يمنيـة، بينما خاضهـا معاوية بالقبائل الشامية اليمنية. ومن المـفارقات اللافتة، أن يكون العراق، وتحديداً الكوفة ـ على الرغم من انتـصار الأمويـين السياسى وإعـلانهم الحكم فى الشـام ـ البداية

1 ـ طه حسين ـ نفس المرجع ص163،

والنهاية معا للدولة الأموية عبر فرعيها السفيانى والمروانى معًا، فقد بدأت الأولى (السفيانية) مع صلح الإمام الحسن ﷺ وانتهت فى أعقاب كربلاء، بينما تكرست الثانية (المروانية) عمليًا، بعد القضاء على مصعب بن الزبير، وانتهت بقرار إسقاطها الذى أعلنه أبو سلمة الخلال من مسجد الكوفة بداية الحكم العباسى. ولعل أبرز ما تنطوى عليه هذه المفارقة، هو أن المعارضة الدؤوبة التى قادتها الحركة الشعبية فى هذه المدينة، كانت الهاجس اليومى للخلفاء الأمويين، الذين لم يجدوا سوى القوة سبيلا للدفاع عن نظامهم، المستمد (شرعيته) من السيف، ولم يجدوا غيره سبيلا للمحافظة عليه. وكان من الطبيعى أن يتلقى العراق، أقسى الضربات فى هذه المواجهة الطويلة والحادة بين الأمويين والمعارضة، سواء كانت شيعية أم زبيرية أو خوارجية[1].

تنازل الإمام الحسن ﷺ عن حقه فى الخلافة لمعاوية:

ولما دفن الإمام على ﷺ خرج ابنه الإمام الحسن ﷺ إلى المسجد الجامع، فاجتمع الناس إليه فبايعوه متحفظين، إذ كان الإمام الحسن ﷺ قد اشترط عليهم أن يبايعوه على مسالمة من يسالم ومحاربة من يحارب، وكانوا يميلون إلى الإمام الحسين ﷺ، ولكن الإمام الحسين ﷺ أبى أن يبايعه القوم فى حياة أخيه. أما معاوية، فقد بويع بالخلافة من جديد فى بيت المقدس بعد أن قتل الإمام على ﷺ، ودعى بأمير المؤمنين، ثم أقبل معاوية غازيًا العراق بجيوش كثيفة فى مقدمتها عبدالله بن عامر بن كريز، فاستولى على عين التمر، ثم نزل الأنبار فى طريقه إلى المدائن. وبلغ ذلك الإمام الحسن ﷺ وهو بالكوفة، فخرج فى اثنى عشر ألفًا يقودهم قيس بن سعد بن عبادة الأنصارى متجهًا إلى المدائن، فلما وصل إلى ساباط رأى من أتباعه زهدًا وانصرافا عن الحرب، فأعلن الإمام الحسن ﷺ أنه لا يريد أن يحمل الناس على ما يكرهون، وأن الجماعة خير من الفرقة، وكان فى معسكر الإمام الحسن ﷺ جماعة قد أخذوا بآراء الخوارج، فقالوا « كفر الإمام

1 ـ د. إبراهيم بيضون ـ المرجع السابق ـ ص329.

الحسن ﷺ كما كـفر أبوه من قبل»، فهاج النـاس عليه وانتزعوا مصـلاه من تحته ونهبوا متاعه، وطعنه أحدهم فى فخذه، فحمل الإمام الحسن ﷺ وهو جريح إلى المدائن وقد نزف نزفا شديدا، ونزل القصر الأبيض، وعولج حتى برأ. ثم إنه كتب إلى معاوية وقد وافى الأنبار يتنازل له عن الخلافـة بشروط منها: أن يعطيه معاوية ما فى بيـت مال الكوفة وقـدره خمـسة آلاف ألف دينار، وأن يحـمل إلى الإمام الحسين ﷺ كل عام ألفى ألف دينار، وأن يترك له خـراج دار ابجرد من فارس، وأن يكف عن سب أبيـه، فأجـابه مـعاوية إلى شـروطه، ولكنه أخل بالشـرطين الآخرين، فأما خـراج دار ابجرد فقد منعه أهل البـصرة عن إعطائه إياه بإيعاز من معاوية، وأما الكف عن سب الإمام على ﷺ فلم يف به أيضا. وذكر ابن قـتيبة أن الإمام الحسن ﷺ اصطلح مع معاوية على أن يظفر معاوية بالخلافة ما كان حيا فإذا مات فالأمـر للإمام الحسن ﷺ. ثم سار الإمام الحسن ﷺ بأهل بيته حتى وافى الكوفة، وتم تنازل الإمام الحسن ﷺ عن الخلافة لمعاوية فى 25 ربيع الأول عام 41، وقيل فى ربيع الآخـر، وقيل فى جمـادى الأول. أما معاوية فـقد دخل الكوفـة وبايعه النـاس، والتقى فـيهـا بالحـسن. ثم رحل الإمام الحـسن ﷺ إلى المدينة، ورحل معاوية إلى دمشـق بعد أن استعمل المغيرة بن شـعبة على الكوفة، وسمى هذا العام بعام الجماعة لاجتماع الأمة فيه على خليفة واحد. وإذا بحثنا فى الأسباب التى حملت الإمام الحسن ﷺ على تنازله عن الخلافة رغم اعتراض أخيه الإمام الحسين ﷺ على ذلك، وجدناها تنحصر فيما يلى: [1]

1 ـ كان الإمام الحسن ﷺ ينفر من الحرب ويشـفق على المسلمين من الفتن الداميـة، وكان قـد شهد بنفـسه عـاقبة الفـتنة الكبرى ومـا انتهت إليـه من مآسٍ ونكبات، راح ضحيتها كل من الخـليفة عثمان والإمام على ﷺ، وأدت إلى تجدد النزاع القديم بين بنى أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، وبين بنى عبد المطلب بن هاشم بن عبـد مناف. وقـد عبـر عن ذلك فى قـوله مـخـاطبا أصـحـابه وهو

1 ـ د. السيد عبدالعزيز سالم ـ المرجع السابق ـ ص608.

بساباط: «أيها الناس، إنى قد أصبحت غير محتمل على مسلم ضغينة، وإنى ناظر لكم كنظرى لنفسى، وأرى رأيا فلا تردوا على رأيى، إن الذى تكرهونه من الجماعة أفضل مما تحبون من الفرقة، وأرى أكثركم قد نكل عن الحرب، وفشل عند القتال، ولست أرى أن أحملكم على ما تكرهون». كان الإمام الحسن ﷺ يزهد فى الخلافة إذ كان توليه لها يفضى إلى الفتنة بين المسلمين، وكان قد نصح أباه الإمام عليا ﷺ بأن يقيل طلحة والزبير من بيعتهما، وأن يدع القوم يتشاورون عاما كاملا، فإذا رفضوه رفضهم وإذا قبلوه قبلهم.

2 ـ أراد الإمام الحسن ﷺ أن يخمد الفتنة على يديه، إما رغبة صادقة فى حقن دماء المسلمين وتسكين الفتنة وإشفاقا عليهم من الإقبال على مزيد من المعارك ومزيد من التضحيات البخسة، أو لاقتناعه بعقم أى محاولة للتغلب على أهل الشام، الذين رجحت كفتهم بسبب تلاحمهم وتضامنهم أمام أهل العراق المنقسمين على أنفسهم. وفى كلتا الحالتين جاء تصرف الإمام الحسن ﷺ نابعًا عن تفهم دقيق للموقف ومعبراً عن نظرة واقعية لحقائق الأمور. ولقد قرن الحسن بين ما فعله هو إذ حقن دماء المسلمين بما فعله جده رسول الله إذ بصر العرب بعد ضلال وهداهم بعد كفر، ويعبر الإمام الحسن ﷺ عن ذلك بقوله: «أيها الناس، إن الله هدى أولكم بأولنا، وحقن دماءكم بآخرنا».

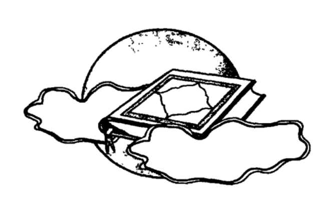
3 ـ لم يعد الإمام الحسن ﷺ يثق بأهل الكوفة بعد ما فعلوه بأبيه فى موقعة صفين وبعد أن تخذلوا عن الإمام الحسن ﷺ وكرهوا القتال، ونفروا بسرادقه، وتفرقوا عنه، وقد عبر عن ذلك فى خطبته لأهل العراق فقال: «يا أهل العراق إنه سخى بنفسى عنكم ثلاث: قتلكم أبى، وطعنكم إياى، وانتهابكم متاعى». ولما سئل الإمام الحسن بعد أن عاد إلى المدينة عن السبب الذى حمله على التنازل، قال: «كرهت الدنيا، ورأيت أهل الكوفة قومًا لايثق بهم أحد أبدًا إلا غلب، ليس أحد منهم يوافق آخر فى رأى ولا هوى، مختلفين لا نية لهم فى خير ولا شر.

لقد لقى أبى منهم أموراً عظامًا، فليت شعرى لمن يصلحون بعدى، وهى أسرع البلاد خرابًا». وهناك من يعزون تخليه عن حقه فى الخلافة بأنه لم يكن مهيأ لحمل أعبائها لتفضيله الحياة السهلة.

الواقع أن عودة الإمام الحسن إلى المدينة وتفضيله المقام بها بقية حياته على الكوفة أكبر المصرين، إنما يعبر عن نزعة دينية، وعن ميل إلى الانزواء، كما أن القول بزواجه من سبعين امرأة مبالغ فيه ويحمل على الشك، فلم يكن له من الولد سوى ثمانية ذكور من أربع زوجات وأمهات أولاد لا يمكن أن يصل عددهن إلى مثل هذا الرقم. ولذلك لانعتقد أنه تخلى عن الخلافة لرغبته فى الحياة السهلة، صحيح أنه كان يكره الفتن والقتال، ولكنه كان لا يتردد فى حمل السلاح والتعرض للموت إذا ما اقتضى الأمر ذلك، وقد رأيناه يدافع عن عثمان بن عفان حتى جرح وتلطخ وجهه بالدماء، ورأيناه فى أهل العراق يسعى لمحاربة معاوية، ثم يطعنه بعضهم فى فخذه فينزف نزفًا شديداً. فلم تكن المغامرة من طبيعته، ولا مزاجه مع التهور، مثبًا ذلك فى تفاديه المضى فى حرب خاسرة، بعد أن رأى «هوى الناس فى الصلح» حسب القول المنسوب له. ولكن الحذر الشديد فى المقابل، كان هو الطابع الملازم لقراراته السياسية بصورة شبه دائمة، حين ظلت خطواته، مقرونة بالاتزان والواقعية حتى بعد «الصلح»، على الرغم من التحريض المستمر من بعض أنصاره على تغيير هذا النهج الذى توخى منه البقاء على «شيعته من القتل ودفع هذه الحرب إلى يوم ما»، استناداً إلى الرواية التاريخية. وكان محصلا لانعدام ثقته بالجزء الأكبر من أعوانه الذين أدانتهم حروب صفين ومفاوضات التحكيم، بعد انكشاف ما فى نفوسهم من تغليب للمصالح الخاصة على غيرها من الالتزامات المبدئية، دون أن يجد ثمة تغييراً فى الموازين العسكرية التى كانت تسير بوضوح وفق إرداة معاوية ومصلحته، منذ توقف الحرب وعودة الإمام على عليه السلام إلى الكوفة.







نظام الحكم السياسى

- ظهور الدولة الجديدة.
- إشكالية حكم الأسرة الأموية.
- التحول من الحكم الإسلامى الانتخابى الشعبى إلى الحكم الوراثى الملكى.



استعـادت الدولة وحدتها السيـاسية بعد تنـازل الإمام الحسن عليه السلام، ولكنها فقدت الكثير من مـلامحها السابقة، ذلك أن عهداً جديداً ومـختلفًا برز مع معاوية فى دمشق التى أصبحت حاضرة الدولة الناشـئة. أما الكوفة التى عـاصرت نهاية الخلافة الراشدية، بعـد أن اختارها الإمام على مركزًا له فى أعـقاب حرب الجمل، فقد تـراجعت إلى الوراء، ولكن دون أن تفقد بريقـها السياسى والاسـتقطابى فى مواجهـة الحكم الأموى، بينما «المدينة»، الحـاضرة الأولى، لفها النسـيان وانطوت على نفسـها بعيداً عن الأحـداث، قبل أن تتحول مع الزمن إلى «منفى» للـقيادات السياسية، وجلهم من أبناء الصحابة، حـين اشترى معاوية سكوت بعضهم بالمال، والآخر بالقوة، محـاولا تطويق خطرهم واحتواء معارضتهم ما اسـتطاع سبيلا إلى ذلك. وليس ثمة شـك أن نجاح معـاوية فى إقامة هذه الدولة، اعـتمـد فى المقام الأول على موهبـة غير عادية فى السيـاسة والحكم، إذ كان على درجة عـالية من الذكاء والمرونة، بالإضافـة إلى صناعة العلاقات الاجـتماعية التى أتـقنها، وقدرته على استـقطاب الأنصار والحلفـاء وعلى إضعـاف الخصوم والإيقـاع فيمـا بينهم. وأخيراً لم يكن مؤسس الدولة الأموية يتورع، حتى فى الوقت الذى كان فيه يسكن وجدان الناس ويهيمن على تصرفاتهم، عن استـخدام مختلف الوسائل، حتى غير المشروعة، وصولا إلى تحقيق غاياته وأهدافه، وهذه الصفات المتعددة التى اجتمعت فى شخصية معاوية، أسهمت فى ولادة نهج جديد فى الحكم، لم يكن مألوفًا فى العهـود السابقة. فـمعاوية وفـقًا لهذه المعطـيات، يعتـبر رائد ما يسـمى بالمدرسة «الميكافيلية» أو «المعاوية» فى السياسة، القائمة على تسويغ الوسيلة من أجل الغاية، تلك التى عرفت باسم صاحبهـا المفكر الإيطالى «مكيافيلى» الذى ذاعت شهرته فى أوروبا منذ عـصر النهـضة. وقـد وصف المؤرخ الدمشـقى «الحصنى» هذه النـزعة الوصولية لدى معاوية بقوله: إنه «عاش بين زعازع الفتن وقوارع الحروب، مستعينًا

على بلوغ أمله بدهائه واصطناع الفطاحل من قريش وغيرهم، حتى بلغ الشأو الذى تحدثه به نفسه. وهكذا فإن دولة معاوية، اتخذت فى مسارها التنظيمى - السياسى اتجاهًا إنقلابيًا، تطورت معه الخلافة إلى ملك، أو من «الثيوقراطية» الدينية إلى «الأتوقراطية» السياسية، حسب التعبير الإغريقى القديم. وتعدت هذه التغييرات الجذرية، مضمون السلطة إلى مظاهرها، التى اقتبست من النظام البيزنطى بوجه خاص، إذ كان يطيب لمعاوية البحث عن أحوال ملوكهم، كما يقول المؤرخ الدمشقى السالف الذكر، ولعل هذا التحول فى الفكر السياسى وفى تقاليد الحكم، مرتبط فى جانب ما بالعامل الجغرافى، كون معاوية عاش مع بداية الفتوح على تخوم الدولة البيزنطية، بعيدًا عن بساطة الحجاز وعفوية الحياة الاجتماعية فيه. ومن هذا المنطلق فهو يرفض نهج السلف، بإعطاء المسجد دوره الاستقطابى التقليدى فى حياة رجل الدولة فى الإسلام، ويتمسك بهذه المظاهر الدنيوية المعقدة. فقد نسب إليه إقامة حاجز بينه وبين عامة الناس، مؤثرًا الإقامة فى «الخضراء»، أو قصره الشهير الذى تميز بكل مظاهر الملوك، من العرش إلى الحرس إلى الحجاب، فضلا عن الاعتزال فى محراب المسجد الذى كان أشبه بمقصورة خاصة تفصله عن بقية المصلين، إلى آخر هذه المظاهر التى انفرد بها معاوية، دون أسلافه من خلفاء الدولة الإسلامية. ولعله كان ميالا بالفطرة إلى هذا النمط السلوكى، الذى تجلى وهو بعد ما يزال واليًا على الشام، حين وصفه الخليفة عمر بن الخطاب حينذاك، بأنه «كسرى العرب» حسب رواية المدائنى[1].

انطوت بيعة الإمام الحسن ﷺ لمعاوية على مرحلة هامة من مراحل التاريخ الإسلامى. إنها طوت العصر الراشدى وافتتحت العصر الأموى، وأدت إلى عودة الأسرة «المحمدية العلوية» إلى موقع المعارضة فى السلطة، بعد مراحل طويلة من

---

1 - د. إبراهيم بيضون - المرجع السابق - ص147.

الصراع، حيث انتهت جولة أخرى لصالح الأمويين. وبدأ بعام الجماعة عهد جديد من عود الحكم فى الدولة الإسلامية، التى استعادت وحدتها السياسية، مع اعتلاء معاوية سدة الخلافة فى دمشق التى أضحت العاصمة المركزية للدولة الجديدة. لقد كان معاوية أرحب أفقًا، وأبعد مدى من المحيط الذى حوله. وكانت تطلعاته إلى قيام دولة «ملكية أرستقراطية وراثية»، فى رأس اهتماماته، لذلك اجتهد أن يقيم صرح دولته على عدة أركان لعل أهمها: [1]

1 ـ التغييرات فى بنية النظام السياسى، وتتمحور حول دور الجيش، الذى أنشأه ونظمه منذ أن كان واليًا على الشام؛ فى تحقيق الاستقرار فى الداخل، والتوسع فى الخارج.

2 ـ السياسة الداخلية، وتتناول الإدارة وتحقيق التوازن القبلى وتأمين ولاية العهد، وإخضاع المعارضة.

3 ـ توطيد الأمن فى ربوع العالم الإسلامى.

4 ـ مباشرة أمور الدولة بنفسه، حيث كرس كل وقته وجهده من أجل مملكته.

5 ـ السياسة التوسعية، فقد اعتمد معاوية فى تحقيق ذلك على مواهبه السياسية، حيث كان على درجة عالية من الذكاء والمرونة بالإضافة إلى أنه أنشأ علاقات اجتماعية استقطبت الحلفاء وأضعفت الخصوم، واضطرته الظروف السياسية، التى أحاطت بدولته الناشئة، أن يعمل على صعيدين: صعيد التحالف مع السكان الأصليين فى بلاد الشام، وصعيد التحالف مع أقوى القبائل العربية، وهى القبائل اليمنية، التى ساندته فى الوصول إلى الحكم، وقد شكلت ركيزة حكمه. وثبت هذا التحالف زواجه من ميسون الكلبية، وزواج ولده يزيد بامرأة

---

1 ـ د. محمد سهيل طقوش ـ تاريخ الدولة الأموية ـ دار النفائس ـ ص17.

منهم. ويوضح لنا هذا التحالف الخط السياسى الذى اعتمده فى علاقاته العامة. لكن معاوية الحجازى، وهو السياسى البارع، لم تكن تعنيه عصبية ما إلا بقدر ما تخدم مصالحه، وقد هدف أن يجعل العنصر العربى دعامة أساسية لطموحه الشخصى، وطموح الطبقة الأموية الحاكمة. وخاصة القبائل اليمنية لقوتها ولشدتها ولكثرتها. ومن المؤكد أن هذه المنهجية السياسية أدت، من خلال مسارها التنظيمى إلى شكل مختلف من الخلافة، إلى الملكية.

كان من بين السمات التى ميزت المجتمع الجاهلى هى انقسام هذا المجتمع إلى عصبيتين حجازية ويمنية حيث تمثلت الحجازية بقبائل نزار وربيعة ومضر من عرب الشمال، بينما تمثلت اليمنية بقبائل أخرى هاجرت من جنوبى الجزيرة العربية واستوطنت بلاد الشمال وغيرها من البلاد المفتوحة منها قبائل الأزد والغساسنة والمناذرة، وتزعمت قبيلة كلب اليمنية الشام. وخمدت هذه العصبية خلال عصر الرسالة وعصر الخلفاء الراشدين، إلا أن انتشار القبائل العربية فى الأمصار على إثر الفتوحات الإسلامية، حمل معه هذه العصبية الجاهلية بين عرب الحجازيين فى الشمال الذين انتسبوا لجدهم عدنان وعرفوا بالعدنانية، وبين عرب اليمنيين فى الجنوب الذى انتسبوا لجدهم قحطان وعرفوا بالقحطانية، وتحولت مع مرور الزمن إلى حزبين سياسيين اشتد التنافس بينهما وأثر، إلى حد كبير، فى الاتجاهات السياسية لدولة الخلافة الأموية.

ومن ناحية أخرى فإن مؤسس دولة الأمويين، استولى، كما هو معروف، على الحكم فى ظل ظروف غير طبيعية، دون أن يتم ذلك عبر «الانتخاب» أو «الجماعة»، بل عن طريق القوة فى أعقاب حرب أهلية دامية. ومن هذا المنظور، فإن أى نظام يشاد بالسيف، يحتاج إلى أن يحميه السلاح نفسه، أو كان عرضة للانهيار السريع، وهذه الحقيقة كانت نقطة الضعف الرئيسية فى دولة معاوية، على الرغم من محاولة استيعابها، من خلال التأكيد على دور القوة المسلحة، كأداة

ضرورية لحماية هذه الدولة. وكـان للقبائل اليمنية الشاميـة التى حملت أعباء هذا الدور، تأثير كبير فى الدفاع عن الحكم الأمـوى، وضرب حركات المعارضة بمنتهى الشدة عن طريق الحملات العسكرية التـى قادها ابن زياد وسفيان بن الأبرد الكلبى (العراق) ومسلم بن عقبة والحجاج بن يوسف (الحجاز) وكلثوم بن عياض القشيرى وحنظلة بن صـفوان الكلبى (المغـرب الأقصى). وهكذا فـإن تكوين هذه المؤسـسة (الجيش)، تم فى إطار النظام القـبلى التقليدى الذى استـعاد حيويته تدريـجيًا منذ حرب الجمـل، وهى أول معركة بين المسلمـين، كان الالتزام فيـها ظاهراً بالموقف القبلى، قبل أن يتبلور فى مـعارك صفين، حيث قاتلت القبـائل كوحدة عسكرية، وليس كأفراد ملتزمين بموقف مـبدئى وثابت. وكانت الخطورة فى ذلك، أن الجيش الأموى، تحول مع الوقت إلى «طبقة» عسكرية، تمتـعت بامتيازات خاصة وتحركت وفق مصـالحها الاقـتصادية والقـبلية، قبل أن تكون أداة طيـعة فى قبـضة الدولة، وبالتالى فـإن العمليـات الحربية التى تم تنفـيذها فى ذلك الوقت، كـانت انعكاسًا واضحًا لهذه «المؤسسة». فلم تعد حركة الفتـوح قضية مبدئية، على نحو ما كانت عليه بالنسبة لمقـاتلى العصر الأول من الإسلام، بعد أن افتقدت الكثـير من وهجها ومن مضمـونها الإنسانى، وبعد أن لجأ الخلفـاء أو معظمهم، إلى تسيـيس الفتوح وإخضاعها لاعـتبارات مرحلية، كامتصاص النقـمة أو إرواء رغبات القادة والجنود المتعطشين للمال وللسيطرة.

ومن ثم إبعـــادهم عن التـدخل فى شـــؤون الحكم، فـضــلا عــن النزعـة «الامبـراطورية» التى خالجت الخلفاء الأمـويين، والسعى إلى إقـامة دولة عظمى، محورها العنصر العربى (القبائل) الذى اقتصرت عليه القوة العسكرية لهذه الدولة. بيد أن هذا «الجـيش» برغم تناقضاته الـقبلية والإقليـمية، كـان الأداة الفاعلة التى اعتمـد عليها معـاوية وكبار الخلفاء الأمـويين، فى تثبيت النظام وضـرب الحركات

الثورية المعادية. فالطابع العسكرى إذن، كان أكثر سمات هذه الدولة تجليًا، بعد أن زامنها فى جميع المراحل، من الولادة التى تمت بالقوة، كما أشرنا، إلى النهج القمعى التقليدى فى التعامل مع المعارضة وخصوم النظام، وأخيراً إلى السقوط الذى تم بالقوة أيضًا، وبوسائل أكثر تطرفًا من الوسائل الأموية. وبعد هذا الموقف عند تكوين «الجيش» الأموى، الذى كان عصب الحياة السياسية والعسكرية فى دولة معاوية، لابد من الإحاطة بالجوانب الأخرى للأخيرة التى قامت على هذه الأركان الثلاثة:[1]

1 ـ التغيرات السياسية فى بنية النظام، وهى تتمحور حول دور الجيش والتحول إلى «الملكية» الفردية.

2 ـ السياسة الداخلية، وتتناول: الإدارة ـ التوازن القبلى ـ ولاية العهد ـ تطويع المعارضة.

3 ـ السياسة التوسعية، وتتعلق بالنظام الحربى والدفاعى، فضلا عن استئناف حركة الفتوح.

ولقد ألمحنا سابقًا إلى تعديل نظام الحكم الذى تطور نحو الملكية متأثراً بالمظاهر المقتبسة عن التقاليد البيزنطية، كذلك ألمحنا إلى دور «الجيش» فى قيام هذه الدولة واستمرارها، وتحوله إلى جهاز يستمد منه الخلفاء الأمويون القوة والشرعية فى السلطة. إما السياسة الداخلية، فقد جاءت فى الواقع انعكاسًا لذهنية الحكم والسياسة التى جعلت من الأسرة الحاكمة والقبائل القريبة منها فئة متميزة فى موقعها الاجتماعى والسياسى. إما خارج النطاق الأسروى، فقد اتبع معاوية قاعدة التوازن العلائقى مع حلفائه، حيث كانت القوى القبلية فى الشام، تعمل بمجملها فى خدمة الدولة، دون أن تعيقها عن ذلك تناقضاتها المحلية والمتوارثة. فهو على الرغم من ارتباطه بتحالفات ومصاهرات مع اليمنيين، لا سيما كبرى قبائلهم

---

1 ـ د. إبراهيم بيضون ـ المرجع السابق ـ ص147.

«كلب»، فإن الحجاريين لم يشعروا فى عهده بالظلم أو الحرمان، انطلاقا من سياسته الموازنة التى لم تثر حفيظة ما إزاء خصومهم التقليديين، بل كانت على العكس من ذلك تدفعهم إلى توثيق علاقاتهم بالدولة والتسابق إلى مواقع النفوذ فيها. وكان من محصلات هذا التحالف الأموى ـ الحجازى، تعيين الضحاك بن قيس الفهرى (من قريش الظواهر) على ولاية دمشق، بما يعنيه هذا المنصب من أهمية وخطورة فى ذلك الحين.

يستفاد من دراسة التاريخ الإسلامى فى شتى مراحله ـ أن عملية نقل السلطة لم تكن دائما ذات نسق واحد. فنجد أنها ـ خلال الصدر الأول للإسلام ونعنى فترة الخلافة الراشدة بالذات ـ كانت تتبع نسق الرضا والاختيار والبيعة الديمقراطية والمشورة وصفقة اليد وثمرة القلب، والابتعاد ـ ما أمكن ـ عن كل صور الاستلاب والعسف والجبر والقهر والاغتصاب. لكن هذا النسق المتقدم لم يقدر له عمرا طويلا (11 ـ 40هـ) أى ما يقارب الثلاثين عاما. تبع ذلك نسق آخر. فى نقل السلطة يختلف ـ شكلا وموضوعا ـ عن النسق الأول الذى ساد فى فترة الخلافة الراشدة. وقد بدأ هذا معاوية مؤسس الدولة الأموية التى استمرت لمدة أطول بكثير من دولة الخلافة الراشدة، أى ما يقارب سبعة وثمانين عاما، ساد خلال الفترة الأموية أسلوب جديد لنقل السلطة. أسلوب لايخلو من الجبر والقهر والاستلاب والعسف أفرز حكما وراثيًا عائليا صرفا ابتعد شيئا فشيئا عن حوزة العقيدة السماوية الإسلامية والمنهج العقائدى الديمقراطى والدعوة إلى الله وتحقيق القسط بين الناس كما علمنا القرآن، ودخل شيئا فشيئا إلى عالم الدولة الوراثية الملكية المستبدة وعمليات الاستدعاء السياسى للقبيلة وتكريس التفاوت المعيشى بين الناس وبروز الإقطاع السياسى كقوة ارتدادية جديدة. وحملت هذه الدولة منذ نشأتها كل الجراثيم التى ادت ـ فى النهاية ـ إلى انهيارها. وقامت الدولة العباسية كرد فعل تاريخى للدولة الأموية، غير أن طبيعة هذا الرد لم تكن راشدة على الإطلاق، بل سلكت ذات الأسلوب وذات الاتجاه من حيث نقل السلطة ومن حيث وفرة الروح الجبرية والقهرية والاستلابية. ودارت أيام وشهور وسنون وقرون التاريخ الإسلامى

على هذا النمط الجبرى الملكى بحيث أصبحت ـ عمليًا ـ فكرة الفصل بين الدين والسياسة واردة على صعيد الواقع، بل وعلى مقعد الخلافة نفسها. نقصد، أن العائلات الحاكمة والسلالات المغتصبة للسلطة أخذت على مر التاريخ تحكم وتتوارث الحكم وتشن الحروب وتوقع المعاهدات وتستحدث التشريعات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والعسكرية، تفعل كل ذلك باسم الإسلام، وفى نفس الوقت تقاوم بشراسة تاريخية لا مثيل لها كل جهد فردى أو جماعى لإعادة الإسلام ـ بالفعل ـ إلى القيادة السياسية، وإلى ماكينة القرار السياسى الديمقراطى. وتحقق بالفعل الانشطار فى القيادة الإسلامية. فعلى رأس الدولة وفى أجهزتها تسود العقلية السياسية المحضة الخالية من التوجه العقائدى الذى عناه الإسلام تاريخيا. وعلى الصعيد الشعبى ينتشر الفقهاء، والعلماء والمحدثون والقراء ورواة الحديث والمؤرخون وغيرهم من الفئات ذات التوجه العقائدى الإسلامى الصرف. وأصبحت سلطة العائلات الحاكمة والسلالات المغتصبة للسلطة تتحدث بلغة لاتفهمها القاعدة الشعبية الإسلامية. وأصبحت الأخيرة لاترى فى الأولى تجسيدا عمليا صحيحا للإسلام. وأفرز هذا الانشطار والانقسام فى كيان الأمة الإسلامية أدبا وفقها وشعرا يعكس المرارة واليأس والانزواء من جهة، كما أنه يعكس أيضا الروح التوفيقية التى سادت فى تلك المرحلة[1].

وإزاء هذا التراكم التاريخى الضخم للأفعال وردود الأفعال والذى استمر لمدة لاتقل عن 14 قرنا، يبرز السؤال الجوهرى: كيف تكون الدولة عندما يحكم الإسلام؟ هل دولة الإسلام التى ندعو لها هى دولة الخلافة الراشدة؟ أم هى الدولة الأموية والعباسية إلى آخر المسميات؟ ويبرز السؤال الجوهرى بشكل عفوى وطبيعى خاصة بعد قراءة التاريخ الإسلامى وبالذات مراحل الدولة الراشدة والأموية والعباسية. ذلك لأن هناك اختلافا كبيرا بين دولة الخلافة الراشدة من جهة والأموية والعباسية من جهة أخرى من حيث أسلوب نقل السلطة السياسية وطبيعة

1 ـ د. عبدالله فهد النفيسى ـ عندما يحكم الإسلام ص16.

تراكيب السلطة السياسية وتوجه الدولة بشكل عام وطبيعة اتجاه السياسات الاجتماعية والاقتصادية التى سادت آنذاك. فالسلطة الراشدة قامت وانتقلت من أبى بكر إلى عمر إلى عثمان إلى على رضى الله عنهم بالرضا والديمقراطية والانتخاب الحر والاختيار لعموم المسلمين، تحققت فيها صفقة اليد وثمرة القلب، وكافة شروط البيعة الإسلامية الصحيحة. بينما نجد أن السلطة الأموية قامت وانتقلت عن طريق الجبر والتوارث وولاية العهد وهو طريق لا يقره الفقهاء ولا تقره الشريعة الإسلامية. وتركيب السلطة الراشدة كان تركيبا نادرا فى بساطته ومباشرته وانفتاحه على الأمة والجماعة وإعماله لآيات الشورى وتلقيه المشورة الإسلامية تلقيا للتنفيذ لا للتنطع والاستعداد الدائم لدى الخلفاء الراشدين - رضى الله عنهم وأرضاهم - لركوب أى صعب من أجل الدعوة الإسلامية والتحرج من الأكل من بيت المال حتى ضمن الحدود التى سمح لهم بها الشرع. وأما تركيب السلطة الأموية فكان معقدا ومن طراز السلطة القيصرية فى القسطنطينية وملكيا صرفا أقام الحجب والجدر بين الملوك الجدد فى دمشق وبين الأمة والجماعة وأهدر وعطل مبدأ الشورى وتلقى المشورة الإسلامية، وتوسع فى الأكل من بيت المال حتى خرج كثيرا على حدود ما هو مسموح به شرعا. وأما توجه الدولة الراشدة فكان يهدف إلى تكريس وتعزيز وتثبيت النظام الإسلامى وتطبيق شريعته حتى إن خلفاء تلك الدولة النادرة فى رشدها خسروا فى هذا السبيل كثيرا من القوى المؤيدة لهم فى الجزيرة العربية، بينما نجد أن توجه الدولة الأموية العام كان يهدف إلى تكريس وتعزيز وتثبيت حكم العائلة الأموية حتى إن خلفاء تلك الدولة أثاروا - فى سبيل ذلك - النعرات بين المسلمين العرب والمسلمين غير العرب وشتتوا العرب أنفسهم عن طريق القبلية العدنانية والقحطانية والمضرية والأزدية واليمانية إلى آخر قائمة «الردح» العربى[1].

قد يعترض معترض على نقدنا لمعاوية بن أبى سفيان بحجة أن معاوية من صحابة رسول الله ﷺ وأن الصحابة رضوان الله عليهم - كما يعتقد عامة المحدثين

1 - د. عبدالله فهد النفيسى - نفس المرجع ص17.

والفقهاء ونحن نتبعهم بلا شك - «كلهم عدول»، وقد يذهب هذا المعترض للقاضى أبى بكر بن العربى يستفتيه فى هذا الأمر فيفتح كتاب «العواصم من القواصم» ليؤكد لنا أن معاوية كان محل ثقة رسول الله ﷺ الذى قال عنه: اللهم اهد به. . وأن عمر بن الخطاب جمع له الشامات كلها وأفرده بها لما رأى من حسن سيرته وأنه - أى معاوية - حمى البيضة وسد الثغور وأصلح الجند وظهر على العدو إلى آخر ما يقوله القاضى ابن العربى عن معاوية. ونقول نحن أن كل هذا لايجعل من معاوية بن أبى سفيان شخصا معصوما من الخطأ وحتى لو أخطأ فإن هذا لايتنافى مع «الصحابة كلهم عدول». ونحن فى هذه الدراسة نذهب - فى هذا الأمر - مذهب الداعية الكبير أبى الأعلى المودودى رحمه الله: «إن عقيدتى عن الصحابة الكرام هى نفس عقيدة عامة المحدثين والفقهاء وعلماء الأمة منهم أن «كلهم عدول» وطبيعى أنهم الوسيلة التى بها وصل الدين إلينا وأى شك فى عدالتهم - ولو قدر ذرة - يؤدى إلى الشك فى الدين ذاته. غير أنى لا أفهم «الصحابة كلهم عدول» بمعنى أنهم جميعا لايخطئون وأن كل واحد منهم كان فوق كل نوع من نقاط الضعف، أو النقائص البشرية وأن أحدا منهم لم يخطئ قط، إنما أفهمها على أن أيا من الصحابة لم يتجاوز الصدق والصواب فى روايته عن الرسول ﷺ أو نسبته له أى قول أو فعل. فإن فهمناها على المعنى الأول ما وجدنا فى تأييده روايات قوية ذات أسانيد صحيحة، لا فى التاريخ ولا فى الحديث. وإن فهمناها على المعنى الثانى ثبت لدينا بالقطع ما لا يمكن لأحد أن يثبت ما يخالفه من أى مصدر موثوق. إلى حد أنهم حتى وهم يديرون رحى المعارك أمام بعضهم لم ينتحل أى منهم ولو حديثا واحدا يؤيد به موقفه أو يكذب ولو حديثا صحيحا يعارض مصلحته. لهذا لاينبغى أن تفهم أذهاننا خطأ - عند مناقشة خلافات الصحابة - أننا لو اعترفنا بصحة موقف أحدهم وخطأ الآخر، ففى ذلك خطر على الدين. أما فى رواية الصحابة عن رسول الله ﷺ، فنحن نثق فيهم - بلا استثناء - ثقة قاطعة ونقبل رواية أيهم بكل احترام وتوقير. فإن نحن فهمنا عدل الصحابة على أن كافة صحابة الرسول ﷺ كانوا أوفياء مخلصين تماما وكانوا جميعا يعرفون أن المسئوليات الكبرى فى تبليغ سنة الرسول وهديه للناس فى أعناقهم ومن ثم لم

يخطئ أحد منهم قط فى نسبة أى قول للنبى ﷺ، فإن هذا التفسير لمعنى الصحابة كلهم عدول يصدق عليهم جميعا بلا استثناء. أما إذا فهمناها على أن الصحابة كلهم ـ دون استثناء ـ كانوا عادلين فى كافة الأمور فلم يصدر عن أى واحد منهم فعل يخالف العدل والإنصاف فإن هذا التفسير لن ينسحب عليهم جميعا. ومما لا شك فيه أن كثرتهم الغالبة كانت ذات شأن بعيد فى العدل والإنصاف ولكن لا يمكن أن ننكر أن بعضًا منهم صدرت عنه بعض الأمور التى تخالف العدل أيضا. لهذا لا يمكن اعتبار التفسير الثانى للصحابة كلهم عدول قاعدة كلية غير أن عدم كونه قاعدة كلية لايستتبع أو يستلزم بالضرورة أن يكون أحد منهم غير ثقة فى روايته الحديث عن النبى ﷺ لأن التفسير الأول للصحابة كلهم عدول قاعدة كلية لم تنقض أو تخالف قط» فلنسأل أنفسنا هذا السؤال الجوهرى: لماذا أرسل الله سبحانه وتعالى رسله؟ يجيب القرآن على هذا السؤال بآية قاطعة حاسمة فاصلة؛ ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد ـ25] يقول الشوكانى: أى ليتبعوا ما أمروا به من العدل فيتعاملوا فيما بينهم بالنصفة والقسط والعدل. ويؤكد الله فى كتابه الكريم هذا المعنى بآيات عديدة مؤداها أن تحقيق العدل والقسط والمساواة بين الناس هو الهدف السامى الذى تسترشد فى تحقيقه كل رسالات السماء إلى الأرض. لا بل إن الله يهدد ويتوعد كل الطغاة الجبارين المستكبرين فى الأرض الذين يقفون حجر عثرة فى طريق العدل بين الناس: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران ـ21]. وتتوالى الآيات فى القرآن لتؤكد هذا المعنى[1].

﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾ [الأعراف ـ 29] ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ﴾ [المائدة ـ42] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ﴾ [النساء ـ 135] ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ [آل عمران ـ 18].

---

1 ـ د. عبدالله فهد النفيسى ـ نفس المرجع ص22.

وإذا كان هذا هو هدف كل رسـالات السمـاء إلى الأرض، وإذا كانت هذه هى مهمة رسل الله إلى الأرض، وإذا كانت هذه هى مـهمة المصطفى ﷺ باعتباره خاتم الأنبياء والمرسلين، فإن كل من يقف فى وجه تحقيق هذا الهدف السامى ـ أى تحقيق العدل والقسط والمساواة بين الناس ـ فهو من ضمن من توعده الله فى كتابه الكريم وهو من ضـمن المعوقـات فى طريق الدعوة إلى الله. والقـسط بين الناس لايمكن أن يتحقق إلا إذا آمنت به مؤسسة الحكم وأجـهزتها، فكيفما يكون موقف الحكم من قـضيـة القسط بين الناس يكون حـال الناس سلبًـا وإيجابًا، فـإذا كان تركيب الهيـئة الحاكمة تركيـبًا عائليًا مغلقًا امـتيازيًا متسلطًا فلن يتـحقق بالضرورة القسط بين الناس كـما أمر به الله، والذين لايفهـمون هذا البعد من أبعـاد شريعة الله يخطئون كثيـراً ويظلمون الناس كثيراً، بل إنهم يظلمون أنفسـهم أكثر وأكثر. كان من الضـرورى أن نقول كل ذلك للرد على بعض الأقلام الإسـلامية الملتـزمة التى تقع هذه الأيام فى خـلط كبـيـر ـ فى حد علـمنا ـ ونسأل اللـه أن يبصـرها ويبصرنا معها فى فهم شريعته. تنبرى هذه الأقلام الإسلامية الملتزمة ـ وبحسن نية ـ للدفاع عن كلية التاريخ الإسلامى فى كل فتراته وهى فى ذلك لاترضى ولاتقبل أية بوادر انتقـادية له سواء صـدرت من أصدقاء أو أعـداء. ونعتـقد ـ والله أدرى وأعلم ـ أن هذه الأقلام تقع فى خلـط بين تاريخ المسلمين من جهـة والإسلام من جهة أخرى. وهى تـعتبر كل نقد لتاريخ المسلمـين ـ والذى هو تاريخ بشر بكل ما فى البشر من ضعف وخطأ ـ هو بالضرورة نقد للإسلام. ولنا فى ذلك رأى أرجو أن تتـسع له صدور إخـواننا فى الله، وإذا لم تتـسع ـ لاسمح الله ـ له الصـدور فليؤخذ على أنه رأى وحسب وليكن الاختلاف فى هذا الأمر رفيع المستوى. ولئن كان ابن تيمـيةـ كما قال أخونا فى الله زين العـابدين الركابى ـ قد رفع الملام عن الأئمة الأعلام بإيجاد الأعذار المقبولة والتفسير الموضوعى لتفاوتهم أو اختلافهم فى الدليل، فإن الثمـرة العملية لذلك ـ بالنسبة لنـا ـ يجب أن تكون أو تتمثل فى أن يرفع الملام عن المخـتلفين اليوم داخل إطـار العمل للدعوة الإسـلاميـة. نقول إن

هجوم المستشرقين والصليبيين واليهود والعملاء الحضاريين للغرب وللشرق على الأمويين والعباسيين والفاطميين والحمدانيين والعثمانيين مثلا لاينبغى أن يستفزنا ويستثيرنا لدرجة أن تشرع الأقلام، كل الأقلام، فى دفاع مستميت عن كلية الفترة الأموية والعباسية والفاطمية والحمدانية والعثمانية دون أن نعى خطورة الانحرافات التى حصلت فى تلك الفترات من تاريخنا الإسلامى. وأهم وأخطر انحراف وقعت فيه تلك الفترات أنها جعلت الخلافة - وهى مؤسسة الحكم الإسلامى - شأنا عائليا خاصًا توارثتها وكأنها ملكية خاصة دون أدنى اعتبار للأصول السياسية التى تقيد بها الخلفاء الراشدون ولأن هيئة الحكم اتخذت هذه الطبيعة فى تركيبها، وكان موقفها - بشكل عام - من قضية القسط والعدل والمساواة بين الناس موقفًا سلبيا للغاية. ولا يستطيع أحد أن ينكر أن الخلافة - بشكل عام - فى تلك الفترات تحولت إلى موقع امتيازى عائلى تسلطى غابت عنه المقاييس الربانية والأهداف السامية التى جاء الإسلام لتحقيقها فى الأرض. وحكم العائلة سواء كانت العائلة الأموية أو العباسية أو الفاطمية أو الحمدانية أو العثمانية أو أية عائلة حاكمة فى عالمنا الإسلامى اليوم هو أخطر انحراف وقع فى التاريخ الإسلامى. ذلك لأنه يحيط العائلة الحاكمة - بشيبها وشبابها وصبيانها وغلمانها ونسائها ومهرجيها [1] ومن لايذكر الله فيها - بسياج من الهيبة والامتياز المادى والمعنوى على حساب كل الآيات التى وردت فى الكتاب الكريم.

التحول من الحكم الإسلامى الانتخابى الشعبى إلى الحكم الوراثى الملكى:

وبتنازل الإمام الحسن عليه السلام عن الخلافة أصبح معاوية خليفة للمسلمين بإجماع الأمصار الإسلامية، ومنذ هذه اللحظة أخذ يعد العدة لحصر الخلافة فى البيت الأموى، وجعلها وراثية، بعد أن استقامت الأمور فى الدولة الأموية وأخذت الأوضاع نصيبها من الاستقرار، واجهت معاوية مشكلة معقدة، وهى مشكلة الحكم ومصير الدولة بعد غيابه. وإذا كان النظام الفردى (الأوتوقراطى) الذى تبناه، أو فرض نفسه فى ذلك الحين، حيث القوة العسكرية كانت مصدر

1 - د. عبدالله النفيسى - نفس المرجع ص23.

السلطة فى البيت الأموى، قد اكتسب الكثير من ملامح الأنظمة الزمنية المعاصرة، فمن الطبيعى أن يتخذ خطوات أشد وضوحًا فى هذا الاتجاه، خلال السنوات العشر الأخيرة من عهد معاوية، منصرفًا خلالها أو يكاد إلى معالجة هذه المسألة. وكانت ثمة دوافع تشجع الخليفة على حسم ولاية العهد فى حياته، أنه عاصر جميع مراحل الصراع السياسى، المقنوع والمكشوف على السلطة، منذ وفاة الرسول وحتى عهده الذى كان لا يزال مثاراً للجدل، مروراً بالتجربة الراشدية، أو بعضه الذى شكل أداة التفجير الموقوتة ضد نظامه، وتحول إلى صورة مثالية فى أذهان المسلمين للدولة العادلة. ولعل أكثر ما خشيه معاوية، على الرغم من هذا الاتجاه «الملكى» لدولته الأموية، انهيار الأخيرة بعد غيابه، وسط التطاحن والعصبيات وشتى ألوان التناقض الذى حفلت به الساحة الشامية. فهى إذن مشكلة فراغ، لا بد أن تتزامن مع غياب شخصية غير عادية، جمعت فى يدها كل أطراف السلطة، كما ارتبطت تاريخيًا بجميع مراحل تكوينها وانطبعت بصماتها على مظاهر الحياة السياسية والقبلية فى الدولة. ولقد سوغ بعض المؤرخين - وفى طليعتهم ابن خلدون - هذا التحول «الملكى» للخلافة وإخراجها «عن أصولها»، بأن مؤسس الدولة الأموية أراد وضع حد لمشكلة السلطة المزمنة، وذلك من منظور قرشى عصبوى حين قال: «إنما هو مراعاة المصلحة فى اجتماع الناس واتفاق أهوائهم باتفاق أهل الحل والعقد عليه حينئذ من بنى أمية، إذ بنو أمية يومئذ لا يرتضون سواهم، وهم عصابة قريش وأهل الملة أجمع وأهل الغلب منهم». على أن هذه المسألة، مرتبطة أساسًا بالتطورات التى رافقت قيام الدولة الإسلامية بعد وفاة النبى، انطلاقًا من السقيفة وجدليات البيعة الأولى، ومن ثم إخفاق الشورى التى ظهرت كنظرية فى أعقاب ذلك، لتسويغ شرعية الخلافة وإنقاذها من «حصار» الأمر الواقع. وإذا كانت هذه الصيغة على الرغم من نجاحها فترة ما فى العهد الراشدى قد أثبتت فشلها فى أواخره، فإن المشروع الأموى رفضها تمامًا واعتبرها ملغية منذ مقتل عثمان، لتقوم على أنقاضها نظرية «الحق القرشى» شبه المقدس، تلك التى أخذ معاوية يبشر بها منذ الثلاثينات الأولى. والواقع أن ثمة وجهين

للمشكلة خالجا رأى معاوية فى ذلك الحين: الأول، إقناع الناس بقبول مبدأ الوراثة، لاسيما كبار المعارضين فى الحجاز. والثانى، أن يزيد لم يكن على الأرجح، وحسب المرويات أو معظمها، ذلك الرجل المطلوب لملء الفراغ بعد أبيه المؤسس. ومن أجل سد هذه الثغرة وتهيئة الأجواء المناسبة لإعلان ولاية العهد، كان لابد من اتخاذ خطوات سريعة تجعل من يزيد الشخصية المؤهلة للمهمة الصعبة. لذلك حرص معاوية على رسم صورة جديدة له أمام المسلمين، تعكس الوقار وأيضًا الشجاعة وحسن القيادة. فأرسله إلى مكة نائبًا عنه فى موسم الحج - حيث العادة جرت بأن يقيم الخليفة الحج أو ينيب عامل «المدينة» - بما لذلك من تأثير على الرأى العام الإسلامى، لاسيما الحجازى، فضلا عن تبديد الشكوك بجدية يزيد وتغيير الصورة الغائمة التى انطبعت فى أذهان الناس عنه. كما هيأ له الفرصة التاريخية، لقيادة المحاولة الكبرى التى استهدفت عاصمة البيزنطيين وانتهت إلى حصارها، تمهيدًا لإخضاعها والسيطرة عليها، وذلك فى العام نفسه (50هـ الموافق 670م) الذى دعا فيه معاوية أهل الشام إلى بيعة يزيد، حسب رواية «ابن خياط». غير أن هذه الحملة، على الرغم من ضخامتها وما رافقها من آمال عريضة بالدخول إلى القسطنطينية، فإن هذه الأخيرة أثبتت مناعتها وصعوبة اختراقها، دون أن يكون فى متناول الحملة الأموية، من الأسلحة المتطورة لإسقاطها، مما انتهى بها إلى الانسحاب، ومعها نقطة إضافية من الفشل الذى حفل به سجل ولى العهد طوال تاريخه السياسى. غير أن معاوية، وقد شهد بوطأة السنين المديدة على كاهله، لم يشأ انتظارًا أكثر لحسم هذه المشكلة. فهو يمتلك القدرة على تنفيذ ما يريد، وتوظيف ثقله السياسى فى إقناع أشد المتصلبين من أبناء الصحابة. وكانت الصورة العامة، كما استوعبها معاوية تخضع لمعطيات متفاوتة، وتحديدًا لاتجاهين متناقضين: الأول، هو الرافض مبدئيًا لهذا الأمر، وقد ضم الفئات المتذمرة التى قبلت مكرهة بالحكم الأموى، وانتظرت غياب مؤسسة الإعلان السلبى الذى أصبح أكثر تشنجًا مع تداول الحديث عن ولاية العهد. أما ذريعتها الأخرى، فهى أن الإجراء كان برأيها دخيلا على العرف المألوف وخروجًا على «الشورى» التى

أصبحت على الرغم من انتقاد الكثيرين لها فى العهد السابق، المطلب الأوسع دائرة لدى الجمهور الإسلامى فى ذلك الحين. أما الاتجاه الثانى، فكانت تمثله القوى القبلية المؤيدة للنظام والمتحالفة معه، وهى المستفيدة عمليًا من مبدأ الاستمرارية المطروح، لاسيما الأجناد العسكرية فى الشام والأردن وبعض العراق[1].

الحقوق السياسية للأفراد فى ظل الشريعة الإسلامية. حق انتخاب رئيس الدولة: للأفراد فى ظل دولة الخلافة الإسلامية حق انتخاب رئيس الدولة، فمن اختاروه لهذا المنصب فهو رئيس الدولة الشرعى. بهذا صرح الفقهاء، ومن أقوالهم الصريحة فى ذلك: «من اتفق المسلمون على إمامته وبيعته ثبتت إمامته ووجبت معونته». المغنى، ابن قدامة، جـ8 ص106 «الإمامة (أى رئاسة الدولة) تثبت بمبايعة الناس (لرئيس الدولة) لابعهد السابق له». منهاج السنة، ابن تيمية، جـ1، ص142. فرئيس الدولة فى الإسلام رجل تختاره الجماعة وترضى به، وهو يستمد سلطانه من هذا الرضى وذاك الاختيار. وإذا كان للأفراد فى الدولة الإسلامية حق انتخاب رئيس الدولة، فما أساس هذا الحق؟ هذا الحق يقوم على أساس مبدأ الشورى الذى أقرته الشريعة الإسلامية وعلى أساس آخر هو مبدأ مسئولية الجماعة عن تنفيذ أحكام الشرع. أما مبدأ الشورى فقد نطق به القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى ـ 38] ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران ـ 159] فهذا النص يصرح بأن أمور المسلمين، لاسيما المهمة منها (ورئاسة الدولة خاصة) يجب أن تدار عن طريق الشورى. ولاشك أن منصب رئيس الدولة من الأمور الخطيرة التى يجب أن تجرى فيها المشاورة، لأنه أمر يهم المسلمين جميعهم ويتعلق بصميم شؤونهم، فيجب أن يكون لهم رأى فيمن يولى عليهم. والمشاورة تستلزم أن يبدى كل واحد منهم رأيه فيمن يراد انتخابه رئيسًا للدولة أما مبدأ مسئولية الجماعة عن تنفيذ أحكام الشرع، فهذه المسئولية تستفاد من مجموع النصوص القرآنية كما تؤيدها السوابق التاريخية الثابتة. ومخاطبة الشارع

1 ـ د. إبراهيم بيضون ـ نفس المرجع ـ ص157.

فى القرآن الكريم موجـهة إلى جماعة المسلمين، مـثل قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ [النساء ـ 135] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة ـ 1] ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ [التوبة ـ 71] تدل هذه النصوص وأمثالهـا دلالة واضحة على مسؤولية الجـماعة نحو تنفيذ أحكام الشـرع ومنها ما يتعلق بجميع شؤونهم. وهذه المسؤولية الضخـمة الملقاة على عاتق الجماعة تقتضى أن يكون السلطان من حق الجماعة نفسها ـ ولايستأثر به فرد أو عائلة ـ لتستعين به على تنفيذ مـا هى مسؤولة عنه وهو تنفيـذ أحكام الشرع. ولكن مباشرة الجـماعة سلطانها هذا لايمكن أن يتم بصفتها الجماعـية فإن هذا غير ممكن عملا أو تنفيذاً. ولهذا ظهرت نظرية النيابة عن الجماعة فى مباشرة سلطاتها. فالجماعة من حقها أن تختار من ينوب عنـها فى مباشرة سلطانهـا لتنفيذ ما هى مكلفـة به شرعًا. وهذه الإنابة من خالص حـقهـا الشرعى، لأن المالك يحق له أن يوكل غـيره عنه فيـما يملكه، والأمة ـ جماعة المسلمـين ـ تملك السلطان فهى تملك ـ إذن ـ حق التوكيل فيه، وهى وحدها التى تختار رئيس الدولة.

المركـز القانونى لرئيس الدولة فى الإسـلام: وبناء على ذلك يتـضح بجلاء المركز القانونى لرئيـس الدولة فى الإسلام. فهو مركـز النائب والوكيل عن الأمة، فهى التى انتخبته نائبًا عنها ليدير شؤونها وفق منهج الشرع الإسلامى ولتطبيق سائر أحكامه، وهذا ما صـرح به الفقهاء. ومن خرج عن عقـد الوكالة هذا وخرج عن حكم الله وشريعـته هذه فهو كافـر يجب قتاله كمـا يقول ابن كثيـر، فى معرض تفسيره لآية: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ... ﴿٥٠﴾ ﴾ [المائدة].

الأمة مصدر السلطات: وإذا كان مركز رئيس الدولـة فى الإسلام هو مركز الوكيل عن الأمـة، فمن البـديهى أنه يستـمد سلطاته من مـوكله، أى من الأمة. فالأمة فى الإسلام هى مصدر السلطات كـما يقولون اليوم فى الاصطلاح القانونى الحديث. ورئيس الدولة يبـاشر هذه السلطات باسم الأمـة وبهذا الاعتبـار فقط لا بأى اسم آخر أو أى اعتبار آخر.

الميكانيكية فى التنفيذ: وإذا كانت الأمة تملك حق انتخاب رئيس الدولة فى الإسلام، فكيف تباشر هذا الحق فعلا؟ هل يقوم به أفراد الأمة مباشرة؟ أم يقوم بهذا الحق طائفة منهم بتخويل صريح من الأمة؟ الواقع أننا لانجد فى الشريعة الإسلامية نظامًا محددًا وصريحًا فى كيفية قيام الأمة بحقها فى انتخاب رئيس الدولة، مما يدل أن تنظيم هذا الأمر متروك لتقدير الأمة نفسها، فيمكن أن يكون بأسلوب الانتخاب المباشر أو غير المباشر فكلا الأسلوبين تتسع له قواعد الشريعة. فالانتخاب المباشر يجد له سندًا فى قوله تعالى: «**وأمرهم شورى بينهم**» فهذا النص بظاهره يقتضى أن يتشاور أفراد الأمة فى شؤونهم ومنها انتخاب رئيس الدولة. ويرى هذا كثير من الفقهاء عند تفسيرهم لهذه الآية ومنهم الرازى إذ يقول: «إذا وقعت واقعة وتشاوروا فيها أثنى الله عليهم، أى لاينفردون برأى، بل ما لم يجتمعوا عليه لايعزمون عليه» تفسير الرازى، أما الانتخاب غير المباشر فيجد له سنده فى السوابق التاريخية الثابتة فى عصر الخلفاء الراشدين وهو خير العصور فهمًا وتطبيقًا للإسلام، فقد تم انتخاب أولئك الخلفاء الكرام من قبل طائفة من الأمة هم الذين يسمون بأهل الحل والعقد وتحققت بعد ذلك مبايعة الأمة لمن اختاروا وانعقدت بذلك البيعة الكبرى التى بدونها لاتصبح الخلافة شرعية[1].

أهل الحل والعقد: إذا كان انتخاب رئيس الدولة بطريق غير مباشر أمرًا سائغًا فى الشرع الإسلامى وكان الذين يباشرونه هم من يسميهم الفقهاء «أهل الحل والعقد»، فمن هم أهل الحل والعقد؟ وما علاقتهم بالأمة؟ وكيف يحوزون هذه المنزلة؟ أما من هم أهل الحل والعقد فمن قراءة ما كتبه الماوردى والفراء وابن قدامة وابن تيمية وابن كثير وغيرهم يفهم أنهم المتبوعون فى الأمة التى تثق بهم وترضى برأيهم لما عرف عنهم من الحرص على مصالحها. وعلاقتهم بالأمة علاقة النائب والوكيل، فهم يباشرون انتخاب رئيس الدولة نيابة عن الأمة، وهم وكلاء عنها، ومن ثم يعتبر اختيارهم رئيس الدولة كاختيار الأمة نفسها له. وهم يحوزون منزلة الحل والعقد فى شؤون الأمة لأن الأمة هى التى تدفعهم إلى هذه المنزلة وتختارهم

1 ـ د. عبدالله فهد النفيسى ـ المرجع السابق ص158.

لها. كيف نعرف أهل الحل والعقد فى عصرنا هذا؟: إذا أخذنا فى الوقت الحاضر بالانتخاب غير المباشر لرئيس الدولة، وفقًا للأحكام الشرعية التى بيناها، فلا مناص من قيام الأمة بانتخاب من يمثلونها فى مباشرة هذا الانتخاب. ومن تنتخبهم الأمة لهذه المهمة يمكن أن يوصفوا بأنهم أهل الحل والعقد. وعلى الدولة فى الإسلام أن تضع النظام اللازم لإجراء هذا الانتخاب وضمان سلامته. وهذا أمر ضرورى ولازم لإيجاد أهل الحل والعقد واثبات وكالتهم عن الأمة بالتوكيل الصريح، لأن التوكيل الضمنى كان متيسراً أيام الخلافة.

حق المشاورة: والحق الثانى للأفراد فى دولة الإسلام ـ بعد حق انتخاب رئيس الدولة ـ هو حق المشاورة. وهو فى الحقيقة امتداد لحق الأمة فى انتخاب رئيس الدولة. فما دامت هى التى تختاره وهو وكيلها فى إدارة شؤونها فمن حقها عليه أن يشاورها. وإذا كان الخطاب فى آيات الشورى موجها إلى الرسول الكريم ﷺ على جلالة قدره وعظيم منزلته، فوجوب المشاورة على غيره من الحكام أوجب وألزم. وعلى ما قلناه تدل أقوال الفقهاء والمفسرين. «ولا غنى لولى الأمر عن المشاورة فإن الله تعالى أمر بها نبيه ﷺ» ابن تيمية، السياسة الشرعية. «إنما أمر الله نبيه بمشاورة أصحابه مما أمره بمشاورتهم فيه تعريفًا منه أمته ليقتدوا به فى ذلك». تفسير الطبرى، جـ4، ص94. يؤيده فى ذلك تفسير القرطبى، جـ4، ص250. كذلك الرازى، جـ9، ص66 يقول: «قال الحسن وسفيان بن عيينة: إنما أمر بذلك ـ أى أمر النبى ﷺ بالمشاورة ـ ليقتدى به غيره فى المشاورة ويصير سنة فى أمته». ومما يؤكد حق المشاورة للأمة على حكامها أن النبى ﷺ على عظيم قدره ومنزلته وتأييده بالوحى، كان كثير المشاورة لأصحابه. شاورهم يوم بدر فى الخروج للقتال، وشاورهم يوم أحد أيبقى فى المدينة أم يخرج للعدو، وأشار عليه الحباب بن المنذر يوم بدر بالنزول على الماء فقبل منه، وأشار عليه السعدان، سعد بن معاذ وسعد بن عبادة يوم الخندق بترك مصالحة العدو على بعض ثمار المدينة فقبل منهما (الرازى، جـ9، ص67).

وهكذا كان رسول الله ﷺ كثير المشاورة للجماعة الإسلامية حتى ذكر ابن تيمية فى السياسة الشرعية أنه لم يكن أحد أكثر مشورة لأصحابه من رسول الله ﷺ. ونظراً لثبوت حق الأمة فى المشاورة ولزومه على رئيس الدولة صرح الفقهاء بأن ترك هذا الحق من قبل رئيس الدولة موجب لعزله فى الإسلام. فقد جاء فى تفسير القرطبى: «قال ابن عطية: والشورى من قواعد الشريعة وعزائم الأحكام ومن لايستشير أهل العلم والدين فعزله واجب» جـ4، ص249. فلا بقاء إذن لحاكم مستبد فى دولة الإسلام. ولكن كيف تتم المشاورة؟ وكيف بالإمكان تنظيم الشورى الواجبة شرعًا نصًا وروحًا فى هذا العصر؟ إن ما يوافق أحوال العصر وروح الشريعة أن تقوم الأمة بانتخاب أهل الشورى الذين على رئيس الدولة مشاورتهم فى المسائل العامة ويخولون أيضًا سلطة انتخاب رئيس الدولة إذا شغر منصبه.

حق مراقبة رئيس الدولة: والحق الثالث للأفراد فى ظل دولة الإسلام هو حق مراقبة رئيس الدولة وسائر الولاة فى أعمالهم وتصرفاتهم التى تخص شؤون الدولة. وتستمد الأمة هذا الحق من طبيعة علاقتها برئيس الدولة، فهى علاقة وكالة، وهى التى اختارته ومن حق الموكل فى الشريعة الإسلامية أن يراقب وكيله ليطمئن على حسن قيامه فيما وكله فيه. وحق المراقبة يقرره الإسلام ويريد به تقويم رئيس الدولة إذا انحرف عن النهج الشرعى القويم، وأول منازل التقويم النصح. جاء فى الحديث الشريف الذى رواه الإمام مسلم فى صحيحه: «أن النبى ﷺ قال: الدين النصيحة. قلنا لمن؟ قال: لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم». وإذا لم يفد النصح فمن حق الأمة استعمال القوة اللازمة لتقويمه وردعه عن الظلم وعن سائر مظاهر الانحراف والاعوجاج. فقد جاء عن النبى ﷺ أنه قال: «والله لتأمُرُنّ بالمعروف وتنهوُنّ عن المنكر، ولتأخذُنّ على يد الظالم ولتأطرنه على الحق أطرا ولتقصرنّه على الحق قصرا، أو ليضربَنّ الله بقلوب

بعضكم على بعض، ثم ليلعنكم كما لعنهم» رواه أبو داود (انظر رياض الصحالين ص122). وفى حديث آخر يقول المصطفى ﷺ. «إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه» (نفس المرجع).

حق عزل رئيس الدولة: قلنا إن المركز القانونى لرئيس الدولة فى الإسلام هو مركز الوكيل بالنسبة للأمة. فمن البديهى أن يكون من حقها عزله إذا خرج عن حدود وكالته أو لم يقم بمهام الوكالة عجزاً أو تقصيراً. ولأن من يملك التعيين يملك العزل. والأمة هى التى اختارته فتملك تنحيته إذن. ومباشرة هذا الحق يستلزم المبرر الشرعى وهو الخروج على حدود الوكالة أو العجز عن القيام بمهامها. وهذا ما صرح به الفقهاء[1]. وها هو ابن حزم يتحدث فى هذا الموضوع فيقول: «فهو الإمام الواجب طاعته ما قادنا بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ فإن زاغ عن شىء منهما منع من ذلك وأقيم عليه الحد والحق، فإن لم يؤمن أذاه إلا بخلعه خلع وولى غيره». ابن حزم، الفصل بين الملل والنحل. فى العالم اليوم ما يقارب الألفى مليون مسلم، هل بإمكان القارئ أن يسمى واحداً منهم يتمتع بهذه الحقوق الشرعية الإسلامية؟ وقوى عزم معاوية على البيعة ليزيد، خاصة بعد أن أرسل إليه المغيرة وفداً من أهل الكوفة يطالبونه بمبايعة يزيد وليًا لعهده، ولكنه آثر التمهل والتؤدة حتى لايثير عليه الإمام الحسن بن على عليه السلام وأبناء الصحابة، ورأى أن يترك إعلان ذلك إلى ما بعد وفاة الإمام الحسن عليه السلام، ولهذا سعى سعيًا حثيثًا إلى إهلاكه بالسم، وتشير الروايات إلى أن زوجته جعدة بنت الأشعث بن قيس هى التى سمته بتحريض من معاوية، وقيل إن يزيد بن معاوية هو الذى دس إليها أن تسمه فيتزوجها. وعندما علم معاوية بنبأ وفاته، لم يخف فرحته بوفاته وسجد وسجد من كان معه. وذكروا أنه عندما تلقى نبأ وفاة الإمام الحسن عليه السلام كبر فى قصر الخضراء تعبيراً عن سروره فكبر أهل الخضراء، ثم كبر أهل المسجد بتكبير

---

1 ـ د. عبدالله فهد النفيسى ـ نفس المرجع ص161.

أهل الخضراء. فآثر معاوية الالتزام بنصيحة زياد، أو التظاهر بذلك، طاويًا مشروعه بعض الوقت، حتى إذا توفى الأخير عاد إلى إحيائه واتخاذ قرار بتنفيذه، معتمدًا على حلفائه الشاميين، وفى طليعتهم الضحاك بن قيس (فهر) ويزيد بن المقنع (كندة) والحصين بن نمير (السكون) ومسلم بن عقبة (مرة) وحسان بن بحدل (كلب)، لاسيما الأخير، زعيم اليمنية فى الشام وخال يزيد المرشح لولاية العهد وكان معاوية كما ذكرت يمهد للبيعة ليزيد، فأراد أن يظهره أمام المسلمين بمظهر المجاهد المثابر، فيبعثه مع المجاهدين فيحرز بذلك كسبًا أدبيًا يرفع من شأنه، ويمحى من ذاكرة المسلمين ما عرف به يزيد من خلاعة، مما يساعد على تأهيله لمنصب الخلافة، وكان يزيد معروفًا عند المسلمين بلهوه ومجونه وعكوفه على الشراب، وكان معاوية قد أغزى سفيان بن عوف العامرى فى عام 45هـ الموافق 665م إلى الطوانة بأرض الروم، فأصيب الجيش بالحمى والجدرى، وبلغ يزيد هذا النبأ وهو على شرابه مع أم كلثوم بنت عبدالله بن عامر، فقال:

أهون على بما لاقت جموعهم   يوم الطوانة من حمى ومن موم

إذا اتكأت على الأنماط مرتفقًا   بدير مران عندى أم كلثوم

فبلغ ذلك معاوية، فأقسم عليه ليغزون إحدى الغزوات المقبلة، فأردف به معاوية ذلك الجيش، فغزا القسطنطينية، فسميت غزوته بالرادفة.

فلما توفى الإمام الحسن ﷺ فى عام 49هـ الموافق 669م عزم معاوية على البيعة ليزيد، فكتب إلى عماله يأمرهم بتقريظ يزيد ووصفه، وبإرسال الوفود إليه من الأمصار، فأقبلت الوفود من العراق والشام تبايعه. وأرسل معاوية أثناء ذلك إلى مروان يأمره بأن يعد الناس نفسيًا لقبول مبدأ تعيين يزيد وليًا للعهد، إذ كان عرب الحجاز بوجه خاص غير مستعدين للنقلة من النظام الإسلامى الديمقراطى القائم على الشورى إلى النظام الوراثى الاستبدادى. وعندما خاطب مروان أهل المدينة بذلك كان رد الفعل عنيفًا، وأعلن أبناء الصحابه استنكارهم لولاية العهد، ونهض الصحابى الجليل عبدالرحمن بن أبى بكر وأعلن معارضته بقوله: «ما الخيار

أردتم لأمة محمد، ولكنكم تريدون أن تجعلوها هرقلية، كلما مات هرقل قام هرقل»[1]

أعلن معاوية رسميًا البيعة ليزيد، حسب رواية المسعودى، وتم استدعاء كبار الشخصيات وزعماء القبائل إلى قصر «الخضراء» فى دمشق، حيث جرت احتفالات التنصيب. وما لبثت الوفود أن تهافتت على الحاضرة الأموية، مباركة الحدث عن طوع أو ممالأة أو إكراه. وكان وحده الحجاز، يكاد يكون غائبًا عن المشاركة، دون أن يقتصر الأمر على أبناء الصحابة، بل تعداهم إلى بنى العاص، من البيت الأموى نفسه. وقيل إن مروان بن الحكم الذى كان وقتذاك واليًا على الحجاز، احتج بشدة على هذا الأمر، «ناصحًا» معاوية بما نسب إليه: «اعدل عن تأميرك الصبيان، واعلم أن لك من قومك نظراء». ولعل مروانًا، الذى كان فى الصدارة أيام عثمان وشارك ـ ربما عامدًا ـ فى توريطه ودفعه إلى ما انتهى إليه، راودته نفسه بأن يكون هذا الأمر له، دون أن ينفصل ذلك عن ظهور مروان كمرشح أبرز للخلافة، فى اجتماع «الجابية» الذى عقد بعد موت يزيد. ومن جهة أخرى فإن زعماء الحجاز، كانوا يجدون فى أنفسهم كفاءة تتجاوز ما عند يزيد للخلافة، فضلا عن أن غياب معاوية كان بالنسبة إليهم مقرونًا بارتفاع الكابوس المخيم على حياتهم السياسية، وانتعاش الآمال المكبوتة وعودة الاعتبار إلى مقر دولتى الرسول والخلافة، وحرية التحرك لأبناء الصحابة الذين عاشوا طوال عهده فيما يشبه الإقامة الجبرية. وهكذا فإن البيعة لم تستكمل فصولها فى «الخضراء»، بعد إصرار أربعة على رفضها من زعماء الحجاز الكبار وهم: الإمام الحسين بن على عليه السلام وعبدالله بن الزبير، وعبدالله بن عمر وعبدالرحمن بن أبى بكر. وقد وجد معاوية فى هذا الموقف نوعًا من العصيان، مما دفعه وهو السياسى المرن، إلى التوجه نحو «المدينة» من أجل تسوية الأمر مع المعارضين الأربعة: غير أن هؤلاء، انتقلوا إلى مكة، المكان المفضل حينذاك، للابتعاد عن ملاحقة السلطة، ولكن دون

1 د. السيد عبدالعزيز سالم ـ المرجع السابق ص 613.

أن يقنع ذلك معاوية بتجاهلهم أو الكف عنهم، بل جد السير فى طلبهم - وقد فقد صبره أو كاد - إلى المدينة المقدسة. وفى المسجد، حيث اجتمع مع أبناء الصحابة وهم عبدالله بن عباس وعبدالله بن جعفر بن أبى طالب وعبدالله بن عمر وعبدالله بن الزبير، وخاطبهم فى رغبته فى أخذ البيعة ليزيد، فعارضوه كلهم، ورد عليه عبدالله بن عمر قائلا: «.. فإن هذه الخلافة ليست بهرقلية ولا قيصرية ولا كسروية يتوارثها الأبناء عن الآباء، ولو كان كذلك كنت القائم بها بعد أبى، فوالله ما أدخلنى مع الستة من أصحاب الشورى إلا على أن الخلافة ليست شرطًا مشروطًا وإنما هى فى قريش خاصة لمن كان لها أهلا ممن ارتضاه المسلمون لأنفسهم من كان أتقى وأرضى»، دافع ابن الزبير باسم رفاقه، عن الموقف الذى حدا بهم إلى رفض البيعة التى هى حسب رأيهم، خروج على على الإسلام والأعراف وخرق لسنن الأوائل من الخلفاء. بيد أن معاوية لم يعبأ كثيراً بحجج أبناء الصحابة، ولم يتردد فى أخذهم بالشدة وتهديدهم بالقتل، قبل الوصول إلى انتزاع اعترافهم - الشكلى على الأقل - بولاية العهد والبيعة ليزيد[1].

ثم عاد معاوية إلى الشام، وأخذ يعطى المقارب، ويدارى المباعد، ويلطف به حتى استوثق له أكثر الناس، ثم عاود معاوية مطالبة أهل المدينة بالبيعة لابنه، واستخدم سعيد بن العاص عامله على المدينة وسائل العنف والغلظة فى حمل الناس على مبايعة يزيد، فأبطأ الناس عنها إلا اليسير منهم، ولاسيما بنى هاشم الذين أنكروا أن يتولى عليهم من يشرب الشراب ويلعب بالكلاب ويظهر الفسوق. فاضطر معاوية إلى القدوم بنفسه إلى المدينة وهو ينوى إرغام المعارضين على قبول البيعة ليزيد، فقدم فى ألف فارس، وأدى فريضة الحج بمكة وقفل إلى المدينة، فدعا بالمعارضين الأربعة وهم: الإمام الحسين بن على عليه السلام، وعبدالله بن عمر، وعبدالرحمن بن أبى بكر، وعبدالله بن الزبير، فحضروا، وسألهم فى تقديم ابنه

---

1 - د. إبراهيم بيضون - المرجع السابق - ص159.

يزيد وليًا لعهده، فلما أبوا، قال معاوية: «فإنى قد أحببت أن أتقدم إليكم، إنه قد أعذر من أنذر، إنى كنت أخطب فيكم فيقوم إلى القائم منكم فيكذبنى على رؤوس الناس، فأحمل ذلك وأصفح، وإنى قائم بمقالة، فأقسم بالله لئن رد على أحدكم كلمة فى مقامى هذا لاترجع إليه كلمة غيرها حتى يسبقها السيف إلى رأسه، فلا يبقين رجل إلا على نفسه». ثم دعا صاحب حرسه وأمره بأن يقيم على رأس كل منهم حارسين يحمل كل منهما سيفه، حتى إذا ما اعترض واحد منهم على ما يقوله معاوية بتصديق أو تكذيب فليضرباه بسيفيهما. ثم خرج وخرجوا معه إلى مسجد المدينة، فرقى المنبر وخاطب المسلمين معلنًا موافقة هؤلاء الرهط سادة المسلمين وخيارهم على البيعة ليزيد، وأمر القوم بمبايعة يزيد، فبايع الناس، أمام سكوت ساداتهم.

الخلافة عقد مراضاة واختيار لا يدخله اكراه ولا إجبار: نعم الخلافة عقد مراضاة واختيار لا يدخله اكراه ولا إجبار. فلابد أن يتحقق الرضا من الطرفين: رضا المرشح للخلافة ورضا المبايعين له. فلا يجوز اكراه أحد على تحمل وزر الخلافة، كما لايجوز أخذ البيعة من الناس بالاجبار والاكراه. «ولما كانت الخلافة عقدا فإنها لاتتم إلا بعاقد، كالقضاء لايكون المرء قاضيا إلا إذا ولاه أحد القضاء، والإمارة لايكون أحد أميرا إلا إذا ولاه أحد الإمارة، والخلافة لايكون أحد خليفة إلا إذا ولاه أحد الخلافة. ومن هنا يتبين أنه لا يكون أحد خليفة إلا إذا ولاه المسلمون، ولا يملك صلاحيات الخلافة إلا إذا تم عقده لها ولا يتم هذا العقد إلا من عاقدين أحدهما طالب الخلافة والمطلوب لها، والثانى المسلمون الذين رضوا به أن يكون خليفة لهم. ولهذا كان لابد لانعقاد الخلافة من بيعة المسلمين. وعلى هذا فإنه إذا قام متسلط واستولى على الحكم بالقوة فإنه لايصبح بذلك خليفة ولو أعلن نفسه خليفة للمسلمين، لأنه لم تنعقد له خلافة من قبل المسلمين، ولو أخذ البيعة على الناس بالاكراه والاجبار لا يصبح خليفة ولو بويع، لأن البيعة بالاكراه والاجبار لاتعتبر ولاتنعقد بها الخلافة لأنه عقد مراضاة واختيار

لايتم بالاكراه والاجبار، فلا تنعقد الخلافة إلا بالبيعة عن رضا واختيار». ومن هنا كان لأى طرف أن يرفض البيعة، وقد رفض بالفعل سعد بن عبادة زعيم الخزرج والأنصارى من صحابة الرسول ﷺ مبايعة أبى بكر ولم يتخذ ضده أى إجراء. طلب من أصحابه أن يحملوه إلى بيته وترك أياما ثم بعث إليه: أن أقبل وبايع، فقد بايع الناس، وبايع قومك فقال: أما والله حتى أرميكم بما فى كنانتى من نبلى، وأخضب سنان رمحى، وأضربكم بسيفى ما ملكته يدى، وأقاتلكم بأهل بيتى ومن أطاعنى من قومى، فلا أفعل وأيم الله لو أن الجن اجتمعت لكم مع الإنس ما بايعتكم حتى أعرض على ربى وأعلم ما حسابى. فكان سعد بن عبادة لا يصلى بصلاتهم ولا يجمع معهم ولايفيض معهم بإفاضتهم انتقال الناس من عرفات فى موسم الحج فلم يزل كذلك حتى هلك أبو بكر رحمه الله. ويؤكد أبو بكر بعد البيعة فى خطبته: «أطيعونى ما اطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم». ويستنتج الفقهاء من ذلك أن الخليفة مشروط الخضوع له بخضوعه لله ولرسوله ولكافة التشريعات الإسلامية. ترى هل يجرى فى أيامنا هذه لانتخاب رئيس أكثر مما جرى فى بيعة أبى بكر؟ إذا كانت الحرية شرطًا أساسيًا لصحة الانتخاب، فهل ترى فى يوم السقيفة أى أثر للخروج عنها؟ هل ترى فى يوم السقيفة أى أثر للاكراه المادى أو المعنوى مارسه أحد الفرقاء على الآخر؟ إن يوم السقيفة كان يوما خالدا من أيام الحرية فى الجزيرة العربية لانشهد مثله هذه الأيام[1].

التنازع على الخلافة جائز لجميع المسلمين: من حق كل مسلم يرى فى نفسه الأهلية أن يطلب الخلافة بالأساليب الشرعية. هذا جائز لجميع المسلمين ولم يرد أى نص فى النهى عن التنازع على الخلافة. ولقد ثبت أن المسلمين تنازعوا عليها فى سقيفة بنى ساعدة والرسول ﷺ مسجى على فراشه لم يدفن بعد. وثبت أيضا أن أهل الشورى الستة وهم من كبار الصحابة رضوان الله عليهم اختلفوا

1 ـ د. عبدالله فهد النفيسى ـ المرجع السابق ص56.

عليها على مرأى ومسمع من جميع الصحابة فلم ينكر عليهم، مما يدل على اجماع الصحابة على جواز التنازع على الخلافة، وعلى جواز طلبها والسعى لها ومقارعة الرأى بالرأى والحجة بالحجة فى سبيل الوصول إليها. أما النهى عن طلب الإمارة الوارد فى الأحاديث فهو نهى للضعفاء ومن لايصلحون لها كما صرح بذلك رسول الله ﷺ. أما الذين يصلحون للإمارة فإنه يجوز لهم أن يطلبوها. فقد طلبها عمرو بن العاص وولاه الرسول. فالأحاديث الواردة مخصوصة بمن ليس أهلا لها، سواء الإمارة أو الخلافة. أما من كان أهلا لها فإن الرسول لم ينكر عليه طلبها وقد ولاها لمن طلبها. فلما كان الرسول ولى الإمارة لمن طلبها ونهى عن طلب الإمارة فإنه يحمل النهى على أنه نهى عن طلب ممن ليس أهلا لها. لا النهى مطلقا. والقضية بعد ذلك شورى بين المسلمين دون اكراه أو إجبار.

ليس فى الإسلام عائلة حاكمة: حيث أن الخلافة (رياسة الدولة) فى الإسلام عقد مراضاة واختيار لايدخله إكراه ولا إجبار، وحيث أن التنازع على الخلافة جائز لجميع المسلمين، تصبح فكرة العائلة الحاكمة وقوانين توارث الحكم لاغية فى الإسلام بل لاتستند إلى أى مضمون شرعى اسلامى، وهذا بالضبط ما وقع فيه بنو أمية وبنو العباس ومن خلفهم إلى يومنا الحاضر. فها هو رسول الله ﷺ يقول: لانورث، ما تركنا فهو صدقة إنما يأكل آل محمد من هذا المال ـ يعنى مال الله ـ ليس لهم أن يزيدوا على المأكل. وها هو أبوبكر مسجى على فراش الموت لم يفكر بأحد أبنائه لاستخلافه وعندما أشرف على الناس يحاول أن يقنعهم بجدارة ابن الخطاب قال: «فإنى ما استخلفت عليكم ذا قرابة» وها هو عمر بن الخطاب ينزف دمًا بعد طعنة أبى لؤلؤة ـ لعنه الله ـ يخاطب أهل الشورى: عبدالرحمن، وعلى، وعثمان، والزبير، وسعد، وطلحة فيقول: «أنشدك الله يا على إن وليت من أمور الناس شيئا أن تحمل بنى هاشم على رقاب الناس، أنشدك الله ياعثمان إن وليت من أمور الناس شيئا أن تحمل بنى أبى معيط على رقاب الناس، أنشدك الله يا سعد إن وليت من أمور الناس شيئا أن تحمل أقاربك على رقاب الناس» ويستنكر عمر مقالة الرجل الذى أشار عليه باستخلاف ولده

عبدالله بن عمر: «قاتلك الله، ويحك، والله ما أردت الله بهذا. فما حمدتها فأرغب فيها لأحد من أهل بيتى، بحسب آل عمر أن يحاسب منهم رجل واحد يسأل عن أمر أمة محمد، أما لقد جهدت نفسى وحرمت أهلى وإن نجوت كفافا لاوزر ولا أجر إنى لسعيد». ويؤكد ابن تيمية بأنه يجب على ولى الأمر أن يولى على كل عمل من أعمال المسلمين أصلح من يجده لذلك العمل بغض النظر عن النسب والقرابة والمصالح العائلية والخاصة استنادا إلى قول رسول الله ﷺ. «من ولى من أمر المسلمين شيئا، فولى رجلا وهو يجد من هو أصلح للمسلمين منه فقد خان الله ورسوله». وإلى قول عمر بن الخطاب: من ولى من أمر المسلمين شيئا فولى رجلا لمودة أو قرابة بينهما فقد خان الله ورسوله والمسلمين. يضيف ابن تيمية فى نصحه لولى الأمر: «فيجب عليه البحث عن المستحقين للولايات، من نوابه على الأمصار، من الأمراء الذين هم نواب ذى السلطان، والقضاة، ومن أمراء الأجناد ومقدمى العساكر الصغار والكبار، وولاة الأموال من الوزراء والكتاب والشادين والسعاة على الخراج والصدقات، وغير ذلك من الأموال التى للمسلمين. وعلى كل واحد من هؤلاء أن يستنيب ويستعمل أصلح من يجده، وينتهى ذلك إلى أئمة الصلاة والمؤذنين والمقرئين والمعلمين وأمير الحج والبريد والعيون الذين هم القصاد، وخزان الأموال، وحراس الحصون والحدادين الذين هم البوابون على الحصون والمدائن، ونقباء العساكر الكبار والصغار، وعرفاء القبائل والأسواق ورؤساء القرى الذين هم الدهاقون. فيجب على كل من ولى شيئا من أمر المسلمين، من هؤلاء وغيرهم، أن يستعمل فيما تحت يده فى كل موضع أصلح من يقدر عليه» ويضيف ابن تيمية: «فإن عدل عن الأحق الأصلح إلى غيره، لأجل قرابة بينهما، أو ولاء عتاقة أو صداقة، أو موافقة فى بلد أو مذهب أو طريقة أو جنس، كالعربية والفارسية والتركية والرومية، أو لرشوة يأخذها منه من مال أو منفعة، أو غير ذلك من الأسباب، أو لضغن فى قلبه عن الأحق، أو عداوة بينهما، فقد خان الله ورسوله والمؤمنين ودخل فيما نهى عنه فى قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

[الأنفال 27]. ثم قال: ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [الأنفال 28]. فإن الرجل لحبه لولده، أو لعتيقه، قد يؤثره فى بعض الولايات، أو يعطيه ما لا يستحقه، فيكون قد خان أمانته وكذلك قد يؤثره زيادة فى ماله أو حفظه، بأخذ ما لا يستحقه أو محاباة من يداهنه فى بعض الولايات، فيكون قد خان الله ورسوله، وخان أمانته. وفوق كل هذا نجد أن القرآن ينفى الوشيجة العائلية أمام الوشيجة المؤدية للصلاح وهى العقدية: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾. [الحديد 26] ﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلاَّ ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد 27] ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ (42) قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ (43) وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (44) وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ (45) قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾. [هود 42 _ 46]. ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ ﴾. [التحريم 10]. هذه ذريات وعائلات أنبياء الله يقرر القرآن بأنها لاتخلو من الفسق والكفر والخيانة، فكيف الذريات والعائلات التى لانبوة ولا كتاب؟ وكيف يقبل المسلمون العائلة كصيغة للحكم وهى صيغة بيولوجية لاتستند إلى أية معايير فكرية أو دينية أو إنسانية؟ من أجل هذا رفض الخلفاء الراشدون أن يتلوثوا تاريخيا بها وأدركوا المعنى التاريخى لقول الله: «فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون».

يرأس دولة الإسلام خليفة لا مَلِك: نتطرق إلى موقف القرآن من فكرة الدولة، بأن القرآن يقرر أن الله هو : مالك الملك وعليه فهو: الملك. ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ﴾ [الحشر23] فملكية هذا الكون كله تعود إلى الله. وحيث أنه يملك هذا الكون فمن حقه وحده الحاكمية على ما يملك ومن حقه أن يستخلف أيا شاء على ما يملك. من هنا يصبح رئيس الدولة خليفة لا ملكًا لأن الملك هو الله وحده لاشريك له فى الملك. والله وحده هو صاحب الجلالة والعظمة والسمو وكل من فى الكون عبيد له، آمنوا بذلك أم لم يؤمنوا فما هم بمعجزين فى الأرض.

والقضية بالنسبة لنا ليست قضية ألقاب سياسية أو إدارية، إطلاقا، فلو كانت قضية ألقاب لهانت ولما اعترضنا على الممارسات المنحرفة اليوم فيما يسمى بـ «العالم الإسلامى». القضية أخطر من ذلك بكثير حيث أنها مرتبطة بالتسلسل العقائدى فى خلفية تفكير الإنسان المسلم الذى يؤمن بأن الله هو الملك وأنه مالك الملك وحيث أنه يملك هذا الكون كله بمن وما فيه لذلك فمن حقه الحاكمية والتشريع ومن واجبنا الاتباع لا الابتداع. فإذا جاء أحد التعساء المرضى وقال: أنا الملك، اهتز كل ذلك فى ذهن ولاشعور الإنسان المسلم البسيط وسلم أمره للملك المزعوم. من هنا جاءت رواية ابن سعد للحوار الذى دار بين سلمان الفارسى وعمر بن الخطاب، ومنها نعلم أن عمر قال لسلمان: أملك أنا أم خليفة؟ فقال له سليمان: إن أنت جبيت من أرض المسلمين درهما أو أقل أو أكثر ثم وضعته فى غير حقه فأنت ملك غير خليفة. واقتنع عمر بأن صفة «الملك» هى خاصة بالله وبأن كسرى الذى يدعيها وقيصر الذى يصر عليها بنوا نظما تتميز بالظلم الاجتماعى ونحن نعلم أن الأمر قد حسم فى استحسان لقبى: «الخليفة» و «أمير المؤمنين»، ونعلم أنه ـ أى عمر ـ قال لأحد أصهاره ـ كما يروى محمد بن سيرين ـ عندما اشتم منه أنه يريد ميزة من بيت المال: أأردت أن ألقى الله مَلِكًا خائنًا.[1]

---

1 ـ د. عبدالله فهد النفيسى ـ نفس المرجع ص64.

ليس فى الإسلام حكم وراثى: اتفق جمهور الفقهاء أنه لايجوز عقد ولاية العهد للأبنـاء أو الأقارب إذا كانت النيـة حفظ الحكم فى باب الارث لأن الخلافة لاتورث. لذلك يقول الفقـهاء إن الخلافة لاتنعقد بالاستخلاف، أى بولاية العهد، لأنها ـ أى الخلافـة ـ عقد بين المسلـمين والخليفـة. فيشترط فى انعـقادها بيعة من المسلمين وقبول من الشـخص الذى بايعوه. والاستخلاف أو العهد أو وراثة الحكم بالتعبير الحـديث لايحصل فيه ذلك، لذلك لاتنعـقد به رياسة الدولة أى الخلافة.
وعلى ذلك فاستخلاف خليفة لخليفة آخر يأتى بعده لايحصل فيه عقد الخلافة لأنه لايملك حق عقدها. ولأن الخـلافة حق المسلمين لا للخليفـة، فالمسلمون يعقدونها لمن يشاؤون. فاستخلاف الخليفة غيره أى عهده بالخلافة لغيره لايصح، لأنه اعطاء لما لا يملك، واعـطاء ما لا يملك لايجوز شرعا. فإذا استـخلف الخليفة خليفة آخر سواء كان ابنه أو قريبه أو غير قـريب لايجوز، ولا تنعقد الخلافة له مطلقا لأنه لم يجـر عقدها ممن يملك هذا الـعقد، فهى عقد فـضولى لايصح وأما ما روى أن أبا بكر استخلف عمـر، وأن عمر استخلف الستة، وأن الـصحابة سكتوا ولم ينكروا ذلك فكان سكوتهم اجـماعا، فإن ذلك لايدل على جواز الاستخلاف أو العهد أو وراثة الحكم. وذلك لأن أبا بكر لم يسـتخلف خليفة وإنما اسـتشار المسلمين فيمن يكون خـليفة لهم بعده فرشح عمر وعلىّ، ثم إن المسلمين خلال ثلاثة أشهر كاملة فى حياة أبى بـكر اختاروا عمر بأكثريتهم، ثم بعد وفاة أبى بكر جاء الناس وبايعوا عمر، وحينـئذ ـ وحينـئذ فقط أى بعد بيـعة الناس فى المسـجد ـ انعقدت الخلافة شرعا لعمـر. أما قبل البيعة فلم يكن خلـيفة، ولـم تنعقد الخلافة له لابترشيح أبى بكر ولا باختيار المسلمين له، وإنمـا انعقدت حين بايعوه فى المسجد وقبل الخلافة.
وأما عهد عمر للستة فهو ترشيح لهم من قبله بناء على طلب المسلمين. ثم استشار عبدالـرحمن بن عوف المسلمين فيـمن يكون منهم فاختار أكـثرهم عليا إذا تقيد بما كان عليه أبـو بكر وعمر، وإلا فـعثمان. وعـندما رفض الإمام على عليه السلام التقيد بالشـرط وقبل عثـمان، بويـع عثمـان. فالخلافة انـعقدت لـعثمـان ببيـعة الناس لابترشيح. ولـو لم يبايعه الناس لم تنعقـد له الخلافة ولم تعتبر فى الشرع. لذلك لابد من بيعـة المسـلمين للـخليفة. ولايـجوز أن تكون بالـعهد أو الاستخلاف أو

قوانين التوارث لأنها عقد ولاية وينطبق عليـها ماينطبق على العقود. لأن الإسلام يرفض الحكم الوراثى ولايقبله مطلقا. وبمقتضى هذه القـاعدة ـ قاعدة وجوب بيعة (رضى) المسلمين ـ قال عمـر: «من دعا إلى إمارة نفسه بغيـر مشورة من المسلمين فاقـتلوه» ثم أصدر قراراً باسـتثناء ابنه عبـدالله من استحـقاق الخلافة، «ويحـضر عبدالله بن عمر مشيراً ولا شىء له فى الأمـر». لكى لاتصير قيادة المسلمين منصبا وراثيا. يتـضح لنا من هذه الوقائع أن الخلفـاء الراشدين وصحـابة رسول الله ﷺ كانوا يرون الخلافة منصـبا انتخابيا لابد من الفصل فيه برضـا المسلمين ومشورتهم فيما بينهم أما الوراثة أو اغتصاب الحكم عنوة فليس ذلك سبيل الإسلام[1].

البـيعـة: حين أوجب الـشرع على الأمة نصب خلـيفة عليـها، حـدد لها الطريقة التى يجرى بها نصب الخليفة، وهذه الطريقة ثابتة بالكتاب والسنة واجماع الصحابة. وتلك الطريقـة هى البيعة. والبيـعة فرض على المسلمين جمـيعا، وهى حق لكل مسلم رجلا كان أو امـرأة. أما كونها فرضا فالدليل عليه أحـاديث كثيرة منهـا قوله عليـه الصلاة والسـلام: «من مات وليس فى عنـقه بيـعة مـات ميـتة جاهلية». أما كونها حقا لجميع المسلمين فإن البيعة من حيث هى تدل على ذلك، لأن البيـعة هى من قبل المسـلمين للخليفـة وليست من قبل الخلـيفة للمـسلمين. فالبيـعة لخليفة هى بيد المسلمـين وهى حقهم، وهم الذين يبايعون، وبيـعتهم هى التى تجعل الخلافة تنعقـد للخليفة. أما التفصيلات العملية لاجـراء البيعة للخلافة فينبغى أن يتناقش المسلمون ويتحاجون فيمن يصلح للخلافة، حتى إذا استقر الرأى على أشخاص، عرضوا على المسلمين، فـمن اختاروه منهم طلب منهم أن يبايعوه كمـا طلب من باقى المرشحـين أن يبايعـوه. وما يحصل فـى هذه الأيام ـ خارج مساحات ملوك الطوائف بالطبع ـ من اجراء الانتـخابات بالاقتراع السرى، واتخاذ صناديق اقـتراع، وفـرز الأصوات ومـا شاكل ذلك فـإن هذه كلها أسـاليب لأداء الاختيـار بالرضى وللمسلمين أن يخـتاروا هذه الأساليب ولهم أن يختـاروا غيرها

1 ـ د. عبدالله فهد النفيسى ـ نفس المرجع ص65.

يؤدى إلى تمكين المسلمين من القيـام بفرض نصب الخليفة بالرضا والاختيار يجوز للمسلمين أن يستعملوه، ما لم يرد دليل شرعى على تحريمه.

وكانت النتيجة ليزيد بن معاوية المرشح الأوحد الإجبارى 99,9٪، وبذلك ثار معـاوية على القاعـدة التى سنها الخـلفاء الراشدون، فـخرج على نظام الحكم الدينى، واستحدث نظام الوراثة فى الحكم. وكان النظام الوراثى فى الحكم جديداً على المسـلمين لم يألفوه من قـبل، ولهذا السبب اعـترض عدد من المؤرخين على تلقيب معاوية ومن جاء بعده من خلفاء بنى أمية بالخلفاء، وآثروا تلقيبهم بالملوك، وقد تضافرت عوامل مـختلفة مع العامل السـابق فى حمل الناس على القول بهذا اللقب. فقـد كان الناس يـنقمون عـلى بنى أمية تـعصبهم لـلعرب على الموالى، ونزوعهم لـلروح الجاهلية، وميل بنى أمية إلى مظاهر الأبهة والفخامة المعروفة عند القياصرة والأكاسرة، فمعاوية «أول من أقام الحرس والشرط والبوابين فى الإسلام، وأرخى الـستور، واستكتب النصـارى، ومشى بين يديه بالحراب، وأخذ الزكاة من الأعطـية، وجلس على الـسرير والنـاس تحته، وجعل ديوان الخـاتم، وبنى وشيد الـبناء، وسخـر الناس فى بـنائه ولم يسـخر أحد قبـله، واستصـفى أموال الناس فأخذها لنفسه. وكان سعيد بن المسيب يقول: فعل الله بمعاوية وفعل، فإنه أول من أعاد هذا الأمر ملكـًا. وكان معاوية يقول: أنـا أول الملوك». والظاهر أن الوسائل الملتـوية التى توسل بـها معـاوية فى الوصول إلى الخـلافة: من اصطنـاع الخديعة والمكر، والدس، والرشوة، لتأليب الناس على الإمام علىّ عليه السلام، كانت عاملا فى ابتعاده عن المـثل التى اتبعهـا الخلفاء الراشـدون، فقد ذكر اليـعقوبى إن سعداً بن مـالك دخل عليه بعـد أن تنازل له الحسن عـن الخلافة فقال: «السـلام عليك أيها الملك، فغضب مـعاوية فقال: ألا قلت السلام علـيك يا أمير المؤمنين؟ قال: ذلك إن كنا أمرناك، إنمـا أنت منتز (أى ثائر)[1]. وذكر السيوطـى أن سعيد بن جمهان قال لسفينة:

---

1 ـ د. السيد عبدالعزيز سالم ـ المرجع السابق ص605.

إن بنى أمية يزعمون أن الخلافة فيهم، قال: «كذب بنو الزرقاء، بل هم ملوك من أشد الملوك، وأول الملوك معاوية»[1] ولكن بيعة كهذه تمت بالقوة والضغط، لم تكن أكثر من عملية سطحية ومؤقتة، دون أن يغيب هذا الواقع عن معاوية الذى كان أول العارفين به، مؤكدًا عليه بوصيته الشهيرة المنسوبة له «إنى لا أتخوف أن ينازعك هذا الأمر الذى استتب لك، إلا أربعة نفر من قريش، الحسين ابن على وعبدالله بن عمر وعبدالله بن الزبير وعبدالرحمن بن أبى بكر. فأما عبدالله بن عمر فرجل قد وقذته العبادة وإذا لم يبق أحد غيره بايعك. وأما الحسين ابن على فإن أهل العراق لن يدعوه حتى يخرجوه، فإن خرج عليك فظفرت به فاصفح عنه، فإن له رحمًا ماسة وحقا عظيمًا، و أما ابن أبى بكر فرجل إن رأى أصحابه صنعوا شيئًا صنع مثلهم، ليس له همة إلا فى النساء واللهو. وأما الذى يجثم لك جثوم الأسد ويراوغك مراوغة الثعلب، فإذا أمكنته فرصة وثب، فذاك ابن الزبير، فإن هو فعلها، فقدرت عليه فقطعه إربًا إربًا[2]. وحين مات بعد قليل ومعه هموم هذا الموقف الحجازى. وكان مبعث هواجسه بوجه خاص، اثنان من الزعماء الأربعة، وهما: الإمام الحسين بن على عليه السلام وعبدالله بن الزبير، اللذان رفضا البيعة فى حضوره. فكلاهما شخصية قيادية بارزة، وله رصيد كبير من التقدير والإعجاب، فضلا عن الطموح الظاهر - وإن اختلفت الدوافع والأفكار والطروحات - لدى الاثنين. ولقد حدث ما توقعه الخليفة الأموى الأول بعد موته، حيث كان هبوب الأزمة سباقًا من الحجاز.

يلاحظ من قراءة النصوص المتعلقة بالفترة الأموية - من زاوية نقل السلطة - أنها فترة مليئة بالمؤامرات. وواضح من خلال النصوص أن الأمويين - باستثناء عمر ابن عبدالعزيز الذى لم يتجاوز عهده سنتين فقط - كانوا ينظرون للخلافة على أنها

---

1 - السيوطى ص185.

2 - الطبرى - جـ6 - ص180.

بضاعة عائلية. فهذا معاوية بن أبى سفيان أول خلفائهم يتآمر مع المغيرة بن شعبة ويدفع الرشوة له من أجل تثبيت ولده يزيد بن معاوية والعهد له. وهذا مروان بن الحكم (64هـ الموافق 683م) يأمر بالبيعة لابنيه عبد الملك وعبد العزيز. وهذا عبدالملك بن مروان (65هـ الموافق 684م) يفرض البيعة لأولاده ويخطب فى الحج بالناس (75هـ الموافق 694م) قائلا: «والله لا يأمرنى أحد بتقوى الله بعد مقامى هذا إلا ضربت عنقه». بعد أن أسكرته السلطة. ويحكم الناس أولاد عبدالملك من بعده الوليد وسليمان. وكاد سليمان أن يعهد لابن له لم يبلغ بعد لولا تدخل رجاء بن حيوه وجاء دور عمر بن عبدالعزيز وسط معارضة أموية عاتية. وأكبر دليل على ذلك كان خلافة يزيد بن عبدالملك فقد عمد يزيد إلى كل ما صنعه عمر بن عبدالعزيز مما لم يوافق هواه فرده ولم يخف شناعة عاجلة ولا اثما آجلا. ويأتى من بعد يزيد أخوه هشام بن عبدالملك ويحكم الأمة عشرين عاما ثم يأتى من بعده الوليد بن يزيد بن عبدالملك ومن بعده يزيد بن الوليد بن عبدالملك ومن بعده إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك وكأن ليس فى أمة محمد ﷺ إلا أولاد عبد الملك. ومن يلق نظرة عاجلة على تسلسل «الخلفاء» الأمويين يدرك أنها - أى الخلافة - تحولت إلى كسروية وهرقلية، كلما مات هرقل قام هرقل آخر كما قال عبد الرحمن بن أبى بكر. إن طبيعة السلطة السياسية التى يدور محورها حول عائلة معينة وتتحدد شخصيتها السياسية وفق مقتضيات مصلحة العائلة الحاكمة، لا تستطيع قطعا الارتقاء لمنهج الإسلام فى الحكم وهو منهج أممى عالمى يخرج عن الدوائر المغلقة للعائلة والقبيلة والقوم والعشيرة، ويتجاوزها ويتخطاها لأنه منهج يقوم أساسا على تحرير الإنسان - لكونه إنسانًا - من كل أشكال العسف الاجتماعى والإقطاع السياسى والتفاوت الطبقى المشين الذى يفرزه الحكم العائلى. ولقد كان الحكم الأموى - كحال أشكال الحكم العائلى اليوم فى كثير من الأقطار «الإسلامية!» - حكما عائليا ضيقا أفرز عسفا اجتماعيا وإقطاعا سياسيا وتفاوتا

طبقيا واقتصاديا مشينا وكل ذلك يعد بلاشك انحرافا أساسيا عن منهج الإسلام فى الحكم الملكى العائلى الأموى[1].

(أ) الخروج عن السنن الشرعية فى السياسة المالية:

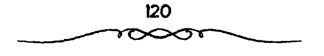
زادت مصاريف العائلة الأموية لأنها كانت تنظر للخلافة على أنها بضاعة عائلية وتعتبر بيت مال المسلمين إرثا عائليا، وزادت كذلك مظاهر بذخ الخلفاء الأمويين وتبعهم فى ذلك الولاة وسائر عمال الدولة، وانطلقت الأيدى بالجور والعسف فى جباية الأموال بالوسائل غير المشروعة، وبارهاق الناس بالضرائب الفادحة، فزادوا فى الخراج والجزية، على حين كانت الزيادة تناقض العهد، وفرضوا الضرائب على الأرض الخراب وفرضوا هدايا على الذميين فى عيد النيروز ووضعوا ضرائب لهم على مرور السفن بالماء، ووضع مروان بن محمد فى ولايته على أرمينية ضرائب على الأسماك. ومع هذا التفنن فى فرض الضرائب استخدموا القسوة فى تحصيلها وكل هذا لم يجد نفعا فى حفظ التوازن المالى للعائلة الأموية، وأدى فوق ذلك إلى نفور الناس منهم واستخدمه الدعاة لاسقاط دولتهم، لأن المصالح العامة التى كانت الشريعة الإسلامية تهدف لتحقيقها أهملت تماما.

(2) زرع الجراثيم الأولى لفكرة الفصل بين الدين والدولة:

كانت القيادة فى العهد الراشد للأمة الإسلامية قيادة واحدة تستقطب جميع نواحى الحياة. وكانت الحياة العملية والسياسية والفكرية فى عهد الخلفاء الراشدين تدور حول محور واحد هو محور الإسلام ومصالح دعوته وأمته. وكانت التوجيهات السياسية والتدابير القضائية والتعليمات الإدارية والتنظيمات العسكرية وشئون الحرب والصلح تنطلق من هذا المصدر بعينه. والقادة الذين كانوا يوجهون هذه النواحى هم الذين كانوا فى الوقت نفسه قادة المسلمين فى الأخلاق والفكر

---

1 ـ د. عبدالله فهد النفيسى ـ المرجع السابق ص107 وانظر ـ ابن الاثير ج5 ص265 ـ الطبرى ج8 ص288.



والعلم والتربية الروحية. غير أن النظام الملكى العائلى الأموى قد شق هذه الوحدة العضوية فى القيادة الإسلامية. كيف ؟ أما الشئون السياسية فقد استأثر بها بنو أمية، وأما النواحى الخلقية والفكرية والروحية فقد انتقلت أزمتها إلى رجال العلم والفقه. وأصبح الفقهاء والعلماء وصحابة رسول الله ﷺ روادا فى الشئون الروحية والخلقية والدينية المحضة. وكان هذا الانقسام الذى اعترى الوحدة العضوية للقيادة فى الدولة الإسلامية فى حد ذاته فتنة مدمرة فعلا ـ كما وصفها أستاذنا الراحل أبو الأعلى المودودى ـ رحمه الله، وكان من المحتوم أن تنعكس آثارها السيئة على المجتمع الإسلامى آنذاك. وبما أن الغايات تختلف، وبما أن بنى أمية عائلة حاكمة أولا وقبل كل شىء، وبما أن الفقهاء والعلماء وصحابة الرسول ﷺ مسلمون ومؤمنون قبل كل شىء، فقد نجم عن كل ذلك تباعد بين هاتين القيادتين، واتسع الصدع بينهما، ثم شرع التناحر والتصارع بينهما، وقد دفعت الدولة الإسلامية والدعوة الإسلامية ضريبة كبيرة فى هذا المضمار. وصار الفقهاء لا يعون لغة الملوك ـ ولا يطلب منهم أن يعوها ـ وصار ملوك بنى أمية لايعون لغة الفقهاء ـ مع أنه مطلوب الخضوع لها. وصارت القيادة السياسية فى واد، والإسلام فى واد آخر. وزرعت بذلك عمليا فكرة الفصل بين الإسلام كدين ومنهج ونظام للحياة من جهة، والقيادة السياسية من جهة، والسبب: فكرة العائلة الحاكمة. هذه الفكرة التى سمحت لأمثال الوليد بن يزيد بن عبدالملك لأن يصبح خليفة للمسلمين وهو الذى إذا ذهب إلى الحج حمل معه كلابا فى صناديق وعمل قبة على قدر الكعبة ليضعها على الكعبة وحمل معه الخمر وأراد أن ينصب القبة على الكعبة ويشرب فيها الخمر فأى إسلام هذا وأية خلافة هذه؟

(3) التغيير فى أسلوب تنصيب الخليفة:

إن الخلافة عقد مراضاة واختيار، لايدخله إكراه ولا إجبار. فلابد أن يتحقق الرضا من الطرفين: المرشح للخلافة ورضا المبايعين له من الأمة. فلا يجوز إكراه أحد على تحمل وزر الخلافة، كما لايجوز شرعا أخذ البيعة من الناس بالإجبار

والاكراه. ولم تكن خلافة معاوية برضا الناس ولا بعد مشورتهم وهو أول من يعرف ذلك وأول من صرح بذلك فى خطبة له بالمدينة فى بداية عهده:

«أنا أعلم أنكم لاتسرون بولايتى ولاتحبونها، وانى لعالم بما فى نفوسكم من ذلك، ولكنى خالستكم بسيفى هذا مخالسة، وإن لم تجدونى أقوم بحقكم كله فارضوا منى ببعضه». أليس هذا بالملك الجبرى الذى ذكره رسول الله ﷺ؟ وأين بيعة الرضا والاختيار وأين صفقة اليد وثمرة القلب؟.

(4) تكميم الأفواه:

واجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والنصيحة فى الدين من الواجبات الشرعية التى نص عليها الكتاب والسنة. وكانت الجماعة الإسلامية فى العهد الراشد تقوم به خير قيام. ولا يعنى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والنصيحة فى الدين الكلمات الرخوة لولاة الأمر، المكتنزة بأشكال التودد والتقرب والحث، بقدر ما كانت حزمة من الكلمات اليابسة. فالمعروف قد أمر به الله والمنكر قد نهى عنه الله، فلم الوجل والخوف من الصدع بذلك؟ وقد كان عمر رضى الله عنه يقول لمن يسدده ويتوعده بالسيف ان حاد عن طريق الحق: «لاخير فيكم ان لم تقولوها، ولا خير فينا ان لم نقبلها». وكان الرسول ﷺ ينهى صحابته عن المدح والتمادح ويقول لهم: «إذا رأيتم المداحين فاحثوا فى وجوههم التراب». إلا أن عصر معاوية ألغى كل ذلك، وقد بدأ عهده بقتل الصحابى حجر بن عدى عام 41 هجرية الموافق 661م. وكان معاوية قد أمر الخطباء فى المساجد بلعن الإمام على بن أبى طالب عليه السلام فوق المنابر. ولاشك أن هذا الأمر يؤلم المسلمين والصالحين. ولقد غضب الصحابى الجليل حجر بن عدى لذلك فكان إذا وقف زياد والى البصرة يسب الإمام عليا رضى الله عنه، وقف حجر يرد عليه ويمدح عليا ويذم معاوية. فما كان من زياد ـ وبتدبير من معاوية ـ إلا أن قبض على حجر وعلى اثنى عشر من إخوانه وجمع شهادات من عدد كبير من المرتزقة يتهم فيها حجر وإخوانه على أنه يخطط لحرب معاوية. وجىء بحجر إلى معاوية فأمر بقتله وسبعة

من اخوانه. ورد معاوية أحدهم - وهو عبدالرحمن بن حسان - إلى زياد وكتب له أن اقتله شر قتلة، فدفنه زياد حيا. يقول الحسن البصرى: «أربع خصال كن فى معاوية لو لم تكن فيه إلا واحدة لكانت موبقة. انتزاؤه على هذه الأمة بالسيف حتى أخذ الأمر من غير مشورة وفيهم بقايا الصحابة وذوو الفضيلة. واستخلافه بعده ابنه سكيرا خميرا يلبس الحرير ويضرب الطنابير. وادعاؤه زيادا وقد قال رسول الله ﷺ الولد للفراش وللعاهر الحجر. وقتله حجرا وأصحاب حجر، فيا ويلا له من حجر ويا ويلا له من حجر وأصحاب حجر»[1].

(5) احياء الجاهلية والجنسية والقبلية:

كانت دولة معاوية الأموية منذ بدايتها ذات صبغة عربية خالصة حتى أن المساواة بين المسلمين العرب والمسلمين غير العرب تلاشت. وفى ظل دولة الأمويين فرضت الجزية على المسلمين الجدد مخالفة فى ذلك أحكام الإسلام مخالفة صريحة. وكان ذلك عقبة كبرى فى سبيل انتشار الإسلام. وتولدت ردود الفعل الطبيعية المتوقعة عند المسلمين من غير العرب والعجم. وكانت التفرقة بين العرب وغير العرب واضحة وصريحة حتى أننا نرى الحجاج بن يوسف يصدر أمرا فى الكوفة ألا يؤم الناس فى الصلاة من كان من العجم. ولما قبضوا على سعيد بن جبير الصحابى الجليل وجاءوا به إلى الحجاج ذكره باحسانه إليه إذا جعله إماما للناس فى الصلاة بينما الإمامة لا تكون لغير العرب. بل لقد وصل الأمر إلى حد منع تقديم الأعجمى ليصلى بالناس صلاة الجنازة، اللهم إذا لم يكن فى الحضور ولو صبى من العرب. وإذا أراد عربى مسلم أن ينكح مسلمة من الموالى كان عليه أن يرجع فى ذلك لا إلى والدها أو أقاربها، كما تقرر الشريعة الإسلامية، بل إلى من تتمتع أسرتها بولايتهم من العرب. وراج بين العرب فى دولة بنى أمية اطلاق اصطلاح «الهجين» (وهو شتم) على من كانوا يولدون من زوجات غير عربيات.

---

1 - د. عبدالله فهد النفيسى - نفس المرجع ص112 وانظر الطبرى ج4 ص190 - 210، ابن عبدالبر - الاستيعاب ج1 ص135، ابن الاثير ج3 ص242، ابن خلدون ج3 ص14، المودودى - الخلافة والملك ص105.

كـذلك شاع بـين الناس عدم المساواة بينهم وبـين أولاد الزوجات العـربيـات فى الميراث، مـع أن الشريعة الإسـلاميـة تساوى بينهم دون شك. ويروى أبـو الفرج الأصفهانى أن رجلا من بنى سليم زوج ابنته لمسلم أعجمى فذهب محمد بن بشير الخارجى إلى المدينة وشكاه عند الوالى ففرق الوالى على الفور بين الزوجين وجلد الأعجمى وحلق رأسه ولحيته وحاجبيه وأهانه اهانة بالغة. من هنا ومن خلال هذا الواقع المزرى الذى ساد أيام معاوية وبـنى معاوية نشأت النزعة الشعوبيـة (القومية الأعجمية)، ومن هنا لقيت دعوة العباسيين فى مناطق العجم ـ وبالأخص خراسان ـ تأييدا ومساندة ضد بنى أمية. ولم يكتف بنو أمية بتشتيت الأمة، على هذا النمط فقط، بل عمدوا إلى تشـتيت العرب أنفسهم عن طريق احياء العصـبيات القبلية: العدنانية والقحطانية واليمانيـة والمضرية وأزد وكلب وقيس إلى آخر قائمة السخف العربى. وقد كتب ابن كثير فى البـداية والنهاية نقلا عن ابن عساكر أنه فى الوقت الذى كانت جيوش العباسيين تزحف فيه علـى دمشق كانت العصبيات بين اليمانية والمضرية تستعر فى دمشق (العاصمـة الأموية) فكنت ترى فى كل مسجد محرابين وكان فى المسجـد الجامع منبران يرتقيهمـا إمامان كل منهما يناصر قـبيلته ورهطه. لقد كـانت هذه النزعات تلقى تشـجيعـا منذ بداية دولة معـاوية، وكان يستـغلها لمصـالحه الشـخصـية وسـار على هذا الدرب «خلفاء» دولتـه ـ باستـثناء عمـر بن عبدالعزيز ـ غير أن السحر انقلب على الساحر فى النهاية.

(٥) تقديم مصالح العائلة الحاكمة على نصوص الكتاب والسنة:

ولا نبالغ إذا قلنا إن معـاوية ومن بعده يزيد ومروان كانوا يقدمـون مصالح عائلتـهم الحاكمـة ومطامعها على نـصوص الكتاب والسنة. ويكفـينا هنا أن نعدد مخالفات وتجاوزات معاوية للكتاب والسنة خلافا ظاهراً صريحا لا لبس فى ظهوره وصراحتـه. وكانت السنة ـ أيام الخلافة الراشدة ـ ألا يرث الكافـر مسلما ولايرث المسلم كافـرا، فشرع معاوية ـ خـلال عهده ـ يورث المسلم كافـرا ولايورث الكافر مسلمـا. ويقول ابن كـثير أن مـعاوية بدل سنة الرسول ﷺ فـى الدية وكانت دية

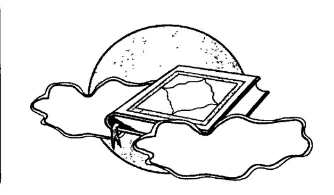
المعاهد مساوية لدية المسلم فخفضها معاوية إلى النصف وكان يأخذ النصف الآخر لنفسه ولا يضعها فى بيت المال. كذلك ابتدع معاوية بدعة كريهة وهى أنه وسائر ولاته - وبأمره - كانوا يكيلون السب والشتم للإمام على رضى الله عنه فى خطبهم على المنابر. كانوا يلعنون عليا رضى الله عنه - وهو أحب أقرباء رسول الله إلى قلبه الشريف - من فوق منبر المسجد النبوى نفسه وأمام الروضة النبوية ذاتها وكان أولاد سيدنا على وأقرب أقربائه يسمعون هذا اللعن بآذانهم. ولاشك أن هذا الأمر من وجهة نظر الدين والأخلاق يعتبر عملا فظا شديد القبح. كذلك خالف معاوية كتاب الله وسنة رسوله خلافا ظاهرا فى تقسيم مال الغنائم. فكتاب الله وسنة الرسول ينصان على ضرورة ذهاب خمس مال الغنيمة إلى بيت المال وتقسيم الأخماس الأربعة الباقية بين الجند الذين اشتركوا فى القتال. أما معاوية فقد أمر باستخراج الذهب والفضة من مال الغنائم واختص بها نفسه، ثم قسم باقى المال حسب القاعدة الشرعية. أليست هذه سرقة من مال المسلمين؟ كذلك رفع معاوية أعوانه وولاته فوق نصوص الكتاب والسنة، ورفض رفضا باتا محاسبتهم حسب أحكام الشريعة على ظلمهم وتعديهم. فذات مرة كان واليه على البصرة عبدالله بن عمرو بن غيلان يخطب فى المسجد فرماه شخص بحجر، فأمر أعوانه فأمسكوا به وقطعوا يده مع أن الشريعة لاترى ذلك جرما تقطع فيه يد فاعله، فاستغاث الرجل بمعاوية فقال: «لاسبيل إلى القود من نوابى ولكن الدية» وأعطاه الدية من بيت المال. يفعل ذلك معاوية مع علمه أن رسول الله ﷺ كان يستقد من نفسه.
وحين عين معاوية زيادا واليا على الكوفة - إلى جانب البصرة - وارتقى منبر المسجد الجامع فى الكوفة ليخطب خطبته الأولى رماه بعض الناس بالحجارة احتجاجا على تعيينه، فأمر أتباعه فأغلقوا أبواب المسجد وقبضوا عليهم جميعا (واختلفت الأخبار فى عددهم بين ثلاثين إلى ثمانين رجلا) وقطعوا أيديهم. فلم ترفع عليهم دعوى ولم يقدموا إلى محاكمة ولم تثبت عليهم شهادات كما تنص على ذلك الشريعة إنما كل الذى حدث أن والى معاوية قطع أيدى كل من كان فى المسجد بأمر منه، وهو ما لا يجوز فى الشرع قط، ولم يحفل بلاط معاوية

بالمسألة، ولم يعرها أدنى التفات. وابتدع معاوية بدعة كريهة أخرى تعكس الطبيعة الانتقامية لدى «أول ملوك العرب» وهى حكاية قطع الرؤوس وارسالها من مكان إلى مكان آخر، وهتك حرمات الجثث، والتمثيل بها، وهو ما كان ذائعا أيام الجاهلية وحرمه الإسلام تحريما شديدا، وقضى عليه قضاء مبرما. وأول رأس قطع فى الإسلام هو رأس سيدنا عمار بن ياسر الصحابى الذى قال فيه رسول الله ﷺ: «تقتلك الفئة الباغية». ولقد نقل الإمام أحمد بن حنبل فى مسنده بسند صحيح كما نقل ابن سعد فى الطبقات رواية تقول: إن رأس الصحابى عمار بن ياسر قطع فى حرب صفين وأحضر إلى معاوية وتنازع عليه رجلان كلاهما يزعم أنه الذى قتل عمار. وسلك معاوية نفس السلوك الوحشى الفظيع مع الصحابى الجليل محمد بن أبى بكر الصديق فى مصر وكان واليا عليها من قبل الإمام على ابن أبى طالب عليه السلام، فلما استولى عليها معاوية، قتله ثم وضع جثته فى جلد حمار ميت وأحرقها. وبعد أن استن معاوية هذه السنة القبيحة الكريهة القذرة المجافية لنص القرآن وسيرة الرسول ﷺ، من بعد ذلك، أصبح الأسلوب المعهود أن لاترحم جثث الذين كانوا يقتلون بدافع الانتقام السياسى، فقطع رأس الإمام الحسين رضى الله عنه وجىء به من كربلاء إلى الكوفة، ومنها إلى دمشق، ثم داست الخيل على جثته ووطئت بالأقدام. وفى عهد مروان قتل النعمان بن بشير - الذى ظل يحمى عائلة بنى أمية حتى عهد يزيد، بسبب مساعدته لعبد الله بن الزبير، وقطع رأسه وألقى فى حجر زوجته. وطيف برأس مصعب بن الزبير فى الكوفة ومصر ثم جىء به إلى دمشق وعلق أمام أعين الناس وكانوا يريدون الطواف به فى مدن الشام غير أن عاتكة بنت يزيد بن معاوية زوجة عبدالملك بن مروان نفسه احتجت على ذلك احتجاجا شديدا وقالت: «أما رضيتم بما صنعتم حتى تطوفوا به فى المدن» ثم أخذته وغسلته ودفنته. وقد ارتكب مع عبدالله بن الزبير واخوانه عبدالله بن صفوان وعمارة بن حزم ما هو أشد من ذلك وحشية وجاهلية، إذ قطعت رؤوسهم وجىء بها من مكة إلى المدينة ثم من المدينة إلى دمشق وعرضت فى كل مكان وعلقت جثثهم عدة أيام على مشانق فى مكة حتى تعفنت.

ثم مـاذا كان من يزيد بن مـعـاوية وخليفـته الذى قـلده الخلافـة بلا مشـورة من المسلمـين؟ قتل الإمـام الحـسين بن على رضى الـله عنه بعد أن وقف وحـده فى الميدان. ذبحـوه ونهبوا مـا كان على جسده، ومـزقوا حتى ثوبه الذى يسـتره، ثم داسـوه بالخيل ووطؤوه بالأقـدام. ومـزقوا أثواب نسـوته وقطعـوا رؤوس كل من استشـهد فى كربلاء وجاءوا بها إلى الكوفـة ثم أرسلت كل هذه الرؤوس من بعد إلى دمشق، فعلقـها يزيد فى أبهية بلاطه وصالاته. ثم كانت وقـعة الحره فى آخر أيام يزيد وخـروج أهل المدينة عـليـه، فأمـر يزيد بـالهـجوم علـى المدينة المنورة واستباحـتها لمدة ثلاثة أيام بحيث استطاع جيش يزيد المكـون من اثنى عشر ألفا أن يدخل بيـوت المدينة ويهتك أعـراض النساء بلا خـجل. حتى أن ابن كـثيـر قال: «حتى قيـل إنه حبلت ألف امرأة فى تلك الأيام من غيـر زواج». ثم هاجم جيش يزيد، بعد فراغه من أمر المدينة المنورة، مكة المكرمة ليقاتل سيدنا عبدالله بن الزبير فرمى الكعبة الشريفة بالحجارة فتهدم جدار من جدرها. هذه الحوادث ـ منذ معاوية مرورا بيـزيد ودولة بنى مروان وبنى عبدالمـلك ـ أوضحت أن هذه العائلة الحاكـمة كأية عـائلة حاكمة ـ كـانت تراعى أول ما تراعى سلطتـها وبقاءها واستـمرارها، وتضع حمـايتها والحـفاظ عليهـا فوق كل شىء ـ فلم تتورع فى سـبيل ذلك عن انتهـاك أى حد من الحدود، وذبح أية شـريعة من الشرائع. وهتك أية حـرمة من الحرمات. وهذا ليس سبيل الإسلام[1].

1 ـ د. عبـدالله فهد النفـيسى ـ نفس المرجع ص115 ـ 117، وانظر ـ طبقـات ابن سعد ج7 ص29، الطبرى ج4 ص178، الاستيعاب ج1 ص118، ابن الاثير ج3 ص223، البداية والنهاية ج1 ص29، المودودى-الخلافة والملك ص113.

الفصل الثالث



الفتوحات الإسلامية

- الأمويون والنشاط البحرى.
- معاوية وحصار القسطنطينية الأول والثانى والثالث.
- تحرير المغرب العربى من الاستعمار الرومانى - البيزنطى.
- تحرير عقبة بن نافع للمغرب العربى.
- فتوحات أبى المهاجر.
- ولاية عقبة بن نافع الثانية.
- زهير بن قيس البلوى يثأر لعقبة.
- حسان بن النعمان ودوره فى تحرير المغرب العربى.
- موسى بن نصير.
- فتح إسبانيا وحملة طريف بن مالك.
- طارق بن زياد فاتح إسبانيا.
- فتح بلاد ما وراء النهر - الشرق الإسلامى.
- قتيبة بن مسلم فاتح بلاد ما وراء النهر - الشرق الإسلامى.

الأمويون والنشاط البحرى

شــهد العــصر الأموى أوسع حــركات الفتــح الإسلامى وأكثرهــا نشاطًا فى التاريخ الإسلامى كله بعد فتوحات الخلفاء الراشدين، التى شملت «العراق» و«بلاد فارس» كـلها و «مـصر» و«الشـام»، ثم توقفت الـفتوحـات الإسلامية، أو كادت تتوقف بسـبب الفتن والحروب الأهـلية التى حـدثت بين المسلـمين. وقد استأنف المسلـمون فتوحاتهم بعد اجـتماع شملهم على «مـعاوية بن أبى سفيان» وتوحدهم تحت رايته فى عـام الجمـاعة عام (41هـ الموافق 661م)، وحقق الأمـويون أعظم إنجازاتهم على الإطلاق فى ذلك المـيدان العظـيم، وامتدت فتـوحاتهم إلى مناطق عديدة فى قارات العالم القديم (آسيا. أفـريقيا. أوربا) ففتحوا فى عهد «الوليد بن عبـدالملك» بلاد «ما وراء النهـر» (آسيا الوسـطى) وإقليم «السـند» فى «شبه القارة الهنديـة»، واستكمـلوا تحرير المـغرب العربى كـله فى حدود «مصر» الـغربية إلى «المحـيط الأطلسى»، ثم عبروا «مضـيق جبل طارق» إلى القارة الأوربيــة، ليفتحوا «الأندلس»، وجنوبى «فرنسا»، كـما استولوا على مـعظم الجزر فى «شرقى البحر المتوسط» وشـرقه وجنوبه، ثم واصلوا ضغطهم على مدينة «القسطنطينية»، عاصمة الدولـة البيزنطـية، وحاصروها أكـثر من مرة. وحـا المسـلمون أنفسـهم بعد عشر سنوات من بداية الفتوحات الإسلامـية قد سيطروا على الشواطئ الشرقية والجنوبية للبحر المـتوسط؛ بالإضافة إلى سيطرتهم شبــه الكاملة على «البحر الأحمر»، دون أن تكون لديهم قوة بحرية، فهم ليسوا أهل بحر، بل هم أهل صحراء، وإذا كانت لدى بعـضهم خبرة بحرية كأهل حضرموت فـهى خبرة تجارية وليست قتالية، ولذا كان من الضـرورى أن يمتلكوا قـوة بحرية تـمكنهم من الـدفاع عن الشواطئ التى امتلكوها.

وقـد كان من حـسن حظ الأمويـين وبفـضل مهـارتهم أنـهم عرفـوا كيف يكتســبون العمـال المخلصين من الـعرب، من رجال الحرب والحكم (الإدارة) فى نفس الـوقت. من هؤلاء: قتيبة بن مـسلم الفاتح الحقيـقى لما وراء النهر (من سنة 706م/ 87هـ ـ 715م/ 97هـ)، وموسى بن نـصير فاتح الأندلس (123هـ/ 711م)

على عـهد الوليد. فكـلاهما دفع حدود الإسـلام ووسعـها. الأول حـتى حدود الصين، والثانى نحو الغرب حتى جبال البرانس[1]. بعد موت الوليد وجه الخليفة سليمـان جهوده العسـكرية نحو القسطنطينيـة إذ كان يريد تحقـيق اسطورة منسوبة للنبى تقول بأنه سـيلى أمر هذه المدينة (وكـانت هذه هى المرة الثانية التى تتـعرض فيها مدينة الأباطرة لهجوم خطير. ففى خلال خمس سنوات من 673 ـ 677م/ 54 ـ 58هـ أيام معاوية عسكر المسلمون أمامها كمـا ألقت بحريتهم مراسيها مقابل مينائها، ولكن الهجوم المضاد الذى قام به المحاصرون، كما أن النار الجريجورية أو اليونانيـة كان لهـا أثرها فى فك الحصـار). وفى عام 717/ 98هـ عـهد الخليـفة سليمان إلى أخيـه مسلمة بقيادة جيش قوى مزود بآلات الحـصار، وتم حشد هذا الجيش فى قاعـدة دابق قرب حلب تحت رقابة الخليفـة المباشرة. وفى نفس الوقت جهـز أسطول كان عليه مـساعدة الجـيش (وعبر جـيش مسلمـة الدردنيل، وتقدم الأسطول فى البسفور وعلى طول سواحل بـحر مرمرة. وأغلق القرن الذهبى وهو بناء المدينة بسلسلة طويلة) ولكن فى نهـاية العام اضطر المسلمون إلى الانسـحاب، وذلك نتيجة لسـوء تموينهم وهجوم فصل الشتاء عليهم، وللهـجمات المتكررة التى أرهقهم بها البلغار[2].

*** معاوية وحصار القسطنطينية:**

. وضع «معاوية بن أبى سفيان» منذ أن ولى الخلافـة أهدافًا سياسية، كان فى مقدمتها فتح مدينة «القسطنطينيـة»، عاصمة الدولة البيزنطية، العدو اللدود للدولة الإسلاميـة، ولعله كان يستهـدف بسقوطها سقـوط الدولة نفسها، كـما هو الحال بالنسبة إلى دولة الفرس التى لم تـستطع الصمود بعد سقوط «المدائن» عاصـمتها. وكانت «القـسطنطينية» تعد من أمنع المدن فى العـالم، لموقعها الفـريد على القرن الذهبى الممتد فى مياه «خليج البسفـور»؛ حيث تحيط بها المياه من الشرق والشمال

---

1 ـ د. سعد زغلول ـ الدولة العباسية ص20.
2 ـ د. سعد زغلول ـ المرجع السابق ص20.

والجنوب، أما الناحية الغربية المتصلة بالبر، فقد أقام الأباطرة البيزنطيون سلسلة من الأسوار والأبراج لحمايتها من أية هجمات ولم يثن ذلك كله عزيمة «معاوية» عن فتح عاصمة البيزنطيين، فاستولى على الجزر البيزنطية الواقعة شرقى «البحر المتوسط». مثل: «رودس»، و «كريت»، و«أدوارد»؛ ليتخذها محطات للأسطول الإسلامى، تمهيدًا لغزو «القسطنطينية». ولما أكمل ذلك جهز أول حملة بحرية إليها، بقيادة «سفيان بن عوف» وجعل ابنه «يزيد» أميرًا شرفيًا عليها، سنة (49هـ)، وشارك فى هذه الحملة عدد من الصحابة، مثل «عبدالله بن عمر»، «وعبدالله بن عباس»، و«أبى أيوب الأنصارى». لم تنجح هذه الحملة فى تحقيق أهدافها؛ بسبب مناعة المدينة، وبرودة الجو الشديدة على العرب، فعادوا بعد أن استشهد عدد من الأبطال، منهم «أبو أيوب الأنصارى» الصحابى الجليل وقد تنبأ الرسول ﷺ بهذه الغزوة، ووعد أهلها المغفرة، فقال: «أول جيش يغزون مدينة قيصر مغفور لهم» [صحيح البخارى][1].

* الحصار الثانى:

على الرغم من عدم التوفيق الذى لحق الحملة الأولى، فإن «معاوية» لم ييأس، وقاد حملة أخرى، وفرض الحصار على المدينة سبع سنوات (54 - 60هـ الموافق 673 - 679م). واقتصرت العمليات الحربية على فصلى الربيع والصيف، لصعوبة القتال فى الشتاء. وقد أبلى المسلمون فى ذلك الحصار بلاء حسنًا، وتحملوا الصعاب والمشقات، لكنهم لم يستطيعوا الاستيلاء عليها، فقد فاجأ البيزنطيون المسلمين بسلاح لم يكن لهم به عهد، عرف باسم «النار الإغريقية» وهو مركب كيميائى يتكون من النفط والكبريت والقار، كانوا يشعلونه بالنار، ويقذفون به السفن الإسلامية، فتشتعل بها النيران، ولم يجد «معاوية» بدا من رفع الحصار وعودة الجيش إلى «دمشق».

1 - د. عبدالشافى محمد عبداللطيف - المرجع السابق ص24.

* الحصار الثالث:

اهتم الخليفة «سليمان بن عبدالملك» بفتح «القسطنطينية» اهتمامًا كبيراً، و جهز لذلك جيشًا ضخمًا، بلغ زهاء مائة ألف جندى، ومزوداً بنحو ألف وثمانمائة سفينة حربية، وأسند قيادته إلى أخيه «مسلمة بن عبدالملك»، واتخذ هو من مدينة «دابق» شمالى الشام مركز قيادة، يتابع منه أخبار الجيش وسير عملياته. وقد حاصر الجيش المدينة مدة عام كامل (98 ـ 99هـ الموافق 716 - 717م) دون جدوى، فقد استعصت المدينة على السقوط، على الرغم من الاستعدادات الكبيرة للجيش الإسلامى وتضحياته الجسيمة. ولم تكن تلك الحملات الثلاث بغير فائدة، مع عجزها عن فتح «القسطنطينية»، فقد شغلت الدولة البيزنطية بالدفاع عن نفسها وعن عاصمتها، وجعلت الاستيلاء عليها أملا إسلاميًا لم يخب نوره أو تنطفئ جذوته عبر القرون، حتى حققه السلطان العثمانى «محمد الفاتح» سنة 857هـ = 1453م)، وشيد مسجداً بالقرب من قبر «أبى أيوب الأنصارى» أول شهيد إسلامى هناك.

تحرير المغرب العربى من الاستعمار الرومانى ـ البيزنطى

وصل المسلمون فى أواخر خلافة «عثمان» إلى «تونس» الحالية، لكنهم لم يواصلوا فتوحاتهم بسبب الفتن التى استمرت حتى نهاية خلافة «الإمام على بن أبى طالب ﷺ» (36 ـ 40هـ الموافق 656 - 660م)، فلما استتب الأمر لمعاوية سنة (41هـ الموافق 661م)، كانت جبهة «شمالى إفريقيا» أولى الجبهات التى اهتم بها، لأنها كانت تخضع لنفوذ الدولة البيزنطية التى عزم على تضييق الخناق عليها، فأرسل عام (41هـ الموافق 661م) حملة إلى «المغرب العربى» بقيادة «معاوية بن حديج»، ثم أرسله على رأس حملة أخرى سنة (45هـ الموافق 665م) فاستطاع أن يفتح العديد من البلاد، مثل «جلولا» و«سوسة».

أخفقت محاولة معاوية بن حديج كما اخفقت المحاولات السابقة ولهذا كان على العرب المسلمين أن يغيروا خطتهم فى الحرب من أساسها فقد كان عدوهم الاستعمار الرومانى المسيحى يعتمد فى معركة المغرب العربى على ثلاثة عناصر

قوية أولـها أسطول بحرى ضخم بقواعد راسخة فى صقلية، وثانيها موانئ وقواعد بحـرية فى سواحل المـغرب العربى حـتى المحيط الأطلـسى تتعاون كـلها فى صد المغيرين وردهم عـلى أعقابهم، وثالثها تـأييد قبائل عرب البربـر المقيمين بالسهول الساحلية والتى كانت قد اعتنقت المسيحية ديانة الاستعمار الرومانى وتشربت الثقافة الرومانية مثلما حدث لـلقبائل العربية اليمـنية فى بلاد الشام والعراق التى تشربت الثقـافة المسيحية البيزنطية. وفعـلا عاد العرب المسلمون إلى المعركة مرة أخرى عام 50 هـ الموافق 670م. بخطة جديـدة لمواجهة تكتيك الـعدو وخططه وعاد القائد الكبير عقبة بن نافع الفهرى فاتح المغرب وفى ذهنه عدة أمور عديدة لإحراز النصر فى هـذه المعركة الحاسمة عن طريق تجنب الطريق الـساحلى بأية وسيلة مع محاولة التقرب من السـكان الأصليين من الـبدو من عرب البـربر الذين يكرهـون الثقافة المسيحيـة للاستعمار الرومانى والحكم البيزنـطى وبذلك يطوق الثغور الساحلية من أسفل ويتجنب خطر الأسـطول البيزنطى، إضافة إلى انشاء قاعدة للفتح الإسلامى للمغرب الإسلامى تكـون بعيدة من البحـر بالقدر الذى يجنـبها خطر الأسطول، وقريبـة من المنطقة التى تقع عنـد نهاية السهل الساحـلى وبداية المناطق الواقعة من خلفهـا يتجمع فيها المقاتـلة من المسلمين وتحشد فيهـا المؤن والذخائر وتتخذ قاعدة للفتح إلى المغرب العربى كله[1].

تحرير عقبة بن نافع للمغرب العربى:

أسند «معاوية بن أبى سفيان» قيادة الجيش الفاتح إلى «عقبة بن نافع»، وهو واحد من كبار القـادة الذين لمعت أسمـاؤهم فى الفتوحات الإسلامـية فى العصر الأموى، ولـم يـكن «عقبة» جديدًا على الميـدان فقد شارك فى فتح تلك البلاد منذ أيام «عمرو»، واكتسب خبرة كبيرة فواصل فتوحاته فى هذه الجبهة ولما رأى «عقبة» اتساع الميدان، وبعد خطوط مواصلاته عن قواعده فى «مصر»، شرع فى بناء مدينة تكون قاعدة لـلجيش، ومركزًا لانطلاقاته وإمداداته، فبنى مدينة «القيروان» (50 ـ 55هـ الموافق 674م) بإذن من «مـعاوية»، وكـان لهـذه المديـنة شـأن عظيم فى

1 ـ د. حسن أحمد محمود ـ تاريخ المغرب والأندلس ـ ص24.

الفتوحات وفى الحركة العلمية، وأثناء تأسيسها كان «عقبة» يدعو سكان المنطقة إلى الإسلام، فدخل كثير من «البربر» سكان البلاد فى الإسلام.

*** فتوحات أبى المهاجر:**

ظل «عقبة بن نافع» يواصل فتوحاته ونشر الإسلام حتى عزله «معاوية» وولى مكانه قائدًا آخر، لا يقل عنه شجاعة وإقدامًا، وحبا للجهاد فى سبيل الله، هو «أبو المهاجر بن دينار»، وكان يتمتع إلى جانب مهارته العسكرية بقدر من الكياسة وحسن التصرف والفطنة، فقد أدرك أن عرب البربر سكان المغرب العربى قوم أشداء، يعتدون بكرامتهم ويحرصون على حريتهم كالعرب تمامًا، وأن سياسة اللين والتسامح قد تجدى معهم أكثر من سياسة الشدة. وقد نجحت سياسة «أبى المهاجر» فى اجتذاب عرب البربر إلى الإسلام، وبخاصة عندما أظهر تسامحًا كبيرًا مع زعيمهم «كسيلة بن لمزم»، وعامله فى إجلال وإكرام، فأسلم الرجل متأثرًا بتلك المعاملة، وأسلم بإسلامه طائفة كبيرة من قومه. وفى مقابل تلك السياسة المتسامحة مع «عرب البربر» كان «عقبة» حازمًا فى تعامله مع الدولة البيزنطية التى حاولت أن تحتفظ بالمغرب العربى بعد أن فقدت «مصر» والشام، لكنها لم تنجح، فقد حقق «أبو المهاجر» نصرًا عسكريًا عليها، مكنه من السير إلى الغرب، فاتحًا معظم «المغرب الأوسط» ـ الجزائر الحالية ـ ووصل إلى «تلمسان»[1].

*** ولاية عقبة بن نافع الثانية:**

أعاد الخليفة يزيد بن معاوية «عقبة بن نافع» مرة أخرى إلى «المغرب العربى»، فواصل جهود «أبى المهاجر»، وقام بحملته التى اخترق بها الساحل كله فى شجاعة وجرأة حتى بلغ شاطئ «المحيط الأطلسى»، وأوطأ أقدام فرسه فى مياهه، وقال قولته المشهورة: «اللهم اشهد أنى قد بلغت المجهود، ولولا هذا البحر لمضيت فى البلاد، أقاتل من كفر بك حتى لايعبد أحد دونك». وبذلك أصبح

1 ـ د. عبدالشافى محمد عبداللطيف ـ نفس المرجع ص 25 ـ 26.

عقبة بن نافع الفهـرى أسطورة فى تاريخ الفتوح الإسلامية من حيث سرعة وعنف الهـجوم والآفاق التى وصل إليها فـقد تجاوز تونس وتوغل فى المغرب الأوسط ثم سار فى إقلـيم الساحل حتى وصل مـدينة طنجـة ودار حول ساحل الأطلسى إلى إقليم «الـسوس» الأدنى ثم الأقـصى حتى وصل إلى مديـنة أغمـات فى السودان الـغربى، ولم يقف عـند هذا الحد، بـل توغل فى غرب افريـقيا ووصل إلى بلاد «غانة» والتكـرور وبنى فيهـا بعض المساجد[1] وفى أثناء عـودة «عقبة» من غزوته المظفرة تعرض لكـمين نصبه له البيزنطيون بمسـاعدة «كسيلة» زعيم «البربر»، الذى كان «عقبة» قد أهانه، فبيـنما هو يسير فى عدد قليل من جنوده يبلغ زهاء ثلاثمائة جنـدى انقضت القوات البيزنـطية عليه وعلى من معه عند بـلدة تهودة فاستشهدوا جميعًا عام (63هـ الموافق 682م). ومما أسهم فى وقوع الكارثة أن «عقبة» كان قد وقع فى خطأ عسكرى كـبير، إذ سرح معظم جيشه، وأمرهم بالسير أمامه، فابتعد عـنه لمسافة طويلة، مما جعل الجيش البيزنـطى ينفرد به ويهزمه هزيمة ثقيلة أضاعت كل الجهود التى بذلها المسلمون فى فتح تلك البلاد، واضطر المسلمون إلى الارتداد إلى الخلف، ولم يستطيعوا الاحتفاظ بالقيروان، وعادوا إلى «برقة».

* زهير بن قيس البلوى يثأر لعقبة:

تسلم «زهير بن قيس البـلوى» قيادة الجيش خلفًـا لعقبة بن نافع عام 63هـ الموافق 682م، وعزم عـلى الثأر من البـيزنطيـين و «البربر»، لكـنه لم يستطع أن يحـقق هدفه إلا فى عام (69هـ الموافق 688م)، نظرا لانـشغال الـدولة الأموية بالأحداث والفتن الخطيرة الـتى حدثت فى الداخل بعد وفاة «يزيد بن معاوية» عام (64هـ الموافق 684م). تحرك «زهـير» بجيش كـبير وزحف على «الـقيروان» عام (69هـ الموافق 688م)، والتقى على مقربـة منها بجيش «كسـيلة»، فهزم «البربر» هزيمة ساحقـة بعد معركة شديدة وفى أثناء عودته إلى «بـرقة» للدفاع عنها ـ بعدما نمى إلى عـلمه أن البيـزنطيين زحـفوا عليـها فى جموع عـظيمة ـ تـعرض لهجوم بيزنطى مفاجئ، فلقى حتفه هو ومن معه.

---

1 ـ د. حسن أحمد محمود ـ المرجع السابق ص27.

* حسان بن النعمان ودوره فى تحرير المغرب العربى

وصلت أخبار استشهاد «زهير» ومن معه إلى الخليفة «عبدالملك بن مروان» وهو مشغول بصراعه مع الخوارج والشيعة وآل الزبير، فلم يتمكن من القيام بعمل حاسم إلا بعد أن استقرت له الأوضاع، فأسند قيادة جبهة المغرب العربى إلى «حسان بن النعمان» وطلب عبدالملك من القبائل اليمنية فى الشام ليحشدوا إليه الجند، وأقبل أفراد من القبائل اليمنية على الانخراط فى سلك المجاهدين وبلغ عددهم حوالى أربعين ألف جندى، وكانت الخطة التى التزم بها القائد حسان بن النعمان تدل على تطور هام فى تاريخ الحملات العسكرية، فقد انصرف إلى مهاجمة القلاع الساحلية مثل «قرطاجنة» وهذا يدل على نمو البحرية الإسلامية نموا جعلها تقدم على المخاطرة باقتحام ميدان المغرب العربى ومساعدة القوات البرية لقهر الروم وإتمام التحرير الإسلامى. وكان من نتيجة ذلك أن فتحت مدينة قرطاجنة معقل المقاومة وقاعدة الأسطول البيزنطى وأحرز الأسطول العربى الناشىء أول نصر له، وأن تحرير المغرب العربى قد تم بعدها. وأراد حسان أن يثبت أركان هذا النصر ويضع حدا لمحاولات الروم البحرية فأنشأ قاعدة للأسطول الإسلامى فى مدينة تونس. وإذا كانت القيروان حصنًا من الداخل ومعسكرًا للقوات البرية فقد أصبحت تونس قاعدة الأسطول الإسلامى فى المغرب العربى وكان حسان موفقا حين اهتم بتحصين تونس وجلب لها بعض الأسر المشتغلة بصناعة السفن لتدريب وتمكين أهل البلاد من ركوب البحر وقام بتولية عرب البربر فى وظائف الولاية وتمتعهم بالمساواة الكاملة فبين لأهل البلاد الفرق الواضح بين السياسة العربية والسياسة المسيحية البيزنطية القديمة فاشتد ساعد الإسلام وأقبل عليه عرب العاربة من الأماريغ البربر منذ ذلك الوقت إقبالا عظيما[1]. واستطاع حسان بعد جهد جهيد القضاء على الوجود البيزنطى فى المغرب العربى، وأن يحطم مدينة «قرطاجنة» أكبر مركز بيزنطى، وأن يبنى محلها مدينة «تونس» الحالية، كما قضى على كل مقاومة للبربر الموالين للمسيحيين البيزنطيين، بعد أن حقق نصرًا هائلا

---

1 ـ د. حسين أحمد محمود ـ المرجع السابق ص26.

على زعيمتهم الكاهنة التى آلت إليها الزعـامة بعد مقتل «كسيلة»، ونعم المسلمون بأولى فتـرات الاستقـرار فى المغرب العربى ولم يكن «حـسان بن النعمـان» قائدًا عسكريا عظيمًا فحسب؛ بل كان رجل دولة وتنظيم وإدارة أيضًا، فأنشأ الدواوين، ورتب أمور الخـراج والجزية، ووطّد سلطان الحكـم الجديد فى الثغـور والنواحى، وجدد مدينة «الـقيروان»، وأنشأ بها المسـجد الجامع، ووضع سيـاسات مستـقبلية انتهت بأهل المغرب العربى كله إلى اعتناق الإسلام.

موسى بن نصير:

حل موسى بن نصير عام (85هـ الموافق 704م) محل «حسان بن النعمان» فى ولاية المغرب العربى وقيادة جيوش الفتح بها، فأكمل ما بدأه سابقوه من القادة العظام، وقدر لـه أن يجنى ثمار غرسـهم، ففى ولايتـه تم فتح «المغـرب العربى» كله، وأقبل أبناؤه على اعـتناق الإسلام فى حرية تامة، بعـدما أدركوا وفهـموا ما يحمله من عـزة وكرامة وحـرية وعدل ومساواة. فلمـا جاء موسى بن نصـير إلى المغرب الأقصى يريد أن يترسم خطة عقبة مع تطبيقه لمبادئ حسان كتب له النجاح الذى لم يتوافر لعقـبة من قبل، ولكن موسى كان أبعد نظرًا مـن عقبة، ولم يكن قائدًا فـحسب انما كان مصلحًـا وسياسيًـا فى نفس الوقت فقرب إليه عـرب البربر وحببهم فى الحكومة الجديدة وولاهم الأعمال وأشركهم مع العرب فى إدارة البلاد فبدأوا يقبلون على الإسلام إقبـالا عظيما. وموسى لم يكن يحب أن يكون إسلام عرب العاربة الأمازيغ من البربر خوفًا أو رهبة بل عن حب واقتناع، فأخذ يعلمهم الدين وينشئ المساجد فى البلاد التى فـتحها فأنشأ مسجـدا فى مدينة «أغمات» فى أقصى المغرب وبدأت الثقافة الإسلاميـة تنبت فى هذه البيئة الحديثة، والتزم موسى سياسة حسـان وتابع خلفاء موسى هذه السياسة فإن إسمـاعيل بن أبى المهاجر فى عهد عمر بن عبدالعزيز عمل على نشر الإسلام، وأمده الخليفة بطائفة من التابعين انتشروا فى المغرب الأقصى يحضون الناس على الإسـلام وكان ذلك عاملا حاسما فى اندفاع الإسلام إلى الأندلس، فقد كـان عرب البربر فى المغرب الأقصى الذين

دخلوا فى الإسلام حديثا هم عدة هذا الفتح وطارق بن زياد المغربى وجهوده وبروزه فى قصة الفتح يعتبر دليلا على نجاح سياسة موسى وانتشار الإسلام[1].

*** فتح إسبانيا: حملة طريف بن مالك الاستطلاعية:**

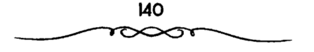
«إسبانيا» أو «شبه جزيرة أيبيريا» هى الجزء الجنوبى الغربى من قارة أوروبا وتشمل فى الوقت الحاضر دولتى «إسبانيا» و «البرتغال». عندما استقر الأمر للمسلمين فى «المغرب» فى ولاية «موسى بن نصير»، وأقاموا فيها نظامًا عادلا ورحيمًا. وكانت بداية فتح الأندلس أيضا وفقًا للسياسة العربية التقليدية وهى استشارة الحاكم فى بداية عمليات الفتح ثم بداية الغارات الخاطفة التى تسمى بالغارات الثغرية أو غارات جس النبض حين كتب الوليد بن عبدالملك إلى موسى ابن نصير يأمره أن يختبر بلاد الأندلس بسرية صغيرة فكانت الحملة المعروفة بقيادة طريف بن مالك عبر البحر إلى الأندلس فى قوة صغيرة من أربعمائة رجل ومائة فارس وقام «طريف» بسلسلتين من الغارات الخاطفة وغنم فيها غنائم كثيرة ثم عاد إلى المغرب مرة أخرى بعد أن حققت الحملة أهدافها[2].

*** طارق بن زياد فاتح إسبانيا:**

اختار «موسى بن نصير» للقيام بمهمة فتح «إسبانيا» «طارق بن زياد» وهو من أصل عرب البربر لما يتمتع به من شجاعة ومهارة فى القيادة، فخرج فى سبعة آلاف جندى، معظمهم من «عرب البربر»، وعبر المضيق الذى يفصل بين الساحل المغربى والساحل الأندلسى، والذى لايزال يحمل اسمه، ونزل على الجبل ـ الذى حمل اسمه أيضًا ـ فى شهر رجب عام (92هـ الموافق 710م)، واستولى عليه بعد عدة معارك مع القوات القوطية التى كانت تقوم بحراسته، وتوغل فى جنوب البلاد[3].

---

1 ـ د. حسن أحمد محمود ـ نفس المرجع ص28.
2 ـ د. حسن أحمد محمود ـ نفس المرجع ص30.
3 ـ د. عبدالشافى محمد عبداللطيف ـ المرجع السابق ـ ص26 ـ 28.



ومـا إن علم الملك «روذريق» بنزول المسلمـين فى بلاده ـ وكـان فى شمـال غرب البلاد مـشغولا بقمع ثورة اندلعت ضده ـ حـتى عاد مسرعًا لـلقاء المسلمين على رأس جيش قوامه نحو مائة ألف جندى، ولما علم «طارق» بعودة الملك طلب مددًا من «موسى بن نصيـر»، فأمده بخمسة آلاف، وأصبح عدد جيـشه اثنى عشر ألفا، والتقى الفريقان فى أواخـر شهر رمضان عام (92هـ الموافق 710م)، وحقق المسلمون نصـرًا حاسمًا، ويؤكـد المؤرخون أن هذه المعركـة المعروفة باسم معـركة «شذونة» قد قـررت مصير «الأندلس» لصالح المسلمين، لأن الجـيش القوطى دحر تمامًا، وهبطت روحه المعنوية إلى الحضيض، ولم يعـد قادرًا على المقاومة، فانفتح الطريق أمـام البطل الفاتح «طارق بن زياد»، ليـستـولى على مدن مـهمـة، مثل: «قرطبـة» و «غرناطة»، ووصل إلى «طـليطلة» فى وسط البلاد، وكـانت عاصـمة البـلاد فى ذلك الوقت. أرسل «طارق» إلـى «موسى بـن نصيـر» يبـشـره بهـذه الانتصارات، ويطلب منه مددًا جديدًا، فعبر إليه بنفسه على رأس قوة كبيرة قوامها ثمانية عشر ألفًا، ونجح فى فتح عـدد من المدن فى غربى البلاد مثل «إشبيلية» وهو فى طريقه إلى لقـاء «طارق» فى «طليطلة». اتفق القائدان العظيمان عـلى استكمال فتح «الأندلس»، فـاتجه كل منهـما إلى ناحيـة فأخذ «طارق بـن زياد» طريقه إلى الشـمال الشـرقى، فى حين اتجـه موسى إلى الشـمال الغـربى، ونجح الاثنان فى غضـون عامـين (93 ـ 95هـ الموافق 711 - 713م) فى فتح مـعظم شبـه الجزيرة الأيبيرية (إسبانيا)، عدا منطقة جبلية فى أقصى الشمال الغربى، استعصت عليهم، أو لم يحفلوا بها، ولم يدروا أنها ستكون فيما بعـد البؤرة التى ستنمو فيها المقاومة المسيـحية. وقد اسـتمر الإسـلام فى «إسبانيا» زهاء ثمـانية قرون، شـاد المسلمون خلالها حـضارة عظيمة، جـعلت منها البقعة الوحـيدة المضيئـة فى القارة الأوربية كلها، التى كانت تعيش عصورًا مظلمة وتحيا حياة متخلفة.

فتح بلاد ما وراء النهر «الشرق الإسلامى»

أطلق المسلمـون اسم بلاد «ما وراء النـهر» على البـلاد المعروفـة الآن باسم «آسيـا الوسطى» الإسلامـية أو «الشـرق الإسلامى»، وتضم خـمس جمـهوريات

إسلامية، كانت خاضعة للاتحاد السوفيتى، ثم من الله عليهم، فاستقلوا بعد انهياره. وتقع بلاد «ما وراء النهر» بين نهر جيجون (أموداريا) فى الجنوب، ونهر «سيحون» (سرداريا) فى الشمال، وأهلها من أصول تركية، حلوا بها منذ القرن السادس الميلادى. وكانت هذه البلاد تتكون عند الفتح الإسلامى من عدة ممالك مستقلة، وهى:

1 ـ مملكة «طخارستان»، وتقع على ضفتى نهر «جيجون»، وعاصمتها «بلخ».

2 ـ مملكة «الخُتّل»، وهى أول مملكة شمالى نهر «جيجون» وعاصمتها مدينة «هلبك».

3 ـ مملكة «ضغانيان»، وعاصمتها تسمى «ضغانيان» أيضا.

4 ـ مملكة «الصغد»، وعاصمتها مدينة «سمرقند»، ومن أهم مدنها «بخارى».

5 ـ مملكة «خوارزم» وعاصمتها مدينة «الجرجانية». وكانت تسمى هذه بالممالك الجيجونية، بالإضافة إلى عدة ممالك أخرى تقع على ضفتى نهر «سيحون»، سميت بالممالك السيحونية، وهى «الشاش»، و«أشروسنة»، و«فرغانة».

وهذه الممالك كلها تم فتحها خلال عشر سنوات (86 ـ 96هـ الموافق 705 ـ 714م) فى خلافة «الوليد بن عبدالملك»، على يد «قتيبة بن مسلم الباهلى»، وبقوة دفع هائلة من «الحجاج بن يوسف الثقفى» والى «العراق» والمشرق.

*** قتيبة بن مسلم فاتح بلاد ما وراء النهر «الشرق الإسلامى»:**

طرق المسلمون هذه البلاد عدة مرات منذ خلافة «عثمان بن عفان» رضي الله عنه، وغزاها عدد كبير من القادة المسلمين كان آخرهم «المهلب بن أبى صفرة»، ولم تكن حملاتهم عليها للاستقرار الدائم والفتح المنظم، وإنما كانت لتعرفها ومعرفة أحوالها. وبدأت المرحلة الحاسمة فى الفتح والاستقرار مع تسلم «قتيبة بن مسلم» قيادة جيوش الفتح وولاية إقليم «خراسان» عام (85هـ الموافق 704م)، وكانت الظروف مواتية له تمامًا، فالدولة الأموية كانت عندئذ فى أحسن حالاتها استقرارًا وهدوءًا وثراء عريضًا فاجتمع لقتيبة مهارة القائد، وعزم الوالى ـ «الحجاج» ـ

وتشجيعه، وقوة الدولة وهيبتها، فكانت فتوحاته العظيمة فى بلاد «ما وراء النهر».
ولم يكن «قتيبة» قائدًا عسكريًا فذا فحسب، بل كان إلى جانب ذلك رجل دولة، وصانع سياسة، وواضع نظم وإدارة، فعمل بعد تسلمه أمور الولاية على القضاء على الخلافات العصبية التى كانت تعصف بالقبائل العربية فى «خراسان»، من جراء التنافس على الولايات. وجمع زعماءهم، ولم يكتف «قتيبة» بتوحيد صفوف القبائل العربية تحت راية الجهاد، بل عمل على كسب ثقة أهل «خراسان» الأصليين، فأحسن إليهم، وقربهم وتودد معهم، وعهد إليهم بالوظائف، فاطمأن الجميع إليه، ووثقوا به وبقيادته.

* مراحل الفتح:

مرت خطوات «قتيبة»، فى فتح تلك البلاد التى استمرت نحو عشر سنوات (86 _ 96هـ الموافق 705 - 714م) عبر مراحل أربع هى:[1]

* المرحلة الأولى (86 _ 87هـ الموافق 705م):

وفيها أخضع «قتيبة بن مسلم» إقليم «طخارستان»، الواقع على ضفتى نهر جيجون، ويبدو أن أوضاعه لم تكن قد استقرت للمسلمين تمامًا، منذ أن فتحه «الأحنف بن قيس» فى خلافة «عثمان بن عفان»، وكانت تلك بداية ناجحة، فبدون توطيد أقدامه فى «طخارستان» لم يكن ممكنًا أن يمضى لفتح «ما وراء النهر»، وأصبح يتمتع بهيبة كبيرة فى تلك البلاد؛ فما إن يسمع الملوك بمسيره إليهم، حتى يسرعوا إلى لقائه وطلب الصلح.

* المرحلة الثانية (87 _ 90هـ الموافق 705 - 708م):

وفيها فتح «قتيبة» إقليم «بخارى»، بعد حروب طاحنة، وانتظام حملاته عليها، وكان الغزو يحدث فى الصيف، لأن شتاء تلك البلاد كان قاسيًا شديد البرودة على العرب، لكنهم أصروا وجاهدوا حتى تم لهم الفتح. والحقيقة أن جهل أهل البلاد بالإسلام، وتصورهم أن المسلمين جاءوا للاستيلاء على خيرات

1 _ د. عبدالشافى محمد عبداللطيف _ نفس المرجع ص28 _ 31.

بلادهم، هو الذى جعلهم يقاومونهم، لكنهم لما عرفوا أن المسلمين ليسوا غزاة، وإنما هداة يحملون إليهم الإسلام؛ أقبلوا على اعتناقه والإيمان بمبادئه. يقول المستشرق المجرى «أرمينوس فامبرى»: «إن بخارى التى قاومت العرب فى البداية مقاومة عنيفة، قد فتحت لهم أبوابها، لتستقبلهم ومعهم تعاليم نبيهمﷺ، تلك التعاليم التى قوبلت أول الأمر بمعارضة شديدة، ثم أقبل القوم عليها بعد ذلك فى غيرة شديدة، حتى لنرى الإسلام الذى أخذ شأنه يضعف اليوم فى جهات آسيا الأخرى، وقد غدا فى بخارى اليوم - (1873م) - على الصورة التى كان عليها أيام الخلفاء الراشدين».

* المرحلة الثالثة (90 - 93هـ الموافق 708 - 711م):

وفيها أكمل فتح حوض نهر «جيجون» كله، وتوج عمله بالاستيلاء على «سمرقند»، أعظم مدائن «ما وراء النهر» كلها.

* المرحلة الرابعة (93 - 96 هـ الموافق 711 - 714م):

وفيها عبر «قتيبة» نهر «سيحون»، وفتح الممالك السيحونية الثلاث: الشاش، وأشروسنة، وفرغانة، ووصل إلى إقليم «كاشغر» الذى يلامس حدود «الصين»، التى تهيأ لفتحها، لولا أن وفاة «الحجاج» عام (95هـ الموافق 713م)، وبعده الخليفة «الوليد بن عبدالملك» عام (96هـ الموافق 714م) جعلته يتوقف عند هذا الحد، لكنه أجبر ملك «الصين» على دفع الجزية له مع رسول إليه «هبيرة بن المشمرج الكلابى». وقد أصبحت تلك البلاد جزءًا مهما وعزيزًا من العالم الإسلامى، نشأت فيها مراكز علمية وحضارية، مثل «سمرقند»، و«بخارى» و«جرجان» وغيرها، وخرَّجت عددًا هائلا من علماء المسلمين الذين ملأت أسماؤهم سمع الدنيا وبصرها.

فتح السند (باكستان) والقائد محمد بن قاسم عام 89هـ الموافق 707م

بدأ «الحجاج بن يوسف الثقفى» يعد العدة لفتح إقليم «السند» فى «شبه القارة الهندية»، بعد أن استقام الأمر له فى جنوبى بلاد فارس وتوطدت أقدام

المسلمين هناك، وقضى على تمرد «رتبيل» ملك «سجستان»، وأخضع بلاده. ويعد فتح بلاد «السند» شبيهًا بفتح بلاد «ما وراء النهر» من عدة وجوه، منها:

سبق الفتح المنظم لبلاد «السند» سلسلة من الحملات والغزوات التى قام بها المسلمون لمعرفة طبيعة البلاد وجمع المعلومات عنها، كما حدث لبلاد «ما وراء النهر» وإن مسألة فتح «السند» أمر مفروغ منه حيث إن الرسالة المحمدية جاءت لتنشر الإسلام بين الناس جميعا، وتدعوهم إليه على أيدى شبابها ورجالها وكهولها كمحمد بن قاسم وقتيبة بن مسلم وعقبة بن نافع وموسى بن نصير وطارق بن زياد ولم يكن هؤلاء القادة الأبطال إلا خلفاء لخالد بن الوليد ومثنى بن الحارثة وسعد بن أبى وقاص وغيرهم، فالرسالة النبوية لم تأت لتظل فى الحجاز أو تكون مقصورة على العرب فى الجزيرة العربية بل جاءت إلى الناس كافة: **«وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيراً..»** وكانت فتوحات المسلمين قد وصلت إلى حدود الصين شرقًا كما كانت تسير سيرًا حثيثًا مرضيًا إلى جنوب غرب قارة أوربا، ففتح «السند» جاء كنتيجة طبيعية وأمر حتمى خاصة بعد أن فتحت بلاد إيران وبلاد ما وراء النهرين تحت مظلة الإسلام، وخاصة بعد فتح سجستان وكرمان ومكران عام 23هـ الموافق 644م كنتيجة تالية لفتح أقاليم سابقة لها كإيران والعراق وبعد أن قتل القائد المجاهد عبدالله بن نبهان وهو يحاصر «دبل» وكذلك بعد مقتل ابن عمه محمد بن قاسم الثقفى الذى كان قد أرسل من إيران إلى «الرى» فرده الحجاج إلى إيران وأمره بأن يتجهز لقيادة حملة لفتح «السند»[1].

عزم «الحجاج» على فتح إقليم «السند»، بعد أن استقرت أحوال الدولة الأموية، فأسند هذه المهمة إلى محمد بن القاسم وكان دون العشرين من عمره. وجهزه بما يكفل له النجاح من عدة وعتاد، وأمده بستة آلاف جندى من قبائل اليمن فى الشام، بالإضافة إلى ما كان معه من الجنود، فأصبح تحت قيادته نحو عشرين ألفًا فى تقدير بعض المؤرخين. اتخذ «محمد بن القاسم» من مقاطعة «مكران» - بلوشستان - قاعدة للفتح ونقطة انطلاق، فقسم جيشه نصفين،

---

1 ـ د. سعد محمد حذيفة الغامدى ـ الفتح الإسلامى لبلادوادى السند ص35.

احدهما برى والآخر بحرى، ثم تحرك قاصداً مدينة «الديبل» ـ وهى تقع قريبًا من «كراتشى» الحالية فى «باكستان» ـ ، وفتح فى طريقه إليها «فنزبول»، و «أرمائيل»، ثم وافته السفن التى كانت تحمل الرجال والعتاد، فحاصر «الديبل» واستولى عليها بعد قتال دام ثلاثة أيام، وترك فيها حامية من أربعة آلاف رجل، وبنى لهم مسجداً. وكان لفتح المسلمين مدينة «الديبل» أثر كبير على أهل «السند»، فسارعوا يطلبون الصلح فصالحهم «محمد بن القاسم» ورفق بهم، ثم سار إلى «نيرون» ـ «حيدر آباد السند» حاليا ـ فتلقاه أهلها وصالحوه كذلك، وكان لا يمر بمدينة إلا فتحها صلحًا أو عنوة، وتوج ذلك كله بالانتصار على «داهر» ملك «السند»، ومضى يستكمل فتحه، فاستولى على حصن «راود»، ثم «برهمان آباد»، و «الرو» و «بهرور»، ثم اجتاز نهر «بياس» وعبر إلى إقليم «الملتان»، فاستولى عليه بعد قتال شديد، وغنم كميات كبيرة من الذهب.

معركة «الراور Rawar»: حددت هذه المعركة مصير أراضى السند وغيرت مجرى حياة أهله من جميع النواحى وكانت قد جرت بالقرب من مدينة «الراور» الواقعة فى المسافة بين «برهمان آباد» و«نيرون» وبما أن تجمع قوات «داهر» كانت إلى الشرق من نهر «مهران» وهو السند حاليا، وكان لابد لجيوش المسلمين من العبور إليهم وفى هذا مجازفة كبيرة وخطورة على حياة المسلمين ومصيرهم فى أرض السند بأسرها حيث كان «داهر» قد أعد لهم كمائن على جانب الوادى من الشرق ليتخطفوا المسلمين فرادى وجماعات اثناء العبور ولكن الله سلم فقد كان لسياسة القائد وتخطيطه السليم ومانمت عنه نتائج العبور من حنكة عسكرية ومواهب قيادية نادرة الانتصار الحاسم على قوة «الهندوس». ولم تكن معركة «الراور» بأقل من معركة القادسية ضراوة وبسالة من جانب الخصمين المتحاربين من ناحية ولا من حيث النتائج التى تمخضت عنها المعركة من ناحية ثانية، فقد فتحت الباب على مصراعيه لفتح بلاد السند ودخول أهلها إلى الإسلام. فقد بسطت «الراور» بقيادة ابن القاسم بلاد السند (باكستان حاليا) ممهدة أمام الفتح الإسلامى

حـتى وصلت قواته إلى حدود «كشـمير». وبعد أن أخضـعت مدينة «الراور» سار ابن القـاسم باتجاه «بـرهمان آبـاد» وقام بتـعيين ابن لـلملك «داهـر» اسمه «نوبة» وكذلك وزيره «سـيساكر» وجعل مـحمد مقرى فى مـدينة «دهليلا». وعين الأول حاكما والثـانى وزيرًا، وبعد فتح «برهـمان آباد» كان لابد من السـير شمالا لفتح عاصمة الهندوس الكبرى «الور Alor» وبعد حصارها استسلمت العاصمة ودخلها المسـلمون وبعدها اتجه القائـد ابن القاسم صوب عاصمة السـند العالية وهى مدينة «الملتـان» وضرب حصارًا حول قلـعتها المنيعـة لأكثر من شهرين دون الوصول إلى الـنيل منها حيث لقى المسلمون الأمرّين وعانـوا أشد المعاناة وأقساها وبعدها تمكن المسلمون من فتح المدينة ودخولها ثم توجه إلى الشمال الشرقى من مدينة «لاهور» الحالية[1]. وبيـنما يواصل «مـحمد بن القـاسم» فتوحاته؛ إذ جـاءته الأخبار بوفاة «الحجاج» سنده وعونه فى الفتح، فاغـتم لذلك غمًا شديدًا، لكنه واصل فتوحاته حتى أتم فـتح بلاد «الـسنـد»، وجاءته قـبائل «المـيد» و«الجـات» و«الزط» تـقرع الأجـراس فرحة هـاتفة، مـرحبـة به، لأنهم عدُّوه مـحرّرهم من ظلم الـهندوس واسـتعبادهم. وفى هـذه الأثناء مـات الخليفـة «الوليد بن عـبدالملك» عام (96هـ الموافق 714م)، وتولى أخوه «سـليمان بن عبدالمـلك» منصب الخلافة، فعين على «الـعراق» «صالح بن عبدالرحمن»، وكان واحـدًا من ألد خصوم «الحجاج»، فقرر الانتـقام منه على الرغم من وفاته عام (95هـ الموافق 713م) فى شخص ابن عمه «محمد بن القاسم»، فـعزله عن قيادة الجيش، ولـم يكتف بذلك، بل أمر بالقبض علـيه وأمر بـأن يرسل إلى الـعراق مـكـبلا فى الأغلال ووضعه فى الـسجن مع خصـومه، وظل يعذبه حـتى مات. ومن العجـيب أن هذا البطل الـذى قتله أهله وعشيرته حزن عـليه أهل «السند» الـذين فتح بلادهم، لما رأوا فى عهده من عدل وسماحة وحرية، وصنعوا له التماثيل كما يروى «البلاذرى»[2].

---

1 ـ د. سعد محمد حذيفة الغامدى ـ المرجع السابق ص49.
2 ـ د. عبدالشافى محمد عبداللطيف ـ نفس المرجع ص30 ـ 33.

حلت تلك المأساة بفاتح السند، وكان عزل ابن القاسم من قيادة تلك الجبهة وهى فى ريعان شبابه لم يتجاوز العشرين قد أفقد المسلمين عامة وأسرة بنى أمية وعلى رأسهم حاكمها سلمان بن عبدالملك الذى عزله خاصة الشيء الكثير، فقد أضاع سليمان ما عمله ابن القاسم بعزله عن تلك الجبهة التى كانت من جبهات الجهاد فى سبيل نشر الدين الإسلامى وأضاع معه ثغر بلاد الهند والسند. لقد كان ابن القاسم قائداً صدق الله الجهاد فى سبيله فصدقه الله ووعده بالنصر، كان متميزاً فى خلقه وفى تعامله مع سكان المناطق المفتوحة وفى حنكته السياسية وفى إدارته الفذة وفى عسكريته النابغة، وفوق ذلك كله فى إخلاصه لمعتقده، أحب الناس الذين حوله فأحبوه وأخلصوا له، احترم سكان باكستان غاية الاحترام فأعطى كل ذى حق حقه وزيادة، فوفوا له وأخلصوا فى وفائهم له وبذلوا دماءهم دونه مقاتلين بين قومهم وأهليهم دونه، وإن الزائر إلى باكستان التى فتحها ابن القاسم فلا يذكرون اسمه مجردا بل يسبقونه بـ: سيدى أو مولاى عماد الدين محمد بن القاسم وتسمع على شفاة سكان باكستان ذكرى ابن القاسم الطيبة تعيش معهم يوميا فرحم الله ذلك المجاهد رحمة واسعة[1].

انتشار الإسلام فى المغرب العربى: وكانت هذه السياسة العربية عظيمة الأثر فى تاريخ البلاد، فقد حطمت الحواجز المصطنعة التى فرضها البيزنطيون بين سكان المناطق الداخلية والساحلية، وأدى ذلك إلى نهوض الشعب المغرب العربى فى المغرب وأخذه بأسباب الحضارة الإسلامية، ولم تعد البلاد شريطا ساحليا يسكنه جماعة من المستعمرين المتحضرين، إنما أصبحت بلدة واحدة يسكنها شعب قوى متحضر. ولعل أهم هذه النتائج جميعها هى انتشار الإسلام فى البلاد بأسرع مما انتشر فى غيره من البلاد. فقد كان الإسلام فى هذه البلاد أكثر نجاحا وأسرع انتشارا، أسرع من انتشاره فى مصر رغم سهولة فتحها. فما كاد القرن الثانى

1 ـ د. سعد محمد حذيفة الغامدى ـ المرجع السابق ص51.

الهجرى يؤذن بالانتهاء حتى كان الإسلام قد استقر فى بلاد المغرب العربى، دخل المغاربة فيه واندمجوا فى الحياة الإسلامية، واكتسبت ثقافتهم الصبغة العربية الواضحة. ولعل ذلك يرجع إلى ظروف البلاد نفسها وإلى طبيعة المسيحية فيها وإلى طبيعة البلاد نفسها وطبيعة أهلها ثم إلى سياسة الدولة الأموية التى أتمت الفتح وأدخلت البلاد فى نطاق الدولة الإسلامية. وأن المسيحية لم تكن تتجاوز المدن الساحلية، لسبب واضح هو أن النفوذ الرومانى والبيزنطى لم يكن يتجاوز هذا النطاق. ظل النطاق الداخلى خارجا عن النفوذ البيزنطى من ناحية وخارجا عن نفوذ الكنيسة من ناحية أخرى. ولا ننكر أن بعض التأثيرات قد نفذت إلى بعض هذه النواحى الداخلية، غير أن السير توماس أرنولد يشك فى امتدادها إلى قبائل عرب البربر فى المناطق الداخلية لسبب واضح فى مخيلته هو أن هذه القبائل البدوية العربية البربرية لم تتشرب الحضارة المسيحية الرومانية، وكانت تقف من الدولة البيزنطية موقف العداء الصريح، وأنها كانت لاتفتأ تهدد مناطق النفوذ البيزنطى بالإغارات المستمرة[1].

فإذا كان هذا هو حال برقة وطرابلس وتونس والجزائر فما بالنا بالمغرب الأقصى بشعابه الجبلية وهضابه وطبيعته المعقدة. كانت الكثرة الكثيرة من أهل هذه المناطق الداخلية على الوثنية. وكذلك شأن غالبية عرب البربر فى المغرب. وهذه المسيحية محدودة الانتشار فى المغرب العربى كانت قد ضعف سلطانها بالتدريج فى أغلب المناطق التى كانت قد استقرت فيها، ففى برقة مثلا كادت تتلاشى قبيل الفتح الإسلامى، وقد نال من الكنيسة الرومانية ما لقيته فى ظل الوندال الآرايين قرابة قرن من الزمان اضطهدوا الأرثوذكس اضطهادا عنيفا وشردوا أساقفتهم وحرموا عليهم الجهر بإقامة شعائر الدين وأمعنوا فى تعذيب من أبى أن يدخل فى مذهبهم فلما عادت هذه البلاد إلى الدولة الرومانية وعقد مجمع قرطاجنة لم يحضره إلا نحو مائتان وسبعة عشر أسقفا، بعد أن كانت كنيسة إفريقية من أغنى الكنائس بالأساقفة والقسيسين. ولم تستطع المسيحية فى المغرب العربى ـ وهذا

1 ـ د. حسن احمد محمود ـ نفس المرجع ص75.

حالها ـ أن تقف من المد الإسلامى وقفة على الأقل تدانى وقفة المسيحية فى مصر. فقد ناضلت كنيسة مصر البيزنطية واحتفظت برمقها على حين نجد كنيسة المغرب رغم تسامح العرب قد تلاشت تدريجيا، ففى عام 1053م مثلا لم يمثل هذه الكنيسة إلا خمسة أساقفة ثم ازدادت ضعفا خلال القرنين التاليين، وفى عام 1246م لم يبق إلا أسقف مراكش الزعيم الروحى الوحيد الذى كان يشرف على ما بقى من هذه الكنيسة القديمة، ثم اختفت تدريجيا فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر، ولم يبق من ذكراها إلا أطلال الكنائس المنتشرة فى هذا السهل الفسيح. وما دام المغاربة كان إقبالهم على المسيحية الرومانية والبيزنطية على هذا النحو الضئيل فمن الطبيعى أنهم لم يناضلوا من أجلها، ولم تستطع عقائدهم البدائية أن تنافس الإسلام، بل دخل فى هذا الدين من كان قد دخل فى المسيحية، وكان ضعف المسيحية على هذا النحو ثم قلة مقاومتها من الأسباب التى مكنت للإسلام أن ينتشر ومكنته من أن يعم البلاد كلها. وهناك حقيقة أخرى تفسر هذا الانتشار السريع، الذى صادفه فى بلاد المغرب العربى أبلغ من ضعف المسيحية نفسها، وهى أن أهل البلاد الأصليين كانوا فريقين: فريق ينزل السهل الساحلى الذى يقع بين الجبال والبحر، ثم ينتشر على طول الجبال الممتدة من الشرق إلى الغرب فى السفوح المزروعة والنواحى الخصبة المحيطة بجبال أوراس، ويمعنون انتشارا حتى مدينة طنجة، وهذا الفريق من عرب البربر يسمى فريق البرانس.

أما فى الجنوب حيث نشاهد سلسلة من الوديان العالية والهضاب المرتفعة والبيئات الرعوية أو شبه الرعوية التى تمتد امتدادا متصلا من طرابلس إلى المغرب الأقصى، فقد نزلت طائفة من القبائل البدوية العربية البربرية الكبرى، هذا الفريق البدوى العربى البربرى من سكان المغرب يسمى فريق «البتُر». كان المستقرون أكثر إقبالا على الحضارة الرومانية وأكثر تشربا لها وأوفر دخولا فى المسيحية، فكانوا بحكم تعلقهم بها أشد مقاومة للعرب وأبطأ دخولا فى الإسلام، بل كانوا هم عصب المقاومة للزحف العربى. أما البدو سكان المناطق الداخلية البعيدون عن نفوذ الاحتلال المسيحى الرومانى والبعيدون بالتالى عن تأثير المسيحية فقد كانوا أكثر عداء للرومان المحتل متمسكين بدينهم القديم.

وهؤلاء الناس رأوا الفتح العربى يقرر مصير المغرب، فألقوا بثقلهم معه وأيدوه من أول الأمر. بل كانوا عدة العرب فى زحفهم وطليعة جندهم. دلوهم على عورات البلاد، وأعانوهم فى نضالهم مع الرومان، وأشهر من أيد الفتح العربى من هذه القبائل البدوية العربية البربرية قبيلة لواتة ونفزاوة ونفوسة وقبيلة زناتة. وما دام هؤلاء قد أيدوا الفتح العربى منذ البداية فقد كانوا أسرع استجابة للإسلام ودخولا فيه. بدأ الإسلام ينتشر بين هذه القبائل من عرب البربر دفعهم إليه عداوتهم للروم المسيحيين المحتلين. ولم تستطع عقيدتهم الوثنية أن تصمد أمام الدين الإسلامى الوافد فى قوته وعنفوانه. ولما انهارت المقاومة البيزنطية وانبسط النفوذ العربى على البلاد كلها لم يشأ الفريق الآخر من أهل المغرب العربى أن يتخلف عن الركب فبدأوا ـ بدورهم ـ يدخلون فى الإسلام أسوة بمن دخل فيه من البدو عرب البربر. وثمة أسباب تفسر سرعة انتشار الإسلام فى المغرب، سرعة تقبل الناس له وهو أن بعض هؤلاء العرب اتخذوا سياسة كانت بعيدة الأثر فى انتشار الإسلام وفى إقبال أهل المغرب عليه. وهذا حسان بن النعمان محرر المغرب العربى من الاحتلال المسيحى الأوروبى منح عرب البربر الذين يؤيدون الفتح ويؤازرونه حق المساواة الكاملة مع العرب أو حق الرعوية العربية الكاملة. ووضح أمام عرب البربر ما ينطوى عليه الإسلام من مساواة بالفاتحين العرب، ومن مكاسب مادية ومعنوية فيكونون عدة العرب فى زحفهم المقبل صوب المغرب الأقصى مع ما يتضح من هذا الزحف من مغنم ومكاسب مادية وفيرة. وتتضح سياسة حسان هذه من رواية المالكى. وهى تهدف إلى إشراك عرب البربر فى جيش الفتح، ومعنى هذا منحهم حقهم المشروع من العطاء. ثم إذا به يسوى بين العرب القادمين والعرب المقيمين من البربر فى الحرب ومغانمها، لم يعتبر العرب حكاما والبربر محكومين، إنما ساوى بينهم فى الحقوق والواجبات وفى الاشتراك فى الحرب[1].

فهذا يخالف ما ألفوه من سياسة الاستعمار المسيحى الرومانى حيث إن أهل المغرب العربى مهما بلغت ثقافتهم ومكانتهم من موالى الرومان لهم المرتبة الثانية

1 ـ د. حسن أحمد محمود ـ نفس المرجع ص78.

فى المجتمع فإذا بهم اليوم يظفرون بالمساواة المطلقة. بل أمعن حسان فى سياسة التهدئة والترضى هذه فاعتبر المغرب العربى مفتوحا صلحا لا عنوة، وأقر عرب البربر على ما بيدهم من الأرض. إذن محالفة العرب لا تفقدهم أرضهم ولا مراتبهم المادية. بل اتخذ حسان هنا سياسة كان لها أثر نفسى بعيد المدى فى دفع عرب البربر نحو الإسلام؛ ذلك أنه ميز عرب البربر على سائر أهل المغرب فاعتبر الروم الأفارقة من موالى العرب لايتساوون مع البربر لو أسلموا، واعتبروا الأرض التى كانت للروم مفتوحة عنوة فاستحلها العرب واعتبروا أهلها ومن وجدوه عليها موالى لهم يتصرفون فى شئونهم كما يريدون. فوجد عرب البربر الذين استبعدوا بالأمس أنفسهم أرفع شأنا من سادة الأمس الأفارقة والروم. وكانت النتيجة الملموسة لهذه السياسة هى اختفاء العنصر المسيحى الرومى واللاتينى من البلاد شيئا فشيئا، حتى انعدمت آثارهم من البلاد تقريبا، واختفت تبعا لذلك اللغات اليونانية واللاتينية والفينيقية التى كان يستعملها هؤلاء الروم والأفارقة، وأدت هذه السياسة إلى نهوض الشعب المغربى وأخذه بأسباب الحضارة الإسلامية. وامتدت سياسة التهدئة من تونس والجزائر إلى المغرب الأقصى على يد موسى بن نصير الذى تابع سياسة حسان فى المغرب الأقصى، فلم يكن قائدا فحسب إنما كان مصلحا وسياسيا فى نفس الوقت، قرب إليه عرب البربر وحببهم فى الحكومة الجديدة فولاهم الأعمال وأشركهم مع العرب فى إدارة البلاد، فوجدوا أن انضمامهم للعرب ومحالفتهم قد يستمر عن مكاسب مادية جمة، فبدأوا يقبلون على الإسلام إقبالا عظيما. وكان نشر الإسلام يسير مع الفتح جنبا إلى جنب، لأن موسى أحب ألا يكون إسلام عرب البربر خوفا أو رهبة بل اقتناعا وحبا، فأخذ يفقههم فى الدين فينشئ المساجد فى البلاد التى فتحها، حتى لقد أنشأ مسجدا فى أغمات هيلانه فى أقصى بلاد المغرب. ونجحت سياسة موسى نجاحا بعيدا، فأصبح المغرب الأقصى بشعوبه وقبائله طوع يمينه، وكما أشرك حسان عرب بربر المغرب فى جيش العرب كذلك فعل موسى أشرك عرب بربر المغرب الأقصى فى فتح الأندلس، وانضمت إليه جماعات البربر طمعا فى الغنم أو حبا فى الجهاد.

وحركة فتح إسبانيا كانت عظيمة الأثر فى انتشار الإسلام بن عرب البربر فقد كان هذا النصر السريع، الذى أحرزه العرب حافزا لمن تخلف من عرب البربر المسلمين إلى عبور البحر للاشتراك فى الحرب والمساهمة فى الغنم الوفير، ثم دافعا لمن بقى على دينه إلى الدخول فى الإسلام، حتى يتاح له الالتحاق بجند المسلمين، لذلك كان فتح إسبانيا معجلا بإسلام عرب البربر، فقد حاربوا مع العرب جنبا إلى جنب واحتكوا بهم وخالطوهم وأفادوا منهم فى الدين والثقافة.

ولم ينفرد الولاة بالاهتمام بأمور المغرب العربى على هذا النحو بل اهتم به الخلفاء، وكان اهتمامهم متمما لأعمال الولاة ودافعا للحركة الإسلامية إلى الأمام خصوصا الخليفة عمر بن عبدالعزيز الذى كان يريد أن يزيد الإسلام انتشارا فى المغرب العربى وأن يثبته فى قلوب من دخل فيه حديثا. ولتحقيق هذا الغرض نراه يولى إسماعيل بن عبيد الله عام 100 هـ، ليدعو من بقى من عرب البربر إلى دين الإسلام، ولم يكن إسماعيل هذا عاملا على المغرب العربى فحسب بل داعية إلى الإسلام بالدعوة السلمية والحجة والإقناع، والمؤرخون يردون إليه الفضل فى إتمام ما بدأه أسلافه وفى تثبيت العقيدة فى نفوس مسلمى البربر. وأتبع عمر بن عبدالعزيز هذا بإرسال التابعين الذين انتشروا بين عرب البربر وأخذوا يعلمونهم أصول الدين ويرسون قواعده وأصوله، وأقام كثيرون منهم فى مدينة القيروان أو غيرها من المدن المغربية، وأقاموا المساجد وجعلوها مدارس للإسلام يقصدها عرب البربر من كافة أقاليمهم، وقد أخذ عن هؤلاء التابعين كثيرون من أهل البلاد، فإذا تعلم فريق من أهل البلاد الأصليين وقضوا بعض الوقت فى الدراسة فى القيروان عادوا إلى بلادهم لمتابعة الرسالة فيتولون وظائف الإمامة والقضاء ويعملون بدورهم على نشر الإسلام وثقافته العربية. ويمكننا أن نقول فى اطمئنان أن القرن الثانى للهجرة أظل بلاد المغرب، وقد أضحى قطرا إسلاميا ينفعل مع التفكير الإسلامى الذى شاع فى العصر الأموى، فإذا بالفرق الدينية التى ظهرت فى ذلك العصر مثل

الشيعة أو الخوارج تنـتقل هى الأخرى إلى المغرب العربى بفرار بعض الدعاة حيث تصادف دعـوتهم مرعى خصيبا بين القبائل وكان ظهور حركات الخوارج سريعا فى المغـرب العربى واندلعت نيران ثورتهم عام 122هـ الموافق 739م. وهذا يدل على تفاعل عرب البـربر كاملا مع الحياة الإسلامية، بل كان دعاة الشيعة وثوار الخوارج عاملا هاما فى نشر الإسلام بين أهل البلاد.[1]

توقف الفتوح (وبدء الاضمحلال)

إذا رجعنا إلى المـؤرخين مثل المسـعودى نرى أن يزيد الـثانى (ابن عبدالملك (110 ـ 105هـ/ 720 ـ 724م) لم يشـغف إلا بحب الجوارى الجـميلات أما عن هشام (ابن عبدالملك 105 ـ 125هـ/ 724 ـ 743م) الـذى كان خشنا فظ الطباع فإنه ضرب مثلا ـ قلده فيه من كـان يحيط به من رجال حاشيته ـ من قسوة القلب وشدة البخل، وأما الوليد الثانى (ابن يزيد بن عبدالملك 125هـ/ 744م) فإنه أثار سخط الجمـيع بفجوره ونذالته. فيقال انه اتخذ القرآن هدفا لنباله، وعلى ذلك فإن موتته الشنيعة ظهرت للناس كعقاب لهذا الفجور[2].

ورغم المساوئ الـتى تنسب إلـيهم، فإن الأسـرة عرفت على عـهدهم أياما عظيمة، ولو أنها كانت فى الحقيـقة آخر الأيام العظيمة: فالاضمحلال كان قريبا. وكان هذا الاضمحلال نتيجة لصعوبات لم يكونوا المسئولين عنها فى كل الأوقات. لقد تـوقف توسع الإسلام الإقلـيمى لمدة من الـوقت. ففى الغـرب عبرت قوات الإسلام المنتصرة جبال البرانس وساحت فى الأرض الكبيرة. ودخلت مدينة نربونة فى عام 96هـ/ 715م، وفى عام (107هـ/ 725م) استسـلمت مـدينة كـركسون (قرقشونة). وفى نفس السنة قامت جماعات الخيالة مصعدة فى وادى الرون وحتى إقليم برجنديا حيث دخلت مدينة «أوتان» وغنمتها. هذا، إلا أن المسلمين كانوا قد

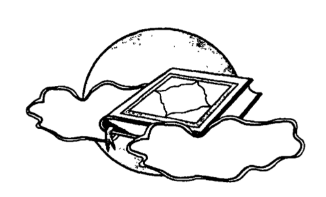
---

1 ـ د. حسن أحمد محمود ـ نفس المرجع ص79.
2 ـ سعد زغلول ـ المرجع السابق ص21.

قابلوا مقاومة صعبة فى الميادين المفتوحة، ففى عام 721م انهزموا قرب تولوز (طلوشة) على يدى «يود» دوق اكيتين (قطانيا). وفى أكتوبر عام 732م/ رمضان سنة 114هـ قام والى إسبانيا عبدالرحمن الغافقى بمغامرة بعيدة المدى نحو نهر اللوار (فى مقاطعة اللورين) وقابل شارل مارتل بين مدينتى تور (Tours) وبواتييه (Poitiors) وسقط فى ميدان القتال مع عدد كبير من جنوده فى المكان المسمى ببلاط الشهداء. ففى الغرب إذن بلغ الإسلام أقصى حدود توسعه، وبدأت المسيحية من حينها تقوم برد الفعل. وفى الشرق تحركت المسيحية للعمل أيضا. فحصار القسطنطينية الأخير انتهى بفصل يبعث على الشفقة. وفى نفس هذه السنة التى فشل فيها الحصار (717م/ 99هـ أيام سليمان بن عبدالملك) خرجت الامبراطورية البيزنطية من فترة أزمة طويلة واعتلى عرشها ليون الثالث الأيسورى الذى عرف بنشاطه، وبذلك يتغير توازن القوى إلى صالح بيزنطة، وبعد أن توقف نشاط بيزنطة العسكرى عاودته من جديد فى آسيا الصغرى وفى القوقاز. ففى صيف كل عام كانت تقوم الحملات تؤازرها البحرية فى أغلب الأوقات بالغارات على أراضى آسيا الصغرى الزراعية. ولكن العرب نظموا الدفاع عن هذه التخوم من الجهة الإسلامية (بالعواصم) إلا أنه فى عام (122هـ الموافق 740م) لقى ابن الخليفة هشام الذى كان قد توغل فى الأراضى البيزنطية (وهو معاوية والد عبدالرحن الداخل) هزيمة مروعة، إذ تشتتت مقدمة جيشه المكونة من 20 ألف رجل قرب مدينة (أفيون قارة حصار). هذه الكارثة أثبتت فشل تحقيق أطماع الأمويين فى التوسع من هذه الجهة، على الأقل على حساب بيزنطة.

1 ـ د. سعد زغلول ـ نفس المرجع ص25.

الفصل الرابع



الحياة الإدارية

- الإدارة الأموية.
- الأقسام الإدارية وموقعها وما تشتمل عليها.
  - الحجاز - اليمن - العراق - الجزيرة - الشام - مصر - إسبانيا
- الولاة فى العصر الأموى
  - الخلافة والوزارة
  - الدواوين
  - القضاء
  - الشرطة

الإدارة الأموية:

اتخذ معاوية مدينة دمشق مركزاً للخلافة الأموية، وحاط نفسه بأبهة الملوك وجلالهم، فأقام فى قصر الخضراء لصق الجامع، وجعل لنفسه سريراً على نحو ما كان لأباطرة الروم. وكان معاوية مجدداً فى نظم الحكم والإدارة، فعلى الرغم من إبقائه على النظام الإدارى القديم وعلى النظام النقدى المتبع فى عصر الخلافة الراشدة فإنه أول من اصطنع الموالى والنصارى فى المناصب، فكان كاتبه وصاحب أمره سرجون بن منصور الرومى، وعلى حرسه رجل من الموالى يقال له المختار وقيل أبو المخارق مالك وكان طيبيه بن أثال نصرانيًا ولاه على خراج حمص، واقتدى عماله على الأمصار به، فكان زياد بن أبيه أول من دون الدواوين ووضع النسخ للكتب، وأفرد كتاب الرسائل من العرب والموالى المتفصحين، وكان يقول: ينبغى أن يكون كتاب الخراج من رؤساء الأعاجم العالمين بأمور الخراج. ومعاوية أيضًا أول من وضع البريد فى الإسلام، تسهيلا لوصول أخبار الأقاليم إليه سريعًا، وأول من اتخذ ديوان الخاتم وولاه عبيدالله بن أوس الغسانى، وقيل ولاه عبدالله ابن محصن الحميرى، وكان سبب ذلك أنه أمر لعمرو بن الزبير بمائة ألف درهم وكتب له بذلك زياد، ففتح عمرو الكتاب، وصير المائة مائتين، فلما رفع زياد حسابه أنكرها معاوية وطلبها من عمرو وحبسه، فقضاها عنه أخوه عبدالله بن الزبير، وعندئذ أنشأ معاوية ديوان الخاتم وحزم الكتب، ولم تكن تحزم من قبل. ومعاوية أيضًا أول من أذن فى تجريد الكعبة، وكانت كسوتها قبل ذلك تطرح عليها الكسوة فوق الأخرى، وهو أول من اتخذ الحرس، وأول من كانت له الصوافى فى جميع أقاليم الدولة الإسلامية، وهى الأموال التى كان يستصفيها لنفسه من جميع الولايات بعد استقطاع العطايا، ومن هذه الأموال أو الصفايا كانت صلاته وجوائزه. ومعاوية هو أول من أدخل المقصورة فى المسجد، وكان يدخلها عن طريق سرداب يصل بين قصر الخضراء والمقصورة، وكان لايدخل هذه المقصورة إلا ثقاته وحراسه. كذلك استحدثت المئذنة فى عهد معاوية وأصبحت عنصراً معماريًا من عناصر الجامع، ولم تكن كذلك فى مساجد الإسلام حتى ذلك الحين، وكان القوم يستخدمون الناقوس بجامع عمرو بن العاص وقت صلاة الفجر حتى سنة

53هـ (673م) فأمر معاوية مسلمة بن مخلد الأنصارى واليه على مصر بأن يبنى صوامع للأذان، فبنى مسلمة أربعة صوامع فى أركان جامع عمرو، وانتشرت الصوامع فى مساجد الإسلام بعد ذلك، وفى ذلك تقليد لصوامع كنيسة يوحنا المعمدان بدمشق التى كانت تقوم فى الأركان على شكل أبراج مربعة الشكل. وذكر البلاذرى أن معاوية أراد أن يزيد كنيسة يوحنا بدمشق، فأبى النصارى ذلك، وعدل عن مشروعه. أما فيما يتعلق بالمبانى الحربية، فقد أبدى معاوية نشاطًا كبيراً فى ترميم الحصون الساحلية، فرمم حصون عكا عندما أبحر منها إلى قبرص، كما رسم حصون صور، وأنشأ جبلة وكانت حصنا للروم عنه عندما فتح المسلمون حمص، وشحنها بالمرابطة، وأنشأ لجبلة حصنًا هارجًا من الحصن البيزنطى القديم، كذلك حصن أنطرطوس وكان حصنًا جلا عنه أهله، فبناها معاوية وأقطع بها القطائع، وكذلك فعل بمرقية وبلنياس. ولم يكتف بما قام به من منشآت دفاعية بقصد تأمين السواحل من خطر الغارات البيزنطية، فقد عمل على إعادة استيطان المدن التى خرج عنها البيزنطيون بعد الفتوحات الإسلامية، فنقل إلى أنطاكية فى عام 42هـ الموافق 662م جماعة من الفرس وأهل بعلبك وحمص ومن المصرين البصرة والكوفة، ونقل إلى سواحل الأردن قومًا من فرس بعلبك وحمص، فاستقروا فى صور وعكا فى عام 42هـ كما نقل فى سنتى 49 ـ 50هـ الموافق 669 ـ 670م إلى السواحل قومًا من البصرة والسيابجة وأنزل بعضهم أنطاكية[1] وفى عهد معاوية اتسعت الدولة الإسلامية، فاستولى المسلمون فى أواسط آسيا على هراة وكابل، كذلك غزا عبدالله بن سوار العبدى بلاد السند مما يلى خراسان عام 43هـ الموافق 663م، فغزا القيقان، وواصل المهلب بن أبى صفرة من بعده غزو السند عام 44هـ، وهاجم الإقليم الممتد ما بين الملتان وكابل.

شهدت بداية القرن الثامن الميلادى (الأول الهجرى) ذروة المجد التى بلغتها الخلافة الأموية، فالوليد (86 ـ 96/ 705 ـ 715) وسليمان (96 ـ 99/ 715 ـ 717)، وعمر بن عبد العزيز (99 ـ 101/ 717 ـ 720) شادوا أوسع دولة إسلامية

---

1 ـ د. السيد عبدالعزيز سالم ـ المرجع السابق ص619.

عرفهـا التاريخ. هذا، ولو أنه ليست هناك دلائل على أن هؤلاء الخلفـاء كان لهم فضل كـبير فى اتسـاع الدولة. إذ أن نجاح عمـالهم فى الأقطار البعـيدة لم يكن - حسب ما يظهر - نتيجة لأعمالهم الشخصية.

كان الكتّاب يصفـون الوليد كحاكم مستبد. ظالم، وسليـمان كشَرِهِ أكُول، ولم يسلم من كل الأمـويين تقـريبا مـن تعريض هؤلاء الكتـاب سـوى عمـر بن عبدالعزيز. فهو فى نظرهم قديس هذه الأسـرة: فهم يعترفون له بأنه أمر بمنع لعنة الإمام عليّ ﷺ على المنابر، كما كانت العادة فى عهود من سبقوه. هذه السياسة الجديدة غـير المعادية لعلى والشيـعة كانت كـافية لأن تحقق مـزايا كبيرة لعـمر بن عبدالعزيز كخليفة: فهو نموذج للورع والعدل والحكمة (العقل) والتواضع. وارتقاؤه لعرش الخلافة إنما هو فجـر سيادة الفضيلة، فهو يغيـر موظفى الحكومة ويعزل كل العمـال الذين اعترف بهم أسـلافه من الأمويين، ويضع مكانهم أنزه مـا وجد من الرجال فى ذلك الحـين. هؤلاء الأخيرون سلكوا مسـلكا مشابها لمسلك الخليـفة. والحقيقة أن معاونى الأسرة الأمـوية من كبار العمال لم يعملوا دائما على أن يحب الشعب أمـيره فحكم الحـجاج فى العراق غـرس بغض الشاميـين فى هذه البلاد، هذا، ولو أن شدته التى لا تعرف الرحمة أنقذت وحدة الدولة[1].

تعنى الحضارة عند بعض البـاحثين كل نشاط إنسانى فى الحـياة، سواء أكان فكريًا يتـمثل فى العلوم والفنون والآداب، ومـا ينتج عن ذلك من نظم سـياسـية واقتـصادية واجتمـاعية وإدارية، ومن عـادات وتقاليد وأخلاق. . ، أم كـان ماديًا ملموسًا، يتـمثل فى البناء والتشييـد والعمران، كبناء المدن والقـرى وتخطيطهما، والتأنق فى بناء المساكن والمساجد، ودور التعليم والقلاع والحصون، كما تتمثل فى العناية بالأوضـاع الاقـتصـادية للبـلاد، كبناء الـسدود والخـزانات لتـخزين الميـاه واستخدامها فى الزراعة والصناعة، أو فى تعبيد الطرق وإقامة المصانع. وقد عرفت الحضـارة الإسلامية فى العـصر الأموى كل هذه الأنشطة، وهى وإن اشـتركت مع غيرها من الحضارات الإنسانية فى بعض السمات، فـإنها تتميز عنها بسمات خاصة

---

1 - د. سعد زغلول - المرجع السابق ص69.

بها؛ لأن الإسلام هـو الذى أنشأها ورعاها وتمثلت فيـها قيمـه ومبادئه وسمـاحته ورحمته وآدابه. وهى كغيـرها من الحضارات البشرية أخذت وأعطت وتعلمت من غيـرها، وعلمت غيـرها، وانفتـحت على الحضارات كـلها بما فيـها من ثقـافات وأفكار، شعـارها: الحكمة ضـالة المؤمن أنى وجدها فـهو أحق الناس بهـا. ولقد قامت الحضارة الإسلامية على دعامتين أساسيتين[1]:

* **الدعامة الأولى:**

القـرآن الكريم والسنة النبوية المطهـرة، وكان تأثـيرهمـا فى نشوء الحـضارة الإسلامـية وارتقائهـا وتألقها من وجـهين: ـ الأول: حثـهما على الـعلم والتعلم والتفكر فى الكون وأسراره، وتسخيره لمنفعة الإنسان، وعدهما طلب العلم فريضة على كل مسلم، ودعوتهما إلى رفع شأن العلم والعلماء، والشواهد على ذلك من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ كثيرة، من ذلك:

قوله الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الأَلْبَابِ﴾ [الزمـر: 9] وقـوله تعـالى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: 11] وقوله تعالى فى أول مانزل من القرآن: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ ۝ خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ۝ الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ [العلق: 1 ـ 4] وقـوله ﷺ: «طلب العلم فـريضة على كل مـسلم» [ابن مـاجة] وقـوله ﷺ أيضًا: «من سـلك طريقًا يلتـمس فيه علمًـا سهل الله له طريقًـا إلى الجنة» [رواه الحاكم] ـ الوجـه الآخر: يتمثل فى العلوم الكـثيرة التى انبثـقت من القرآن والسنة كالتفـسير وعلوم القرآن، والفقـه والأصول، والحديث وعلومه، والمغـازى والسير والتاريخ، واللغة العربية وآدابها وغير ذلك.

* **الدعامة الثانية:**

وهى دعامة لاينكر دورها فى ازدهار الحضارة الإسلامية، وتتمثل فى التراث

1 ـ د. عبدالعزيز محمد عبداللطيف ـ المرجع السابق ص61.

الحضارى الهائل، الذى ورثه المسلمون عن الأمم السابقة فى البلاد التى فتحوها، كتراث الحضارة الإغريقية والفارسية والهندية والمصرية القديمة وكان من حسن الطالع أن ذلك التراث الحضارى كان موجوداً فى المناطق التى شملتها الدولة الأموية، فحافظت عليه وصانته من الضياع، وهو ما يحسب للأمويين، فلولا يقظتهم وسعة أفقهم لضاع على الإنسانية كثير من هذه الكنوز الحضارية، التى أنتجها العقل البشرى فى القرون السابقة لظهور الإسلام، غير أن الاستفادة الكاملة جاءت فى العصر العباسى، حيث بدأت ترجمة العلوم والفنون إلى اللغة العربية، وصححت أخطاؤها، ثم أضاف إليها المسلمون من عبقريتهم الخلاقة ما شهد به علماء الغرب فى العصر الحديث.

الحكم الإسلامى حكم شورى: ينبغى قبل الدخول فى تفاصيل هذا الموضوع أن نبين مدى ثبوت النص على الشورى فى المصادر الأصلية للتشريع الإسلامى: القرآن والسنة. لاشك أن القرآن الكريم - بالنسبة للإنسان المسلم - حجة يجب العمل بما ورد فيه من أحكام. وتتفق آراء المسلمين على أنه قانون واجب الاتباع حيث إنه أنزل من عند الله تعالى ونُقِل إليهم عن ربهم بطريق قطعى لاشك فى صحته. نجد أن فى القرآن نصين واضحين فى آيتين شهيرتين:

أ - ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران 159].

ب - ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الشورى 38].

نجد فى الآية الأولى أمراً إلهيًا للرسول ﷺ أن يشاور قومه وذلك لتأليف القلوب وإشاعة المودة بينهم نتيجة المشاورة وتعويد للمسلمين على هذا النهج فى معالجة الأمور لأن فى الرسول ﷺ الأسوة الحسنة لهم، فإذا كان يلجأ إلى المشاورة

فهم أولى أن يأخذوا بها. ونجد فى الآية الثانية النص على الشورى إحدى الصفات المميزة للمؤمنين، والمذكـورة بين صفات أخرى يمتازون بها وواجبـه فيهم (الصلاة والزكاة). يلاحظ كذلك أن الشورى كصفة ذكرت مـباشرة بعد ذكر الصلاة للتأكيد على ضرورتهـا. هذا بالنسبة لثبـوت النص على الشورى فى القرآن. وأمـا ثبوت النص على الشورى فى السنة فنقـول ما يأتى: والسنة حجة على جـميع المسلمين وأصل من أصول تشريعهم ودليل من الأدلة الشرعية التى يجب الأخذ بها والعمل بمقـتضـاها. وهى **(السنة)** مـا أثر عن الرسول ﷺ من قـول أو فعل أو تقـرير. وتشتمل السنة على نوعين من الأحكام: **الأحكام البيانية** المبينة لما ورد فى القرآن الكريم **والأحكام المؤسسة** التى وردت فيما لم ينزل به نص قرآنى. أما بالنسبة لمبدأ الشورى فإن السنة الشريفة ليست مؤسســة له ابتداء بل جاءت مثبتة ومؤكدة لما ورد عنه فى القرآن الكريم. بالنسبـة للسنة الفعلية فلقد حفلت بممـارسات الرسول ﷺ للشورى: غزوة بدر وغزوة أحد وغروة الأحزاب وصلـح الحديبية وبيعة الرضوان. أما بالنســبة للسنة القولية فـقد روى عن الرسول ﷺ عدة أحاديث يـأمر بالشورى على الأخذ بها ومن تلك: **«ما تشـاور قوم قط إلا هدوا لأرشـد أمرهم»**. **«ماندم من استـشار ولا خاب من استـخار»**. **«ما شـقى عبـد بمشورة وما سـعد باسـتغناء رأى»**. عن الإمام على بن أبى طالب قال: سئل رسـول الله ﷺ عن العزم فقال: **«مشاورة أهل الرأى ثم اتباعهم»**.

هل الشورى واجبة؟ بعد هذا كله لابد من البحث فى مدى وجوب الشورى على ولى الأمـر، أى هل يكون اللجوء إلى الشـورى أمرا واجـبا (فـرضا) أم هو مندوب فحسب، فإذا كـانت الشورى أمرا واجبا (فرضـا) كان ولى الأمر ملزما أن يأخذ بها حيث إنـه يرتكب إثما بتركها. أما إذا كانت مـندوبة فإن لجوء ولى الأمر إليها يكون اختـياريا لايأثم بتركها ولا يخطئ. فى هذه القضـية نجد أمامنا رأيين: رأى يقول بأن الأمر بالشورى للندب والثانـى يقول بأنه للوجوب وسنعرض حجج كل رأى منهـما ونبين مـا نراه أقرب إلى التـرجيح. يسـتند القائلون بـأن الشورى

مندوبة إلى أن الرسول ﷺ إنما أمر بها تطييبًا لقلوب من اتبعه من المسلمين وتألفا لهم على دينهم وليروا أنه يسمع منهم ويستعين بهم وإن كان الله عز وجل قد أغناه بتدبيره له أموره وسياسته إياه وتقويمه أسبابه عنهم وقد ذهب إلى هذا الرأى من اعتبار الشورى مندوبة لا واجبة الإمام الشافعى رضى الله عنه حيث ورد عنه أن الأمر بالشورى هو للندب تطييبًا للقلوب. الرأى الثانى الذى يقول أصحابه إن الشورى واجبة لا مندوبة وهو فى رأينا الرأى الراجح يستند إلى الحجج والأدلة الآتية:[1]

لقد أمر الله تعالى بالشورى فى قوله سبحانه **«وشاورهم فى الأمر»** والأصل فى الأمر كما هو مقرر عند جمهور العلماء يكون للوجوب ما دام أمرا مطلقا غير مقيد ويؤكد وجوب الشورى أيضا قوله تعالى فى سورة الشورى **«وأمرهم شورى بينهم»** بيانا لأوصاف الجماعة الإسلامية وخصائصها وفيه تقترن الشورى وهى عماد الدنيا بالصلاة عماد الدين كما تجىء واسطة العقد فى نظام الجماعة الإسلامية القائم على الإيمان بالله والتوكل عليه والاستجابة لأحكامه واجتناب الكبائر وإقامة الشعائر الإسلامية والاعتماد على الشورى والإنفاق فى سبيل الله ومصلحة الجماعة ورد اعتداء الباغين بمثله، ونحن إذا نظرنا فى كل ذلك لانجد فى الآية إلا واجبات مفروضة وملزمة للمسلمين. إذا كان بعض العلماء يذهب فى تفسير قوله تعالى **«وشاورهم فى الأمر»** إلى أن مشاورة الرسول ﷺ لأصحابه إنما كانت تطييبًا لخواطرهم وتأليفا لقلوبهم لا للعمل بها ووجوبها نظرا لعدم حاجة الرسول ﷺ إلى الشورى والوحى يرعاه ويسدد رأيه وخطاه فإن هذا ليس معناه تعميم الحكم بالنسبة لغيره من الحكام لوجود الفارق الجوهرى بينه عليه السلام كنبى يوحى إليه وبين غيره من الحكام. ولذلك نجد الفقيه الحنفى الجصاص يقول إنه غير جائز أن يكون الأمر بالمشاورة على جهة تطييب نفوس الصحابة ورفع أقدارهم، كما يذكر بعض الفقهاء، لأنه لو كان معلوما عند المستشارين أنهم إذا استفرغوا جهدهم فى

---

1 ـ د. عبد الله فهد النفيسى ـ المرجع السابق ص78 وانظر د. المليجى ـ مبدأ الشورى فى الإسلام ص100 ـ القرطبى ج2 ص1493.

استنبـاط حكم ما شـاوروا فيـه وصواب الرأى فيـما سـئلوا عنه ثم لم يكن ذلك معمـولا به ولا يتلقى بالقبول لم يكن فى ذلك تطيـيب نفوسهم بل فيـه إيحاشهم وإعلامهم بأن آراءهم غير مـقبولة ولا معمول بها. ثم إننا نجد أن جمـهور الفقهاء والعلماء المحدثين يقولون بأن الشورى واجبة وليست مندوبة. وفى مقدمتهم الإمام محمد عبده والسـيد محمد رشيد رضا والأستاذ عبـدالوهاب خلاف. يذكر السيد محمـد رشيد رضا تفسيـرا لقوله تعالى: «**وشاورهم فى الأمر**» دل على المشاورة وواظب عليها كـما فعلت قبل الحـرب فى غزوة أحد وإن أخطأوا الرأى فيـها فإن الخير كل الخير فى تربيتـهم على المشاورة بالعمل دون العمل برأى الرئيس وإن كان صوابا لما فى ذلك من النفع لهم فى مستقبل حكومتهم فإن الجمهور أبعد عن الخطأ من الفرد فى الأكثـر والخطر على الأمة فى تفويض أمرها إلـى الرجل الواحد أشد وأكبـر. كما يذهب الأسـتاذ عبـدالقادر عودة هذا المذهب ويؤكـد أن الشورى لن يكون لها مـعنى إذا لم يؤخذ برأى الأكثريـة. ولم يكن الخليفة ـ فى عهـد الخلفاء الراشدين ـ يناقش مسائل الحكم فى جلساته المغلقـة والمقصورة على حاشية وبطانة وإنما كانت جلسات الرأى والتشاور مفتوحة عادة، وتعقد فى المسجد ويحضرها من يشاء من المسلمـين فيبـدى رأيه بحرية وشجـاعة لتكون الغلبـة فى النهاية لأرجح الآراء المتـقابلة، بالنـظر لما يقوم عليـه كل منهـا من حجج وأسـانيـد. طبعـا من الضرورى التـأكيـد هنا أن التشـاور كان يقـتصر على الأحكـام التنفيذيـة والمسائل التفصـيلية التى لم يرد بشأنها نـص قاطع فى الكتاب والسنة. وقد احـترم الخلفاء الراشدون مبـدأ الشورى وطبقوه. فكان الخليفـة الأول أبو بكر الصديق رضى الله عنه إذا عرضت عليه مـسألة بحث عن حكمها فى القـرآن، فإن لم يجد بحث فى سنة الرسول ﷺ فإن لم يجد جمع أهل الرأى للتشاور والبت فى القضية. وهكذا فعل الخلفاء عمر وعثمان وعلى رضى الله عنهم أجمعين. ونظرا لثبوت حق الأمة فى المشاورة ولزومـه على رئيس الدولة صرح الفـقهاء بأن تـرك هذا الحق من قبل رئيس الدولة موجب لعزله فى الإسـلام. فقد جاء فى تفسيـر القرطبى: «قال ابن عطية: والشـورى من قواعد الشريعـة وعزائم الأحكام ومن لايستشـير أهل العلم

والدين فعزله واجب» ولكن كيف تتم المشاورة؟ وكيف بالإمكان تنظيم الشورى الواجبة شرعا: نصا وروحا فى هذا العصر؟ الواقع أننا لانجد فى الشريعة نظاما محددا يؤدى إلى ذلك ـ مثل قضية حق الأمة فى انتخاب رئيس الدولة (الخليفة) ـ مما يدل على أن تنظيم هذا الأمر متروك لتقدير الأمة. وكما أن الانتخاب المباشر لأهل الحل والعقد (النواب) يجد له سندا فى قوله تعالى: «**وأمرهم شورى بينهم**»، فإن الانتخاب غير المباشر لرئيس الدولة يجد له سنده فى السوابق التاريخية الثابتة فى عصر الخلفاء الراشدين وهو خير العصور فهما وتطبيقا له. إذن على الدولة فى الإسلام أن تضع النظام اللازم لإجراء الانتخاب لكل من أهل الحل والعقد والخليفة وضرورة تمكين الأمة من ممارسة ذلك وضمان سلامة تلك الممارسة الشرعية، ومثل هذا الأمر ضرورى ولازم لإيجاد أهل الحل والعقد وإثبات وكالتهم عن الأمة بالتوكيل الصريح لأن التوكيل الضمنى ـ الذى كان يعتمد عليه أيام الخلافة الراشدة ـ يتعذر حصوله فى الوقت الحاضر. هذه هى بصورة عامة الملامح الأساسية للخلافة الراشدة. وقد أثبتنا النصوص المتعلقة بسياقها التاريخى علها تفيد فى تأكيد تلك الملامح. خلافة تقوم على المراضاة والاختيار دون أى إكراه أو إجبار، يجوز فيها وعليها التنازع بين جميع المسلمين دون احتكارات بيولوجية ووراثية للأمر، يرأسها خليفة مربوط بعقد مع الأمة لا ملك يؤمن بتفويض إلهى كما كان يفعل ملوك أوروبا فى القرون الوسطى، والبيعة العامة هى التى تضفى على الخلافة الشرعية وبغيرها لاتنعقد خلافة، كما أن المال العام ينبغى أن يصرف فى وجوه تحقق الصالح العام، ولا حق للخليفة فى المال العام أكثر من حق أى مسلم فيه، كما أن كل هذا النظام يقوم على الشورى التى بينا معناها ووجوبها الشرعى. بعد كل هذا ننتقل إلى الخلافة غير الراشدة، نتعرف أولا على بعض النصوص التى تعيننا فى فهم سياقها التاريخى ثم نتوصل إلى خلاصة بها. وتجدر هنا الإشارة إلى أننا اكتفينا بنصوص العهد الأموى لأنها ـ من زاوية دراستنا ـ لا تختلف بكثير عن نصوص العهد العباسى. وسنجد أنه من خلال هذه النصوص أن خلافتهم هدرت كل المعانى السامية التى قامت عليها الخلافة الراشدة وكيف تحولت

«الخلافة» إلى «ملك» وكيف تحول «الخليفة» إلى «ملك» ككسرى أو قيصر أعداء الدولة الإسلامية[1]. والتى جاء الإسلام لمحاربتهم وإرشادهم إلى عبادة الله وشريعة وأحكام الإسلام.

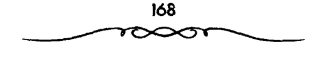
اتسعت الدولة الإسلامية فى عهد الأموى وامتدت حدودها شرقا من «الصين»، إلى «إسبانيا» غربًا، ومن بحر «قزوين» شمالا إلى «المحيط الهندى» جنوبًا، وأصبحت تتكون الأقاليم من الأقسام الإدارية الآتية:

الأقسام الإدارية وموقعها وماتشتمل عليها:

1 ـ **الحجاز**: ويشمل «مكة المكرمة» و«المدينة المنورة» و«الطائف»، وكان الوالى يقيم فى «المدينة». 2 ـ **اليمن**: وكانت فى معظم الأحيان ولاية مستقلة، يحكمها وال يعين من قبل الخليفة، وأحيانا أخرى كانت تضاف إلى والى «الحجاز» فيعين عليها واليا من قبله. 3 ـ **العراق**: وتشمل حدودها الإدارية كل ولايات الدولة الفارسية القديمة، وأقاليم «ما وراء النهر» و«السند»، وكان الأمويون فى أغلب الأحيان يجعلون «العراق» والشرق الإسلامى كله تحت إدارة وال واحد، يعين من قبله ولاة على بقية الأقاليم، وقد حدث ذلك فى عهد «معاوية بن أبى سفيان»؛ حيث عهد إلى «زياد بن أبى سفيان» بولاية «العراق» والمشرق، وفى عهد «عبدالملك ابن مروان» حيث ولى «الحجاج بن يوسف الثقفى» أمر المشرق كله. 4 ـ **الجزيرة**: وتشمل ولايات «الموصل» و«أرمينيا» ، و«أذربيجان». 5 ـ **الشام**؛ ولم يكن يعين لها وال؛ حيث كانت هى مقر الخلافة الأموية ، وكان الخليفة يقوم بهذا الدور. 6ـ **مصر**: وكان يتبعها «المغرب العربى»، ثم أصبحت ولاية مستقلة تقريبا، منذ تولاها «موسى بن نصير» (85هـ)، وعاصمتها «القيروان». 7 ـ **«إسبانيا»**: وكانت فى بداية الفتح الإسلامى لها تتبع ولاية «المغرب العربى»، ثم أصبحت ولاية مستقلة منذ خلافة «عمر بن عبدالعزيز». وكان الخلفاء الأمويون يعينون لكل ولاية

---

1 ـ د. عبدالله فهد النفيسى ـ نفس المرجع ص82 وانظر الحلو، د. ماجد راغب، «الاستفتاء الشعبى بين الأنظمة الوضعية والشريعة الإسلامية». ص110، وهو بحث غير منشور، القرطبى ج4، ص249.



من هذه الولايات واليًا من قبلهم، وهو بدوره يختار مساعديه وأعوانه، وكانوا يحرصون فيمن يقع عليه اختيارهم للإمارة أن يكون من المعروفين بالحزم وحسن السياسة والقدرة الإدارية، وأن يكون من الأسرة الأموية نفسها، أو من أكثر الرجال ولاء وإخلاصًا لها. وتمتع هؤلاء الولاة بسلطات واسعة، مكنتهم من التصرف بما يرونه محققًا لمصالح الدولة والمجتمع، وكانت هذه السياسة التى اتبعها الأمويون مع ولاتهم مختلفة عن سياسة الخلفاء الراشدين. حيث كانت سلطات ولاتهم مقيّدة، وحرصوا على الفصل بين السلطات السياسية والإدارية والعسكرية، وبين السلطات المالية والقضائية، بمعنى أنهم كانوا يعينون إلى جانب الوالى - الذى يسمى والى الحرب والصلاة - واليًا لبيت المال يسمى صاحب الخراج، وكان مسئولا أمام الخليفة مباشرة، حتى لا تمتد أيدى الولاة إلى أموال الدولة، كما كانوا يعينون القضاة للأقاليم بأنفسهم. أما فى العصر الأموى، فكان الولاة يشرفون غالبًا على الشئون المالية، ولاشك أن أسلوب الخلفاء الراشدين كان أسلم وأقوى حرصًا على المال العام. وإذا شئنا أن نستخدم التعبيرات العصرية فى مجال الإدارة قلنا إن إدارة الخلفاء الراشدين كانت مركزية، وكان ذلك مطلوبًا فى ذلك الوقت؛ حيث كانت الدولة فى مرحلة البناء، وكان الخلفاء الراشدون راغبين فى الاطلاع على كل شىء بأنفسهم، على حين كان طابع الإدارة الأموية لا مركزيًا، نظرًا لاتساع الدولة، وبُعد ما بين الولايات وعاصمة الخلافة فى «دمشق»، ولا يعنى هذا أن الولاة كانوا فى العصر الأموى يفعلون ما يشاؤون دون رقابة أو محاسبة من الخلفاء الذين لم يكونوا يترددون فى عزل أى وال مهما تكن درجة قرابته منهم إذا ثبت أنه أخل بواجبات وظيفته، أو لم يقم بما هو مكلف به على النحو الأكمل. وكانت دقة الأمويين فى اختيار ولاتهم هى التى مكنتهم من حكم هذه الدولة العملاقة وإدارتها وبسط الأمن والنظام فى ربوعها الممتدة الأطراف، التى ضمت شعوبًا مختلفة الأجناس واللغات والثقافات والعادات والتقاليد، ومن ثم كان صهر هذه الشعوب فى بوتقة واحدة، وإخضاعها لنظام واحد، لم يكن أمرًا سهلا فى وقت كانت فيه الخيل هى أسرع وسيلة للمواصلات. وكان نجاح الأمويين فى إدارة

الدولة الإسلامية بوساطة رجالهم ـ ومعظهم كانوا من أفذاذ الرجال ـ دليلا على عبقرية إدارية، وقدرة فائقة فى فن الحكم وإدارة البلاد، ومهارة فى سياسة الناس، لا يقلل من ذلك أخطاؤهم واتهامات ناقديهم.

الولاة فى العصر الأموى:

مرت البلاد التى أتم العرب فتحها، بفترة تسمى فترة الولاة أو عصر الولاة، وهذه التسمية فى الحقيقة تدل على وضع سياسى معين يسود هذه البلاد، فهى فترة التبعية المباشرة للخلافة العربية فى المدينة أو دمشق. ومظهر هذه التبعية عادة سلسلة من الولاة العرب يحكمون البلاد باسم الخلافة، لايتوارثون الحكم، قد تطول مدة حكمهم أو تقصر وفقا للظروف أو وفقا لمشيئة الخلفاء.. ومظهر هذه التبعية أن البلاد تطبق فيها سياسة عربية ربما لاتوضح فى عاصمة البلد المفتوح إنما ترسم فى حواضر الخلافة وترسل التعليمات إلى البلاد لتنفيذها، ويشترك فى هذا التنفيذ الولاة العرب جميعهم. بل هذه التسمية لها دلالتها فى تاريخ الدعوة إلى الإسلام؛ لأن الفتح العربى لم يكن غاية إنما كان وسيلة لقهر المقاومة المسلحة للعدو توطئة لانتشار الدعوة إلى الإسلام. والولاة كان يجب أن يكونوا رسل إصلاح ودعاة إلى الإسلام قبل كل شىء، هذا واجبهم الأول، أما الحكم لذاته فأمر عارض، فعصر الولاة إذن هو عصر الدعوة إلى الإسلام ليس بالسيف؛ فقد أغمد السيف بانتهاء الفتح، إنما بالمسالمة والترغيب والقدوة الحسنة. وكان الولاة العرب فى جميع البلاد التى حكموها فى هذه الفترة دعاة إسلام قبل كل شىء، ونموذجا للحياة الإسلامية الجديدة. وعصر الولاة ليس له طابعه السياسى أو الدينى فحسب إنما كان له دوره الواضح فى تاريخ الحياة الثقافية بوجه خاص وتاريخ الحضارة بوجه عام.. فهو عصر الصراع السافر بين اللغة العربية لغة الثقافة والدين وبين اللغات التى يتحدث بها الناس ويكتبون بها إنتاجهم الثقافى[1].

---

1 ـ د. حسن أحمد محمود ـ المرجع السابق ص57.

وهو صراع عادة ما يختلف شدة أو ضعفا بقدر ضعف لغات الشعوب أو قوتها، كما تختلف نتائجه باختلاف البلاد، وكانت اللغة العربية ذات الطابع التقليدى تستقر فى أعقاب الفتح حين يشرع العرب فى تعليم الفقه والحديث وتفسير القرآن، والثقافة فى هذه الفترة هى ثقافة الوافدين. يتوقف تأصلها على انتشار اللغة العربية وانتشار العقيدة الإسلامية. وفى عصر الولاة عادة ما تلتقى المثل الإسلامية فى الحياة والنهج الإسلامى فى الحضارة بالتيارات الفكرية والفنية الموجودة فى البلاد. تبقى التقاليد العربية متباعدة بعض الشىء ثم يحدث الاقتراب بالتدريج توطئة للمزج الحضارى الكامل، يتوقف هذا كله على نجاح الدعوة الإسلامية. وينتهى عصر الولاة بنتائج متماثلة فى جميع مظاهر الحياة السياسية والدينية والثقافية والفنية. تنتهى التبعية بالاستقلال الذاتى. ينتهى عصر الولاة ليبدأ عصر جديد هو عصر الإمارة ذات الاستقلال المحلى فى نطاق التبعية للخلافة.

وتعتمد هذه الحركات الاستقلالية إلى حد كبير على هذه الشعوب التى خضعت للعرب ثم قلدت مثلهم وآمنت بدينهم وطالبت بحقها فى المساواة. وفى ميدان الدعوة إلى الإسلام ينتهى عصر الولاة بنجاح كبير للدعوة إلى الإسلام، وذلك بانتشار الإسلام بين أهل البلاد الأصليين، ويصبح المسلمون غالبية فى البلاد؛ لأن هذه الغالبية المسلمة هى السند الذى يعتمد عليه الأمراء فى دعوتهم الاستقلالية.

وفى ميدان الثقافة تنجح اللغة العربية فى الانتشار وتصبح لغة العلم ولغة التخاطب فى الحياة اليومية، وتهمل اللغات القديمة لتدرس معالمها وتتلاشى بالتدريج، وتتأصل الثقافة فلم تعد ثقافة الوافدين من العرب إنما ثقافة أهل البلاد الذين أسلموا فتنشأ المدارس الإقليمية لتنافس مدارس العاصمة نفسها فى الإنتاج الثقافى.

وفى ميدان الفن والحياة الاجتماعية ينتهى عصر الولاة بالاندماج الكامل بين التقاليد الوافدة والتيارات الموجودة، وينشأ لون من الحضارة الإسلامية صورته إسلامية وحقيقته محلية، وتصبح الحضارة الإسلامية كإصلاح عام بمثابة إطار كبير يجمع فى داخله صورا كثيرة لها لونها المحلى الواضح من ناحية ولونها الإسلامى من ناحية أخرى[1].

---

1 ـ د. حسن احمد محمود ـ نفس المرجع ص58.

حفل العصر الأموى بالكثير من الأسماء اللامعة التى تألقت فى فن الحكم والإدارة، ومن أشهر تلك الأسماء: «عمرو بن العاص»، و «المغيرة بن شعبة»، و«عتبة بن أبى سفيان»، و«مروان بن الحكم»، و«مسلمة بن مخلد الأنصارى»، و«عقبة بن نافع»، و«عبدالعزيز بن مروان»، و«المهلب بن أبى صفرة» وأولاده، و«زهير بن قيس البلوى»، و«حسان بن النعمان الغسانى»، و«مسلمة بن عبدالملك»، و«قتيبة بن مسلم الباهلى»،و«محمد بن القاسم الثقفى»، و«موسى ابن نصير»، وابنه «عبدالعزيز»، و«طارق بن زياد»، و«قرة بن شريك»، و«عبد الحميد ابن عبد الرحمن»، و«الجراح بن عبد الله الحكمى»، و«عدى بن أرطأة»، و«السمح ابن مالك الخولانى»، كما برز «عمر بن هبيرة»، و«بشر بن صفوان»، و«العباس بن الوليد»، و«خالد بن عبدالله القسرى»، وأخوه «أسد بن عبدالله»، و«يوسف بن عمر الثقفى»، و«الجنيد بن عبدالرحمن»، و«أشرس بن عبدالله السلمى»، و«مروان ابن محمد بن مروان»، و«يزيد بن عمر بن هبيرة»، و«نصر بن سيار»[1].

الخلافة والوزارة:

تحول نظام الخلافة منذ قيام الدولة الأموية إلى ملك استبدادى وراثى على غرار ما كان معروفًا عند الفرس والروم، فتولى الخلافة من بنى أمية بنو حرب ثم بنو أبى العاص، وعدل الأمويون فى حكم الدولة من تطبيق نظام الخلافة الراشدة القائم على الشورى والمستند على الدين إلى نظام الملك القائم على التوريث والمستند على السياسة أولا، واستحالت الخلافة منذ ذلك الحين إلى ما يشبه نظام الملكية مع تمسك شكلى بفكرة البيعة التقليدية، والتزام بمعانى الخلافة من تحرى الدين ومذاهبه والجرى على منهاج الحق، باستثناء الخلفاء الأمويين المتأخرين الذين استعملوا طبيعة الملك فى أغراضهم الدنيوية ومقاصدهم، من ركوت الشهوات واللذات والمعاصى، ومن استخفاف بحق الرئاسة. أما الوزارة فقد وجدت فى العصر الأموى من حيث التسمية دون الاختصاص، فقد كان طبيعيًا بعد أن اتسعت

---

1 ـ د. عبدالشافى محمد عبداللطيف ـ نفس المرجع ص63.

رقعة الدولة العربية بفتوح الشام والعـراق ومصر وفارس والمغرب وإسبانيا وانقلبت الخلافة إلى ملك، أن يحتك العرب بشعوب متـحضرة لها أنظمة وإدارات متفوقة، وأن يفيدوا من هذه الأنظمة سيـما ما يتعلق منها بالدواوين وبعض النظم الإدارية، فأخـذوا عن الفرس نظام الدواوين، ثم اتخـذوا الحاجب ليقـوم مقام الخليـفة فى بعض المهام الخلافية ويحجب الخليفـة عن العامة ويغلق بابه دونهم، فلما استفحل الملك بعد ذلك، «ظهر المشاور والمـعين فى أمور القبائل والعصائب واسـتئلافهم، وأطلق عليهم اسم الوزير» وبقى أمـر الشؤون المالية فى الموالى والذمـيين، واتخذ للسجلات «كاتب مخصوص حوطة على أسرار السلطان أن تشتهر، فتفسد سياسته مع قومه، ولم يكن بمثابة الوزير لأنه إنما احتيج له من حيث الخط والكتاب لا من حـيث اللسـان الذى هو الكلام»، فكان النظـر للوزير عـامًا فى أحـوال التـدبيـر والمفاوضات وسائر الأمور كالنظر فى ديوان الجند والعطاء.

اصطنع الخلفـاء الأمويون أولى الرأى وقربوهم إليـهم، وتلقب بعض هؤلاء بالوزراء أمثـال زياد بن أبيه فى عـهد معـاوية، وروح بن زنباع الجذامى فى عـهد عبدالملك بن مروان وعبـد الحميد كاتب الخليفة مروان بن محـمد، الذى قام مقام الوزير فى الدولة. ولكن لاينبـغى أن نفهم هذا الـلقب الوزارى بنفس المعنى الذى عرف به فى العصـر العباسى، ذلك أن معظم وزراء بنى أمـية كانوا مجـرد كتاب قربهم الخلفـاء إليهم واعـتمدوا عليـهم فى تصريف الأمـور وفى المشورة والرأى. لذلك لايجوز من قـبيل التشـبه بالوزراء أن يطلق عليهم لقب وزراء، لأن وظيـفة الوزير بالمفهـوم الذى تحدد فى الدولة العبـاسية لم تكن من الوظائف المعـروفة فى الدولة الأموية[1].

مـخـصصـات رئيس دولـة الإسـلام: هل للخليـفـة فى دولة الإسـلام مخصصـات؟ وهل هذه المخصصات إن وجدت موجـهة لتكفيه شخصـيا وتعفه أم أنها لعشيرته وقبـيلته وحاشيته ومهرجيه وغلمانه وجـواريه كما حصل فى العهدين

1 ـ د. السيد عبدالعزيز سالم ـ المرجع السابق ص676.

الأموى والعباسى وكما يحصل اليوم فى عهد ملوك الطوائف؟ لندع عمر بن الخطاب يتحدث فى ذلك لا سواه فقد أخرج ابن سعد فى طبقاته كلمات الفاروق وهو يتحدث عن ذلك فيقول: «إنها حلتان: حلة فى الشتاء وحلة فى القيظ وما أحج عليه وأعتمر من الظهر (الدواب) وقوتى وقوت أهلى كرجل من قريش ليس بأغناهم ولا بأفقرهم ثم أنا بعد ذلك رجل من المسلمين يصيبنى ما أصابهم» وها هو أبو بكر يسارع إلى السوق صبيحة يوم استخلافه، وعلى رأسه أثواب يريد أن يتجر فيها، وقد كاد يفعل، لولا أن منعه عمر وأبو عبيدة ليفرغ لأمور المسلمين، إذ قالا له: كيف تصنع هذا وقد وليت أمور المسلمين؟ قال: فمن أين أطعم عيالى؟ قالوا: نفرض لك، ففرضوا له كل يوم شطر شاه. وأخرج ابن أبى الدنيا عن أبى بكر بن حفص قال: قال أبو بكر ـ لما احتضر ـ لعائشة رضى الله عنها: «يابنية، إنا ولينا أمر المسلمين فلم نأخذ لنا ديناراً ولا درهمًا، ولكنا أكلنا من جريش طعامهم فى بطوننا، ولبسنا من خشن ثيابهم على ظهورنا، وأنه لم يبق عندنا من فىء المسلمين قليل ولا كثير إلا هذا العبد الحبشى وهذا البعير الناضح وجرد هذه القطيفة. فإذا مت فابعثى بهن إلى عمر» فلما مات أبو بكر أرسلت به إلى عمر. فقال عمر: رحمك الله يا أبا بكر، لقد أتعبت من جاء بعدك. وأخرج عن أبى أمامة بن سهيل بن حنيف قال: «مكث عمر زمانا لا يأكل من مال بيت المال شيئًا حتى دخلت عليه فى ذلك خصاصة، فأرسل إلى أصحاب رسول الله ﷺ فاستشارهم، فقال: قد شغلت نفسى بهذا الأمر فما يصلح لى فيه؟ فقال الإمام على كرم الله وجهه: غداء وعشاء يا أمير المؤمنين. فأخذ بذلك عمر» وأخرج ابن سعد عن ابن عمر أن عمر بن الخطاب كان إذا احتاج ـ وهو خليفة ـ أتى صاحب بيت المال (أبا عبيدة بن الجراح)، فاستقرضه، فربما أعسر فيأتيه صاحب بيت المال يتقاضاه فيلزمه، فيحتال له عمر وربما خرج عطاؤه فقضاه. وقد تعددت الروايات فى هذا الموضوع تضييقا وتوسيعا لكنها كلها متفقة بأن تحديد المخصصات للخليفة لايقوم به الخليفة نفسه، والأمر الثانى أن المخصصات له شخصيا ولايستلم من بيت المال مخصصات أحد من عائلته أكثر من اى أعطية لأى

مسلم من مستحقيها. والخليفة فرد من أفراد المسلمين له حق فى بيت مالهم كسائر الناس، فيأخذ منه ما يأخذه منه سائر الناس وله أجرة عمله فى بيت مال المسلمين لكنه لايتصرف فى بيت المال كيف شاء. ومع أن المسلمين كانوا قد فرضوا لكل من أبى بكر وعمر مقدارا من المال نظير تفرغه للقيام بمهام الخلافة، إلا أن كلا منهما كان يأخذ ما يحتاج إليه فعلا من هذا المقدار المفروض له ليسد ضروراته ويتورع عن أخذ مازاد عن حاجته، فيرد ما بقى من هذا المقدار الذى فرضه له المسلمون إلى بيت المال[1].

الاتجاه الجماعى لدولة الإسلام: هل مطلوب من دولة الإسلام - فى المحصلة النهائية - تحقيق مصلحة فردية أم مصلحة جماعية؟ لنكن أكثر وضوحا ونضع السؤال بالصيغة التالية: إذا تعارضت المصالح الخاصة فى دولة الإسلام مع المصالح العامة فأيهما أولى بالإهدار شرعا؟ نستطيع أن نتعرف على الإجابة الواضحة لهذا السؤال من خلال موقف الإسلام ودولته فى سنوات الخلافة الراشدة من ثلاث قضايا على سبيل المثال لا الحصر: أ - ديوان الأموال. ب - أرض الخراج. جـ - الموقف من الاحتكار والتسعير.

الدواوين:

رأينا فيما سبق أن عمر بن الخطاب أول من أدخل نظام الديوان من خلفاء المسلمين، ولم يلبث نظام الديوان أن تعقد منذ عصر معاوية بن أبى سفيان، فظهر عدد من الدواوين، كل منها يختص بالنظر فى شأن من شؤون الدولة.

1 - ديوان الجند: وأول هذه الدواوين ديوان الجيش وقد سبق فى تنظيم عمر للفتوح، وهو نفس ديوان الجند أو ديوان العطاء.

2 - ديوان الخراج والجبايات: ويعتبر أهم الدواوين جميعًا لأنه يشرف على الشؤون المالية للدولة ويتولى تسجيل ما يرد عليها وما ينفق من الأموال فى الوجوه

---

1 - د. عبدالله فهد النفيسى - المرجع السابق ص68.

المختلفة، وقد اقتبسه عمر بن الخطاب من الإدارة الفارسية متبعًا في ذلك مشورة الفيرزان، وكان ديوانا البصرة والكوفة: ديوان الجند والأعطية بالعربية، وديوان المال بالفارسية كما كان ديوانا الشام بالعربية والرومية وديوانا مصر بالعربية والقبطية أو اليونانية، يرجع السبب فى إبقاء الديوان على مثل ما كان عليه قبل الفتح العربى إلى قلة خبرة العرب بأمور الإدارة، وتفضيلهم ترك النظم الإدارية والمالية فى البلاد المفتوحة على ما كانت عليه دون تغيير أو تعديل فأقروها كما هى. وظل ديوان الخراج والجبايات فى عصر الدولة الأموية حتى أيام عبدالملك بن مروان، عندما استحال الأمر ملكًا، واستقرت دعائم الدولة العربية ورسخت قواعدها، «وانتقل القوم من عضاضة البداوة إلى رونق الحضارة، ومن سذاجة الأمية إلى حذق الكتابة، وظهر فى العرب ومواليهم مهرة فى الكتابة والحسبان، فأمر عبدالملك فى عام 78هـ الموافق 697م سليمان بن سعد والى الأردن لعهده أن ينقل ديوان الشام إلى العربية، فأكمله لسنة من يوم شروعه فيه، وكان يتولاه قبل ذلك سرجون بن منصور الرومى النصرانى. أما ديوان العراق، فقد أمر الحجاج كاتبه صالح بن عبدالرحمن البصرى مولى بنى مرة بن عبيدة، وكان يكتب بالعربية والفارسية التى تلقنها عن زادان فروخ كاتب الحجاج قبله، أن يتولاه بعد أن قتل زادان فروخ فى حرب ابن الأشعث، وأمره أن ينقل الديوان من الفارسية إلى العربية فعرّبه. أما ديوان مصر فقد أمر عبدالله بن عبدالملك والى مصر من قبل أبيه عبدالملك بن مروان بنسخه بالعربية، وصرف عبدالله أثيناس عن الديوان وجعل عليه ابن يربوع الفزارى من أهل حمص. وكان أول من نقل الكتابة من الفارسية إلى العربية بخراسان اسحاق بن طليق الكاتب من بنى نهشل فى عام 124هـ الموافق 741م فى خلافة هشام ونتج عن حركة التعريب انتشار اللغة العربية والخط العربى، ونشاط الترجمة من اليونانية والفارسية والهندية، وأصبحت اللغة العربية على حد قول ابن خلدون لسانًا حضريًا فى جميع أمصار الإسلام[1].

---

1 ـ د. السيد عبدالعزيز سالم ـ نفس المرجع ص679.

وكان الفلاحون ينوؤون تحت وطأة الضرائب وجور الحكام فى العصر الأموى، تدل على ذلك هذه الأبيات التى صاغها الشاعر كعب الأشقرى:[1]

كل يوم يحوى قتيبة نهباء ... ويزيد الأموال مالا جديدا

بأهلى قد ألبس التاج حتى ... شاب منه مفارق كن سودا

دوخ الصغد بالكتائب حتى ... ترك الصغد بالعراء قعودا

فوليد يبكى لفقد أبيه ... وأب موجع يبكى الوليدا

كلما حل بلدة أو أتاها ... تركت خيله بها أخدودا

ولكن ذلك التذمر استمر فى العصر العباسى، وعبر عنه أبو العلاء المعرى بمعنى آخر فى بيتين قالهما فى القرن الرابع الهجرى:

مُلّ المقام فكم أعاشر أمة ... أمرت بغير صلاحها أمراؤها

ظلموا الرعية واستجازوا كيدها ... فعدوا مصالحها وهم أجراؤها

وكان ارتفاع الأسعار المستمر يزيد من حالة التشكى لدى العامة. فكتب أبو العتاهية إلى الخليفة يشكو له الغلاء ويستعطفه للفقراء والمحتاجين. فقال:

من مبلغ عنى الإمام ... نصائحا متتالية

إنى أرى الأسعار أسعار الرعية غالية

وأرى المكاسب نزرة ... وأرى الضرورة فاشية

3 ـ ديوان الرسائل والكتابة:

وهو مستحدث فى زمن معاوية ولم يكن موجوداً زمن الخلفاء الراشدين، ويقوم متولى هذا الديوان بالإشراف على الرسائل الواردة من الولايات الإسلامية أو الموجهة من الخليفة إلى عماله، وكان القائم على هذا الديوان يختار من أهل

1 ـ أبو طالب – المرجع السابق، ص39.

أنساب الخليفة ومن عظماء القبيلة، لعظم أمانتهم وخلوص أسرارهم. ثم تعقد هذا الديوان وتعددت اختصاصاته، وكثر عدد من يعملون فيه، فوجد كتاب رئيسيون يقومون بالإنشاء، وآخرون يساعدونهم فى التلخيص والتبييض، وأصبح لهذا الديوان محفوظات خاصة يتولى الإشراف عليها الخازن، فكانت أصول المراسلات ونسختها تنظم فى سجلات أو مغلفات خاصة يقال لها أضابير توضع عليها بطاقات تدل على محتوياتها ليسهل استخراجها والرجوع إليها.

4 ـ ديوان الخاتم:

من أكبر الدواوين فى الدولة الأموية، أنشأه معاوية بن أبى سفيان حتى لا تخرج التوقيعات بدون ختم فلا يعلم ما تحتويه من أسرار أحد غير الخليفة، فلا تتعرض هذه التوقيعات للتزوير والتعديل، ويرجع الطبرى السبب الذى دعا معاوية إلى إطلاق الختم على الكتب الخلافية أنه ـ أى معاوية ـ أمر لعمر بن الزبير عند زياد بن أبيه بالكوفة بمائة ألف، ففتح الكتاب، وصير المائة مائتين، ورفع زياد حسابه، فأنكرها معاوية، وطلب بها عمر وحبسه حتى قضاها عنه أخوه عبدالله، فاتخذ معاوية عند ذلك ديوان الخاتم وحزم الكتب ولم تكن تحزم من قبل، وأسند ديوان الخاتم إلى عبدالله بن محصن الحميرى وقيل ولاه عبدالله بن أوس الغسانى، وأصبح الديوان يضم عدداً من الكتاب القائمين على إنفاذ كتب السلطان والختم عليها إما بالعلامة أو بالحزم، وكان الحزم يتم عن طريق لصق رأس الصحيفة على ما تنطوى عليه من الكتاب، وقد يجعل على مكان الإلصاق علامة يؤمن معها من فتحه والاطلاع على ما فيه، وهى لاتخرج عن ختم المكان الملصوق بخاتم منقوش قد غمس فى مذاق من الطين معد لذلك، أحمر اللون.

5 ـ ديوان البريد:

استحدثه معاوية كذلك وذلك عندما اتسع نطاق الدولة وأصبح من الضرورى نقل الرسائل فى سرعة متناهية لتسهيل الاتصال السريع بين الخليفة وبين

عمال الأقاليم. فكانوا يضعون مضمرات الخيل فى عدة أماكن، فإذا وصل صاحب الخبر المسرع إلى مكان منهـا وقد تعب فرسه ركب غيره فرسًا مـستريحًا، وكذلك يفعل فى المكان الآخر حتى يصل بسرعة.

الولاة فى المغرب العربى: تختلف أحوال بلاد المغـرب فى عصر الولاة عن أحوال الأندلس بعض الشيء، لقد كانت ولاية المغرب تتطور بطـيئا طيلة خمسين سنة حتى اكـتمل الفتح، وكـانت المغرب العربى (أو تونس) أول ولاية عـربية فى البلاد، فقـد أنشأ عقبة بن نافع القـيروان ثم أصبحت تونس والجـزائر ولاية عربية منذ عهد عبدالملك بن مروان، واسـتطاع موسى بن نصير بعد إتمام الفتح أن يوسع أفق هذه الولاية لتمتد من برقـة فى المغرب الأدنى إلى المحيط الأطلسى فى المغرب الأقصى وامـتد إلى أطراف الصـحراء. وقـد أثرت هذه الحقـيقة فى وضـع البلاد الإدارى والسياسى، فـقد كانت أول ولاية أنشئت فى البـلاد (وأقصد ولاية تونس فى المغرب الأدنى) تابعـة لمصر رسمـيا، وكان الـوالى الأموى فى الفسطاط يمـتد سلطانه إلى القـيروان. واستطاع مـعاوية بن أبى سفـيان فى آخر أيامـه أن يجعل للولاية كيانا إداريا مستقلا فجعلهـا تابعة للخلافة مباشرة، وظلت كذلك حتى أتم موسى الفتح وأصبح الوالى العـربى فى القيروان يسيطر على هذه الرقعة الفـسيحة من أرض المغـرب. وقد أدى هذا كله إلى أن كـان المغرب على صلة وثـيقـة جدا طوال عصر الولاة بمصر، كانت صلة إدارية وثقافية واجتماعية، القبائل العربية فى مصـر كانت بعض بطونها تسيـر فى ركاب الفتح وتسـتقر إما فى القـيروان أو فى غيـرها من البلاد. وكـانت الصلات العلميـة وثيقة إلى أبـعد الحدود بين مـدرسة الفسطاط ومـدرسة القيـروان، وكانت مدرسة الـقيروان باستـمرار تتأثر بالتـيارات العلمية القادمة من مصـر. وقد تركت هذه الصلة الوثيقة أثرها فى بلاد المغرب فى عصـر الولاة وأصبحت بـلاد المغرب على صلة وثيقـة بالأندلس. كانت القـاعدة البرية والبـحرية التى وقفت خلـف فتح إسبانـيا حتى كتـب له أن ينجح، وكانت القبائل العـربية والمغربية تخرج من البـلاد فى موجات متعـاقبة تعبر مـضيق جبل

طارق وتستقر على أرض إسبانيا لتضع أساس وحدة بشرية وثيقة بين المغرب وإسبانيا طوال عصر الولاة. ومن الغريب أنه كانت ثمة وحدة إدارية بين المغرب وإسبانيا فى عصر الولاة وحتى جاء عبدالرحمن الداخل وكون الإمارة الأموية المستقلة هناك. لقد كان ولاة القيروان لهم سلطات أكبر على ولاية إسبانيا يديرون أمورها ويعالجون شئونها وينفذون سياسة الخلافة فيها. ورغم هذه الأهمية التى توفرت لولاية المغرب العربى، ورغم هذا الدور الهام الذى قامت به فى تاريخ الغرب الإسلامى فإن الوثائق الخاصة بهذه الولاية غامضة إلى أبعد الحدود، وليست لدينا إلا نصوص مبتورة قصيرة متناثرة فيما كتبه بعض مؤرخى المغرب أو فى سير صلحاء المغرب العربى وعلمائها وقضاتها، ونفس المبادئ التى طبقت فى العالم الإسلامى كله طبقت بالطبع فى بلاد المغرب مع اختلافات يسيرة نابعة من ظروف البلاد.[1]

الولاة فى إسبانيا: أتم عبدالعزيز بن موسى فتح البلاد كلها ثم اغتيل فى مسجد أشبيلية عام 95هـ / 716 ميلادية وولى جند إسبانيا أيوب بن حبيب اللخمى على البلاد فكان أول الولاة فى إسبانيا. وبولايته يبدأ عهد جديد فى تاريخ إسبانيا الإسلامية هو عهد الولاة الذى استمر حتى 138هـ/ 756م وهى السنة التى استطاع فيها عبدالرحمن بن معاوية الداخل أن يؤسس الإمارة الأموية، فهو إذن من أقصر عهود الولاة التى عرفها تاريخ الأمصار الإسلامية فهو لم يدم أكثر من أربعين سنة، على حين امتد عصر الولاة فى مصر مثلا حتى عام 254هـ الموافق 868م وقد تعاقب على حكم إسبانيا فى هذه الفترة عدد كبير من الولاة بعضهم تولى من قبل خلفاء المشرق مباشرة وبعضهم من قبل ولاة إفريقية وبعضهم اختاره الجند وأقرت الخلافة الاختيار. وهذه الفترة على قصرها فى غاية الأهمية ففيها وضع الأساس للكثير من المقومات التى قام عليها حكم المسلمين بل نشأت فيها أصول المتاعب والخلافات التى صاحبت الحكم الإسلامى إلى آخر العهد به.

1 ـ د. حسن احمد محمود ـ المرجع السابق ص73.

القضاء:

ظل القضاء فى عصر دولة بنى أمية بسيطًا كما كان فى عصر الخلفاء الراشدين، إذ لم تكن المذاهب الأربعة التى تقيد بها القضاة قد ظهرت بعد، ولذلك كان القاضى يعتمد على الاجتهاد فى الأحكام مستعينًا فى ذلك بالكتاب والسنة والإجماع، وكان القضاة مستقلين فى آرائهم وأحكامهم، فلم تكن لميول الدولة أى أثر عليهم فى ذلك. وكان اختيار القضاة وتعيينهم يتم على يد الخليفة، ولكن بعض القضاة كان يختارهم الولاة بتفويض من الخليفة. وينقسم القضاء فى العصر الأموى إلى قضاء شرعى وقضاء مدنى، وكان القاضى الشرعى يستمد أحكامه القضائية من مصادر الشريعة الإسلامية: القرآن والسنة والإجماع أو القياس، أما القضاء المدنى فيتولاه المحتسب، وكثيراً ما جمع القضاة الشرعيون بين السلطتين الشرعية والمدنية. أما المشاكل التى يستعصى حلها على القاضى الشرعى فكان يفصل فيها قاضى المظالم، وتفوق سلطته القضائية سلطة القاضى والمحتسب، ولقد أفرد الأمويون للنظر فى المظالم ديوانًا خاصًا يرجع الفضل فى إنشائه إلى عبدالملك بن مروان. وكان عبدالملك إذا وقف منها على أمر مشكل أو احتاج فيها إلى حكم منفذ رده إلى قاضيه أبى إدريس الأزدى، فنفذ فيه أحكامه لرهبة التجارب من عبدالملك بن مروان، فكان أبو إدريس هو المباشر وعبدالملك هو الآمر، وكان خلفاء بنى أمية يباشرون النظر فى المظالم بأنفسهم، ويعتبر عمر بن العزيز أول من ندب نفسه للنظر فى المظالم فردها، وراعى السنن العادلة وأعادها، ورد مظالم بنى أمية على أهلها حتى قيل له وقد شدد عليهم فيها وأغلظ «إنا نخاف عليك من ردها العواقب»، فقال «كل يوم أتقيه وأخافه دون يوم القيامة لا وقيت»، . وكان يشترط فيمن يتولى القضاء سبعة شروط هى:

1 ـ أن يكون رجلا. 2 ـ وأن يكون عاقلا صحيح التمييز بعيداً عن السهو والغفلة. 3 ـ وأن يكون حراً. 4 ـ وأن يكون مسلمًا. 5 ـ وأن يكون عادلا، والعدالة أن يكون ظاهر الأمانة عفيفًا عن المحارم، متوقيًا المآثم، بعيداً عن الريب،

مأمونًا فى الرضا والغضب. 6 ـ وأن يكون سليمًا فى السمع والبـصر ليصح بهما إثبات الحقوق ويفـرق بين الطالب والمطلوب، ويميز المقر من المنكر ليـتميز له الحق من الباطل. 7 ـ أن يكون عالمًا بالأحكام الشـرعية، وعلمه بها يشـتمل على علم بأصولها والارتياض بفروعهـا، وأصول الأحكام فى الشرع أربعة هى القرآن والسنة وتأويل السلف والقياس.

السكة:

رأينا فيـما سبق أن عمـر بن الخطاب أقر العملات الفـارسية والبيـزنطية مع إضافة بعض نقوش عربية مما يقتضيه الإسلام. وفى خلافة عثمان بن عفان ضربت دراهم نقشت علـيها عـبارة «الله أكبـر»، ولما تولى معاويـة الخلافة ضـرب دنانير إسلامية عليهـا صورته متقلدًا سيفه على نسق الدنانيـر البيزنطية، وعلى الرغم من أنه لم تصل إلينا أى دنـانير من عـهـد مـعاوية إلا أنه وصلـت إلينا بعض فلوس نحاسية ضربت فى إيليا بفلسطين، نقشت عـيها صورة معاوية وهو أقرب ما يكون إلى صورة الأباطرة المنقوشة على الفلوس البيـزنطية. ويذكر المقريزى أن عبدالله بن الزبير ضرب دراهم مـدورة ونقش على الوجه «محمـد رسول الله»، وعلى الظهر «أمر الله بالوفاء والعـدل»، كما ضرب أخوه مصـعب بالعراق دراهم مماثلة فى عام 70هـ الموافق 689م بأمر أخـيه عبدالله على ضـرب الأكاسرة، وكتب عليـها فى أحد الوجهـين: «بركة الله» وفى الآخر «اسم الله» ولم تعرف عند المسلـمين عملة إسلامية خالصة إلا فى عصر الخليـفة الأموى عبدالملك بن مروان، الذى كان يرى أن ضرب العملات العربية الإسلامية ضـرورة لازمة اقتضتها الظروف لتدعيم البناء الاقتصادى والسياسى القومى للدولة العربية، ومن الملاحظ أن عصر عبدالملك شهد ظاهرة جديدة هى صـبغ الدولة بصبـغة قومـية عربيـة فى جمـيع الشؤون الإدارية والماليـة، فإليـه يرجع الفضل فى تعـريب الدواوين وإليـه يرجع الفضل أيضًـا فى تعـريب السكة الإسلامـية، وكـان ذلك ضـرورة من ضرورات الحكم فى مـرحلة

الاستقـرار التى أعقبت مرحلة الفتـوحات، ويبدو أيضًا أنه كـان يسعى جاهدًا إلى توحيـد النظام النقـدى الإسلامى فى سائـر أنحاء الدولة العـربية بعـد أن تعددت العمـلات الخاصة التى أصـدرها عبدالله بن الزبير فـى الحجاز وأخوه مـصعب فى العراق، وقطرى بن الفـجاءة، ثم إن العمـلات بما تحمله من نقوش تتـضمن اسم الخليفـة أو الأمير الحاكم والمركـز الذى سكت فيه تعـبر عن سيادة الدولة العـربية وتحررها من أى نفـوذ أجنبى، وكان تداول عمـلات بيزنطية وفـارسية، فى عـصر بلغت فيه الدولة العربية ذورة تألقها السياسى والحضارى يتعارض مع تطبيق سياسة عربية فى كافة وجوه الحياة اقتصـاديًا وسياسيًا. ولقد مر الإصلاح النقدى الذى قام به عبدالملك بن مروان بمرحلتين قبل أن تأخذ العـملات الأموية صورتها الإسلامية الخالصة. ففى المرحلة الأولى ضربت الدنانير الذهبية على غرار الفلوس البيزنطية، فـبتـر أعلى الصليـب من وجه العـملة وظهـر على شكل حـرف T وأحيط هذا الصليب بعبارات التـوحيد المنقوشة بالخط الكوفى. أما فى الوجـه الآخر فقد أبقى على صورة هرقـل وولديه قسطنطين وهو قليـوناس. وفى المرحلة الثانيـة استبـعد عبدالملك التأثيرات البيزنطية نهائيًا بأن نقش صورته هو مكان صورة هرقل وولديه، ثم أبقى العمـود القائم على المدرج الذى يحـمل الصليب فى العملات القـديمة، وأصبح وجه الـدينار يحمل صورة عبـدالملك، وأصبح ظهره منقوشًـا بكتابة تدور على حافة الدينار نصها: «بسم الله ضـرب هذا الدينار سنة ست وسبعين» وأصبح الصليب مجرد عمود قائم على أربع مدرجات. ولقد سبب ظهور صورة عبدالملك على ديناره احـتجاج جـماعـة من الصحـابة الذين أنكروا على عبـدالملك تشبـهه بالأباطرة كمـا أنكروا إظهار الصـور التى ينهى عنها الشـرع كمـا أثار صدور هذا الدينار وعليه صـورة الخليفة رد فعل عند البـيزنطيين الذين اعتـبروا هذا الإصلاح النقدى الإسلامى ثورة على نظام النقد البيـزنطى العالمى. ومع ذلك فقد كان دينار المرحلة الثـانية تمهـيدًا لـصدور الدينار الإسـلامى الخالص فى عـام 77هـ الموافق

696م وكان يتوسط الوجه العبارة الآتية: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له» بينما كان يدور على الحافة عبارة: «محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله»، أما الظهر فقد كان يتوسطه: «الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد»، وكان يدور بالحافة «بسم الله ضرب هذا الدينار عام سبع وسبعين»[1].

النظم الإدارية فى المغرب العربى: وقد نظمت شئون المغرب الإدارية طبقا للأسس التقليدية المعروفة فدونت الدواوين وعين العمال على نواحى الإدارة. وقد احتفظ العرب بأهل البلاد الأصليين فى وظائفهم التى كانوا قد تولوها من قبل مع اختلاف يسير عما ألفناه فى مصر أو إسبانيا، فقد كان عامل المغرب العربى أكثر العمال العرب حرية فى التصرف وإطلاقا فى اليد، فقد أعطى سلطات واسعة ليدخل ما يراه من النظم الكفيلة باستقرار الأمور فكان النظام العربى فى المغرب فى الحقيقة نظاما يتطور وفقا للظروف. واتبعت نفس التنظيمات العسكرية التى اتبعها الأمويون فى العالم الإسلامى كله فأدخل عرب البربر إلى صميم الجيش العربى وفرضوا للمقاتلة العطاء من بيت المال ولم تختلف السياسة الاقتصادية عن مألوف السياسة العربية من حيث فرض الجزية أو الخراج أو ملكية الأرض مع تطور بسيط نابع من ظروف العرب ومن تقاليد التحالف بين العرب والبربر، ذلك أن العرب لم يعطوا البربر مجرد حق حيازة الأرض بل أعطوهم حق الملكية نظير ضريبة العشور المقررة.

التنظيم الإدارى فى إسبانيا: أبقى العرب لأهل البلاد الأصليين شرائعهم وقضاءهم بل عينوا لهم حكاما من أنفسهم يديرون المقاطعات ويجمعون الضرائب ويفصلون فى الأحكام، فإن العرب احتفظوا بغالبية الرجال القدامى من أهل البلاد، وهى نفس السياسة العربية التى سار عليها العرب فى جميع البلاد، فى الوقت الذى احتفظوا لأنفسهم فيه بوظائف السلطة العليا: وظيفة الوالى وصاحب

---

1 ـ د. السيد عبدالعزيز سالم ـ نفس المرجع ص680 ـ 685.

الشرطة وصاحب الخراج والبريد والقاضى. واحتفظ العرب بالتقسيم الإدارى للبلاد كما هو دون تغيير. قسمت إسبانيا فى ضوء تقسيمها القديم أيام الرومان والقوط. وإن كان العرب قد أدخلوا بعض التقسيمات الإدارية الصغيرة تيسيرا لضبط الأمن وربط المال. . إلا أن المعاصرين للحكم العربى الأول لم يحسوا بتغيير يذكر فى حكومة البلاد. أبقى المسلمون للمسيحيين حريتهم الدينية كاملة مقابل دفع الجزية والخراج على ما تقضى به الشريعة الإسلامية وسووا بين المسيحيين كافة فى هذه الحقوق، وامتدت مظاهر هذا التسامح فشملت الممتلكات، فلم يمس المسلمون إلا ما كان ملكا لبيت لذريق وترك الباقى بيد من يزرعونه، وتركوا أحرارا ينظمون أمورهم على النحو الذى أرادوه ما داموا على الطاعة وظلوا يفصلون فى أقضيتهم وفقا للنظام القوطى. وظلت علاقة الناس بكنائسهم وقساوستهم على ما كانت عليه، بل ترك العرب للجماعات النصرانية نشاطها المدنى الذى كانت جارية عليه أيام القوط، ولم يعرض العرب فى كثير أو قليل لنظام البلديات الذى وجدوه فى البلاد وتركت المدن كما كانت حرة تنظم أمورها كما يريد أهلها. بل وضع المسلمون حدا للاضطهادات الدينية التى شاعت فى حياة البلاد فى الفترة الأخيرة من حكم القوط، وتركوا للمذاهب المختلفة الفرصة لتحيا فى غير ما خوف، المجادلة بالمنطق والرأى، أما التعذيب والإكراه فلم يعرف إلى قلوب العرب سبيلا. والمؤرخ أرنولد فى كتابه «الدعوة إلى الإسلام» يذكر أنه لم يسمع بأية وسيلة من وسائل الاضطهاد على الأقل فى هذا العصر الإسلامى الأول. وقد لقيت هذه السياسة تأييدا من أهل البلاد، فلم تشهد إسبانيا طوال القرن الثانى الهجرى ثورة واحدة على الحكم العربى، حتى لقد قيل إن الذين هاجروا إلى الأراضى الفرنسية خوفا من العرب تمنوا لو عادوا إلى أوطانهم مرة أخرى. ورجال الدين أنفسهم ومؤرخو الكنيسة يعترفون بهذه السياسة السمحة، فها هو القديس بونيفاس المعاصر يرى فى الحكم الإسلامى يد العدالة الإلهية التى اقتصت من القوط ومظالمهم. وقد امتدت سياسة التسامح إلى اليهود فنعموا بالحرية كاملة وفتحت أمامهم ميادين

الحياة الاقتصادية دون منافس، بل عهد الحكام العرب إليهم بالمهام الدبلوماسية وتولوا المناصب الإدارية والمالية وفازوا من العرب بمثل ما فاز به الأقباط فى مصر. والوثائق العربية المعاصرة تطلق على النصارى واليهود اسم أهل الذمة، ثم أصبح هذا الاسم يطلق على اليهود وحدهم، أما النصارى فقد اتخذوا أحيانا اسم العجم وأحيانا أخرى اسم المعاهدين نسبة إلى العهود التى أخذوها من الحكام العرب. ويذكر بروفنسال أنهم اتخذوا اسم المستعربين. ويعلق الدكتور حسين مؤنس على ذلك فيقول: إن اسم المستعربين ظهر فى العقود الجارية بين الناس ابتداء من القرن الحادى عشر الميلادى، كما ظهر فى الوثائق المسيحية المكتوبة باللاتينية أو الأسبانية فى نفس الوقت تقريبا، وأنها مما أطلق ملوك النصارى على نصارى إسبانيا الذين دخلوا فى طاعة المسلمين تمييزا لهم عن رعاياهم، وكانت لهؤلاء المستعربين طقوسهم الدينية الخاصة ولهم رجال دين خاصين بهم يقيمون صلواتهم على أسلوب خاص، ويستخلص من هذا أن الاستعراب كان يسبق الإسلام فى بعض الأحيان أو فى أكثرها، وأن النصارى الأسبان اختلطوا بالمسلمين فتعلموا لغتهم وأسلوبهم فى الحياة وكان كثير منهم يجيدون اللغة العربية إجادة تامة[1].

الحسبة

«الحسبة» نظام إسلامى يقوم بالإشراف على المرافق العامة، ومنع أى انحراف، وعقاب المذنبين، ووظيفة دينية شبه قضائية، عرفها التاريخ الإسلامى من بدايته تقوم على فكرة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، امتثالا لقوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [آل عمران: 104] والأصل فى هذا النظام الإسلامى هو قيام الناس جميعًا بهذا الواجب الذى هو من فروض الكفاية، لكن الدولة الإسلامية لم تدع ذلك الأمر للأفراد، خوفًا من حدوث فتن ومشاحنات، وإنما نظمته، وجعلته وظيفة خاصة،

1 ـ د. حسن أحمد محمود ـ المرجع السابق ص63.

لها مسئول. يعاونه عدد كبير من الناس. ولا يعنى تنظيم الدولة لوظيفة «الحسبة» منع الأفراد من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، بل من واجبهم القيام بهذا، بشرط أن يكون القائم به عالمًا فقيهًا، وألا يؤدى أمره بالمعروف إلى المنكر، ونهيه عن المنكر إلى منكر أشد، وأن يكون عمله عن طريق النصيحة. ولما لم يكن من طبيعة الناس كلهم الاستجابة إلى النصح بالتى هى أحسن، فقد نشأت وظيفة «المحتسب»، واشترط فى شاغلها أن يكون من أهل الهيبة، ليضرب بقوة على أيدى العابثين بأمن المجتمع فى غذائه وصناعته وتجارته، وعلى من لا يراعى أصول الشريعة ومبادئها فى سلوكه، ويضايق الناس بأقواله وأفعاله. ولم يقتصر عمل «المحتسب» على ضبط سلوك العامة، ومراقبة أعمالهم، وإنما شمل كبار موظفى الدولة، لحملهم على أداء عملهم على أفضل ما يكون، ومنعهم من الفساد والتعدى على الناس وقبول الرشوة، وغير ذلك. وبدأ نظام «الحسبة» مع بداية الدولة الإسلامية، مثل غيره من النظم التى سبق الحديث عن بعضها، فقد ثبت فى الصحيح أن الرسول ﷺ كان أول من باشر عمل «المحتسب» بنفسه، مما يدل على أهميته، فروى «أبو هريرة» - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ مر على رجل يبيع القمح فى سوق «المدينة» وأمامه صبرة - كومة كبيرة - فأدخل فيها يده الشريفة، فأصابت بللا، فقال: «ما هذا يا صاحب الطعام؟». فقال: أصابته السماء يا رسول الله. فقال ﷺ: «أفلا جعلته فوق الطعام كى يراه الناس؟ من غشنا فليس منا» [صحيح مسلم]

وكان النبى ﷺ يعين من الصحابة من يقوم بهذا العمل ويراقب الأسواق لمنع الغش فى كل شىء، فكلف «عمر بن الخطاب» بمراقبة سوق «المدينة المنورة»، وعين «سعيد بن العاص» لمراقبة سوق «مكة» بعد فتحها. واستمر الخلفاء الراشدون يباشرون عمل «المحتسب» بأنفسهم أحيانًا، وينيبون غيرهم للقيام به فى أحيان أخرى، ولما اتسعت الدولة الإسلامية فى عصر «بنى أمية»، عجز الخلفاء عن القيام بعمل «المحتسب» بأنفسهم؛ لانشغالهم بمهام كثيرة سياسية وإدارية وعسكرية،

وخصصوا لهذا العمل من يقوم به، وأصبح نظام «الحسبة» ووظيفة «المحتسب» من أهم النظم الإسلامية التى تعمل على سلامة المجتمع، وتنقيته من كل المفاسد. وقد امتد عمل «المحتسب» إلى كل مجالات الحياة تقريبًا، وقد لخص «ابن خلدون» فى مقدمته اختصاصات «المحتسب» فقال: «ويبحث - المحتسب - عن المنكرات، ويعزر ويؤدب على قدرها، ويحمل الناس على المصالح العامة فى المدينة، مثل المنع من المضايقة فى الطرقات، ومنع الحمالين وأهل السفن من الإكثار فى الحمل - لئلا تغرق السفينة بمن فيها - والحكم على أهل المبانى المتداعية للسقوط بهدمها، وإزالة ما يتوقع من ضررها على السابلة - أى المارة فى الطريق - والضرب على أيدى المعلمين فى المكاتب وغيرها فى الإبلاغ - أى المبالغة - فى ضربهم للصبيان المتعلمين، ولا يتوقف حكمه على تنازع أو استعداء، بل له النظر والحكم فيما يصل إلى علمه من ذلك، ويرفع إليه، وليس له الحكم فى الدعاوى مطلقًا، بل فيما يتعلق بالغش والتدليس فى المعايش وغيرها، وفى المكاييل والموازين، وله أيضًا حمل المماطلين على الإنصاف، وأمثال ذلك مما ليس فيه سماع بينة، ولا إنفاذ حكم، وكأنها أحكام ينزه القاضى عنها لعمومها، وسهولة أغراضها، فتدفع إلى صاحب هذه الوظيفة ليقوم بها فوضعها على ذلك أن تكون خادمة لمنصب القضاء». وإذا نظرنا إلى عمل «المحتسب» الذى هدفه هو راحة الناس فى ضوء النظم الحكومية المعاصرة نجده موزعًا بين العديد من الوزارات والهيئات، مثل وزارة التموين، والصحة، والصناعة، والتعليم، والزراعة، والداخلية، والنيابة العامة، ومصلحة الدمغة، والموازين، والمرافق بمختلف أنواعها[1].

الشرطة

يعد جهاز «الشرطة» من أقدم الأجهزة فى الدولة الإسلامية، فقد عرف منذ عهد النبى ﷺ، وكان له «صاحب شرطة» - أى رئيس لها - فعن «أنس بن مالك» أنه قال: «كان قيس بن سعد بن عبادة من النبى ﷺ بمنزلة صاحب الشرطة من

---

1 - د. عبدالشافى محمد عبداللطيف - المرجع السابق ص71 - 72.

الأمير» [صحيح البخارى]. ومن الذين عـرفوا بالقيام بوظيفة الشرطى فى «المدينة» فى عهـد الرسول ﷺ: «سعد بن أبى وقـاص» و «بديل بن ورقاء»، ، «أوس بن ثابت بن عرابة»، و «رافع بن خـديج». واستمـر الخلفاء الراشدون فى الاستـعانة ببعض الصـحابة للقيام بعـمل الشرطى؛ استـتبابًا للأمن، وحفظًا للنظام، وتعـقبًا للجناة والمفسـدين فى الأرض، وتنفيذاً للأحكام والحدود التى يحكم بهـا القضاة.

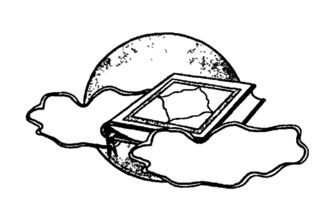
وقد ازدادت أهميـة جهاز «الشرطة» فى الدولة الأمـوية، نظراً للظروف التى كانت تحيط بهـا، وكثـرة الخارجـين عليها والـثائرين ضدها، فـتوسـعت فى استـخدام «الشرطة»، حـتى أصبح جهـازاً من أكبر أجـهزة الدولة، قـادراً على حفظ الأمن وتطهير البلاد من عناصر الفساد والعبث بالنظام العام للمجتمع. وحرص الأمويون على اختـيار رجـال شرطتـهم من أهل الشرف والبـأس الشديد، والعـفة والمروءة والحزم، وأعطوا «صاحب الشرطة» الحرية التامة فى اختيار معاونيه، ليؤدوا مهمتهم على الوجـه الأكمل، فـيروى عن «الحـجاج بن يوسف الثـقفى» والى «الـعراق» والمشرق الإسلامـى أنه قال: «دلونى على رجل للشرطة»، فقـيل له: «أى الرجال تريد؟» قال: «أريده دائم العبوس - أى جاد فى مـلامحه - طويل الجلوس، سمين الأمانة، أعجف الخيانة - أى لا يخون -» فقـيل له: «عليك بعبد الرحمن بن عبيد التميمى»، فأرسل إليه يستعمله على «الشرطة»، فقال: «لست أقبلها إلا أن تكفينى عيالك وولدك وحـاشيتك»، فقال «الحجـاج»: «يا غلام ناد فى الناس: من طلب إليه منهم حاجـة فقد برئت منه الذمة». ويعلق «الشعبى» راوى هذا الخـبر بقوله: «فو الله مـا رأيت صاحب شـرطة قط مثله، كـان لامحـبس إلا فى دين - أى من أجل مخالفة لتعليم الدين - وكان إذا أتى برجل قد نقب على قوم وضع منقبته فى بطنه حـتى تخرج من ظهره، وإذا أتـى بنباش حفـر له قبـراً فدفنه فـيه، وإذا أتى برجل قاتل بحديدة أو شهر سـلاحًا قطع يده، وإذا أتى برجل قد أحرق على قوم منزلهم أحرقـه فكان ربما أقام أربعين ليلة لا يؤتى بأحد - لخـوف الناس منه لشدته وهيبته - فضم إليه الحجاج شرطة البصرة مع شرطة الكوفة».

وبعد هذا الحديث الموجز عن النظم والإدارة فى العصر الأموى يمكن القول إن إدارة الأمويين للدولة الإسلامية كانت إدارة حسنة بصفة عامة، تقوم على أسس ثابتة، تبغى الصالح العام، وإشاعة الأمن والاستقرار فى الدولة المترامية الأطراف، وإن شاب ذلك بعض القصور والأخطاء، وحسب الأمويين أنهم لم يكفوا عن تطوير أجهزة الدولة ودواوينها التى كانت موجودة قبلهم، واستحدثوا غيرها حين دعت الضرورة إلى ذلك، وأنهم بذلوا جهداً فى التدقيق فى اختيار الولاة والعمال والموظفين، وأحسنوا مراقبتهم ومتابعتهم، ونجحوا فى ذلك إلى حد كبير[1].

---

1 ـ د. عبدالشافى محمد عبداللطيف ـ نفس المرجع ص72 ـ 73.





الحياة الاجتماعية

- الحياة الاجتماعية فى الدولة الأموية.
- التركيبة السكانية للمجتمع الإسلامى.
- الأمازيغ البربر من العرب العاربة والقرطاجيين.
- طبقات المجتمع الإسلامى.
- النظام الاجتماعى فى الدولة الأموية.
- مظاهر الحياة الاجتماعية.
- مكانة المرأة فى المجتمع الإسلامى.
- حفلات الزواج.
- الرعاية الاجتماعية والسجون.

الحياة الاجتماعية فى الدولة الأموية:

لم يكن منتظراً مع بداية حركة الفتوح الإسلامية أن يحدث تغيير سريع مفاجئ فى أوضاع المجتمع الإسلامى، لأن المسلمين كانوا عندئذ قريبى عهد بالرسول ﷺ وتعاليمه. يحكى ابن خلدون أن العرب ملكوا فارس والروم «ولم يكونوا لذلك العهد فى شيء من الحضارة. فقد حكى أنه قدم لهم المرقق فكانوا يحسبونه رقاعًا. وعثروا على الكافور فى خزائن كسرى فاستعملوه فى عجينهم ملحًا. ومثل ذلك كثير». وعلى الرغم من الغنائم الضخمة التى أصابها العرب الأوائل فى فتوحهم، إلا أن بساطة الإسلام وبساطة المنبت ظلت غالبة عليهم «فكان الفارس الواحد يقسم له فى بعض الغزوات ثلاثون ألفًا من الذهب أو نحوها، فاستولوا من ذلك على ما لا يأخذه الحصر، وهم مع ذلك على خشونة عيشهم. فكان عمر يرقع ثوبه بالجلد. وكان على يقول: يا صفراء! ويا بيضاء! غرى غيرى!! وكان أبو موسى يتجافى عن أكل الدجاج لأنه لم يعهدها للعرب لقلتها يومئذ. وكانت المناخل مفقودة عندهم بالجملة، وإنما كانوا يأكلون الحنطة بنخالها..».

حقيقة أننا نسمع عن قلة من الصحابة ـ عند اتساع الفتوح على أيام عثمان رضى الله عنه ـ اقتنوا الضياع والمال. ولكن ذلك تم داخل إطار الدين، ولم يكن فيما فعلوه خرق لتعاليم الإسلام، لأنه مال حلال، أتى عن طريق غنائم وفيوء أحلها الله. ثم إنهم أدوا ما وجب عليهم من زكاة، ولم يتصرفوا فى مالهم بعتو وإسراف. وهكذا، فإن الثروة الكبيرة المفاجئة لم تفلح فى تلك المرحلة فى تغيير الملامح العامة الأساسية للمجتمع الإسلامى الوليد. غير أن هذا الوضع لم يستمر طويلا بعد انقضاء عصر الخلفاء الراشدين رضى الله عنهم. فالدولة الأموية التى قامت على أسس من السياسة والسيف اتخذت خطًا من شأنه أن يبتعد بالمجتمع الإسلامى تدريجيًا عن بساطته الأولى التى تحلى بها. ولا شك فى أن نقل عاصمة الدولة الإسلامية إلى دمشق بدلا من المدينة المنورة جعل الحكام الجدد من بنى أمية

يبتعدون عن المسرح الأول للإسلام - بذكرياته ومثله وبساطته - وينغمسون فى مجتمع ينطق كل أثر فيه بترف الروم ويذخهم والصبغة المادية التى اصطبغت بها حضارتهم. هذا إلى أن حركة الفتوح الإسلامية، بلغت ذروتها فى العصر الأموى، وكان معنى اتساع الفتوح كثرة الغنائم والسبايا والرقيق وتدفق الجزء الأكبر من هذه المكاسب والأموال على عاصمة الأمويين فى دمشق. فإذا أضفنا إلى ذلك اتساع الدولة الإسلامية، وانتشار الإسلام بين شعوب عديدة غير عربية، لها جذورها وأصولها، ودخلت الإسلام بتراثها وعاداتها وتقاليدها.. أدركنا ما حدث من تفاعل اجتماعى بعيد المدى بين العرب الفاتحين من ناحية، وتلك الشعوب من ناحية أخرى، وهو تفاعل تم قبل أى اعتبار فى ظل ديانة نادت بأن المؤمنين إخوة، وبأن الناس جميعًا لآدم، وآدم من تراب[1].

وفى المسيرة الاجتماعية للدول والأمم والشعوب يبرز مبدأ عام يتحكم فى توجيه تلك المسيرة، خلاصته أن الناس على دين ملوكهم، بمعنى أن المحكومين مولعون بمحاكاة حكامهم، وأن المؤثرات الاجتماعية تنتقل فى المجتمع من أعلى إلى أسفل، ومن الطبقات العليا إلى ما دونها من طبقات. ولذا فإنه مهما يقال من أن التطور الذى شهده المجتمع الإسلامى فى العصر الأموى كان تطوراً طبيعيًا، أملته الظروف الجديدة التى أحاطت بالدولة - من اتساع وثراء وتنوع فى بنيتها العنصرية - إلا أننا لايمكن أن نعفى بعض الحكام فى العصر الأموى من مسؤولية دفع عجلة ذلك التطور. ونقول بعض الحكام حتى نحتفظ للبعض الآخر من الخلفاء الصالحين - أمثال عمر بن عبدالعزيز - بمكانتهم السامية فى التاريخ. والواقع أن المؤرخ المدقق لايستطيع أن ينكر أن المجتمع الإسلامى دخل مرحلة جديدة وتغيرت أوضاعه بسرعة بعد عصر الخلفاء الراشدين رضى الله عنهم، إذ جاء خلف «ابتزوا ملكهم واستباحوا دنياهم». ومنذ وقت مبكر فى العصر الأموى ظهرت مسحة قوية، من الترف أدت إلى تسرب تيار من الإسراف، بعيد عن روح

1 - د. سعيد عاشور ود. سعد زغلول - تاريخ الحضارة الإسلامية العربية ص253.

الإسلام ومبادئه. ولم يلبث أن أخذ الغناء يحل محل تلاوة الشعر، كما حلت مجالس الشراب محل مجالس الأدب. وفى هذا الاتجاه الجديد كان الناس يحاكون ما يجرى فى قصر الخلافة، مما جعل المؤرخين الأوائل ينتقدون بعض حكام بنى أمية نقداً مراً. من ذلك مايذكره المسعودى - صاحب كتاب مروج الذهب - من أن يزيد بن معاوية «كان صاحب طرب وجوارح وكلاب وقرود وفهود ومنادمة على الشراب. وغلب على أصحاب يزيد وعماله ما كان يفعله من الفسوق». أما سليمان بن عبدالملك فقد بالغ فى التفنن فى زينته وملبسه، حتى إنه فى يوم جمعة من ولايته لبس الفاخر من الثياب، وتعطر، وأمسك بالمرآة، وجمع الجمعة، وخطب خطبته وقد أعجب بنفسه، فوقف على المنبر يردد «أنا الملك الشاب، السيد المهاب، الكريم الوهاب..».

ومثل هذا يقال عن يزيد بن عبدالملك بن مروان، وقصته معروفة مع سلامة القس التى شغف بها حبًا، ثم مع حبابة. أما هشام بن عبدالملك بن مروان فقد شغف بسباق الخيل «وأقام الحلبة» فاجتمع فيها من خيله وخيل غيره أربعة آلاف فرس، ولم يعرف ذلك فى جاهلية أو إسلام...». وهكذا حتى كان الوليد بن يزيد بن عبدالملك بن مروان - فى أواخر العصر الأموى - فوصفته المصادر بأنه «صاحب شراب ولهو وطرب وسماع للغناء، وهو أول من حمل المغنين من البلدان إليه، وجالس الملهين، وأظهر الشراب والملاهى والعزف...». هذا فى حين وصفه الطبرى بأنه «تمادى فى الشراب وطلب الملذات، فأفرط..» وكان بعض حكام بنى أمية لايظهرون للندماء، بل كان بينهم حجاب، حتى لايطلع الندماء على ما يفعله الحاكم إذا طرب، فقد تأخذه نشوة الطرب وهو سكران، فيقوم بحركات لايطلع عليها إلا خواص جواريه. هذا فى حين بالغ البعض الآخر - مثل يزيد بن عبدالملك - فى المجون بحضرة الندماء، وأذن لهم فى الكلام والضحك والهزل فى مجلسه. وانتقلت العدوى بوضوح إلى الناس والرعية فى عهد الوليد الثانى، فكلفوا بالموسيقى والغناء، وأسرفوا فى ذلك إسرافًا ملحوظًا،

فأنفقوا ببذخ على المغنين المشهورين والموسيقيين الذين كان الحاكم الأموى يدعوهم إلى دمشق من أقصى البلاد. وكان للقيان دور ملحوظ فى تقدم الغناء فى العصر الأموى. ومن الآلات الموسيقية التى استعملها المغنون والموسيقيون فى ذلك العصر الصنج والطنبور والمزمار، وغيرها. وامتد هذا التيار تدريجيًا إلى كثير من أنحاء الدولة الإسلامية، فى المشرق والمغرب سواء. وقد وصف ابن عذارى المراكشى بعض حكام المسلمين فى المغرب وإسبانيا، بأنه «عهر الخلوات، صريع الشهوات، لهج بالفكاهات، كثير الكذب والعدوان، شنيع الفجور والعصيان. .»[1].

حتى الحجاز أخذ يتأثر طفيفًا بالموجة الجديدة، فتعرضت الحياة فيه للتطور فى ذلك الدور. وإلى جانب المحدثين والفقهاء ظهر فى المجتمع المغنون والشعراء، وإلى جانب حياة العلم والزهد والتقوى، وجدت حياة المرح والمتعة. من ذلك مايذكره صاحب كتاب الأغانى من أن مكة والمدينة وضواحيهما امتلأت بالمغنين والمغنيات الذين كانوا يخرجون إلى الحج فيجتمع الناس لرؤيتهم. وصار فى مكة مذهب فى الغناء، وللمغنين فى المدينة مذهب، وبين الفريقين مفاخرة، يسر الناس لمشاهدتها. ومع الغناء كان التنادر والفكاهة الحلوة. ويقال إن أكثر المغنين فى قصور بنى أمية تخرجوا فى مدرسة الحجاز. ويعلل المرحوم الأستاذ أحمد أمين هذه الظاهرة برقة شعور أهل الحجاز من ناحية، ووجود أرستقراطية العرب ـ وهم العنصر الفاتح الذى حصل على خيرة الجوارى من ناحية ثانية؛ فضلا عما يقال من أن البدو إذا تحضروا ونالوا بسطة فى العيش أسرفوا فى اللهو من ناحية ثالثة. هذا مع ملاحظة أن الحياة فى الحجاز ظلت دائمًا ملتزمة بقدر من الاعتدال، بحيث لم تصل إلى حد الإسراف الذى وصلت إليه فى عاصمة الدولة دمشق. ونسمع عن بعض حركات وثورات قام بها بعض الصحابة فى الحجاز تعبيرا عن استيائهم من سلوك بعض خلفاء بنى أمية فى دمشق.

---

1 ـ د. سعيد عاشور. د. سعد زغلول ـ نفس المرجع ص255.

ومن ناحية أخرى، فإننا إذا قلنا إن تغييراً محـدوداً أصاب الحياة الاجتماعية فى الحجـاز، فعلينا أن نذكـر أن الإسلام كـان دائمًا بعيـداً عن التزمت والحـرمان والكبت، وأنه طالب المسلم بألا ينسى نصيبه من الدنيـا، وأن يتمتع بكل ما خلقه الله له من ضروب المتعة، بشرط أن يلتزم بالحلال ويبـتعد عما حرمه الله، وبشرط ألا يسرف حـتى فى متـعتـه بالحلال، «إنه لا يحب المسـرفين». وقد سئل بعض شـيوخ بنى أمـية ومـحصليـها ـ عـقب زوال الملك عنهم، «مـا كان سـبب زوال ملكك؟» فقال: «إنا شـغلنا بلذاتنا عن تفقد ما كان نعقـده يلزمنا، فظلمنا رعيتنا، فيئسوا من إنصافنا، وتمنوا الراحة منا...». ولا يشفع لذلك الفريق من خلفاء بنى أميـة القول بأن الدولة الإسلامـية بلغت فى العصـر الأموى أقصى اتساعـها، وأن الفتـوح الإسلامية ـ براً وبحـراً ـ أدركت أقصى مداها شرقًـا وغربًا. ذلك أن هذه الدفعـة كانت فى الواقع دفـعة الإسلام لا دفـعة الحكام. فـالإسلام هو الذى دفع المسلمين إلى الجهاد، وكـان من المتعذر على حركة الفتـوح الإسلامية ـ التى بدأت فى عهد الرسول ﷺ ـ أن تتوقف قبل أن تستنفـد طاقتها، وتبلغ الدولة الإسلامية حدودها الطبيعية فى المشرق والمغرب. وحسبنا أن نشير هنا إلى أن أبا بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ ما كاد يبايع بالخلافـة إلا وقف فى المسلمين قائلا: «لا يدع قوم الجهاد فى سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل». فالجهاد هنا عقيدة، وسياسة أمة، لا سياسة دولة[1].

نعالج فى الحـياة الاجتـماعـية عدة مـحاور أساسـية هى: التركيـبة السكانية وعناصرها الذين ضـمتهم دار الإسلام؛ وفق معـيار العرقيـة. والبناء الطبقى؛ من حيث تحديد طـبقات المجتمع على أسـاس معيار الثـروة. والفرق والطوائف والملل والنحل التى عاشت وتضافرت على تشييـد صرح الحضارة الإسلامية، وهذا يعنى الوقوف على الدين والمذهب كعـاملين أساسيين فى صياغة بنيـة الطوائف المذهبية والجماعات الدينية. والمدن والعمران تأسيسـا على كون الحضارة الإسلامية حضارة مدنية ودراسـة بعض مظاهر الحياة الاجتـماعية، كالمأكل والملبـس والمسكن، فضلا

1 ـ د. سعيد عاشور ـ د. سعد زغلول ـ نفس المرجع ص257.

عن العادات والتقاليد والأعياد والمواسم وما شابه. وأخيرا تحديد وضعية المرأة فى المجتمع العربى الإسلامى. وأن دراسة هذه البنيات المختلفة على أساس العرق والثروة والمذهب ونمط الحياة لاتعنى أن المجتمع الإسلامى كان مفككا. بل على العكس تبرز هذه الدراسة طابع التجانس الذى ميز المجتمع العربى الإسلامى بفضل العروبة والإسلام. هذا فضلا عن انصهار هذه الأصول المتباينة فى بوتقة الحضارة العربية الإسلامية وتضافرها جميعا على تأسيسها وازدهارها. وإليكم البيان.

التركيبة السكانية للمجتمع الإسلامى:

ضمت دار الإسلام نتيجة اتساعها عناصر شتى تنتمى إلى أصول إثنية متباينة مثل العرب والفرس والترك والسريان والقبط والبربر والقوط والزنج والصقالبة. وقد اعتنقت معظم هذه الشعوب والأمم دين الإسلام الذى كفل لمن بقى منها على دينه الحرية الكاملة فى العقيدة وحثها جميعا على العمل المشترك دون تعصب أو انحيار. ومن ناحية أخرى أسفر هذا التنوع الإثنى عن خصوبة أمدت الحضارة الإسلامية بدماء جديدة كفلت لها التطوير والاستمرارية والبقاء. وحسبنا أن سائر هذه العناصر شاركت فى التوجيه السياسى خلال حقب مختلفة دون أن تحتكره أمة من الأمم أو شعب من الشعوب. كما أن الإسلام انطوى على مبادئ إنسانية وأخلاق سامية تحض على التعارف والتواد والتفاعل من أجل ازدهار العمران، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾. [الحجرات 13]. وقدشكل العرب فى صدر الإسلام القوة الأولى التى تبنت الدعوة الإسلامية ونشرتها عالميا بعد تأسيس امبراطورية واسعة. وقد شجب الرسول ﷺ العصبية كنزعة استعلائية شعوبية واعتبرها من «الجاهلية الأولى». وحسبنا أن العرب كانوا قبائل شتى متنافسة متشاحنة ما لبثت أن توحدت تحت لواء الإسلام. وإلى العرب يعزى الفضل فى تحقيق وحدة رابطة الدم بعد أن اختلطوا بشعوب البلاد المفتوحة على إثر هجراتهم واستقرارهم فى الأمصار. كما يعزى إليهم فضل تحقيق الوحدة السياسية والدفاع عنها عسكريا بعد أن آلت إليهم

مقاليد الحكم والإدارة. ناهيك عن دورهم فى التعريب اللغوى. بحيث أصبحت اللغة العربية هى لغة العلم والتخاطب. لذلك لم يخطئ بعض الدارسين حين اعتبروا «العرب مادة الإسلام». لكن العنصر العربى ما لبث أن فقد القيادة السياسية والدور العسكرى منذ أواخر العصر العباسى الأول حين ظهر دور الفرس فى الإدارة والترك فى الجيش بعد أن أسقط الخليفة المعتصم العرب من ديوان العطاء. برغم ذلك ظل العرب يمارسون الحكم نظريا زمن العباسيين حتى سقوط الخلافة عام 636هـ. وذلك لأن الخلفاء العباسيين كانوا عربا. هذا فضلا عن نجاحهم فى تأسيس دويلات عربية ذات طابع جهادى ثغرى كما هو الحال بالنسبة لدويلات الحمدانيين وبنى مرداس وبنى عقيل فى أعالى الشام والجزيرة الفراتية. لكن غالبية العنصر العربى ما لبثت أن عادت إلى حالة البداوة الأولى فاشتغلوا بالرعى والزراعة، كما اشتغلوا بالارتزاق العسكرى وأحيانا بقطع الطرق. ولطالما أثاروا العراقيل فى وجه الدول الأعجمية التى تصدرت الحكم والنفوذ والسلطان. وفى كل الأحوال كان ابتعاد العرب عن الحكم والسياسة واختلاطهم بالشعوب الأخرى ذا أثر فعال فى إتمام عملية التعريب الإثنى واللغوى. ولم نعدم دورا ثقافيا لبعض العناصر العربية التى برزت فى النشاط الثقافى والفكرى من أمثال الخليل بن أحمد والكندى الفيلسوف[1].

أما الفرس فأمة متحضرة بشهادة صاعد الأندلسى الذى اعتبرهم فى كتابه «طبقات الأمم» معدن العلم وموئل النظم قبل الإسلام وبعده. وحسبنا أنهم أقاموا امبراطورية عالمية قبل الإسلام كانت تدين بالمانوية والزرادشتية. وبعد فتح بلادهم أقبل معظمهم على اعتناق الإسلام فعرفوا باسم «الموالى» شأنهم شأن غيرهم ممن اعتنقوا الإسلام من غير العرب. أما من بقى منهم على عقيدته الأولى فقد كفل لهم الإسلام حق «الرعوية والمواطنة» وأتاح لهم الإسهام فى بناء صرح الحضارة العربية الإسلامية. وحسبنا أن ابن خلدون يذكر فى مقدمته أن «العجم هم حملة

---

1 ـ د. محمود إسماعيل ـ تاريخ الحضارة العربية الإسلامية ص125.

العلم فى الإسلام». وبالرغم من سياسة التفرقة العنصرية التى اتبعها الأمويون المتعصبون للعنصر العربى؛ فقد اعتمدوا على الفرس فى الشؤون الإدارية والمالية فضلا عن أعمال الجيش كبناء الحصون والقلاع وتأسيس المدن العسكرية. . إلخ. وقد أقبل الفرس فى العصر الأموى على اعتناق مذهب الشيعة وأسهموا بدور كبير فى ثورات وحركات المعارضة. كما كانوا جند الدعوة والثورة العباسية وبفضلهم وصل العباسيون إلى الخلافة عام 132هـ الموافق 749م. أما الأتراك؛ فكانوا قبائل بدوية رعوية تسكن سهوب آسيا الوسطى المعروفة باسم بلاد ما وراء النهر. وقد فتحت بلادهم فى العصر الأموى بفضل حملات قتيبة بن مسلم والمهلب بن أبى صفرة. لكنهم ما لبثوا أن ارتدوا عن الإسلام فى الغالب الأعم. ومن بقى منهم على الإسلام اشترك فى حركات المعارضة ضد الأمويين خاصة فى ثورات المرجئة.

الأمازيغ البربر من العرب العاربة القرطاجيين:

يقول المؤرخ الفرنسى «بييروسيه P. Rossi»: إن الموجات البشرية الخارجة من الجزيرة العربية هى التى عمرت الشمال الإفريقى وحوض المتوسط بشماله وجنوبه وذلك منذ بدء المرحلة الدافئة الثالثة، ويقول إن قرطاج لم تجلب سوى الخير للبربر، فقد علمتهم غرس الأشجار المثمرة وربتهم روحيا ودينيا، ومن الغريب أن هذا التأثير تعمق أكثر بعد تدمير قرطاج. لقد دمرت روما أسوار قرطاج لكنها فشلت فى تدمير تأثيرها فى نفوس البربر بل إنه كلما تأسس احتلال روما للمغرب كلما انتشرت وتعمقت فى نفوس البربر لغة قرطاج وعقائدها وهل يختلف الوضع الآن عنه آنذاك؟». لنلاحظ مغزى هذا السؤال الذى طرحه المؤرخ الفرنسى إنه يقول: إنه كلما تغلغل الاستعمار المسيحى الرومانى فى الأرض المغربية ازداد المغاربة تشبثا بالعربية والإسلام، وإنه يقول إن التاريخ يعيد نفسه وأنه يؤكد الأصل العربى للبربر من الحفريات والكتابات الأثرية التى اكتشفها علماء الآثار الفرنسيون والأوروبيون. ويقول مؤرخ فرنسى آخر هو «سانتاس P. cintas» يقول غوتييه إن

أوغستين عندما كان يسأل هؤلاء البربر فى دروسه الواعظة ماهو أصلكم؟ كانوا يجيبونه: نحن كنعانيون. ومعنى ذلك أن اللغة البونيقية (الفينيقية) كانت قبل الفتح الإسلامى تقوم بنفس الوظيفة التى صارت تقوم بها اللغة العربية بعد الفتح الإسلامى وأن دخول العربية جاء ليخلف البونيقية بأسلوب تطورى طبيعى من لغة عربية قديمة إلى لغة عربية حديثة طورت على يد الإسلام[1].

تشير جميع الدلائل أن البربر عرب فى أصولهم وأن اللغة البربرية لهجة من لهجات العربية القديمة وكل المتخصصين فى الدراسات أثبتوا أن البربرية واحدة من اللغات العربية القديمة، وكل المكتشفات الأثرية المتعلقة بالنقوش والكتابات القديمة تبين أن البربر أقرب إلى «الحميريين» وأن هجرات عديدة تمت من الجزيرة العربية وبالتحديد من اليمن فى زمن لايقل عن ثلاثين قرنا ق.م. وأن الفينيقيين اختلطوا بالبربر على طول السواحل فى المغرب العربى فى القرن الثانى عشر قبل الميلاد. ولما كان البونيقيون عربا من بنى كنعان فقد اختلطوا بالبربر الذين هم عرب من العاربة القحطانية، ويؤكد المؤرخون أن مدينة «سوسة» بتونس بناها العرب القادمون من جنوب الجزيرة العربية قبل أربعة آلاف سنة وأعطوها اسم «حضرموت»[2]، وهى بلدة حضرموت التى جاءوا منها، وكما نجد إلى يومنا هذا لدى قبائل «ظفار» و«مهرة» وهى قبائل حضرمية فى اليمن وعمان تتحدث لهجة عربية قديمة ولكنها لاتكتب وهى قريبة جداً لنفس اللهجة البربرية إضافة إلى أسماء القرى والمناطق وكذلك لونهم وبشرتهم وشكلهم البيولوجى قريبا جداً إن لم يكن نفس ماهو لدى البربر ويمكن لأى زائر أن يشاهد هذا التقارب مما يؤكد بأن عرب حضرموت من اليمن قد هاجروا إلى المغرب العربى وحنينهم إلى وطنهم دفعهم إلى تسمية مدينة «حضرموت» فى سوسة نسبة إلى البلد الذى جاءوا منها، حيث إن الفينيقيين فى لبنان قد سموا بنفس مدينة «صور» فى عمان الموجودة حاليًا مما يؤكد على

---

1 ـ عثمان سعدى ـ الأمازيغ البربر عرب عاربة ص22.

2 ـ عثمان سعدى ـ نفس المرجع ص23.

الهجرات العربية القديمة من اليمن إلى العراق والشام ومصر والمغرب العربى الذى هو امتداد طبيعى لجغرافية الطبيعة مثلما كانت أوروبا امتداداً طبيعيًا لهجرات المجموعة الهندوأوروبية.

يقول محمد كاتى وهو من مدينة «تنبكتو» بمالى فى كتابه «طارق الفتاش» الذى ترجم إلى الفرنسية فى باريس عام 1913 إن القبائل الساكنة على ضفاف نهر «النيجر» حتى المحيط الأطلسى جاءوا من اليمن والذى يؤكد ارتباط البربرية بالحميرية أن وزن «أفعول» الذى تشتهر به البربرية هو وزن «حميرى» اشتهرت به هذه اللغة. ويلخص الكاتب الفرنسى فلوريا التطابق الكامل بين العرب والبربر فيما يلى: «أصل مشترك لغة واحدة عواطف واحدة، كل شيء يساهم فى ربطهما ربطا متينا». أما عن تسمية البربر فالنقوش الأثرية المكتشفة تشير إلى أن كلمة بربر وجدت فى اليمن، فجزيرة «بربرة» تابعة لليمن فى مضيق باب المندب، كما وجد اسم قبيلة البر مكتوبًا بالخط الصفائى، ويقول محمد شفيق من المغرب الأقصى وهو متعصب للبربرية: «كتب المؤرخون العرب وجزموا بأن البربر من أصل يمانى من العرب العاربة، وتكمن فكرة التأكيد اليوم على القرابة القديمة بين الأمازيغيين واليمانيين فى ثلاث قرائن. **أولا**: أن عددا لابأس به من أسماء الأماكن على الطريق الذى يمتد بين المغرب الكبير واليمن لها صيغ أمازيغية واضحة منها فى صعيد مصر «أبنو» أسيوط» و«أيخيم» و«تيما» فى جبل حوران فى الشام و«تيما» فى شمال السعودية، و«تاركما» و«أتبار» و«تيمرايين» فى السودان، و«أكسوم» بأسمرا و«أكولا» و«أكوؤدات» (اكوؤضاد) فى أرتريا، وجزيرة أنتوفاش فى اليمن، **ثانيا**: لقد عثرت على عدد من الألفاظ العربية التى قال بشأنها صاحب لسان العرب، أنها حميرية أو يمانية وهى ألفاظ لها وجود فى الأمازيغية إما بمدلولها الحميرى أو بمدلول معاكس (الأضداد) **ثالثا**: بين حروف «التيفيناغ» القديمة ومنها «التوارقية» وبين حروف الحميريين (الأبجدية الحميرية ـ المسند) شبه ملحوظ» [1].

---

1 ـ عثمان سعدى ـ نفس المرجع ص24.

توجد أسماء باليمن متطابقة مع أسماء لقبائل بربرية كالأشلوح: اسم قرية وقبيلة باليمن، والشلوح تجمع كبير للقبائل البربرية بالمغرب الأقصى، والأكنوس عشيرة من بين مهاجر باليمن ومكناسة بالمغرب، ومما يؤكد عروبة البربر أن المغرب العربى لم يحكم بالدولتين الأموية والعباسية فقد انفصل منذ وفاة عمر بن عبدالعزيز وحكم البربر المسلمون أنفسهم بأنفسهم منذ ذلك التاريخ من خلال أكثر من عشر أسر بربرية حكمت المغرب العوبى حتى مجىء العثمانيين ولم يحدث أن قال حاكم واحد من هؤلاء إن المغرب بربرى وأن العربية لغة دخيلة ولابد من ترسيم البربرية بل عملوا كلهم على نشر العربية وتطويرها، بينما نجد الأتراك والفرس حكموا من الدولتين الأموية والعباسية أكثر من خمسة قرون وبمجرد سقوطهم عاد الفرس فرسًا بلغتهم والأتراك أتراكًا بلغتهم. وهل بقاء المغرب عربيا حتى الآن صدفة تاريخية؟ لايوجد ذلك فى التاريخ؟! كما يقول المؤرخ الفرنسى «غوتييه E.F.GATIER» يلاحظ أنه لايوجد كتاب واحد كُتب بالبربرية كما أنه لاتوجد كتابة حقيقية لها، بل لاتوجد لغة بربرية منظمة». أما عن الحروف التى تمتاز بها البربرية ولاتوجد بالعربية (لهجة قريش هى اللغة العربية الحالية) فإن الكثير منها موجود باللغة العربية اليمنية القديمة المفخمة التى توجد بالكتابة العربية اليمنية القديمة، فحرف X بخط المسند اليمنى هو هذه الزاى المفخمة، التى يقول عنها ابن منظور صاحب قاموس لسان العرب: «إنه حرف عربى قديم حذف من العربية الحديثة». ولازالت البربرية تحتفظ به، وهذا يدل على الأصل العربى للبربرية. كما أن الكاف المعطشة بالبربرية ليست غريبة عن العربية، فاختلاف نطق الكاف ليس غريبًا عن العربية التى تعتبر اللغة الوحيدة فى العالم التى ينطق فيها الكاف بعدة مخارج حروف وفقًا للهجات العربية كالكشكشة والشنشنة وغيرها. ويقول محمد شفيق «إن البربرية صورة مثبتة مجمدة من لغة قديمة تفرعت عنها اللغة العربية فى وقت ما وهذا يدعم وحدة اللغتين القديمة»[1].

---

1 ـ عثمان سعدى ـ نفس المرجع ص25.

ويقسم النسابة البربر إلى شعبين عظيمين، البرانس والبتر. والبرانس هم سكان المناطق الشمالية الساحلية؛ وهم أهل حضارة أطلق عليهم ابن خلدون اسم «أهل المدر». ومن أهم قبائلهم صنهاجة. أما البتر فهم بدو أطلق عليهم ابن خلدون «أهل الوبر». وتعد قبيلة زناتة أعظم قبائل البتر. والبربر أمة اشتهرت بعشق الحرية والفروسية. وهذا يفسر استماتتهم فى مواجهة الجيوش العربية فى العصر الأموى حتى إن ابن خلدون سماهم «الأمازيغ» أى المقاتلين الأشداء. وقد تم فتح بلاد المغرب على يد موسى بن نصير فى العقد الثامن من القرن الأول الهجرى. وإليهم يعزى الفضل فى فتح إسبانيا بقيادة طارق بن زياد. وقد استقرت قبائل من البربر فى إسبانيا ولعبت دورا موجها فى تأسيس إمارات إسلامية. واعتنق البربر مذهب مالك على صعيد الفقه، واتخذوه إيديولوجية ثورية ضد بنى أمية وبنى العباس. وقد نجحوا فى تأسيس عدة إمارات مستقلة مثل إمارة بورغواطة عام 127هـ الموافق 744م.

اهتم عبد الرحمن ابن خلدون بدراسة أجداد الطوارق من الصنهاجيين الذين ردهم إلى أصول عربية نزحت من جنوب الجزيرة العربية من حضرموت فى اليمن، ويؤكد ابن خلدون أن صنهاجة هم أجداد الطوارق الذين آثروا الصحراء على العمران وانتشروا فى أطراف الصحراء حتى وصلوا إلى إقليم السافانا جنوبا مثل مالى والنيجر، ويؤكد ابن خلدون بأن صنهاجة الذين نزحوا من جنوب الجزيرة العربية فى حضرموت من اليمن هم أجداد الطوارق وأن أحدا لم يعد يذكر شعب صنهاجة اليوم وإنما أصبح اسم الطوارق هو الاسم المقرون بالصحراء[1] ويقول ابن خلدون ما ذكره أكثر نسابة العرب من أن صنهاجة وكتامة تنتسبان إلى العرب ويقول إن نسّابة البربر يعتبرون أنفسهم أنهم من عرب «كلواتة» الذين ينتسبون إلى «حمير» و«هوارة» الذين ينتمون إلى قبيلة «الكندة» القوية من قبائل حضرموت فى اليمن[2].

---

1 ـ د. محمد السويدى ـ بدو الطوارق ـ ص73.

2 ـ إبراهيم بركات ـ المغرب عبر التاريخ ج1 ص20.

طبقات المجتمع الإسلامي: يدعو الإسلام إلى المساواة وعدم اتساع الهوة بين الطبقات؛ لكن الواقع التاريخي العياني شهد تجاوزات حالت في أغلب الأحيان دون تطبيق هذه المبادئ السامية، لذلك انقسم المجتمع إلى طبقات نتيجة الخلل في توزيع الثروة. وهنا يظهر دور الأساس الاقتصادي في تشكيل البناء الطبقي، وهو أمر يدحض مزاعم الدارسين الذين أخطأوا فهم مفهوم الطبقة حين ميزوا بين الطبقات على أساس العنصر، فزعموا بوجود طبقة العرب وطبقة الموالي. وبالمثل أخطأ من قسموا المجتمع الإسلامي إلى طبقات وفق معيار المهنة والحرفة؛ فقالوا بوجود طبقة «أهل السيف» وطبقة «أهل القلم».. إلخ. إلا أن بعض الجغرافيين القدامى كانوا أقرب إلى الحقيقة حين جعلوا الثروة معيارا في التمييز بين الطبقات. من هؤلاء ابن الفقيه الذي قال «ينقسم المجتمع إلى أربع طبقات: ملوك قدمهم الاستحقاق ووزراء فضلتهم الفطنة وعِلْية أنهضهم اليسار وأوساط ألحقهم بهم التأدب، أما الناس بعدهم فزبد وجفاء». نرجع أسباب صعوبة استقراء البناء الطبقي إلى عدة عوامل منها اتساع مجتمع دار الإسلام وتغير مجريات أحواله عبر تاريخ طويل؛ حيث تخلخل البناء الطبقي كثيرا ولم يتسم بالديمومة والثبات، ووقوع الدارسين المحدثين في أخطاء تتعلق برصد الأحوال الاقتصادية وعدم اتفاقهم على حقائق ثابتة توضح أنماط الإنتاج السائدة والأنماط الأخرى الهامشية. وحسبنا أن بعض الدارسين ذهبوا إلى سيادة النمط الإقطاعي في العالم الإسلامي، وآخرون قالوا بتواجد النمط الرأسمالي بينما قال فريق ثالث بسيادة نمط الإنتاج الخراجي، وتأسيسا على هذا الاختلاف في تحديد أنماط الإنتاج، اشتبه الدارسون في رصد الطبقات الاجتماعية وتبيان شرائحها رصدا دقيقا. الخلط بين الأيديولوچيا وبين الواقع المتطور. فلكون الإسلام يدعو إلى مجتمع الأخوة؛ ذهب بعض الدارسين الذين لم يخبروا حقيقة التاريخ الإسلامي إلى أن مجتمع «دار الإسلام» بلا طبقات. لم يكن هذا الخطأ إلا نتيجة عدم التمييز بين المثال والواقع، بين النظرية والتطبيق. والاستناد إلى نظريات مسبقة في تأويل البناء الطبقي تأويلا معتسفا لا تنهض حقيقة الأوضاع العيانية التاريخية على صحته.

لذلك نهجوا منهج الانتقاء والاختيار للدلالة على صحة فرضياتهم المسبقة. والافتقار فى الأدب التاريخى الوسيط إلى دراسات رائدة، فى هذا المجال. إذ عول القدامى - بوجه عام - على رصد مظاهر الحياة الاجتماعية دون تعليلها وتأويلها. وبالمثل نهج المؤرخون المحدثون نفس النهج حين جاروا القدماء ولم يفطنوا إلى العلم النظرى وأهميته فى فهم الوقائع والأحداث التاريخية. محاكاة بعض الدارسين العرب تفسيرات المستشرقين للتاريخ الإسلامى تفسيرات غيبية وتيولوجية وإثنية وعنصرية من أجل تضبيب هذا التاريخ انطلاقا من أهداف استعمارية فى الغالب الأعم[1].

رصد البناء الطبقى انطلاقا من فهم تلك المحاذير السابقة والإشارة فى هذا الصدد إلى عدة حقائق هى: عدم تحديد الهرم الطبقى فى العالم الإسلامى تحديدا قاطعا نظرا لعدم قيام ثورة رأسمالية من شأنها حسم قضية تداخل الإنتاج وتكوين مجتمع طبقى واضح. وتداخل البنية الطبقية؛ نظرا لتعايش أنماط الإنتاج وتداخلها؛ الأمر الذى أفضى إلى تعدد الشرائح داخل الطبقة الواحدة، فضلا عن تداخل الطبقات فى بعضها البعض. واختلاف الخريطة الطبقية باختلاف مراحل التطور التاريخى. فكثيرا ما حدثت الخلخلة فى الهرم الاجتماعى بحيث صعدت طبقات وهبطت أخرى وفق اختلاف المعطيات السياسية والاقتصادية. وتأسيسا على ذلك يمكن أن نميز فى دراسة البنية الطبقية بين مرحلتين أساسيتين: الأولى مرحلة الصحوات البورجوازية والأخرى مراحل السيادة الإقطاعية. وذلك كالآتى:

الطبقة العليا: تشمل شرائح شتى من الحكام والوزراء والأمراء. أى تحوى السلطة الحاكمة التى كانت فى الدولة الأموية من العرب ثم من العصبيات الحاكمة بعد تجزئة «دار الإسلام» إلى ولايات مستقلة وسلطنات مستبدة. وكانت هذه الشريحة يغلب عليها الاستنارة والإصلاح فى عصور ازدهار الحضارة العربية الإسلامية التى اصطلحنا على تسميتها بعصور الصحوة البورجوازية. ومن ثم

1 - د. محمود إسماعيل - المرجع السابق ص133.

أنجزت إنجازات طيبة على كافة الأصعدة السياسية والإدارية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية. فقد استعانت هذه الحكومات بذوى الرأى والعلم والكفاءة والتقوى وشجعت العلوم والفنون والآداب. أما فى عصور الإقطاعية فقد اتسمت حكوماتها بضيق الأفق وسطحية الاعتقاد الدينى والميل إلى الهوى، فضلا عن خشونة الطبع الناتجة عن البداوة. لذلك أفلست إداريا؛ حيث تمزقت وحدة العالم الإسلامى بسبب تنافسها على السلطان وحيازتها الأرض واحتكاراتها الصناعية والتجارية، هذا فضلا عن إسرافها فى فرض الجبايات والمغارم والمبالغة فى حياة اللهو والترف. كذا إحياؤها النزعات العنصرية والنعرات العرقية وإضرام نيران الطائفية المذهبية. كما عرفت بميلها إلى النصية فحاربت العقل لصالح النقل وأحلت الاتباع محل الإبداع.

ويمكن أن نضيف إلى هذه الطبقة شريحة «الأشراف» من آل البيت التى أغدق عليها الحكام فمنحوها الإقطاعات وأجروا عليها الرواتب شراءً لمسالمتها. ولا غرو فقد أسست «نقابات الأشراف» من الطالبيين والعباسيين الذين عرفوا بزى خاص وعمائم خضراء تمييزا لهم عن سائر المسلمين. كما كان لهم قضاؤهم الخاص الذى حيل بين نسائهم وبين الزواج من غير آل البيت حتى لا يمتهن النسب الشريف. أما الكتاب فيمثلون إحدى شرائح هذه الطبقة بفضل تقاضيهم الرواتب العالية وحيازتهم الضياع واحتكار منصب الكتابة الذى كان يورث فى أبنائهم. كما اشتغلوا بالتجارة عن طريق «الوكالة» وحازوا الأموال والجاه والشهرة. وبالمثل نعم قواد الجند بهذه الامتيازات وازداد نفوذهم فى عهود الحكام الضعاف. فقد تقاضوا الأعطيات الثابتة وأقطعوا الأرض فى عصور السلاطين العسكريين ونافسوا الكتاب على المناصب وسخروا الرعية للخدمة فى ضياعهم. كما اندرج «فقهاء الحكام» مع هذه الطبقة كذلك، إذ تولوا مناصب القضاء والإفتاء وتصدوا لتبرير السياسات الجائرة للحكام. كما تصدوا لحركات العوام ضد السلطة يرهبونهم باسم الدين. لذلك تقلبوا فى حياة الترف والبذخ فاقتنوا الأرض وحازوا الإنعامات

وغصت قصورهم بالجواري والغلمان. كما أسهموا في إذكاء الصراعات المذهبية والطائفية وحاربوا العلماء والفلاسفة وحجروا على الفكر الحر باسم النّصّية[1].

الطبقة الوسطى: تتكون من كبار التجار ورؤساء الحرف فضلا عن المستنيرين من الفقهاء والمشتغلين بالعلم والأدب، كذا من الجهابذة والصيارفة. وعلى أكتاف الطبقة الوسطى قامت الحضارة العربية الإسلامية. وقد تراكم رأس المال في أيدي أفراد هذه الطبقة التي كانت من وراء السياسات الإصلاحية للحكام المستنيرين. وإليهم يعزى الفضل في النهضة العلمية والرخاء الاقتصادي والتجانس الاجتماعي. لكن هذه الطبقة لم تقم بواجبها التاريخي في إنجاز تحول رأسمالي؛ وذلك لعدة أسباب: منها ارتباط مصالحها بمصالح الطبقة العليا الحاكمة، وفي ذلك يقول ابن خلدون «إن الدولة هي السوق الأعظم للتجارة». لذلك تخلت عن دورها في قيادة طبقة العوام وانحازت في غالب الأحيان للدولة. كما أن الكثير من أفراد هذه الطبقة كانوا من أهل الذمة؛ فلم يقدر لهم المنافسة على السلطة لمحاذير دينية. يضاف إلى ذلك اشتغال أفراد هذه الطبقة - غير المتجانسة - بحرف ترتبط في رواجها أو كسادها بمدى قوة الدولة أو ضعفها. فقد تعاظمت - على سبيل المثال - إبان سيطرة العالم الإسلامي على تجارة العبور الدولية، لذلك حق لبعض الدارسين القول بأن «البرجوازية الإسلامية كانت مهجنة وضعيفة وعاجزة عن الاضطلاع بدور تاريخي». ولذلك حمّلها ابن خلدون مسؤولية «خراب العمران» حين آثرت حياة الدعة والترف ولم تسخر رؤوس أموالها في مشروعات استثمارية بقدر ما وظفتها في اقتناء الأرض وبناء القصور تاركة أمور التجارة «للوكلاء والحشم». أما رؤساء الحرف فكانوا عاجزين عن إنجاز «ثورة صناعية» نظرا لتضييق الدولة عليهم واحتكارها الصناعات الهامة. فضلا عن إرهاقهم بالمغارم والمكوس وتعرضهم للبطش والمصادرة والنهب إبان عصور تسلط الإقطاع العسكري. لذلك انحصر دورهم في الدفاع عن مصالحهم الخاصة بتشكيل «ميليشيات» من الفتيان والعيارين والشطار لمواجهة إغارات العسكر.

---

1 - محمود إسماعيل - نفس المرجع ص136.

انخرط العلماء والأدباء المستنيرون فى أحزاب المعارضة وعولوا على إذكاء الوعى وتحريض العوام. وكثيرا ما قادوا حركاتهم التى كان العسكر يقمعونها فى قسوة وعنف. وقد أشار ابن خلدون إلى ذلك فى مقدمته بما يغنى عن البيان. لذلك انصرفت هذه الشريحة إما إلى حياة العلم والزهد أو إلى امتهان الحرف. لكنها فى كل الأحوال كانت من وراء النهضة الثقافية التى أفرزت الفكر العقلانى والعلم التجريبى والأدب الراقى والفن الإسلامى. أما المشتغلون بأمور المال من الصيارفة والجهابذة فكانوا فى الغالب الأعم من «أهل الذمة» الذين يؤثرون السلامة والعافية. لذلك لم يكن لهم أدنى دور يذكر على صعيد الحضارة العربية الإسلامية. ذلك أن نشاطهم اقتصر على جمع المال وإقراضه بالربا، حتى إن الحكام كانوا يقترضون منهم فى أوقات الشدة. وغالبا ما صادروا أموالهم ونهبوها خاصة إبَان عصور الإقطاع العسكرى. لذلك لم تقم الطبقة الوسطى بذات الدور الذى اضطلعت به البورجوازية الأوروبية فى إنجاز ثورة رأسمالية بعد القضاء على الإقطاعية. وهذا يفسر قول «كلود كاهن» بأن «العالم الإسلامى كان خلوا من بورجوازية طموحة وقادرة على إنجاز تحول تاريخى». وهو أمر سوف نعرض له فيما بعد بالتفصيل[1].

طبقة العامة: من الثابت أن هذه الطبقة هى التى قامت بعبء الإنتاج الزراعى والرعوى والصناعى والتجارى. ومع ذلك عزف المؤرخون عن التأريخ لها. فلم يرد لها ذكر فى الحوليات التاريخية اللهم إلا حين تنتشر الطواعين والمجاعات فتودى بمعظم أفرادها. كما تحامل عليها المؤرخون الرسميون؛ فنعتوا أفرادها بالسوقة والحرافيش والصعاليك وأهل المياه وما شابه من نعوت. لكننا ـ من حسن الحظ ـ نجد معلومات صافية عنهم فى كتب الأدب والرحلات التى تصف أحوالهم ومعاشهم وعاداتهم وتقاليدهم.. إلخ. وتمثل طبقة العامة معظم السكان فى «دار الإسلام». وهى تتكون من الأحرار والأرقاء. ومن أهم شرائح العامة، الفلاحون

1 ـ محمود إسماعيل ـ نفس المرجع ص138.

والحرفيون وصغار التجار والرعـاة. أما الفلاحون فيسكنون فى الريف حيث القرى والمراكز والنواحى المعروفة فى مصر والشام وإسبانيا باسم «الكور» وفى فارس باسم «الرساتيق». وقد حاز بعض الـفلاحين أنصبة محدودة من الأرض الزراعـية فعُدُّوا لذلك من صغار الملاك. أمـا السواد الأعظم منهم فكانوا «مؤاجرين» أى يتـقاضون أجرا عن قيمة عملهم. وقد تباينـت أحوالهم من عصر إلى آخر. فقد ساءت إبان العصر الأموى تلك التـى سادتها الإقطاعية. حيث أُثقلوا بالمغـارم وسخروا للعمل فى ضيـاع كبار المـلاك. وأُرهِق صغار الملاك بالجـبايات حتى اضـطروا إلى هجرة أراضيهـم والهرب إلى المدن. كما عـانوا من شظف العيش حتى كانـت المجاعات والأوبئة تحصدهم حصدا. لذلك قاموا بثـورات اجتماعية ذات طابع فلاحى. كما اشـتغلوا أحـيانا بقـطع الطرق واللصوصـية. وكـانوا يجندون فى سلك أحـزاب المعارضـة طمعا فى تحسـين أحوالهم. كما تشـكلت منهم جماعات «الصـعاليك» الذين كانوا ينهبون أموال الأثرياء ويوزعونها بينهم بالتـساوى. وكثيرا ما نجحوا فى إقامة كيانات معارضة للسلطة. وفيما يتعلق بالحرفيين؛ فكانوا يسكنون المدن حيث يمتـهنون الحرف التقليدية كـالحدادة والنجارة والبناء والجـزارة والحياكة ومـا شابه. ومنهم من عمل بمصانع الدولة وفابريقـات رؤساء الصناع. وقد تدهورت أحوالهم فى عـصور الإقطاعـية كـذلك؛ حـيث عانوا من البطالـة والغلاء ونهب العـسكر حوانيتـهم وأسواقهم. كمـا تعرضوا لمزيد من المكوس والجبايـات وأرهقوا بالمغارم والسخـرة فى بعض الأحيان؛ لذلك اندرجوا فى جـماعات «الفتـوة» التى ناصبت السلطة العداء. كما اندرجوا فى أحزاب المعارضة شأنهم شأن الفلاحين. وكثيرا ما قاموا بثـورات اجتماعيـة. وتنسحب نفس الظاهرة على صغار التـجار الذين كانوا أيضا حرفيين فى نفس الوقت كما هو حال الرعاة إزاء الفلاحين[1].

1 ـ د. محمود إسماعيل ـ نفس المرجع ص138.

إحـياء العـصبيـة القبليـة: عرفت الدولة الأمـوية بالانحراف عن الوجـهة الإسلامـية، أى وجهة المسـاواة بين الأجناس البشرية التى أوصى بهـا القرآن ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات ـ13] والنبى ﷺ (لافضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى). والواقع أن العصـبية العربية التى اتسمت بها سـياسة الدولة الأموية فى معظم عهودها، ترجع بداية ظهـورها إلى عهد معاوية بن أبى سفيـان نفسه، ففى الظروف التى أقام فيـها دولته باسم «الخلافة» الإسلامـية، لم يكن يؤمل أن تتوطد هذه الدولة فى أرض الإسـلام كلها، إذ كان الـصراع السيـاسى، فى الوقت الذى أعلن فيه الخلافـة لنفسه، قد بلغ من الحدة مبلغا ينذر بهـبوب العواصف فى وجه الدولة الناشئة هذه، ولـم يكن يعـتمد لمقاومة ما سيـواجه من هذه العواصف سوى أهل الشام، مسلمين وغير مـسلمين، وكانت الظواهر البادية على سطح الأحداث حينذاك تضع فى تصور معـاوية عدة احتمالات كان أبرزها احتـمال أن تبقى دولته محصورة فى مـعقلها الأول: بلاد الشام «كانت بلاد الشام يومـئذ تشمل سورية، فلسطين، لبنان». هذه الظروف التى أحاطت بنشوء دولة معاوية، اضطرته أن يقف على صعيدين يبدو أول الأمر أنهما متناقضان دون أن يكون بينهما تناقض فى واقع الأمر: صـعيـد التحالف الوطـيد مع السكان الأصليـين، ولاسيمـا على صعـيد التحالف الوطيد مع أقوى القبائل العربـية التى يقطن أبرز فروعها وأقواها وأكبرها فى بلاد الشام، وهى القبائل القحطانية المنتميـة إلى أحد القسمين الرئيسيين،اللذين يقسمان الشـعب العربى كله من حيث الأصل القديم: قسم القحطـانية أو الكلبية ذات المنشأ اليمنى (جنوب الجـزيرة العربية)، وقسم العدنانية أو القيـسية ذات المنشأ الحجـازى (شمال الجـزيرة). وقد كان عـرب بلاد الشام فى الأغلب من اليـمنيين الكلبيين فى عهود السيطرة البيزنطية على بلاد الشام. وحين حصل الفتح العربى، فى هذه المنطقة كان بين الفاتحين من ينتسبون إلى المنشـأين الكبيرين القبائل اليمانية والحجازية، وكانت دوافع الفتح المشتركة بينهم جمـيعا تحول دون ظهور العصبيات والنزعات القديمة[1].

---

1 ـ حسين مروة ـ المرجع السابق ج1 ص470.

أما معاوية، بحكم انتمائه الأموى القرشى، كان من المفترض أن يأخذ بالعصبية الحجازية، لأن قريشًا حجازية. ولكن الرجل كان سياسيا حاذقا، فلم تكن تعنيه عصبية ما إلا بقدر ما تساعده أو لا تساعده فى دعم سياسته وتحقيق مطامحه السياسية. لذلك كان يسيرا عليه جدا أن يتحالف مع الكلبيين اليمنيين ضد الحجازيين، ليتخذ من هذا التحالف قوة تضمن له تأييد مختلف القوى ذات الشأن فى بلاد الشام. وقد شاء أن يوطد تحالفه مع الكلبيين بزواجه منهم، فتزوج «ميمونة» الكلبية، ثم زوج ولده منها يزيد، بإحدى نسائهم كذلك. حينذاك كانت بوادر انتعاش العصبية القبلية قد ظهرت من جديد فى أعقاب انفجار الصراع السياسى منذ مقتل عثمان، وبتأثير ما كان عليه اليمنيون فى بلاد الشام من أحوال مادية هى خير من أحوال الحجازيين فى سائر أماكنهم، وما كان لهذا الفرق بين هؤلاء وأولئك من إثارة التحاسد والتباغض بين الفريقين. لقد جاء تحالف معاوية مع اليمنيين عاملا جديدا فى إثارة الحجازيين. وقد شمل هذا التحالف المسلمين والمسيحيين من اليمنيين فى بلاد الشام. ومن ذلك الحين برزت العصبيات القبلية بين هذين القسمين من العرب كظاهرة سياسية منظمة أكثر منها ظاهرة بدوية عفوية. وكان يرمى معاوية من ذلك أن يجعل من العنصر العربى دعامة أساسية لطموحه الشخصى وطموح الأرستقراطية الأموية فى أن تمتد دولته الناشئة إلى سائر الأمصار التى كان العرب قد وطدوا فيها وجودهم، وكان اليمنيون والحجازيون معا موجودين فى معظم هذه الأمصار. فقد رأى معاوية أن تحالفه مع اليمنيين فى بلاد الشام سيتيح له كسب هذا القسم من العرب فى كل بلد يقيمون فيه، وأنه كلما اشتد الصراع القبلى بين قسمى العرب هذين، ازداد اليمنيون فى كل مكان تماسكا فى نصرة الحاكم الذى أصبح حلفا لهم، وأصبحت دولته الناشئة جزءا مهما من قوتهم ضد خصومهم الحجازيين أينما كانوا[1].

---

1 ـ حسين مروة ـ نفس المرجع ج1 ص471.

تحقق لمعاوية مـا كان يطمح إليه، وأخذت الدولة الأمـوية التى كان له فضل تأسيـسها، تخرج من مـعقلها الأول (بلاد الشـام) وتتوسع لتصـبح بعد قليل هى وحدها دولة العرب إلى نحو قرن (89 سنة) من الزمن. وكان اليمنيون دائما السند القوى لهـذه الدولة بالفعل، حـتى كانوا العوامل الحـاسمة التى منعـت عنها خطر الزوال عند موت معاوية الثانى بن يزيد، أى الحـفيد المباشر لمعاوية الأول المؤسس. فقد تعرضت دولة بنى أمية حينذاك لأزمة كادت تقضى عليها لولا مساندة اليمنيين لها. وذلك حـين قام عـبدالله بن الزبيـر بطلب الخلافـة لنفسـه وتبعـه فريق من المسلمين فى الحـجاز والعراق وانتـصر له الحجـازيون، فنشبت معـركة طاحنة بين القبائل اليمنية والحجازية فى مرج راهط قرب دمشق، واستبسل اليمنيون فى الدفاع عن دولة بنى أمية دفاعًا عن مصالحهم، حـتى هزموا خصومهم الحجازيين وأعادوا لهذه الدولة قوتها. ولكن نتائج هذه المـعركة نقلت الدولة الأموية من أيدى الأسرة المؤسسة، أسـرة معاوية (آل أبى سفيان)، إلى أيدى الأسـرة الأموية الأخرى (بنى الحكم). فقد اعتلى عرش الخلافة الأموية فى دمشق بعد معركة مرج راهط مباشرة مروان بن الحكم، واستمر هذا الفرع الأمـوى على رأس الدولة حتى نهايتها، ولم يحكمها من آل معاوية سوى ثلاثة: معاوية المؤسس، ويزيد ابنه، ومعاوية بن يزيد حفيده[1].

النظام الاجتماعى فى الدولة الأموية:

ظهر لنا، إذن، أن معاوية الأول اعتمد القبائل العربية، كقاعدة لحكمه. فهل هذا يعنى أن النظام الاجتماعى للدولة الأموية قام على أساس قبلى؟. أى هل عاد معاوية بالنظام الاجتماعى إلى وراء، إلى النظام القبلى الذى رأيناه يتفكك حتى فى العصـر الجاهلى. إن إعادة التـاريخ إلى وراء غير ممكـنة موضوعـيا، فكيف تمكن إعادته بإرادة ذاتية؟. لكن، حتى الإرادة الذاتية لم تكن موجودة عند معاوية. فهو مؤسس دولة. وهذا بذاته وضع متقدم تاريخـيا بالنسبة للوضع القبلى. ثم إن هذه الدولة نفسها التى أسسها كانت تحققا لضرورة تاريخية بعد نشوء التمايز الطبقى فى

1 ـ حسين مروة ـ نفس المرجع ص472.

مجتمعها ذاك. وهذه الضرورة هى ما يلازم تكون الدولة من صفة الاستقرار وصفة التراكم اللتين هما فى علاقة جدلية مع التطور الاجتماعى. وقد كانت شروط هذه الضرورة متوفرة فى بلاد الشام حين فتحها العرب. وفى الوقت الذى كان فيه معاوية حاكما على هذه البلاد، كان قد مر زمن طويل على المنطقة منذ أخذ الاقتصاد الطبيعى فيها يتفكك ويتفسخ، وأخذت تحل محله روابط اقتصادية جديدة لا فى بلاد الشام وحسب، بل فى بلاد ما بين النهرين وغيرها من أنحاء هذه المنطقة فى الشرق، وكانت قد نشأت فيها جميعا مراكز لاستقطاب عمليات التبادل المحلية أول الأمر، ثم المنطقية بتوسع متدرج. أى أن التطور التاريخى كان حينذاك قد قطع شوطا طويلا إلى نشوء نظام اجتماعى اقتصادى يتجاوز طابع الاقتصاد الطبيعى.

وفى عهد معاوية، أميرا ثم حاكمًا للدولة، كانت السمة البارزة لهذا النظام فى المنطقة كلها امتدادا من العهود البيزنطية والساسانية، هى السمة الاقطاعية المتحصنة بطابعها العسكرى. وقد رأينا فى كلامنا السابق على عهد الخليفة الراشدى عثمان كيف تحول الحكام الأمويون الذين عينهم على الأمصار إلى مالكين للأرض بسرعة، بل تجاوزوا حدود موقفهم، كحكام وفدوا إلى هذه الأمصار لا بصفة كونهم فاتحين وحسب، بل حاملين إلى سكانها دعوة جديدة تغريهم بأنها دعوة تناهض ظلم الحكام السابقين. ورأينا كيف أدى تجاوزهم هذا الموقف إلى ثورة اجتماعية أدت إلى مصرع الخليفة نفسه. والواقع أن موقف هؤلاء الحكام العرب لم يكن موقفا ذاتيا فرديا، بل - إضافة إلى الموقف الاجتماعى الطبقى - كان فى المسألة واضع موضوعى كذلك. نقصد أن الشكل التاريخى الخاص للعلاقات العسكرية الذى نشأ فى بلاد الشام، كما نشأ فى بلاد ما بين النهرين، قبل الفتح العربى - الإسلامى، كان هو السمة الغالبة للنظام الاجتماعى القائم فى هذه البلاد. فلم يكن ممكنا إذن إلا أن يحدث هذا الشكل التاريخى أثره، بصورة موضوعية، فى تكييف نظام الحكم العربى بعد الفتح وبعد الاستقرار الذى عرفته

بلاد الشام أثناء إمارة معاوية ثم مملكته. ثم كانت المصلحة الطبقية للحكام الأمويين أن يستفيدوا إلى أقصى الحدود من النظـام الذى وجدوا له جذوره النامية وعلاقاته الإنتاجية الغالبة، وأن يندفعوا إلى تعميـق أسس هذا النظام وترسيخها أكثر فأكثر. أما المصلحة الطـبقية هذه فقـد تكونت من أن معاوية وأسرته أصـبح فى حيازتهم أراض واسعة كـانت قبل الفتح العربى ـ ملكا لامبـراطور بيزنطة وأرستقراطيـتها، وكان من المفترض ـ حسب نظام الأراضى فى الإسلام ـ أن تكون ملكا عاما للدولة الإسلامية، ولكنها تحولت، تحت سلطة معاوية وأقربائه وبطانته، إلى ملكية خاصة استخدم الخبراء السوريين فى تنظيـم زراعها وريها، حتى أصبح هو وأخص أقربائه وبطانته من أكبر المُلاّك العقاريين وتألفت منهم الأرستقراطية شبه الإقطاعية الجديدة بعد الفتح، فى حين كان العرب الآخرون مشغولين بأعمال الفتح فى مناطق بعيدة أو مرابـطين فى المعسكرات لحـماية الدولة من الانـتفاضـات أو لمحاربـة الأحزاب المناوئة للأمويـين فى العراق وغيـرها. من هنا تكونت لدى العرب وقـتئذ تقـاليد فرضتها عليهم ظـروف الفتح وظروف الصراع السياسى «الداخلى» هذه، ومن هذه التقاليد مثلا: احتقارهم للأعمال الزراعية والحرفية التى أوجبت تلك الظروف كلها أن يختص بها العبيد والسكان الأصليون. ونشـأت بتأثير هذه التقاليد ـ إضافة إلى بقايا التقاليد القبلية ـ نزعة التـعالى على غير العرب التى أخذت بها الدولة الأموية وظهرت، بتسميتها العناصر غير العربية بـ «الموالى»[1].

كـان يعنى هذا التـميـيـز، إذن، أن كل من ليس عـربيـا فى ظلال الدولة الأموية، يطلق عليه وصف «موالى». وقد كان هذا النوع من التمييز أحد العوامل التى قوضت دولة الأمويين قبل أن تكمل من عمرها قرنا زمنيا. والواقع أن معاوية مؤسس هذه الدولة لم يـكن يريد أن يجعل هذه المسألة، مـسألة التمـييز، قـاعدة أساسية لـلحكم الأموى حين ساعد فى أوائل عهـده على إحياء العصبيـة القبلية، وإنما كان يستـوحى فى ذلك الحين مصلحة مـؤقتة دعتـه أن يستفيد مـن التخاصم

1 ـ حسين مروة ـ المرجع السابق ص473.

اليمنى ـ الحجازى لتوطيد عرشه حين هو لايزال مهددا بهزات عنيفة بعد تغيير وجهة الخلافة عن مواقعها الراشدية. غير أن الحكام الأمويين الذين جلسوا بعده على هذا العرش قد أفرطوا فى إبراز العصبية العربية اليمنية والحجازية حتى أثاروا نقمة الفئات غير العربية من مواطنى دولتهم كما أثاروا فيها نزعة التعصب المضاد، وهذه النزعة نفسها هى التى كانت منشأ تلك الحركة التى ظهرت فى أواخر عهد الدولة الأموية واستمرت تتبلور فى عهد الدولة العباسية إلى أن أصبحت حركة معادية للشعب العربى ذاته، ولتاريخه وثقافته، بحيث دفعها العداء لكل ماهو عربى أن تخلق تيارا فكريا يحمل راية التشنيع بكل ما فى تاريخ العرب من أدب وفكر وقيم وتقاليد. نعنى بها حركة «الشعوبية» المعروفة. وينبغى أن نذكر بصدد النظام الاجتماعى فى العهد الأموى ما فعله معاوية فى أيام خلافته من تطوير عملى ملموس لمفهوم «الدولة» العربية الناشئة مكنها أن تصبح ظاهرة حضارية فى تاريخ العرب. فقد أسس لها «الدواوين» المختلفة التى نهضت بدور أولى لما يسمى فى عصرنا بالدوائر الحكومية أو الوزارات، كدواوين الضرائب والمكوس والحسابات وديوان الرسائل وديوان القضاء إلخ. غير أن سجلات بعض الدواوين هذه كانت تستخدم اللغات المحلية أول الأمر، كاللغة الفارسية فى إيران والعراق، واليونانية فى سورية، والقبطية فى مصر. وكذلك النقد المتداول بقى كما كان قبل الفتح العربى إلى عهد عبدالملك بن مروان والوليد بن عبدالملك، اللذين أحدثا إصلاحات مهمة فى تنظيم الدولة كإنشاء نقد خاص بها، وتوحيد نظم إدارة الدولة ومسح الأراضى وتسجيلها باللغة العربية، وإحلال هذه اللغة فى سائر أعمال الدولة ودواوينها محل اللغات المحلية السابقة. وقد ظهر الوجه الطبقى لمعنى الدولة فى عدة مظاهر، عدا السمة العامة للنظام الاجتماعى، التى قلنا إنها السمة شبه الإقطاعية. ومن هذه المظاهر: اعتماد الحكم الأموى ـ ولاسيما حكم معاوية ـ إبقاء الطبقة المسيطرة المحلية على سلطاتها السابقة، ومنها سلطة المحاكم وسلطة الشرطة. وحين عربت مؤسسات الدولة فى عهود الخلفاء المروانيين انتقلت هذه

السلطات إلى أيدى الفئـات المقربة من الطبقـة الحاكمة، أى أن الوجـه الطبقى ظل محتفظا بطابعـه وإن تغير الشكل. وهذا أمر طبيعى بالنسـبة للطابع الطبقى للدولة ذاتها.

حـاول بنو أمـيـة فى أوائل حكمـهم أن يقـدموا لـلسكان الأصليـين بعض المكاسب الجديدة، حين عدلوا فى إيران مثلا ما كان يعانيه أهلها فى نظامهم القديم من التفاوت الكبـير فى الحقوق والواجبات بين الفـئات العليا والفئات الاجتـماعية الدنيا، وحـين خففوا الـضرائب عن الأقباط والسـريان فى مصر وسـورية وجعلوا دخولهم الإسلام أمـرا اختياريا دون ضغط. غيـر أن كثيرا من العوامل الموضـوعية والذاتية قد غيرت من خطة الخلفاء الأمـويين هذه فى العقود الأخيرة من حكمهم، إذ استشرت عندهم أساليب معاملة الفئات الدنيا من السكان بالشدة والاعتباطية فى فرض الضرائب وفى جبـايتها معا، وبدلوا التشريع الذى اتـبع فى بداية عهد الفتح من إعفاء الذين يدخلون فى الإسلام من ضريبة «الجزية» والاكتفاء بأخذ الخراج ممن يملكون الأرض أو يسـتثـمرونهـا، فإذا بهم يتـقاضـون من أمثـال هؤلاء ضريـبة مزدوجة: «الجزية» و«الخـراج» كلتيهما. من هنا كثرت الانتـفاضات فى عدة بلدان على الحكم الأمـوى، كـمـا حدث فى آسـيـا الوسطى عـام 73 للهـجرة (728 للميلاد)، وفى الأعوام التى تلتـه من تمردات كادت تقضى لا على السلطة الأموية وحسب فى تلك المنطقة بل على الوجود العـربى من الأساس. ونذكر فى موضوع النظام الاجـتماعى هـنا ما حصل فـى العهد الأمـوى من تغيـر فى نظام الأراضى بالنسبـة للعرب الفاتحـين. فقد رأينا العرب فى بـداية الفتح، خلال عهـد الخلفاء الراشدين، ولاسيمـا عهد عمر، يعيشون فى عـزلة عن السكان الأصليين يلتزمون المدن ـ المعسكرات التى أنشأوها للجيـوش فى بادئ الأمر، ورأيناهم ـ لذلك ـ غير مشاركين فى عملية الإنتاج، وكـان عمر متشددا فى منعهم من تملك الأراضى فى البلدان المفتـوحة. ولكن، كل ذلك تغـير فى العهـد الأموى، إذ أبيح للجـاليات العربية الوافـدة مع جيوش الفتح أن تملك مـا تشاء من الأراضى فى هذه البلدان.

وطبعا لم يكن يستطيع التملك من هذه الجاليات سوى القادرين على التملك والاستثمار من ذوى الثراء أولا، ومن ذوى الانتماء العائلى أو الحزبى إلى الحكم الأموى ثانيا. وفى المصادر التاريخية العربية الكبرى، كمؤلفات الطبرى والبلاذرى واليعقوبى، ما يفيد أن الملكيات العقارية التى دخلت فى حوزة العائلات الأموية وأنصارها أصبحت من السعة ووفرة المحصول بحيث تركزت الثروات الكبرى فى أيدى طبقة عربية جديدة ومحدودة. وفى هذه المصادر التاريخية نفسها نرى طرق استثمار هذه الملكيات الكبيرة أصبحت من القسوة فى أواخر العهد الأموى على شغيلة الأرض من أهل البلاد ومن الأسرى العبيد بحيث كونت عائقا دون تطور القوى المنتجة؛ لما انتهت إليه حالة هؤلاء الشغيلة من سوء العيش وفتك الأمراض الوبائية. وهذا مما زاد فى ضعف الدولة الأموية أخيرا، أمام الانتفاضات العديدة أولا، من فئات السكان الناقمين لأسباب اجتماعية صرفة، وثانيا من الخصوم السياسيين والحزبيين لبنى أمية، وثالثا من العناصر غير العربية التى كانت تحتفظ بالحقد العميق على الأمويين لاعتمادهم سياسة التمييز بين العرب و«الموالى»[1].

وأما من ناحية طبيعة السياسات الاجتماعية والاقتصادية فى الدولة الراشدة فكانت تهدف لتحقيق القسط بين الناس كما علمنا القرآن: ﴿وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ [الشورى 15]، و﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد25]، ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾ [الأعراف 29]. ولذلك نلاحظ أن طبيعة السياسات فى تلك الفترة قد حققت بالفعل الكثير من العدل الاجتماعى والاقتصادى. على عكس ذلك كان الحال فى الدولة الأموية. فطبيعة السياسات الاجتماعية والاقتصادية كانت لا تتحرى العدل بل ولا حتى الشرعية خاصة إذا علمنا أن ولاتهم كانوا يظلمون الناس فى جباية الأموال بالوسائل غير المشروعة وبإرهاقهم بالضرائب الفادحة التى كانت تصب فى جيوبهم، وزادوا فى الخراج والجزية على حين كانت الزيادة تناقض العهد وفرضوا الضرائب على الأرض الخراب، وفرضوا هدايا على

1 ـ حسين مروة ـ نفس المرجع ص475.

الذميين وهذا كله يناقض الشريعة الإسلامية ويصطدم اصطداما مباشرا مع مقررات الشـريعة الإسـلاميـة فى العدل المطلق. ولايـختلف فى دراسـتنا من هذه الزاوية العباسيون الكسرويون عن الأمويين القيصريين بكثير[1].

التحالف بين العرب والبربر: وأعتقد أن السياسة التى طبقها العرب فى بلاد المغرب فى عـصر الولاة كانت تقـوم على أساس واضح ربما لم تجـد له نظيرا فى الولايات الأخرى. كان أساسها توطيد صلات الأخوة والتعاون الوطيد بين العرب وبين البـربر أهل البلاد إيمـانا من جانب العـرب بالنتائج التى تحـققت بعـد هذا التحالف التاريخى، فقد أنهى المقاومة البيزنطية وذلل العقبات أمام العرب وأخضع دولة القوط فى إسـبانيا. ولتـحقيق هذه السـياسة أطلق العـرب أيدى البربر الذين تعاونوا مـعهم فى أمور بلادهم يحكمون بأنفـسهم، فقد قـسم المغرب إلى خطط البربر واختصت كل قبـيلة بخطة تتصرف فيها وتؤدى مالها وتـكون مسئولة عنها، وهذا نظام يتـفق مع طبيـعة البلاد ونظـام أهلها الاجتـماعى، فلم تكن بـالمغرب وقتذاك مـزارع واسعة تتركهـا الحكومة فى يد أصحابها يزرعـونها ويؤدون الأموال عنها، إنما كانت مناطق اختصت كل قبيلة بالنفـوذ فيها. ومضى العرب فى سياسة التأليف بين العـرب والبربر إلى أبعد الحدود وتمت المساواة بيـن العرب والبربر فى الغنيـمة والفىء بل تسـاوى الطرفان فى الحـقوق والواجـبات. وقـد أرضت هذه السياسة غرائز هذا الشعب المحارب القوى الأنوف، واستـهداء بهذه السياسة اعتبر العرب أرض المغـرب مفـتوحة صلحـا لا عنوة فأقـروا البربر على مـا بيدهم من الأرض، وتركوا هذه الأرض فى يد أصـحابها يؤدون عنها المال للدولة، واعـتبروا البربر أحـرارا فى بلادهم. وقد كان هذا التحـالف الوثيق هو الذى مكن الأمويين من أن يدبروا أمور المغرب حتى أواخر العهد الأمـوى فلما حاولوا أن ينتقصوا من هذه السياسة أو يغـيروا منها انبعثت الثورات فى المغـرب دفاعا عن الحق المكتسب واتخذت هذه الثـورة مبادئ الخوارج مـتنفسا لها. وسـيظل المغرب ثائرا على هذا

---

1 ـ د. عبدالله فهد النفيسى ـ المرجع السابق ص18.

النحو حتى ظهور الإمارة الإسلامية المستقلة فى المغرب. ويبدو أن العرب لم يمنحوا كل أهل المغرب هذه الحقوق الواسعة، إنما منحوها لمن تعاون معهم، وتركوا الباب مفتوحا أمام من يريد تأييد الحكم الإسلامى والظفر بنفس هذه الحقوق. وقد أدى ذلك إلى دخول أغلب القبائل المغربية فى طاعة العرب، لكن الروم والأفارقة كانوا قد نعموا بحرية العقيدة وفقا للتقاليد الإسلامية المرعية وتركت كنيسة المغرب لتصارع التيار الإسلامى الدافق فإن العرب لم يعتبروهم مساوين للبربر فى الحقوق والواجبات بل اعتبروهم موالى للعرب واعتبروا أرضهم مفتوحة عنوة فاستحلوها واعتبروا أهلها كما قلت موالى لهم. ولعل السبب فى ذلك هذه المقاومة العنيفة التى لقيها العرب من عناصر الروم والأفارقة المنتشرة فى المدن الساحلية. وقد حاول هؤلاء الثورة على الأمويين فتم إخضاعهم والقضاء عليهم[1].

تمصير إسبانيا: لدراسة هذه الناحية العامة يجب أن تعرف أن الحكم فى الإسلام ليس غاية إنما هو وسيلة لتحقيق أهداف معينة.. وسيلة لنشر الإسلام وتطبيق المثل الإسلامية، وعصر الولاة دائما هو ميدان هذه التجربة الهامة فى الحياة الإسلامية، تجربة تطبيق المبادئ السياسية والاقتصادية والاجتماعية. ويتوقف بقاء الإسلام ونجاح الدعوة على سلوك هؤلاء الولاة ومطابقتهم ما بين المثالية والواقعية وكسب رضا الشعوب التى رضخت للحكم العربى ودخلت فى طاعة المسلمين. وتسمى هذه السياسة الإسلامية عادة باسم سياسة التمصير. وتمصير إسبانيا إذن معناه تحويله إلى مصر إسلامى يستهدى تعاليم الإسلام فى حياته وتقاليده ونظمه. وسياسة التمصير تقوم على أسس واضحة: أن يعامل الداخلون فى الإسلام معاملة قوامها الإخاء والمساواة والحرية وأن يأخذوا نصيبهم الطبيعى فى حكم البلاد والاشتراك فى الحياة السياسية. معاملة خاصة لأهل الذمة الذين دانوا للإسلام بالطاعة وارتبطوا بالحكم العربى باتفاقيات ومعاهدات تنظيم الجزية التى هى مقابل اضطلاع المسلمين بالدفاع عنهم وإبقائهم على أوضاعهم القديمة وتحفظ عليهم

---

1 ـ د. حسن احمد محمود ـ المرجع السابق ص73.

دينهم وتصون حرمة أموالهم وتمنحهم قدرا كبيرا من الحريات المدنية والاجتماعية. وتطبيق مبادئ اقتصادية معينة نابعة من تعاليم الإسلام كنظرية الإسلام فى ملكية الأرض والتنظيم الإسلامى للخراج والعطاء والضرائب الأخرى ووجوه الإنفاق. وقد تتضمن هذه السياسة تنظيما إداريا معينا ومعاملة خاصة للولاة وتنظيمها للقضاء والجيش والإبقاء على بعض التنظيمات الإدارية. وقد ظهرت هذه التقاليد الإسلامية فى الحكم منذ فجر الدعوة إلى خارج بلاد العرب بعد تكوين الدولة العالمية الإسلامية فى عهد عمر بن الخطاب. يتبين هذا من دراسة السياسة الإسلامية فى مصر والشام والعراق وإيران، بل يستدل على هذه السياسة من المصادر المسيحية المعاصرة ومن أوراق البردى الإسلامية ومن المعاهدات أو عهود الصلح التى كتبها العرب مع المدن التى استسلمت لهم: مثل معاهدة مصر ومعاهدة بيت المقدس ومعاهدة الحيرة. ومعاهدة الإسكندرية، ونحن نريد أن نتأمل فى أخبار إسبانيا فى عصر الولاة هل طبق العرب فى البلاد نفس هذه المبادئ التى طبقت فى الأمصار الأخرى[1].

معاهدة الفتح: يذكر المؤرخون أن العرب أثناء الفتح ارتبطوا بكل ناحية من نواحى إسبانيا بمعاهدة خاصة، وأن هذه المعاهدات اختلفت فيما بينها فى الصياغة وفى بعض التفاصيل وإن كانت قد اتفقت فى الروح والأسس. ومن حسن الحظ أنه بين أيدينا الآن معاهدة عبدالعزيز بن موسى مع تدمير حاكم شرق الأندلس، وقد احتفظت المراجع بنص هذا الصلح. أورد الضبى نصه العربى، وأورد الرازى صورة إسبانية منه وترجمه ميخائيل الغزيرى إلى اللاتينية وأثبته فى فهرسه المعروف للمخطوطات العربية فى الأسكوريال. وهذه المعاهدة تتفق مع الروح الإسلامية التى تجلت فى معاهدات الصلح التى عقدت زمن الراشدين ولأهميتها نورد نصها فيما يلى: بسم الله الرحمن الرحيم من عبدالعزيز إلى تدمير - أنه نزل على الصلح وأن له عهد الله وذمته أن لاينزع منه ملكا ولا أحدا من النصارى عن أملاكه وأنهم

---

1 - د. حسن احمد محمود - نفس المرجع ص60.

لايقتلون ولايسبون أولادهم ولا نساءهم ولايكرهون على دينهم ولاتحترق كنائسهم ما تعبد ومانصح، وأن الذى اشترط عليه أنه صالح على سبع مدائن. وأنه لا يأوى لنا عدوا ولايخون لنا أمنا ولايكتم خبرا علمه وأن عليه وعلى أصحابه دينار كل سنة وأربعة أمداد قمح وأربعة أمداد شعير وأربعة أقساط خل وقسط عسل وقسط زيت وعلى العبد نصف ذلك. كتب فى رجب عام 94هـ الموافق 712م شهد على ذلك عثمان بن أبى عبدة القرشى وحبيب بن عبيدة الفهرى وعبدالله بن ميسرة الفهمى. وقد تضمنت المعاهدة المبادئ الآتية: (1) أن يحتفظ تدمير بسلطاته القديمة. (2) أن لايؤسر جنده ولايقتلون (3) أن لا يحال بين الأطفال وأمهاتهم. (4) أن تصان كنائسهم. (5) أن لايأووا عدوا. (6) أن يدفعوا الجزية والخراج. والواضح أن هذه المعاهدة لاتكاد تختلف فى روحها وفى ميدانها عن المعاهدات التى ألفناها فى الحكم العربى فى مصر وفى غيرها من البلاد. كما يبدو لنا من دراسة تاريخ الحكم الإسلامى فى إسبانيا فى عصر الولاة أن العرب مضوا إلى أبعد ما رسمته هذه المعاهدة فى تطبيق هذه السياسة وحسن معاملة أهل البلاد بنفس الروح التى عومل بها أهل مصر.

مظاهر الحياة الاجتماعية:

الغناء ما بين الرفض والقبول: لما كانت العربية أصلا لغة أهل البادية الذين لايجيدون الخط والتدوين، بل يعمدون إلى الحفظ والرواية لذلك وصفت بأنها مروية مسموعة أكثر منها لغة مدونة مرئية. ويتأكد ذلك باهتمام العرب قديمًا بالشعر الذى يسهل حفظه عن ظهر قلب، وكذلك الكلام المسجوع والمقفى، لما فيه من الوزن والإيقاع الهندسى الشكل الذى يجعله نظمًا رتيبًا، فلقد ترتب عليه أن أصبح الغناء من أول الفنون عند العرب. وبسبب هواية الشعر والولع بالسجع قيل فى الرجل العربى إنه يسمع الأشياء أكثر مما يراها. وعلى هذا الأساس فسر البعض عدم اهتمام العرب قديما بالفنون التشكيلية، من الرسم والنحت، من حيث إنهم فضلوا عليها الشعر والغناء والخط، وكلها فروع أو فنون (جمع فن) لشجرة اللغة

العربيـة الوارفة الظـلال، الزاهية الألوان. وبظهـور الإسلام وقف المتـشددون من المسلمين ضـد الغناء والموسيقى مـوقفًا مـعارضًا. وفى ذلك فـسروا بعض الآيات القرآنيـة على أساس أن الغناء باطل فى أصله، كـما رووا عن الرسول والصـحابة ورجال الدولة الأوائل أقوالا فى عدم الترحيب بالغناء واللهو (الموسيقى) لسبب أو لآخر. وفى مـقابل ذلك قـام المتسـاهلون، من أنصار الغناء، فـفسـروا عدداً من الأحكام بما يقرر مـبدأ الإباحة، كـما وضحـوا أن الغناء أصله الشعـر الذى أجازه النبى واستمع إليه. والذى يفهم من أدب شعر الغزل والغناء، أن الجدل بين أنصار الغناء وخـصومه كـان ينتهى بـرجحان كـفة الإباحـة، وانتصـار المؤيدين للغناء. والحقيقة أن الـذى كان يقرر مصير فن الغناء والموسيقى هو الجـمهور العريض من أهل السماع على طبقاتهم المختلفة، ممن وجدوا فى الصوت الحسن معينًا لهم على تحمل أعباء المعاش، ومعاناة أسبـاب الحياة. وهذا ماتنبه إليه النظريون من أصحاب الفكر والعـقل ممن عرفوا بـالتجربة، أن: «ليـس من أحد كائنًا مـن كان إلا وهو يطرب من صـوت نفسـه، ويعجـبه طـنين رأسه». كـما لاحظوا أيضـا أن «أهل الصناعات كلها إذا خافوا الملالة والفتور على أبدانهم ترنموا بالألحان فاستراحت لها أنفـسهم» (العـقد الفـريد، ج6 ص4). بسبب عـظم موقع الصوت الحـسن من القلب، وأخذه بمجامع النفس، قالوا عن صناعـة الغناء: إنها مراد السمع، ومرتع النفس، وربيع القلب، ومـجال الهـوى، ومسـلاة الكئيب، وأنس الوحـيد، وزاد الركب (العـقد، ج6 ص3). كمـا قالوا فى الغناء أيضًـا: إنه يرق الذهن، ويلين العـريكة، ويبـهج النفس ويسـرها، ويشـجع القلب، ويسـخى البـخيل (مـروج الذهب، ج4 ص222)[1].

قدّم بعض فلاسفة المسلمين فن الموسـيقى على كل الفنون، من حيث تحقيق الفوائد المعـنوية والعملية جـميـعًا. وهكذا قال الفـارابى: إن الغاية القـصوى من السمـاع ليست اللعب إذ إن الـلعب ليس يطلب لذاته وإنما لينال به بعض الأشـياء

1 ـ د. سعيد عاشور ـ د. سعد زغلول ـ المرجع السابق ص402.

الـتى توصل إلى السعادة، وعن هذا الطريق يمـكن أن يكون لأصناف اللعب، مثل الغناء والموسيـقى، مدخل فى الإنسانية (المـوسيقى الكبير، ص84 ـ 85). وعلى الجملة فقد أصبحت مـقالة أفلاطون التى تنص على أن المـوسيقى تغرس الفضائل فى النفوس مع الرياضة شعاراً يرفعه فلاسفة المسلمين (مرحبا، المرجع فى العلوم، ص176، عبدالجـليل، الموسيقى فى المغرب ص43). وفى مجـال المصالح النفعية نبهوا إلى أهمـية الغناء بـالنسبـة للحيوان أيـضًا. فالعرب عـرفوا أن الإبل تنتشى بالحداء فتـستريح إلى المسير وتجـد الخطو، كما عرفـوا أن البهائم تحن إلى الصوت الحسن وتعرف فضله، فالنحل: أطرب الحيوان إلى الغناء، والطير يمكن أن تستنزل أفراخها بـالصوت الحسن (العقد، ج6 ص5). وفى الأصوات يقول الفارابى: إن منها ما يكون بمثابة الأدوية للجسم، وإن منها ما هو بمنزلة السموم، مثل الأصوات المـهلكة أو المصمة. وعلى الجمـلة فإنه ليس أوقع فى القلب وآثر فى العقل وأصح للـبدن من الصوت الحسن، وخاصة إذا كـان من وجه حسن، بمعنى إضافة الجمال المرئى ـ الذى تـمثله الـفنون الـتشكيـلية ـ إلى الجـمال السـمعى ممثلا فـى الغناء والمـوسيـقى والألحـان (العـقد، ج6 ص6). ومن المـهم الإشـارة إلى أن الغـناء والموسيقى انتشرا فى مجالات كثيرة. فإلى جانب الغناء الفرحى كان هناك الشجنى والحزنى والعســكرى، وأخيراً الغناء الدينى حـيث دخل الغناء فى مدارس الصوفية مع شعر الحب الإلهى والوجد، بعد أن قرأ الناس القرآن الكريم بطريقة التلحين[1].

كان عــمر بن الخـطاب يـحرص كل الحـرص على أن يـلتـزم العـرب بعد الفتوحات حياتهم الأولى القـائمة على الخشونة والتقشف والزهد خشية أن تجرفهم حياة المدينة فى تـيارها، فقد ترتب على فتح الشام ومصر والعراق وفارس أن تمرد العرب على بداوتهم بتأثير البيئات الحضارية الجديدة ورغبتهم فى مجاراة أهل البلاد المفتوحة فى مذاهبهم وعاداتهم، فهموا بالخروج عن بداوتهم والاستمتاع بما أتت به

1 ـ د. سعيد عاشور ـ د. سعد زغلول ـ نفس المرجع ص403.

الحياة الحضارية من ألوان الترف المباح الذى لا يتعارض مع أصول الإسلام وتعاليمه، ولكن عمر بن الخطاب نهاهم عن ذلك لتمسكه بزهده وإلزامه الفاتحين الاحتفاظ بخشونتهم التى جعلت منهم محاربين ذوى بأس، بأن فرض عليهم الإقامة فى معسكرات خارج المدن يعيشون فيها على النمط البدوى. ويذكر ابن الأثير أنه لما قدم إلى الجابية كان أول من لقيه يزيد وأبو عبيدة ثم خالد على الخيول عليهم الديباج والحرير، فنزل وأخذ الحجارة ورماهم بها، وقال: «ما أسرع ما رجعتم عن رأيكم! إياى تستقبلون فى هذا الزى وإنما شبعتم مذ سنتين! وبالله لو فعلتم هذا على رأس المائتين لاستبدلت بكم غيركم». فقالوا: «يا أمير المؤمنين، إنها يلامقه، وإن علينا السلاح» قال: «فنعم إذن». على أن السياسة التقشفية التى التزمها عمر لم تلبث أن انتهت بانتهاء عصره، فلما استخلف عثمان لم يتشدد كما كان يفعل عمر، وإنما تساهل فى سياسته، فانطلق العرب إلى حياة الترف وحياة الدنيا، حرصوا على الاستمتاع بها فى الحدود المشروعة، وهنا تأنقوا فى مآكلهم ومشاربهم وملابسهم، واستبدلوا بدورهم القديمة الساذجة قصوراً منمقة الجدران موزونة الأبعاد. ثم تطورت الحياة الاجتماعية عند العرب فى العصر الأموى، «باتساع العيش والتفنن فى أحواله، فبلغوا الغاية فى ذلك وتطوروا بطور الحضارة والترف فى الأحوال، واستجادة المطاعم والمشارب والملابس والمبانى والأسلحة والفرش والآنية وسائر الماعون والخرثى، وكذلك أحوالهم فى أيام المباهاة والولائم وليالى الأعراس». ولقد أغرم العرب فى العصر الأموى بفنىّ الغناء والموسيقى بعد أن أثروا بسبب تدفق الأموال عليهم بعد الفتوحات، ولما كان الفراغ والجاه من مقومات حياة الترف فقد انصرفوا إلى سماع الغناء واقتناء الجوارى والقيان لملء فراغهم، وكان فن الغناء والموسيقى قد ارتقى فى هذا العصر عن طريق الأسرى الذين حملوا معهم من جملة ما حملوا موسيقاهم وفنونهم الغنائية، فكثر عدد الموالى المشتغلين بهذا الفن. ويعدد صاحب الأغانى أسماء ثلاثين مغنيا من الرجال وخمسين مغنية، وفى ذلك يقول ابن خلدون: «فلما جاءهم الترف وغلب عليهم الرفه بما حصل لهم من غنائم الأمم، صاروا إلى نضارة العيش ورقة الحاشية

واستحلاء الفراغ. وافترق المغنون من الفرس والروم، فوقعوا إلى الحجاز، وصاروا موالى للعرب، وغنوا جميعًا بالعيدان والطنابير والمعازف والزمامير، وسمع العرب تلحينهم للأصوات، ولحنوا عليها أشعارهم. وظهر بالمدينة نشيط الفارسى وطويس وسائب خاثر مولى عبدالله بن جعفر، فسمعوا شعر العرب ولحنوه وأجادوا فيه، وصار لهم ذكر. ثم أخذ عنهم معبد وطبقته وابن سريج وأنظاره»[1]

الشعر العربى وأولية الغناء فى الدولة الإسلامية، الحجى والرجز والحداء وتطورها: إن ما وصلتنا أخباره من الغناء العربى القديم كان بسيطًا ساذجًا يتفق مع بساطة البيئة العربية البدوية أصلا. هكذا قيل إن الحجى هو أقدم ما عرفه العرب من النثر المنظوم أو السجع، ومنه نشأت أقدم أوزان الشعر الشعبى وأسهلها، وهو الرجز. وكان الرجز أول ماتغنى به العرب على إيقاع مسيرة الجمل، بعيراً كان أم نجيبًا، أى بطيئًا كان أم سريعًا، وهو ما عرف بالحداء من بين فنون الغناء. وليس من الواضح إن كان الحداء، وهو اللون البدوى البسيط المرتبط بالسفر فى الصحراء، قد تغير عند القرشيين فى مكة حسبما عرف فى دار عبدالله ابن جدعان، بفضل مغنيتيه المعروفتين بالجرادتين أم لا. وذلك أنه إذا كان تشبيه المغنيتين المكيتين بجرادتى عاد يعنى التمسك بالتقاليد العربية القديمة، فإن من المعروف أن ابن جدعان كان ميالا إلى التمتع بمباهج الحياة على الطريقتين اليمنية والفارسية بخاصة، وهو ما يظهر فى اتخاذه الأطعمة الفارسية الرقيقة مثل الفالوذج الذى كان يصنعه له بعض مهرة الطباخين من الفرس. وبذلك اجتمعت فى دار ابن جدعان متعتا الطعام والغناء وتم التكامل بين لذتى الذوق والسمع عند المترفين من أهل مكة (تاريخ العرب قبل الإسلام للمؤلف، ص332، ص413).

وإلى جانب المناسبات المفرحة ارتبط الغناء العربى بالمناسبات الحزينة التى كانت تحيى بما يناسبها من الأقوال والألحان، مما كان يحدث فى الاحتفالات

---

1 ـ د. السيد عبدالعزيز سالم ـ المرجع السابق ص689.

الأليمة، من: الجنائز والنعى والرثاء، وهو ما عـرف بالنواح. وبذلك امتزج الفرح بالترح فى مـجال السـماع، وفى ذلك قيل: «لم تمتلئ دار قط فرحًا إلا امـتلأت حزنا» (البـيان والتبيـين للجاحظ، ج3 ص75). وعن هذا الطريق انقسم الطرب إلى شجن وحـزن. وفى ذلك قال يحيى البـرمكى: «الغناء ما أطربك فـأرقصك، وأبكاك فأشجاك» (مروج الذهب، ج4 ص223). ويؤيد ذلك ما قيل فى العود، وهو آلة الغناء بالامـتيـاز فى الإسلام، من أن أول من صنع العـود هو: لاتك بن قابيل، وأنه بكى به على ولده (العـقد الفريد، ج6 ص27). والمهم هو أن الغناء البسـيط الأول من الحجى والرجز والحداء تطور مع مـرور الوقت إلى طرز جديدة من الغناء، هى: النصب والسناد والهـزج (العقد، ج6 ص27). ولما كان النصب حسبما ينص قدامى الكتاب هو غناء الركبان والقينات، فإننا نفهم من ذلك أنه يعبر عن نوع الحداء القديم، البـسيط فى إيقاعه ونغمه. وأما الـهزج وهو الخفيف الذى يثير القلب ويهيج الحلم، فنرى أنـه طراز القيان الذى بدأت بغنائه الجرادتان فى دار ابن جدعان بمـكة، وأنه أول ما دخلت فيه الصنعـة من الغناء، وذلك أن طويسًا ـ تصغير طاووس، وهو معلم ابن سريج وغيره من أوائل المغنين فى صدر الإسلام ـ يوصف بأنه «أول من غنـى فى الإسلام»، ووُصف غـناؤه هذا بالغناء «الرقـيق»، وهو التعبـير القريب من مصطلح «الخفـيف» الذى يوصف به «الهزج». وبناء على ذلك يصبح السناد، وهو الثقـيل الترجيع الكثير النغمات بالنـسبة للنصب والهزج، بمثابة الغناء «المـتقن» المعروف بالمضـعف أى الكثير العـمل الذى يدخل فيـه الكلفة والصنعة. ومن الواضح أن نوع الثقـيل هذا لم يظهر إلا فى مرحلة متقـدمة، بعد ازدهار فن الغناء الإسلامى والموسيقى، ورقيهما درجات فى سلم التطور. وإذا كان ينسب إلى طويس أيضًا أنه رائد الغناء المتقن فى الحجـاز إلى جانب ابتداعه للهزج والرمل فالمقصود بالمتقن هو الحسن الصنعة بشكل عام، إذ من المتفق عليه أن تفوق طويس كان فى نوع الهـزج حتى ضرب به المثل، فقـيل: «أهزج من طويس». أما

عن الثقيل من الغناء فكان قصب السبق فيه لابن محرز الذى يوصف بأنه: «أحسن الناس غناء فى الثقيل» (الأغانى، ج4 ص219)[1].

العود والأثر الفارسى فى الغناء الحجازى: ما بين سائب خاثر وابن سريج:

ولقد كان الإتقان فى الغناء نتيجة طبيعية لاستخدام الآلات الموسيقية التى انتقلت من اللون الساذج إلى الطراز المركب. وكان الفضل الأول للعود الذى دخل إلى الحجاز عن طريق فارس، على أواخر أيام عثمان بن عفان حينما ظهر فى المدينة مغنيان من الفرس، هما: نشيط (الفارسى) وسائب خاثر، ويرجع الفضل فى اكتشافهما ـ كما نقول الآن ـ إلى عبدالله بن جعفر بن أبى طالب، ووالى الحجاز وقتئذ: عبدالله بن عامر الذى كانت لديه صنّاجات فى المدينة أخذ عنهن سائب خاثر. وفى سبيل تطوير الأغنية فى المدينة يرجع الفضل إلى سائب خاثر فى عمل العود الفارسى بمدينة الرسول، واتخاذه فى الإيقاع والغناء. وطار صيت سائب خاثر وكان عليه أن يلبى دعوة يزيد بن معاوية، ولى العهد فى دمشق، وأن يكتسب رضاء معاوية فلا يرى بمجالسته بأسًا. وهكذا قتل سائب خاثر يوم الحرة سنة 63هـ/ 683م (الأغانى، ج8 ص321، ص324)، بعد أن أرسى قواعد مدرسة الغناء الجديدة فى الحجاز بفضل من أخذ عنه من أعلام المغنين، مثل: ابن سريج المكى، وابن محرز وجميلة المدنية، ومعبد ومالك بن أبى السمح (الأغانى، ج1 ص251). والحقيقة أن ابن سريج، صاحب الشاعر عمر بن أبى ربيعة (ت حوالى 102هـ/ 719م)، يعتبر من رواد تلك المدرسة، ليس لغنائه فقط، بل بسبب مظهر المخنث العجيب الذى كان عليه، من حيث الملابس المصبغة، وجمة الشّعر المستعار، والقناع الذى يسلبه على وجهه. وإذا كان الدارج أن سائب خاثر هو أول من عمل العود الفارسى واتخذه فى الغناء بالمدينة، فإنه من المتعارف عليه أيضًا أن ابن سريج هو: «أول من ضرب بالعود الفارسى على الغناء العربى بمكة» وأنه كان أول من غنى الغناء المتقن بالحجاز بعد طويس (الأغانى، ج1 ص250،

1 ـ د. سعيد عاشور ـ د. سعد زغلول ـ المرجع السابق ص405.

ص245). وهكذا لايكون ابن سـريج تلميـذاً فى الغناء لسائب خـاثر المستـعرب الفـارسى فى المدينة، بل أستـاذاً للغناء العربى المـتطور فى مكة، لايقلل من ذلك تأثره بصناعة الغناء الفارسيـة فى المدينة. وهكذا قيل فى ابن سريج: «ما خلق الله تعالى بعد داود النبى (عليه السـلام) أحسن صوتًا من ابن سريج، ولا صاغ الله ـ عز وجل ـ أحداً أحذق منه بالغناء»، كما قال فيه إبراهيم الموصلى: «كأنه خلق من كل قلب، فهو يغنى لكل إنسان مايشتهى» (الأغانى، ج1 ص251)[1].

الغناء الحـزنى فى الحجـاز: ابن سريج والغـريض: ولقد زاد من شـهرة ابن سريج اتجاهه نحو الغناء الحزنى ممثلا فى النواح. وكانت كارثة الحرة بالمدينة فرصة لكى يمارس ابن سريج هذا اللـون الشجنى من الغناء. فلقد صعد إلى قـمة جبل أبى قبيس فى مكة، وناح بشـعر أصبح داخلا فى أغانيه، فاسـتحسن الناس ذلك منه، وكـان «أول ما ندب به» (الأغـانى، ج1ص254). المهم أن كارثة المدينة فى يوم الحرة والمناحة الكبرى التى أقيمت لها بمكة، بعد حوالى 3 (ثلاث) سنوات من مقـاتل العلويين فى كـربلاء، كانت مناسـبة أثارت الشـجن فى قلوب الطالبـيين فانتهزوها لإحياء ذكرى يومهم الحزين. فهذا ما نراه فيما قامت به (السيدة) سكينة بنت الحسين إذ بعثت إلى ابن سريج فى مكة «بشعر أمرته أن يصوغ فيه لحنًا» يناح به. ولقد أجاد ابن سريج فى هذا اللحن البكائى، فكان سـببًا فى تقدمه عند أهل الحرمين على جميع ناحة الحجاز (الأغانى، ج1ص255). وكان من نتيجة ذلك أن طلبت سكينة من ابن سريج أن يعلـم مملوكها عبدالملك الذى عـرف «بالغريض» ـ أى الطرى اللين ـ فن النياحة فـفعل. ولقد اشتهر الغريض بالنيـاحة إلى حد جعل ابن سريج يترك النوح ويـعدل عنه إلى الغناء، فلم ينح بعد ذلك حتى وفـاة حبابة جـارية يزيد بن عـبدالملك ثم يزيـد بعدها (عـام 105هـ/ 724م) (الأغانى، ج1 ص256). والمهم أن ابن سريج عندما ترك النوح للغـريض، مال هو إلى الخفيف من الغناء كالأرمـال وخاصة الأهزاج التى اسـتخفـها الناس، فأذاعت شـهرته فى

---

1 ـ د. سعيد عاشور ـ د. سعد زغلول ـ نفس المرجع ص407.

الآفاق. ورغم تلك الشهرة العريضة والمدة الطويلة التى عاشها ابن سريج مغنيًا فى مكة، فإنه لم يعرف له إلا 68 (ثمانية وستين) صوتًا أى لحنًا أو دوراً (الأغانى، جا ص268). ومن بين هذه الأصوات يعد النقاد، صوت: «تشكى الكميت الجرى لما جهدته» من الأصوات القلائل التى جمعت كل ألحان الغناء فلم تبق نغمة إلا فيها (الأغانى، جا ص276). وبفضل ابن سريج الذى طالت حياته الفنية إلى أكثر من نصف قرن حتى نهاية القرن الأول الهجرى صارت مكة منافسة للمدينة كمركز هام للغناء والموسيقى، وخاصة بعد أن ظهر فى المدينة أحد الموهوبين فى الغناء وهو معبد الذى طال عمره إلى ما بعد وفاة ابن سريج.

معبد: مؤسس الغناء فى المدينة: فبينما كان ابن سريج هو مغنى مكة، كان معبد بن وهب مغنى المدينة بلا منازع. وأوجه الشبه بين الرجلين أنهما من الموالى، كسائر المغنين، أما ما يفرق بينهما، فهو ما يفرق بين مكة والمدينة كمدرستى غناء لكل منهما تقاليدها الخاصة، وإن كانتا ابنتى إقليم واحد هو الحجاز. فلقد تميزت مدرسة الغناء المكية التى يمثلها ابن سريج، ومن أتى بعده، بأنها مدرسة قريشية تحافظ على التقاليد العربية فيما يتعلق بالمظهر من ألوان الثياب الزاهية واستعمال الخضاب مما عرفه الشعراء وأصحابهم من أهل الغناء كعمر بن أبى ربيعة وابن سريج (الأغانى، جا ص258)، بينما تميزت مدرسة المدينة - عاصمة الإسلام العالمية - بأنها عربية ذات طابع إسلامى مميز بفضل التأثير الفارسى الذى سبقت الإشارة إليه. ولقد ظهرت ميول معبد الفنية منذ شبابه المبكر عندما كان يرعى الغنم لمواليه، ويختلف إلى نشيط الفارسى وكذلك إلى سائب خاثر، ويجتهد فى الأخذ عنهما. ولم يلبث الراعى الموهوب أن اشتهر بالحذق وحسن الغناء وطيب الصوت مما جعل ابن سريج يعترف له ولأهل المدينة بالتفوق فى دنيا السماع (الأغانى، جا ص44). والظاهر أن معبداً بلغ الذروة فى الغناء بعد عام 80هـ/ 709م، أى على أواخر أيام ابن سريج، وذلك فى الوقت الذى كانت فتوح الإسلام فى شرق خراسان وبلاد ما وراء النهر على أشدها على يدى قتيبة

بن مسلم أيام الوليـد بن عبدالملك، فذلك مـا يفهم من «أصواته» (ألحانه) السبعة التى تعرف بمدائن مـعبد تشبـيهًا لها بالمدن السـبع التى فتحهـا قتيبـة فى المشرق. وهكذا شهد له إبراهيم الموصلى، فقـال: إنه «لم يكن فيمن غنى أحد أعلم بالغناء من مـعبد» (الأغـانى، ج1 ص39)، وهى شهـادة لمدرسة المدينة بطبـيعـة الحال. وبلغت شهرة معبد إلى حد أن دارت حوله القصص الشعبية التى تهدف إلى الرفع من شأنه فوق مستوى من نازعـوه سيادة الغناء، وفى ذلك قيل إن المكيين ـ وعلى رأسهم ابن سريج ـ انبهروا بغنائه عندما قدم إليهم، وأنهم قالوا له: «لأنت أحسن بأداء غنائنا منا» (الأغـانى، ج1 ص58 ـ 59). وفى تقـييم غناء مـعـبد قـيل إنه «مـتين»، وذلك فـى مقـابل غناء ابن سـريج الذى وصف بأنه «مـخنث لين» أى خفيف (الأغانى، ج1ص68). وتظهر طبقة معبد فى الغناء مما كان يوجهه له يزيد ابن عبدالملك (101 ـ 105هـ/ 719 ـ 724م) من عبارات الإطراء، مثل: «أحسنت والله يا مولاى، وأعد فـداك أبى وأمى» (الأغانى، ج1 ص68)[1]. وعندما توفى مـعـبـد فى دمـشق، وهو ضـيف على الولـيـد بن يزيد بن عـبـدالملك (125 ـ 126هـ/ 743 ـ 744م) قامت سّلامة القس، جارية يزيد برثائه فى شعر للأحوص ومن تلحينه هو نفـسه، مما كان قـد علمها إياه من أصـوات الندب (الأغانى، ج1 ص37). وبعد وفاة مـعبد استمرت المدرسـة المدنية غنية بأعلامها ونجـومها الذين تولوا حـمل راية الغناء الحـجازى إلـى أن تتسلمـهـا بغـداد أيام الرشيـد (170 ـ 193هـ/ 786 ـ 809م).

ابن محـرز: ثالث الرواد، واستلهـام الغناء الرومى: ويأتى بعـد معبـد وابن سريج المغنى ابن مـحرز الذى قد يجعله بعض النقـاد أول الرواد الثلاثة فى الغناء الإسلامى بفضل لحنه: «أهاج هواك المنزل المتقـادم؟» الذى قيل إنه يجمع كل نغمة لما فيه من الدور الكثير أى الصـنعة الثقيلة (الأغانى، ج1 ص8). والظاهر أنه كان لإقامتـه فى كل من الحرمين الشـريفين، الفضل فى تمكينه من الجـمع بين طريقتى الغناء الفارسى (المدنى) والعربى (المكى). وما هو أهم من ذلك أن ابن محرز انفرد

1 ـ د. سعيد عاشور ـ د. سعد زغلول ـ نفس المرجع ص409.

بأنه عندما سار إلى دمشق تعلم ألحان الروم أيضًا وأخذ غناءهم. وكان ذلك مما ساعده على تطوير الغناء الإسلامى، إذ أسقط ما لم يستحسن من ألحان الروم «ومزج بعضها، وألف منها الأغانى التى صنعها فى أشعار العرب، فأتى بما لم يسمع بمثله». وهكذا نسب إلى ابن محرز ابتكار لحن الرمل الذى نقل إلى الغناء الفارسى أيام الرشيد، وبذلك أصبح التأثير والتأثر متبادلا بين الغناء العربى ونظيره الفارسى (انظر الأغانى، ج1 ص378).

جميلة، وتأسيس أول مدرسة لتعليم الغناء فى المدينة: والحقيقة أنه إذا كان البعض قد شهد لمعبد - مغنى المدينة - بأنه لم يكن فيمن غنى أحد أعلم منه بالغناء، فقد شهد آخرون لجميلة، مولاة بنى سليم، ومغنية المدينة المعاصرة له، بأنها كانت «أعلم خلق الله بالغناء» (الأغانى، ج8 ص186)، فكأنهما على قدم المساواة. بل وهناك روايات منسوبة إلى معبد نفسه تنص على تفوق جميلة عليه، مثل: «أصل الغناء جميلة وفرعه نحن» (الأغانى ج8 ص186)، ولا بأس فى ذلك إذا عرفنا أنها تمثلت الغناء من سائب خاثر، جارهم (الأغانى، ج1 ص187). أما اللحن الذى أظهر أمرها، فهو ذلك الصوت الذى غنته فى شعر زهير، وهو: «نام الخلق فنوم العين تعذير». ومنذ ذلك الحين قصد الناس جميلة للسماع منها، مما جعلها تتحول إلى معلمة محترفة، تجلس لتعليم الجوارى، وتكسب لمولاتها من المال ما لم يخطر لهن على بال. فكان مجلس جميلة بمثابة أول مدرسة خاصة لتعليم الغناء بالأجر فى المدينة المنورة (انظر الأغانى، ج8 ص187). ومن بين من تعلم على يدى جميلة: سلامة القس، جارية يزيد بن عبدالملك، وحبابة، جارية يزيد أيضًا التى كانت تسمى «الغالية» (الأغانى، ج1 ص122)، إلى جانب كثيرات من القينات ممن لم يرتفع صيتهن إلى مستوى جاريتى يزيد. أما عمن أخذ عنها من الرجال فيذكر مالك بن أبى السمح الذى أدرك الدولة العباسية ومات فى خلافة المنصور (الأغانى، ج5 ص101). وهكذا كان لجميلة دور كبير فى حياة الغناء واللهو فى الحجار، كما كان لتلميذتيها الشهيرتين فى تاريخ الدولة الأموية،

دورهما النشيط أيضًا، وذلك عن طريق المسابقات الدورية بين كبار المعاصرين، وخاصة ما كان يقام منها كمباريات بين مدرستى مكة والمدينة.

ازدهار الغناء فى كل من الحرمين الشريفين: والحقيقة أنه من الأمور المستغربة أن يزدهر الغناء والموسيقى فى كل من الحرمين الشريفين، رغم ما كانت تلقاه الفنون بعامة من معارضة الكثيرين من المسلمين المتشددين الذى أرادوا الحفاظ لمجتمع المدنية ومكة ـ على الأقل ـ بنقائه الأول. ولاشك أن ذلك الازدهار كان وثيق الصلة بمرحلة التطور التى أخذت تعانى منها الجماعة الإسلامية على أيام عثمان بن عفان، حيث تدفقت الأموال والذخائر على دار الخلافة (مدينة الرسول) وكبار الصحابة، الذين انتابتهم الرغبة فى التمتع بمباهج الحياة، وهو الأمر الذى لم يغب عن فطنة المسعودى (مروج الذهب، ج2 ص241). وإذا كان مركز الحكم والخلافة قد انتقل إلى الشام مع قيام الدولة الأموية فإن الحرمين الشريفين ظلا ينعمان بنوع من التفوق المعنوى على بقية الأمصار بفضل الحج والزيارة، مما ترتب عليه نوع من الازدهار الاقتصادى الذى تمتع به أهل الحرمين. ولما كان هؤلاء قد حرموا من امتيازاتهم السياسية والإدارية فإنهم قد اتجهوا نحو التمتع بمباهج الحياة وخاصة فى مجالات الغناء والموسيقى والجوارى من القيان. وهكذا لم يكن من الأمور المستغربة أن يكون الموسم والزيارة فرصة يستعرض فيها المغنون مواهبهم أمام طوائف الحجاج، وأن يكون رعاة الفن من كبار أبناء المهاجرين والأمصار إلى جانب بعض مشاهير الشعراء.

الغناء فى موسم الحج: عمر بن أبى ربيعة، وابن سريج فى الموسم: مهرجان الألوان: ومن أشهر الشعراء الذين كان لهم دور فى تنشيط الغناء فى العصر الأموى عمر بن أبى ربيعة (ت حوالى 102هـ/ 719م) الذى عرف بأنه شاعر الغزل الذى لايمدح إلا النساء، وأنه موكل بالجمال يتبعه أينما كان (الأغانى، ج1 ص74). ولهذا لم يكن من الغريب أن يختار بعض شعره مما لحنه المغنى

والموسيقى ابن سريج ليكون واحداً من ثلاثة «أصوات» لا تبقى نغمة فى الغناء إلا وهى فيها. وهكذا يمكن القول إن الرجلين كونا ثنائيًا فنيًا فى الشعر والغناء، وإنهما كان لا يجدان مكانًا لاستعراض مؤهلاتهما الفنية خيراً من موسم الحج حيث يكون أكبر حشد من المسلمين فى التجمع السنوى العظيم. ففى بعض المواسم ظهر الاثنان بشكل ملفت للنظر، فبينما امتطى عمر بن أبى ربيعة ظهر نجيب أصيل فوق سرج من الجلد المكسو بديباج الحرير الثقيل، وعليه الحلل اليمانية المبهرجة الألوان، ظهر ابن سريج وهو مخضب بالحناء على بعير مخضب أيضًا بالحناء. وأخذ الرجلان المتبرجان يلتقيان بالحجاج ويتعرضان للنساء. وكان ابن سريج يغنى على الطريق فيتوقف الناس بحسن غنائه للاستماع (الأغانى، ج1 ص258). وهنا كان يصيح من يشفق على فساد الموسم من الناس، فيقول: «يا صاحب الصوت أما تتقى الله! قد حبست الناس عن مناسكهم!» فيسكت قليلا حتى إذا مضوا رفع صوته فيقف آخرون. ولا بأس أن يكون عمر بن أبى ربيعة، وابن سريج، بتظاهرة مهرجان الألوان تلك، يمثلان تقاليد المغنين فى الحجاز وقتئذ، وكان معظمهم من المخنثين، وهو الأمر المعروف عن ابن سريج الذى كان يلبس المصبغات ويسدل جمة من الشعر المستعار على وجهه. وإن كانت عادة أهل اللهو من المغنين والموسيقيين من زَمّارين وعَزّافين وغيرهم لبس الثياب المصبغة (البيان والتبيين للجاحظ، ج3 ص51)[1].

جميلة فى موسم الحج: وتعتبر تظاهرة عمر بن أبى ربيعة وابن سريج الشعرية الغنائية فى موسم الحج بمكة عملا فرديًا إذا ما قيست بالرحلة الفنية التى قامت بها مغنية المدينة الشهيرة جميلة إلى مكة بهدف قضاء فريضة الحج. فما أن أعلنت جميلة عن نيتها فى الحج حتى قرر المغنون والمغنيات فى المدينة المشاركة فى ذلك الموسم، فكان مهرجانًا مدهشًا على طول الطريق ذهابًا وإيابًا بين المدينة ومكة. ولقد شارك فى الرحلة زهاء ثلاثين رجلا «تخايروا فى اتخاذ أنواع اللباس

1 ـ د. سعيد عاشور ـ د. سعد زغلول ـ نفس المرجع ص413.

العجيب الظريف، وكـذلك الهوادج والقباب». أما عن المغنيـات من القيان اللائى خرجن معـها مشيعات فـقد بلغن حوالى خمسـين قينة، وجه بهن مواليهن مـعها فأعطوهن النفقـات وحملوهن على الإبل فى الهوادج». وإذا كان حج جـميلة قد وصف بأنه جـمع الخيـر كله، من حيث إنه لم يـكن هناك ذكر للغناء من جـانب الحاجّات القينات أثناء أداء المناسك، مثلما فعل ابن سريج، فإنه بعد عشرة أيام من رجوع جمـيلة من أداء مناسك الحج، أقامت حفل غناء عـظيم فى منزلها بالمدينة، فـغصت الدار بـالأشراف من الرجـال والنسـاء. ولقـد شارك الكثـيـر من المغنين والمغنيات فى حـفل ختام الحج هذا، وكان الغـزل والنسيب فى شعر عـمر بن أبى ربيعة من موضوعات الأغنيات المطلوبة فى ذلك الحفل (الأغانى، ج8 ص209). وهكذا تأصل الغناء فى الحجـاز عن طريق ذلك الربط المعنوى بين أهل الغناء وبين كل من الحرمـين الشريفين، عن طـريق اتخاذ الموسم مسـرحًا للغناء أو مهـرجانًا للألوان فى مكة، أو عن طريق مدرسـة الجوارى المغنيات من القـيان التى ازدهرت إلى ما لا مزيد عليه غير بعيد من الروضة الشريفة بالمدينة.

عمر بن عبدالعزيز هاويًا للغناء بالمدينة: ومن المعروف أن عمر بن عبدالعزيز كان مـتسـاهلا أثناء ولايته للمـدينة (86 ـ 93هـ/ 705 ـ 712م) بالنسـبة لأهل الطرب واللهو، كما كـان يفعل مع خصوم الدولة السياسـيين الذين كانوا يلجأون إلى المدينة. وهكذا يمكن أن نضع حج جـميلة قـبيل سنة 93هـ/ 712م أى قبيل عزله بقليل عن الولاية. وهكذا فـلا بأس أن يكون عدم إنكار عمر بن عـبدالعزيز للطرب ـ إن لم نقل حـبه له ـ من الأسـباب التى أدت إلى ذلك الانتـشار الواسع لفن الغناء واللهو فى مدينة الرسول فى أواخر القرن الأول الهجرى. فعن عمر بن عبدالعزيز قيل إنه كان يطرب فى السماع طربًـا بينًا ويستعيد الغناء وقد بلت دموعه لحيـته (مـروج الذهب، ج3 ص198 ـ 199). وأكثـر من هذا فقـد جعلتـه بعض الروايات أول محترف للغناء من أمراء الإسلام، وذلك لأنه كان «أول من دونت له صنعة منهم». وفى ذلك يذكرون له أثناء ولايـته للحجاز سبعة ألحـان صنعها وهو

يذكر سعاد فيها كلها، وإن كان الأمر موضوع شك (الأغانى، ج9 ص250 ـ 251). وبمجرد عزل عمر بن عبدالعزيز عن ولاية المدينة، تقدم الأعيان من أشراف قريش والأنصار يطلبون من الوالى الجديد، عثمان بن حيان المرى (93 ـ 96هـ/ 712 ـ 715م) تحريم الغناء، وغيره من أسباب الفساد. ولكن واحداً من النبلاء من حفدة أبى بكر الصديق هو ابن عتيق تدخل لدى الوالى وأقنعه بعدم تلبية الطلب. وكانت وسيلته إلى ذلك إقناع المرى بالاستماع إلى صوت سلامة القس فيما كانت تجيده من قراءة القرآن والحداء ثم الغناء. وأخذ الوالى الجديد بصوت القينة العجيبة فقال لها: «لا والله ما مثلك يخرج عن المدينة»، وشمل هذا الأمر جميع المغنيات (العقد، ج6 ص50). والحقيقة أننا لانقصد إلقاء تبعة انتشار الغناء فى المدينة على عاتق عمر بن عبدالعزيز، بل نريد أن نحدد ذلك بعزله عن الولاية عقب حج جميلة، إذ المشهور أن الغناء ظهر على أيام يزيد بن عبدالملك بمكة والمدينة حيث استعملت الملاهى أى آلات الموسيقى (مروج الذهب، ج3 ص77)[1].

تجدد ازدهار الغناء أيام يزيد بن عبدالملك: سلامة وحبابة: والمهم أنه بعد وفاة عمر بن عبدالعزيز، تجدد ازدهار الغناء فى كل من الحجاز والشام بفضل رعاية يزيد بن عبدالملك (101 ـ 105هـ/ 719 ـ724م) الذى وهب نفسه للقيان وصرف جهده وماله فى السماع، وورث تلك التركة الخفيفة ابنه الوليد (125 ـ 126هـ/ 743 ـ 744م) الذى خرج فى ذلك عن كل الحدود. ولقد بدأ يزيد بن عبدالملك بشراء سلامة التى عرفت بسلامة القس بعد أن افتتن بها عبدالرحمن بن عمار، عابد مكة، الذى اشتهر بالقس لنُسُكِهِ. أما عن امتلاكه لـ «حبابة» مولدة المدينة الجميلة الطيبة الصوت، فقد كان الهدف منه حل قيوده من ربق سلامة، فكانت النتيجة عكسية تماماً إذ وقع فى إسار القينتين جميعاً. وكانت خاتمة حبابة ويزيد هى خاتمة كبار شهداء الهوى، إذ ماتت حبابة فى بعض متنزهات الأردن،

1 ـ د. سعيد عاشور ـ د. سعد زغلول ـ نفس المرجع ص415.

وهى تغص بحبة عنب كان يلقمها إياها يزيد الذى لحق بها بعد حوالى خمسة عشر يومًا، ودفن إلى جانبها (الأغانى، ج15 ص144) وكان الإعلان عن وفاة يزيد بن عبدالملك عن طريق المناحة التى أقامتها سلامة، والتى ندبت فيها بشعر بعض الأنصار، وختمت ذلك وهى تنادى: وا أمير المؤمنيناه! فكان ذلك إعلانًا بوفاة يزيد فتداول الناس الخبر (الأغانى، ج8 ص 346).

الوليد بن يزيد يرث هواية والده للموسيقى والطرب:

ابن عائشة والغزيل وعمر الوادى: لقد عرف الوليد بإدمانه للغناء والطرب مما كان له أثره فى المجتمع حتى قيل إن شهوة الغناء انتشرت حتى غلبت على الخاص والعام. ومع أن مغنيه المفضل ابن عائشة أطربه كثيراً، فإن الوليد بن يزيد جمع إلى هواية السماع هواية الغناء والموسيقى. ولقد تقدم فى الصناعة حتى أصبحت له أصوات مشهورة ألفها بنفسه. أما عن استخدامه الآلات الموسيقية مع الغناء، فكان يضرب بالعود، ويوقع بالطبل، ويمشى بالدف، وكل ذلك على مذهب أهل الحجاز حيث كانت أهزاج طويس هى المفضلة لديه. وإلى جانب ابن عائشة أحاط الوليد نفسه بعدد من مشاهير المغنين، مثل: الغزيل الذى كان مضحكًا، وعمر الوادى الذى كان مهندسًا فجمع الغناء إلى الهندسة، وأصبح مقربًا جداً من الوليد. هذا كما غنى للوليد أيضًا اسماعيل بن الهربذ المكى الذى عُمِّر إلى آخر أيام الرشيد (حوالى 193هـ/ 809م)[1].

الطعام والشراب:

كانت حياة العرب بسيطة، وبخاصة فيما يتعلق بالطعام، ولم يتجاوز أغلب طعامهم صنفًا أو صنفين، وكان أفضل طعامهم اللحم مع الثريد، ولكن تغير الحال بعد الفتوحات الإسلامية، واتساع الدولة وكثرة الأموال، ومخالطتهم الشعوب فى البلاد المفتوحة، وكانت أكثر منهم مدنية فعرفوا ألوانًا من الطعام

---

1 ـ د. سعيد عاشور ـ د. سعد زغلول ـ نفس المرجع ص416.

والشراب، واستخدموا أدوات للمائدة لم يكونوا يعرفونها من قبل فاستخدموا «الفوط» و «الملاعق» الخشبية والفخارية، التى كانت تأتيهم من «الصين»، وعرفوا «الموائد» الخشبية، وجلسوا على كراسى خشبية حولها، وكانوا من قبل يجلسون على الأرض ويأكلون بأيديهم، وكان من عادة الخلفاء والأمراء والأغنياء إقامة الولائم لإطعام الناس. وكان للأكل مع الخلفاء آداب خاصة، فوق الآداب العامة المعروفة للطعام، فكما يقول «الجاحظ»: «إن الأكل لم يكن للشبع وإنما للشرف، فعلى من يؤاكلهم أن يراعى ذلك وألا يكون شرهًا فى تناول الطعام».

الملابس:

توسع المجتمع فى العصر الأموى وتأنق فى الملابس والأزياء، فلبسوا الحرير والديباج والإستبرق، وبخاصة الشباب الذين كانوا يلبسون ملابس موشاة، وكانت الملابس تختلف من فئة إلى أخرى على قدر ثرائها ومراكزها الاجتماعية، فكانت ملابس الفقهاء تختلف عن ملابس الكتاب، والقواد تختلف ملابسهم عن ملابس الجند، وكان شيوخ القبائل ومن فى منزلتهم من علية القوم يرتدون الأقبية التى تصل إلى الركبتين، يعلوها جلباب فضفاض يتدلى إلى العقبين. وكانت عناية النساء بالملابس والأزياء أكثر من عناية الرجل، وتكونت ثيابهن من سروال فضفاض وقميص مشقوق عند الرقبة، وعند خروج المرأة إلى الشارع فإنها ترتدى عباءة تغطى جسمها وتلف رأسها بمنديل يربط حول الرقبة، مثل «الإيشارب» الذى تستعمله النساء فى الوقت الحاضر. وتوسع النساء فى استخدام الحلى والجواهر من اللآلئ واليواقيت والذهب وسائر أدوات التجميل. وإلى جانب التأنق فى الملابس أحب الناس أنواع الطيب وأكثروا منها، واستخدموا الحناء، وخضبوا بها لحاهم وأيديهم، وفعل الخلفاء ذلك.

مكانة المرأة فى المجتمع الإسلامى:

أما عن نصيب المرأة فى ذلك الدور - أعنى فى صدر الإسلام - فالملاحظ أن الإسلام حرر المرأة مما كانت تعانيه من امتهان، وأعطاها حقوقها كاملة فى مباشرة

حياتها الخاصة والعامة، وذلك داخل إطار من العفة والحياء يتفق وروح الإسلام وآدابه. وإذا كان القرآن الكريم قد نادى بأن الرجال قوامون على النساء، فإنه لم يترك هذه القوامة مطلقة، وإنما حددها بدرجة واحدة «ولهن مثل الذى عليهم بالمعروف وللرجال عليهم درجة». والهدف من هذا التفضيل المحدد صلاح المجتمع، وصلاح الأسرة، مراعاة طبيعة الرجل ومسؤولياته. ومنذ عهد الرسول ﷺ شاركت المرأة فى الحروب، ونهضت بدور يتفق وطبيعتها فى تضميد جروح مجاهدى المسلمين وحثهم على الجهاد. ومن المعروف أن النساء كانت لهن بيعة مثل بيعة الرجال ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَن لاَّ يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلا يَسْرِقْنَ وَلا يَزْنِينَ وَلا يَقْتُلْنَ أَوْلادَهُنَّ وَلا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الممتحنة: 12] وفى عهد الخلفاء الراشدين ـ رضى الله عنهم ـ اختلطت النساء بالجماهير لسماع خطب الخلفاء. ومع التطور الذى أصاب المجتمع الإسلامى فى العصر الأموى، أخذت الأميرات يتدربن على ركوب الخيل ويشتركن فى السباق. ويرجع اتخاذ الحريم إلى عهد الوليد الثانى الذى أدخل كثيراً من تقاليد وعادات الروم، وأكثر من اتخاذ الخصيان فى قصر الخلافة. وهكذا أخذت الحياة الاجتماعية، تتطور تدريجيًا نتيجة تفاعل مستمر بين بعض العناصر التى ألفها العرب منذ عصور ما قبل الإسلام من ناحية، وعناصر وضوابط بناءة انبثقت عن الإسلام وروحه وتعاليمه من ناحية أخرى، ثم بعض المؤثرات الأجنبية التى تطرقت إلى المجتمع الإسلامى من الحضارات التى استوعبتها الدولة الإسلامية، عند اتساعها، وبخاصة حضارتى الروم والفرس[1].

كانت للمرأة مكانة كبيرة وأثر واضح فى الحياة العامة، ومن أشهر النساء: «سكينة بنت الحسين بن على بن أبى طالب»، وكانت من أعلم النساء وأظرفهن، وأحسنهن أخلاقًا، وتذكر المصادر التاريخية أن الشعراء كانوا يجتمعون عندها وكان

1 ـ د. سعيد عاشور ـ د. سعد زغلول ـ المرجع السابق ص258.

لها ذوق رفيع فى نقد الشعر، ومما يذكر لها فى هذا المجال أنه اجتمع عندها يومًا «جرير»، و«الفرزدق»، و«كثير عزة» و «جميل بثينة»، وأنشدوا بين يديها أشعارهم، فنقدت شعر كل منهم، ثم أجازت كل واحد بألف دينار. وتقرن بسكينة فى هذا المجال «عائشة بنت طلحة»، وكانت نابغة فى الأدب والسخاء كأبيها «طلحة» الجواد، وقد تزوج «مصعب بن الزبير» حاكم «العراق» فى خلافة أخيه «عبدالله بن الزبير» (67 ـ 72هـ) كلا من «سكينة» و «عائشة بنت طلحة»، بعد أن أمهر كل واحدة منهما مليون درهم. ومن ألمع النساء فى ذلك العصر: «أم البنين» زوج الخليفة «الوليد بن عبدالملك»، وقد اشتهرت بالفصاحة والبلاغة وقوة الحجة وبعد النظر، وكانت لها مكانة كبيرة عند زوجها «الوليد» وكان يستشيرها فى كثير من أمور الدولة. وقد كثرت الجوارى من سبايا الحروب فى البيوت، مما كان له أثره البالغ فى الحياة الاجتماعية، فقد نقلوا إلى البيت العربى عادات شعوبهم وتقاليدها فى الطعام والشراب والملبس. وكان الخلفاء يخرجون فى يوم العيد للصلاة فى موكب مهيب، يتقدمهم الجند، ويحيط بهم الأمراء وكبار رجال الدولة، وتتجاوب أصوات المسلمين بالتهليل والتكبير، وتقام الزينات، وتسطع المشاعل والقناديل فى ليالى العيد، وكان لولاة الأقاليم مواكب تشبه مواكب الخلفاء.

حفلات الزواج:

تطورت حفلات الزواج فى العصر الأموى لتجارى ما أصبح عليه المجتمع من ترف وثراء، وبعد أن كانت فى عهد الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين غاية فى البساطة والبعد عن التكلف، وبالغ الناس فى المهور، وقد سبق أن ذكر أن «مصعب بن الزبير» أمهر كلا من زوجتيه «سكينة بنت الحسين» و«عائشة بنت طلحة» مليون درهم. وكما بالغوا فى المهور بالغوا فى إقامة الولائم الحافلة بأطيب أنواع الطعام، وفى يوم الزفاف يلعب الفتيان بالرماح، ويتسابقون بالخيل، وتجلس النساء على النمارق ويتزين بالحلى والجواهر الثمينة. وتكون العروس فى أبهى صورة وأجمل زينة، يحيط بها أترابها، يغنين لها حتى تذهب إلى بيت زوجها.

وكانت تقام ـ أيضًا ـ حفلات لختان الأطفال، يحييها المغنون وأصحاب الفكاهة، وهذا كان يحدث فى بيوت الصحابة والتابعين، فيذكر «ابن قتيبة» فى «عيون الأخبار» أن «عبدالله بن عباس» ـ رضى الله عنهما ـ دعا بعض اللعابين فى حفل ختان بعض أولاده، فلعبوا بألعابهم، فأعطاهم أربعمائة درهم، كما أن تلميذه «عطاء بن أبى رباح» استدعى اثنين من كبار المغنين وهما «الغريض» و«ابن سريج» فى حفل ختان ولده، وكان الناس يقيمون الموائد الفاخرة المليئة بألوان الطعام فى هذه المناسبات[1].

الرعاية الاجتماعية والسجون:

وجاءت هذه الرعاية الطبية مصحوبة بإقامة مؤسسات لمداواة المرضى وعلاجهم وهى التى أطلق عليها اسم بيمارستانات. ويروى المقريزى أن أول دار أسست لمداواة المرضى فى الإسلام بناها فى دمشق الخليفة عبدالملك الأموى عام 88هـ، وجعل فيها الأطباء وأجرى عليهم الأرزاق. أما المجذومون والمصابون بأمراض معدية خطيرة، فقد أمروا بمغادرة المدن، وخصصت لهم أعطيات رعاية لهم، فى حين أعطى كل مقعد خادمًا يهتم بأمره، وكل ضرير قائدًا يسهر على راحته. (تاريخ ابن الفرات، عام 794هـ، العينى: عقد الجمان 664هـ).

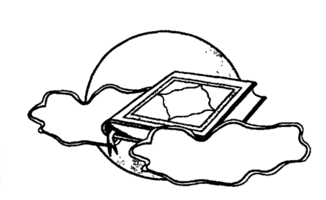
وأخيرًا، فإنه مع اتساع الدولة الإسلامية، عرفت نوعًا من المنشآت الاجتماعية أطلق عليها اسم السجون، والمعروف فى اللغة أن السجن هو الحبس، وقد روى عن أبى هريرة أن الرسول ﷺ حبَسَ فى تهمة. والحبس الشرعى معناه تعويق الشخص ومنعه من التصرف بنفسه، وليس حجزه فى مكان ضيق. وكان هذا الحبس الشرعى يتم فى أول الأمر فى بيت أو مسجد، على أن يقوم الخصم ـ أو وكيله ـ بملازمة الشخص المحتجز، ولذا أسماه النبى ﷺ أسرًا. واستمر الأمر على ذلك فى عهد الخليفة أبى بكر الصديق رضى الله عنه، إذ لم يكن هناك محبس معد لحبس الخصوم، ولكن حدث عندما اتسعت الدولة فى عهد الخليفة

---

1 ـ د. عبدالشافى محمد عبداللطيف ـ المرجع السابق ص 80 ـ 81.

عمـر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ وكثرت الرعـية، أن ظهرت الحاجـة إلى مبنى قائم بذاته، يسـتخدم سـجنًا ـ يحتجـز فيه من يراد حبـسه. ولهذا الغـرض ابتاع الخليفة من صنوان بن أميـة داراً بمكة بأربعة آلاف درهم. ولـم يلبث أن تطور الأمر فى عهـد الخليفة مـعاوية بن أبى سفيـان، عندما ازداد خصـوم الدولة، وتعددت مشاكلهـا، حتى قيل إنه أول من وضع السجن بمعناه المعـروف، وخصص الحرس لحراسـة المسجـونين. وفى أول الأمـر كانت هناك نزعـة نحو الرأفـة بالمسجـونين ورعايتـهم وتوفير أسـباب الحيـاة الكريمة لهم داخل السـجن، وعدم التطرف فى إيذائهم أو حرمانهم. من ذلك مـا جاء فى كتاب العيون والحـدائق من أن الخليفة عمر بن عبدالعزيز كتب إلى عماله حوالى عام 100هـ/ 700م بألا يُغَلّ مسجون. أما البدو فلهم حياتهم الخاصة التى فرضتهـا وشكّلتها ظروف البيئة والتى لم تتغير كثيراً حـتى اليوم. ولاشك فى أن أهل البادية يتمسكون بكثـير من صفات المروءة والشهامة والشجـاعة وغيرها من الصفات التى لم تفسدهـا حياة الحضر. وفى ظل الإسلام، تخلى أهل البادية تدريجـيًا عن العادات غير الطيبة الـتى شابت حياتهم فى الجـاهلية. ومـع ذلك، فإن نسـبـة من الأعراب ظلوا يـهددون طرق القـوافل ويعتدون على المسافرين، حتى إن قوافل الحجاج لم تسلم أحيانًا من عبثهم.

الفصل السادس



الحياة الاقتصادية

- الأحوال الاقتصادية
- موارد الدولة
  - الزراعة والإنتاج الزراعى.
  - الإنتاج الحيوانى.
  - الصناعة.
  - صناعة الأسلحة.
  - التجارة.
  - الإصلاحات الاقتصادية فى إسبانيا.
- إنشاء المدن الجديدة
  - مدينة القيروان.
  - القصور الأموية.
  - المساجد.

الأحوال الاقتصادية

كثرت المصادر التى تحدثت عن الشئون الاقتصادية والمالية، مثل كتاب «الخراج» لأبى يوسف المتوفى عام (182هـ الموافق 798م)، وكتاب «الأموال» لأبى عبيد القاسم بن سلام المتوفى عام (224هـ الموافق 838م)، غير أن هذه المصادر لاتقدم لنا إحصاءات عن دخل الدولة الإسلامية فى العصر الأموى، ولا شيئًا من ميزانياتها، وإنما هى أبحاث فقهية على وجه العموم، تبحث فى مسائل الغنائم والجزية والخراج وغير ذلك. ويمكن أن نكوِّن فكرة عن الأحوال الاقتصادية فى ذلك العصر، من خلال دراسة مستوى المعيشة التى كان يحياها الناس على اختلاف مستوياتهم، واحتفالاتهم فى مناسباتهم الاجتماعية، كالأعياد وحفلات الزواج والختان، ومن خلال الحركة العمرانية الكبيرة التى شهدها ذلك العصر، من بناء المدن والمساجد وتعبيد الطرق وغيرها من المنشآت، بالإضافة إلى الخدمات المجانية التى تقدمها الدولة للناس، كالعلاج وإعالة المحتاجين. وكل هذه المشروعات لم تكن لتقام إلا إذا كانت موارد الدولة المالية التى اتبعها «عمر بن عبدالعزيز» قضت على الفقر فى ربوع الدولة، إلى الحد الذى كان لايجد فيه عمال الصدقات فقراء يعطونهم منها، لأن الناس فى كفاية من الرزق، فأمر الخليفة أن يساعد من تلك الأموال من يريد الزواج من الشباب، ويعين من يبغى أداء فريضة الحج، وأن يشترى الأرقاء لتحريرهم.

• **موارد الدولة:** وتتمثل فى:

- **خراج الأرض المفتوحة:** ويأتى على رأس موارد الدولة فى العصر الأموى، وكانت تلك الأراضى مملوكة للدولة الإسلامية منذ الفتوحات الأولى فى عهد «عمر بن الخطاب» ـ رضى الله عنه ـ الذى اجتهد وقرر بعد استشارة كبار الصحابة عدم تقسيم الأرض المفتوحة على المجاهدين، وجعلها ملكًا للدولة، وأبقاها فى أيدى أهلها يزرعونها، مقابل إيجار يدفعونه للدولة، وهذا الإيجار أو الخراج تنفق منه الدولة على الجيش والموظفين، وتقيم المرافق التى يحتاج إليها.

وكان هذا اجتهاداً عظيمًا من «عمر»، لأنه أبقى الأرض فى أيدى أصحابها، وهم من أهل الخبرة فى فلاحتها، وضمن فى الوقت نفسه مورداً ماليًا ضخمًا وثابتًا، ثم أقدم «عمر» على خطوة عظيمة الأهمية وذات دلالة كبيرة على فطنته الاقتصادية، فقد أمر بإعادة مساحة الأرض المفتوحة، وقسمها على حسب إنتاجيتها إلى ثلاثة أنواع، وفرض على كل نوع الخراج الذى يناسبه؛ لئلا يُظلم الفلاحون، وليبذلوا طاقتهم فى تحسين الإنتاج.

- **غنائم الحرب:** وهى الأموال المنقولة من نقود وغيرها، وكانت بكميات كبيرة فى ذلك الوقت، وكان خمسها يدخل بيت مال الدولة، على حين توزع الأربعة الأخماس على المجاهدين.

- **الجزية المفروضة على أهل الكتاب** - اليهود والنصارى - ومن فى حكمهم كالمجوس؛ حيث عاملهم المسلمون فيما يتعلق بالجزية معاملة أهل الكتاب، وقد قنن الفقهاء قيمة الجزية، بعد استقراء تطبيقات الخلفاء، فقدروها بثمانية وأربعين درهما للأغنياء، وأربعة وعشرين للمتوسطين، واثنى عشر للفقراء القادرين على الكسب، وأعفوا منها النساء والأطفال وكبار السن، ورجال الدين، والعاجزين عن الكسب، بل إن الفقراء العاجزين عن الكسب من أهل الكتاب فرض لهم عطاءً من بيت مال المسلمين.

- **الزكاة:** وتؤخذ من المسلمين، ومقاديرها معروفة فى كتب الفقه، وتؤدى للدولة التى عدتها مورداً من مواردها المالية، تنفق منه فى الأوجه التى حددتها الآية الكريمة: **﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾** [التوبة: 60]

- ضرائب التجارة الداخلة إلى البلاد الإسلامية أو الخارجة منها أو العابرة:

وكانت تمثل مورداً كبيراً من موارد الدولة؛ إذ كانت أهم الطرق التجارية وأعظمها تمر فى ذلك الوقت ببلاد إسلامية، من حدود «الصين» فى الشرق إلى

«إسبانيا» فى الغرب. وقد نظم المسلمون منذ وقت مبكر تحصيل هذه الضرائب، وهى المعروفة الآن برسوم الجمارك، ففرضوا على التجار المسلمين ربع عشر قيمة تجارتهم، وعلى التجار من أهل الذمة الذين هم من رعايا الدولة الإسلامية نصف العشر، وعلى التجار الكفار الذين هم من أهل الحرب العشر. ولايظنن أحد أن فى هذا تفريقًا بين التجار المسلمين ونظرائهم من أهل الذمة من رعايا الدولة؛ لأن التجار المسلمين يدفعون زكاة أموال تجارتهم كلها بعد دفع ضريبة ربع العشر، فى حين لا يدفع التجار من أهل الذمة شيئًا سوى نصف العشر المفروض على التجارة، فهم لايدفعون زكاة لأنها لا تفرض إلا على المسلمين.

- **الركاز:** وهو ما يستخرج من باطن الأرض كالذهب والفضة والنحاس، فإذا كان المستخرج من أرض مملوكة ملكية خاصة، فإن أصحابها يدفعون للدولة الخمس، لأن الفقهاء جعلوا ذلك النوع من الأموال مثل الغنائم، التى يخصص خمسها للدولة. أما إذا استخرجت هذه المعادن من أراضى الدولة، فإن ريعها يدخل بطبيعة الحال إلى بيت المال[1].

الزراعة:

يمتد العالم الإسلامى على رقعة شاسعة جعلت تضاريسه متنوعة ما بين جبال وهضاب وصحارى وسهول. كما تنوع مناخه وتعددت سلالات سكانه، الأمر الذى جعله ينطوى على مقدارات اقتصادية وبشرية هائلة. لذلك تنوع فيه النشاط الاقتصادى ما بين زراعة ورعى، تعدين وصناعة. فضلا عن التجارة التى ساعد عليها إشرافه على بحار ومحيطات متعددة أهلته للقيام بدور ريادى فى التجارة الدولية. ولا أقل من رصد هذا النشاط الاقتصادى مع إبراز عصور الازدهار وعصور الكساد وتعليل كل ذلك تعليلا علميًا موضوعيًا.

وضعية الأرض: تنوعت أشكال الملكية فى العالم الإسلامى بتنوع الجغرافيا

1 - د. عبدالشافى محمد عبداللطيف - نفس المرجع ص82 - 84.

الطبيعية واختلاف العصور التاريخية؛ حيث تعددت أشكال الملكية ما بين مشاعة وملكيات خاصة صغرى وكبرى وضياع وإقطاعات وأرض حبوس. كما تنوعت علاقات الإنتاج بتنوع قوى الإنتاج. لكن المشكلة الكبرى التى واجهت الباحثين هى تحديد النمط السائد والأنماط الهامشية. وفى هذا الصدد اختلف الدارسون ما بين قائل بوجود نمط إنتاج رأسمالى أو رأسمالوى، وقائل بسيادة النمط الإقطاعى، وثالث يؤكد سيادة رأسمالية الدولة، ورابع يقول بنمط خاص هو نمط الإنتاج الخراجى. ونعتقد أنه لا سبيل لحل تلك الإشكالية إلا باتباع المنهج التاريخى الذى يعول على رصد أشكال الملكية على امتداد أقاليم دار الإسلام وما استجد بصددها من تغيرات باختلاف العصور التاريخية، والخروج بأحكام عامة فى النهاية.

فيما يتعلق بوضعية الأرض قبل الإسلام؛ نلاحظ تعدد أشكال الملكية. ففى المناطق الزراعية جنوبى شبه الجزيرة حيث تسقط الأمطار الموسمية؛ وجدنا شكلا من أشكال الإقطاعية. إذ حازت القبائل الكبرى معظم الأراضى الخصبة وتركت الباقى للقبائل الأخرى نظير إتاوات جرى إقرارها بعد تأسيس دول اليمن وحضرموت مثل معين وسبأ وقتبان وحمير. على أن هذا النمط أخذ يتغير تحت تأثير المد البورجوازى التجارى؛ إذ تقلصت الإقطاعات لتحل محلها الملكيات الخاصة، أما فى وسط شبه الجزيرة؛ فقد سادت المشاعة حيث انعدمت الملكيات الخاصة، لتحل محلها مضارب القبائل التى هى أشبه ما تكون «بنظام الحمى». أى أن الأرض ملك للقبيلة ولسائر أفرادها حق الانتفاع. وفى بلاد الحجاز ظهرت الملكيات الكبرى «الضياع» التى حازها كبار التجار خاصة فى أراضى الطائف. وبالمثل تملك اليهود فى يثرب وواحات الشمال - مثل خيبر وفدك وتيماء - أنصبة من الأرض الزراعية تدخل فى إطار نظام الملكيات الخاصة. وبظهور الإسلام تغير الوضع. ذلك أنه زعزع النظم القديمة وأتى بنظام يجمع بين الرأسمالية والاشتراكية إن صح التعبير. فقد أقر نظام الملكية وشرع حق الإرث فى إطار عدم الاستغلال. ولدينا من الأحاديث النبوية الشريفة ما ينص على أن الأرض ملك لمن يزرعها ويفلحها. فى ذات الوقت أشاع الإسلام المراعى لسائر دواب المسلمين.

ولحرص الإسلام على إقرار العدالة الاجتماعية وتقريب الهوة بين الطبقات؛ كان الرسول ﷺ يوزع أراضى اليهود فى المدينة على من لا يملكون. لقد تجسدت الرؤية الإسلامية عمومًا فى أن الأرض ملك لله وحده وأن حق الانتفاع بها مكفول لسائر البشر مسلمين وغير مسلمين. وبعد اتساع الأراضى الزراعية عقب الفتوحات حدث تطور كبير فى وضعية الأرض. إذ أتاح الإسلام لأهل الذمة الذين فتحت بلادهم صلحًا تملك أراضيهم على أن يدفعوا خراجًا من إنتاجها لبيت المال. أما تلك التى فتحت عنوة فإنها بحكم الشرع توزع غنيمة على الفاتحين. لكن عمر بن الخطاب عدل عن ذلك وأوقفها لخدمة بيت المال؛ حتى لا تتكون طبقة إقطاعية تحوز الأرض وتورثها فى الأحقاب. أما الأراضى التى هجرها أصحابها فقد استصفيت لخدمة بيت المال أيضًا؛ لذلك عرفت باسم الصوافى. أما الأراضى الموات فقد أتاح الإسلام ملكيتها لمن يستصلحها[1].

وفى خلافة عثمان ظهرت بواكير الإقطاعات؛ حين أمر بأيلولة أراضى الصوافى إليه وإلى أصحابه وأسرته من بنى أمية. وبالمثل احتكر أراضى الحمى وجعلها حكراً على بنى أمية، لذلك قيل إنه أول من حمى الحمى فى الإسلام. وقد استفحلت ظاهرة «الضياع» فى عصر بنى أمية. إذ حرص الأمويون على تكوين إقطاعات واسعة لهم ولقادتهم وولاتهم وعمالهم. وقد تم ذلك على حساب الملكيات الخاصة المعروفة باسم «الأراضى الخراجية». ذكر البلاذرى أن معاوية اقتنى ضياعًا بالبلقاء والطائف ووادى القرى وسواد العراق. كما حاز هشام ابن عبد الملك ضياعًا واسعة فى العراق والأردن وأرمينية. وعلى غرار حكام الأمويين تمكن الولاة من تكوين إقطاعات مماثلة. فنسمع أن أراضى الوالى خالد ابن عبد الملك القسرى بالعراق فاقت أراضى الخلفاء اتساعًا. وفى مصر والمغرب وإسبانيا جرى تطبيق نفس السياسة التى اتبعت فى الولايات الشرقية. إذ حاز الولاة والعمال والقواد والفقهاء ضياعًا واسعة على حساب الملكيات الصغرى. وقد

1 ـ محمود إسماعيل ـ المرجع السابق ص97.

ازدادت هذه الظاهرة تفاقمًا وفقا لنظام «الإلجاء» إذ كان أصحاب الملكيات الصغرى يلجأون إلى رجال الإدارة لحمايتهم من عسف الجباة نظير دمج أراضيهم فى أراضى الحماة حتى أصبحت هذه الملكيات الصغرى مفرغة من مضمونها من الناحية العملية كما يرى «كلود كاهن». حاول الخليفة عمر بن العزيز وضع حد لتعاظم الإقطاعية لكن إصلاحاته انتكست بعد وفاته. ومن المفيد أن نثبت نصا هامًا يوضح تطور وضعية الأرض منذ عهد الرسول حتى خلافة عمر بن العزيز الذى قال: «إن الله بعث محمداً رحمة فترك لهم نهرا شربهم فيه سواء. ثم ولى أبو بكر فترك النهر على حاله. ثم ولى عمر فعمل على عمل صاحبه. فلما ولى عثمان اشتق من ذلك النهر نهراً. ثم ولى معاوية وعبدالملك وسليمان حتى أفضى الأمر إلىّ وقد يبس النهر الأعظم. ولن يروى أصحاب النهر حتى يعود إليهم النهر الأعظم» لكن عودة النهر الأعظم كان يتطلب ثورة على طبقة الإقطاعيين الجدد الذين تآمروا على حياة عمر بن عبدالعزيز. وليس أدل على تعاظم خطر هذه الطبقة من هجرة الفلاحين إلى المدن تاركين ما تبقى من أراضيهم دون زراعة. لكن الأمويين كانوا يرغمونهم قسرا على العودة إليها. ولكم عانوا من عسف الجباة خاصة بعد أن شرع بنو أمية «نظام الالتزام» أو «نظام التضمين». ويعنى أن يضمن أحد الأثرياء دفع الخراج إلى الدولة عن إقليم معين ثم يعود فيجمعه مضاعفًا من المزارعين. وقد أدى ذلك إلى حدوث ثورات ذات طابع فلاحى؛ أسماها البلاذرى بظاهرة «كسر الخراج»؛ وتعنى امتناع المزارعين عن دفع الخراج للدولة. وهو أمر أفضى إلى «خراب البلاد وهلاك العباد» على حد قول القاضى أبى يوسف[1].

الإنتاج الزراعى:

عرف العرب الزراعة من قديم، إذ احتوت شبه جزيرة العرب فيما احتوت عليه من صحارى شاسعة، بضعة أقاليم خصبة ذات مياه غزيرة، انتجت مختلف المحاصيل من أشجار وفواكه وخضر وزهور وورود. فاشتهرت اليمن «العربية

1 ـ د. محمود إسماعيل ـ نفس المرجع ص98.

السعيدة»، ببساتينها ومراعيها ومياهها المتدفقة، واشتهرت حضرموت ببخورها، وكذلك بأراضيها الزراعية الممتدة على طول بحر العرب وخاصة فى ظفار وشحر ووادى حضرموت ووادى دوعن هذا إلى جانب بعض المناطق الحجازية الخصبة مثل الطائف ويثرب، وجاء الإسلام، فأشادت آياته القرآنية الكريمة بأهمية الماء والأرض والزرع والتمر، مثل قوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 22] وقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأنعام: 141] كذلك اهتمت الأحاديث النبوية الشريفة بأهمية الأرض وإحيائها وزراعتها، فيؤثر عن الرسول ﷺ أنه شجع كل من يحيى أرضًا ميتة على تملكها وذلك فى قوله ﷺ: «من أحيا أرضًا ميتة فهى له، فإن مات فهى لورثته، وله أن يبيعها إن شاء». وهكذا أحدث الإسلام ثورة زراعية شملت مختلف أنحاء الدولة.

يقع العالم الإسلامى بين خطوط عرض متقاربة ساعدت على وجود مساحات شاسعة قابلة للزراعة عن طريق مياه الأمطار أو الوديان والأنهار فضلا عن الواحات التى تقع فى مناطق صحراوية رعوية. لذلك تنوعت المحاصيل والمزروعات وتعددت النطاقات الهائلة الصالحة للرعى والإنتاج الحيوانى. ولم يعدم العالم الإسلامى مناطق صالحة لنمو الغابات فى المناطق المحاذية لبحر قزوين والبحر الأسود فضلا عن أعالى بلاد الشام وبعض نواحى إسبانيا. لذلك شكل الاقتصاد الزراعى الرعوى قوة الإنتاج الأساسية الثابتة والدائمة. ولن نعرض بالتفصيل للإنتاج الزراعى فى العالم الإسلامى، بقدر ما نعالج أساليب الرى وتقنيات الزراعة. كذا رصد سياسات الحكومات الزراعية التى أثرت فى الإنتاج الزراعى ازدهاراً أو انهياراً.

عنى العرب الفاتحون بالزراعة عناية عظيمة، واستفادوا فى ذلك من خبرات أبناء البلاد المفتوحة، فعندما تم تحرير «مصر» أمر «عمر بن الخطاب» واليه «عمرو ابن العاص» أن يسأل أهلها عن أفضل الطرق للنهوض بها وباقتصادها، فأخبر أن أفضل طريقة للنهوض بها هى الزراعة، لأنها المورد الرئيسى لاقتصاد البلاد، وهذا يتطلب العناية بالنيل والترع المتفرعة عنه، وكذلك فعل «عمر بن الخطاب» فى «العراق» و«الشام». وقد سار الأمويون على هذه السياسة، فاهتموا بنظام الرى وإقامة الجسور وشق الترع وتطهيرها موسميًا، وبخاصة أن الدولة كان يجرى على أراضيها أعظم الأنهار وأكثرها طولا، من «نهر النيل» فى «مصر» إلى «دجلة» و«الفرات» وفروعهما فى «العراق»، إلى أنهار الشام الرئيسية: «بردى» و«العاصى» و«اليرموك»، إلى نهرى «جيحون» و«سيحون» فى بلاد «ما وراء النهر» إلى نهر «السند» وغيرها من الأنهار فى ما يعرف حاليا باكستان والهند وأفغانستان، إلى الأنهار العديدة فى «إسبانيا والمغرب العربى»، بالإضافة إلى رقعة واسعة من أخصب الأراضى. وقد عمل «الحجاج بن يوسف الثقفى» على إصلاح شئون الزراعة أثناء ولايته على «العراق» والمشرق، فأصلح كثيراً من الأراضى التى لم تكن مزروعة، وأمر بعودة الفلاحين إلى قراهم، بعد أن رأى ما أصاب الزراعة من ضرر ونقص فى المحاصيل؛ نتيجة هجرتهم إلى المدن للعمل فى الأعمال الحرفية المتعلقة بالصناعة والتجارة. وهذه الخطوة التى أقدم عليها «الحجاج» لإصلاح الزراعة أساء الناس فهمها، وعدّوها من أخطائه؛ لأنه تدخل فى حرية الناس، لكنها عند النظر الصحيح خطوة إيجابية من حاكم يفهم واجبات وظيفته، فأقدم على حل مشكلة خطيرة لاتزال كثير من الحكومات المعاصرة عاجزة عن حلها. وقد اقتدى «خالد بن عبدالله القسرى» والى «العراق» فى عهد «هشام بن عبدالملك» (105 ـ 125هـ) بما فعله «الحجاج» فى النهوض بالزراعة؛ فأصلح مساحات شاسعة فى منطقة المستنقعات، وزرعها وأضافها إلى الرقعة الزراعية.

سلكت الحكومة الإسلامية لإدارة الأقاليم الزراعية سياسة مالية مستنيرة، إذ اهتمت بأمور الزراعة والرى واستصلاح الأراضى ومساعدة الفلاحين، لأنها كانت

تدرك تمامًا مدى العلاقة بين الازدهار الزراعى وبين ازدياد الوارد من خراج الأرض الذى يعتبر أهم مورد لبيت المال. حقيقة كان للتجارة دور مهم فى الحضارة الإسلامية والموارد المالية، ولكن الفلاح كان هو المنتج الأول، وكثيراً ما تحكم عمله فى بقاء دول أو زوالها. وفى هذا المعنى يقول الفقيه أبو الحسن الماوردى فى أحكامه السلطانية: «فأما المزارع فهى أصول المواد التى يقوم بها أود الملك، وتنتظم بها أحوال الرعايا، فصلاحها خصب وثراء، وفسادها جدب وخلاء». وعلى الرغم من قلة معلوماتنا عن الفلاحين كفئة اجتماعية لندرة المصادر التى تناولت مظاهر الحياة الريفية خارج المدن فى العصور الإسلامية، إلا أن الأمر الذى لاشك فيه هو أن الزراعة لعبت دوراً حاسمًا فى حياة تلك العصور، إذ إنه لا يعقل أن يتم ازدهار الحضارة الإسلامية بدونها وهى التى أتت بالجزء الأكبر من ثروة الدولة (الخراج). ولقد كان للخليفة عمر بن الخطاب سياسة رشيدة حاسمة تجاه الأراضى الزراعية الجديدة التى تم فتحها من أيدى الفرس مثل أراضى سواد العراق الخصبة التى طالب الجنود اعتبارها غنيمة حرب وتوزيعها عليهم كلها بعد إخراج الخمس للدولة، وأن تعتبر ملكًا لهم، ولكن عمر بن الخطاب أبى عليهم ذلك وقرر أن تبقى هذه الأرض بدون تقسيم، وأن يستمر أصحابها فى زراعتها كما كانوا يفعلون فى الماضى، على أن يدفعوا ضرائب الأرض (الخراج) وضرائب الرأس (الجزية)، التى صار يخصص دخلها للمصلحة العامة للمسلمين[1].

ولم يكتف عمر بذلك بل أرسل بعد الفتح مباشرة وفوداً لمسح (أى قياس) هذه الأراضى الزراعية الجديدة لتنظيم ملكيتها وزراعتها من جهة، ولتقدير خراجها المفروض عليها من جهة أخرى، كما ألزم أهلها بمواصلة العناية بالقنوات والسدود والجسور، وتقديم المؤن مدة ثلاثة أيام للجنود الذين قد يمرون فى البلاد، وهو ما يعرف بحق الضيافة. واستمرت سياسة الحكومات الإسلامية المتتابعة أيام الراشدين، والأمويين، والعباسيين، تعمل على تشجيع المسلمين على الزراعة

---

1 ـ د. سعيد عاشور ـ ود. سعد زغلول ـ المرجع السابق ص374.

بتوزيع الأراضى عليهم، مثل أراضى الصوافى وهى كل أرض متروكة أو ليست فى يد أحد، ومثل الأراضى الخراب أو الموات أو أراضى المستنقعات التى صارت ملكًا لمن يعمل على إحيائها وزراعتها. كذلك اهتم ولاة الأقاليم بإصلاح طرق الرى لتأمين مرافقها ومنابع ثروتها، فيؤثر عن عمرو بن العاص أنه استخدم آلاف العمال المصريين فى إصلاح طرق الرى فى مصر صيفًا وشتاء وكذلك فعل ولاة العراق فى حفر شبكة من الأنهار والقنوات فيما بين نهرى دجلة والفرات بعضها قديم مجدد، والبعض الآخر جديد مستحدث وأطلقوا عليها اسم النواظم لأنها نظمت توزيع المياه فى سهول وادى الرافدين، ولاسيما الجزء الجنوبى منها المعروف بالسواد لخصوبة أرضه وكثرة أشجاره ونخيله. ويؤثر عن الحجاج بن يوسف الثقفى أنه حفر فى هذه المنطقة الجنوبية بين الكوفة والبصرة أنهاراً عديدة مثل الصينى، والزابى، والنيل. ومن الطريف أن هذا النهر الأخير كان عرضه ثلاثين متراً ويأخذ مياهه من الفرات إلى دجلة فى منطقة تقع شمال بابل، وقد سماه بهذا الاسم تيمنًا بنهر النيل فى مصر.

تنوعت أساليب الرى والسقاية بتنوع مصادر المياه. ففى المجتمعات النهرية الفيضية تأصلت تقنيات الرى الصناعى حيث ابتكرت آلات رفع المياه بالدلاء والنواعير. كما شقت القنوات وشيدت الجسور وعرف نظام الرى المغطى نقلا عن الفرس. وجرى انتشار هذا النظام فى الغرب الإسلامى حتى أطلق عليه اسم «الأعمال الفارسية». وقد اهتم الأمويون والعباسيون بهذه الأعمال خاصة فى العراق والشام. واتبع الأمويون نظام «السخرة»، بينما تبنى العباسيون القيام بهذه المشروعات؛ فأسسوا دواوين للسقاية يشرف عليها مئات المهندسين ويعمل بها آلاف الفنيين والعمال. وبالمثل تبنى الأمويون فى مصر والشام والمغرب العربى وإسبانيا هذه المشروعات خاصة ما تعلق بصيانة القنوات المغطاة حتى لايتبخر منها الماء. كما شيدت سدود وخزانات ومواجل للاحتفاظ بمياه الأمطار وتوزيعها على الرقعة الزراعية. وكان توزيع الماء رهينًا بإقرار النظام. ففى عصور القوة روعيت العدالة فى

توزيع المياه. وعلى العكس خربت مشروعات السقاية فى عصور الضعف والانهيار إبان حكم النظم العسكرية؛ «فسدت المشارب وبطلت المصالح» على حد تعبير المؤرخ مسكويه.

نرى من ضروريات البحث الموضوعى أن نعترف لمؤسس هذا العهد: معاوية، بأعمال أخرى تحسب فى جانب خدمة التطور والتقدم النسبى. من ذلك عنايته بتطور الاقتصاد الصناعى والزراعى فى بلاد الشام طوال أيام حكمه هناك. ففى المجال الزراعى عنى بتطوير وسائل الرى وإخصاب الأراضى واعتماده خبرة ذوى الاختصاص من السكان المحليين كما أشرنا من قبل. وفى المجال الصناعى عزز نظام الحماية الجمركية للصناعات المحلية بحيث ساعد بذلك على تطويرها أكثر فأكثر وجعلها ذات أثر ملحوظ فى موارد الدخل العام وفى تحسين الدخل التجارى ورفع مستوى الحرفيين فنيًا ومعاشيًا. وإنه لأمر مهم تاريخيًا أيضًا أنه فى عهد إمارة معاوية على الشام، وفى زمان الخليفة الثانى عمر بن الخطاب، بدأ العرب بعناية خاصة من معاوية نفسه يبنون أول أسطول بحرى مستخدمين خبرة الاختصاصيين المحليين فى هذا المجال أيضًا، ومستعينين بخشب الأرز اللبنانى كما فعل الفينيقيون فى القديم. وقد استعمل هذا الأسطول أول مرة فى فتح العرب لجزيرة قبرص، ثم استعمل فى عهد معاوية نفسه بالحملة على القسطنطينية مرتين: الأولى عام 668 وقد فشلت الحملة هذه المرة، والثانية عام 673 وكانت ناجحة فى التغلب على الأسطول اليونانى ودخول خليج البوسفور والقرن الذهبى ومحاصرة القسطنطينية نحو خمس سنوات. على أن كل هذه الإصلاحات كانت تقتضيها طبيعة تطور القوى المنتجة فى المجالات الزراعية بالدرجة الأولى، ثم الصناعية - الحرفية ذات التقنية المتطورة. إن النظام الاجتماعى الذى أصبحت الدولة الأموية ممثلة له، كان شأنه - موضوعيًا - أن يتطور باتجاه تطور التجارة وخلق صناعة حرفية متقنة تجارى تطور الإمكانيات المتفتحة للنظام نفسه، أى للقوى المنتجة بالنسبة لصناعة أدوات إنتاج متطورة نسبيًا فى الزراعة والرى خصوصًا. إضافة إلى الإمكانيات المتفتحة لدى الطبقة الحاكمة وأصحاب الملكيات الكبيرة فى

الأرض وكبار التجار والقادة العسكريين، وإمكانيات التمتع بالمنتجات التقنية المتقدمة والغالية الأثمان، للاستهلاك والاقتناء. ذلك فضلا عن ضرورة تطور صناعة الأسلحة تلبية لحاجات الدولة المتوسعة باستمرار[1].

لذلك تنوع الإنتاج الزراعى وخاصة المحاصيل مثل القمح والشعير والأذرة باعتبارها غذاء السواد الأعظم من السكان. وأنتجت مصر الأرز بوفرة حتى كان يصدر منها إلى العراق. كما أنتجت زراعات صناعية بكميات وفيرة منها القنب والكتان والقطن خاصة فى مصر والشام وعربستان واشتهرت مصر بزراعة نبات البردى من أجل صناعة الورق. أما قصب السكر فقد انتشرت زراعته فى جميع السهول الفيضية بالمناطق الحارة فى مصر والعراق والمغرب الأقصى وإسبانيا. واهتم المسلمون بزراعة النباتات العطرية خاصة فى إيران لصناعة العطور والأصبغة. ومن هذه النباتات البنفسج والورد والياسمين والنرجس والزعفران والنيلة والحناء. كما اشتهرت اليمن بالبخور. أما النباتات الزيتية كالزيتون فقد اشتهرت بلاد المغرب بإنتاجه على نطاق واسع. كما زرع السمسم وفول الصويا والبقول فى معظم أقاليم العالم الإسلامى. وانتشرت زراعة الخضروات فى البساتين المجاورة للمدن على وجه الخصوص. أما الغروس المثمرة، فكان أشهرها النخيل الذى كان يمثل فاكهة الفقراء ناهيك عن زراعة العنب من أجل صناعة الخمور والزبيب.

أما عن علاقات الإنتاج فى مجال الزراعة؛ فقد عرفت نظم كثيرة منها نظام المزارع الخاصة ذات المساحات الصغيرة التى كان أصحابها يقومون باستزراعها مباشرة. كما عرف نظام المزارعة بموجب عقد يقدم بمقتضاه المالك الأرض والبذور والحيوان والمعدات اللازمة فى حين يقدم المزارع عمله العضلى وأحيانًا جزءًا من الآلات المنقولة. ويتم اقتسام العائد حسب شروط التعاقد. وكان الزارع يتقاضى الخمس فى الغالب الأعم. وقد شاع هذا النظام فى بلاد المغرب. أما نظام المساقاة

1 ـ حسين مروة ـ المرجع السابق ص470.

فيتم بناء على عقد يتصل بعمل السقاية ويتعلق بزرع يحتاج إلى الرى المنظم. كان المالك يقدم الآلات الرافعة والدواب ثم يوزع المحصول مناصفة بينه وبين المزارع الذى يقوم بسائر المهام الأخرى. أما نظام المغارسة فيتم وفق عقد يقدمه المالك بمقتضاه إلى شريكه أرضًا يقوم الأخير بغرسها. ويقسم العائد حسب شروط العقد. أما الإقطاعات الكبرى؛ فقد جرى العمل فيها على أساس تسخير العبيد فى أغلب الأحيان. ومعلوم أن الفقه الإسلامى قنن هذه النظم جميعًا. لكن اختلاف الفقهاء ومعطيات الواقع حالت دون التطبيق الصحيح للقواعد النظرية. إذ وجدنا فى كثير من الأحيان خروقا وتجاوزات فرغت القواعد الفقهية من مضمونها. على أن التجارب العملية أثبتت تقدمًا ملموسًا فى النشاط الزراعى فى العالم الإسلامى عما كان عليه الحال قبل الفتوح. ليس أدل على ذلك من التأليف فى مجال «الفلاحة» و«الريافة». ففضلا عن المعاجم اللغوية التى أحصت أسماء النبات والغروس؛ ألفت كتب بعينها فى الفلاحة. من أهمها ما كتبه ابن وحشية عن «علم الفلاحة النبطية» حيث مزج فيه بين الوصفات السحرية والطرق والأساليب الزراعية العلمية. كذلك كتاب البكرى المعنون «أعيان النبات والشجيرات الأندلسية» الذى أفاد منه ابن البيطار فى مؤلفاته. وبالمثل كتب الإدريسى كتابه «الجامع لصفات النبات وضروب أنواع المفردات من الأشجار والأثمار والأصول والأزهار». كما كتب ابن البصال ديوانًا من الشعر فى الفلاحة بعنوان «القصد والبيان». ففى عصر الراشدين ازدهرت الزراعة فى مصر والشام والعراق وإيران نتيجة الإصلاحات التى تبناها الخلفاء، وخاصة عمر بن الخطاب - والنظم والقواعد التى استنوها من أجل تحقيق العدالة خاصة ما تعلق منها «بنظام الخراج». وفى العصر الأموى تدهورت الزراعة نتيجة السياسة المشتطة التى عول عليها الأمويون وولاتهم. وما ترتب على ذلك من ثورات داخلية كثيرة مما أدى إلى تخريب المزارع. وحسبنا التنويه بأن الفلاحين كانوا يهجرون الأرض نتيجة عسف الجباة[1].

1 - محمود إسماعيل - المرجع السابق ص108.

الإنتاج الحيواني: احتوى العالم الإسلامى مناطق رعوية شاسعة كمنطقة السهوب الإستبسية فى آسيا الوسطى والهضبة الإيرانية وبادية الشام وصحارى الجزيرة العربية والصحراء الكبرى فى بلاد المغرب العربى. وكلها مناطق صالحة للرعى بكافة صوره وأشكاله. هذا فضلا عن المرتفعات الجبلية التى كانت مراعى مكثفة أنتجت المزيد من الثروة الحيوانية. وبالإضافة إلى ذلك كله شهدت المناطق الزراعية نشاطًا رعويا؛ إذ ارتبطت الحرفتان ارتباطًا وثيقًا. كانت سهوب آسيا الوسطى مرتعا للأبقار والأغنام والخيول. وشكلت الخيول بالذات المصدر الأساسى للثروة الحيوانية بالنسبة للقبائل التركية التى اعتمدت عليها فى الحرب والفلاحة والنقل فضلا عن الغذاء فى بعض الأحيان. كما مثل الرعى الحرفة الرئيسية لبدو شبه الجزيرة العربية، وعرف الجمل بأنه سفينة الصحراء. وقد حازت الخيول العربية شهرة عالمية وحسبنا أن القرآن الكريم كرمها حين ربطها بالجهاد والمشاغرة. قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: 60] ولا غرو فقد أفاض الأدب العربى فى ذكر محاسن الخيل التى شغف العرب بالاهتمام بأنسابها وخصائص أنواعها. وبالمثل اعتمد البدو من العرب العاربة من البربر فى المغرب العربى على رعى الماشية والأغنام والبغال والحيوان. وليس أدل على ذلك مما كتبه ابن خلدون من فصول هامة فى «مقدمته» عن حياة البداوة. ويحفل التراث العربى بمؤلفات خصصت لدراسة الحيوانات لعل من أهمها ما كتبه الجاحظ والدميرى. ولم تكن تربية الحيوانات من أجل الغذاء فقط؛ بل اعتمد عليها البدو فى مأكلهم ومشربهم ومسكنهم وملبسهم. هذا إلى جانب كونها الوسيلة الأساسية فى نقل الأثقال والعمل الزراعى وإدارة الطواحين وغير ذلك من الأمور التى تحتاج إلى القوة العضلية. وإلى جانب تربية الحيوانات؛ خبر المسلمون تربية الدواجن التى اشتهرت بها سائر أقاليم العالم الإسلامى. كما ربيت دودة القز فى إيران والشام وصقلية وإسبانيا لإنتاج الحرير. وبالمثل جرت تربية النحل من أجل الغذاء وإنتاج الشمع. واحترف سكان السواحل صيد الأسماك والإسفنج فضلا عن الأحجار الكريمة. وبرع المسلمون فى إنتاج سلالات جديدة من الحيوان والطير عن طريق التهجين. كما ارتبط تقدم الطب البيطرى بالترجمات عن اليونان

فضلا عن الخبرة المكتسبه. وبوجه عام ازدهرت حرفة الرعى فى عصور النظم غير العسكرية وتدهورت فى ظل النظم العسكرية. ففى عهد الرشيد مثلا بلغ الإنتاج الحيوانى من الوفرة إلى حد أن الكبش كان يباع بدرهم. بينما خربت المراعى فى العصور التى عمتها الحروب الداخلية وتسلط الحكام. ولدينا مثل على ذلك ساقه ابن خلدون؛ فحواه أن ثروة عرب البربر من الغنم أوشكت على الانقراض إبان عصر بنى أمية. لأنهم كانوا يأمرون ولاتهم ببقر بطون الشياه لاستخراج الجزة العسلية من سخالها. صفوة القول أن العالم الإسلامى الذى شكلت البوادى معظم مساحته اعتمد على الرعى اعتماداً كبيراً باعتباره حرفة دائمة وقارّة[1].

الصناعة:

حض الإسلام على العمل، وأكد على حرمته، وجعل من الإنتاج عبادة وتقربًا إلى الله بل جهاداً فى سبيله. قال تعالى: ﴿وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون﴾. وقال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾، فالمقصود هنا القوة فى الحرب والقوة فى العمل والإنتاج. وفى الأثر: «إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه». ولقد اعتمد العرب فى حياتهم بالدرجة الأولى على أعمال التجارة والنقل وتربية الماشية، كما اشتهروا ببعض الصناعات المحلية كالمنسوجات والجلود والأسلحة وعلى الأخص فى اليمن وحضرموت وعمان والبحرين والطائف والمدينة المنورة. ومع اتصال الفتوحات العربية شرقًا وغربًا، وانتشار الإسلام بين الموالى أو أهالى البلاد المفتوحة، واختلاط العرب بهم عن طريق الجوار أو المصاهرة، نشأت الشعوب الإسلامية والعربية التى حافظت على تراثها الحضارى القديم فى ميادين الزراعة والصناعة، وعملت على تطويره، لأن طبيعة التطور الحضارى تحتم استفادة الخلف من تراث السلف. ويضاف إلى هؤلاء المسلمين من العرب والموالى، أهل الذمة من الصناع وأصحاب الحرف الذين استوطنوا البلاد الإسلامية، مستفيدين من الحماية التى تقدمها لهم الدولة. ولم

---

1 ـ د. محمود إسماعيل ـ نفس المرجع ص109.

يكن عليـهم إلا أن يعترفـوا بسيادتهـا ويطيعـوا نظمها، ويدفـعوا الضـرائب لها. والواقع أن الحكومات الإسـلامية بصـفة عامة، كـفلت لعمالهـا من أرباب الحرف والصناعات حرية واسعة فى ممارسة أعمالهم، ولم تتدخل إلا فى بعض الصناعات المحدودة التى كان يتطلب ممارستها الحصول على إذن خاص مثل إنشاء الحمامات، وصنع الأسلحة، وسك النقود، وتركـيب الأدوية، والعمل فى دور الطراز، وهذا راجع بطبيـعة الحال إلى أسـباب تتعلق بالمـصلحة العامـة أو الأمن العام. وارتقت الصناعة بتوالـى الأجيال ووفرة المواد الخام النبـاتية والمعدنية، واتصـال العمران فى المدن الإسلامـية. على أنهـا ظلت مع ذلك فى مستـوى الصانع اليـدوى، وبقيت السلع تصنع فى البيـوت أو المحال والحوانيت. وقد تطلب هذا العـمل اليدوى من العامل أن يبدى مـهارة وحذقًا وصبـرًا مما أعطى إنتاجه، رغم قلته، صـفة الإتقان وطابع الطلاوة.. ولهـذا كانت حـالة العـامل الاقتـصاديـة متـواضعـة، وتكفى لضروريات عيـشه فقط منطبقًا عليـه القول المأثور «صناعة فى اليد أمـان من الفقر وأمان من الغنى»، واعتبر أهل الحرف فى عداد العـامة أو الطبقة الدنيا من المجتمع الإسلامى. ولهـذا كله، كانت الصـناعة وأربابها مـوضع عطف وتقدير عدد من الكتاب والمفكرين المسلمين الذين أفردوا لها الرسائل والفصول فى مؤلفاتهم[1].

ازدهرت فى العصر الأمـوى الصناعات الحربية التى تحتاج إليـها الجيوش من سيوف ودروع ورماح وحراب، وأنشئت الترسـانات البحرية اللازمة لصناعة السفن فى مدن الساحل، كالإسكندرية و«دمياط» و«رشيد» فى «مصر»، و«عكا»، «صور» و «صيـد» و «بيروت» فى «الشام»، وازدهرت كذلك الصناعـات الخشبيـة اللازمة لأعمـال بناء البيوت والمسـاجد والمستشـفيات، وأثاث المنازل، وصناعـات الخزف والأدوات المنزلية. وعرف العصر الأموى صناعات النسيج، وكانت أكثر الصناعات ازدهارًا فى «مصر» و«الـشام» و«العراق» و«فارس» وبلاد «ما وراء النـهر»، وكانت تصنع من الصوف والقطن والكتان والحرير، بالإضـافة إلى صناعات المواد الغذائية

1 ـ د. سعيد عاشور ـ د. سعد زغلول ـ المرجع السابق ص318.

القائمة علـى الإنتاج الزراعى والحيوانى، وصناعـات الجلود. وأقام الأمويون دوراً لسك النقود؛ الدنانير الذهبية والدراهم الفضية فى عهد «عبد الملك بن مروان» وما تلاه، وهذه الصناعة صـعبة لأنها تحتـاج إلى استخراج الذهب والفـضة من باطن الأرض، بعد استخلاصهما مما هو ممزوج بهما من رمال ومعادن أخرى، ثم صهره وتشكيله حسب الحاجة وإذا كانت الصناعات فى عصر الأمويين بسيطة، ولا تقارن بما وصلت إليه فى الوقت الحـاضر، فإنها كانت كـافية ووافية بمتطلبـات الحياة فى زمانها.

إذا كانـت الزراعة والرعى تشكلان أسـاس النشاط الاقـتصـادى فى الريف والبوادى؛ فإن الصناعـة تعد عماد الاقتـصاد فى المدن. ولما كانت الصناعة تعـتمد على التعدين؛ وجب أن نعرض للثروة المعدنية فى العـالم الإسلامى؛ وتبيان كيفية استـغلالها، وإلى أى مدى أسـهمت فى النشاط الصنـاعى. على الرغم من اتساع «دار الإسلام» فإن الكثير من أقاليمها افـتقدت إلى الثروة المعدنية كما هو الحال فى مصـر وبلاد الشرق الأدنى. ومع ذلك فـإن المعادن التى اسـتخرجت مـن الأقاليم الأخرى كانت وفيرة إلى حد تغطية احتياجات العالم الإسلامى برمته. وقد استلزم استـثمار المناجم قـوة بشرية لها وزنـها خاصـة من المأجورين الأحرار والفـلاحين المجاورين لمناطق التعدين فضلا عن الأرقـاء. وكان الاستغلال يجرب على أساس مبدأ الحريـة الاقتصادية أحيانًا. إذ أتيح لجـماعات من اليهود والمسلميـن استخراج المعادن مـن باطن الأرض على أن يقدمـوا للدولة خمس الإنتـاج. كما احـتكرت الدولة فى أحيـان أخرى استـغلال مناجمـها عن طريق العهـدة. واكتسب عـمال المناجم خبرة فى حفر الآبـار العميقة بحثا عن المعادن كمـا هو الحال بالنسبة لمناجم الزئبق فى إسبانيا. كما خبروا تقنية إنشاء الأنفاق الأفقية فضلا عن مهارة الغوص لاستخراج الأحـجار الكريمة من أعماق البحار. ومع ذلك انعـدم وجود مؤلفات تسجل هذه الخـبرات والمهارات كـتلك التى ألفت فى الفلاحة والسـوائم. أما عن أهم المعادن التى استخرجت من إيران وآسيـا الصغرى وبلاد النوبة والمغرب العربى

وإسبانيا؛ فهى النحاس والذهب والفضة والحديد والرصاص. وتوافرت الأحجار الكريمة فى شرقى إيران والهند. كما وجدت أملاح معدنية متنوعة فى معظم أقاليم العالم الإسلامى وبخاصة ملح الطعام. كذلك جرى استخراج النفط من شواطئ بحر قزوين لاستخدامه فى الإنارة والأغراض العسكرية. أما الذهب فقد توافر فى بلاد النوبة فضلا عن السودان الغربى حيث استورده التجار المغاربة. وحرصت الدولة على استثمار الشب والنطرون اللازمين للصباغة والاستعمالات الأخرى. ولاغرو فقد كان الشب من أهم سلع التجارة الدولية. أما جنوب شبه الجزيرة العربية فى اليمن وحضرموت فقد اشتهر بإنتاج الذهب والأحجار الكريمة. ونجحت المغرب فى استثمار مناجم الفضة والحديد والرصاص. كما أنتجت إسبانيا الفضة والنحاس والحديد والقصدير وملح الطعام. واستثمرت محاجر البناء خاصة فى إسبانيا التى اشتهرت بصناعة الرخام. أما الفحم الحجرى فقد ندر استغلاله واستعيض عنه بفحم الخشب. واشتهر الخليج العربى بمصايد اللؤلؤ. كما اشتهرت شواطئ تونس والبحر الأحمر والمحيط الهندى بالمرجان. خلاصة القول أن الإنتاج المعدنى الذى تطور بدافع الصناعة قد حقق ازدهاراً لاشك فيه إبان النظم المستنيرة. وعلى العكس خربت المناجم وتقاعس المسلمون عن استغلالها إبان سيطرة النظم الإقطاعية. أفاد العرب من خبرة أهل البلاد المفتوحة فى قيام صناعات متعددة. فإليهم يعزى الفضل فى وضع أصول صناعات تحويلية وتعدينية وغيرها نظراً لانشغال العرب بالحكم والإدارة والحرب. وقد كرم الإسلام العمل اليدوى من أجل التكسب إلى حد تفضيله على العبادة. قال تعالى: ﴿وقل عملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون﴾ وفى عصر الراشدين تبنت الخلافة رعاية الصناعات الحربية والبحرية مفيدةً من خبرات أهل الشام ومصر. أما الصناعات التى تخدم الحياة اليومية من ملبس ومأكل ومسكن فقد تركت حرة. واستمر الحال على هذا المنوال طوال العصر الأموى. وإن أضيفت خبرات وتقنيات جديدة بعد توسع المسلمين شرقًا وغربًا[1].

1 ـ د. محمود إسماعيل ـ المرجع السابق ص112.

صناعة الأسلحة: استخدم المسلمون جميع أنواع الأسلحة المعروفة فى العصر الوسيط. استخدموا السيوف والرماح والنشاب أى السهام ذات النصول المثلثة، كما استخدموا أقواس اليد والرجل، وأقواس اللولب التى تشد بواسطة لولب، وأقواس الركاب التى تشد من ركاب الخيل. كذلك استخدموا ما يسمى باللتوت وهى أعمدة ذات رؤوس حديدية مستطيلة ومضرسة، والدبابيس وهى تشبه اللتوت إلا أن رؤوسها مدورة ومضرسة، والطبر أو الطبرزين وهى الفأس، والدرق اللمطية لاتقاء ضربات العدو وسهامه، وهى مغطاة بجلد اللمط وهو حيوان يعيش فى الصحراء. كذلك لبسوا الخوذات أو البيضات الحديدية لحماية رؤوسهم كما لبسوا الجواشن التى تحمى صدورهم، والدروع المسبلة ذات المغافر الملثمة التى تغطى جميع أجزاء الجسم. هذا، وكان الحصان يعتبر سلاحًا هامًا من أسلحة الجيش، ولذا اهتموا بتربيته وإعداده وتدريبه، كما اهتموا بسلامته وتغطية جسمه بدروع فولاذية أو جلدية تسمى التجافيف. ويشير العذرى على سبيل المثال إلى أن ساحل تدمير (مرسيه) بشرق إسبانيا، كان مركزًا لتربية الخيل حتى إنه كان يخرج ألف فرس من كل ألوان الخيل فى كل عام. كذلك استخدم المسلمون أسلحة الحصار الثقيلة مثل المنجنيقات المدمرة للحصون والدبابات والكباش لنقب الحوائط والأسوار. كل هذه الأسلحة صنعها المسلمون فى بلادهم الممتدة شرقًا وغربًا، معتمدين فى ذلك على ما لديهم من مواد خام وأيد صناعية ماهرة. وقد أمدتنا الكتب الجغرافية والمعاجم اللغوية، بمادة غزيرة عن المعادن المختلفة ولا سيما مناجم الحديد التى كانت منتشرة فى فرغانة، وكابل، وكرمان، وأذربيجان، وأرمينية، ولبنان والشام، وصقلية، والمغرب العربى وإسبانيا. هذا إلى جانب الحديد المستورد من الهند وسيلان وروسيا وبيزنطة، وعلى أساس هذه الخامات الحديدية، قامت صناعة الأسلحة التى اشتهرت باسم أماكن صنعها فى العالم الإسلامى مثل:

السيوف الفارسية، والسيوف اليمنية، والسيوف الشامية كالمشرفية والدمشقية. ومثل الرماح الخطية التى كانت تصنع فى الخط بين البحرين وعمان على الخليج العربى. كذلك كان الفولاذ الإسبانى مشهوراً بجودته فى أنحاء العالم، ومن أهم مراكز صناعته: طليطلة، وغرناطة وإشبيلية ومرسية والمريه، حيث كانت تصنع السيوف والدروع والخوذات وغيرها من الآلات الحربية[1].

التجارة:

كان العرب قبل ظهور الإسلام وسيطًا تجاريًا مهما بين الشرق والغرب؛ حيث كانت التجارة القادمة من الشرق وبخاصة من «الهند» و«الصين» تمر ببلاد العرب عبر طريقين رئيسيين: **الطريق الأول**: يمر بعدن فى جنوبى غرب «اليمن» على مدخل «البحر الأحمر» الجنوبى، حيث تأتى السفن، بعضها يواصل سيره فى البحر الأحمر إلى «ميناء القلزم ـ السويس» فى «مصر»، ثم تفرغ حمولتها، وتنقل البضائع بالقوافل إلى الموانئ المصرية على «البحر المتوسط»، وبخاصة «ميناء الإسكندرية»، ثم تشحن فى السفن بحراً مرة أخرى إلى «أوروبا»، وبعضها الآخر يفرغ حمولته فى «عدن»، ثم تحملها القوافل برا عبر الساحل الغربى لشبه الجزيرة العربية، المطل على «البحر الأحمر»، وتمر بمكة المكرمة، التى كانت مركزاً تجاريًا مهمًا، وبعضها يواصل سيره إلى «ميناء غزة» فى «فلسطين». ـ **والطريق الآخر**: يمر عبر «الخليج العربى»، حيث تواصل السفن سيرها وتفرغ حمولتها فى أقصى شماله، حيث «ميناء الأيلة» غربى «البصرة» الحالية فى «العراق»، ثم تنقل البضائع على القوافل براً عابرة «العراق» إلى «الشام»؛ حيث تفرغ حمولتها فى موانيه مثل «عكا» و«صور» و«صيدا» و«بيروت» و«اللاذقية» و«أنطاكية»، ثم تشحن بحراً إلى «أوروبا». وقامت التجارة فى أغلبها على جلب الحرير من «الصين»، والتوابل والبخور من «الهند» وكانت هذه المواد مطلوبة على نطاق واسع فى «أوروبا»، وكان العرب يقومون بدور فعال ونشط فى عملية التجارة هذه، واستفادوا منها

---

1 ـ د. سعيد عاشور ـ د. سعد زغلول ـ المرجع السابق ص350.

فائدة كبيرة، بل إن بعضهم مثل عرب «الحجاز» وبصفة خاصة «قريش» كانت حياتهم الاقتصادية تقوم على التجارة، وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك فى سورة قريش، فقال: ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ﴿٢﴾ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ﴿٣﴾ الَّذِى أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴿٤﴾﴾

وفى العصر الأموى لم يعد العرب وسيطًا تجاريًا، لنقل البضائع بين الشرق والغرب، وإنما أصبحوا سادة الموقف كله، بعد امتلاكهم الطرق التجارية البحرية والبرية، من «الصين» إلى «إسبانيا»، فبالإضافة إلى ما سبق الحديث عنه بسط المسلمون سيادتهم على الطريق الذى يبدأ من شمالى الصين، ثم يجتاز هضاب وسط آسيا وسهولها ـ بلاد «ما وراء النهر» ـ ثم يتفرع إلى عدة طرق، تنتهى كلها إلى موانئ «البحر الأسود» و«البحر المتوسط»، ويمر معظمها فى الأراضى الإسلامية، ثم تنقل التجارة إلى «أوروبا الشرقية» والجنوبية، أما «أوروبا الغربية» و«المغرب العربى» و«إسبانيا»، فكانت معظم تجارتها تأتى من الطريق الأول عبر الموانئ المصرية. وقد سيطر المسلمون على النشاط التجارى كله فى تلك الرقعة الواسعة من الأرض وأصبحت بلادهم تصدر البضائع والمنتجات إلى بلاد الشرق والغرب. فتصدر إلى «الصين» المنسوجات الصوفية والقطنية والكتانية، والبُسُط، والمصنوعات المعدنية، وخام الحديد، وسبائك الذهب والفضة، كما كانوا يستوردون منها الحرير. ولم تقتصر الأرباح المالية التى كانت تجنيها الدولة الأموية على مجرد التبادل التجارى، بل كانت تحصل على أموال طائلة من التجارة العابرة على هيئة رسوم جمركية، كما خلقت هذه العملية التجارية الواسعة فرص عمل لعشرات الآلاف من الناس، وبخاصة فى مدن الموانئ على سواحل جزيرة العرب الجنوبية والشرقية، مثل «عدن» و«حضرموت»، و«صحار» و«هرمز»، و«البحرين»، و«القطيف» ، و«سيراف»، و«البصرة»؛ فازدهرت هذه المدن ازدهارًا كبيرًا، كما ازدهرت الموانئ الأخرى المطلة على «البحر الأحمر»، كميناء «جدة» و«السويس»،

أو المطلة على «البحر المتوسط» من «أنطاكية» شمالا حتى «غزة» جنوبًا، وكذلك موانيه الجنوبية فى «مصر» و«المغرب العربى»، مثل «دمياط» و«الإسكندرية» و«طرابلس الغرب» و«تونس». وقد ساعد على ازدهار تلك الحركة التجارية العالمية اهتمام الدولة الأموية بإنشاء الطرق، وتعبيدها وتأمينها، فكانت القوافل تسير فى طرق آمنة، تنتشر على جوانبها الفنادق والاستراحات والأسواق[1].

الإصلاحات الاقتصادية فى إسبانيا: الحكم الإسلامى فى إسبانيا لم يكن مجرد ثورة دينية فصلت أهل البلاد عن ماضيهم البغيض، إنما تضمن انقلابًا اقتصاديًا بعيد الأثر، فقد أدى إلى تخفيف الضرائب وتبسيطها فهى لم تعد ضريبة الجزية والخراج والعشور كما طبقت المثل الاشتراكية فى جباية الضرائب وفرضها. فى ميدان الجزية طبق الولاة العرب فى إسبانيا أحكام الإسلام، فلم تزد على دينارين ولم يقل مقدارها عن 12درهمًا، وكانت تتراوح قلة أو كثرة حسب مقدرة الشخص المالية، وهى قد فرضت على الرجال القادرين على حمل السلاح، وأُعفى منها النساء والأطفال والمقعدون والمساكين والمرضى، وتذكر لنا الوثائق أن مقدار الجزية كان يجبى على اثنى عشر قسطًا، بمعنى أن رقيق الحال كان يدفع درهمًا فى الشهر. أما عن الخراج وملكية الأرض، فقد لوحظ أن الأرض كانت على نوعين: **النوع الأول،** الأراضى التى استولت عليها الدولة، أرض الكنيسة أو التى تركها أصحابها وفروا من البلاد، هذه الأرض كانت نظريًا ملك الدولة، ولكن الدولة لم تكن تحتفظ إلا بخمسها فقط والباقى توزعه على الجند أو على المهاجرين من العرب والبربر. وكانت أراضى الولايات الشمالية تخصص للبربر وأراضى الولايات الجنوبية كانت تخصص للعرب، ولم يكن هؤلاء فى الحقيقة يحتفظون إلا بملكيتها الاسمية فقد تركوها لفلاحيها الأصليين نظير شطر من المحصول لا يتجاوز الثلثين فى بعض الأحيان أو الثلاثة أخماس فى بعض الأحيان

1 ـ د. عبدالشافى محمد عبداللطيف ـ نفس المرجع ـ ص86 ـ 88.

الأخرى. **أما النوع الثانى** فهى الأراضى التى تركت لأصحابها الأصليين، وكانت غالبية الأرض، وكان ملاكها هؤلاء يؤدون عنها الخراج فقط الذى كان يتوقف على قدرة الأرض على الإنتاج ولم يكن يتجاوز عشر المحصول. وكان الخراج يفرض بالتساوى على من يحوز الأرض مهما كان دينه أو لونه يتساوى فى ذلك المسلم والذمى، فكأن العرب قد قاموا بتحرير جمهور الزراع من الإقطاعية القديمة، وتملكوا الأرض للمرة الأولى فى حياتهم وأصبح لهم حق التصرف فيها بنقل الحيازة عن طريق البيع والشراء. وكان هذا فى الحياة الاقتصادية انقلابًا بعيد المدى. قضى على الإقطاعية ودعمت الطبقة الوسطى وارتفع شأن الطبقة المعدومة، وكان هذا مقدمة لاستقرار اجتماعى يصل إلى القمة بعد عصر الولاة، وتنفرد إسبانيا دون أوربا المعاصرة بمظاهر الرخاء والثراء والاستقرار[1].

تضمن الحكم الإسلامى إخراج شطر كبير من الشعب الإسبانى من ظلمة اليأس والعبودية إلى الحرية والمعاملة الإنسانية الكريمة، ونقصد بهم الرقيق، فمن بقى على دينه منهم عومل معاملة سائر أهل الذمة وخفف من أعبائه بالصورة التى عرضنا لها، وصار لهم حق الحيازة والزراعة نظير جزء من المحصول، أما الذين اختاروا الدخول فى الإسلام فقد دخلوا الحياة الإسلامية من بابها الواسع وظفروا بحقوق لم تخطر للمعاصرين على بال. على أن الأمر الذى نريد أن نعرفه هو أثر السياسة الدينية والاقتصادية فى نفوس أهل البلاد الذين دانوا للحكم العربى وما أدى إليه ذلك من انتشار الإسلام فى إسبانيا؟ كان الحكم الإسلامى فى الحقيقة نعمة ورخاء على الإسبان. حطم الإقطاعية المستبدة وخلص الناس من طغيان الكنيسة الكاثوليكية، خفف عبء الضرائب عن الطبقات الوسطى والفقيرة وحرر الرقيق وأباح لهم زراعة الأرض وملكيتها، أو بمعنى آخر كان الحكم الإسلامى فى حياة هؤلاء الناس تطوراً له ما وراءه وليس من شك فى رضا المسيحيين من أهل

1 ـ د. حسن أحمد محمود ـ المرجع السابق ص65.

البلاد عن هذا النظام الجديد اعترفوا فى صراحة أنهم يؤثرون حكم العرب على حكم القوط، وقد سبق أن قلنا إنه لم تحدث ثورة مسيحية واحدة على المسلمين طوال عصر الولاة، بل حتى القساوسة الذين كان من المتوقع أن يكونوا أشد الناس سخطًا على الوضع الجديد لم يكونوا شديدى التألم من حكم العرب، كما يدل على ذلك التاريخ المنسوب إلى آيزيدور الباجى القسيس الذى كتب بقرطبة عام 754م والذى لم يعرض للحكم العربى بالنقد الشديد. كانت هذه السياسة أعظم وسيلة إلى الإسلام بل كانت أبلغ وأكثر فعالية من المعارك والقتال، إن الإسلام يرجع الفضل فى انتشاره على نطاق واسع إلى هذه السياسة الحكيمة وحدها، واعترف المستشرقون بأن العرب لم يرغموا أحدًا على الدخول فى دينهم. كانت طبقة العبيد الأسبان أكثر الطبقات استجابة لهذا الحكم الجديد الذى حررها وأخذ بيدها، هذا فضلا عن أن حظها من المسيحية كان قليلا. بل جاوز الإسلام أفراد هذه الطبقة إلى الطبقة الوسطى الذين بدأوا يدخلون فى الإسلام عن إيمان وعقيدة وحماس، بل نجد أفرادًا من طبقة كبار الملاك يعتنقون الإسلام ويقبلون عليه، وكان ارتباط كثيرين من العرب والبربر بعلاقات المصاهرة مع أهل البلاد يشد أزر الحركة الإسلامية ويقويها. ويبدو أن الحركة الإسلامية فى إسبانيا كانت تسير بخطا واسعة، فهذا ابن عذارى وابن القوطية يؤكدان أن انتشار الإسلام وقوته فى إسبانيا تم فى أول ولاية السمح بن مالك عام 100هـ (719م). ولعلنا نذكر كيف أن عهد عمر بن عبدالعزيز كان عهد نجاح الدعوة الإسلامية فى جميع الأمصار الإسلامية، وفى آخر عهد الولاة، وعند دخول عبدالرحمن بن معاوية يبدو لنا أن إسبانيا بلد إسلامى استبحر فيه الدين واستقرت قواعده ورسخت أقدامه. ولما بدأ أهل البلاد يدخلون فى الإسلام أطلق العرب على من أسلم منهم اسم المسالمة أو الأسالمة، ثم أطلق على أولادهم الذين نشأوا على الإسلام اسم المولدين، واستمرت هذه التسمية تطلق عليهم حتى نهاية القرن الثالث الهجرى ثم تلاشت

بسبب اختلاط الناس وتحول أهل المملكة الإسلامية فى إسبانيا إلى إسبان دون تمييز[1].

- **الطراز:** تخلى العرب بعد الفتوحات عن ثيابهم الخشنة من الجبب الصوفية المرقعة بالأديم، والأقبية الطويلة المربوطة فى وسطها بالزنانير، والصابرات التى يرتدونها فوق الأقبية، وأقبلوا على التأنق فى اللباس، وتظاهروا بمظاهر الأبهة والفخامة، فازدهرت صناعة النسيج فى أنحاء الدولة العربية، وعرفت مصانع النسيج بدور الطراز، والطراز كلمة فارسية الأصل معناها التطريز وعمل المدبج أو الشريط الكتانى الذى ينسج فى لحمة الثوب وسداه، ثم تطورت كلمة الطراز فأصبحت تعنى المصنع الحكومى الذى تصنع فيه الثياب، ومن المعروف أن من أبهة الملك وفخامة السلطان ومذاهب الدول حسبما يذكر ابن خلدون أن ترسم أسماء الملوك أو علامات تختص بهم فى طراز أثوابهم المعدة للباسهم من الحرير أو الديباج أو الإبريسم، «تعتبر كتابة خطها فى نسج الثوب ألحاما وأسداد بخيط الذهب، أو ما يخالف لون الثوب من الخيوط الملونة من غير الذهب على ما يحكمه الصناع فى تقدير ذلك، ووضعه فى صناعة نسجهم، فتصير الثياب الملوكية معلمة بذلك الطراز قصد التنوية بلابسها من السلطان فمن دونه أو التنويه بمن يختصه السلطان بملبوسه إذا قصد تشريفه بذلك أو ولايته لوظيفة من وظائف دولته». وهكذا اقتبس خلفاء الدولة الأموية الطراز من دولتى الروم والفرس، ولم يجروا أى تغيير جوهرى على صناعة النسيج السابقة على الإسلام، وقنعوا بإدخال الكتابة العربية التى تشير إلى أسمائهم مع كلمات أخرى تجرى مجرى الفأل أو السجلات. وكانت الدور المعدة لنسج الأثواب الخلافية فى قصورهم تسمى دور الطراز الخاصة، تمييزاً عن دور الطراز العامة التى تتولى صناعة ثياب الرعية، وكان يتولى النظر على هذه الدور قائم يسمى صاحب الطراز ينظر فى أمور الصباغ والأنواع والحاكة الذين يعدون الحلل والبرود وغيرها، وفى إجراء أرزاق العمل

---

1 ـ د. حسن احمد محمود ـ نفس المرجع ص66.

وكانت مصر قبل الإسلام مشهورة بصناعة النسيج، وكان الأقباط يحملون لواء هذه الصناعة مدة طويلة لدرجة أن العرب كانوا يطلقون على المنسوجات المصرية اسم «قباطى» نسبة إلى أقباط مصر، ولذلك عمد العرب إلى الإفادة من هذه الشهرة فى كسوة الكعبة، ومنح الخلع، وأدى ذلك إلى نهوضهم بهذه الصناعة ودفعها خطوات كبيرة إلى الأمام، وشاع فى عصر سليمان بن عبدالملك نوع من الترف والتأنق فى الزى بتوجيه من الخليفة، فقد فرض على رجاله وأهل بيته وخدمه ارتداء الموَشّى لشدة ولوعه بهذا النوع من النسيج الذى تدخل فى لحمته وسداه خيوط الذهب، ويعرف أيضًا بالمقصب، وفى أيامه عمل الوشى الجيد باليمن والكوفة والإسكندرية، ولبس الناس جميعًا الوشى جبابًا وأردية وسراويل وعمائم وقلانس، وذكر المسعودى أنه «كان لا يدخل عليه رجل من أهل بيته إلا فى الوشى، وكذلك عماله وأصحابه ومن فى داره، وكان لباسه فى ركوبه وجلوسه على المنبر، وكان لا يدخل عليه أحد من خدامه إلا فى الوشى، حتى الطباخ، فإنه كان يدخل إليه فى صدره وشى وعلى رأسه طويلة وشى، وأمر أن يكفن فى الوشى المثقله»، كذلك شاع لبس الطيلسان بين فئات مختلفة من الناس، وكان أول من لبسه فى الإسلام من العرب عبدالله بن عامر بن كريز (ت59هـ) أو جبير بن مطعم (ت54)، وكان عمر بن عبدالعزيز يصلى فى جبة طيالسة ليس عليه إزار[1].

شهد العصر الأموى نهضة عمرانية كبرى، استفاد فيها المسلمون من التراث، ومن الطرز المعمارية التى وجدوها فى البلاد المفتوحة سواء أكانت فارسية أو بيزنطية أو مصرية، وطبعوه بطابع عربى إسلامى، ووضعوا بذور فن معمارى متميز عن غيره من الفنون المعمارية الأخرى وساعدهم على ذلك الثراء الذى كانت تتمتع به الدولة. واستطاع بنو أمية بفضل سياستهم العربية أن يسيروا بالعرب فى طريق القوة والمنعة، وأن يصونوا تراث العرب من الضياع من حيث الاحتفاظ

---

1 ـ د. السيد عبدالعزيز سالم ـ المرجع السابق ص687.

بالروح الإسلامية، ومن حيث اتساع رقعة الدولة، ومن حيث تعضيد الحركة العلمية، كذلك برهن العرب فى عصر الدولة الأموية بنشاطهم العمرانى على أنهم من الشعوب المتحضرة الكبرى، فقد احترموا تراث الماضين، واهتموا بالتعمير السلمى، وأحاطوا رجال الفن والصناعات فى البلاد المفتوحة بالرعاية والتقدير، فأسبغوا عليهم حمايتهم، واصطنعوهم فى أعمالهم الفنية. وكان لاختيار دمشق مركزاً للخلافة الأموية أثره الكبيرة فى تأثرهم ببعض الطرز الفنية التى كانت تسود بلاد الشام، حيث كانت تزدهر مدارس الفن الهلنستى والبيزنطى المتأثر ببعض أساليب الفن الساسانى بحكم الجوار، وشاهد المسلمون العمائر المسيحية الرائعة فى الشام من قصور وكنائس وبازيليكات ومعموديات وأضرحة، فكان من الطبيعى أن يتأثروا بأساليبها عندما بدأوا يقيمون لأنفسهم منشآت دينية ومدنية وحربية، تضارع فى عظمتها منشآت البيزنطيين، ولم يأنف العرب أن يتتلمذوا على أيدى أرباب الحرف والفنانين من السوريين والقبط والفرس وغيرهم، ولهذا كان الفن المعمارى والفنون الصناعية الإسلامية فى العصر الأموى تعتمد أساساً على التقاليد الفنية المحلية[1].

* **إنشاء المدن الجديدة:** أنشأ الأمويون عدداً من المدن فى المشرق والمغرب، ولا يزال معظمها قائما معروفًا حتى الآن، فأنشأ «عقبة بن نافع» فى عهد «معاوية ابن أبى سفيان» (41 ـ 60هـ الموافق 661 - 679م) مدينة «القيروان» فى «تونس»، وقد أصبحت عاصمة المغرب العربى كله فى العصر الأموى، ومركزاً من أعظم المراكز الحضارية الإسلامية.

مدينة قيروان: إنشاء مدينة القيروان كان من أهم الأحداث فى تاريخ الفتح الإسلامى وفى تاريخ انتشار الإسلام والثقافة العربية وأصبحت مقراً للولاة والعمال وقبلة المغرب العربى وكعبة الحضارة ومعقل الإسلام. فقد وفد إليها كثير من الصحابة وأقاموا بها يفقهون الناس ويبصرونهم بشؤون دينهم، كما دفن بها كثير ممن استشهد منهم، ويُعتبر إنشاؤها بدء تاريخ الحضارة الإسلامية فى المغرب، فإلى

1 ـ د. السيد عبدالعزيز سالم ـ نفس المرجع ـ ص703.

جانب الجيش والبعوث التى تخرج منها للفتح كـان الفقهاء يخرجون منها لينتشروا فى المغـرب العربى يعلمـون العـربية وينشـرون الإسلام بل إن الدور الذى لعـبتـه مدرسـة القيـروان فى إدخال عرب العـاربة من «الأمازيغ البـربر» لايقل عن الدور الذى لعبه القـواد الفاتحون، ورغم أنه لم تتح لعقبة بن نافع مـؤسس القيروان إتمام ما بدأ وتنفيذ السياسة الحكيمة التى وضعهـا، غير أن سياسته هذه أصبحت دستوراً لمن أعقبه من القواد الفاتحين لأنها أكثـر السياسات ملاءمة لأحوال المغرب العربى، فخليفته أبو المهـاجر دينار يزحف من المناطق الداخلية ويطوق باب المغرب الأوسط ويصطنع سياسة التحـبب إلى قبائل المغرب العربية ومسالمتها وترغـيبها فى الدخول إلى الإسلام، كـما وضحت الأهميـة القصوى للقـيروان فى عهد زهيـر بن قيس البلوى حينمـا ارتد عرب العاربة من «الأمـازيغ البربر» ولولا القيـروان وأهميتـها الاستراتيـجية لطرد العرب نهائيًـا من المغرب العربى وضاعت الجهـود الشاقة التى بذلت من قبل[1]. وفى عهد «عـبدالملك بن مروان» (65 ـ 86هـ الموافق 684 - 705م) أنشأ أخـوه «عبـدالعزيز بن مـروان» والى «مصر» مـدينة «حلوان» جنوبى «الفسطاط»، وأنشأ «حسان بن النعمان الغسانى» مدينة «تونس»، وأنشأ الحجاج بن يوسف الثـقفى» مدينة «واسـط» فى «العراق» بين «البـصرة» و «الكوفة»، ومـدينة «قم» فى منطقة الجبال فى بلاد فارس، بين «ساوة» و «أصـفهان». وأنشأ «سليمان ابن عبدالملك» فى عهـد أخيه «الوليد» (86 ـ 96هـ الموافق 705 - 714م) مدينة «الرملة»، كمـا أنشأ الخليفة «هشام بـن عبدالملك» (105 ـ 125هـ الموافق 723 - 742م) مدينة «الرصافة» بالقرب من «الرقـة» فى «العراق» وأنشأ «الحكم بن عوانة الكلبى» مدينة «المحفوظة» فى «السند»، و«عمر بن محمد بن القاسم الثقفى» مدينة «المنصورة» فى «السند» أيضًـا. حرص الأمويون على الاستـمتاع بالحيـاة الدنيوية، والتظاهر بمظاهر الترف والأبهة والفـخامة، فاهتموا بإنشاء القـصور المنمقة والمزينة بالزخارف النباتية والهندسية والصور والتماثيل دون أى تحرج، وتدلنا الآثار الأموية الباقيـة من القصور الخلافيـة على تجاوز الأمويين استـخدام الزخرفة إلى استـعمال

---

1 ـ د. حسن أحمد محمود ـ المرجع السابق ص25.

التصوير فى القصور والحمامات. ويتجلى فى بناء القصور الأموية فى البادية ميل الأمويين الأصيل إلى الفن، وانجذابهم نحو البادية حيث التمتع بهدوء الصحراء التى عاش فيها آباؤهم قبل عصر الفتوحات، وحن إليها أبناؤهم، ولا شك أن البادية هى التى نبعت منها ملكات العرب الفكرية، ونعنى بها ملكات الحس والشعور والخيال.

القصور الأموية:

تمثل القصور الريفية التى بناها الأمويون فى بادية الشام الفن الإسلامى فى شكله المدنى أى غير الدينى. والحقيقة أن الأمويين بإقامتهم فى تلك القصور كانوا يحيون تقليداً عرفه الغساسنة من قبل. ولابأس إذن أن تكون تلك القصور قد جمعت فى مجال الفن ما بين التقاليد الرومانية والعربية. ومن أهم ما وصلت إلينا معرفته من مبانى الأمويين فى البادية: قصر عمرة الذى ينسب إلى الوليد بن عبدالملك (86 ـ 596/ 705 ـ 715م)، وقصر الحير وخربة المفجر التى تنسب إلى هشام بن عبدالملك (105 ـ 125هـ الموافق 723 - 742م)، وقصر المشتى الذى ينسب بناؤه إلى الوليد بن يزيد (125 ـ 126هـ الموافق 742 - 743م)، ثم قصر الأخيضر وإن تراوح تاريخ بنائه ما بين أواخر العصر الأموى وأوائل العصر العباسى. أما عن القصور فى الأمصار، من: مصر والمغرب فلم يصل إلينا ما يدل عليها، بينما بقيت بعض معالم قصر قرطبة إلى جانب أطلال مدينة الزهراء. والملاحظ هو أن الخطة العامة للقصور الأموية تتمثل فى الفناء المركزى الذى يحيط به البوائك على الأعمدة إلى ارتفاع طابقين. والشكل الخارجى عبارة عن مربع يميل إلى الاستطالة من الحيطان المحصنة فى الزوايا بأبراج ثقيلة، وسلسلة من الأبراج نصف الدائرية على طول الجوانب. وفى منتصف أحد الحيطان ينفتح المدخل فى شكل بوابة عريضة مرتفعة إلى أعلى الطابقين، والدور الأسفل مخصص لحاشية الأمير، أما الدور الأعلى فللمعيشة وقاعة الاستقبال التى عادة ما تكون فوق المدخل. وتلك القصور تشابه القصور الرومانية فى عناصر بنائها، من: الحمامات والحيطان والعقود والحنيات والبوابات، باستثناء الكسوة الزخرفية من

الجص المنقوش فـهى شرقية إيرانيـة أصلا (جروبه، ص14). هذا، كما أن جـميع تلك القصور لاتخلو من المسجد[1].

كشـفت الحفريات الأثرية منذ نهـاية القرن الماضى ومطلع القـرن الحالى عن العديد من القصور التى بناها الخلفاء الأمويون؛ وبخاصة فى صحراء الشام، لأنهم كانوا يحبون البادية ويحنون إليها، استـمتاعًا بالهواء الطلق، وطلبًا للراحة والهدوء من عناء العمل السياسى والإدارى. ومن القصور التى اكتشفت أخيراً «قصر عمرة» الذى اكتشفه «موزيل» عام (1898م)، ويقع على نحو خمسين ميلا شرقى «عمان» عاصمة «الأردن» حـاليا. ويرجع الباحثون أن هذا القصر بنى لـلخليفة «الوليد بن عبدالملك»، وهـو يتكون من قسمين رئيـسيين، هما: قاعـة الاستقبـال، والحمام الساخن. أما قاعة الاستقبال فهى بناء مستطيل تغطيه ثلاث أقبية نصف أسطوانية، يفصلها عن بعـضها عقدان عـرضيان، وهذا الطراز المعمـارى، طراز فارسى أخذه المسلمـون من «إيران»، وتوجد فى نهـاية القبـو الأوسط لقاعـة الاستـقبال حـنية العرش، وهى مـغطاة بقبـو نصف أسطوانى، أقل ارتفاعًـا من سقف أقـبية قـاعة الاستقبـال، وتحلى حنية العرش بصورة الخليفة وهو جـالس على عرشه، ويكتنف الحنية من جهتيـها غرفتان لتغيير الملابس. ويقع القـسم الثانى وهو الحمام الساخن إلى يسار قاعة الاستقبال، ويتكون من ثـلاث غرف رئيسية؛ الغرفة الباردة ويدخل إليها من قاعة الاستقبال، ويغطيها قبو نصف أسطوانى محوره عمودى على محور قاعة الاسـتقبال، ويليها الغـرفة الدافئة، وهى مغطاة بقـبو متقاطع، يليهـا الغرفة الساخنة، وهى مغطاة بقبة نصف كروية مـحمولة على أربعة مثلثات كروية، وهذا القصر مبنى من الحجـر الجيرى الأحمر، وتغطى الأقبية طبـقة سميكة من البلاط، كما تغطى الأرضيـة ببلاطات من الرخام، تجرى بأسفلها مواسيـر البخار الساخن، وهى تشبه حمامات «روما».

1 ـ د. سعيد عاشور ـ د. سعد زغلول ـ المرجع السابق ص503.

ومن اللافت للنظر الصور التى وجدت على جدران ذلك القصر، ومن أهمها: صورة الخليفة وهو جالس على عرشه، ويحف به شخصان، وفوقه مظلة محمولة على عمودين حلزونيين، وتوجد على عقد المظلة كتابة كوفية تطرق إليها التلف. وصورة أخرى لستة أشخاص، اشتهرت بأنها تمثل صور أعداء الإسلام. والصور الست فى صفين، كل ثلاث فى صف، ويلبسون ملابس فاخرة، وفوق رؤوس أربعة منهم وجدت كتابة بالعربية واليونانية، لا تزال باقية،وهم من اليسار إلى اليمين «قيصر الروم» فى الصف الأول، ويليه «روذيق» ملك «القوط» الإسبانى فى الصف الخلفى، والثالث فى الصف الأول هو «كسرى فارس»، والرابع فى الصف الخلفى فوقه كلمة «النجاشى». وقد استنتج الباحثون من هذه الصورة، ومن ترتيب وضع الملوك فيها أن الذيّن فى الصف الأول هما «كسرى» و «قيصر» من ملوك الإمبراطوريات الكبيرة، أما اللذان فى الصف الخلفى فهما من ملوك الدول الصغيرة، كما استنتجوا أن تكون الصورة الخامسة لملك «الصين»، والسادسة لأحد ملوك الترك، وهؤلاء هم الذين فتح المسلمون بلادهم فى العصر الأموى، أو فرضوا عليها سيادتهم. ومن القصور التى اكتشفت أيضًا القصر المسمى بقصر «خربة»، الذى ينسب إلى الخليفة «هشام بن عبدالملك»، ويقع على بعد ثلاثة أميال شمالى مدينة «أريحا» فى «فلسطين» وكان قصرًا شتويًا زينت جدرانه بصور ورسوم آدمية وحيوانية، كما وجد اسم الخليفة «هشام بن عبدالملك» مسجلا على أحد الجدران، وصورة فتاة تحمل باقة من الورد، ولوحة تمثل فتيات يرقصن وقد صبغن شفاههن وأظافر أيديهم وأرجلهن بصبغة ذات لون قرمزى، بالإضافة إلى رسوم نباتية تحمل شجرة يحيط بها من اليمين صورة أسد ينقض على غزال، ومن اليسار غزالان بين أزهار، وكلها ملونة بألوان زاهية.

ومن القصور التى اكتشفت عام (1840م) «قصر المشتى»، وينسب إلى الخليفة «الوليد بن يزيد بن عبدالملك» (125 - 126هـ الموافق 742 - 743م)، وهو قصر صحراوى غير تام البناء، وقد تهدم معظمه، ونقلت أهم زخارفه التى كانت محفورة فى الحجر الجيرى فى الواجهة الجنوبية إلى «برلين»، مهداة من

السلطان العثمانى «عبدالحميد» إلى الإمبراطور الألمانى «غليون الثانى»، وقد وضعت فى «متحف برلين» منذ عام (1093م). والقصر عبارة عن بناء مستطيل مساحته نحو (144) متراً مربعًا، وحائطه الخارجى تكتنفه أبراج نصف دائرية، ويقع المدخل فى وسط واجهته الجنوبية، والقصر مقسم من الداخل إلى ثلاثة أقسام رئيسية، تتجه من الشمال إلى الجنوب، والمبانى الداخلية مبنية من الطوب، والمدخل يكتنفه برجان على شكل نصف منحنى، ويتكون شكل الواجهة الجنوبية من عدة مثلثات معتدلة ومقلوبة، بحيث تظهر فى مجموعها على شكل خط منكسر، وفى وسط كل مثلث وردة، وبأسفلها فى المثلثات المعتدلة موضوعات زخرفية متنوعة، بعضها يمثل حيوانين متقابلين يفصلهما إناء، وبالأرضية زخارف نباتية جميلة محفورة على الحجر، ويلى المدخل ردهة توصل إلى فناء مربع التخطيط، مساحته (14) متراً مربعًا، ويكتنف ردهة المدخل من جهتيها حجرات مكونة من طابقين، كما توجد غرفة مستطيلة إلى يمين المدخل، فى حائطها الجنوبى محراب، استنتج الباحثون أنها كانت مسجد القصر أو مصلاه.

ويلى الفناء الأول فناء كبير مساحته (57) متراً مربعًا، يليه الجناح الملكى، ويتكون من قاعة تؤدى بدورها إلى قاعة العرش، وهى مكونة من ثلاث حنيات نصف دائرية، ويكتنفها من جهتيها بيوت مكونة من زوجين من الغرف، وتوجد حول قاعة العرش أربع مجموعات من هذه البيوت.

وهذه القصور المكتشفة تدل على تقدم فن العمارة فى عهد الدولة الأموية، وتأثره بالطرز المعمارية الفارسية والبيزنطية، وعلى الثراء الذى كانت عليه الدولة، مما مكن خلفاءها من بناء تلك القصور الباذخة، ومعظمها لم يكن للسكنى الدائمة، وإنما كانت مشاتٍ ومصايف للإقامة الموسمية المؤقتة[1].

المساجد:

أما عن المسجد بصفته النموذج الأول للعمارة الإسلامية الدينية، الذى نشأ تلقائيًا حسب متطلبات فريضة الصلاة، فإن البعض يرجع تخطيط ذلك النوع من

1 ـ د. عبدالشافى محمد عبداللطيف ـ المرجع السابق ص91 ـ 93.

المساجد ذات الصحن الأوسط الذى تكتنفه البوائك بأعمدتها وعقودها إلى تخطيط الدار السكنية القديمة ذات الفناء الأوسط المكشوف، الذى تحيط به الغرف من جوانبه الأربعة (كونل، ص16، وقارن الألفى، ص54). ودون الاعتراض على ذلك نحب التأكيد على أن الفكرة الأساسية لتخطيط المسجد نابعة من الوظيفة الأولى لأول مسجد إسلامى بناه الرسول فى المدينة وهى تتلخص فى حماية المصلين وخاصة من وهج الشمس عن طريق بناء سقيفة أو صُفّة محمولة على أعمدة من الجذوع تتقدم الفناء المكشوف الذى انفتحت عليه مساكن النبى. فكأن الجامع الأول فى المدينة كان يجمع ما بين المسكن وبيت الصلاة فى السقيفة أو الظلة، وكذلك مكان الاجتماعات العامة فى الفناء المكشوف أو الصحن. ولما كان تخطيط القصور الأموية فى بادية الشام، وهى التى واكبت بناء المساجد الكبرى فى القدس ودمشق، قد تم على أساس الفناء المركزى المكشوف الذى تدور حوله وحدات المسكن الكبير، من: قاعات الاستقبال وقاعات العرش، والحمامات والمسجد ومساكل أهل الدار والخدم والحشم، ولما كانت هذه القصور تجديداً لما كان فى المنطقة من قصور قديمة، مثل: قصور وهياكل الرصافة التى كان قد بناها المنذر الغسانى فى موضع ضريح القديس سرجيوس (حتى، ج1 ص326) أو من قلاع وحصون مثل: قصر الأخيضر، فلا بأس أن يكون ذلك مما دعا إلى القول ببناء المساجد الإسلامية الأولى سواء فى الحجاز أو فى الأمصار على أساس تخطيط الدار السكنية القديمة ذات الفناء الأوسط. ولما كان المسجد النبوى الأول قد تطور مع مرور الوقت إلى أن تكاملت عناصره عندما أعيد بناؤه حوالى عام 87هـ/ 706م، على عهد الوليد بن عبدالملك، فاتخذ له المحراب فى منتصف جدار القبلة، والميضأة فى وسط الصحن، كما أقيمت له المآذن على نسق مآذن المسجد الأقصى وجامع دمشق، فقد قيل إن المساجد الأولى تطورت على أساس البازيليكات (أى الكنائس) المسيحية التى تم تحويل بعضها فى بلاد الشام إلى مساجد. وفى ذلك التطور قيل: إن ساحة الكنيسة تحورت إلى صحن الجامع، وأن

حنية الهيكل تحولت إلى المحراب، وأن برج الناقوس أصبح المئذنة (كونل، ص16؛ وقارن الألفى، ص54). ومع سلامة المقارنة فإن المهم فى أمور العمارة ليس الشكل الخاص بالعنصر المعمارى بل الوظيفة التى يقوم بها، إذ الحقيقة أن عمليات النقل والاقتباس فى تاريخ الحضارات لاتحدث تلقائيًا لمجرد التقليد بل تتم تبعًا لحاجات يتطلب الأمر إشباعها[1].

ازدهرت حركة بناء المساجد فى عهد الأمويين ازدهاراً كبيراً، فوسعوا المساجد التى كانت موجودة من قبل، كالمسجد الحرام فى «مكة المكرمة»، و«المسجد النبوى» فى «المدينة المنورة»، و«جامع عمرو بن العاص» فى «الفسطاط»، و«المسجد الكبير» فى «صنعاء» باليمن، كما أقاموا العديد من المساجد الجديدة، من أشهرها: «مسجد قبة الصخرة» الذى أنشأه «عبدالملك بن مروان» فى «القدس»، و«المسجد الأقصى» الذى أنشأه ابنه «الوليد» و«المسجد الأموى» الكبير فى «دمشق» الذى أنشأه «الوليد» أيضًا.

- **المسجد الحرام:** كانت «الكعبة المشرفة» فى عهد النبى ﷺ وخلفائه الراشدين على البناء نفسه الذى أقامته «قريش» بعد السيل؛ الذى دمر «الكعبة» قبل بعثة النبى ﷺ، واستمرت على ذلك إلى أن هدمت أثناء خلافة «عبدالله بن الزبير» (64 ـ 73هـ الموافق 683 ـ 692م)، فقام ببنائها من جديد على قواعد «إبراهيم» ـ عليه السلام ـ وأدخل فيها حجر «إسماعيل»، واستشهد على ذلك بحديث النبى ﷺ الذى خاطب فيه «عائشة» بقوله: «لولا أن قومك حديثو عهد بشرك أو بجاهلية لهدمت الكعبة فألزقتها بالأرض، وجعلت لها بابين بابًا شرقيًا وبابًا غربيًا وزدت فيها من الحجر ستة أذرع..». [مسند الإمام أحمد]. وبعد مقتل «ابن الزبير» وانتهاء دولته عام (73هـ الموافق 692م) هدم الأمويون «الكعبة» وأعادوا بناءها على ما كانت عليه قبل زيادة «ابن الزبير» وكانت مساحة «المسجد

---

1 ـ د. سعيد عاشور ـ د. سعد زغلول ـ المرجع السابق ص457.

الحرام» نفسه فضاء ولم يكن له جدران فى عهد النبى ﷺ و «أبى بكر الصديق»، فلما كثر الناس فى عهد «عمر بن الخطاب» اشترى الدور المجاورة للبيت الحرام، وهدمها وأضافها إلى مساحته، وأقام له جدرانًا دون قامة الرجل، وكذلك فعل «عثمان بن عفان» و«عبد الله بن الزبير». واستمر هذا الوضع حتى كان عهد «الوليد بن عبد الملك» (86 ـ 96هـ الموافق 705 - 714م)، فزاد فى مساحته، وبنى سوره على عمد من الرخام، ووضع صفائح من الذهب على باب «الكعبة».

- **المسجد النبوى فى المدينة المنورة:** ظل مسجد رسول الله ﷺ على حالته التى بنى عليها حتى عهد «عمر بن الخطاب»، الذى زاد فى مساحته، وأطال جدرانه، ثم أضاف «عثمان بن عفان» إليه مساحات جديدة لكثرة المصلين، وضيقه بهم، وبناه من الحجارة وجعل له عمداً من الحجارة، وسقفًا من الساج. وظل المسجد كذلك إلى عهد «الوليد بن عبدالملك»، فأمر ابن عمه «عمر بن عبدالعزيز» واليه على «المدينة» (87 ـ 93هـ الموافق 705 - 711م) بهدمه وإعادة بنائه وتوسعته، فأدخل فيه حجرات النبى ﷺ.

وعنى «الوليد» بإعادة بناء المسجد عناية عظيمة، فأرسل إلى «عمر بن عبدالعزيز» أمولا كثيرة لهذا الغرض، وثمانين عاملا من عمال البناء من الشام وقبط «مصر»، وكميات كبيرة من الرخام والفسيفساء، وقد عهد «عمر» بالإشراف على البناء إلى واحد من كبار التابعين هو «صالح بن كيسان». وقد بنى أساس المسجد من الحجارة، وجعلت عمده من الحجارة المحشوة بالحديد والرصاص، وأقيمت له المآذن، وفتحت له عدة أبواب، منها «باب جبريل» عليه السلام، و«باب النساء». واستمر العمل فى البناء نحو ثلاث سنوات، وفى عام (90هـ الموافق 708م) زار الخليفة «الوليد» «المدينة» ليطمئن على سير العمل فى المسجد بنفسه، وقد أعجب بالبناء، وبما عليه من روعة تليق بمسجد رسول الله ﷺ، وقسم أموالا كثيرة على أهل المدينة احتفاء بهذه المناسبة، وخطب فيهم الجمعة من فوق منبر النبى ﷺ.

- **مسجد قبة الصخرة:** أمر «عبدالملك بن مروان» سنة (72هـ الموافق 691م) ببناء مسجد فوق الصخرة التى عرج الرسول ﷺ من فوقها ليلة الإسراء والمعراج.

- **المسجد الأقصى:** وقد بناه «الوليد بن عبدالملك» بالقرب من ساحة «مسجد قبة الصخرة»، وزينه بالفسيفساء والرخام، واحتفل ببنائه كاحتفاله بالمسجد الحرام بمكة المكرمة ومسجد الرسول ﷺ فى «المدينة المنورة». ويعرف المسجد الأقصى عند بعض الكتاب باسم مسجد عمر، رغم ما هو معروف تاريخيًا من أنه من بناء عبدالملك بن مروان، وكذلك قبة الصخرة. ولقد بناه عبدالملك فى موضع كنيسة قديمة واستخدم أنقاض الكنيسة فى البناء، مما دعا الباحثين المحدثين إلى اعتبار الأقصى من الطراز الكنسى البازيليكى مثل جامع دمشق. والأقصى يحتل مستطيلا فى جنوب الحرم الشريف يمتد أفقيًا فى اتجاه الجنوب على طول جدار القبلة إلى حوالى مائتى متر. أما عمقه (فى اتجاه الشمال) فهو حوالى سبعين[1].

- **المسجد الأموى فى دمشق:** يعد «المسجد الأموى» من أعظم المساجد التى أنشئت فى العصر الأموى، بناه «الوليد بن عبدالملك»، وبذل فيه جهدًا كبيرًا، ولم يبخل عليه بالأموال، فجاء شامخًا عظيمًا. أصل مكان المسجد كان معبدًا وثنيا فى عهد الرومان. ثم تحول إلى كنيسة فى العهد المسيحى، ثم فتحت «دمشق» فى عهد «عمر بن الخطاب» صلحًا، واقتسم المسلمون بناء على ذلك الصلح كل شىء فى المدينة مع أهلها، فقسمت الكنيسة، وجعل المسلمون نصفها مسجدًا، وبقى النصف الآخر كنيسة تقام فيها شعائر أهلها، وكان هذا آية من آيات السماحة؛ حيث لم يجد المسلمون غضاضة أن يتجاور المسجد والكنيسة، فضلا عن كونهما فى بناء واحد. وظل الأمر كذلك حتى عهد «الوليد»، الذى تفاوض مع المسيحيين، وعوضهم عن نصيبهم مساحة كبيرة من الأرض يقيمون عليها

1 ـ د. سعيد عاشور ـ د. سعد زغلول ـ المرجع السابق ص491.

كنيسة كبيرة مستقلة، وهدم البناء القديم كله وأقام عليه المسجد، الذى جاء مستطيل الشكل، له ثلاث مداخل، وأربع مآذن، وجعل فى وسطه صحنًا مكشوفًا، تحيط به أربعة أروقة، أكبرها رواق القبلة، وغطيت أرضيته بالرخام، وكذلك جدرانه إلى ارتفاع قامة الإنسان، وفوق الرخام زخاف من الفسيفساء المذهبة، وجعل سقفه من الرصاص، وبه ستمائة سلسلة من الذهب تتدلى منها قناديل للإنارة. وقد عنى الخليفة ببناء المسجد عناية واضحة، فأشرف على بنائه بنفسه، وأنفق عليه أموالا طائلة، بلغت خمسة ملايين دينار، تعرض بسببها للانتقاد، فأجاب بأنه يريد أن يكون المسجد الذى هو أعظم رمز للإسلام لائقًا بدولته الكبيرة، واستمر العمل فى المسجد تسع سنوات (87 ـ 96هـ الموافق 705 ـ 714م)، عمل فيه نحو عشرة آلاف عامل، حتى جاء المسجد آية من آيات فن العمارة الإسلامى، حتى ليذكر «ياقوت الحموى» أن الناس كانوا يعدونه من عجائب الدنيا. وعندما آلت الخلافة إلى «عمر بن عبدالعزيز» رأى أن الخليفة «الوليد» بالغ فى الإنفاق على بناء المسجد. وهم بنزع سلاسل الذهب وبيعها، ووضع ثمنها فى بيت المال، ولما علم أهل «دمشق» بعزمه اشتد عليهم الأمر وكرهوه، وهم الذين كانوا قد انتقدوا «الوليد» من قبل، ولكن قبل أن ينفذ «عمر» ما عزم عليه جاء إلى «دمشق» وفد رسمى من قبل إمبراطور الروم، لبحث العلاقة بين الدولتين، فزار ذلك الوفد «المسجد الأموى» وكان معهم قسيس فلما دخلوا المسجد أغمى عليه فحملوه إلى دار الضيافة، فسأله رفاقه بعد أن أفاق عما حدث له، فقال: كنا نتحدث أن بقاء دولتهم لن يطول، فلما رأيت ذلك البناء الشامخ حصل لى هم وغم، وأدركت أن بقاءهم سيطول، فحدث لى ما رأيتم، وكان يسمع ذلك الحوار أحد المسلمين العارفين باليونانية التى كانوا يتحاورون بها، فنقل ذلك إلى «عمر بن عبدالعزيز» فقال: إذا كان المسجد قد أغاظهم إلى هذا الحد، فلن أنزع منه شيئًا، بل زاده جمالا وروعة وبهاء، فأمر بترصيع محرابه بالجواهر الثمينة، وعلق له قناديل من ذهب وفضة.

- **العناية بالطرق:** اهتمت الدولة الأموية اهتمامًا كبيرًا بإنشاء الطرق، لربط أجزائها التى امتدت من «الصين» إلى «إسبانيا»، وهى مسافة تبلغ (12) الف كليو متر من الشرق إلى الغرب، ولتيسير الاتصال ببعضها ولتحقيق كثير من الأغراض، منها ما هو عسكرى لتيسير حركة الجيوش، ومنها ما هو اقتصادى لتيسير حركة التجارة، ومنها ما هو إدارى لتسهيل وصول الأخبار عن طريق رجال البريد، ومنها ما هو دينى لتسهيل وصول حجاج بيت الله الحرام من كل أنحاء الدولة إلى «مكة المكرمة»، لأداء فريضة الحج، وإلى «المدينة المنورة» لزيارة مسجد النبى ﷺ. وقد قسم الأمويون الطرق التى تربط العاصمة «دمشق» بعواصم الولايات ـ كـ«الفسطاط» و«القيروان» و«قرطبة» و«الكوفة» و «البصرة» و«خراسان»، و«ما وراء النهر» إلى مسافات صغيرة محددة،وجعلوا لها علامات تحمل أرقامًا، ليعرف المسافرون المسافات بين المدن والأقاليم، وهى مثل العلامات الإرشادية المستخدمة الآن فى الطرق الإقليمية والدولية، وعمرت الطرق بالخانات والاستراحات، ليستريح الناس من وعثاء السفر، فوق ما كانت تتمتع به من أمن وأمان، وكان الناس يسافرون عبر هذه الطرق، ويتنقلون بين مدن الشرق والغرب دون تصريح مرور أو جواز سفر، فالدولة كلها على امتداد حدودها وطنهم، فى أى مكان منه يستطيع الإنسان أن يسكن ويتزوج ويتاجر، دون مضايقة أو طلب إقامة[1].

اقتصاد المغرب فى العهد الأموى:

بدأت تبرز معالم التحول الجذرى الذى عرفته الحياة الاقتصادية فى المجتمع الإسلامى، منذ عهد الخليفة الراشد الثالث عثمان بن عفان، وتبلورت مع اتساع نطاق الفتوحات الإسلامية، وتحول العالم الإسلامى إلى مركز رئيسى للدورة التجارية العالمية، وأدى ذلك إلى ازدهار فئات اجتماعية، ولا سيما فئتى أصحاب الملكيات العقارية الضخمة والتجار، فى الحياة الاقتصادية والاجتماعية للمجتمع

---

1 ـ د. السيد عبدالعزيز سالم ـ المرجع السابق ص689.

المغربى فى العصر الأمـوى. ومن المعروف أن بروز حركات المعارضة السـياسية - الدينية مرتبطة وثيق الارتباط بذلك التحول، فـمن القضايا المتصلة بالتحول المذكور نوع التغييـر الذى تم فى ميدان الملكية العقارية فى العـضر الأموى، وتنظيم شؤون الخراج، وأساليب جمع أنواع الجباية، ولـكن الأخبار حول هذه المسائل نادرة. قد يتساءل المرء هنا قـائلا: ألا يمكن قياس وضع الملكية العقارية فى المغـرب فى العهد الأموى بوضعية أراضى السواد فى العراق، أو أراضى بلاد الشام أو مصر؟

بدأت الدولة الأموية بتطبيق التنظيمات الاقتصـادية التى كانت قد طبقتها فى مصر، ولا سيما بعد انتقال عبد الله بن الحـبحاب أمير علبه قادمًا من مصر بعد أن قام بتطبيقها هناك، ولا بد أنها ستطبق فى مصر، وهذه التنظيمات هى مسح جديد كامل لجميع الأراضى وتحديد أنواعهـا بدقة من أجل تعيين ضريبة جديدة لكل نوع منها، فكان من نتيجة ذلك أن الضريبة ازدادت عـما كانت عليه سابقا بنسبة 20٪ فى مصر ولا مفر من تحـقيق ذلك فى المغرب العربى[1]، لذلك فقد بادر عبد الله ابن الحبـحاب فور وصوله إلى المغـرب الأقصى إلى تقسـيمه إلى قسـمين السوس الأدنى ويضم طنجة وما والاها، والسوس الأقصى وما يتبع له فى الجنوب[2].

وقد يقبل المرء ذلك بالنسبة للأراضى التى كانت بيد طبقة النبلاء البيزنطيين، ولا سيما فى المغرب الأدنى، ولكننا نعتقد أن الوضع يختلف فى المغربين: الأوسط والأقصى، وهى المنطقـة التى عرفت بكثافتهـا السكانية، وبسيطرة القـبائل الكبرى عليهـا، وعرفت أيضًا بأهمـية الملكية المشـاعة فيـها. إن النصوص ذات المحـتوى الاقتـصادى التى تشير إلـى الغنائم، وإلى الهدايا التى كان يرسل بهـا ولاة المغرب إلى دمشق نادرة، أمـا مبالغ الجـباية من خـراج وجزية وصدقـات، ومدى انتظام إرسالها إلى بيت المال فى عـاصمة الخلافة فإننا لا نعرف عنهـا شيئًا، أو نكاد. إن

1 ـ د. على أحمد ـ تاريخ المغرب العربى الإسلامى ـ ص65.
2 ـ د. على أحمد ـ نفس المرجع ص65.

جمع الأموال وإرسالها لم يتم بصفــة منتظمة، فمن المعروف أن أحداث المغرب لم تنته بانتهاء ولاية موسى بن نصير (86 - 96هـ)، وفتح الأندلس، بل اشتد أمرها إثر بدايات انتفاضات الخوارج عام 122هـ، وسترى أن ذلك لم يحدث صدفة، بل جاء تعبيراً عن معارضة لسياســة معينة سلكها ولاة بنى أمية فى المغرب، ولا سيما فى ميــدان السياسة الجــبائية. وتعــتمد الســياسة المالية للدولــة الأموية على تنظيم سيــاسى عسكرى، وإدارى دعــامته ســلطة الولاة فى أجزاء الخلافــة، وهى سلطة تستند إلى قوة عــسكرية تتألف نواتها - فى أكثــر الأحايين - من جند الشام، ولا سيما فى فــترة الاضطرابات، ولما تتأزم الأوضاع، وتصبح مهــددة لسلطة بنى أمية فإنهم يجندون من عشــيرتهم، ثم من سائر المغرب، وقد حــدث ذلك بالخصوص فى المغرب أيام حركات الخــوارج، فلما قدم كلثوم بن عياض القــشيرى عام123هـ لملاقاة جــيش خالد بن حميــد الزناتى على ضفاف وادى سبــو، كان يقود جيــشًا يتألف من ثلاثين ألفًــا «قال ابن القطان: فيــهم عشرة آلاف من صلب بنى أمــية، وعشرون ألفًا من سائر العرب»، وتعتمد فى نفس الوقت على الصراع القبلى، ولا سيما الصراع بين اليــمانية والحجازية، وقد اشتهر الأمــويون بإذكاء ناره واستغلاله لفائدة حكمهم. كان الولاة يتمتعــون بنفوذ كبير فى ولاياتهم، فهم المسؤولون عن الشؤون الــسياســية والعــسكرية والإدارية والمالية، ويعــينون بدورهم قادة للــجيش وعمــالا ينوبون عنهم فى مناطق تابعــة لولايتهم، وقــد يعين الخليــفة عامــلا على الخراج يرجع بالنظر إليــه مباشرة، ولم يقع الفصل فــى المغرب بين والى الحرب أو الصلاة ووالى الخراج، كما حدث ذلك فى مصر[1].

ويبلغ نفوذهم فى بعض الحالات شأنًا يتجاوز فيه الأمر السلطة المطلقة لخدمة النظام الأموى فيصل إلى كسب عدد كبير من الأنصار والموالى وجمع ثروة ضخمة تثير حنق الخلفاء أنفسهم، وتبعث فى نفوسهم الغيرة. ويمكن هنا أن نذكر مثالين، مثال خالد بن عبــد الله القسرى عامل العراق (105 - 120هـ)، ومثال موسى بن

1 ـ د. الحبيب الجنحانى ـ المرجع السابق ـ ص15.

نصير عامل المغرب والأندلس، فقد جمع الأول ثروة ضخمة، ولا سيما من دخل الأراضى الزراعية الشاسعة التى أصبح يملكها بالعراق، وأطلق يد عماله فى المناطق التى ترجع إليه بالنظر شرقى العراق وأصبح إنتاجه يزاحم غلات ضيعات هشام بن عبد الملك فى الأسواق، فقد اضطر الخليفة أن يكتب إليه قائلا: «لا تبيعن من الغلات شيئًا حتى تباع غلات أمير المؤمنين»، ولما ختن طارق بن أبى زياد خليفة خالد بن عبد الله القسرى بالكوفة ولده أهدى إليه «ألف وصيف ووصيفة سوى الأموال والثياب». أما نفوذ موسى بن نصير أيام ولايته للمغرب والأندلس فقد تجاوز جمع ثروة كبرى من الغنائم لم يدخل المشرق قبلها أعظم وأنفس، وقد تسببت هذه الثروة بعد نكبته فى تتبع أسرته وانصاره بالمغرب، وتغريمهم مبالغ ضخمة طائلة ليصل إلى بعث قوة سياسية فى بلاد المغرب تعتمد على آلاف من الموالى والخدم، ولعل هذا الحزب السياسى من الموالى والأنصار الذى ركز أسسه فى بلاد المغرب هو الذى أثار خوف الخليفة الجديد فى دمشق، وغضبه، وأدى فى النهاية إلى نكبته، ومطاردة أسرته وانصاره ببلاد المغرب والأندلس. يخبرنا ابن عذارى عن أهمية هذه القوة قائلا: (ثم إن يزيد بن المهلب سهر ليلة مع الأمير موسى، فقال له: «يا أبا عبد الرحمن، فى كم كنت تعتد أنت وأهل بيتك من الموالى والخدام؟ أتكونون فى ألف؟» فقال: «نعم وألف ألف إلى منقطع النفس!» قال: «فلم ألقيت بنفسك إلى التهلكة؟ أفلا أقمت فى قرار عزك، وموضع سلطانك؟» فقال: «والله! لو أردت ذلك لما نالوا من أطرافى شيئًا، ولكنى آثرت الله - عز وجل - ورسوله ولم أر الخروج عن الطاعة». إن الأمثلة كثيرة حول النفوذ الكبير الذى كان يتمتع به الولاة الأمويون فى مناطقهم، وقد كانت ولاية بلاد المغرب من الولايات الحساسة نظراً للصعوبات الكبرى التى واجهت الفتح الإسلامى للمغرب، ولما اتسم به من هياكل اجتماعية، ومعطيات ديمغرافية خاصة دعامتها الأولى العصبية القبلية، وما يتصل بها من ميزات معينة. فقد عين الأمويون خلال فترة الفتح (27 - 96هـ) لإدارة شئون المغرب قادة مشهورين فى تاريخ الدولة الإسلامية مثل عقبة بن نافع، وحسان بن النعمان الغسانى، وموسى

ابن نصير، ثم تعاقب الولاة الأمـويون على القيروان فبلغ عددهم تسعـة فى الحقبة الممتدة من 96هـ إلى استقلال عـبد الرحمن بن حبيب الفهرى عن مـركز الخلافة عـام 127هـ. هؤلاء الولاة هم: مـحـمـد بـن يزيد القـرشى (96 - 100هـ)، إسماعيل بن عبيد الله بن أبى المهاجر (100 - 102هـ)، يزيد بن أبى مسلم (102 - 102هـ)، محمد بن أوس الأنصارى (102 - 102هـ)، بشر بن صفوان الكلبى (103 - 109هـ)، عبيدة بن عـبد الرحمن السلمى (110 - 114هـ)، عبيد الله بن الحبحاب (116 - 123هـ)، كلثوم بن عياض القشيرى (123 - 124هـ) حنظلة بن صفوان (124 - 127هـ)[1].

ونلمس فى تتبـعنا لتراجم هؤلاء الولاة أنهم مشهـورون بولائهم للأمويين، وقد تولى الكثير منهم مناصب عليا قبل تسـميتهم فى المغرب. وكان بعض الخلفاء الأمويون يعطون أهمية لتسمية ولاة من أصل قرشى، فلما ثار سكان القيروان على يزيد بن أبى مسلم وقتلوه، سموا مكانه محمد بن أوس الأنصارى، وأرسلوا خالد ابن أبى عمران لإعلام الخليـفة «قال خالد بن أبى عمران: ودعانى يزيد خـاليًا فقال أى رجل محمـد بن أوس فقلت رجل من أهل الدين والفضل معروف بالفـقه قال فما كان بها قرشى قلت بلى المغيرة بن أبـى بردة قال قد عرفته فما له لم يقم قلت أبى ذلك وأحب العـزلة فـسكت». فـقد كـان يزيد بن أبـى مسلم أحـد تلامـذة الحجـاج، فعمل لديه كـاتبًا، ثم سمـاه صاحب شـرطة، وشغل بشر بن صـفوان منصب والى مصر قبل تعـيينه واليًا على بلاد المغرب، أما عبيـدة بن عبد الرحمن السلمى فهو «ابن أخى أبـى الأعور السلمى صاحب خيل معـاوية بصفين»، وكان عبيـد الله بن الحبحـاب بن الحارث، حجاريًا بالولاء، إذ كـان مولى لبنى سلول، ويتحـدث عنه ابن عذارى قـائلا: «وكان رئيسًـا نبيلا، وأمـيرًا جليـلاً، بارعًا فى الفصاحة والخطابة، حافظًا لأيام العرب وأشـعارها ووقائعها»، وتقلب فى وظائف إدارية مختلفة إلى أن سمى عـاملا على خراج مصر عام 109هـ، وكان كلثوم بن

1 ـ د. الحبيب الجنحانى ـ المرجع السابق ـ ص17.

عياض القشيرى شيخًا من أعيان الحجارية الخلص، وتولى منصب صاحب الشرطة بعاصمة الخلافة الأموية دمشق، ثم عين هشام بن عبد الملك بعده على بلاد المغرب حنظلة بن صفوان الكلبى والى مصر. إن اختيار ولاة المغرب من بين مشاهير القادة والموظفين يقيم الدليل علـى ما لمحنا إليه من أهميـة هذه الولاية فى سياسة مـركز الخلافة، وهى الأهمـية التى نلمسها فى تسـمية أمراء الجيـوش فى مرحلة الفتح. ويتساءل المرء هنا عن السياسة التى اتبعها هؤلاء الولاة فى المغرب؟

إدن إدارتهم لشئون المغرب لا تختلف عن الأساليب التى استعملها ولاة بنى أمية فى بقـية أجزاء العالم الإسلامى، فـقد ارتكبوا أخطاء فادحة كـانت لها نتائج خطيرة فى حيـاة المغرب، وقد كان رد الفعل فى المغرب تجـاه هذه الأخطاء سريعًا وعنيفًا، ولا سيـما فى المناطق الريفية لما تمتاز به من هياكل قـبلية، شأنها فى ذلك شأن منطقة الجزيرة العربية.

وبلغ تعـسف الإدارة الأموية لشـئون بلاد المغـرب درجة قصـوى أيام ولاية تلميذ الحجاج يزيد بن أبى مسلم الذى حاول تطبيق السـياسة التى اتبعها معلمه فى العراق، يتحدث الطبرى عن سبب قتله فيـقول: «وكان سبب ذلك أنه كان - فيما ذكر - عزم أن يسـير بهم بسيرة الحجـاج بن يوسف فى أهل الإسلام الذين سكنوا الأمصار، ممن كان أصله من السـواد من أهل الذمة فأسلم، بالعراق ممن ردهم إلى قراهم ورساتيقهم ووضع الجزية على رقـابهم على نحو ما كانت تؤخذ منهم وهم على كفرهم، فلمـا عزم على ذلك تآمروا فى أمره، فأجمع رأيهم - فـيما ذكر - على قتله فقتلوه»، ويورد ابن عـذارى رواية أخرى فى سبب قتله، ولكن الروايتين تشيران إلى أن السـكان الأصليين هم الذين ثاروا ضد سياسـته التعسـفية، ودبروا خطة التخلص منه، وحـرصوا فى نفس الوقت أن يخبروا الخليـفة الأموى يزيد بن عبـد الملك بأن ذلك لا يعنى أبدًا خلع الأيدى من الطاعة، وإنما هو رد فـعل ضد سلوك مـعين يتنافى مع أبسط مـبادئ الإسـلام: «إنا لم نخلع أيدينا من الطاعـة، ولكن يزيد بن أبى مـسلم سـامنا ما لا يرضى الله والمسلـمون، فـقتلناه، وأعـدنا

عاملك»، أما الفترة الثـانية التى اشتد فيها تعسف السـياسة الأموية فهى أيام ولاية عبيد الله بن الحبحاب، وسنرى مدى الظلم والإرهاق الذى بلغـته السياسة الجبائية بصفة خـاصة. وقد اشتهرت فـترة قصيرة فى تاريخ ولاة بنى أميـة بالمغرب بحسن السياسة، وتطبيق مـبادئ الإسلام، وهى فترة خلافة عمر بن عبـد العزيز فقد قام بعزل محمد بن يزيد القرشى، وسمى مكانه إسماعيل بن عبيد الله بن أبى المهاجر عام 100هـ على حربهـا، وخراجهـا، وصدقاتها، «وكـان حسن السيـرة، فأسلم عرب العـاربة البربر فى أيامه جمـيعهم»، ونلاحظ من جـديد أن صدى سياسـية الولاة يبرز فى صفوف عرب العاربة بصفـة خاصة، ولكننا نجد أكثر من إشارة إلى ردود فـعل صادرة عن السكـان العرب تجـاه سلوك معـين يبدو فى تصـرف الولاة الجـدد، ويمس هذا السلوك قـادة مشـهـورين بين الأسر العـربيـة التى اسـتقـرت بالمغرب[1].

ولنحاول الآن التعـرف إلى مميزات السياسة الماليـة للإدارة الأموية فى المغرب رابطين إياها بذلك التـحول الجذرى الذى بدأت تـبرز معـالمه فى المجتـمع العربى الإسـلامى منذ نهاية خـلافة عـثمـان، وهو تحـول جاء نتـيجـة حتـميـة لظروف موضوعيـة، وخضع لدينامية جديدة هى دينامية الـعالم الإسلامى الجديد الذى بدأ يحل عمـرانيًا واقتـصاديًا محل قـوتين اقتصـاديتين من قوى العالم القـديم: القوة البيزنطيـة، والقوة الساسانيـة. لخص المعارضون للسياسـة العثمانيـة يومئذ مظاهر التحول الاقتصادى والاجتماعى فى جملة ردوا بهـا عليه فى محاولته تبرير موقفه، وهو محـاصر فى داره من طرف الثـوار «لأنك غيـرت وبدلت»، ولكن ماذا غـيَّر الخليفة الثالث؟ يخبرنا ابن قتيـبة قائلا: «وذكروا أنه اجتمع ناس من أصحاب النبى ﷺ، فكتبوا كتـابًا ذكروا فيه ما خالف فيه عـثمان من سنة رسول الله ﷺ، وسنة صاحبيه، ومـا كان من هبته خمس إفريقيـة لمروان، وفيه حق الله ورسوله، ومنهم ذوو القربى واليتامى والمساكين، وما كان من تطاوله فى البنيان حتى عدوا سبع دور

---

1 ـ د. الحبيب الجنحانى ـ المرجع السابق ـ ص21.

بناها بالمدينة: داراً لنائلة وداراً لعائشة، وغيرهما من أهله وبناته، وبنيان مروان القصور بذى خشب، وعمارة الأموال بها من الخمس الواجب لله ولرسوله، وما كان من إنشائه العمل والولايات فى أهله، وبنى عمه من بنى أمية أحداث وغلمة لا صحبة لهم من الرسول، ولا تجربة لهم بالأمور، وما كان من الوليد بن عقبة بالكوفة إذ صلى بهم الصبح، وهو أمير عليها، سكران أربع ركعات، ثم قال لهم: إن شئتم أزيدكم صلاة زدتكم، وتعطيله إقامة الحد عليه، وتأخيره ذلك عنه، وتركه المهاجرين والأنصار لا يستعملهم على شيء ولا يستشيرهم، واستغنى برأيه عن رأيهم، وما كان من الحمى الذى حمى حول المدينة، وما كان من إدارة القطائع والأرزاق والأعطيات على أقوام بالمدينة ليست لهم صحبة من النبى ﷺ، ثم لا يغزون ولا يذبون، وما كان من مجاوزته الخيزران إلى السوط، وأنه أول من ضرب بالسياط ظهور الناس، وإنما كان ضرب الخليفتين قبله بالدرة والخيرزان.

نلاحظ من خلال نص ابن قتيبة أن أهم مظاهر التحول الجديد الذى أنكره الناس على عثمان ما يتصل منه بالملكية، ومظاهر الشراء لدى فئة اجتماعية جديدة سماها طه حسين «طبقة الأرستقراطية العليا ذات المولد والثراء الضخم والسلطان الواسع». وقد كان لهذا التحول الاقتصادى والاجتماعى الذى تبلور مع مرور الزمن تأثيره فى المجتمع المغربى، فمن المعروف فى ميدان الملكية العقارية أن الأمويين كانوا يهبون أراضى الصوافى (القطائع)، وأسندت فى المشرق أراضى الموات إلى أفراد الأسرة الحاكمة، وإلى أنصارها، وإلى رجال الخلافة بعنوان «القطائع»، وأقام المالكون الجدد فى الأمصار، وتركوا الفلاحين القدامى يخدمون الأرض وكانوا يتعهدون مقابل هذا الإسناد بإحيائها، وجمع الضرائب، وتسليمها للجباة، ثم أصبحت مع مرور الزمن ملكًا يتصرفون فيه بالبيع والشراء، وبرزت فئة جديدة من كبار الملاكين الزراعيين، وقد اشترى العرب المسلمون كثيراً من أراضى الخراج التى كان يملكها غير المسلمين، وأصبحت تؤدى العشر فقط. ومن المعروف أن تطور الملكية الزراعية واتساعها لفائدة فئة جديدة أدى إلى تضاؤل دخل الدولة

الأموية من الجبابة على الأرض، وهو مورد أساسى مع الجزية، وهذا التطور هو الذى يكمن وراء التفكير فى توظيف ضرائب جديدة - بعد انتهاء غنائم الفتوحات - غير شرعية، وما آل إليه الأمر من ردود فعل السكان ومناصرة حركات المعارضة[1].

إن معلوماتنا عن نظام القطائع تتعلق بالمشرق، لا سيما بأراضى العراق، وبلاد الشام، ولكن لا شك أن هذا النظام قد عرفه المغرب الأدنى من بلاد المغرب فى العصر الأموى، فقد وزعت أراضى النبلاء البيزنطيين على العشائر والأسر العربية تشجيعًا لها على الاستقرار، ولكنه يبدو أن قضية التحول فى نظام الملكية العقارية فى المغرب لم تكن لها أهمية تذكر فى العصر الأموى. أما القضايا التى تشير إليها النصوص حول السياسة الاقتصادية والمالية للإدارة الأموية فى المغرب فهى[2]:

أولا - أهمية الغنائم والهدايا التى يرسل بها الولاة إلى المشرق بعد انتهاء مرحلة الفتح، ورجوع موسى بن نصير من الأندلس والمغرب بثروة ضخمة، «وكان الخلفاء بالمشرق يستحبون طرائف المغرب، ويبعثون فيها إلى عامل المغرب الأدنى، فيبعثون لهم البربريات السنيات»، وأصبح الولاة يتسابقون فى كسب ود حكام دمشق بإرسال الهدايا والطرائف، واستعملوا شتى الأساليب لجمعها من السكان. يحدثنا ابن عبد الحكم عن هدايا عبيدة بن عبد الرحمن القيسى إلى هشام بن عبد الملك قائلا: «وكان فيما خرج به من العبيد والإماء ومن الجوارى المتخيرة سبع مائة جارية، وغير ذلك من الخصيان والخيل والدواب والذهب والفضة والآنية».

ثانيا - السبى، فلما انتهت مرحلة الفتح، وإرسال آلاف السبايا من المغرب إلى مركز الخلافة، واعتنق عرب العاربة البربر الإسلام التجأ الولاة إلى طرق تعسفية لضمان السبى، وإرساله إلى المشرق. إننا نميل إلى الاعتقاد بأن عبيد الله

1 ـ د. الحبيب الجنحانى ـ المرجع السابق ـ ص21.
2 ـ د. الحبيب الجنحانى ـ المرجع السابق ـ ص25.

ابن الحبحاب قد جهز حملات عسكرية إلى مناطق نائية من بلاد المغرب لجلب السبى، وإرساله إلى دمشق، فقد بعث قائده العسكرى حبيب بن أبى عبدة غازيًا إلى السوس الأقصى ليعود بسبى كبير، لأن المصادر تشير إلى أن ابن الحبحاب منى خلفاء المشرق بالكثير لما أفضى الأمر إليه، «وتكلف لهم أو كلفوه أكثر مما كان، فاضطر إلى التعسف، وسوء السيرة، فحينئذ عدت عرب العاربة البربر على عاملهم، فقتلوه، وثاروا بأجمعهم على ابن الحبحاب».

إن الحقيقة التى راسل بها عبد الرحمن بن حبيب الفهرى الخليفة العباسى أبا جعفر المنصور قائلا: «إن المغرب اليوم إسلامية كلها، وقد انقطع السبى منها» حقيقة قديمة تعبر عن وضع يعود إلى نهاية القرن الأول الهجرى، وقد تجاهل الولاة الأمويون هذه الحقيقة طيلة ربع قرن، واتبعوا شتى الأساليب لمواصلة مد المشرق بهدايا المغرب، وسبيه.

ثالثا - وبلغت هذه السياسة التعسفية للإدارة الأموية ذروتها القصوى بسن سياسة تخميس عرب العاربة البربر لضمان مورد قار وثرى لبضاعة ثمينة من بضائع العصر: الرقيق، وقد أصبحت الحاجة إليه ملحة نتيجة التطور الاقتصادى والاجتماعى الذى أشرنا إليه، يقول ابن عذارى: «ثم إن عمر بن عبد الله المرادى عامل طنجة وما والاها، أساء السيرة، وتعدى الصدقات والعشر، وأراد تخميس عرب العاربة البربر، ورغم أنهم من المسلمين، وذلك ما لم يرتكبه عامل قبله، وإنما كان الولاة يخمسون من لم يجب للإسلام، فكان فعله الذميم هذا سببًا لنقض البلاد، ووقوع الفتن العظيمة المؤدية إلى كثير القتل فى العباد نعوذ بالله من الظلم الذى هو وبال على أهله». إن هذه السياسة تدل على مدى النفوذ الذى كان يتمتع به الولاة فى مناطقهم، وقد كان واسعًا فى الميدان المالى، فكانوا يستعملون أموال بيت المال لكسب الأنصار، كما كانوا يتذرعون بمقاومة المعارضين السياسيين لاتباع طريقة التغريم واستئصال الأموال، وهو من مظاهر السياسة المالية فى حياة الخلافة الأموية فى المشرق والمغرب.

إن تصرف العمال فى أموال المسلمين يعكس نظرة بنى أمية إلى الشئون المالية، وقد بدأت تبرز هذه النظرة الجديدة منذ نهاية خلافة عثمان، فنجد عبيدة بن هلال الخارجى يخطب عام 64هـ محللا نقاط الضعف، وسوء التصرف أيام عثمان، فيقول: «. . . ثم أخذ فىء الله الذى أفاءه عليهم فقسمه بين فساق قريش، ومجان العرب». إننا نستطيع أن نؤكد فى هذا السياق أن نفوذ ولاة المغرب فى الميدان المالى كان كبيراً فتجاوز جمع الهدايا، واستنباط أساليب ضمان السبى، ليبلغ الميدان الجبائى بسن ضريبة متنافية مع المبادئ الإسلامية مثل ضريبة التخميس، وميدان ضرب العملة.

أما فى ميدان السياسة الجبائية فمن المعروف أن هذه القضية أصبحت تمثل سمة برزة فى سياسة الخلافة الأموية بصفة عامة، فبعد أن توقف تدفق الغنائم على مركز الخلافة بتوقف الفتوحات، وذلك فى نفس الفترة التى ازدادت فيها تكاليف بناء جهار الدولة الجديدة، ولا سيما تكاليف الجند، بدأ البحث عن موارد مالية جديدة بسن نظام جبائى مرهق يعتمد أساسًا على الخراج والجزية. وقد حاول الخليفة عمر بن عبد العزيز أن يدخل إصلاحًا جذريًا على النظام المالى للدولة الأموية، ولكن هذا الإصلاح لم يؤت أكله، فقد كانت خلافته قصيرة، ثم سرعان ما تراجع الخلفاء بعده عن النظام المالى الجديد الذى حاول وضع أسسه، فقد أخذ يزيد بن عبد الملك «أهل السغد الذين دخلوا الإسلام بأداء الجزية بعد أن كان عمر ابن عبد العزيز قد وعدهم بأن يسقطها عنهم، وفعل مثل ذلك مع عرب العاربة البربر يزيد بن أبى مسلم عامله على المغرب الأدنى». فهل يمكن - بعد التعرف إلى ملامح هذه السياسة المالية - تفسير حركات المعارضة، والانتفاضات المسلحة ضد الخلافة الأموية بدون بحث الأسباب الاقتصادية، وهى أسباب قد دعمت المعارضة الدينية والاجتماعية كما ألمحنا إلى ذلك أكثر من مرة. قد يلاحظ المرء قائلا: إن بعض النصوص تشير إلى محاولة الخلفاء الأمويين التحرى فى قبول أموال الجباية القادمة من المغرب، ولكن هذه النصوص نفسها تكشف عن عدم

احترام الأصول الشرعية فى جمع أموال الجباية، وينقل لنا مؤلف «أخبار مجموعة» نصًا ثمينًا فى هذا الميدان، حيث يقول: «. . . وذلك أن الخلفاء كانوا إذا جاءتهم جبايات الأمصار والآفاق يأتيهم مع كل جباية عشرة رجال من وجوه الناس وأجنادها، فلا يدخل بيت المال من الجباية دينار ولا درهم حتى يحلف الوفد بالله الذى لا إله إلا هو ما فيها دينار ولا درهم إلا أخذ بحقه، وأنه فضل أعطيات أهل البلد من المقاتلة والذرية بعد أن أخذ كل ذى حق حقه فأتى وفد المغرب بخراجها، وذلك أنها لم تكن يومئذ ثغرًا، فكان ما فضل بعد أعطيات الأجناد وفرائض الناس ينقل إلى الخليفة فلما وفدوا بخراج المغرب فى زمان سليمان أمروا بأن يحلفوا فحلف الثمانية، ونكل إسماعيل بن عبيد الله مولى بنى مخزوم، ونكل بنكوله السمح بن مالك الخولانى فأعجب ذلك عمر بن عبد العزيز من فعلهما، ثم ضمهما إلى نفسه فاختبر منهما صلاحًا وفضلاً، فلما ولى عمر ولى إسماعيل المغرب، وولى السمح بن مالك الأندلس وأمره أن يخمس أرضها، ويخرج منها ما كان عنوة خمسًا لله من أرضها وعقارها، ويقر القرى فى يدى غنامها بعد أن يأخذ الخمس»[1].

إن رفض رجلين من أعضاء الوفد عرفا بأمانتهما أداء اليمين يثبت أن أموال الجباية المنقولة قد استعملت فى جمعها أساليب غير شرعية. أما تعيين الرجلين على ولايتى المغرب والأندلس فيما بعد فهو يندرج ضمن خطة الإصلاح المالى الذى حاول عمر بن عبد العزيز إدخاله على الهياكل الاقتصادية للخلافة الأموية، ولكننا نعرف أن هذه المحاولة لم تنجح، واشتد عبء النظام الجبائى الأموى على المسلمين فى المشرق والمغرب، ولا سيما أيام خلافة هشام بن عبد الملك. ويتساءل المرء فى هذا السياق عن نتائج هذه السياسة الجبائية والمالية بصفة عامة.

إن هذه النتائج معروفة نسبيًا، فقد كانت من العوامل الحاسمة فى اندلاع حركات المعارضة هنا وهناك ضد السياسة الأموية، وفى سقوط الخلافة فى خاتمة

---

1 ـ د. الحبيب الجنحانى ـ المرجع السابق ـ ص29.

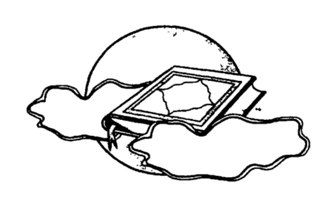
المطاف، ولكننا نريد أن نؤكد من جديد أن انتفاضات الخوارج فى بلاد المغرب تعبر عن معارضة ضد سياسة اقتصادية واجتماعية معينة، فقد اكتسبت خطورة كبرى ضمن حركات المعارضة الأخرى، حيث التحمت الدعوة الدينية، شعار المعارضة السياسية والاجتماعية، بالعصبية القبلية، ولكنها لا تختلف كثيراً عن انتفاضات أخرى اندلعت ضد أخطاء السياسة الأموية، فقد تزعم المختار بن أبى عبيد حركة معارضة فى الكوفة عام 66هـ اعتمدت أساسًا على مناصرة الموالى، وقد التفوا حولها أملا فى التخلص من جور الإدارة الأموية، وقد عبر أشراف الكوفة عن سبب مناهضتهم لحركة المختار قائلين: «. . . ولقد أدنى موالينا، فحملهم على الدواب، وأعطاهم، وأطعمهم فيئنا، ولقد عصتنا عبيدنا»، وقالوا له: «عمدت إلى موالينا، وهم فىء أفاءه الله علينا وهذه البلاد جميعًا فأعتقنا رقابهم، نأمل الأجر فى ذلك والثواب والشكر، فلم ترض لهم بذلك حتى جعلتهم شركاءنا فى فيئنا»، وكانوا يشكون من وثوب عبيدهم ومواليهم عليهم، وقبل سنة من انتفاضة الخوارج بمنطقة طنجة بزعامة ميسرة السقاء اندلعت فى الكوفة عام 121هـ حركة معارضة مسلحة بقيادة زيد بن على، وكانت بيعته التى يبايع عليها الناس: «إنا ندعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، وجهاد الظالمين، والدفع عن المستضعفين، وإعطاء المحرومين، وقسم هذا الفىء بين أهله بالسواء، ورد الظالمين، وإقفال المجمر، ونصرنا أهل البيت على من نصب لنا وجهل حقنا»، وفى نفس المدة ثار أهل السغد ضد جور السياسة الأموية، وكلما قمع جند الشام انتفاضة حاول الولاة الانتقام من السكان فاشتد حنق الناس، خطب يوسف بن عمر بعد هزيمة زيد بن على عام 122هـ فى الكوفة قائلا: «. . . أبشروا يا أهل الكوفة بالصغار والهوان، لا عطاء لكم عندنا ولا رزق، ولقد هممت أن أخرب بلادكم ودوركم، وأحرمكم أموالكم، أما والله ما علوت منبرى إلا أسمعتكم ما تكرهون عليه، فإنكم أهل بغى وخلاف، ما منكم إلا من حارب الله ورسوله، إلا حكيم بن شريك المحاربى، ولقد سألت أمير المؤمنين أن يأذن لى فيكم، ولو أذن لقتلت مقاتلتكم وسبيت ذراريكم»، فإذا كان هذا الكلام يوجه إلى سكان مدينة إسلامية مثل

الكوفة، فيمكن أن نتصور معاملة العمال الأمويين للمعارضين لسياستهم فى مناطق نائية مثل بلاد المغرب.

ولم تمض سوى بضع سنوات على حركات الخوارج فى المغرب، وثورة أهل السغد، وانتفاضة سكان الجوفة بزعامة زيد بن على حتى اندلعت حركة أخرى فى المدينة نفسها عام 130هـ بقيادة أبى حمزة الخارجى. فلا يمكن - إذن - فهم حركات الخوارج فى المغرب ضد أخطاء الإدارة الأموية، ولا سيما فى الميدان الجبائى إذا عزلت عن حركات المعارضة الأخرى فى بقية مناطق العالم الإسلامى عصرئذ، ومنها الجزيرة العربية نفسها. إن هذه الرؤية الشمولية هى التى تدحض ذلك الاتجاه الذى يذهب أصحابه إلى التركيز على مقاومة عرب العاربة البربر للحكم العربى فى تفسيرهم لانتفاضات الخوارج فى المغرب. ركزنا على خطأ هذا التفسير الذى لم يلفت النظر، ولم يثر الاستغراب طيلة نصف قرن، وما يزال البعض يتمسك به رغم النصوص الواضحة المفندة، ولعل أثمن نص، وأدقه فى تفسير ثورات عرب العاربة البربر الخوارج ضد السياسة الأموية فى المغرب هو وثيقة الشكوى التى سلمها وفدهم فى دمشق إلى الأبرش الكلبى بعد أن رفض هشام بن عبد الملك استقبالهم[1].

1 ـ د. الحبيب الجنحانى ـ المرجع السابق ـ ص32.

الفصل السابع



الحياة الفكرية

- الفكر العربى - الإسلامى.
- العلوم الدينية.
- الإمام الحسين عليه السلام علمه وفصاحته وبلاغته.
- مذهب الشيعة.
- مذهب الخوارج.
- علم الحديث.
- علم الفقه.
- علم التاريخ.
- الثقافة العربية فى المغرب.
- الثقافة العربية فى إسبانيا.

الفكر العربي ـ الإسلامي:

بينما كان الصراع السياسي يسير في مجراه الذي رأينا، كان هناك صراع من نوع آخر يسير في المجرى نفسه، ولكن على نحو شبه مستقل يتخذ شكل صراع فكري متصل بأمر التشريع الإسلامي أول الأمر. وهذا الصراع الفكري التشريعي يتميز تميزاً ظاهراً بأنه عميق الارتباط بخصائص البيئات الاجتماعية العربية ـ الإسلامية المختلفة هنا وهناك. إن هذا النوع من صراع الآراء في مسألة التشريع، سيدخل عاملا في جملة العوامل المحركة لمعركة الفكر العربي ـ الإسلامي التي ستنكشف عن نشأة البحوث الكلامية، أي نشأة التفكير الفلسفي في القضايا الجديدة المثارة أمام المفكرين. ومسألة الاجتهاد بالرأي في قضايا التشريع. كانت المتنفس الوحيد، في أوائل عهد الإسلام، لحركة الفكر العربي، والواقع أن الاجتهاد بالرأي كان متبعًا حتى في عهد النبي، ثم اتبع في عهد الخلفاء الراشدين، لا سيما عمر بن الخطاب. والعامل الأكبر في كون عمر قد برز في هذا المنحى الاجتهادي في التشريع، هو عامل موضوعي، بالإضافة إلى العامل الشخصي النابع من المرونة الذهنية والعملية التي كان يتمتع بها عمر. لقد واجه العرب بفتوحاتهم، خلال عشرين سنة من خلافة عمر، ظروفًا جديدة، هي ظروف البلدان المفتوحة. وبذلك وجدوا أمامهم أوضاعًا وقضايا ومشكلات لم تمر بحياتهم في ظروف شبه الجزيرة العربية، فكان عليهم أن يستخدموا التشريع الإسلامي بمرونة حاذقة لمواجهة تلك الأوضاع والقضايا والمشكلات بتشريعات لم تكن لديهم من قبل، ولم يكونوا يحتاجون إليها. ذلك هو العامل الموضوعي. لقد وجد العرب الفاتحون أن عليهم معالجة قضايا مالية، وإدارية وتنظيمية، وعسكرية جديدة، واجتماعية، وقضائية تتعلق بأنواع من الخصومات لم يعرفوها في مجتمعهم البسيط، وبأنواع من الأحوال الشخصية جديدة عليهم. فهل كان في المصدَرْين الأساسيين للتشريع الإسلامي: القرآن، والسنة، نصوص مفصلة جاهزة تنطبق على هذه الأمور كلها؟ طبعًا، لايمكن لأي تشريع: إلهيًا كان أم وضعيًا،

أن يشتمل على نصوص وتفاصيل لكل ما تجيء به الحياة من جديد دائما. إذن، لم يكن من سبيل، لتطبيق التشريع الإسلامى على هذه الشؤون الجديدة، سوى استعمال الرأى و «الاجتهاد»؛ لذلك لجأ العرب القائمون على شؤون البلدان المفتوحة إلى هذا المنبع الجديد للتشريع، فاستخدموه استخدامًا واسعًا بالفعل. وأن كتب التاريخ العربى، والمؤلفات الفقهية الكثيرة، تعرض لنا نماذج لاتحصى من الاجتهادات التشريعية القائمة على النظر العقلى المستمد من قواعد الشريعة. من هنا نشأت، خلال الممارسة العملية لهذا الأصل التشريعى، مدرسة قائمة بذاتها دعيت مدرسة «أهل الرأى». وقد ظهرت بصفتها «المدرسية» المتميزة بمميزات معينة منذ أواسط القرن الأول للهجرة، واتسع تأثيرها بين أوساط الفقهاء والقضاة فى النصف الأول من القرن الثانى للهجرة. ومن مميزاتها هذه:

أولا، أنها لم تكن تكتفى باستنتاج الحكم التشريعى للحادثة الواقعية الحية المعروضة أمام ذوى الرأى، بل كانت ـ مع ذلك ـ تفترض حوادث لم تقع لكى تجد لكل افتراض ذهنى حكمه الاجتهادى الخاص.

ثانيا ـ لم يكن يعنى بعض ممثليها أن يبحث عن الحديث الوارد عن النبى قبل أن تستخدم الرأى، بل كان بين أتباع هذه المدرسة من يرفض الأخذ بالحديث النبوى حتى حين يجد بين يديه الحديث المطابق للحادثة المعروضة. وذلك استنادًا إلى ما أصبح شائعًا، بعد مرور زمن بعد النبى، من الشك فى صحة رواية أحاديثه على الستة الرواة. «وقد نسب البغدادى القول بإنكار العمل بالحديث إلى الخوارج فى كتابه «أصول الدين»[1].

رافقت مدرسة «أهل الرأى» هذه ظاهرة تلفت النظر، هى كونها أكثر انتشارًا ورسوخًا فى العراق حينذاك. وتعليل هذه الظاهرة ـ كما يضعه أحمد أمين ـ **أولا**: أن أشهر رجالها عبدالله بن مسعود، ثم أبا حنيفة، وجدا فى العراق، فأشاعا ميلهما إلى الرأى وإعمال القياس. **ثانيا**: ما ذكره ابن خلدون من أن أهل «الحجاز

1 ـ حسين مروة ـ المرجع السابق ص532. وانظر: فجر الإسلام: ط8، ص242.

أكثر رواية للحديث من أهل العراق، لأن المدينة دار الهجرة ومأوى الصحابة، ومن انتقل منهم إلى العراق كان شغلهم الجهاد الأكبر. ثالثا: «أن العراق قطر ممدن.. قد تأثر إلى درجة كبيرة بالمدينة الفارسية واليونانية. والمدينة تضع تحت عين الشرع جزئيات كثيرة تحتاج إلى التشريع لايقاس بها القطر البدوى وما فى حكمه. فإذا انضم إلى ذلك ما وصل إليهم من الحديث أنتج ذلك، لا محالة، إعمال الرأى». وهذا السبب الثالث أن الصراع الفكرى فى هذه المسألة تميز بارتباطه العميق بخصائص البيئات الاجتماعية العربية - الإسلامية المختلفة هنا وهناك. قامت هذه المدرسة رداً على مدرسة أهل الرأى، فكانت الطرف المناقض لها. أصحاب مدرسة الحديث ينكرون العمل بالرأى، فإذا عرضت لهم واقعة تحتاج إلى بيان تشريعى لم يجدوه فى القرآن، بحثوا عن حديث نبوى ينطبق عليها، فإن لم يجدوا هذا الحديث وقفوا ولم يقولوا شيئًا بشأن هذه الواقعة. فإذا كانت مدرسة أهل الرأى قد نشأت وتوطدت وانتشرت فى العراق للأسباب الثلاثة المتقدمة، فإن مدرسة أهل الحديث نشأت وتوطدت وانتشرت فى الحجاز للأسباب نفسها معكوسة. أى لأن أشهر رجالها، أمثال الإمام مالك عاشوا فى الحجاز وعايشوا النبى فى حياته هناك أولا، ولأن الحديث كان فى الحجاز أكثر منه فى العراق، ثانيًا: ولأن الحجاز «قطر بدوى» غير متأثر كثيراً «بالمدينة الفارسية واليونانية»، ثالثا: وإذا كانت مدرسة أهل الرأى تستخدم الافتراض الذهنى للواقعات، ثم تستخرج لها التشريعات التى يصل إليها إعمال الرأى، فإن مدرسة أهل الحديث تنفر نفوراً شديداً من افتراض الواقعة، وترفض الإجابة عن سؤال إلا إذا كان يتعلق بواقعة حدثت بالفعل، لا مفترضة.

لقد اشتد الصراع بين هذين الاتجاهين المتعاكسين فى نطاق التشريع أول الأمر، وظل يشتد حتى خرج إلى نطاقه الأوسع متطوراً إلى صراع فكرى شامل. فإذا بنا نجد كلا من الاتجاهين يتخذ موقفًا فى المعركة الفكرية الكبرى، فيما بعد، يتفق مع موقفه فى المعركة التشريعية. فأهل الرأى فى المجال التشريعى يظهر منهم فى المجال الفكرى رجال أمثال الحسن البصرى الذى انطلقت من حلقته فى مسجد

البصرة تلك المدرسة ذات النزعة العقلية المعروفة. نعنى بها المدرسة المعتزلة. أما أهل الحديث فقد انتقلوا إلى المعركة الفكرية بموقفهم المحافظ الذى عرفوا به فى المعركة التشريعية، وظهر من مدرستهم السابقة رجال أمثال أحمد بن حنبل خاصموا مبادئ المعتزلة مخاصمة شديدة. نقول هنا بإجمال: إن الثقافة التى جاءت نتاج العلاقة العضوية - الجدلية بين الحياة العربية والحياة الإسلامية، بين الفكر العربى والفكر الإسلامى، بين اللغة والفكر الذى تعبر عنه اللغة، هى ثقافة عربية - إسلامية، لا انقسام فيها بين ما هو عربى خالص وما هو إسلامى خالص وما هو عربى - إسلامى متداخل، ولا انقسام فيها بين ما هو نتاج مثقفين ومفكرين ذوى أصول عربية وبين مثقفين ومفكرين إسلاميين ذوى أصول غير عربية. إنهم جميعًا سواء. لأنهم جميعًا انطلقوا فى تفكيرهم كله من منطق اللغة العربية، أى منطقها اللغوى والبيانى والفكرى، ولأنهم جميعًا انطلقوا أيضًا فى ممارساتهم الثقافية، بأوسع مجالاتها، من قضايا معينة لمجتمع معين ومن مشكلات اجتماعية وسياسية وفكرية هى مشكلات هذا المجتمع نفسه الذى يعيشون جميعًا فى إطاره، ويستمدون نظرتهم إلى العالم من خلال واقعه التاريخى ونمط علاقاته الاجتماعية[1].

إن نشأة هذه العلوم العربية - الإسلامية كانت تعبيراً عن حاجات ذلك التطور العام إلى شكل من تنظيم المعرفة يتجاوب مع حاجات التنظيم الاقتصادى والاجتماعى والإدارى والمالى، الذى كانت الدولة قد بدأته، بقدر ما يتجاوب مع حاجات اتساع الفتح العربى - الإسلامى وشموله عدداً من البلدان والشعوب التى واجهت ضرورة الانسجام مع لغة الفاتحين والتكلم بها وتفهم دلالاتها اللغوية والتعبيرية وفق أصول وقواعد منظمة على صورة ما من التنظيم. ذلك فضلا عن أن تكلم ألسنة غير عربية بلغة العرب، واختلاط العرب مع أهل هذه الألسنة، كشف بعد قليل من الزمن أن هذه اللغة ستفقد كثيراً من صفائها وأصالتها حتى لدى أبنائها الذين ابتعدوا فى بيئاتهم الجغرافية والاجتماعية الجديدة عن البيئة

1 - حسين مروة - نفس المرجع ص539.

العربية الأصلية. وذلك سيؤدى ـ من وجهة نظر إسلامية ـ إلى ابتعاد المسلمين، حتى العرب منهم، عن إمكان فهمهم تعاليم الإسلام الاعتقادية والتشريعية من منابعها الوحيدة: اللغة، والقرآن، والسنة. ذلك مع كون هذه المنابع تتمتع بنسق من البيان يعد أرقى أساليب اللغة العربية بيانا وتركيبا وتأليفا، فضلا عن مضامينها المشتملة على مفاهيم ميتافيزيقية ومعرفية وتشريعية صيغت فى القرآن صياغة ذات طابع فنى إيحائى غير مباشر، أو صيغت بصورة مكثفة أحيانًا تحمل كثيراً من احتمالات المعانى والمقاصد. يضاف إلى ذلك كله أن نصوص القرآن والحديث لم تكن مكتوبة فى البداية، وما كتب منها لم يكن شائعًا إلا بين عدد محدود من الصحابة، وإنما كانت هذه النصوص محفوظة مروية على ألسنة من سمعوها من النبى ﷺ، وهؤلاء تفرقوا فى البلدان مع جيوش الفتح، وبعضهم قتل فى حروب الفتح، وآخرون أخذوا يموتون واحدا بعد واحد متفرقين فى الأمصار. كل هذه العوامل مجتمعة ومتكاملة اقتضت نشوء تلك العوامل، لضبط قواعد اللغة أولا (النحو) وتنظيم معرفة أسرارها التعبيرية البلاغية ثانيًا، ثم تفسير البيان القرآنى، وكشف مقاصده التعليمية والاعتقادية والتشريعية، فى ضوء تلك المعرفة المنظمة، ثم جمع الحديث النبوى وتصحيح رواياته وتمييز رواته بعضهم من بعض ودراسة سيرة كل منهم لمعرفة مدى صدقه فى رواية الحديث، أو مدى اتصاله بالنبى فى حياته... إلخ. كانت نشأة هذه العلوم فى وقت مبكر من عصر صدر الإسلام مبعث نشاط ثقافى حيوى ساعد الحركة الفكرية الصاعدة مع حركة الصراع السياسى على أن تجد لديها مادة ثقافية على شىء من التصنيف والتنظيم، وإن يكن تصنيفًا أوليا وتنظيمًا بدائيًا لم تكتمل لهما عناصر التأليف العلمى المتخصص، وهى عناصر لا تكتمل إلا فى ظروف تقدم المعرفة واتساع جوانبها وبروز الحاجة إلى تصنيفها على أساس وحدة الموضوع وتناسق المواد المتصلة بهذا الموضوع. فضلا عن أن تجارب العلوم الجديدة كانت فى ذلك الوقت المبكر من عصر صدر الإسلام لاتزال ضئيلة يصعب تصنيفها. ولذلك بقيت «العلوم العربية» التى نتحدث عنها متشابكة بعضها مع بعض، لا حدود واضحة بين كل منها والآخر إلى عهد ازدهار

الثقافة العربية ـ الإسلامية فى أواخر القرن الثانى للهجرة أى فى العصر العباسى الأول. ولهذا السبب نفسه نرى القضايا الفكرية المعبرة عن قضايا الصراع السياسى لم تتخذ شكل علم معين، له عناصر التأليف العلمى ومنهجيته إلا فى هذا العهد الأخير. ونقصد هنا ـ بالتحديد ـ تلك القضايا التى تكون منها علم الكلام فيما بعد. فإن الجدل الذى أثير منذ أوائل العهد الأموى فى مسائل الخلافة، ومرتكب الكبيرة، ومفهوم الإيمان، ثم فى مسائل القدر ومسؤولية الفعل الإنسانى، ثم المسائل الميتافيزيقية المتعلقة بصفات الله ـ نقول: إن الجدل الذى أثير منذ ذلك الوقت فى هذه المسائل كلها، بقيت مواده الفكرية مبعثرة مشتتة لاتنتظمها وحدة تأليفية تجعل منها علما مستقلا، له موضوعه المستقل ومنهجه العقلى المستقل، إلا فى وقت متأخر، هو الوقت الذى أصبح فيه التفكير الفلسفى القاعدة والمنطلق للفكر العربى ـ الإسلامى فى مجالات نشاطه كلها، وذلك هو العصر العباسى الذى عرف بعصر المأمون.

إن هذه العلوم ما تكونت وصارت محور نشاط واسع وأخذت طريقها نحو التطور والتكامل، حتى كانت طلائع التفكير الفلسفى قد دخلت الحياة الفكرية العربية من مختلف جهاتها، فإذا بهذه العلوم نفسها تتأثر تأثراً واضحًا وملموسًا بنزعة التفكير الفلسفى، وإذا بنا نرى حتى علم النحو العربى وعلم اللغة يدخلهما تيار هذه النزعة، بحيث نجد مباحثهما تتخذ وجهة عقلية ومنطقية، وبالرغم من أنهما علمان يعتمدان بالأصل طريقة النقل والسماع عن أدب الجاهلية لضبط الخصائص الفيلولوجية والغراماطيقية للغة العرب. إننا نجد فى مدرسة البصرة النحوية اتجاهًا قويًا إلى استخدام القياس المنطقى. وليس بعيداً عن الواقع تعليل دى بور لهذه الظاهرة بتأثير المذاهب الفلسفية التى ظهرت فى البصرة قبل ظهورها فى غيرها.

تتصل حركة التدوين تاريخيًا ومنطقيًا بحركة نشأة «العلوم العربية» التى نتحدث عنها. وحركة التدوين هذه تشغل مكانًا عظيمًا فى تاريخ تطور الفكر العربى ـ الإسلامى جملة وتفصيلا. وهى تعنى ذلك العمل التاريخى الذى بدئ به

عهد كتابة المعارف الأدبية والدينية والعلمية وأخبار العرب، بعد أن كانت هذه المعارف تحكى وتروى بالسماع دون القراءة. إن التدوين بهذا المعنى غير التأليف، بل هو الانتقال من عهد المعارف المنقولة شفهيًا إلى عهدها مسجلة بالكتابة. فمتى بدأ هذا العهد بالتحديد؟ هناك من يرى بين المؤرخين أنه بدأ فى منتصف القرن الثانى للهجرة، أى فى النصف الثانى للقرن الثامن الميلادى. وهذا رأى مخالف للواقع التاريخى لأن هناك ما يدل على أن تدوين القرآن والحديث النبوى حدث فى العهد الأول للإسلام. فإن ابن النديم صاحب «الفهرست» يروى أن عبيدا بن شرية الجرهمى دوّن أيام معاوية «كتاب الأمثال» و«كتاب الملوك وأخبار الماضين»، وأن صحارا العبدى، وهو من الخوارج، دون فى عهد معاوية أيضا كتابًا باسم «كتاب الأمثال» كذلك، ويروى ابن النديم فى مكان آخر من «الفهرست» أنه كان من مدينة الحديثة رجل يدعى محمداً بن الحسين، يجمع الكتب، وأن له خزانة كتب تحتوى على الكتب العربية فى النحو واللغة والأدب، وأنه - أى ابن النديم - رأى بين هذه الكتب مصحفًا بخط خالد بن الهياج صاحب الإمام على بن أبى طالب عليه السلام، ورأى فيها شيئًا من خط الإمام الحسن والحسين ابنى الإمام علىّ عليهم السلام، ورأى عنده أمانات وعهوداً بخط على نفسه وبخط غيره من كتّاب النبى ومن خطوط العلماء فى النحو واللغة مثل أبى عمرو بن العلاء وأبى عمرو الشيبانى. وفى كتاب «الطبقات الكبرى» يروى ابن سعد أن هشاما بن عروة بن الزبير قال: «أحرق أبى يوم الحرة كتب فقه كانت له. فكان يقول بعد ذلك: لأن تكون عندى أحب إلى من أن يكون لى مثل أهلى ومالى». ويصف لنا «الأصفهانى، أبو الفرج» صورة طريفة نرى فيها عبدالحكم بن عمرو بن عبدالله بن صفوان الجمحى - وهو من رجال العصر الأموى قد جعل من أحد البيوت ما يشبه النوادى العامة فى عصرنا، إذ وضع فيه أدوات شطرنج ونرد (طاولة الزهر)، «ودفاتر فيها من كل علم، وجعل فى الجدار أوتادا، فمن جاء علق ثيابه على وتد منها، ثم جر دفترا فقرأه، أو بعض ما يلعب به فلعب». ذلك يدل أنه كانت هناك يومئذ دفاتر مكتوبة وموضوعة بأيدى الناس للقراءة منذ وقت سابق. ثم إن ابن خلكان أيضا يتحدث عن ابن شهاب الزهرى فيقول إنه «كان إذا جلس فى بيته

وضع كتبه حوله، فيشتغل بها عن كل شىء من أمور الدنيا، فقالت له امرأته يوما: والله لهذه الكتب أشد على من ثلاث ضرائر». والمعروف أن ابن شهاب مات عام 124 هـ ـ 741م. وهذا يدل على أن كتابة الكتب كانت أمراً شائعًا فى العصر الأموى، منذ زمن. ويؤكد ابن خلكان ذلك ثانية حين يقول عن عمرو بن العلاء، الذى ولد سنة سبعين للهجرة (698م): «كانت كتبه التى كتب عن العرب الفصحاء قد ملأت بيتًا له إلى قريب من السقف». كل هذه الواقعات التاريخية تنبئ، بوضوح، أن حركة التدوين كانت مساوقة لحركة النشاط الثقافى عند نشوء العلوم العربية، ولحركة التفكير التى جاءت فى بدايتها انعكاسا للصراع السياسى المحتدم منذ بداية العهد الأموى. وطبيعى، إذن، أن تكون حركة التدوين هذه عاملا مساعدا كذلك لحركة التفاعل الثقافى بين العرب وشعوب الدولة العربية الواسعة كى تعطى ثمارها فى عملية تطور الفكر العربى ـ الإسلامى، بقدر ما كانت عاملا مهما فى نشر التفكير المعتزلى العقلى الذى أخذ ينشط فى مجرى الحركتين السابقتين ذاتيهما[1].

كانت مراكز النشاط الثقافى، وما يحتويه من نشاط فكرى خاص، عرضة للانتقال والتبدل بين عهد وعهد حسب تطور حياة العربى السياسية وما يتبع ذلك من تبدل العواصم، وحسب تأثر الفكر العربى ـ الإسلامى بالتراث القديم لهذا البلد أو ذاك من البلدان التى شملتها الدولة العربية ـ الإسلامية. لذلك اختلفت مراكز الحياة الفكرية فى صدر الإسلام عنها فى العصر العباسى، كما حصل هذا الاختلاف فى العهود العباسية ذاتها إلى عهد ملوك الطوائف، فعهد الاستعمار المسيحى الصليبى، فعهد الغزو المغولى، حتى العهد الذى سمى بـ «عهد الانحطاط». أما فى عصر الإسلام ومنه العصر الأموى، الذى لانزال نتحدث فى إطاره، فقد كان أهم مراكز النشاط الفكرى: مكة والمدينة فى الحجاز، البصرة والكوفة فى العراق، دمشق فى بلاد الشام، الفسطاط (القاهرة الآن) فى مصر. أما

1 ـ حسين مروة ـ نفس المرجع ص542. وانظر: أبو الفرج الأصفهانى: الأغانى، جـ4، ص52 (دار الحياة، بيروت 1957). ابن خلكان: تاريخه، جـ1، ص550.

مكة والمدينة، فقد ازدهرت فيهما علـوم: الفقه، والحديث، والتاريخ. ذلك بأنهما منبع الإسـلام، ومنهـما نشطـت الدعوة للدين الجـديد بكل وسـيلة من وسـائله التعليمية. وقد بقيتا مركـزين لدعوة النبى، وللخلافة الراشدية، عدا خلافة الإمام علىّ عليه السلام إذ جعل الكوفة مـركزاً له. أما البصرة والكوفـة فقد نشأتا بعد اسـتيلاء العرب على العراق فى خلافة عمر بن الخطـاب، وسريعًا ما تحولت كل منهما إلى مركز حيوى لنشاط الحركة الثقافيـة بأرفع أشكالها حينذاك، وفيهما تجمعت خبرات أهل الحجـاز العملية ومعـارفهم الإسلاميـة المستفـادة من معايشتـهم الإسلام منذ نشأته، وقد جاءوا الكوفة والبصرة مهاجرين بعد الفتح، بالإضافة إلى خبرات أهل العراق الحضـرية بما توارثوه أو عايشوه من الميراث الحضـارى لمدنيات بابل وفارس وآشور، وتأثرت «الحـيرة» بهذه المدنيات، وبما تـسرب إليهم من دراسات الفلسـفة اليـونانية فى بعض الأديرة المسـيحـية بالشـمال أو فى بعض المـدارس الفارسـية. وتلاقت هذه الخـبرات مع مـواهب الخـصب الذى تميزت به بـلاد ما بين النهـرين وساعد على التطور العمرانى والإنتاجى المتسارع. وقد ظهر تنافس حاد بين البصرة والكوفة، بعـد قليل من ظهور النشـاط الثقـافى فيهـما. وكان هذا الـتنافس أحد عوامل الازدهار الفكرى فى كل منهـما، ثم نشأ من هذا التنافس انقـسام المدارس الفكرية بين مدرسـة بصرية ومدرسة كوفـية بحيث تميزت كل واحدة مـنهما بطابع خاص فى طريقة التفكيـر بمسائل الفقه والنحو والأدب، ثم المسائل الكلاميـة فيما بعد.

ظلت البصرة والكوفة من أهم مراكز الفكر العربى بضعة أجيال حتى بعد أن ظهرت بغداد عاصـمة أولى للثقافة العربيـة دون منازع. بدليل ما نرى من آثارهما فى تاريخ تطور الفكر العربى التى كانت عـميقة وقوية إلى حد أنهمـا كانتا منطلقا لأكثـر المذاهب الفكرية جراءة وتحـرراً كمذهب المعـتزلة مثـلا، ومنطلقا لحـركات اجتماعـية تدعمها منطلقـات فكرية كحركة القرامطة و «إخوان الصـفا». ويبدو أن الظروف التى وضعت البـصرة والكوفة فى موضع المعارضـة السياسيـة منذ احتدام الصـراع العلوى ـ الأموى، مع وجـود كثـير من الموالى فـيهـما، وهم من أشـد

المعارضين للأمويين بحكم كون الأمويين حاملى راية تلك النزعة القائلة بسيادة العنصر العربى - يبدو أن هذه الظروف ربما كان لها أثر فى ظهور تلك المذاهب الفكرية والحركات الاجتماعية فى هاتين المدينتين الثقافيتين، وأما دمشق فقد احتلت مكانتها المرموقة منذ أصبحت مركزاً للخلافة الأموية، وصارت مقصداً للعلماء والأدباء من أنحاء الدولة العربية كافة، ولكن لم تبلغ بتأثيرها الثقافى منزلة البصرة والكوفة، لأن الخصومات السياسية صرفت أكثر جهد الأمويين عن الاهتمام بتنمية الحركة العلمية فى عاصمتهم إلى الاهتمام بالأدب والأدباء، ولاسيما الشعراء، متخذين منهم وسيلة تأييد لسياستهم وهجوم على خصومهم السياسيين من الأنصار والعلويين والخوارج. غير أن هذا لايعنى أن دمشق قد فرغت من الحركة العلمية. بل لقد نشطت فيها مناقشات جادة فى بعض المسائل التى كان يثيرها الاحتكاك هناك بين الإسلام والمسيحية. ولكن هذه المناقشات لم تكن تتجاوز نطاق الجو «الرسمى» السائد فى العاصمة الأموية. فإن قضية القدر ومسؤولية الفعل الإنسانى من حيث الجبر أو الاختيار، مثلا، ما كان يمكن لدمشق أن تكون بعيدة عن البحث فيها حين كانت هى القضية الأولى التى يدور عليها الجدل الفكرى فى مدارس العراق والحجاز جميعًا. ولكن المسألة هنا هى مسألة الاتجاه فى مثل هذه القضية. وقد كان اتجاه دمشق، فى ذلك، هو اتجاه السلطة الأموية نفسه، أى تأييد القول بسلب الإنسان حرية الاختيار فى أفعاله. كيف كان الحكام الأمويون يحاربون نزعة الاختيار بشدة، ولماذا يحاربونها. وأما مدينة الفسطاط فقد ظلت، منذ فتح مصر عام 20هـ/ 640م) فى خلافة عمر بن الخطاب حتى آخر عهد الدولة الأموية، مركزاً علميا غلب عليه العلوم الدينية الصرفة، ولاسيما الحديث والفقه. فلم تبرز الحركة العلمية فيها إلا مرتبطة بالعلوم الإسلامية والمذاهب الفقهية[1].

ازدهرت الحركة الفكرية فى العصر الأموى وشملت مجالات العلوم الدينية واللغوية، والتاريخ والجغرافيا، والعلوم العقلية كالفلسفة والفلك والرياضيات

---

1 - حسين مروة - نفس المرجع ص544.

والعلوم الطبيعية، ووجد فى العصر الأموى الباحثون فى فروع المعرفة المختلفة، بعضهم من اليهود أو النصارى الذين تحولوا إلى الإسلام وتعربوا، وكتبوا بالعربية، والبعض الآخر من العرب، وفيما يلى عرض موجز لهذه النشاطات الفكرية المتعددة:

العلوم الدينية: هى أول ماعرفه العرب من العلوم، فالمعروف أن الصحابة تفرقوا فى الأمصار الإسلامية، وشارك الكثير منهم فى الفتوحات، فتأسست المدارس الدينية فى الأمصار الإسلامية وكان أساسها القرآن والحديث والفقه، فكانت بداية التأليف العلمى عند العرب وثيقة الصلة بهذه المصادر، وكانت مراكز هذه الحركة المدينة والفسطاط والبصرة والكوفة ودمشق، ومن أشهر علمائها عبدالله ابن عمرو بن العاص فى الفسطاط (ت65هـ الموافق 684م)، ويزيد بن أبى حبيب (ت128هـ الموافق 745م) فى الفسطاط أيضًا، وأخذ عنه عبدالله بن لهيعة والليث ابن سعد من أعظم علماء الحديث والفقه فى مصر الإسلامية. وكان من أهم العلوم الدينية علم القراءات الذى يعتبر أساس علوم التفسير، ويتناول هذا العلم أساليب قراءة القرآن نتيجة لانعدام التشكيل والنقاط، ومن أئمة القراءات فى المدينة نافع بن عبدالرحمن بن أبى نعيم المدنى، وفى مكة عبدالله بن كثير مولى عمرو بن علقمة الكنانى (ت120هـ الموافق 737م)، وقيل إنه من أبناء فارس الذين بعثهم كسرى فى السفن إلى اليمن فطردوا الأحباش، وفى الكوفة عاصم بن أبى النجود (ت128هـ الموافق 745م) مولى بنى جذيمة بن ملك بن نصر، وفى دمشق عبدالله ابن عامر اليحصى (ت118هـ الموافق 736م). ومن العلوم الدينية علم تفسير القرآن، وقد نشأ التفسير فى عصر النبى ﷺ أول شارح للقرآن الكريم، ثم تولى صحابته هذه المهمة من بعده، باعتبارهم الواقفين على أسراره، المهتدين بهدى النبى ﷺ، ومن أشهر المفسرين من الصحابة عبدالله بن عباس.

علوم اللغة: على الرغم من غلبة الأمية والبداوة على العرب فى جاهليتهم، فقد كانت لغتهم الفصحى هى كل ما حملوه معهم مع الإسلام من

الجزيرة العربية إلى الأمصار، واللغـة العربية هى التى نزل بها القرآن الكريم، وهى اللغة التى سُجلت بها روائع الشعر العربى القديم الذى يتضمن من السمو الفكرى والذوق الفنى والإبداع ما يعـبر عن سعة أفـق العرب ونضوجهم العـقلى وخصب خيـالهم وحساسـيتهـم، وقد اضطر العرب بعـد اختلاطهم فـى بلاد الشام بالروم والسريان، وفى مصر بالقبط، وفى العـراق وفارس بالعجم، وفى المغرب بالبربر، وبعد أن دخل كثيـر من هذه الشعوب فى الإسلام، إلى وضع قواعد للـغة العربية لتحـميها من اللحن والخـطأ، فظهرت مدرسة النحـويين فى البصرة ويرأسـها أبو الأسود الدؤلى الذى اطلع على نحو السريان. وظهـرت بعض علوم اللغة كالنحو والصرف والعـروض فى العصر الأموى، وكـان الناس قبل ظهور الإسـلام وبعده بفترة حتى عـهد «الإمام على بن أبى طالب عليه السلام» يتحـدثون بلغة عربية، سليـمة الأداء، فصيحة النطق، بالفطرة والسليقـة اللغوية، دون أن يعرفوا نحواً أو صرفًا، غير أن الأمر اختـلف بعد دخول كثير من أبناء البلاد المفتـوحة فى الإسلام؛ حيث بدأ ظهور الخطأ واللحن فى اللغـة، ومن ثم ظهرت الحاجـة إلى علم لضبط النطق السليم للكلمات العربية.

. نشاة علم النحو: يعد أمير المؤمنين «الإمام على بن أبى طالب عليه السلام» أول من أشار بوضع قواعد علم النحو، حيث كلف أحد ولاته وكتابه وهو «أبو الأسود الدؤلى» المتوفى عام (69هـ الموافق 688م) بوضع قواعد علم النحو، ويروى «أبو الأسود» نفسه أنه دخل على أمـير المؤمنين «الإمام على بن أبى طالب عليه السلام» فوجد فى يده رقعـة، فسأله عنهـا، فقال: إنـى تأملت كلام العرب فـوجدته قد فـسد، فأردت أن أضع شيئًا يرجعون إليه. وألقى الرقعة إلى «أبى الأسود»، فوجد مكتوبًا فيها: الـكلام كله اسم، وفعل، وحرف، فالاسم ما أنبأ عن المسـمى، والفعل ما أُنبئ به ـ حيث يدل على الحـدث وزمانه ـ والحرف ما أفاد مـعنى. ثم قال «الإمام علىّ عليه السلام» لأبى الأسـود: انح هذا النحو وأضف إلـيه مـا وقع لك، فقـال «أبو الأسود»: فوضـعت باب العطف والنعت، ثم بابى التعجب والاستـفهام، إلى أن وصلت إلى باب: إن وأخواتها ماخلا لكن، فلما عرضتها على «الإمام علىّ عليه السلام»

أمرنى بضم لكن إليهـا، وكنت كلما وضعت بابًا من أبواب النحو عرضـته عليه، إلى أن حصلت مـا فيه الكفاية، فقـال «الإمام علىّ ﷺ»: ما أحـسن هذا النحو الذى نحوت، ومن هنا ظهر علم النحو[1].

وعن أبى الأسـود الدؤلى أخذ جـماعـة من دارسى النحو منهم يحـيى بن يعمر، وعنبسة بن مـعدان، وميمون الأقرن، وعيسى بن عـمر الثقفى، وكان هذا الأخير من مـقدمى غوىّ البصـرة، وعنهم أخذ الخليل بن أحمد، وأصـدر كتاب المكمل. ومن تلاميذ الـدؤلى يونس بن حبيب (ت183هـ الموافق 799م) مولى بنى ليث بن بكر، وقـيل إنه أعجـمى الأصل، وكان أعلم الناس بتـصاريف النـحو. كذلك استحدثـت الشريعة الإسلامية والنظم السياسـية والإدارية فى الدولة العربية ألفاظًا ومصطلحات لم يكن للعرب عـهد بها من قبل، وازدادت هذه المصطلحات بما نقله المسلمـون عن اليـونانية والفـارسيـة فى مخـتلف مـيادين العلوم كـالطب والرياضة والفلسفة والكيميـاء، وأدى ذلك إلى البحث فى مفردات اللغة من حيث معانيها وأصـولها واشتقاقاتها، فظهرت المعـاجم العربية، وأول من وفق فى جمع أول معجم فى اللغة العـربية الخليل بن أحمد الأزدى (ت170هـ الموافق 786م)، وذكروا أنه كان غاية فى اسـتخراج مسائل النحو وتصـحيح القياس، وهو أول من استخرج العروض وحصن به أشعـار العرب، وصنف الخليل كتابه المشهور المسمى العين، كما صنف كـتبًا أخرى منها كتاب النغم وكتاب الـعروض وكتاب الشواهد وكتاب النقط والشكل وكتاب فائت العين وكتاب الإيقاع[2].

. **الشعـر الأمـوى:** اهتم الأمويون بلغـة العرب بعد اختـلاطهم بالأعاجم، فوضعوا لها القـواعد، ووضعوا لشعرهـم الأقيسة، كمـا جاب العلماء البادية لجمع مفردات اللغة من أفواه البدو الخلص، فجمع كثير من الشعر القديم، ووضع الخليل ابن أحمد قاموسًا للغة وأنشأ علم العروض لوزن الشعر، فنهض الشعر فى العصر الأموى، واتخـذ الشعر الأموى اتجـاهات جديدة لم تكن معروفـة عند العرب فى

---

1 ـ د. السيد عبدالعزيز سالم ـ المرجع السابق ص695.

2 ـ د. عبدالشافى محمد عبداللطيف ـ المرجع السابق ص104.

الجاهلية، فظهر شعر الغزل، ومن أشهر شعراء هذا اللون عمر بن أبى ربيعة فى الحجاز، الذى يمثل الغزل غير البرىء لبثينة، وجميل عزة الذى يمثل الحب البرىء، وظهر الشعر السياسى، ونتيجة للسياسة الحزبية للدولة الأموية، واتخاذهم الشعر وسيلة للدعاية، وهو النوع المعروف بالشعر الحزبى، وجد شعراء أبلوا بلاء حسنًا، منهم عبيد الله بن قيس الرقيات من الزبيريين، والكميت بن زيد الأسدى من شعراء الشيعة، كما وجد شعراء يمثلون السياسة الأموية، نذكر منهم الفرزدق شاعر عبدالملك بن مروان، والوليد، وسليمان ويزيد، وجرير شاعر الحجاج، والأخطل شاعر معاوية وخلفائه. كذلك وجد شعراء يمثلون الصراع بين العصبيتين الحجازية واليمنية، وسجل هؤلاء المفاخرات العصبية، ومن شعراء قبائل الحجاز الكميت، ومن شعراء قبائل اليمن القحطانية دعبل الخزاعى.

الإمام الحسين عليه السلام علمه وفصاحته وبلاغته: تربى الإمام الحسين رضى الله عنه بين يدى رسول الله ﷺ أفصح من نطق بالضاد، وأمير المؤمنين الإمام على عليه السلام الذى كان كلامه أبلغ كلام بعد كلام الرسول ﷺ وفاطمة الزهراء التى تفرغ عن لسان أبيها ﷺ، فلا غرو إن كان أفصح الفصحاء وأبلغ البلغاء. وهو بلاشك قد تعلم فى صباه خير ما يتعلمه أبناء زمانه من فنون العلم والأدب والفروسية وكانت عنده ملكة للخطابة ممتازة، كان يخطب يوم عاشوراء وقد اشتد الخطب وعظم البلاء وضاق الأمر وترادفت الأهوال، فلم يزعزعه ذلك ولا اضطراب ولا تغير، وخطب فى جموع أهل الكوفة بجنان قوى وقلب ثابت ولسان طلق ينحدر منه الكلام كالسيل فلم يسمع متكلم قط قبله ولابعده أبلغ فى منطق منه وهو الذى قال فيه عدوه وخصمه فى ذلك اليوم: «ويلكم كلموه فإنه ابن أبيه والله لو وقف فيكم هكذا يومًا جديداً لما انقطع ولما حصر». ومن كلامه المرتجل قوله فى توديع أبى ذر وقد أخرجه عثمان من المدينة بعد أن أخرجه معاوية من الشام: «يا عماه، إن الله قادر أن يغير ما قد ترى، والله كل يوم هو فى شأن، وقد منعك القوم دنياهم ومنعتهم دينك، وما أغناك عما منعوك وأحوجهم إلى ما منعتهم، فاسأل الله الصبر

والنصر، واستعذ به من الجشع والجزع فإن الصبر من الدين والكرم، وإن الجشع لايقدم رزقًا والجزع لايؤخر أجلا».

ويقول معاوية بن أبى سفيان واصفا الإمام الحسين عليه السلام:

«إذا دخلت مسجد رسول الله ﷺ فرأيت حلقة فيها قوم كأن على رؤوسهم الطير فتلك حلقة أبى عبدالله مؤتزراً إلى أنصاف ساقيه». ثم استمع إلى الإمام الحسين عليه السلام يرد على نافع بن الأزرق «رأس الخوارج الأزارقة» عندما قال للإمام الحسين عليه السلام «صف إلهك الذى تعبده». فرد عليه الإمام الحسين عليه السلام: «يا نافع من وضع دينه على القياس لم يزل الدهر فى الالتباس مائلا إذا كبا عن المنهاج، ظاعنا بالاعوجاج، ضالا عن السبيل قائلا غير الجميل. يا ابن الأزرق أصف إلهى بما وصف به نفسه لايدرك بالحواس ولايقاس بالناس قريب غير ملتصق وبعيد غير مستقصى، يوحد ولايبغض، معروف بالآيات موصوف بالعلامات، لا إله إلا هو الكبير المتعال» فبكى ابن الأزرق وقال: «ما أحسن كلامك». فقال له الإمام الحسين عليه السلام: بلغنى أنك تشهد على أبى وعلى أخى بالكفر وعلى. قال ابن الأزرق: أما والله يا حسين، لئن كان ذلك لقد كنتم منار الإسلام ونجوم الأحكام. فقال الإمام الحسين عليه السلام: إنى سائلك عن مسألة؟ فقال: سل. فسأله عن قوله تعالى: (وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين فى المدينة) فقال ابن الأزرق: من حفظ فى الغلامين، فقال أبوهما. فقال الإمام الحسين عليه السلام: «أبوهما خير أم رسول الله؟» فقال ابن الأزرق: قد أنبأ الله تعالى عنكم أنكم قوم خصمون. ومن دعائه بالكعبة الشريفة «إلهى نعمتنى فلم تجدنى شاكراً وأبليتنى فلم تجدنى صابراً فلا أنت سلبت النعمة بترك الشكر ولا أدمت الشدة بترك الصبر، إلهى ما يكون من الكريم إلا الكرم». وقال: إن قوم عبدوا الله رغبة فتلك عبادة التجار، وإن قوماً عبدوا الله رهبة فتلك عبادة العبيد، وإن قوماً عبدوا الله شكراً فتلك عبادة الأحرار وهى أفضل العبادة. وقال لابنه الإمام على بن الحسين عليهما السلام: أى بنى إياك وظلم من لايجد عليك ناصراً إلا الله عز وجل[1].

---

1 ـ توفيق أبو علم ـ المرجع السابق ص437.

وسأله رجل عن معنى قول الله تعالى: «وأما بنعمة ربك فحدث» قال: أمره أن يحدثه بما أنعم الله به عليه فى دينه. وقال: البخيل من بخل بالسلام، وقال من حاول أمرا بمعصية كان أفوت لما يرجو وأسرع لمجىء ما يحذر. وقال: إذا سمعت أحدًا يتناول أعراض الناس فاجتهد ألا يعرفك فإن أشقى الأعراض به معارفه. وقال عليه السلام: لاتكلف ما لاتطيق ولاتتعرض لما لا تدرك ولاتعد بما لاتقدر عليه ولاتنفق إلا بقدر ما تستفيد ولاتطلب من الجزاء إلا بقدر ما صنعت، ولاتفرح إلا بما نلت من طاعة الله تعالى ولاتتناول إلا ما رأيت نفسك أهلا له. ومن كلامه فى الحرب التى اختار الله له بها ما عنده فى خطبة ألقاها بعد أن حمد وصلى قال: «قد نزل من الأمر ما ترون وإن الدنيا قد تغيرت وتنكرت وأدبر معروفها وانشمرت حتى لم يبق منها إلا كصبابة الإناء وإلا خسيس عسيس كالمرعى الوبيل ألا ترون الحق لايعمل به والباطل لايتناهى عنه ليرغب المؤمن فى لقاء الله عز وجل وإنى لا أرى الموت إلا سعادة ولا أرى الحياة مع الظالمين إلا جرمًا».

وقد أثر عن الإمام الحسين عليه السلام قوله الشعر فى الحكم والمناسبات، وقد وردت بذلك عدة روايات وهى متضافرة على نسبتها إليه وصدورها منه، ولو أنه عليه السلام راض نفسه على نظم الشعر لكان له منه الكثير الرصين، ومن ذلك قوله:

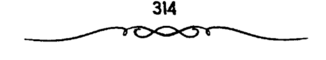
أغن عن المخلوق بالخالق ... تغن عن الكاذب والصادق
واسترزق الرحمن من فضله ... فليس غير الله من رازق
ومن ظن أن الناس يغنونه ... فليس بالرحمن بالواثق
أو ظن أن المال من كسبه ... زلت به النعلان من خالق

ومن شعره ما يذكر به زوجته وابنته:

لعمرك أننى لأحب دارا ... تكون بها سكينة والرباب[1]

---

1 ـ والرباب التى ذكرت فى البيتين السابقين خطبها أشراف قريش بعد مقتله فكانت السيدة الوفية التى قالت (ما كنت لأتخذ حما بعد رسول الله ﷺ) وقد بقيت سنة لايظلها سقف حتى ماتت.



أحبهما وأبذل كل مالى ... وليس لعاتب عندى عتاب
فلست لهم وإن غابوا مضيعًا ... حياتى أو يغيبنى التراب

ومن شعره الحكيم ما قصد به العبرة وسلامة الفطرة والوجهة إلى رب الأرباب الكريم الوهاب، قال:

إذا ما عضك الدهر ... فلا تجنح إلى الخلق
ولاتسأل سوى الله ... تعالى قاسم الرزق
فلو عشت وطوفت ... من الغرب إلى الشرق
لما صادفت من يقد ... ر أن يسعد أو يشقى

وقد زار الإمام الحسين عليه السلام مقابر المدينة بالبقيع فتذكر الموت والبلى وما آلت إليه سكان القبور أهل الدثور فأخذته العبرة فقال:

ناديت سكان القبور فأسكتوا ... فأجابنى عن الصمت ترب الحشا
قالت أتدرى ما صنعت بساكنى ... مزقت لحمهم وخرقت الكسا
وحشوت أعينهم ترابًا بعدما ... كانت تأذى باليسير من القذى
أما العظام فإننى مزقتها ... حتى تباينت المفاصل والشوى
قطعت ذا من ذا ومن هذا كذا ... فتركتها مما يطوف بها البلى

وقد لقيه الفرزدق بعد ما رجع من الحج فسلم عليه وقال يا ابن رسول الله كيف تركن إلى أهل الكوفة وهم الذين قتلوا ابن عمك مسلم بن عقيل وشيعته، فاستعبر الإمام الحسين عليه السلام باكيا ثم قال: رحم الله مسلما فقد صار إلى روح من الله وريحانه وتحياته ورضوانه أما إنه قد قضى ما عليه وبقى ما علينا، وأنشأ يقول:

فإن تكن الدنيا تعد نفيسة ... فدار ثواب الله أعلى وأنبل
وإن تكن الأبدان للموت أنشئت ... فقتل امرئ بالسيف أفضل
وإن تكن الأرزاق قسما مقدراً ... فقلة حرص المرء فى السعى أجمل
وإن تكن الأموال للترك جمعها ... فما بال متروك به المرء يبخل

وقال يصف الناس حوله وفساد دخلتهم وشرورهم ودغل طويتهم وبغيهم:

ذهب الذين أحبهم   وبقيت فيمن لا أحبه
فيمن أراه يسبني   ظهر المغيب ولا أسبه
يبغى فسادى ما استطا   ع وأمره مما أربه
حنقا يدب لى الضرا   ء وذاك مما لا أدبه
ويرى ذباب الشر من   حولى يطن ولايذبه
وإذا خبا وغر الصدو   ر فلا يزال به يشبه
أفلا يعيج بعقله   أفلا يثوب إليه لبه
أفلا يرى من فعله   ما قد يسور إليه غبه
حسبى بربى كافيا   ما أختشى والبغى حسبه
ولقل من يبغى عليه   فما كفاه الله ربه

أما حذقه فى الفقه واللغة وتمكنه من الغريب فيها والإحاطة بخفاياها، فقد روى عنه الكثير، فكانت الأعراب تفد من البادية لاختباره ومطارحاته فإذا به وقد صدع بما يشدهم ويبهرهم، فقيل إن إعرابيا دخل المسجد الحرام فوقف على الإمام الحسن عليه السلام وحوله حلقه فقال لبعض جلساء الإمام الحسن عليه السلام من هذا الرجل، فقال له هذا الإمام الحسين بن على بن أبى طالب عليهما السلام فقال الأعرابى إياه أردت بلغنى أنهم يتكلمون فيعربون فى كلامهم وإنى قطعت بوادى وقفارا وأودية وجبالا وجئت لأطارحه الكلام وأساله عن عويص العربية. فقال له جليس الإمام الحسن عليه السلام: إن كنت جئت لهذا فابدأ بذلك الشاب وأومأ إلى الإمام الحسين عليه السلام فوقف عليه وسلم فرد عليه السلام، ثم قال: ما حاجتك يا أعرابى فقال إنى جئتك من الهرقل والجعلل والأينم والهمهم، فتبسم الإمام الحسين عليه السلام، وقال يا أعرابى لقد تكلمت بكلام ما يفعله إلا العالمون، فأجابه الأعرابى: وأقول أكثر من هذا فهل أنت مجيبى على قدر كلامى، ثم أذن له الإمام الحسين عليه السلام فأنشد أبياتًا منها[1]:

1 ـ توفيق أبو علم ـ نفس المرجع ص441.

هفـــا قلبي إلى اللهـــو وقـــد ودع شـــرخـــيـــه
وقـد كـــان أنيـــقـا عـصـرتجـــرارى ذيـــلـــيـــه
عـيـــالات ولـــذات فـــيـاسـقـيـا لعـصـريه
فلمـــا عـــم الشـيـب من الـــرأس نـطـــاقـــيـــه
وأمـســـى قـــد عنـانى منـه تجـــديد خـــضـــابيـه
تـسلـــيت عـن اللهـــو وألقـــيت قناعـــيـــه
وفى الدهـر أعـــاجـيب لمن يـــلـبس حـــاليـــه
فلـــو يعـــــمل ذو رأى أصـيل فـــيـــه رأيـــه
لألفـى عـــــبـــرة منه له فى كـــســر عـــصـــريه

فقال له الإمام الحسين عليه السلام يا أعرابى قد قلت فاسمع منى وأنشد الحسين ارتجالا لوقته:

فمـا رسـم شـــجانى قـــد مـحت آيات رســـميه
ســـفـــور درجـت ذيـلين فـى بوغـــاء قـــاعـــيـــه
هتـــوف مـــرجف تتـــرى علـى تلـــبـــيـــد ثوبـــيـــه
وولاج مـــــن المـــزن دنا نـوء ســـمـــاكـــيـــه
أتى مـــثـــعنجـــر الـورق يجـــود مـن خـــلاليـــه
وقـــد أحـــمـــد برقـــاه فـــلا ذم لبـــرقـــيـــه
وقـــد جلـل رعـــداه فـــلا ذم لرعـــديـه
ثجـــيج الـرعـــد ثجـــاج إذا أرخـى نطاقـــيـــه
فـأضـحى دارسـا قـفـراً لبـــيـنـــونة أهـلـيـــه

فقال الأعرابى لما سمعها: ما رأيت كاليوم أحسن من هذا الغلام كلامًا وأذرب لسانا ولا أفصح منه منطقًا - فقال له الإمام الحسن عليه السلام يا أعرابى:

غــــلام كـــــرم الرحــــــمن بالــتطــهـــيـــــر جــــديه
كـــســـاه القـمـــر القــمــقــا م نــــــور ســــنـائـــــيـه

إلى أن يقول:

وقـــد أرضـيـت من شـعـــرى وقـــومـت عـــروضـيــــه

فلما سمع الأعرابى ذلك، قال: بارك الله عليكما مثلكما تحله الرجال حزا كما الله خيراً وانصرف، وكان الإمام قد فسر له ما أراد من الهرقل وهو ملك الروم والجعلل وهو قصار النمل والأينم وهو بعض النبات والهمهم وهو القليب القرير الماء، وفى هذه الكلمات أوصاف البلاد التى جاء منها وإشارة إليها. تبين مما قلته أن الإمام الحسين عليه السلام أجاب الأعرابى بداهة بما هو أعوص من قوله وأغرب من بيانه وأبيات بعدد أبياته وهى أرصن وأمتن وهى آية على تمكن الإمام الحسين عليه السلام من اللغة واستحضاره لغريبها وخبرته بعويصها مما كان درجا إلى وفود الشعراء إليه ليسترفدوه ولينالوا عطاءه، ولابدع فهو من هامة الشرف وعزين الكرم من عظم قدرهم وعظمت آثارهم، وكم من شاعر رماه بآماله ونزع إليه برجائه فاصطنع إليه معروفه وبوأه من أياديه مبوأ صدق فاختصه برفده وآثر ببره، وقد لامه أخوه الإمام الحسن عليه السلام فى تتابع بره وكثرة أعطياته فكتب إليه: خير المال ما وقى به العرض. وهو عليه السلام موفور الكرامة عرضه سليم فى غير حاجة إلى ما يوفيه، فإن الله عز وجل وقاه وطهره، يغمر قاصده بنواله ويعم رافده بنوافله رغبة منه فى الصنيعة وإسعافه لراجيه، فما خاب عنده أمل طالب وما كذب فيه ظن راغب فالمسترفدون يأوون منه إلى ركن منيع وينزلون عنده فى جناب مريع. وقال من قصيدة طويلة هذا أولها:

إذا استنصر المرء امرءا لايدا له فناصره والخاذلون سواء
أنا ابن الذى قد تعلمون مكانه وليس على الحق المبين طماء
أليس رسول الله جدى ووالدى أنا البدر إن خلى النجوم خفاء

ألم ينزل القرآن خلف بيوتنا صباحًا ومن بعد الصباح مساء
ينازعني والله بيني وبينه يزيد وليس الأمر حيث يشاء
فيا نصحاء الله أنتم ولاته وأنتم على أديانه أمناء
بأي كتاب أم بأية سنة تناولها عن أهلها البعداء

ولما أحاطت به جموع ابن زياد وقتلوا من قتلوا من أصحابه ومنعوهم الماء، وكان له ولد صغير فجاءه سهم فقتله فزمله الإمام الحسين ﷺ وحفر له بسيفه وصلى عليه ودفنه وقال:

غدر القوم وقد ما رغبوا عن ثواب الله رب الثقلين
قتلوا قدما عليا وابنه حسن الخير كريم الأبوين
حسداً منهم وقالوا أقبلوا نقتل الآن جميعًا للحسين
خيرة الله من الخلق أبي ثم أمي فأنا ابن الخيرتين
فضة قد صيغت من ذهب فأنا الفضة وابن الذهبين
من له جد كجدي في الورى أو كشيخي فأنا ابن القمرين
فاطم الزهراء أمي وأبي قاصم الكفر ببدر وحنين
وله في يوم أحد وقعة شفت الغل بفض العسكرين
ثم بالأحزاب والفتح معا كان فيها حتف أهل الوثنين

وللإمام الحسين ﷺ عظات وعبر وآداب وحكم آية على ما تأدب به من أدب جده وما ورثه من بلاغة أبيه ولقد كان عليه السلام يقول: «شر خصال الملوك الجبن عن الأعداء والقسوة على الضعفاء والبخل عن الإعطاء» وقال صاحب الحاجة لم يكرم وجهه عند سؤالك فأكرم وجهك عند رده، ولقد قال رضي الله عنه في اليوم الذي استشهد فيه بعد أن حمد الله وأثنى عليه: «يا عباد الله اتقوا الله، وكونوا من الدنيا على حذر، فإن الدنيا لو بقيت لأحد أو بقي عليها أحد لكانت الأنبياء أحق بالبقاء، وأولى بالرضاء وأرضى بالقضاء على أن الله تعالى

خلق الدنيا للبلاء، وخلق أهلهـا للفناء فجديدها بال ونعيمها مـضمحل وسرورها مكفهر، والمنزل تلعـة والدار قلعة فتزودوا فإن خير الزاد التـقوى واتقوا الله لعلكم تفلحون». وخطب مـرة عليه السلام فقال: «إن الحلم زينة والـوفاء مروءة والصلة نعمة والاستكبـار صلف، والعجلة سفه، والسفه ضـعف، والغلو ورطة ومجالسة أهل الدناءة شر ومجالسة أهل الفـسوق ريبة» أما فصاحته وسرعة بديهـته فمضرب الأمثـال: ويروى أنه دخل على معاويـة ذات يوم فقال له مـعاوية مداعـبًا: «يا أبا عبـدالله إن فى بنى هاشم غلمة وهم مـن أجل ذلك يكثرون من الزواج، فـأجابه الإمام الحـسين عليه السلام مبتـسمًا: إن الغلمة الـتى نراها فى رجال بنى هاشم هى فى نساء بنى أمية. كما يروى أنه لما سمع باشتـداد العلة على معاوية قصد إلى عيادته فلما علم مـعاوية بمقـدمه قال: «عطرونى وألبـسونى أحسن ثيـابى وأسندونى إلى وسائدى وأجلسونى على فراشى» فـفعلوا ثم أذن للإمام الحسين عليه السلام فدخل وقال كيف حال أمير المؤمنين[1].

فأجابه معاوية:

وتجلدى للشـامتـين أريهمـو أنى لريب الدهر لا أتضعضع

فرد الإمام الحسين عليه السلام على الفور:

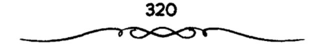
وإذا المنيـة أنشبت أظفـارها ألفـيت كل تميـمـة لاتـنـفـع

فبكى معاوية وقال: هذا لسان النبوة.

مذهب الشيعة:

لايمكن الفصـل بين الموقف والنظرية. فالموقف فى أى أمـر أو رأى أو اتجاه ليس شيـئا يستـحق الاهتمام ان لم يكن له سند من فكر نظـرى أو قاعدة مبـدئية ينطلق منها. ويقال من الجانب الآخر: الأخذ بنـظرية معينة فى مسألة ما هو بذاته موقف، وإلا فهـو نوع من التجريد المطلق القـائم فى الفراغ.. أى أن بين الموقف

1 ـ توفيق ابو علم ـ نفس المرجع ص445.



والنظرية علاقة جدلية. وهذه العلاقة تؤكد عـدم إمكان الفصل بينهما. لكن طبيعة البحث والإيضاح تقتضى منا، هنا، هذا الفصل الشكلى بين الأمرين.

نشأ التشيع، من حيث هو موقف فى الإسلام، مع نشوء مسألة الخلافة فور موت صاحب الدعوة الإسلاميـة. ثم جعل هذا الموقف يتبلور ويتفاعل مع أحداث الحياة العـربية ـ الإسلامية، حـتى نشأت وتفرعت عنه مواقف سيـاسية، وفكرية: كلاميـة وفلسفية، تألفت منها مـذاهب وفرق شيعيـة متعددة، بعضـها تضاءل مع الزمن، وبعضها تحـول إلى موقف آخر يختلف عن منطلقه الأسـاسى، وبعضها نما وتصلب واتسـعت قاعـدته ولايزال محـتفظًا بوجـوده وأرضه ومنطلقـه. ومهـما اختلفت فرق الشيعة، فى التاريخ من حـيث المبدأ والاجتهاد. ومن حيث المحافظة على الارتباط بالأصـول الإسلاميـة أو الانقطاع عن هذه الأصول، فـإن هناك أمراً مشـتركًـا بينها فى الأغـلب، هو الموقف من «شخص» الإمـام على بن أبى طالب عليه السلام. وهذا الموقف كثيراً ما كان يتخذ ـ عن قصد أو عن غير قصد، من قريب أو من بعيـد ـ تعبيرا غـير مباشـر عن موقف سياسى أو طبـقى تجاه هؤلاء الحكام أو أولئك من حكام دولة الخلافة الإسلامية، أموية أو عـباسية. أو غيرها. وقد انطبع الموقف السياسى أو الطبقى ـ غالبا ـ بطابع المعارضة. وكثيرا ما كانت المعارضة هذه تصطبغ بالـدم والعنف، إمـا فى مـعارك وانتـفـاضـات دمـوية، وإمـا فى شكل اضطهادات سياسية تصل بالشدة والبطش أحيانًا إلى أن تكون مجازر بشرية رهيبة، كالانتـفاضات الشـيعـية الأولى على الأمويين. وقـد تواصلت أحداث المعـارضة السيـاسيـة الشيـعية للحكـم القائم فى معظـم العهود العـباسـية، كمـا تواصلت الاضطهادات السـياسـية للشيـعة فى مخـتلف مراحل التـاريخ السيـاسى العربى ـ الإسلامى حتى نهـاية عهد الدولة العثـمانية فى مطلع القرن العـشرين. ولم يكن يتغـير الموقف الشيـعى المعارض إلى الموقف المؤيد إلا فى الفـترات التاريخـية التى يظهر فـيها حكام شيـعيون هنا وهناك. كـالدولة البويهية فى إيران، وإمـارة سيف الدولة الحمدانى فى حلب أثناء القرن الرابع الهجرى (العاشر)، وكالدولة الفاطمية فى المغرب ومصر فى القرن الرابع نفسه، وفـى الفترات التى اتفق أن حصلت فيها

مهادنة الشيعة لبعض الخلفاء (المأمون العباسى). وهنا نلحظ ظاهرة شيعية جديرة بالاهتمام، هى أن الموقف السياسى المعارض كثيرا ما كان يتخذ طابعًا، أو بُعداً اجتماعيا. بمعنى أن المعارضة لاتكون لشكل الحكم وأشخاص الحاكمين بقدر كونها معارضة، من حيث الجوهر، لأساليب الحكم المتبعة تجاه الطبقات والفئات الاجتماعية المستضعفة، وغير بعيد أن يكون وراء هذا الموقف كون عامة الشيعة أنفسهم ممن يكابدون الاضطهاد الاجتماعى تبعًا لاضطهادهم السياسى من حيث هم جزء عضوى من الطبقات والفئات الاجتماعية ذاتها التى تعانى الاضطهاد من الطبقات المسيطرة[1].

من العسير تحديد النظرية الشيعية تحديداً مطلقًا وشاملا. لأن الشيعة افترقت منذ موت الإمام الرابع على بن الحسين عليه السلام الملقب بزين العابدين، وهو الذى نجا من مجزرة كربلاء التى استشهد فيها أبوه الإمام الحسين بن على عليهما السلام - افترقت الشيعة منذ ذاك فرقا بدأت بثلاث: الإمامية (أتباع الإمام محمد الباقر بن زين العابدين)، والزيدية (أتباع الإمام زيد بن على زين العابدين)، والكيسانية (أتباع محمد بن الحنفية وهو ابن الإمام على بن أبى طالب عليه السلام مباشرة، ونسب إلى أمه: الحنفية). ثم أخذت الفرق الشيعية، منذ ظهور الطلائع الأولى للتفكير الكلامى - الفلسفى، تتشعب وتتعدد. وذلك تبعا لما كان يدخل على النظرية الشيعية من أفكار جديدة تتحرك وتتموج فى ذلك المجرى الفكرى الذى بدأ يتكون أولا من البحث فى مشكلة القدر ومسؤولية الفعل الإنسانى وعلاقته بالفعل الإلهى، ومن الصلة بين بحث هذه المشكلة ذاتها والصراع السياسى الحزبى حول مسألة الخلافة - والخلافة الأموية بالأخص - ثم بدأ يتبلور - ثانيا - خلال نهوض الحركة الكلامية - الفلسفية النامية الصاعدة. ولكن، مهما يكن عسيرا تحديد النظرية الشيعية بصورة مطلقة وشاملة بسبب مما تقدم. فإنه ليس عسيراً أن تحدد الأصول الأولى لهذه النظرية، أو القاعدة التى انطلقت منها وقامت عليها الأبنية المتعددة لمختلف النظريات الشيعية: المذهبية والفكرية. فإن الشيعة، على اختلاف فرقهم ومذاهبم، ينطلقون نظريًا من القول بأن الإمام على بن أبى طالب عليه السلام هو

---

1 - حسين مروة - المرجع السابق ص494.

الشـخص الأول فى المسـلمـين الذى له حق السلطة، بـعـد النبى ﷺ. وأن هذه السلطة حق إلهى وليست حقا للناس فى اختيار من يصلح لقيادتها. لأن الله وحده يعرف أين تكون مصلحـة البشر، وكيف يكون خيـر دنياهم وآخرتهم. لذلك كله اعتبر الشيعة أن الإمامة ركن من الأركان الأساسية للإسلام، أى من أصول العقيدة الإسلاميـة. ذلك هو الأصل وتلك هى القاعدة الراسخـة للنظرية الشيعية، مـهما كان الرأى بعد ذلك فى شكل هذه السلطة وطابعـها، الروحى والزمنى. وبعد هذا يختلف الشيـعة كثيراً: فهناك الشيـعة المعتدلون، وهناك الشيعـة المتطرفون فى فهم السلطة التى يضـفونها على شخـص الإمام على بن أبى طالب عليه السلام، وهؤلاء هم المعروفـون فى التاريخ الإسلامى بـ «الغـلاة»، لأنهم يغالون فى نظريتـهم إلى حد إضفاء صفـات الألوهية على شخص الإمام علىّ عليه السلام. ويتفق المسلمون، الشـيعة المعتدلون والسنة، على خروج هؤلاء الغلاة على أصول العقيدة الإسلامية إطلاقا، وإن كان المؤرخـون يطلقون اسم الشيـعة على كل فرقة تتـصل نظريتها، أسـاسا، بشخص الإمام علىّ عليه السلام. فى حين أن الإماميـة والاثنى عشرية والزيدية من فرق الشيعـة تتنصل من نسبة التشيع إلى تلك الفـرق المتطرفة، وهم يسندون رأيهم فى إنكار التطرف والمغالاة إلى عقيدتهم الإسلامـية القائمة على وحدانية الله وأنه ليس بجسم وليس كمثله شىء فى الكائنات، وعلى نبـوة رسول الله محمد ﷺ، وعلى القول بالقيامة والبعث فى عـالم الآخرة، هذا أولا. ثم هم يستندون ثانيا إلى قول للإمام على عليه السلام فى إحدى خطبه: «سيهلك فىَّ صـنفان: محب مفرط يذهب به الحب إلى غير الحق، ومبغض مفرط يذهب به البغض إلى غير الحق. وخير الناس حالا النمط الأوسط فالزموه». ويروى الشيعـة هذا القول بصيغة أخرى عن الإمام علىّ عليه السلام، تقول: «هلك فىّ اثنان: محب غالٍ، ومبغض غال» وبالمعنى نفسه قال الإمام الشيعى الرابع، على بن الحسين زين العابدين عليه السلام: «يا أيها الناس، أحبونا حب الإسلام، فـما برح حبكم حتى صـار علينا عاراً». رواية ابن تيميـة: منهاج السنة، جـ2، ص123.

الشيعة المعتدلون: أما النظرية الكاملة للفرق المعتدلة من الشيعة، فتقوم - أولا - على الأصول الأولى لعقيدة الإسلام. وتقوم - ثانيا - على القول بأن الحق بالخلافة بعد النبى مباشرة للإمام على بن أبى طالب عليه السلام ثم لأولاده بالتتابع، وهو حق إلهى يختار له الله من يشاء من أعلم الناس وأفضلهم خلقا ودينا، ولذلك يجب أن يكون هناك نص من الله على من يختاره لهذا الحق على لسان نبيه محمد. أما القول بأن عليا نفسه هو الذى اختاره الله، فيستدلون عليه بنوعين من الدليل، يسمون الأول الدليل العقلى، ويسمون الثانى الدليل النقلى أو النص. أما الدليل (العقلى) فهو: **أولا:** أن الإمام يجب أن يكون معصوما عن الخطأ كالنبى، ليكون أهلا لحمل أمانة العقيدة والشريعة بعد النبى. ثم تقول الشيعة إنه لم يكن عند موت النبى معصومًا غير «الإمام علىّ عليه السلام» بالإجماع. فيجب إذن أن يكون هو الإمام ولفظ «الإمام» يحمل المفهوم الإلهى للخليفة عند الشيعة. أما لفظ «الخليفة» فيحمل مفهوم سلطة «الأمة» فى مصطلح جمهور أهل السنة، ولاسيما الأشاعرة. **ثانيا:** أن شرط الإمام كونه لم تصدر عنه معصية، وبما أن عليا لم يعبد الأصنام قبل الإسلام قط، فقد تعين أن يكون هو الإمام. **ثالثا:** إنه يجب فى الإمام أن يكون أفضل علما من غيره فى زمانه، وقد كان «الإمام علىّ عليه السلام» كذلك، فوجب إذن أن يكون الإمام دون غيره. غير أن هذه الأمور الثلاثة التى جعلها الشيعة دليلهم العقلى يدفعها أهل السنة بأنه ليس هناك من برهان على اشتراط العصمة فى الإمام، ولا على اشتراط عدم الإتيان بالمعصية من قبل، ولا على اشتراط ان يكون أعلم أهل زمانه، بل يكفى أن يكون ذا مؤهلات كافية للقيام بمهمات الخلافة، وأن أهل الحل والعقد هم الذين يختارونه. وأما الدليل الآخر للشيعة على إمامة «على عليه السلام»، وهو النص، فقد جاء عندهم متعدد الوجوه. فهناك الحديث المعروف بـ «حديث الغدير»، أو «حديث الموالاة» وهو الذى نطق به النبى حين وقف، أثناء عودته من مكة إلى «المدينة» بعد أن حج حجته الأخيرة، فى مكان من الطريق يدعى «غدير خم» وكان معه جمع من الصحابة، فقام فيهم خطيبا، وقال فى جملة ما قال: «ألست أولى منكم بأنفسكم؟» فأجابوا: اللهم، نعم. وحينئذ أخذ بيد على. ثم قال: «اللهم! من كنت مولاه فعلى مولاه. اللهم

وال من والاه. وعـاد من عـاداه، وانصر من نصـره واخـذل من خـذله». فقـام الصحابة يهنئون عليا، وبينهم عمـر بن الخطاب. وقال له عمر نفسه: «بخ بخ لك يا على، فقد أصبحت مولاى مولى كل مـؤمن ومؤمنة». تروى كتب الشيعة كلها هذا الحديث، كمـا يرويه كثير من كـتب السنة، بصيغ متعـددة، مع المحافظة على مضمـونه، وبالرغم من أن أهل السنة لا ينكرون هذا الحديث بل ويعتـرفون به فى جميع كتب الأحاديث الصـحيحة، يختلف تفسيره عندهم عما يفـسره به الشيعة. والاختـلاف يقع على لفظ «المولى» الوارد فيـه، وهذا اللفظ هو المستند فى حـجة الشيعـة. فهو يفسرونه بمعنى «الولاية» أى الحكم والسلطان، أو الإمـامة. فى حين يفسر أهل السنة معنى «الولاء» بمعنى الحب والمودة.

العلوية المتطرفة: يضع الشـهرسـتانى تعـريفا أولـيا للنظريات الدينيـة ـ الفلسفية التى دخلت عقيـدة الشيعة فى الإمام على بن أبى طالب عليه السلام، فخرجت بفريق منهـم عن هذه العقيـدة التى حددنا أصولهـا الأولية فـيما تقـدم، وتحولت العـقيـدة عن حدودها تلـك إلى الغلو (التطرف) من حـيث نظرتها إلى شـخص «الإمام علىّ عليه السلام» والأئمة من أولاده. يقول الشهرستانى: «الغالية هم الذين غلوا فى حق أئمتهم حتى أخرجوهم من حدود الخلقية (البشرية) وحكموا فيهم بأحكام الإلهية. فـربما شبهوا واحـدا منهم بالإله، وربما شبهوا الإله بالخلـق (البشر)،وهم على طرفى الغلو والتـقصـير. وإنما تشـبيـهاتهم من مـذاهب الحلولية، ومـذاهب التناسخية (انتقال الأرواح من كائن إلى كائن آخر)، ومذاهب اليهود والمسيحية، إذ اليهود شـبهت الخالق بالخلق والمسيـحية شبهت الخـالق بالخلق. ويرجع ابن حديد نشأة التطرف والغلو فى النظرية الشيعية إلى مـوطنها التاريخى وظروفها الحضارية. فإن ابن أبى الحـديد حين عقـد تلك المقارنة بين الحـجاز والعراق، وذكـر الفروق بينهـمـا، إنما قصـد الكشف عن أثر الظـروف البدوية فى الحـجـاز وأثر الظروف الحضـرية فى العراق، المستمـدة من تاريخ هذا القطر قديمـا ومن علاقته بحـضارة الفرس فى عصر ما قبل الفتح العـربى ـ الإسلامى. وإذ فسرنا ذلك بلغتنا المعاصرة

كان معناه ان أذهان أهل العراق كانت مؤهلة للأخذ بالفكر الميتافيزيقى المركب إلى حدما، وكانت أذهان أهل الحجاز أبعد عن تقبل الفكر الأكثر تعقيداً وتركيبًا. هذا ما قصد إليه ابن أبى الحديد فى الأغلب. لكن، بالرغم من موافقتنا على الطريقة فى التفسير، لا نوافق على مضمون هذا التفسير؛ لأن النظرية المتطرفة لبعض فرق الشيعة إذا كانت قد بدأت فى الكوفة فإنها سرعان ما انتشرت فى «المدينة»، ثم فى كثير من مناطق الجزيرة، وفى اليمن خصوصا. إضافة إلى أن الأفكار الفلسفية الهندية والفارسية كانت لها ظلال فى الجزيرة حتى أيام الجاهلية.

الكيسانية: يطلق اسم «الكيسانية» على أول فرقة مغالية (متطرفة) من فرق غلاة الشيعة. وهذا الاسم يعنى نسبة «الكيسانية» إلى مولى للإمام على بن أبى طالب عليه السلام اسمه «كيسان»، كان تلميذاً بعد الإمام علىّ عليه السلام لولده محمد بن الحنفية. وأصحاب كيسان هم من الموالى أيضًا، وهم الذين قالوا بإمامة محمد بن الحنفية منتقلة إليه من ابن أخيه الإمام على بن الحسين زين العابدين عليه السلام. أما النظرية التى انتهت إليها هذه الطائفة بعد قليل من الزمن، فقد ابتعدت كثيراً عن أصول التشيع الأولى، إذ بالغت فى إضفاء الصفات الخارجة عن حدود طبيعة البشر على شخص محمد بن الحنفية، فنسبت إليه العلم الغيبى بما كان وما سيكون، وقالت بأن الدين هو طاعة رجل يحيط بالعلوم كلها ويعرف أسرار التأويل والأسرار الباطنية الخفية. ثم قالت بخلود ابن الحنفية ورجعته إلى عالم الأرض بعد مماته. ويلفت الانتباه من أمر هذه الطائفة ظاهرتان جديرتان بتعميق النظر فيهما: **الظاهرة الأولى**، ظهور عقيدتها، لاسيما عقيدة الخلود والرجعة، على أيدى «موالى» الكوفة بالدرجة الأولى. فإنه ـ بالاضافة إلى نسبتها لـ «كيسان»، وهو من الموالى كما تقدم ـ برز بعده أصحاب أبى عمرة الذى قتل فى ثورة المختار بن أبى عبيد الثقفى ضد الأمويين قاتلى الإمام الحسين بن على عليهما السلام. وأصحابه هؤلاء من موالى الكوفة أنفسهم. أى من هذه الفئة المعدودة يومئذ فى أسفل القاعدة البشرية للمجتمع الأموى. وهؤلاء بالذات ـ أى أصحاب

أبى عمرة ـ أول من قال برجعة ابن الحنفية بعد مقتل صاحبهم أبى عمرة. والأمر الذى يلفت النظر هنا أنهم قالوا بذلك بعد أن كان إمامهم ابن الحنفية قد هادن عبدالملك بن مروان الخليفة الأموى، وكاتبه، ثم بايعه بالخلافة. وكان من قبل قد بايع يزيد بن معاوية. ولكن بالرغم من أنهم غضبوا لمهادنته الأمويين الذين قاتلوهم تحت راية المختار الثقفى، (وكان المختار هذا قد جعل مكانتهم الاجتماعية فى مستوى العرب دون تمييز) وبالرغم من أنهم وجدوا فى تلك المهادنة تخليا من إمامهم ابن الحنفية عن قضيتهم وقضيته هو وأهل بيته ـ بالرغم من كل ذلك، لم يتخلوا هم عن عقيدتهم فيه، بل ازدادوا غلوا، فاعتقدوا أنه أذنب بذلك، فعاقبه الله بأن غيبه فى غار مظلم من جبل رضوى، وقبل غيبته جعل أمر الإمامة إلى ابنه أبى هاشم، فأصبح هذا عندهم الإمام الصامت بعد غيبة الإمام الناطق (ابن الحنفية). ثم لم يوص أبوهاشم لأحد بعده بالإمامة. لأن الله سيعيد الإمامة إلى محمد بن الحنفية عند رجعته حين تنتهى مدة عقوبته. وهم يقولون بهذا الصدد ـ كما يروى أبوخلف القمى ـ أنهم «لا يعرفون حجة من غيرة، ولاحقا من شبهة، ولايقينا من خبرة. حتى يبعث الله الإمام العالم، محمدا المكنى بأبى القاسم (ابن الحنفية نفسه) على رغم الراغم، والدهر المتفاقم. فيملك الأرض جميعًا، ويقطعها من حماية قطعًا». ماذا يمكن أن نستنتج من قصة هؤلاء الموالى ومن عقيدتهم هذه؟[1]. إن عناصر القصة كلها وما ارتبط بها من عقيدة الرجعة يمكن أن تسمح لنا باستنتاج مسألة مهمة. هى أن موالى الكوفة أصحاب كيسان وأصحاب أبى عمرة، حين انخراطهم فى ثورة المختار الذى ألغى فكرة انحطاط منزلتهم الاجتماعية عن منزلة العرب، وأقر فكرة المساواة بينهم وبين العرب، كانوا يقاتلون فى ظاهر الأمر دفاعا عن حق أبناء على بالإمامة، ولكن هذا الأمر الظاهر كان ـ فى الواقع ـ تعبيراً عن وعى اجتماعى خفى يدعوهم ـ من حيث لايدركون إدراكا

---

1 ـ حسين مروة ـ نفس المرجع ص501 ـ وانظر أبو خلف القمى (300هـ): «كتاب المقالات والفرق»، ص22 ـ 23.

مبـاشراً ـ إلى الدفاع عن قـضيتـهم هم، بوصف كونهم فـئة مضطهـدة محتـقرة يحتملون أنواع الاضطهاد والاحـتقار فى دولة بنى أمية، وفى ظل العصبـية العربية التى استـغلها تجار الكوفـة وأغنياؤها المنحـدرون من أسلافهم الأقـربين تجار مكة وأغنيـائهـا قـبل الإسـلام. لقـد وجـد هؤلاء الموالـى فى أبناء الإمـام علىّ عليه السلام وأنصارهم، وفى طبيعة المعارضة للحكم الأموى التى يحمل رايتها حزب العلويين ـ وجدوا فى ذلك خـشبة الإنقاذ لهم مما يعـانون من اضطهاد واحتقـار. وقد عزز المختار هذا الأمل فى وعيهم الاجتمـاعى الخفى الذى ظهر فى شكله الغيبى، حين تبعوا دعوة صـاحبهم «كيسان»، ثم صـاحبهم «أبى عمرة» إلى إمامـة ابن الحنفية. غير أن صدمـة من اليأس أصابتهم، بعد ذلك، فى قضيـتهم الكامنة وراء إيمانهم بالدعوة «الكيسانيـة»، ووراء اندفاعهم إلى القتال فى سبـيل هذه الدعوة. فقد رأوا أولا قيادتهم العسكرية تنهار بمصرع المختار نفسه، ثم مصرع أبى عمرة، ورأوا ثانيا قيـادتهم الروحية تتخلى عن القـضية بمهـادنة إمامهم ابن الحنفيـة لصاحب الحكم الأموى عبـدالملك بن مروان. وبذلك كله رأوا الأمل القائم فى كـهف من كهوف وعيـهم الاجتـماعى الغـامض يهتـز ويتضـعضع ويكاد ينسـحق تحت وطأة هاتين الصدمتين. وهنا رفض وعيهم الاجتـماعى الانسحاق، فلجأ إلى نفق روحى غيبى ينسرب فيه هربا من مطاردة الشعور باليأس القاتل،وكـان الاعتقاد بالرجعة، رجعة ابن الحنفية، متطهراً من خطيـئة المهادنة للأمويين الظالمين ـ هو ذلك النفق الروحى الغيبي الذى لجأ إليـه موالى الكوفة الكيسانية. أليسوا يجـدون فى نفقهم هذا عزاء عما يلقون من الاضطهاد الأموى واحتقار عرب الكوفة من تجار وملاكين وحاكمين مـسيطرين على أقـواتهم وأبدانهم وإنسـانيتـهم؟. أليس من أطيب العـزاء لهم أن يكونوا موعودين بأن سوف «يبعث الله الإمام العالم، محمد المكنى بأبى القاسم، على رغم الراغم والدهر المتـفاقم، فيملك الأرض جـميعًـا، ويقطعها من حـماية قطعًا»؟..

أما **الظاهرة الثانية** من الظاهرتين اللتين تثيران الاهتمام فى حركة الكيسانية، فهى ما يلفت الطبرى نظرنا إليه، بقـوله: «إن هند بنت المتكلفة الناعطية (نسبة إلى

«ناعط» وهوحصن على قمة جبل فى اليمن) كـان يجتمع إليها كل غال (متطرف) من الشيعـة، فيتحـدث فى بيتها وفى بيت ليلى بـنت قمامة المزنية». فـإن الطبرى يشير هنا إلى هذه الفرقة ذاتها (الكيسانية) من فرق الشيعة الغلاة. ذلك لأن هاتين المرأتين معروفتان تاريخيًا بتأثرهما بالعقيدة الكيسانية، ثم بتأثيرهما على بعض نساء الكوفة وعلى فريق من رجـالها الذين برزوا دعاة للكيسانية أمـثال عبدالله بن نوف الذى يخبرنا الطـبرى نفسه أنه ـ أى ابن نوف ـ خرج من بيت هند الـناعطية حين خرج لقـتال مصعب بن الزبيـر. وقد وصف الجاحظ هاتين المرأتين بكونهـما «من النساك والزهاد» ويبدو لنا أن تأثر نساء الكوفة بالدعوة الكيسانية نشأ أول الأمر عن تأثر عاطفى بمصرع الإمـام الحسين بن على عليهما السلام وأهـل بيته فى كربلاء. ثم لما اقتـرنت حركة الثأر لدم الإمـام الحسين عليه السلام. بعد قليل من الزمن، بحركة الموالى الكيسـانية، تحول هـذا التأثر العاطفى إلى العـقيدة التى ارتـبطت بشخص محمد بن الحنفية بن على، وأخى الإمام الحسين عليه السلام شهيد كربلاء. ذلك مجمل الصورة عن الكيسانية من حيث هى أول فرقة شيعية ظهرت بالغلو والتطرف. وكنا أجملنا قبلها صورة عن الشيعة المعتدلة الأكثر أصالة فى التشيع. أما الفرق الأخرى فقد ظهر معظمها فى زمن متأخر عن الزمن الذى نبحث الآن فى إطاره.

مسألة المعرفة عند الشيعة:

لعلنا فيمـا عرضناه حتى الآن من نظرية الشيـعة، معتدليـن ومتطرفين، فى مسألة الإمامة قد أتيح لنا، فى ضوئه، أن نكتشف بسهولة طبيعة مسألة المعرفة عند مختلف فرقاء الشيعة. فقد يكون واضحًا من قول الشيعة الإمامية، والاثنى عشرية خصوصًـا، بكون الإمامة حـقا إلهيا، وكون سـلطتها سلطة إلهيـة وليست سلطة الأمة. ثم من قـولهم بعصمة الإمـام واشتراطهم أن يكون الإمـام أعلم أهل زمانه إطلاقـا ـ قد يكون واضـحًا من كل ذلك أن المعـرفة، مـعرفة الله وأسـرار الكون والخليقة والروح، ومعـرفة الشريعة التى هى قانون الله للناس، مرجـعها النبى فى حياته، ثم مـرجعها الإمام بعد النبـى. فكل إمام فى زمانه هو المرجع لإدراك هذه

المعرفة. ولا مرجع غيره لأنه المخبر عن النبى، والنبى مخبر عن الوحى الإلهى. وإذا كان للعقل من حق فى هذا المجال فهو حق مقيد بحدود الكشف عما يؤيد المعارف الإلهية أو يبرهن عليها. وليس له أن يعارضها، لأنه عاجز أن يبلغ مبلغها من إدراك الحقائق الكونية وأسرار الوجود فضلا عن أسرار ميتافيزيقا الكون والوجود. وهنا نرى أن المعرفة مرتبطة بالإيمان الدينى، تابعة له، وخاضعة لمعطياته لا تستطيع أن تتصرف إلا فى حدوده. وإذا كان الشيعة المعتدلون قالوا بالاجتهاد بالرأى فى مجال التشريع الإسلامى، ولم يغلقوا باب الاجتهاد قط فى تاريخهم كله، ولايزالون يعملون به، بالرغم من ان المذاهب الفقهية الأربعة الرئيسية لأهل السنة قد أغلقت باب الاجتهاد هذا منذ نحو القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) ـ نقول: إذا كان الشيعة المعتدلون قد عملوا، طوال تاريخهم حتى اليوم، بالاجتهاد فى مسائل التشريع الإسلامى، فإن هذا لايغير شيئًا من طبيعة نظريتهم الإلهية فى المعرفة. لأن هذا الاجتهاد مقيد بالحالات التى لا يوجد فيها نص صريح من القرآن، ولا من النبى، ولا من أحد الأئمة الاثنى عشر، ثم لا يوجد فيها كذلك اجماع من علمائهم. وهذا الإجماع يعنى ـ إذا وجد ـ أن رأى الإمام المعصوم الثانى عشر محمد بن الحسن الغائب المنتظر، موجود بين الآراء التى تحقق بها الإجماع. ففى هذه الحالات ـ حين لا دليل من الكتاب (القرآن)، ولا من الحديث، ولا من الإجماع ـ يأتى دور «الدليل الرابع»: العقل. وهذا الدليل الأخير يعتمد على المرتكزات العقلية التى تقررها المبادئ الأولية للعقل الاجتماعى العام، وهى المسماة بالعرف العام. وهذه المبادئ نظمها علماء الشريعة الإسلامية (الفقهاء) تنظيمًا عقلانيا جعل منها علما خاصًا مستقلا سمى بعلم «أصول الفقه». وليس هذا العلم مختصًا بالشيعة، فهو معتمد أيضا عند فقهاء السنة مع اختلاف جزئى. ينحصر هذا الخلاف فى أن ما هو عند الشيعة دليل العقل يقابله عند السنة دليل القياس[1].

---

1 ـ حسين مروة ـ نفس المرجع ص504.

علم أصول الفقه:

لاشك أن علم «أصـول الفقه» قـد أدى دوره فى مسـألة المعرفة عـلى نحو عقلانى متمـيز، معتمدا المبادئ الأولية للعقل الاجتـماعى بالأقل. فإنه بهذا النحو من العقلانيـة نظم حركة التشريـع الإسلامى وفق قواعد وأصول لهـا ميزة العلم، وأتاح للشريعة الإسلاميـة أن تدخل فى سياق التطور الذى كان ينتظم كل جوانب النشاط الاجتـماعى للمجتـمع العربى ـ الإسلامى خلال عصـر ازدهاره التاريخى المعروف. وقد تميز علم أصول الفـقه كذلك بالخروج على شكلية المنطق الأرسطى من حيث إن استنتاجاته تنطلق من الواقعات الجـزئية الحية لا من العمليات الذهنية التجريدية والافتراضـية. لكن طبيعة مسألة المعرفة، التى حصـرت المعرفة الإيمانية والشـرعيـة بالمصـدر الإلهى. قـد ضيـقت نطاق نشـاط العـقل حتى فى الأمـور التشريعية، وجعلت عملية الاجتهاد فى هذه الأمور عملية محدودة جداً، وانشأت فى عقـول الفقهاء طـبيعة الحـذر الشديد من استـخدام العقل فى تطوير الشـريعة وتجديدها مع تطور الحياة وتجددها. وقد حاول المعتـزلة محاولة جزئية حين فسحوا العقل أن تكون أكثر حرية فى هذا المجال، فقالوا مـثلا بمبدأ الاستصحاب العقلى، بمعنى أنه يجوز للعقل أن يحكم فى بعض الأشياء مسـتقلا، وأن يبقى حكمه قائما فى أجزاء لاحقة من الزمن اسـتصحابا للأجزاء الزمنية السابقـة (أى استمرارا) إلى أن يأتى الدليل السـمعى (أى النص المنقـول بالسماع عن المصـدر الإلهى). ولكن المذاهب المخالفة للمعتزلة عـارضت هذه المحاولة. نرى، مثلا، القاضى أبا الطيب يقول، بعد ان يذكر قانون الاستصـحاب العقلى عند المعتزلة: «.. وهذا لاخلاف فيه بين أهل السنة فى أنه لايجوز العمل به، لأنه لا حكم للعقل فى الشرعيات». أن الكلام فى موضـوع «أصول الفقه» ينطبـق على السنة والشيعة بدرجـة واحدة. غير أنه، رغم الأساس العقلانى لهـذا العلم، ينبغى رؤية كون المبادئ العقلية التى يرجع إليها فى عملية استنباط الأحكام الشـرعية لاتتجاوز حدود المرتكزات الأولية فى العقل الاجتماعى العام. فهى لم تبلغ منزلة المبادئ العقلية المركبة التى لها صفة

المفاهيم بمعناها الفلسفى، والتى تفسح للعقل مجال التفكير بنوع من الاستقلالية والإبداع. ولعل الاختلاط الذى حدث، فى عصر المتكلمين المتأخرين، بين علم أصول الفقه وعلم الكلام، هو الذى حمل مصطفى عبدالرازق أن يجعل «الفلسفة الإسلامية» شاملة علم أصول الفقه. وهذا واضح من الحجة التى أخذ بها تدليلا على كون هذا العلم جزءاً من «الفلسفة الإسلامية». وحجته هذه أن «مباحث أصول الفقه تكاد تكون فى جملتها من جنس المباحث التى يتناولها علم أصول العقائد الذى هو علم الكلام. بل إنك لترى فى كتب أصول الفقه أبحاثًا يسمونها «مبادئ كلامية» هى من مباحث علم الكلام».

والواقع أن هذه الظاهرة التى يشير إليها عبدالرازق، أى ظاهرة التشابك بين العلمين، لا تكفى حجة على صحة وضع علم أصول الفقه فى سلك «الفلسفة الإسلامية» إلا إذا توسعنا فى مفهوم الفلسفة وفى موضوعها إلى الحد الذى كان عليه القدماء حين كانت الفلسفة «علم العلوم». فإن التشابك هذا كان ظاهرة عامة لا يختص بها علم أصول الفقه، بل نستطيع أن نراها واضحة فى مختلف العلوم العربية والإسلامية إبان ازدهار علم الكلام والمنطق.. حتى علم النحو العربى دخلته عناصر كلامية ومنطقية تظهر فى طريقة التعليل لكثير من قواعده، فى حين أن قواعد النحو لاتحتاج إلى تعليل ما دامت لاتخرج عن كونها تسجيلا وتنظيمًا لما يستخلص من تتبع لغة التعبير وأسلوب وطريقة تركيبه والتغيرات الصوتية التى تحدث فيه عند اختلاف المعانى واختلاف الأغراض التعبيرية. فهل يصح أن نسلك علم النحو فى الفلسفة لمجرد أن نرى أهل هذا العلم فى الماضى يستخدمون التعليلات الكلامية فى شرح قواعده وضوابطه؟ نقول ذلك دون أن ننكر أن علم أصول الفقه - كما قلنا سابقا - يتميز بمنهجية عقلانية عالية، ولكنه يبقى فى حدود منطقه الأصولى المرتبط بمفاهيم التشريع الإسلامى بما لهذه المفاهيم من علاقة بالمصدر الإلهى للمعرفة. ولكن، علينا أن نعترف بأن ظاهرة التشابك بين مختلف فروع الثقافة العربية فى ذلك العصر، وبين البحوث الكلامية العقلية، كانت بذاتها

ظاهرة إيجابية تحمل فى أعماقها إحـدى خصائص الفكر العربى القائمة على وحدة جوانب الفكر، دون التـفريق بين الجانب التأمـلى والجانب المرتبط غالبا بالتـجربة والممارسة[1].

مذهب الخوارج:

ترتبط نشـأة الخوارج ـ بمسـألة الخلاف الذى نشب بين الإمـام على بن أبى طالب ﷺ ومعـاوية بعد مقـتل الخليفة الراشـدى عثمـان، والذى تحول إلى نزاع مسـلح فى معـركة صـفين، إذ انتـهت هذه الحرب بخـدعة التـحكيم المعـروفة، وانحسرت عن خلع أحد الحكمين، (أبى موسى الأشعرى) صاحبه الإمام على بن أبى طالب ﷺ وإقرار الحكم الثانى (عمرو بن العـاص) صاحبه معاوية على تولى الخلافة. «وكـان من أمر الحكمين: أن الخوارج حملوه ـ أى عليـا ـ على التحكيم أولا. وكان يريد أن يبعث عبدالله بن عـباس.. فما رضى الخوارج بذلك، وقالوا هو منك. وحملوه على بـعث أبى موسى الأشعرى عـلى أن يحكم بكتاب الله.. فجـرى الأمر عـلى خلاف مـا رضى به. فلما لم يرض الإمـام علىّ ﷺ بذلك خـرجت الخـوارج عليـه، وقـالوا: لم حكمـت الرجـال. لاحكَم إلا الله» هكذا يلخص الشهرستانى نشأة الخوارج ويفسر تسميتهم بـ (الخوارج) فإن «كل من خرج على الإمام الحق الذى اتفقت الجماعة عليه يسـمى خارجيا». كان أول شعار أعلنه الخوارج بعـد حادث «التحكيم»، هو قولهم: «الحكم لله لا للرجـال». وهذا كان أول عنصر يبرز أسـاسًا للعناصر الأخرى التى ستـكون منها نظريتهم. «الحق حق الله»، فليس لأحد إذن أن يتصرف به، أو يجعل أحدا من الرجال حكما يحكم به على هواه. هذا هو أسـاس نظرية الخوارج. وقد بنوا علـى هذا الأساس ذاته كل موقـف نظرى وعملى اتخـذوه، منذ انفصـالهم عن جيش الإمـام علىّ ﷺ فى «صفـين» تجاه كل فريق ومـذهب فى الإسلام. وتحت راية هذا الشعـار ذهبوا إلى «النهروان» يقاتلون عليا بالسيف.

---

1 ـ حسين مروة ـ نفس المرجع ص506.

تطبيقًا لهذا المبدأ الأساسى قالوا إنه ليس لنبى إذا وضع لامته أمرًا أن ينكص على عقبيه. وما دام الإمام علىّ عليه السلام قد قبل التحكيم فى حق وضعه النبى فهو إذن قد نكص على عقبيه. ولقد جادلهم الإمام علىّ عليه السلام فى هذا الأمر، لكن لم يصغوا إلى حجته، وحكموا بكفره هو وعثمان ومعاوية وكل من شارك فى حرب الجمل وكل من رضى بالتحكيم فى صفين، وأعلنوا توبتهم عن خطيئتهم إذ رضوا بالتحكيم، ورفعوا شعار القتال لكل «كافر». وبالرغم من انهزامهم فى معركة «النهروان» أمام جيش على، لم ينثنوا عن القتال. ولم يتورعوا أن يعهدوا إلى رجلين منهم أن يقتل أحدهما الإمام على بن أبى طالب عليه السلام وأن يقتل الآخر معاوية، فنجح أولهما (عبدالرحمن بن ملجم)، وأخفق الثانى. ولما فرغوا من أمر الإمام علىّ عليه السلام انصرفوا لمحاربة الأمويين.

على ماذا استند الخوارج إذ قالوا بكفر على ومعاوية، وبوجوب قتالهما؟

هنا يبرز العنصر الثانى من عناصر نظريتهم، وهو أيضًا يقع فى الأساس من هذه النظرية. هو مفهومهم للإيمان. فقد تفردوا فى تفسيرهم الإيمان، دون سائر المسلمين. فقد كان الإيمان، منذ عهد النبى ﷺ حتى ذلك الوقت، يعنى أولا الاعتقاد الداخلى، ثم الإقرار به نطقا باللسان. لكن الخوارج زادوا فى هذا المفهوم عنصرًا آخر، هو العمل الخارجى العضوى. فليس يكفى أن يضمر المرء اعتقاده ليكون مؤمنا، بل لابد أن يتطابق الاعتقاد والعمل. ومهما يكن الاعتقاد صادقًا وراسخًا، فصاحبه ليس مؤمنًا حتى يكتمل له عنصر العمل المطابق لهذا الاعتقاد. فكل إنسان هو عندهم: إما مؤمن، وإما كافر، وليس هناك حالة ثالثة. بهذا يصل منطق الخوارج إلى نهايته الحتمية: من لم يعمل وفق اعتقاده، فهو كمن يخالف اعتقاده، ومن لا اعتقاد صحيحًا له: كافر. انسياقا مع هذا المنطق حكم الخوارج على أنفسهم بوجوب الجهاد، أى العمل وفق اعتقادهم، وإلا فليسوا بمؤمنين، أى هم كافرون.. وهكذا انساقوا مع هذا المنطق أيضا فى قتالهم كل من يعتقدون فيه الخروج على مفهوم الإيمان هذا. وذلك ينطبق على معاوية بحكم كونه خرج على خليفة المسلمين الإمام على بن أبى طالب عليه السلام قبل قبوله التحكيم. وينطبق ذلك أيضا على سائر خلفاء بنى أمية وكل من يعمل تحت إمرتهم من الحكام والولاة

والموظفين والدعاة لهم لمخالفتهم جميعًا، مـخالفة عملية، مضمون عهد النبى إلى الإمام علىّ عليه السلام بالخلافـة، الذى هو «حق الله، لاحق الرجال». ثم طبـقوه على الخلفاء العـباسـيين. وقد أدى هذا المنطق نـفسه إلى القـول بأن مرتكب الكبـيرة، كالقـتل مثلا، كافر. مـن هنا، كان تاريخ الخوارج دمويا يأخـذ بالعنف، ولايقبل المهادنة ولا المصالحة مع أى من مخالفيهم نظريًا أو عمليًا.

«التلازم بين النظـرية والتطبيق»: ذلك هو قوام مذهـب الخوارج. وربما كان لهذه النظرة وجهها الإيجابى مبدئيًـا. ولكنهم بالغوا بها كثيرا، حتى أوغلوا بسفك الدماء، وخرجوا بـذلك عن خط الغاية، واستعبدتهم الوسـيلة، فلم يروا غيرها، احتجبت عنهم الرؤية الحقيقـية، رؤية ما هو أبعد وأولى من الوسيلة. ثم إنهم قد حصروا الوسيلة نفسها فى شكل واحد أوحد، هو العنف الدموى. وهذا خطأ آخر وقع به الخوارج وأصروا عليـه حتى استعبدهم أيضا، وحـجب أو كاد يحجب عن كثير من الباحـثين رؤية ما تضمنته نظريتهم والمبادئ الإيجابيـة التى قامت عليها أو التى أضافـوها إلى النظرية خلال حركـتهم. وهذه المبادئ ذاتهـا هى التى وجدت استجابة لها عند معاصرى حركتهم فى أوائل ظهورها على مسرح الأحداث[1].

الحركة العلمية: كانت الحركة العلمية بمختلف اتجاهاتها فى العصر الأموى امتـدادًا للحركة العلمـية التى بدأت منذ عـهد النبى ﷺ، ونمت فى عهـد الخلفاء الراشدين، وأخذت العلوم تتمايز عن بعضها، ويصبح لكل منها مدارسه ورجاله، بعد أن كانت العلوم ممتـزجة بعضها فى بعض، فالرسـول ﷺ كان يعلّم المسلمين أمور دينهم ودنيـاهم، ويفسر لهم مـا أبهم عليهم من القرآن الكريم، وبعـد وفاته أصبح أصحابه المعلمين للتابعـين. ولم يكن الصحابة - رضوان الله عليهم - على درجة واحدة من العلم والفقه، بل كانوا متفاوتين فى ذلك، ولعل أفضل ما صور تباين الصـحابة فى درجات العـلم قول «مسـروق» وهو أحد التابعـين: «جالست أصحـاب محمـد ﷺ، فوجدتهم كـالإخاذ - غدير الماء - فـالإخاذ يروى الرجل، والإخاذ يروى الرجلين، والإخاذ يروى العـشرة، والإخاذ يروى المائة، والإخاذ لو

1 - حسين مروة - نفس المرجع ص511.

نزل به أهل الأرض صدروهم» أى لرواهم جميعًا. وقد اشتهر عدد من كبار الصحابة بالعلم دون غيرهم كالخلفاء الراشدين، وأم المؤمنين «عائشة»، و«ابن عباس»، و«ابن مسعود» ، و«زيد بن ثابت الأنصارى»، و«أبى الدرداء» و«أبى هريرة»، و«معاذ بن جبل» رضوان الله عليهم جميعًا، غير أن هؤلاء الصحابة بقى بعضهم فى «المدينة المنورة» و«مكة المكرمة»، وتفرق بعضهم الآخر فى الأمصار المفتوحة، ولم يكن الواحد منهم يعلم علمًا واحدًا، وإنما يتكلم فى علوم كثيرة، وربما تحدث فى جلسة واحدة فى الفقه والحديث والتفسير والمغازى، والأدب شعره ونثره. وكانت المراكز الرئيسية للحركة العلمية عندئذ هى المساجد، ثم نشأت المكاتب لتحفيظ الصبيان القرآن الكريم، وتعليمهم مبادئ العلوم الإسلامية، ثم بدأت العلوم يمتاز بعضها عن بعض، وعرف رجال بالتفسير وآخرون بالحديث، واختص غيرهم بالفقه، ولا يعنى هذا أن المفسر أو الفقيه لا يعرف غير ما تخصص فيه من العلم واشتهر به، وإنما يوضع الرجل بين رجال العلم الذى برز فيه وأصبح حجة وإمامًا، فالإمام «مالك بن أنس» اشتهر بالفقه وصار صاحب مذهب فقهى معروف، لكنه من رجال الحديث الكبار، ويعرف التفسير؛ فلو لم يكن كذلك ما استطاع أن يضع القواعد الفقهية ويستنبط الأحكام من أدلتها التفصيلية، لأن الفقه يقوم على الاستنباط من القرآن والسنة.

ثم خطت الحركة العلمية خطوة كبيرة فى ذلك الوقت، ببدء حركة تدوين العلوم، ولم يكن المسلمون يفعلون ذلك من قبل، وإنما اعتمد الصحابة على الذاكرة فى الحفظ، والذين أثر عنهم أنهم دونوا بعض أحاديث الرسول ﷺ من الصحابة عدد قليل، كأبى هريرة و«عبدالله بن عمرو بن العاص»، الذى سمح له النبى ﷺ بتدوين أحاديثه، فدونها فى صحيفة كان يقول عنها: الصادقة، ويفخر أن ليس بين الرسول وبينه فيها أحد. ومنذ منتصف القرن الأول للهجرة تقريبًا بدأت حركة التدوين بداية متواضعة، فيروى أن «معاوية بن أبى سفيان» أمر بتدوين ما يرويه له فى مجلسه «عبيد بن شربة» من تواريخ ملوك «اليمن» القدامى

وغيرهم، وكان «معاوية» مولعًا بمعرفة تواريخ الأمم السابقة، وأن «عبدالعزيز بن مروان» والى «مصر» (65 ـ 85هـ الموافق 684 ـ 704م) أرسل إلى «كثير بن مرة الحضرمى» أن يكتب له ما سمع من أصحاب رسول الله ﷺ إلا أحاديث «أبى هريرة» فإنها موجودة عنده. ثم جاءت الخطوة الحاسمة فى التدوين، حين أمر «عمر بن عبدالعزيز» أثناء خلافته (99 ـ 101هـ الموافق 717-719م) «أبا بكر بن حزم» والى «المدنية» أن يدون أحاديث رسول الله ﷺ خوفًا من ضياع العلم وذهاب العلماء، ثم تتابعت حركة التدوين، فدون «ابن شهاب الزهرى» و«يزيد بن أبى حبيب المصرى» وغيرهما، وانتقل التدوين إلى العلوم الأخرى، فدون الفقه والتفسير وغيرهما. وشجع الخلفاء الأمويون الحركة العلمية بصفة عامة، وحركة التدوين بصفة خاصة، وبدأ فى عصرهم ظهور طبقة المعلمين، لأن الخلفاء أنفسهم كانوا مهتمين بتعليم أولادهم، وبخاصة العلوم الإسلامية، فاختاروا لهذه المهمة أصلح المعلمين الذين كانوا يسمون أيضًا بالمؤدبين، ولم تكن مهمتهم تعليمية فحسب، بل كانت تربوية أيضًا. ومن أشهر هؤلاء المعلمين: «دغفل بن حنظلة الشيبانى»، واختاره «معاوية بن أبى سفيان» لتعليم ابنه «يزيد» وتهذيبه، و«الضحاك ابن مزاحم» و«عامر بن شراحبيل الشعبى»، و«ابن أبى المهاجر»، وهؤلاء الثلاثة من كبار التابعين، واختارهم «عبدالملك بن مروان» لتعليم أولاده وتأديبهم. وقد حذا أشراف الناس والأغنياء حذو الخلفاء فى تعليم أولادهم على أيدى مربين ومؤدبين، مما أعطى دفعة للحركة العلمية فى ذلك العصر. وعلى الرغم من ضياع المدونات والمؤلفات التى كتبت فى العصر الأموى، فإن معظم محتوياتها وصلت إلينا فى المؤلفات الكثيرة التى ألفت فى العصر العباسى، فمرويات «الطبرى» عن غزوات الرسول ﷺ، وسيرته أخذها ممن رواها عن كتاب المغازى والسيرة الأوائل الذين ضاعت مؤلفاتهم، كأبان بن عثمان بن عفان، و«عروة بن الزبير» وغيرهما[1].

---

1 ـ د. عبد الشافى محمد عبد اللطيف ـ المرجع السابق ـ ص 98 ـ 100.

علم التفسير: هو العلم الذى يبحث فى بيان معانى آيات القرآن وأسلوبه وبيانه، إلى غير ذلك مما حفلت به كتب التفسير من مصطلحات هذا العلم؛ كالمجمل والمفصل، والمحكم والمتشابه، والناسخ والمنسوخ، وأسباب النزول. ومع كون الصحابة - رضوان الله عليهم - أقدر الناس على فهم القرآن الكريم. فإنهم اختلفوا فى فهمه على حسب اختلاف قدراتهم العقلية، واشتهر منهم بالتفسير وفهم القرآن الكريم: الخلفاء الراشدون، و«ابن مسعود»، و«ابن عباس»، و«أبى بن كعب»، و«زيد بن ثابت» وعن هؤلاء وغيرهم تلقى التابعون، وعلى رأسهم: «مجاهد بن جبير»، و«عطاء بن أبى رباح»، و«عكرمة مولى ابن عباس»، و«سعيد بن جبير»، و«سعيد بن المسيب»، و«الحسن البصرى»، و«محمد بن سيرين»، وبعض هؤلاء ألفوا كتبًا فى التفسير، لكنها ضاعت ولم تصل إلينا، كما ضاعت كتب التفسير التى ألفت بعد عصر التابعين، ومنها ما نسب إلى «سفيان بن عيينة» و«وكيع بن الجراح»، و«عبدالرزاق» وكثير منهم. والخلاصة أنه لم يصل إلينا كتاب فى التفسير يرجع إلى العصر الأموى، وأول كتاب فى التفسير وصل إلى أيدى الناس هو كتاب «معانى القرآن» للفراء المتوفى عام (207هـ الموافق 822م) ثم توالت بعده مطولات كتب التفسير، لعل من أشهرها تفسير الإمام «الطبرى» المتوفى سنة (310هـ الموافق 922م)، المعروف باسم «جامع البيان عن تأويل آى القرآن».

علم الحديث:

نرى كيف أخذت تبرز ظاهرة تحول الصراع السياسى الذى احتدم بين الأحزاب والمذاهب الإسلامية المختلفة، إلى صراع فكرى. إن أبرز ما بدأت تتضح به هذه الظاهرة فى مجرى ذلك الصراع السياسى - المذهبى، هو تبلور الانقسام فى مجال التشريع الإسلامى إلى مدرستين رئيسيتين: مدرسة الرأى، ومدرسة الحديث. فقد تبلور هذا الانقسام بالفعل وأخذ يتطور على نحو شبه مستقل عن المعركة السياسية منذ بدأ التشريع الإسلامى يواجه أوضاعا جديدة فى حياة العرب والمسلمين بعد انتشار حركة الفتح وامتدادها إلى أقطار تختلف أشكال علاقاتها

الاجتماعيــة عما ألفه الفاتحون العرب فى بيئاتهم داخل الجـزيرة عند ظهور الشريعة الإسلامية. ذلك مضافا إلى ما استلزمته الفتوحات من قيام دولة إسلامية بتنظيمات جديدة. فـإن هذا التغير وضع أمـام التشريع الإسـلامى مهمة اسـتيعاب القـضايا المستجدة وإنشـاء الأحكام الجديدة المطابقة لها مع الاحتفاظ بروح قـواعده العامة. وقد أظهـرت هذه المواجهة التاريـخية مدى ضـرورة التطور التشريعى وفـقا لتطور الحيـاة. وهنا كان من الطبـيعى أن تخـتلف المواقف من تطور التـشريع باخـتلاف المواقف من التطور نفسه بمفـهومه الأعم. ودائما كـان الناس، فى كل عصر وكل مجـتمع، ينقسمـون، وفقا لمواقعـهم الاجتمـاعية، حيـال مقتضـيات التطور إلى محافظين ومجددين. على هذا الأساس بالذات حدث الانقسام بين المشتغلين بأمور التشريع إلى محافظين ومـجددين، أولئك يرفضون من الأحكام ما لم يرد به نص من القرآن أو السنة، هؤلاء يستخدمون اجتهاد الرأى فى استنباط أحكام جديدة لم يرد بها نص من هذين المصدرين التـشريعيين الرئيسين، لأن مـوضوعاتها لم تكن موجودة فى حياة وأهل البيئة العربية عنـد ظهور الشريعة الإسلامية فيها، أى أنهم استـخدمـوا منطق العقل إلى جـانب منطق القـواعد العامـة للشريعـة. ومن هذا الأنقسام نشأت مدرستان فى التشريع: سميت الأولى مدرسة «أهل الرأى» وسميت الثانية مدرسة «أهل الحديث». كان الخليـفة الراشدى الثانى، عمر بن الخطاب، فى جانب أهل الرأى عمليا فى عهد خلافته، إذ اجتـهد اجتهادات شخصية عدة كانت النواة الأولى لنظريـة مدرسـة الرأى التى بدأت تـتميـز منذ أواسط القـرن الأول الهجرى بكونها تعتمد الاجتهاد فى التشريع أكثر من اعتمادها الحديث بعد أن شاع الشك بصحـة رواية معظم الأحـاديث عن النبى. فكان لهذا الموقف تجـاه الحديث النبوى عند أهل الرأى رد فعل مناقض له عند جمـاعة المدرسة الأخرى المحافظين، إذ بالغ بعضهم لا فى إنكار العمل بالرأى والاجتهاد وحسب، بل بالغ كذلك حتى فى طريقـة استـعمال الحـديث إلى حد أن بـعضهم جـعل الحديـث مقدمًـا على النصوص القرآنية. ولكـن مدرسة الرأى وجدت أنصاراً كثيـرين فى الأقطار البعيدة عن القطر الذى ظهـر فيـه الإسلام، وهو الحـجار. لقـد تطور هذا الانقسـام إلى

انقسام في المواقف الفكرية من مختلف القضايا التي وضعتها حركة تطور المجتمع العربي ـ الإسلامي، فإذا بنا نرى كثيرا من أهل الرأي ينحازون إلى جانب الفكرة التي نشأت عن النظر في مسألة القضاء والقدر، وهي فكرة حرية اختيار الإنسان في أفعاله التي عُرف الآخذون بها، في ما بعد، باسم «القدريين»، ونرى كثيراً من أتباع مدرسة الحديث ينحازون إلى جانب الفكرة المقابلة لها، وهي فكرة إنكار هذه الحرية وإثبات كون أفعال الإنسان كلها: خيرها وشرها، من الله، أي كون الإنسان خاضعًا في أفعاله لقضاء الله وقدره، وقد عرف أهل هذه الفكرة، في ما بعد أيضًا، باسم «الجبرية» أو «المجبرة». هكذا انتقل كل فريق من المحافظين والمتقدمين في المعركة التشريعية، إلى الجبهة الملائمة لاتجاهه في المعركة الفكرية الأخرى الجديدة[1].

إن تطور المجتمع العربي ـ الإسلامي في عصر صدر الإسلام، الذي يشمل عصر الراشدين وعصر الأمويين، قد اقتضى نشوء حركة ثقافية وضعت القواعد الضرورية الأساسية لتنظيم المعارف المرتبطة بمختلف الظاهرات الإسلامية من حيث لغة القرآن والحديث وأسلوبهما البياني ومضامينهما التشريعية والتوجيهية والإيمانية، ومن حيث حركة الإسلام في دعوته وفتوحاته ورجاله وعلاقة هذه الحركة بالحياة العربية قبل الإسلام: لغة، وأدبا، وتاريخًا، وعادات وتقاليد. وكان الإسلام هو المنطلق الأول المباشر لهذه الحركة الثقافية الواسعة، فلما وضعت القواعد الأساسية لتنظيم تلك المعارف بدافع من ارتباطها بالإسلام، أصبحت هذه القواعد نفسها منطلقا لنشوء نهضة ثقافية تنمو في داخلها فروع من المعرفة يستقل بعضها عن بعض استقلالا نسبيا حتى كاد كل فرع منها يتخذ مجرى لنفسه غير المجرى الذي يتخذه الفرع الآخر، وإن كانت مجاريها جميعًا قد تتلاقى هنا، وقد تتوازى هناك، وقد تتقاطع هنالك، وقد تتشابك معا في مجرى عام إلى مدى معين ثم تتفارق في مجاريها الخاصة. وفي كل حال كان بعضها يأخذ من بعض

1 ـ حسين مروة ـ المرجع السابق ص616.

مادة واستشهاداً أو أسلوبًا أو تعليمًا، غير أن ذلك كله لم يكن يغير من الطابع الاستقلالى النسبى لكل فرع بذاته. ولكن هذا النوع من الاستقلال لم تبرز ملامحه بوضوح إلا فى أواخر القرن الثانى الهجرى. على هذا الوجه نشأت العلوم المسماه بـ «العلوم العربية»: اللغة، والبلاغة، والتاريخ، والسيرة، والتفسير، والحديث، وعلم الرجال (رواة الحديث النبوى)، ثم علوم الشعر (العروض والقوافى، وطبقات الشعراء والموازنة بينهم، ورواية الشعر وشروحه. .إلخ).

والملحوظ فى تاريخ نشأة هذه العلوم وفى تاريخ تطورها أن ارتباطها الأول بالإسلام، من حيث هو دين وحسب، أخذ يتبلور شيئًا فشيئًا إلى ارتباط بالإسلام من حيث هو شكل نظام فى الحياة العامة. وأن نشوء هذه العلوم كان حلقة مهمة فى تسلسل حركة التطور الشاملة، إذ كان تعبيرا عن حاجات هذا التطور إلى شكل من أشكال تنظيم المعرفة يتجاوب مع حاجات التنظيم الاقتصادى والاجتماعى والإدارى والمالى الجديد الذى بدأ يبرز فى الدولة الأموية، بقدر ما يتجاوب أيضا مع حاجات اتساع الفتوح العربية وشمولها عدداً من البلدان التى كان لابد لها من الانسجام مع لغة الفاتحين ودلالاتها اللغوية والبلاغية والتشريعية. وقد وضع تطور المجتمع، وتطور حركة الثقافة، قضايا فكرية جديدة أمام الناس ولاسيما المشتغلين فى مجالات المعرفة، بعضها يتخذ أشكالا دينية إيمانية، وبعضها يتخذ أشكالا نظرية تقترب من أشكال النظر الفلسفى. وكانت حركة التفاعل الاجتماعى والثقافى بين العرب والشعوب الأخرى والثقافات القديمة تغذى هذه القضايا الجديدة بعناصر فكرية جديدة وخبرات عملية جديدة، كما كان النظام الاجتماعى وشكله السياسى أيام الأمويين يعمق ارتباط هذه القضايا بأصولها الاجتماعية داخل هذا النظام. وكانت حركة نقل الثقافات القديمة إلى العربية تتقدم تدريجيًا ثم تدخل عنصرا جوهريًا فى نسيج الحركة الثقافة العربية. وكان قد سبق هذه الحركة ما سمى تاريخيًا بـ «حركة التدوين» التى نقلت العملية الثقافية من مرحلة الحكاية والرواية والسماع إلى مرحلة الكتابة والتأليف والقراءة. وهذه الحركة ساعدت

عملية التفاعل الثقافى بين العرب والشعوب الأخرى، وعملية تلقيح العلوم العربية الفتية ذات الطابع الشكلى فى الغالب بعلوم جديدة ذات طابع مضمونى واتجاه عقلى تجريدى أو علمى تجريبى. أما مراكز هذا التحرك الثقافى والعلمى، فلم تكن ثابتة، بل متبدلة تنتقل بين المدن والعواصم وفقا لتبدلات مراكز الصراع السياسى نفسه. فقد كانت مكة والمدينة فى الحجاز، وكانت البصرة والكوفة فى العراق قبل نشوء بغداد، وكانت دمشق فى بلاد الشام، وكانت الفسطاط (القاهرة اليوم) فى مصر. ولكن دور البصرة والكوفة ظل الدور المركزى الثانى زمنا طويلا، حتى حين كانت دمشق عاصمة الخلافة الأموية، وحتى حين أصبحت بغداد عاصمة الخلافة العباسية ومصدر الحركة الثقافية كلها[1].

الحديث فى اللغة: مطلق الكلام، وفى الاصطلاح: هو كلام النبى ﷺ، الذى هو المصدر الثانى للتشريع بعد القرآن الكريم. وقد حرص الصحابة على حفظ كل ما يسمعونه من النبى ﷺ، وكانوا يسألونه ليبين لهم ما غمض عليهم فهمه من القرآن، وهذا من وظائفه؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: 44] وقد أمرهم الله تعالى باتباع النبى فى كل ما يقول أو يفعل، لقوله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ [الحشر: 7] وحذرهم من مخالفته ﷺ، فقال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: 63] وسار المسلمون على نهج الرسول ﷺ، وتلقفوا كل ما يتلفظ به، يحفظونه عن ظهر قلب ويعملون به، وكان الحديث هو أول العلوم التى اشتغلوا بها، لكنهم لم يدونوه فى حياة النبى ﷺ، ويروى أنه هو نفسه نهاهم عن ذلك، لئلا يختلط بالقرآن، فقال: «لاتكتبوا عنى، فمن كتب عنى غير القرآن فليمحه» [صحيح مسلم]، بالإضافة إلى أن الصحابة أنفسهم كانوا يتحرجون من الإكثار من رواية الحديث، تهيبًا وخوفًا من الخطأ والنسيان.

---

1 ـ حسين مروة ـ نفس المرجع ص618.

. تدوين الحديث: ظلت أحاديث رسول الله ﷺ يتناقلها العلماء مشافهة جيلا بعد جيل، حتى نهاية القرن الأول الهجرى، وإن دون بعض الناس أحاديث رسول الله كعبد الله بن عمرو الذى أذن له النبى بكتابة الحديث فى حياته، وما رواه البخارى من أن «أبا شاه اليمنى»، التمس من رسول الله ﷺ أن يكتب شيئًا من خطبته عام الفتح، فقال: «اكتبوا لأبى شاه»، ثم أمر الخليفة «عمر بن عبدالعزيز» بتدوين الحديث خوفًا من ضياعه بموت العلماء الذين يحفظونه، فكتب إلى «أبى بكر بن حزم» والى «المدينة» وغيره من ولاة الأقاليم، وطلب منهم جمع أحاديث النبى ﷺ وتدوينها، ومن ثم بدأ المسلمون يقبلون على ذلك، وبمضى الزمن تضاعفت جهود العلماء فى هذا الميدان، ومن أشهر الرجال الذين اشتغلوا بجمع الحديث وروايته وتدوينه فى العصر الأموى: «محمد بن مسلم بن شهاب الزهرى» المتوفى عام (124هـ الموافق 741م)، و«ابن جريج المكى» المتوفى عام (150هـ الموافق 767م)، و«ابن إسحاق» المتوفى عام (151هـ الموافق 768م)، و«معمر بن راشد اليمنى» المتوفى عام (153هـ الموافق 770م)، و«سفيان الثورى» المتوفى عام (161هـ الموافق 777م)، و«مالك بن أنس» المتوفى عام (179هـ الموافق 795م)، غير أن هؤلاء كلهم عدا «ابن شهاب الزهرى» عاشوا صدر حياتهم فى العصر الأموى وآخرها فى العصر العباسى، لكن الخطات الحاسمة فى تدوين الحديث، ووضع المنهج العلمى الدقيق لتوثيقه، وقبول روايته، وتصنيفه إلى صحيح وحسن وضعيف، ووضع علومه، وقواعد الجرح والتعديل - أى نقد رجال السند - جاء فى القرن الثالث الهجرى، بظهور أئمة الحديث كـ «البخارى» و«مسلم»، و«الترمذى»، و«النسائى»، و«أبى داود» وغيرهم، وذلك فى العصر العباسى.

علم الفقه:

وهو من أجلّ العلوم الإسلامية فهو يعرف المسلم كيف يعبد ربه، بما افترضه عليه من صيام وصلاة وزكاة وحج، وينظم معاملات المسلمين ويقننها فى البيع والشراء والتجارة والزراعة وسائر شئون حياتهم. ويعد الفقهاء من أكثر علماء الإسلام أثرًا فى حياة المسلمين، لقوله ﷺ: «من يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين»

[مسند الإمام أحمد]. وكان النبى ﷺ يعلم الصحابة ويفقههم فى أمور دينهم، ثم تولى بعده الصحابة تلك المهمة، وبخاصة بعد أن اتسعت الدولة الإسلامية فى عهد الخلفاء الراشدين والدولة الأموية، ثم اتسع نطاق علم الفقه نتيجة لزيادة المشكلات والقضايا التى تحتاج إلى فتاوى وحلول، وأصبح له علماء متخصصون، لهم قدرة على استنباط الأحكام الفقهية من الكتاب والسنة، وعلى الاجتهاد لإيجاد أحكام للقضايا التى لم يرد لها نص فى كتاب الله أو سنة رسوله ﷺ، لأن النصوص متناهية، فى حين أن المشكلات والقضايا غير متناهية ومتجددة، ولابد لها من حلول، فالشريعة الإسلامية صالحة لكل زمان ومكان، ومعنى الصلاحية أن يكون لها حل للمشكلات وإجابة عن كل الأسئلة، وقد اجتهد الفقهاء فى هذا الميدان، واختلفت اجتهاداتهم طبقًا لفهمهم من الكتاب والسنة، ونتيجة لذلك ظهرت المذاهب الفقهية المعروفة، وتراكم تراث فقهى هائل، أخذ يتزايد بمرور الزمان.

وفى العصر الأموى ظهر إمامان جليلان من أئمة الفقة الكبار، هما «أبو حنيفة النعمان» و«مالك بن أنس». أما أولهما فقد ولد فى «الكوفة» عام (80هـ الموافق 699م) فى خلافة «عبد الملك بن مروان»، وتوفى عام (150هـ الموافق 767م) فى خلافة «أبى جعفر المنصور العباسى»، أى أنه عاش أغلب حياته فى العصر الأموى. وهو من أصل فارسى، تلقى الفقه على كثير من كبار العلماء، منهم «أبوجعفر الصادق»، و«إبراهيم النخعى»، و«عامر بن شراحيل الشعبى»، و«الأعمش»، و«قتادة»، وغيرهم، واشتهر باجتهاده، وقوة حجته، وحسن منطقه، ودقته فى استنباط الأحكام، وهو صاحب المذهب الحنفى المعروف، الذى ألف فيه ونشره بين الناس تلاميذه العظام، من أبرزهم «أبو يوسف» المتوفى عام (182هـ الموافق 798م) قاضى القضاة فى عهد الخليفة «هارون الرشيد»، و«محمد بن الحسن الشيبانى» المتوفى عام (189هـ الموافق 804م). وقد انتشر المذهب الحنفى فى «مصر» و«العراق» وأواسط آسيا وغيرها. وأما الآخر فقد ولد فى «المدينة المنورة» عام (93هـ الموافق 711م) فى عهد «الوليد بن عبدالملك»، وتوفى عام

(179هـ الموافق 795م) فى عهد «هارون الرشيد»، أى أنه عاش نحو نصف عمره فى العصر الأموى، وأكثر من نصفه الآخر فى العصر العباسى. نشأ «مالك بن أنس» وتفقه وروى الحديث فى «المدينة» وترك كتابًا عظيمًا هو «الموطأ»، الذى يجمع بين الفقه والحديث، والإمام «مالك» صاحب المذهب المالكى المعروف الذى انتشر فى «مصر» و «المغرب العربى». وقد عاصر هذين الإمامين الجليلين عدد آخر لايقل عنهما علمًا وفقها، مثل: «الأوزاعى» إمام أهل الشام المتوفى عام (157هـ الموافق 773م)، و«الليث بن سعد» إمام أهل «مصر»، المتوفى عام (175هـ الموافق 791م)، غير أن مذهب هذين الإمامين الجليلين اندثر بعدهما؛ لأنهما لم يجدوا تلاميذ يواصلون نشر مذهبهما[1].

علم التاريخ:

قامت الدراسات التاريخية بادئ ذى بدء على دراسة سيرة الرسول وأخبار الغزوات ومن أسهم فيها من الصحابة، وأخبار هجرة المسلمين الأوائل إلى الحبشة ثم إلى يثرب، ولذلك كانت مكة والمدينة المركز الرئيسى لنشاط هذه الحركة التاريخية. وكان المؤرخون الأُوَل من المسلمين يعتمدون على الروايات الشفوية شأنهم فى ذلك شأن رواة الحديث، فكان كل جيل منهم يستمد أخباره من الجيل السابق، وكان الخبر التاريخى يستمد من السماع عند الحفاظ الموثوق بهم وهو ما يعرف بالأسانيد، التى اعتبرت وقتئذ وسيلة للإجماع على صحة الخبر، وهى نفس الوسية التى اتبعها المحدثون فى روايتهم للحديث، مما يدل على أن التاريخ العربى عند نشأته سلك نفس الطريقة التى سلكها الحديث، فكان الخبر التاريخى على هذا النحو يتألف من عنصرين: رواة الخبر على التتابع وهو ما يعرف بالسند أو الإسناد ثم نص الخبر ويسمى المتن. وأقدم الكتب التاريخية التى تجمع بين الحديث والتاريخ كتب المغازى والسيرة، فقد دفع اهتمام المسلمين بأقوال الرسول وأفعاله للاهتداء بها والاعتماد عليها فى التشريع الإسلامى، وفى النظم الإدارية، الكتّاب إلى التصنيف فى سيرة الرسول وفى مغاريه ومغازى الصحابة، وكان من الطبيعى

1 ـ د. عبدالشافى محمد عبداللطيف ـ نفس المرجع ـ ص105.

أن تتألق هذه الحـركة فى المدينة باعتبـارها دار الرسول ودار السنة التى عاش فـيها الصحابة وسمعوا أحاديث الرسول، ورووها بدورهم إلى التابعين. وينقسم مؤرخو السيرة والمغازى فى مدرسة المدينة ومكة إلى ثلاث طبقات، فبرز فى الطبقة الأولى منهم: أبان بن عـثمان بـن عفـان (ت105هـ الموافق 723م) وعروة بن الـزبير (ت92هـ الموافق 710م) الذى مكنه نسبـه مـن أن يروى الكثيـر من الأخبـار والأحاديث عن النبى ﷺ، فروى منها عن أبيه الزبير، وعن أمه أسماء وعن خالته عائشة أم المؤمنـين، وعن عروة أخذ ابنه هشام وابن شـهاب الزهرى. ومن رجال الطبقـة الثانية عـبدالله بن أبى بكر بن حـزم الأنصارى (ت135هـ الموافق 752م) وعاصم بن عـمرو بن قتـادة الأنصارى (ت120هـ الموافق 737م) الذى عهـد إليه عمر بن عبدالعزيز بالجلوس فى جـامع دمشق ليحدث الناس عن مغازى رسول الله وعن مناقب الصـحابة، وعليـه اعتـمد كل من المؤرخـين ابن اسحق والـواقدى، وأخـيراً ابن شـهـاب الزهرى (ت124هـ الموافق 752م) أعظم مـؤرخى المغـازى والسيرة الذى يرجع إليـه الفضل فى توضيح السيرة وفى تأسيس المدرسـة التاريخية فى المدينة. ومن رجال الطبقـة الثالثة محمـد بن إسحاق (ت52هـ الموافق 769م) أشهر تلامـيذ الزهرى وأصله فارسى، وإليه تنسب أقدم كـتب السيرة التى وصلت إلينا، ومحمد ابن عمر الواقدى مولى بنى هاشم (ت 207هـ الموافق 822م) الذى فاق ابن اسحق فى دقته فى المادة وفى الأسلوب مع زيادة فى العناية بالتاريخ، وفى تحقـيق تواريخ الأحداث وتوضيح الإطار الجـغرافى المتصـل بالمواقع. وظهرت فى العصـر الأموى أيضًا مـدرسة أخرى للتـاريخ فى البصرة والكوفـة، تميزت بتناول الموضوعات الخـاصة بالمعارك والفتـوح الإسلامية ودراسة الأنسـاب،نتيجة طبيـعية للصراع الحزبى وللإقليمية وللقبلية، وفى نفس الوقت وجد فى هذه المدرسة كتاب للسيـرة والمغازى، نذكـر منهم معـمر بن راشد اليـمانى البـصرى (150هـ الموافق 767م). ومن أشهـر كتاب التاريخ والأخـباريين من أصحـاب هذه المدرسة، أبو مـخنف لوط بـن يحـيى الأزدى (ت 157هـ الموافق 773م)، الذى عنى بكتـابة الأحداث التاريخـية العامة فى الإسلام، كـالردة والفتوح ومواقع الجـمل وصفين، ومقـتل الإمام الحـسين عليه السلام، وعن الأزارقـة الخوارج، وذلك بجـانب اهتمـامه

بالأنساب، ومنهم أيضا سيف بن عمر الكوفى الأسدى (ت180هـ الموافق 796م) الذى اتسمت أخباره فى الفتوحات وخاصة ما كان منها متعلقًا بالعراق بميول واضحة المعالم لقبيلته وتعصب ظاهر لها، ومنهم عوانة بن الحكم الكوفى (ت147هـ الموافق 764م) وكان على دراية كبيرة بالأخبار والفتوح مع علم بالشعر والأنساب. ونلاحظ أن اهتمام العرب بأنسابهم فى الجاهلية وضح بوجه خاص عقب الفتوحات الأولى وذلك عندما أنشأ عمر بن الخطاب الديوان وبدأ بالعباس عم النبى ثم بآل البيت ثم ببنى هاشم ثم بمن بعدهم طبقة بعد طبقة مراعيًا فى ذلك الاعتبار الدينى والقبلى فى آن واحد. وزاد اهتمام الأمويين بالأنساب، ووضعت لهذا الغرض سجلات بها، واشتدت العناية بالأنساب أيضًا منذ أواخر العصر الأموى عندما قامت الخصومات القبلية ونشأت الشعوبية، وأخذ الشعوبيون من الموالى يفتشون عن مثالب العرب فى الوقت الذى كانت القبائل تبحث عن مفاخرها، ومن أشهر نسّابة العراق محمد بن السائب الكلبى (ت 146هـ الموافق 763م) وكان من علماء الكوفة الذين اهتموا بدراسة الأنساب. أما بالنسبة للتاريخ العربى القديم الذى يتناول أخبار العرب فى الجاهلية الأولى أو الجاهلية القريبة من الإسلام فقد تم تدوينه فى عصر الدولة الأموية عندما ثبتت دعائم الدولة العربية، وبدأ العرب يعنون بأخبارهم القديمة، فشهد القرنان الأول والثانى للهجرة اهتماما خاصا بدراسة أخبار العرب القديمة.

ومن المؤرخين الذين اشتغلوا برواية أخبار العرب قبل الإسلام[1]:

1 ـ عبيد بن شرية الجرهمى، وكان قصاصًا إخباريًا برز فى بلاط معاوية بن أبى سفيان، وذكروا أنه ألف لمعاوية «كتاب الملوك وأخبار الماضين» الذى طبع فى ذيل كتاب التيجان فى ملوك حمير، وكتاب ابن شرية يتضمن كثيراً من أخبار العرب فى الجاهلية، كما يشتمل على كثير من الأشعار التى وضعت على لسان عاد وثمود وطسم وجديس والتبابعة، ويغلب على هذه الأخبار الطابع القصصى المتأثر بالإسرائيليات. وعاش عبيد بن شرية إلى أيام عبدالملك بن مروان.

---

1 ـ د. السيد عبدالعزيز سالم ـ نفس المرجع ـ ص698.

2 ـ وهب بن منبة (ت110هـ الموافق 728م)، وكـان يمنيًا من أهل ذمـار، ومن الكتب المنسوبة إليه «كتـاب الملوك المتوَّجة من حمير وأخبـارهم وقصصهم». ويغلب على أخبار وهب طابع القصص الشعبى.

علم الكلام:

لا ينحصـر الفكر الفلسفى فى المـصادر الخارجـية: اليونانيـة، والفارسـية، والهندية، والمسيحية، بل هناك أصـول وجذور اجتماعية وسياسيـة ودينية إسلامية فى داخل حركـة المجتمع العـربى ـ الإسلامى كان لها تأثيـر داخلى، مباشـر حينا وغير مباشر حينا، فى أساس هذا التحرر الفكرى فى العقائد الإيمانية. ولكن دون أن يعنى ذلك إنكار الأثر الكبير لتلك المصادر الخارجية المشار إليها، بل الذى نعنيه ـ بالتحديد ـ هو أن تأثيـر المصادر الخارجية قـد خضع لعملية انصهـار كانت تجرى ضمن حـركة الصراع الداخلى فى ذلك المجـتمع، سواء اتخـذ هذا الصراع شكلا دينيا مذهبيا، أم شكلا اجـتماعيا وسياسيا. فـقد كان ذلك كله يتحول فى النصف الثانى من القرن الهجـرى الأول إلى أنواع من الصراع الفكرى الذى يخيل لمن يراه رؤية سطحية وجانبية أنه قائم بصورة مستقلة ومنعزلة عما كان يجرى بالفعل داخل ذلك المجتمـع وفقا لقوانين تطوره التـاريخى الخاص يومئذ. هذا التـحول الفكرى كانت تنصب فيه مختلف مجارى التحول هذا تقريبا، هى قضية الموقف من القضاء والقدر وعـلاقته بأفعـال الإنسان وبمسؤوليـته عن هذه الأفعال. وقـد اتخذت هذه القضية صيغة تاريخية ذات دلالة ملحوظة، إذ سـميت بقضية الجبر والاختيار. فإن الصراع فيهـا كان يدور على هذا السؤال: هل الإنسان مجبر على أفعـاله أم مختار فيها؟.. أو هل للإنسـان حرية الإرادة والاختيار فى ما يفـعل من خير أو شر، أم هو خاضع فى كل ذلك لإرادة الله المطلقـة، أى أن القضاء والقدر: خـيره وشره، من الله؟. لقد وصف البـاحثون المتـأخرون هذه القضـية بأنها الـتى حركت الفكر العربى كله فى ذلك العصر. وهو وصف ينطبق على الواقع التاريخى انطباقا كليا، لأنها منذ ظهرت على الصـعيد الفكرى فى العهود الأولى من حـياة الدولة الأموية

فى المشرق، أصبحت هى القطب المركزى لكل انقسام فكرى، أو مذهبى دينى، أو اجتماعى وسياسى[1].

ظهرت فى العصر الأموى بعض حركات فلسفية دينية كالجبرية والقدرية والمعتزلة. فالجبرية يقولون بأن إرادة الله مطلقة وقدرته تضع حداً لإرادة الإنسان، والإنسان على هذا النحو مجبر لا اختيار له ولا قدرة، وأن الله يخلق فى الإنسان الأعمال والأفعال ولا قدرة للإنسان على تبديلها. وأول من قال بالجبرية جهم بن صفوان فسمى أتباعه بالجهمية. وقد نفى الجبرية صفات الله لأن صفات الله بشرية والبشر خلق. أما القدرية فقد جاءت حركتهم كرد فعل لحركة الجبرية، ومذهب القدرية هو أن الإنسان يملك القدرة والإرادة عن تصرفاته، ودعمت القدرية آراءها بآيات من القرآن الكريم، وكانت القدرية تعارض بنى أمية لأنها تعتبر أن للفرد حرية الاختيار. أما المعتزلة فهى أعظم مدارس الفكر والكلام فى الإسلام، وظهرت فى بداية القرن الثانى الهجرى فى البصرة، ويرجع أصل هذه التسمية إلى واصل بن عطاء الذى اعتزل حلقة أستاذه الحسن البصرى بمسجد البصرة، لاختلافه معه فى الرأى. وتتلخص آراء المعتزلة فى القول بعدم تكفير مرتكب الكبائر واعتباره فى منزلة بين المنزلتين، أى بين المؤمن والكافر. وقالوا بالقدرة أى أن الله لا يخلق أفعال الناس وإنما هم يخلقون أفعالهم، وأنهم من أجل ذلك يثابون أو يعاقبون، على عكس ما قال به خصومهم من الفقهاء الذين تغالوا فى سلب الإنسان قدرته وحريته فى التصرف. وقال المعتزلة بسلطان العقل وقدرته على معرفة القبيح من الحسن، ودعاهم إلى القول بهذا المبدأ ما رأوه من جمود بعض الفقهاء ووقوفهم عند النصوص. كذلك قال المعتزلة بالتوحيد فنفوا أن تكون لله تعالى صفات أزلية من علم وقدرة وحياة وسمع وبصر غير ذاته، بل إن الله عالم وقادر، وحى وسميع وبصير بذاته، وربما دعاهم إلى هذا القول ما شاع فى عصرهم من ذهاب قوم إلى تجسيم الله تعالى وإثبات صفات له كصفات

1 ـ حسين مروة ـ المرجع السابق 619.

المخلوقات، وقد استند المعتزلة فى آرائهم على قوله تعالى: **«ليس كمثله شىء»** وقوله تعالى: **«سبحان ربك رب العزة عما يصفون»** وقد اضطهد خلفاء بنى أمية المعتزلة، ولكن بعض الخلفاء ذهبوا مذهبهم مثل يزيد الناقص بن الوليد، ومروان ابن الحكم الذى لقب بالجعدى لأخذه القول بالقدر على الجعد بن درهم المعتزلى[1].

كانت هذه مسألة فكرية ترتبط بمسؤولية فعل الإنسان، فى ما بين النصف الأول والنصف الثانى للقرن الهجرى الأول، استنادا إلى مصادر ومراجع ثقة فى تاريخ الفرق والمذاهب الإسلامية. ولكن الكلام على المسألة على صعيد دينى محض كان يتردد قبل ذلك الزمن، وكان الناس عامة يسألون عنها الخلفاء الراشدين وبعض الصحابة مستفسرين عن مدى حكم القضاء والقدر فى أفعال الإنسان وتصرفاته. إنها لم تنشأ بصورة ذاتية من قبل أولئك المفكرين الثلاثة الذين اشتهروا بالدفاع عن حرية اختيار الإنسان فى أفعاله وبنفيهم تحكم القضاء والقدر فى إرادته، وقتلوا قتلا سياسيًا فى سبيل فكرتهم هذه، وهم: معبد الجهنى، وغيلان الدمشقى، وعمرو المقصوص. وإنما المسألة كانت قائمة بصورة موضوعية يتحدث بها الناس، ويسألون عنها وتخامرهم الحيرة فى تفسيرها وحلها حلا يستجيب لعقولهم ولمشاعرهم الإيمانية معا. ولكن فضل هؤلاء الدعاة الثلاثة لفكرة حرية الإرادة أنهم عبروا عن هذه المشكلة القائمة موضوعيًا بأول صيغة فكرية لها مع أستاذهم الحسن البصرى، وأنهم أخذوا الجانب الإيجابى منها، وأنهم كانوا من الجرأة والإخلاص لفكرتهم على درجة عالية بلغت درجة الاستشهاد فى سبيلها. وأن مسألة القدر هذه لم تظهر فى المجتمع الأموى بوصفها ظاهرة فكرية وحسب، منعزلة عن الظاهرات الاجتماعية والسياسية الصارخة فى ذلك المجتمع، وإنها ـ لذلك ـ لم تظهر بتأثير عوامل فكرية أو فلسفية أو دينية خارجية واردة من ثقافات اليونان أو الفرس أو اللاهوت المسيحى، وإنما هذه العوامل ساعدت فى بلورة الصياغات الفكرية الأولى للمسألة.

1 ـ د. السيد عبدالعزيز سالم ـ نفس المرجع ـ ص700.

رأينا خلف هذه العلاقة بين الحركة «القدرية» من حيث هى ظاهرة فكرية وبين الواقع الاجتماعى والسياسى فى زمنها، منشأ «أيديولوجيا» لهذه الحركة فى هذا الصدد، ظاهرة قرآنية تستدعى الانتباه، وهى أن معظم آيات القرآن المكية هى التى نجد فيها القول بحرية إرادة الإنسان فى أفعالها، وأن الآيات التى نجد فيها القول بالجبر هى الآيات الصادرة معظمها فى المدينة بعد حادث الهجرة النبوية. وقد حاولنا أن نستخلص دلالة هذه الظاهرة القرآنية. رأينا «دى بور» (De Boer) يعللها فى كتابه «تاريخ الفلسفة فى الإسلام» بتقلب الظروف التى عاش فيها النبى، وباختلاف أحواله النفسية، ورأينا مثل هذا التعليل واردًا عند المستشرق هـ. غريم (H. Gremme) فى كتابه عن حياة محمد وتعاليمه. ولكننا رأينا فى ذلك تعليلا ذاتيا لا يأخذ بالحسبان الظروف الواقعية الموضوعية فى نشوء الظاهرات الاجتماعية التاريخية. غير أن باحثا عربيا إسلاميًا معاصرًا، هو عبدالهادى أبو ريدة، يرجع هذه الظاهرة القرآنية، فى تعليقاته على كتاب «دى بور» السابق الذكر، إلى كون الاتجاه العام فى الآيات المكية كان يرمى إلى هدم الروح الجبرية الاستسلامية التى سرت إلى العرب عن جاهليتهم، وتدل عليها أشعارهم وآيات القرآن نفسها. ولكن هذا التعليل، بالرغم من منهجيته الواقعية الصحيحة، لم يتعرض لتفسير الروح الجبرية الظاهرة فى الآيات «المدنية» الصادرة بعد هجرة الإسلام إلى المدينة[1].

إن العودة إلى الروح الجبرية بعد الهجرة كانت تعبيرا عن حاجة الإسلام فى مرحلة الهجرة إلى وضع «أيديولوجيته» العملية، فى مجال العقيدة والتشريع، فى الوقت الذى أصبح فيه متمكنا من وجود واستقراره، وأصبح مهتما بدفع حركته إلى علاقات جديدة تطبيقية تنظر إلى الآتى، لا إلى الماضى. ولذا رأينا النبى فى عهد الهجرة، ورأينا الخلفاء الراشدين من بعده، يعلنون رفضهم لكل جدل فى أمور العقيدة، وفى مسألة القدر بخاصة، ويدعون إلى التسليم الإيمانى المطلق

1 ـ حسين مروة ـ المرجع السابق ص622.

بنصوص القرآن جملة وتفصيلا. وقد وردت هذه الدعوة فى القرآن الكريم نفسه. ولكن ظروف الصراع الاجتماعى والسياسى الذى اتخذ اشكالا مذهبية دينية فى أواخر عهد الراشدين واحتدم احتداما شديداً منذ قيام الدولة الأموية، قد فجرت حركة عارمة من الجدل فى كل أمر كان باب الجدل فيه مغلقا من قبل. وكانت مشكلة القدر فى طليعة الأمور التى تفجر الجدل حولها بقوة. ذلك لأن الحكم الأموى استغل الروح الجبرية الظاهرة فى بعض نصوص القرآن استغلالا مثيراً، ليدعم بها قوته وسلطانه على الفئات الاجتماعية المستضعفة التى ظهر التفاوت الطبقى كبيراً جداً بينها وبين الطبقة الحاكمة وأعوانها من الإقطاعيين وكبار التجار وذوى الامتيازات الضخمة من قادة جيوش الفتح المرابطين فى هذا القطر وذاك. فقد كان الحكام الأمويون، فى هذه الظروف، محتاجين أن يرسخوا فى نفوس الناس وأذهانهم فكرة الجبر، ليضفوا على حكمهم صفة القضاء والقدر من الله، أى صفة التأييد المفروض على المسلمين بقضاء الله وقدره. لقد كان طبيعيا أن اشتداد الظلم الاجتماعى حرك التساؤلات القديمة من جديد فى مسألة القدر، ولكنها هذه المرة كانت تساؤلات ذات مضمون احتجاجى أكثر من كونها ذات مضمون يحمل طابع الحيرة والقلق التأمليين كما كان الأمر فى زمن الخلفاء الراشدين. من هنا لم يكن مصادفة أن الحركة «القدرية» المناهضة لفكرة الجبر ظهرت فى بيئة البصرة ذاتها حيث تعيش جماعات غفيرة من شغيلة الأرض وصغار الحرفيين، وحيث يستغل هذه الجماعات الغفيرة أسوأ استغلال جماعات من كبار الإقطاعيين وكبار التجار ورؤساء القبائل النازحين من الجزيرة مع جيوش الفتح الأولى. مضافا إلى ذلك أن الحركة الثقافية الناشطة فى البصرة يومئذ كان زمامها بأيدى مفكرين ينحدرون من فئة الموالى، وهى الفئة التى كان يعدها الأمويون فى المرتبة الدنيا من المجتمع الإسلامى، بل يعدونها فى مرتبة العبيد. والحسن البصرى الذى ظهرت الحركة القدرية بشكلها الفكرى فى حلقته الدراسية

بمساجد البصرة، هو نفسه كان معدوداً من الموالى. أما سبب تسمية أصحاب فكرة الاختيار بـ«القدريين» بالرغم من أن هذا الاسم يعنى عكس الفكرة، فهو سبب يرجع إلى قصد من خصوم الفكرة ان يشوهوا مضمون الحركة التى قامت عليها، وأن يطبقوا على أصحابها الحديث المنسوب إلى النبى القائل: «القدرية مجوس هذه الأمة».

كان لابد لنا ـ وقد درسنا حركة «القدرية» ـ أن ندرس الحركة المقابلة لها التى حملت فكرة الجبر وبشرت بها ودافعت عنها. وقد غلب على أصحاب الفكرة الجبرية، تاريخيًا، اسم «الجهمية» نسبة إلى جهم بن صفوان الذى تزعم الحركة عند بداية ظهورها فى بلدة ترمذ من بلاد فارس. كان للحركة الجبرية أو «الجهمية» فى تاريخ تطور الفكر العربى نحو النظر العقلى والفلسفى أثر ملحوظ لا يقل عن الأثر الذى أحدثته الحركة «القدرية»، بالرغم مما تنطوى عليه فكرة الجبر من مضمون «أيديولوجى» سلبى. فإن الجبريين قد اعتمدوا النظر العقلى أيضا «كالقدريين» فى شرح فكرتهم والدفاع عنها، لأنهم جميعًا يرتبطون ببنية فكرية واحدة، إسلامية. لذلك صح لنا القول أنهم شاركوا مشاركة فعالة فى وضع الأسس الأولى للحركة العقلية فى مجرى تاريخ تطور الفكر العربى نحو الفلسفة.

تتحدد نظرية جهم بن صفوان فى الجبر، كما نقلها عنه الشهرستانى، فى أن الإنسان لايقدر على شيء، ولايوصف بالاستطاعة، وإنما هو مجبر فى أفعاله، لا قدرة له ولا إرادة ولا اختيار، وإنما يخلق الله الأفعال فيه (فى الإنسان) على حسب ما يخلق فى سائر الجمادات، وتنسب إليه (إلى الإنسان) الأفعال مجازا (لاحقيقة) كما تنسب إلى الجمادات. ولا ينكر جهم أن الإنسان يتميز من الجمادات بما ينسب إليه من إرادة واختيار، ولكنه يقول إنه «لا فعل لأحد فى الحقيقة إلا لله وحده، وإنه هو الفاعل». وبهذا تصبح ميزة الإرادة والاختيار فى الإنسان معطلة، لا شأن لها ولا أثر، فإرادته إذن آلية ليس فيها معنى الإرادة حقيقة. ولكن، بالرغم مما نرى فى نظرية جهم هذه من جبرية سلبية مطلقة، نرى

فى مواقفه فى المسائل الأخرى انتصاراً للعقل فى عصره. إذ يستخدم فى تلك المسائل طريقة التفكير الفلسفى، ويشق فى معالجتها الطريق العقلى أمام من يأتى بعده من المفكرين العقليين كالمعتزلة والمتكلمين. هذه أول المسائل التى قلنا إن جهما انتصر فيها للعقل. فهو هنا يقدم رأى العقل على ظاهر نصوص القرآن، إذ أنكر أن تكون لله صفات غير ذاته، خلافا لظواهر تلك النصوص، منطلقًا من مبدأ عدم تشبيه الله بالإنسان الذى تتعدد فيه الصفات. ولكنه يلجأ إلى التفسير العقلى وإلى التعامل مع المفاهيم، فى مقابل «المشبهة» الذين لم يستطيعوا تصور الألوهية على صعيد المفاهيم والمعانى، فجعلوها صورة ملموسة مجسدة. وجريا منه فى سياق نفى الصفات قال بكون القرآن مخلوقًا، وليس هو كلامًا إلهيا أزليا. إذن، لقد سبق جهم المعتزلة فى مسألتى الصفات وخلق القرآن. وفى هذه المسألة أيضا أحدث جهم رأيا جديداً جريئا، إذ أنكر خلود العالم الأخروى، على خلاف ما تقول ظواهر نصوص القرآن. فهو يقول بأن حركات أهل الخلدين (الجنة والنار) تنقطع، وأن الجنة والنار تفنيان بعد دخول أهلهما فيهما. بانيا رأيه هذا على نظرة فلسفية تقول بعدم تصور الحركات غير متناهية أزلا وأبدا، أى أن الحركة عنده غير أزلية ولا أبدية. وتطبيقًا لنظرته فى الحركة على العالم الأخروى الذى يقيسه - كما نرى - على العالم المادى، يلجأ إلى القول بأن الله لم يخلق الجنة بعد، وأن جنة آدم التى ذكرتها الكتب الدينية قد خلقها الله ثم أفناها. وهذه مسألة أخرى يسبق فيها جهم من يأتى بعده من المعتزلة والمتكلمين ونظرته هنا أكثر ظهوراً فى اعتماده العقل دليلا لاكتشاف ما فى الأشياء والأفعال ومختلف ظاهرات الوجود والمعانى من حسن أو قبح، ومن صلاح أو فساد. وبناء على قدرة العقل أن يدرك حسن الأشياء وقبحها بذاته قبل أن تأتى الشرائع الإلهية، قال جهم بـ «إيجاب المعارف بالعقل قبل ورود السمع». أى أن العقل يوجب على الناس معرفة الله قبل ورود الشريعة بذلك. وبهذا القول تكون «نظرية» المعرفة عند جهم غير مرتبطة بالمصدر الإلهى، بل بالعقل قبل كل شىء. وفى هذا جانب تقدمى جدير بالعناية. فضلا عن الجانب التقدمى الآخر الكامن فى قوله بوجود الحسن والقبح فى الأشياء

موضوعيا، أى وجـود خصائصها الجوهرية وجوداً موضـوعيًا لايتوقف على وجود الشريعة الإلهية[1].

ينفى جهم هنا إمكان رؤية الله فى العـالم الأخروى، خلافا لرأى السلـفيين الذين يستندون إلى نصوص قرآنية، كما يستندون إلى معادلة عقلية منطقية تقول إن كل موجود تمكن رؤيتـه، وكل ما لاتمكن رؤيته لا يثبت وجـوده، وما دام قد ثبت وجود الله فـقد ثبت إمكان رؤيتـه. قلنا إن هذه معادلة عـقلية، لأنهـا تقوم على مقدمـات عقلية، وهى ذات شكل منطقى على طريقـة المنطق الصورى الأرسطى. ويبدو لنا من هذه الطريقة فى الاستـدلال على الرأى أن طريقة النظر العقلى المنظم تنظيـمًا منطقيًـا قد بدأت منذ ذاك تفـرض نفسـها حـتى على جمـاعة السلفـيين المحافظين (نذكر هذه المـلاحظة هنا على سبيل الاستطراد لما لهـا من دلالة تاريخية مهمة فى هذا المجال). لقد خالف جهم رأى السلفيين هذا، ونفى إمكان رؤية الله إطلاقا، لا فى العـالم الدنيوى ولا العالـم الأخروى، وفقا لرأيـه السابق فى نفى الصفات عـن الله ونفى تشبيهـه بالمخلوقات. ورد على معادلة السلفـيين ـ ومنهم الأشاعـرة ـ بأن مقـدماتهـا لاتنطبق على الله، لأن الله «ليس شـيئًا»، فـلا يدخل بالمقدمـة القائلة «إن كل مـوجود تمكن رؤيتـه». فالموجـود «شىء». ورغم الاتجاه الميتافيزيقى فى رأى جهنم نجد فيـه النظرة «التجريدية» إلى حقيقة الله، وهى شكل أعلى فى سلم الوعى النظرى أى أنه هنا أقـرب إلى النظر الفلسفى من السلفـيين. وهنا نقول أيضا إن جهما سبق المعـتزلة والأشاعرة فى بحث هذه المسألة على نحو ما بحـثها المعـتزلة بعده. فهـو ينفى أن علم الله أزلى، خلافـا لما تقول به ظواهر النصوص القرآنية، بل هو علم حادث. وبما أنه لا يستطيع أن ينفى العلم عن الله، فقـد «فلسفـ» المشكلة حتى انتهى إلى نتـيجة تقـول: إن علم الله ليس له محل، وليس علما كـليا شامـلا، وإنما هو علم بالجزئيات، فـهو مـتعدد إذن بقـدر تعدد الجزئيات. وبهـذه النتيجة يكون جـهم قد وضع أساسا للخـلاف الذى حدث بعد

---

1 ـ حسين مروة ـ نفس المرجع ص625.

ذلك عند المتكلمين من المعتزلة والأشاعرة فى مسألة: هل يعلم الله الكليات فقط أم الجزئيات فقط، أم كليهما؟. والمهم هنا أن نرى الطريقة التى وضع بها جهم هذه المشكلة، والطريقة التى حاول بها حل المشكلة. وقد تبين لنا عند بحث رأيه أن هذا المفكر الجبرى قد اعتمد طريقة المنهج العقلى على نحو من التفكير الفلسفى، ولاسيما كونه استخدم «المفاهيم» و«المقولات» المنطقية والفلسفية فى معالجته الموضوع. جاء جهم بصيغة جديدة لمفهوم الإيمان، بعد صيغتين سابقتين متواليتين: أولاهما، الصيغة السلفية القائلة بأن الإيمان هو الاعتقاد بالله ورسله ثم نطق اللسان بهذا الاعتقاد، والثانية صيغة الخوارج التى أضافت إلى عنصرى الاعتقاد والنطق: عنصر العمل بمستلزمات الاعتقاد. أما صيغة جهم الجديدة فقد اعتبرناها تطويراً لمفهوم الإيمان بمعناه الإسلامى. إذ اقتصر فيه على عنصر واحد، هو: المعرفة. يقصد معرفة الله ورسله وشرائعه. وما عدا ذلك ليس من مقومات الإيمان فى رأيه. ومعنى هذا أنه: «من أوتى المعرفة ثم جحدها بلسانه لم يكفر بجحده، لأن العلم والمعرفة لا يزولان بالجحد، فهو مؤمن» (الشهرستانى: الملل والنحل، جـ1/ ص 80). ثم معنى هذا ـ عند جهم ـ أن الإيمان لايتجزأ إلى اعتقاد، وقول، وعمل، وأن ليس أحد أفضل من أحد فى إيمانه، فإيمان الأنبياء وإيمان الأمة على نمط واحد، إذ المعارف لا تتفاضل (عن الشهرستانى: الملل جـ1 ص80). فإذا كان هذا هو الإيمان، فما مفهوم الكفر عنده إذن؟. هو يقول: «إن الكفر خصلة واحدة، وبالقلب يكون، وهو الجهل بالله» (عن الأشعرى أيضا: مقالات جـ1 ص128). فإذا كانت المعرفة هى الإيمان، فأى نوع من المعرفة يعنى جهم؟ نحن نذكر أنه يعتمد المعرفة العقلية دليلا أول إلى الله قبل الشرع، فالمعرفة التى يعنيها فى مفهوم الإيمان إذن هى المعرفة العقلية. ومن هنا نرى أننا نواجه عند جهم طريقة جديدة فى التفكير تضع الفكر العربى ـ الإسلامى، فى تلك المرحلة من تاريخ تطوره، أمام بداءة المنعطف الذى سيؤدى به إلى منهج المتكلمين العقلى الذى كان تمهيداً لظهور المرحلة الفلسفية[1].

1 ـ حسين مروة ـ نفس المرجع ص627.

الثقافة العربية فى المغرب العربى:

وقد شهد نفس هذا العصر تطوراً مماثلا صحب انتشار الإسلام وهو انتشار اللغة العربية، ويخيل للمتأمل أن اللغة العربية كانت أوسع انتشاراً فى بلاد المغرب العربى منها فى مصر، لأن العربية وجدت فى مصر لغات عريقة ذات أصالة وحضارة مثل اللغة اليونانية أو الإغريقية بتقاليدها العريقة وماضيها المشرق، وهى لم تكن لغة الثقافة وحدها بل اتخذت تعبيراً دينيا فأصبحت لغة الكنيسة الأرثوذكسية والتمسك بها يحمل فى مفهوم المصرى معنى دينيا إلى جانب لغة الوثائق والمصطلح الديوانى والثقافة الإغريقية وهى لغة المحتل المسيحى البيزنطى لمصر منذ فترة طويلة. أما فى بلاد المغرب العربى فإن الإغريقية أو اللاتينية لم تكن واسعة الانتشار، بل كانت لغة الحكومة ولغة سكان المناطق الساحلية، أما غالبية عرب العاربة من البربر فكانت أبعد من أن تتأثر بهذه اللغة ما دامت قد بقيت بعيدة عن التأثر بالحضارة الرومانية، لأنهم كانوا لا يحبون ثقافة المستعمر المسيحى الرومانى أو البيزنطى وكانوا يفضلون ثقافة إخوتهم الفينيقيين من عرب قرطاجنة أو القرطاجيين. وكما أقبل عرب العاربة من البربر على الإسلام أقبلوا على اللغة العربية ووجدوا فيها أداة طيعة تمكنهم من التفاهم فيما بينهم، إضافة إلى أنهم اعتبروا العودة إلى الجذور الأصلية، فقد تعددت لهجاتهم وكانت اللغة العربية لغة مكتوبة يستطيعون عن طريقها أن يسجلوا تراثهم. وكان إقبالهم على اللغة العربية شديداً يدل على ذلك ما ترويه كتب الطبقات من رحيل الكثيرين منهم فى القرن الثانى الهجرى إلى الشرق للاستزادة من العلم والتثبت من اللغة، وظهرت خلال هذا القرن فئات تكتب بالعربية وتؤلف بها. وبدراسة ما ورد من تراجم فى كتب طبقات فقهاء المغرب نجد الرواية تتسلسل إلى رعيل أول من أهل البلاد الأصليين الذين برعوا فى ثقافة العرب وفهموها حق الفهم، وفى نفس الوقت الذى انتشر

فيه الإسلام واللغة العربية كانت الثقافة العربية الوافدة إلى مدارس القيروان وغيرها من مدن المغرب العربى تسير فى طريقها المرسوم نحو التفوق والازدهار[1].

الثقافة العربية فى إسبانيا:

ولكى تكتمل لنا صورة هذا العصر، عصر الولاة، بقيت كلمة موجزة عن تاريخ الثقافة العربية فى البلاد فى هذا العصر. المعروف أن عصور الولاة لها طابعها الخاص فى التاريخ الثقافى، فهى الفترة التى تختلط فيها أو تلتقى الثقافة العربية بالثقافة القديمة، الفترة التى يكون فيها الإسلام فى بدايته الأولى نحو الانتشار واللغة العربية فى طريقها نحو الانتشار أيضا، وغالبا ما يرتبط الإسلام بانتشار اللغة العربية. إذن عصر الولاة فى إسبانيا لايختلف فى طبعه عن عصور الولاة الأخرى، وإن كان أقصر عصور الولاة زمنا، ومع هذا فقد حدثت فيه نفس الظواهر التى حدثت فى الأقطار الأخرى، بدأت اللغة العربية باعتبارها وسيلة للتعبير الثقافى فى الانتشار، ولكن انتشارها كان بطيئا وكان يتمشى مع الحركة الإسلامية عامة ولم ينتشر الإسلام على نطاق واسع إلا منذ عصر الإمارة. كما بدأت الثقافة العربية تستقر فى البلاد، وتلمح فى كتب الطبقات الأندلسية وفوداً من القراء والمحدثين والفقهاء والنحاة تفد إلى البلاد وتقيم فيها، لكننا لم نسمع أن ثمة ثقافة عربية أندلسية قد بدأت تتميز فى ذلك العصر. أما الذين استقروا من المسلمين، لم تكن حياتهم مواتية لشئون الدين والفكر، فقد شغلوا لما وقع بينهم من مخاصمات ومنازعات، ثم إن الفاتحين كانوا من المحاربين وهذا وحده يكفى لتعليل انصرافهم عن الآداب وشئون الفكر. أما أهل البلاد الذين دخلوا فى الإسلام وارتبطوا بالفاتحين العرب بروابط المصاهرة لم يكونوا فى حاجة كبيرة إلى شيء ذى بال من الثقافة العربية لأن الدخول فى الإسلام لم يكن يتطلب منهم إلا مجرد النطق بالشهادتين[2].

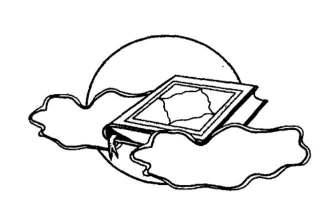
---

1 ـ د. حسين احمد محمود ـ المرجع السابق ص71.
2 ـ د. حسن احمد محمود ـ نفس المرجع ص80.

- الكيمياء والطب:

وعنى بنو أمية بالكيمياء والطب، وأول من اهتم بهذا العلم وبإخراج كتب القدماء فى الصنعة خالد بن يزيد بن معاوية، الذى أخذ هذا العلم على يد راهب سكندرى يقال له مريانوس الراهب. وخالد بن يزيد هذا نزل بمصر منذ خلافة مروان بن الحكم، فقد سار معه عندما خرج مروان على رأس حملته إلى مصر للاستيلاء عليها فى عام 65هـ الموافق 684م. وفى الطب نبغ عدد من النصارى منهم ابن أثال، طبيب معاوية وكان خبيراً بالأدوية المفردة والمركبة، وتيادوق طبيب الحجاج، وابن سرجويه اليهودى الفارسى طبيب مروان بن الحكم، وقد ترجم هذا الأخير كتابًا فى الطب من السريانية إلى العربية، هو كتاب أهون بن أعين القس، وأبو الحكم النصرانى، طبيب معاوية، وابن أبجر السكندرى طبيب عمر بن العزيز.

الفصل الثامن



المعارضة العلوية وثورة سبط رسول



الله محمد ﷺ الإمام الحسين عليه السلام

- مصطلح الشيعة.
- الإسلام والخروج على الحاكم.
- ثورة الحسين الإسلامية الكبرى.
- مذبحة كربلاء لأبناء رسول الله محمد ﷺ.
- نتائج مجزرة كربلاء.

مصطلح الشيعة

تعنى كلمة «الشيعة»: الأهل والأتباع والأنصار، كما فى قوله - تعالى - فى معرض حديثه عن «موسى» عليه السلام: ﴿فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِى مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِى مِنْ عَدُوِّهِ﴾ [القصص: 15] وكل قوم اجتمعوا على أمر فهم شيعة، بعضهم لبعض، غير أن هذه الكلمة أصبحت علمًا على أنصار « الإمام على بن أبى طالب» رضي الله عنه - وذريته من بعده، فإذا قيل: إن فلانا من الشيعة، عُرف أنه منهم، أو قيل: فى مذهب الشيعة كذا، أى عندهم. وقد نشأ التشيع بسيطا فى أول الأمر ثم تطور بمضى الزمن، وأصبح مذهبًا دينيا وسياسيا، كما كان أتباعه فرقة واحدة، شأنهم فى ذلك شأن الخوارج، ثم لم يلبثوا أن تفرعوا إلى فرق، مثل «الإمامية الاثنى عشرية»، و«الزيدية» و«الإسماعيلية». ويخالف رأى الشيعة فى الخلافة جمهور الأمة الإسلامية التى ترى أن الخلافة أمر من الأمور العامة، يفوض للأمة أمر البت فى شأنها، وتختار من تراه الأصلح لدينها ودنياها لتولى منصب الخلافة، أما هم فيرون أن الإمامة ليست من المصالح العامة التى تفوض إلى الأمة، بل هى ركن من أركان الإسلام، لا يجوز للنبى ﷺ إغفاله، ولا تفويض الأمة فيه، بل يجب عليه تعيين الإمام للأمة بعده، وأن الإمام لابد أن يكون معصومًا من الكبائر والصغائر، وأن النبى ﷺ فعل ذلك، وعين «الإمام على بن أبى طالب» رضي الله عنه [1].

نقصد بـ «الشيعة» أولئك المسلمين الذين صار هذا المصطلح يطلق عليهم فى التاريخ، دون جدال، لتشيعهم (تحزبهم) للإمام على بن أبى طالب بوصفه صاحب الحق الشرعى (الالهى) بالخلافة بعد النبى مباشرة، ثم للمنحدرين من صلبه عموديا بالتسلسل المعروف. إن الشيعة الذين ينطبق عليهم هذا المفهوم، كانت لهم عدة انتفاضات وثورات فى تاريخ الصراع السياسى والمذهبى «والإيديولوجى»، منذ انتهاء عهد الراشدين وقيام الحكم الأموى حتى انتهائه. لكننا نريد هنا - بتحديد - أول ثورة للشيعة في وجه السلطة الأموية. بعد مقتل «الإمام علىّ» عليه السلام فى

1 - د. عبدالشافى محمد عبداللطيف - المرجع السابق ص37.

الكوفة بيد أحد الخوارج ونجاة معاوية من القتل الذى كان مكلفا به شخص آخر من الخوارج، كان يـرجو معاوية أن يسـتخلص الخلافة لنفـسه بالمداورة السياسـية بدل الحرب، وقـد تحقق له ذلك حين جـرت المصالحة بينه وبين الإمـام الحسن بن على عليهما السـلام الذى كان مفترضا أن يتولى الخـلافة بعد أبيه طبقا لمعتقـد الشيعة. قامت هذه المصـالحة على أن يتنازل الإمـام الحسن ﷺ عن حقه بالخـلافة لمعاوية شرط أن تكون له ـ أى للحـسن ـ بعد معاوية. ولكن هذا قـبل الشرط وهو يفكر بالأمر الذى كان قد اخـتطه لنفسه واعتزم التحضـير له. نعنى به إنشاء دولة أموية وراثية تمضى وراثة عرشـها فى من يأتى بعده من صلبه واحدا بعد واحـد. غير أنه كان يريد تجنب العـواصف التى ربما هزت عرشه هو بالذات، فبـايع الإمام الحسن ﷺ على شرطه ذاك مُكرها. «ولكن معاوية لم يكن ليـهدأ له بال والإمام الحسن ﷺ حى، وبيعته له قـائمة». ولعله أضمر فى نفسه أن يتـحلل من شرطه بطريقة ما، ليخلو له الطريق نحو تنفيذ الخطة المقررة لديه. وأن معاوية تخلص من الشرط فعلا بقتله الإمام الحسن ﷺ مسموما عام 49هـ ـ 669م. وبذلك اطمأن معاوية إلى مصير خطته بعد موت الإمام الثانى للشيعة، فقد وجد بذلك خلاصا من بيعته له، ولم يبق فى طريقه إلى نصب ولده يزيد وليا للعهد يرث عرشه من بعده سوى ما كـان يخشى أن يحدث من اسـتنكار كبار الصـحابة الباقيـن قيد الحيـاة يومذاك واستنكار الكثرة الغـالبة من الرأى العام العربى ـ الإسلامى لهـذا الأمر، لأنه بحد ذاته أمر جديد غريب فى الإسلام، ولأن يزيد نفسه غير لائق لهذا المنصب فى نظر المسلمين. ولكن معاوية كان من قوة السيطرة على الأمور بحيث يملك الجرأة على تحقيقه دون مبالاة لهذه المواجهة المحتملة. كان معاوية من الجراءة فى مواجهة الرأى العام العربى ـ الإسلامى بحيث أقدم على قتل فـريق من كبار صحابة النبى، أمثال حجر بن عـدى وأصحابه، دون مبالاة أيضا، بل لقـد تباهى بذلك وهو فى نشوة انتصار وشـماتة أثناء لقاء له مع الإمام الحـسين بن على ﷺ. وبمثل هذه الجراءة أعلن ابنه يزيد وليا لـعهده، فكان أول ولى عهـد فى الإسلام وهذه بدعة وسـابقة

خطيرة فى النظام السياسى والشريعة الإسلامية، وهى بداية الانحراف عن طريق الخلفاء الراشدين، ومنذ ذاك أصبح توريث منصب الخلافة تقليدا اتبعه سائر الخلفاء الأمويين والعباسيين وغيرهم حتى عهد الانقلاب العثمانى بالأستانة (استانبول) فى مطلع القرن العشرين (1908م)، سوى فترات تاريخية معدودة[1].

الإسلام والخروج على الحاكم

يقول الدكتور عبدالله النفيسى:[2]

تدور فى الأوساط الإسلامية نقاشات كثيرة حول مدى شرعية الخروج على الحكام، وبعض الذين يتصدرون العمل الإسلامى نلاحظ عليهم حماسًا مضاداً لكل فكرة تؤيد الخروج على الحكام. أكثر من ذلك فهم قد غلوا فى موقفهم واتهموا كل من لايرى رأيهم بالغباء وقلة الفقه والخروج عن الملة فى كتابات لبعضهم. ونحن ننصحهم ـ والدين النصيحة ـ بالابتعاد عن هذا الغلو ونطالبهم ـ كإخوة فى الله ـ أن يتقوا الله ويحذروه وألا يحسنوا الظن كثيراً بأنفسهم ويسيئوا الظن كثيرا بإيمان غيرهم. وإذا اختلفنا فى هذه القضية فليكن الخلاف رفيعًا. نحن نقف فى هذه القضية مع الذين يقولون بالخروج على الأنظمة الحاكمة فى أرض الإسلام. ونقف هذا الموقف استناداً إلى دليلين: الشرعى والعقلى.

الدليل الشرعى: يقول جل القائل فى كتابه الكريم:

﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ (المائدة: 44) ﴿فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ (المائدة: 48) ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ (النساء: 65) ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا﴾ (الجاثية: 18) ﴿وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ (المائدة: 49) ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا﴾ (المائدة: 50) ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾

---

1 ـ حسين مروة ـ النزعة المادية فى الفلسفة العربية ـ الإسلامية ص478.

2 ـ د. عبدالله فهد النفيسى ـ المرجع السابق ص141.

(النساء: 105) وعن عبادة بن الصامت رضى الله عنه: قال رسول الله ﷺ: **«سيلى أموركم من بعدى رجال يعرّفونكم ماتنكرون وينكرون عليكم ماتعرفون، فمن أدرك ذلك منكم فلا طاعة لمن عصى الله عز وجل»** رواه الحاكم والطبرانى وهو صحيح. وعن عبدالله بن مسعود رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«سيكون عليكم أمراء يؤخرون الصلاة عن مواقيتها ويحدثون البدع. قلت: فكيف أصنع؟ قال: تسألنى يا ابن أم عبد كيف تصنع؟ لا طاعة لمن عصى الله»**. رواه الطبرانى فى الكبير وهو حديث صحيح. وعن أبى سعيد الخدرى وأبى هريرة رضى الله عنهما قالا: قال رسول الله ﷺ: **«ليأتين عليكم أمراء يقربون شرار الناس، ويؤخرون الصلاة عن مواقيتها فمن أدرك ذلك منهم فلا يكونن عريفًا ولاشرطيًا ولا جانبيًا ولا خازنًا»** رواه ابن ماجة وسنده صحيح. وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال: قام فينا رسول الله ﷺ خطيبًا فكان من خطبته أن قال: **«ألا إنى أوشك أن أدعى فأجيب فيليكم عمال من بعدى يقولون ما يعلمون ويعملون بما يعرفون وطاعة أولئك طاعة، فتلبثون كذلك دهراً ثم يليكم عمال من بعدهم يقولون ما لا يعلمون ويعملون ما لا يعرفون فمن ناصحهم ووازرهم وشد على أعضادهم فأولئك قد هلكوا وأهلكوا، خالطوهم بأجسادكم وزايلوهم بأعمالهم واشهدوا على المحسن بأنه محسن وعلى المسىء بأنه مسىء»** رواه الطبرانى فى الأوسط والبيهقى فى الزهد الكبير وهو حديث صحيح. هذه مجموعة من أشهر النصوص التى وردت حول قضية الخروج على الحاكم ولأهل العلم فيها وجوه كثيرة. لكن قبل استعراض آراء الأئمة حول هذه القضية يجب علينا أن نوضح بعض النقاط الضرورية:

هذه النصوص التى ذكرنا إنما جاءت لتخاطب الواقع المسلم، واجتهادات الأئمة حولها إنما بنيت على أساس أنها ـ أى النصوص ـ إنما جاءت لتخاطب الواقع المسلم. وأن الحكام الذين كانوا يعاصرون الأئمة كانوا يحكمون بما أنزل الله

وأن أصحاب الآراء التى كانت توصف بالتطرف والتى كانت تنادى - آنذاك - بالخروج على حكام ذلك الزمان كانوا من أهل السنة والجماعة والمعتزلة والخوارج. فلم يكن يتصور الفقهاء وجود حاكم لايحكم بما أنزل الله بالصورة الكلية والشمولية. لم يكن يتصور الفقهاء وجود حاكم يتنكر لشرع الله ويتآمر على الإسلام وينكل بالمسلمين ويوالى أعداء الله. يقول ابن كثير فى معرض تفسير قوله تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ (المائدة: 50) «ينكر الله تعالى على من خرج عن حكم الله المحكم المشتمل على كل خير الناهى عن كل شر وعدل إلى ما سواه من الآراء والأهواء والاصطلاحات التى وضعها الرجال بلا مستند من الشريعة كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الضلالات والجهالات. فمن فعل ذلك منهم فهو كافر يجب قتاله حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله، فلا يحكم سواه فى قليل أو كثير». يعلق الشيخ عبدالعزيز بن باز على كلام ابن كثير هذا فى كتاب: «فتح المجيد» ص406 فيقول: «ومثل هذا وشر منه من اتخذ كلام الفرنجة قوانين يتحاكم إليها فى الدماء والفروج والأموال ويقدمها على ما علم وتبين له من كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ فهو بلا شك كافر مرتد إذا أصر عليها ولم يرجع إلى الحكم بما أنزل الله ولاينفعه أى اسم تسمى به ولا أى عمل من ظواهر أعمال الصلاة والصيام ونحوها». قال شيخ الإسلام ابن تيمية لما سئل عن قتال التتار مع تمسكهم بالشهادتين ولما زعموا من اتباع أصل الإسلام، قال: «كل طائفة ممتنعة عن الالتزام بشرائع الإسلام الظاهرة من هؤلاء القوم أو غيرهم، فإنه يجب قتالهم حتى يلتزموا شرائعه وإن كانوا مع ذلك ناطقين بالشهادتين وملتزمين بعض شرائعه (كالصلاة) كما قاتل أبو بكر والصحابة مانعى الزكاة وعلى هذا اتفق الفقهاء بعدهم. فأيما طائفة امتنعت عن بعض الصلوات المفروضات أو الصيام أو الحج أو عن التزام تحريم الدماء أو الخمر أو الميسر أو نكاح ذوات المحارم أو عن التزام جهاد الكفار أو غير ذلك من التزام

واجبـات الدين ومحرمـاته التى لا عذر لأحد فى جـحودها أو تركهـا والتى يكفر الواحد بجحودها فـإن الطائفة الممتنعة تقاتل عليها وإن كـانت مقرة بها وهذا مما لا أعلم فيـه خلافًـا بين العلماء. وهؤلاء عند المحـققين ليـسوا بمنزلة البـغاة بل هم خارجون عن الإسلام».

قال القاضى عياض «فلو طرأ عليه «أى الخليفة» كفر أو تغيير للشرع أو بدعة خرج عن حكم الولاية وسقطت طـاعته ووجب على المسلمين القيـام عليه وخلعه ونصب إمـام عادل» وهكذا نرى أنه ليس هنـاك أى تناقض بين آراء العلماء حـول مسألـة الخروج على النظام الحاكم فى حالة إعـراضه عن شرع الله فالكل مـجمع على ذلك كما نقل ابن تيمية هذا الإجماع وأشار إليه عندما قال: وهذا مما لا أعلم فيه خلافًا بين العلماء. هناك بعض الناس يسيئون فهم بعض الأحاديث لرسول الله ﷺ فمـثلا قوله ﷺ: «من قال لا إله إلا الله وكـفر بما يعبـد من دون الله، حرم ماله ودمه وحسابه على الله عز وجل» قال القاضى عياض حول ذلك: «اختصاص عصمة المال والنفس بمن قال لا إله إلا الله تعبير عن الإجابة إلى الإيمان وإن المراد بذلك مشركو العـرب وأهل الأوثان، فأما غيرهم ممن يقر بالتوحـيد فلا يكتفى فى عصمتـه بقول لا إله إلا الله إذ كان يقولها فى كفره». لقـد أجمع العلماء على أن من قال لا إله إلا الله ولم يعـتقد مـعناها، أو اعتقد مـعناها ولم يعمل بمقتـضاها يجب أن يقـاتل حتى يعـمل بما دلت عليه من النفى والإثـبات. يقول رسـول الله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ويقيموا الصـلاة ويؤتوا الزكاة فإذا فعلوا عصموا منى دماءهم وأمـوالهم إلا بحقها وحسـابهم على الله». قال النووى فى تعليـقه على الحديث: «فـيه وجوب قـتال مانعى الزكاة أو الصلاة أو غيرها من واجبـات الإسلام قليلا أو كثيرًا». ويقول ابن تيمـية: «اخـتلف العلمـاء فى الطائفة الممـتنعة إذا أصـرت على ترك بعض السنن كركـعتى الفـجر أو الأذان أو الإقـامة عند من لا يقـول بوجوبها ونـحو ذلك من

الشعائر، فهل تقاتل الطائفة الممتنعة على تركها أم لا؟ أما الواجبات أو المحرمات المذكورة ونحوها فلا خلاف فى القتال عليها وثبتت عن النبى ﷺ بما استقر عليه إجماع الصحابة من قتال الصديق لمانعى الزكاة وقتال الإمام علىّ عليه السلام للخوارج وكذلك ثبت عن النبى ﷺ من عشرة أوجه الحديث عن الخوارج والأمر بقتالهم وأخبر أنهم شر الخلق والخليقة مع قوله «تحقرون صلاتكم مع صلاتهم وصيامكم مع صيامهم» فعلم أن مجرد الاعتصام بالإسلام مع عدم التزام شرائعه ليس بمسقط للقتال، فالقتال واجب حتى يكون الدين كله لله، وحتى لاتكون فتنة، فمتى كان الدين لغير الله فالقتال واجب». والذين يرون عدم الخروج على الأنظمة الحاكمة يستدلون خطأ ببعض الأحاديث لرسول الله ﷺ. فمثلا هناك حديث يقول: [1]

«من رأى من أمير شيئًا يكرهه فليصبر فإنه من فارق الجماعة شبراً فمات فميتته جاهلية». هذا الحديث يطرح أمامنا عدة أسئلة: من هو الأمير المقصود فى هذا الحديث؟ ما هى نوعية الكره؟ ما هى حدود الصبر؟ وأى جماعة تلك المقصودة فى الحديث؟ هل هى الجماعة الكبرى أم الصغرى؟ من البديهى أن الأمير الذى ذكره الحديث هو الأمير المسلم، فهذا هو المعنى الذى يتماشى مع طبيعة الشرع، فمن ثم يجب على المسلم أن يطيعه لأنه ـ أى الأمير ـ متقيد بالشرع خاضع لأمره، لكن قد يرى المسلم منه مايكره أى بعض السلوكيات الخاطئة من قبل الأمير كحال الأمراء الأمويين والعباسيين هذا مبرراً شرعيًا للخروج عليه. ومن هنا فإن الصبر المعنى بالحديث هو الوسيلة لمحاصرة هذا الكره الذى ذكرنا مواصفاته، الكره الذى لاتتجاوز حدوده الفرد إلى حدود الجماعة. وعلى ضوء هذا الفهم يتبين لنا خطأ الذين يحاولون تطبيق هذا الحديث على الأنظمة الحاكمة التى تجثم فوق صدور المسلمين. والذين يرون عدم الخروج على الأنظمة الحاكمة يستدلون بحديث لست مطمئنًا لصحته يقول: «شرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم وتلعنونهم ويلعنونكم قلنا: يارسول الله أفلا ننابذهم؟ قال: لا، ما أقاموا فيكم الصلاة».

---

1 ـ د. عبدالله فهد النفيسى ـ نفس المرجع ص145.

وحتى لو كان الحديث صحيحًا فلا نفهمه بالصورة التى يحاولون من خلالها عرضه. يقولون، قال رسول الله ﷺ «ما أقاموا الصلاة» ويعتقدون أن المقصود هو أنه ما دام الحاكم يصلى ولايمنع من الصلاة فلا يجوز الخروج عليه. وهذا فهم قاصر وغير صحيح ولا يلتقى مع أقوال جمهور العلماء وبالأخص ابن تيمية فى أقواله التى دوناها فى الصفحات السابقة. فالتتار كانوا يقيمون الصلاة بل منهم من كان فقيهًا متعبدًا ومع ذلك جعل قتالهم واجبًا لإيمانهم بالياسق. والمقصود بالمنابذة - التى ورد ذكرها فى الحديث - هو نقض البيعة التى أعطاها الناس لهؤلاء الحكام والخروج عليهم. يقول سبحانه وتعالى فى كتابه الكريم: «وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء». أى أعلمهم بنقض العهد الذى بينك وبينهم. وفى الحديث إشارة واضحة إلى أن هناك بيعة أعطيت لهؤلاء الأمراء كى يقوموا بأمر المسلمين حسب كتاب الله وسنة رسوله، فالبيعة - ويجب أن تكون عن رضا واختيار لا عن إكراه وإجبار - هى الوسيلة الشرعية فى الإسلام لتولى السلطة السياسية ومادامت هناك بيعة بين الحاكم والمحكوم فمعنى ذلك أن الحاكم يجب أن يطاع لأن البيعة إلزام للحاكم بالتقيد بشرع الله وإلزام للمحكوم بطاعة هذا الحاكم فى حدود هذا الشرع. ومن هنا فإن الأمراء الذين طلب الصحابة منابذتهم والخروج عليهم كانوا يحكمون بما أنزل الله لكن سلوكهم الشخصى لايرضى المحكومين وأفعالهم تبيح لعنهم من قبل الناس ومن ثم هم يلعنون الناس كما يلعنونهم. وعلى ضوء هذا الفهم يتبين لنا أن المقصود بقول الرسول ﷺ (ما أقاموا الصلاة) ليس هو مجرد إقامة الصلاة فى حد ذاتها، وإنما لأن الواجب على الأمير المسلم أن يقيم فى الناس الصلاة ويخطب فيهم الجمعة، فهذا العمل صورة من صور الممارسة الشرعية لمسؤولياته فى الإسلام ومادام يقوم بهذا العمل وهذا يعنى أيضًا تقيده والتزامه بشرع الله لأجل ذلك لاتجوز منابذته، وليس المقصود - كما يفهم البعض - أنه مادام الحاكم يصلى ولايمنع الناس من الصلاة فلا يجوز الخروج عليه وإن لم يكن يلتزم شرع الله، فهذا الفهم يخالف مخالفة صريحة ما كان عليه

الصحـابة وأجمعـوا عليه وكذلك مـا أجمع عليـه الفقهـاء، وهل يعقل أن يكون المقصود بالحـديث هو الحاكم الذى يقيم الصلاة فقط دون بقـية أحكام الشرع؟ إن محاولة تطبيق هذا الحديث على حكام اليوم هى محاولة لدعم الباطل على حساب الإسلام، فـحكام اليوم وأنظمة هذا العالـم المترامى المسمى مجـازاً بالإسلامى لم يصلوا إلى الحكم بالطريق الشرعى (البيعة) بل فـرضوا أنفسهم على المسلمين بقوة الحديد والمال ودعم القوى الكافـرة المتربصة بالإسلام ودعاته الحقيـقيين. ومن هنا ينقطع الطريق أمـام دعاة الضلالة الذين يحـاولون ترقيع الجاهليـة بأحكام الإسلام وإلباس هذه الأنظمة الكافـرة ثوب الإمامة العادلة. لقد استـحلت هذه الأنظمة ما حرم الله فى كل قرار تصدره وفى كل خطوة تخطوها فهى ـ كما نلاحظ ـ لاتقوم على بيعـة وقد عطلت حق الأمة فى الشـورى ومراقبـة الحاكم وتسديده وترشـيده وعزله وأخذت تتوسع فى إباحة المحظورات الشرعية بل تيسر السبل والوسائل كى تنتشر هذه المحظورات وتسـود الواقع، والاستحلال كفر بإجـماع الأمة لا يخالف فى ذلك أحد وبالإضافة إلى ذلك استبـاحت دماء المسلمين وأموالهم وأعراضهم، فهل هناك براهين على الكفر الصريح أكثر من ذلك، إن حكام اليوم كفروا بما أنزل الله وأعرضوا عنه مهما لبسوا من أزياء الإسلام وهم يوالون أعداء الله وينصرونهم على جماهير الإسلام والمسلمين وينشرون الفساد فى الأرض ويقتلون الذين يأمرون بالقسط والعدل بين الناس. والجـماهير ـ لهفى عليها ـ اسـتسلمت لهذه الأوضاع المنحرفـة ودانت لها حتى صـبغت تصوراتها وسلوكـها وأخلاقـها بصبغـة الكفر، فـأصبـحت توالى الحكام وتهـتف لهم وتتقـرب منهم وتنصـرهم وتدعمـهم على حسـاب الإسلام وهى أولا وآخـرا لاتدرى ماذا يراد بهـا؟ وأصبحـت لاتحمل من الإسلام سوى اسمه. فهل هناك كفر أكثر بواحًا من هذا؟.

ويتابع الدكتور عبد الله النفيسى قوله:[1]

الدليل العقلى: إن المتأمـل فى واقع هذه الأنظمة الحـاكمة الـيوم فى أرض

---

1 ـ د. عبدالله فهد النفيسى ـ نفس المرجع ص151.

الإسلام تتكشف له حقيقة هامة: وهى أن هذه الأنظمة لم تتسلم زمام الأمور فى بلاد المسلمين اعتباطًا. هذه الأنظمة هى امتداد طبيعى للاستعمار الغربى الكافر، وإذا كان من الواجب الشرعى علينا أن نقاتل القوى الاستعمارية الغربية الكافرة حتى يكون الدين كله لله، فمن البديهى أن نقاتل هذه الأنظمة التى تعتبر الجبهة الأمامية لهذه القوى الغربية الاستعمارية الكافرة. ومن المؤسف أن تتخوف بعض الأوساط الإسلامية من الأساليب «الثورية» فى التغيير. وإذا كانت «الثورة» - كمصطلح - هى العلم الذى يوضع فى الممارسة والتطبيق من أجل تغيير المجتمع تغييرًا جذريًا شاملا - كالتغيير الذى أسسه وكرسه رسول الله ﷺ - والانتقال بالمجتمع من مرحلة معينة إلى أخرى متقدمة على صعيد تحقيق العدالة الاجتماعيه؛ إذا كانت «الثورة» - كمصطلح - تعنى ذلك وهى كما نعلم تعنيه، فليست الثورة إذن غريبة علينا كمسلمين ولسنا كمسلمين - أيضا - غرباء على الثورة. وإذا كانت الثورة تقف مع مجموع الأمة، وإذا كان مجموع الأمة يقف مع الثورة. فإنها لاشك ثورة حق لأن المصطفى ﷺ أكد أن الأمة لاتجتمع على ضلالة. وإذا كانت الثورة تنحاز انحيازًا تامًا لمصالح الأمة، ومطالبها، وللمستضعفين فيها، والجائعبن المعذبين، فإنها لاشك ثورة حق، لأن الهدف الأساسى من رسالات السماء إلى الأرض كان ومازال: تحقيق العدل والقسط وتحطيم الظلم والظالمين، يقول جل القائل ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾ [الحديد25]. ولم تكن هجرة المصطفى ﷺ فرارًا وهروبًا، بل كانت فعلا إيجابيًا فى طريق الثورة على المجتمع الظالم والقرية الظالمة والتحضير لها والتحريض عليها. والذين لايهجرون المجتمع الظالم لتغييره، والذين يأتلفون مع الظلمة هم ظالمون لأنفسهم وهو أشد أنواع الظلم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ (النساء: 97).

ذلك أن كونهم مستضعفين فى الأرض لايعفيهم من مسؤولية التغيير للظلم لأن منطقهم الاستسلامى هذا يعاكس إرادة الله سبحانه، تلك الإرادة التى صاغها القرآن الكريم فى آية واحدة: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ (القصص: 5). فإرادة الله أن تكون القيادة والإمامة للمستضعفين فى الأرض من أمة محمد ﷺ. وأن تكون لهم وراثة ما فى حوزة أوطانهم من ثروات وعلوم وإمكانيات. وإن الدعوة إلى الله وتوحيده ليست ولم تكن فى أى يوم من أيامها منفصلة عن قضايا الأمة وأوضاعها وهمومها وتطلعاتها إلى العدل والكرامة والحرية والارتفاع. لقد كان الأنبياء ـ صلوات الله عليهم ـ يدعون أممهم إلى العقيدة (التوحيد) لكن ينبغى التأكيد هنا أنهم كانوا يربطون هذه الدعوة بالمسائل والقضايا التى تهم أممهم. فدعوة شعيب ـ عليه السلام ـ ارتبطت بمشكلة اقتصادية ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ ﴾ (هود: 84) ﴿ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ (الشعراء: 16 ـ 17) ودعوة لوط ـ عليه السلام ـ ارتبطت بمشكلة اجتماعية: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾ (الشعراء 160 ـ 167). نلاحظ أن دعوة شعيب كانت موجهة ضد جشع التجار وضد أشكال الدناءة التجارية التى كانت شائعة فيهم ومازالت شائعة فى كثير من المجتمعات العصرية التجارية. نقص فى المكيال والميزان. ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴾ (المطففين: 1 ـ 3). كان هذا أمراً شائعًا فى مدين ـ قوم شعيب ـ رغم أنهم ـ أى هذه الطبقة من التجار ـ كانوا دومًا فى ازدهار «إنى أراكم بخير» يعنى بثروة وسعة فى الرزق تغنيكم عن

الدناءة وبخس حقوق الناس وأكل أموالهم بالباطل. فدعوة شعيب ـ إذن ـ لم تكن دعوة مجردة إنما جاءت باسم الله لتحارب واقعا اقتصاديا يقوم على الاستغلال والدناءة والابتزاز. ودعوة موسى كانت موجهة ضد الطاغوت والتسلط والعجرفة التاريخية التى كان يمثلها فرعون وما أكثر فراعنة عصرنا هذا. كان فرعون يستبيح كل الناس وكل الأرواح وكل النساء وكل الأطفال حتى قال يومًا «أنا ربكم الأعلى» ويأتى إليه موسى ـ رسولا من الله ـ ويقول له : أرسل معنا بنى إسرائيل لأن بنى إسرائيل كانوا ضحايا طغيان وجبروت فرعون. طلب منه ـ باسم الله ـ أن يرفع يده عن بنى اسرائيل ويخلى سبيلهم بأمر من الله. الموقف فيه مواجهة للطاغية وكل أشكال الطغيان السياسى. ودعوة لوط كانت مرتبطة بواقع اجتماعى منحل سقط سقوطًا ذريعًا، جاء لوط باسم الله ليهاجمه ويعلن المفاصلة معه.

وهكذا يقف أنبياء الله ورسله صفًا معارضًا للجشع التجارى والطغيان السياسى والتحلل الاجتماعى، وهى كما نلاحظ أخطر قضايا عصرنا هذا وبالأخص فى العالم الإسلامى. «إن الله أرسل رسله وأنزل كتبه ليقوم الناس بالقسط، وهو العدل الذى قامت به السماوات والأرض، فإذا ظهرت أمارات الحق، وقامت أدلة العقل، وأسفر صبحه بأى طريق كان؛ فثم شرع الله ودينه ورضاه وأمره، والله تعالى لم يحصر طرق العدل وأدلته وأماراته فى نوع واحد وأبطل غيره من الطرق التى هى أقوى منه وأدل وأظهر، بل بين بما شرعه من الطرق أن مقصوده إقامة الحق والعدل وقيام الناس بالقسط، فأى طريق استخرج بها الحق ومعرفة العدل وجب الحكم بموجبها ومقتضاها، والطرق أسباب ووسائل لاتراد لذواتها وإنما المراد غاياتها التى هى المقاصد، ولكن نبه بما شرعه من الطرق على أسبابها وأمثالها ولن تجد طريقًا من الطرق المثبتة للحق إلا وهى شرعية وسبيل للدلالة عليها. وهل يظن بالشريعة الكاملة خلاف ذلك؟»[1].

---

1 ـ د. عبدالله فهد النفيسى ـ نفس المرجع ص153.

تجاوز الصحابة، الاهتمامات الاجتماعية والثقافية، بينما كان التجمع السكانى الأبرز فى الحجاز (أى الأنصار) الذين كان لهم دورهم الطليعى فى تكوين الدولة الإسلامية يعانون القهر والفقر. وفى ضوء هذا الواقع، كان أهل الحجاز يتوقون إلى الخروج من هذه الدائرة الضيقة، ويجدون فى غياب معاوية، فرصة للعودة إلى الحياة الطبيعية والتعبير عن الرفض لأمور لم يجرؤوا على البوح بها خلال العهد الصارم. ولكن يبدو أن زعماء المعارضة فى «المدينة» أو بعضهم، على الرغم من الحصار السياسى المحكم، لم يعدموا نشاطات واجتماعات كانت تتم فى إطار من الكتمان والتمويه. وكان ثمة قاسم مشترك، قد وحد الموقف المرحلى للمعارضة الحجازية، هو إرجاء التحرك العلنى إلى وقت تتوفر فيه المعطيات الإيجابية، أو بمعنى آخر إلى ما بعد معاوية، الشخصية المؤسسة وغير العادية، والقابض بكلتا يديه على السلطة، ومعه رجاله الأقوياء و«استخباراته» الراصدة. ولقد عبر عن هذا الواقع، أحد زعماء هذه المعارضة، وهو الإمام الحسين بن على عليه السلام سبط رسول الله محمد ﷺ الإمام، فى معرض الرد على سليمان بن صرد الخزاعى (من كبار شيعة الكوفة) بقوله: «ليكن كل رجل منكم حلسًا من أحلاس بيته، ما دام معاوية حيًا، فإنها بيعة كنت والله لها كارهًا، فإن هلك معاوية نظرنا ونظرتم ورأينا ورأيتم). وهكذا فإن غياب معاوية كان مؤشراً للانفجار المرتقب، ذلك الذى تقادته المعارضة فى عهده، بعد إدراكها الثمن الباهظ والمكلف له بينما نجح مؤسس الدولة الأموية فى منعه أو تجميده، ولكن دون أن يستطيع ضمان هذا الأمر بعد رحيله، مجسداً هذه الهواجس فى وصيته الشهيرة السالفة الذكر.

مات معاوية عام 680 للميلاد، فتولى يزيد الملك بحكم كونه ولى العهد كما فرضه والده. كان الناقمون على ذلك كثيرين، ولكن أول معارضة لخلافة يزيد ظهرت من شيعة الإمام على بن أبى طالب عليه السلام فى الكوفة بعد أن علموا رفض إمامهم الثالث الإمام الحسين بن على سبط رسول الله محمد ﷺ الإمام فى مكة مبايعة يزيد بالخلافة، فأرسل هؤلاء إلى الإمام الحسين عليه السلام وفودا تدعوه باسمهم

إلى الشخوص نحو الكوفة ليقود انتفاضتهم على يزيد وعلى الخلافة الأموية ذاتها.
وقد استجاب الإمام الحسين عليه السلام لهذه الدعوة وأراد الخروج من مكة إلى الكوفة، فنهاه عبد الله بن عباس، وهو من كبار صحابة النبى ومن أبناء عمومة الإمام على ابن أبى طالب عليه السلام والد الإمام الحسين عليه السلام. قال ابن عباس للحسين: «اشخص إلى اليمن، فإنها فى عزلة، ولك فيها أنصار وإخوان، فأقم به وبث دعاتك».
ولكن الإمام الحسين عليه السلام رأى أن مقاومة يزيد والعرش الأموى أمر يجب أن ينهض به ما دام قد اجتمع له العنصر البشرى اللازم فى أهل الكوفة. وحين بلغ الإمام الحسين عليه السلام أرض العراق قاصدا الكوفة جاءه أن كثيرا من أنصاره الذين دعوه للمقاومة مؤكدين له عزمهم على الخروج تحت لوائه، قد ضعفوا عن تنفيذ وعدهم، لما واجههم به والى الكوفة عبيد الله بن زياد الموالى للأمويين، من إرهاب وتهديد للبعض ومن إغراء ورشاوى للآخرين. كان موقف الإمام الحسين عليه السلام هنا حرجا، فهو الآن بين أن يعود إلى الحجاز فيتهم بالضعف والنكوص عن أمر يراه واجبا عليه، وبين أن يمضى لقتال جيش يزيد ثيغامر بالنساء والأطفال الذين جاء بهم وبالقلة القليلة من أنصاره الذين صحبوه إلى غايته. ولكنه فضل الإقدام على الإحجام، ومضى فى سبيله حتى التقى جيش الأمويين فى كربلاء، وكانت تلك المعركة المثيرة المؤثرة التى انتهت بمقتل سبط رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم الإمام الحسين عليه السلام وأنصاره وبعض ولده، وبأسر الأطفال والنساء من أهله. (عام 61هـ/ 680م). هذه الثورة الإسلامية الأولى بوجه أول حاكم أموى بالوراثة، قد تبدو بحد ذاتها، وبهذا السرد البسيط لها، حادثة عادية ليس من شأنها أن تذكر فى مجال الكلام على الحركات التاريخية ذات التأثير فى مجرى تطور تاريخ الفكر.
ولكن هذا التبسيط للمسألة بعيد جدا عن الواقع التاريخى. ذلك لأن هذا الواقع نفسه يثبت، بما لايدع مجالا للشك، أن هذه الثورة الإسلامية لاتحدد تاريخيا بتلك المعركة السريعة وبنتائجها المباشرة، أى بذلك الانتصار الساحق الذى أحرزه جيش الأمويين فى معركة كربلاء (العراق) على تلك الجماعة القليلة (300 مقاتل) من أنصار سبط رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم الإمام الحسين بن على عليهما السلام، فى ساعات قليلة. إنما الذى يحدد هذه الثورة العلوية هو امتدادها الزمنى بعد معركة

اليوم العاشر من شهر محرم عام 61هـ ومصرع قائدها سبط رسول الله محمد ﷺ، وتحددها أيضا أبعادها السياسية والفكرية الممتدة عمقا واتساعا على مدى المرحلة التى نتحدث عنها. ليس يأتى أثر هذه الثورة، بكل عمقه وحركيته، من طابعها المأسوى، بل ينبغى للرؤية المعاصرة، غير المنفعلة بسخونة الحادث فى وقته، أن تخترق ظلال هذا الطابع المأسوى لتصل إلى العوامل الأقل إثارة وسخونة، إن رؤية يتوفر لها هذا الشرط تكتشف العوامل التالية[1]

العامل الأول: علينا أن نرى، بإمعان، أن مسألة تحويل معاوية لنظام الخلافة من واجهته «الشورورية» الراشدية إلى نظام الحكم الفردى الوراثى الملكى، لم تكن بالمسألة اليسيرة بحيث يمكن فرضها يومئذ دون حساب للمعارضة الإسلامية فى صفوف واسعة من الرأى العام الإسلامى. وإذا كان معاوية قد استطاع بفضل استخدام العنف والقوة المفرطة من جانب واستخدام المناورات السياسية وبذل المال لشراء الذمم من جانب، أن يجرى هذا التحويل دون أن تواجهه العاصفة أثناء حياته، فليس يعنى ذلك أن العاصفة لم تكن تحتمل فى دخائل المجتمع العربى - الإسلامى بانتظار أن تجد ما يدفعها إلى سطح الأحداث. نقصد أن جماهير من العرب والمسلمين، ومنهم كبار الصحابة وتابعوهم، لم يكن هينا عليهم أن يتقبلوا هذا الفعل من معاوية بالرضا والتأييد، كما كان يبدو الأمر فى الظاهر هنا أو هناك. بل نستطيع القول إن أجيالا مرت بعد ذلك من رجال الدين الإسلامى والمؤرخين والباحثين الإسلاميين، ظلوا حتى العصر الحاضر ينظرون إلى فعلة معاوية هذه نظرة إنكار، أو - بالأقل - نظرة مشوبة بعدم الرضا الحقيقى. يروى المقرى أن أحد فقهاء المسلمين المتأخرين جدا عن عصر الأمويين سئل عن سبب كون ملوك المسلمين لايسيرون على الطريق الصحيح ولا يبالون «عهدا ولا حرمة»، فأجاب: «ذلك لأن الملك ليس فى شريعتنا، ولم يجعل فى شرعنا إلا الخلفاء، فكان أبو بكر خليفة رسول الله ﷺ، وإن لم يستخلفه نصا، لكن فهم الناس ذلك

1 - حسين مروة - المرجع السابق ص480.

فهما، وأجمعوا على تسميته بذلك. ثم استخلف أبو بكر عمر فخرج بها عن سبيل الملك الذى يرثه الولد عن الوالد، إلى سبيل الخلافة الذى هو النظر والاختيار، ونص فى ذلك على عهده، ثم اتفق أهل الشورى على عثمان. فإخراج عمر لها عن بنيه إلى الشورى دليل على أنها ليست ملكا. ثم تعيّن الإمام علىّ ﷺ بعد ذلك «بالانتخاب والاختيار الشعبى» إذ لم يبق مثله، فبايعه من آثر الحق على الهوى واصطفى الآخرة على الدنيا. ثم الإمام الحسن ﷺ كذلك. ثم كان معاوية أول من حول الخلافة ملكا والخشونة لينا ثم إن ربك من بعدها لغفور رحيم، فجعلها (أى الخلافة) ميراثا، فلما خرج بها عن وضعها لم يستقم ملك فيها. ألا ترى أن عمر بن عبدالعزيز ـ رضى الله عنه ـ كان خليفة لا ملكا. فلم يسلك طريق الاستقامة قط إلا خليفة». نرى فى هذا الكلام من فقيه متأخر جدا عن عصر الأمويين أن فعلة معاوية بقيت تحز حزا عميقا فى نفوس المسلمين على مدى الأجيال. فإن كلام هذا الفقيه، كما هو واضح، ينضح بالمرارة المثيرة مما صنع معاوية بأمر الخلافة حين تحول بها إلى ملك وراثى، رغم مرور الأجيال الطوال. فكيف يكون شأن المسلمين إذن فى معاوية نفسه[1].

نجد من الأحداث التاريخية التى أقامت الدليل فى وضوح على أن الكسروية التى عناها عمر حسب تفسير ابن خلدون كسروية معاوية وهى «ما كان عليه أهل فارس فى ملكهم من ارتكاب الباطل والظلم والبغى، وسلوك سبله، والغفلة عن الله» هى التى اتضحت معالمها بعد رفض معاوية مبايعة الإمام على كرم الله وجهه، ووقف الحزب الأموى يقاومه بالسلاح، مدافعًا عن امتيازات الملك الجديد، كما تثبت ذلك مختلف الروايات القديمة، وكما يدعمه اتهام عمر لمعاوية بالكيد والخدعة فى جوابه على ما أعابه عليه. حدث أبو محمد الأموى، قال: «خرج عمر بن الخطاب إلى الشام، فرأى معاوية فى موكب يتلقاه، وراح إليه فى موكب، فقال له عمر: يا معاوية، تروح فى موكب وتغدو فى مثله، وبلغنى أنك تصبح فى منزلك، وذوو الحاجات ببابك! قال: يا أمير المؤمنين، إن العدو بها قريب منا،

1 ـ حسين مروة ـ نفس المرجع ص481.

ولهم عيون وجواسيس، فأردت يا أمير المؤمنين أن يروا للإسلام عزاً، فقال له عمر: إن هذا لكيد رجل لبيب، أو خدعة رجل أريب، فقال معاوية: يا أمير المؤمنين، مرنى بما شئت أصر إليه، قال: ويحك! ما ناظرتك فى أمر أعيب عليك فيه إلا تركتنى ما أدرى آمرك أم أنهاك!»[1].

ومن المعروف أن معاوية أول من اتخذ الحرس فى الإسلام، وكان أول من اتخذ ديوان الخاتم، ولم يخف تمرغه فى شؤون الدنيا، واعتزازه بالملك، فقد حدث عبدالله بن مسعدة بن حكمة الفزارى، قال: «انتقل معاوية من بعض كور الشام إلى بعض عمله، فنزل منزلا بالشام، فبسط له على ظهر إجّار مشرف على الطرق، فأذن لى، فقعدت معه، فمرت القطرات والرحائل والجوارى والخيول، فقال: يا ابن مسعدة، رحم الله أبا بكر! لم يرد الدنيا ولم ترده الدنيا، وأما عمر - أو قال: ابن حنتمة - فأرادته الدنيا ولم يردها، وأما عثمان فأصاب من الدنيا وأصابت منه، وأما نحن فتمرغنا فيها، ثم كأنه ندم فقال: والله إنه لملك آتانا الله إياه»، وروى عن عبدالملك بن عمير، قال: «أغلظ رجل لمعاوية فأكثر، فقيل له: أتحلم عن هذا؟ فقال: إنى لا أحول بين الناس وألسنتهم ما لم يحولوا بيننا وبين ملكنا»، وهو أول من اتخذ مجالس الغناء، وأنفق على المغنين - ولو كانوا فجرة - من أموال المسلمين[2]. هذه بعض مظاهر الملك الأموى الجديد، وقد أصبحت المحافظة عليه، وما يوفره لأهله ولأنصاره من جميع مظاهر الامتيازات تبرر جميع الوسائل مهما بلغت من العسف، والبشاعة، ومهما تناقضت مع مبادئ الدعوة الإسلامية، وقيمها، فهذا معاوية يوصى - وهو على فراش الموت - ابنه يزيد فى ولاية العهد له قائلا: «وأما الذى يجثم لك جثوم الأسد، ويرواغك مراوغة الثعلب، فإذا أمكنته فرصة وثب، فذاك ابن الزبير، فإن هو فعلها بك فقدرت عليه فقطعه إربًا إربًا»![3].

---

1 - الطبرى - ج5 ص331.
2 - د. الحبيب الجنحانى - المرجع السابق.
3 - د. الحبيب الجنحانى - نفس المرجع.

العامل الثانى: نضيف إلى ما تقدم كـون يزيد ذاته هو الذى قضت المصادفة أن يكون أول وريث لعرش مـعاوية وفقا لنظـامه الوراثى الجديد. فقـد لعبت هذه المصادفة دورا ملموسا فى ترسيخ جذور النقـمة الواسعة على ما أحدثه معاوية من تحويل لنظام الخلافـة، وفى أن يكون لانتفاضة الشيـعة تلك مع استشهـاد الحسين وهو يقاتل جيش يزيد امتدادها فى الزمن وفى الحـياة العامة وفى الحركات الفكرية معا. ذلك أن اختيار يزيد بعينه لتنفيذ عملية التحويل أول مرة، قد وضع فى أيدى الناقمين عـلى مبدأ «العملية» حـجة قوية تدعم نقمـتهم، وسلاحا عـمليا لمحاربة «المبدأ» نفسه. إذ لم يبق الأمـر محصورا فى نطاق الاعتراض الشـيعى بأن الخلافة حق «إلهى لعلى» وأبنائه، بل تجـاوزه إلى نطاق أهل السنة الذين يرون أن الخـلافة حق للمسلمين يختارون له من يجدونه الأصلح للاضطلاع بمهماته الخطيرة. ويزيد ابن معـاوية لم يكن له شىء من مؤهلات «الأصلح». فـهو ـ أولا ـ فـتى مطعون بسلوكه وسيرته، وهو ـ ثانيا ـ معروف بعبثه حتى بمبادئ الشريعة وشعائرها. وهو ـ ثالثا ـ يجهل طرق التصرف بالشـؤون العامة للدولة، وأن بينه وبين المهمات التى ولى أمرها لحاجـزا سميكا من العزلة المطلقـة ومن الانشغال بلهوه اليـومى التافه. وينبغى أن نضيف نـحن أمرا ـ رابعا ـ لعله لم يكن فى متناول الوعى الاجـتماعى يومئذ بـعد، ولكنه جزء من الواقع الموضوعى لايتـوقف وجوده على وعى الناس له. نعنى به أن يزيد كـان يحمل فى شخـصيـته وفى سلوكه الـذى ذكرناه ظاهرة نموذجية لما كـان عليه فتيان الطبـقة الارستقراطية الجـديدة من غطرسة على الناس ومن انغمـاس فى أسبـاب الترف المادى المبتـذل يبعـد بهم عن كل ما كـان يشغل جماهير الناس يومئذ من هموم الحيـاة الواقعية الجدية ومشكلاتها. فلا بد أن يكون لهذا الأمر أثر فى دخائل النفوس، وإن لم يكن قد تبلور وعيا اجتماعيا محدداً[1].

العامل الثالث: هو أن العاملين السابقين قد دفعا المسلمين ـ بعد مصرع سبط رسول الله مـحمد ﷺ الإمـام الحسـين بن على عليهمـا السلام بالأخص ـ أكـثر فأكثر، إلى شىء من المقارنة السلبية، سـواء بعقولهم أم بمحض مشاعرهم. مقارنة

---

1 ـ حسين مروة ـ المرجع السابق ص481.

رجل برجل: رجل كيزيد تلك شخصيته، ورجل كالحسين يعرفون له من الصلة بالنبى (وهو ابن بنت محمد فاطمة الزهراء)، ومن الانتساب لعلى بن أبى طالب أبيه، وهو الخليفة الراشدى الذى ينظر إليه المسلمون جميعًا نظرة تكريم وتقدير عاليين، ثم من المزايا الشخصية المفضلة التى يتحلى بها سبط رسول الله محمد ﷺ الإمام الحسين عليه السلام، ثم من المصير المأساوى الذى أقدم عليه بشجاعة هائلة دفاعا عن حق يعتقده ـ أقول: إنهم يعرفون للحسين من هذه الخصائص ما جعلهم يخرجون من المقارنة بكثير من الأسى العميق لا للمصير الفاجع الذى لقيه سبط رسول الله محمد ﷺ الإمام الحسين عليه السلام وحسب، بل كذلك أولا لإقدام جيش منسوب إلى الخلافة الأموية على قتله، وثانيا للصورة المؤثرة التى حدث بها الحادث، وثالثا للخلافة الإسلامية نفسها أن تتحول هكذا إلى أيدى سفاكى المجزرة الدموية والتطهير العرقى «افتتحوا» عهدهم الجديد هذا «الافتتاح» الرهيب الذى يقول عنه باحث معاصر من أتباع المذهب الأشعرى، بعيد عن الأثر بالانفعال الشيعى، بأنه حادث لم ير له المسلمون مثيلا، وأن المسلمين جميعا قد لعنوا يزيد بسبب مذبحة عام 61هـ. بل يقول هذا الباحث الأشعرى المعاصر أن مقتل سبط رسول الله محمد ﷺ الإمام الحسين عليه السلام كان «أكبر حادث فى تاريخ الإسلام السياسى والروحى» بتأثير العوامل الثلاثة السابقة وأمثالها مجتمعة، أخذت الثورة الإسلامية الشيعية هذه طريقها إلى الامتداد فى الزمن، فظهرت حينا بصورة ثورات دموية بدأت بثورة المختار بن أبى عبيد الثقفى بعد ثورة التوابين التى كانت تعبيرا مباشرا وعنيفا عن ندم أهل الكوفة لتخلفهم عن نصرة سبط رسول الله محمد ﷺ الإمام الحسين عليه السلام فى حربه لجيش يزيد، كما كانت تعبيرا غير مباشر عن أثر تلك العوامل التى أوردناها، فى نفوس المسلمين ثم ظهرت الثورة الإسلامية الشيعية هذه حينا آخر فى صورة حركات فكرية دينية[1].

وفى المقابل لم يكن خليفته يزيد ـ حسب الروايات أو معظمها ـ فى مستوى المهمة الكبيرة، بعد أن تجلى ذلك فى أسلوبه العقيم وقراره الارتجالى أمام الأزمات

---

1 ـ حسين مروة ـ نفس المرجع ص482.

الخطيرة، تلك التى عصفت بعهـده منذ أيامه الأولى. ويبدو أن يزيد الذى أظهرته الروايات، مقترنًا بالترف والمجون، ومستغـرقًا حتى العبث فى حياته الخاصة، كان ضحية شـخصيته الضعيفـة والمترددة، العاجزة عن ملء فراغ كبيـر تركه معاوية فى السلطة التى تسلمـها ومعهـا ميرات ثقيل مـن المشاكل، كان راكدًا فى عـهد والده القوى، لاسـيما مـشكلة الحكم نفسه الذى لم يكن قـد حسم بعد تمامـا أو اتخذ «الشرعية» المطلوبة[1].

ولعل الفشل الذى لاحق يزيدًا فى التصدى للموجـة الواسعة التى استهدفت حكمه، قد ترك تأثيره الواضح فى معرض التقويم لشخصيته التى ظلت حبيسة هذا التقزم، بالمقارنة مع شـخصية سلفه القوية. بالإضـافة إلى ذلك، فإن جرأته، التى بلغت حدود التهـور، فى القضاء على الحركات المناوئة، وضربه الرمـوز الإسلامية بمنتهى العنف، حين رأى فى هذه السياسة مدخلا إلى إثبـات حضوره السلطوى، كان حائلا دون تغير تلك الصورة القاتمة للخليـفة الأموى الثانى على مر العصور. وفى الوقت نفسه، فـإن المعارضة التى رفضت بصورة قاطعـة مبدأ الحكم الوراثى، لم تعطه الفرصـة لترسيخ أقـدامه فى السلطة، إذ سارعت زعـامتها الحـجازية إلى الطعن بشرعيتـه وعدم الاعتراف بخلافته، بعد أن أخـذت فى الانسحاب، واحدًا وراء الآخر إلى مكة تعبيرًا عن هذا الموقف، وتفـاديا لاستنزاف قوتها قبل الأوان، فى معركة جانبية مع ممثلى الخليـفة الجديد فى «المدينة»، حيث كانت لديهم الأوامر الحازمـة، بأخذ البيـعة طوعًا أو كـرهًا من أبناء الصحابة. فـقد اتخذت الحـاضرة الأولى للإسلام المبادرة إلى اتخاذ مـوقف علنى، على الرغم من المراقبة الشديدة، ذلك الموقف الذى عبر عنه اعتكاف أبناء الصحابة فى مكة التى كانت لها حصانتها الدينية، فضلا عن الجغرافية، مما كان يشجع على اتخاذها منطلق التحرك السياسى المضاد، منذ التجـاء الزبير وطلحة وعائشة إليها، فى أعـقاب مقتل عثمـان والبيعة لعلى. أما الثغرة الثـانية، التى كان متوقعًا أن تهب منهـا المتاعب على عهد يزيد، فقـد كانت فى العراق، حـيث الأسباب أكثـر تشجيـعًا على السلبيـة، والأحداث

1 ـ د. إبراهيم بيضون ـ المرجع السابق ص183.

اتخذت منحى، تجاوز الرفض والاحتجاج إلى الثورة الإسلامية الشعبية المسلحة. وعلى الرغم من ابتعاد الولايتين، إحداهما عن الأخرى، فقد كان ثمة تكامل فى الموقف السياسى للحجاز والعراق، انطلاقًا من بضعة قواسم مشتركة، جعلت من توحيده ضرورة ماسة. فالولاية الأولى، المفرغة من طاقاتها فى العهد السابق والمنكفئة على هامش الحياة السياسية، كانت لديها القدرة مع ذلك على استنهاض جمهور المعارضة، حيث كان اثنان من زعمائه على الأقل فى موقع الرفض المطلق للبيعة، وهم: سبط رسول الله محمد ﷺ الإمام الحسين بن على عليهما السلام وعبدالله بن الزبير، والثانية، كانت من خلال تكوينها السكانى والاقتصادى، أكثر احتواء للمعارضة الشعبية المهيأة للثورة، لاسيما حركة التشيع فى الكوفة. على أن بين الثغرتين، ثغرة ثالثة، ولكن لغير مصلحة المعارضة، كان معاوية قد أحسن استغلالها، جعلت من الحجاز قيادة من دون جماهير، ومن العراق جماهير من غير قيادة، بحيث كان يكمن فى هذه المفارقة، سر الاختلال الذى رافق المحاولات العديدة للقضاء على الحكم الأموى فى ذلك الوقت[1].

ثورة الحسين الإسلامية الكبرى

ثانى السبطين سيدى شباب أهل الجنة وريحانتى المصطفى، وأحد الخمسة أصحاب العباس وسيد الشهداء. أبوه الإمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه، وأمه سيدة نساء العالمين فاطمة الزهراء بنت رسول الله ﷺ.

ولن ترى فى العلا أما كفاطمة　　ولن ترى كعلى فى الفخار أبا

ولد رضى الله عنه فى المدينة فى الخامس من شعبان سنة أربع من الهجرة. تقول أسماء بنت عميس: بعد حول من مولد الحسن ولدت السيدة الزهراء الحسين، فجاءنى النبى ﷺ، فقال: يا أسماء هاتى ابنى، فدفعته إلى رسول الله محمد ﷺ فى خرقة بيضاء فاستبشر به وأذن فى أذنه اليمنى وأقام فى اليسرى، ثم وضعه فى حجره وبكى. قالت أسماء: فقلت : فداك أبى وأمى مم بكاؤك؟ قال: على ابنى هذا. قلت: إنه ولد الساعة. قال: يا أسماء تقتله الفئة الباغية لا أنالهم

1 ـ د. إبراهيم بيضون ـ نفس المرجع ص184.

الله شفاعتى. ثم قال: يا أسماء لاتخبرى فاطمة بهذا فإنها قريبة عهد بولادته. ثم قال لعلى: أى شىء سميت ابنى؟ قال: ما كنت لأسبقك باسمه يارسول الله وقد كنت أحب أن اسميه حربا. فقال الرسول: سمه حسينا، وهو اسم لم يكن لأحد قبله. وأن جبريل عليه السلام هبط، وقال: يا محمد، العلى القدير يقرئك السلام ويقول على منك بمنزلة هارون من موسى ولانبى بعدك سم ابنك باسم ابن هارون. قال وما اسم ابن هارون؟ قال: شبيبر. قال لسانى عربى يا جبريل. قال سمه حسينا. وروت أم الفضل بنت العباس رضى الله عنهما قالت: «دخلت على رسول الله ﷺ، فقلت يارسول الله رأيت البارحة حلما منكرا، قال: وماهو، قالت: رأيت كأن قطعة من جسدك قطعت فوضعت فى حجرى، فقال رسول الله ﷺ، خيرا رأيت، تلد فاطمة غلاما يكون فى حجرك فولدت فاطمة الحسين، قالت فكان فى حجرى كما قال رسول الله ﷺ، فدخلت به فوضعته فى حجره ثم حانت منى التفاته فإذا عينا الرسول ﷺ تدمعان فقلت بأبى أنت وأمى يارسول الله مايبكيك، قال جاء جبريل عليه السلام فأخبرنى أن أمتى ستقتل ابنى هذا.

وعن أم سلمة أنها قالت: «كان جبريل عليه السلام عند النبى ﷺ والحسين معى فغفلت عنه فذهب إلى النبى ﷺ فأخذه الرسول وجعله على فخذه، فقال له جبريل عليه السلام، أتحبه يا محمد، قال نعم، قال: أما إن أمتك ستقتله وإن شئت لأريتك تربة الأرض التى يقتل بها ثم بسط جناحه إلى الأرض وأراه أرضا يقال لها كربلاء، تربتها حمراء. وفى رواية: أن عبدالله بن عمر كان جالسا عند الكعبة مع زملاء له من المؤمنين فإذا به يلمح الإمام الحسين قادما على بيت الله، فقال ابن عمر لجلسائه «أتدرون من أحب أهل الأرض إلى أهل السماء اليوم، قالوا: لا، فقال ابن عمر: هذا القادم على بيت الله» وأشار إلى الإمام الحسين وكان يجالس القوم عراف من عراف البادية، فقال: «إذن فويل له من أهل الأرض، قالوا: ولماذا؟ قال: لأن موضعه فى السماء»، إنه لما كان اليوم السابع سماه حسينا وعق عنه بكبش وأمر أمه أن تحلق رأسه وتتصدق بوزن شعره فضة كما فعلت بأخيه الحسن فامتثلت ما أمرها به. وقيل إن الحسين لم يرضع من الزهراء ولا من غيرها

بل كان النبى ﷺ يضع إبهامه فى فيه فيمص منه ما يكفيه من اللبن ليومين أو ثلاثة فنبتت لحما للحسين من لحم الرسول ﷺ. يشبه الحسن فى مظهره البدنى رسول الله ﷺ، والحسين يشبه أباه عليا ويظهر أن هذا الشبه الجسدى كان معه أخلاق ممن يشبه، فالحسن أخذ من رسول الله جانب الحلم والعقل والصبر، والحسين أخذ من أبيه البأس والقوة والشجاعة والإقدام والمجاهرة. إن الإمام الحسن عندما جاءه أمر الخلافة وبايعه أهل الشرف من المسلمين ورأى أن الفتنة مستحكمة وأنها شديدة عالج الأمر كما رأينا بالصبر واضعا نصب عينه سلامة المسلمين وعدم إراقة الدم فاتفق مع معاوية وتنازل عن الخلافة، وقيل إن الإمام الحسين لم يوافق أخاه فى ذلك، فهنا كان عقل النبى، وهنا كان بأس على. وكانت السيدة الزهراء أشد ميلا إلى الحسين لتوافق نزعتهما إذ إنه كان صلب العود شديدا فى حقه، جريئا مقداما، وحدث أن كان الحسن والحسين يصطرعان، فكان رسول الله ﷺ يقول: (ويها ياحسين)، فقالت فاطمة: (يارسول الله لم تقول ويها يا حسين) فقال رسول الله ﷺ (إن جبريل عليه السلام يقول ويها ياحسين) [وويها كلمة إغراء وتحريض]، فسرى عن فاطمة رضى الله عنها وابتسمت حين عرفت ذلك. كنيته أبو عبدالله أما ألقابه فكثيرة منها: الرشيد، الطيب، الزكى والوفى، السيد، المبارك، السبط، والتابع لمرضات الله وأشهرها الزكى وأعلاها رتبة ما لقبه به ﷺ فى قوله عنه وعن أخيه «إنهما سيدا شباب أهل الجنة»، وكذلك السبط فإنه صح عن رسول الله ﷺ أنه قال: حسين سبط من الأسباط أى أمة من الأمم[1].

عن أبى هريرة قال: خرج علينا رسول الله ﷺ ومعه الحسن والحسين هذا على عاتقه، وهذا على عاتقه وهو يلثم هذا مرة وهذا مرة حتى انتهى إلينا، فقال له رجل يارسول الله إنك تحبهما، فقال من أحبهما فقد أحبنى ومن أبغضهما فقد أبغضنى. وعن عبدالله بن مسعود قال: كان رسول الله ﷺ إذا سجد وثب الحسن والحسين على ظهره فأرادوا أن يمنعوهما فلما قضى الصلاة ضمهما إليه وقال: من

---

1 ـ توفيق أبو علم ـ أهل البيت ص419.

أحـبنى فليحب هذين. وعن الحـسن بن أسـامة بن زيد بن حـارثة: أخبـرنى أبى أسامة. قال طرقت رسول الله ﷺ ذات ليلة لبـعض الحاجة فخرج النبى ﷺ وهو مشتمل على شىء لا أدرى ما هو فلمـا فرغت من حاجتى قلت ما هذا الذى أنت مشتـمل عليه فكشف فإذا حسن وحسـين على ركبتيه فـقال هذان ابناى وابنا بنتى اللهم تعلم أنى أحبهما فأحبهما، اللـهم تعلم أنى أحبها فأحبها. وعن الحسين بن على قـال: سمـعت جدى رسـول الله ﷺ يقول: «من أحب أن يحـيى حيـاتى ويموت مـيتتى ويدخل الجنة التى وعـدنى ربى فليتول عـلىّ بن أبى طالب وذريته الطاهرين أئمـة الهدى ومصـابيح الدجى من بعـده، فإنهم لن يخـرجوك من باب الهـدى إلى باب الضلالـة». وعن على بن أبى طالب قـال: قال رسـول الله ﷺ تحشر ابنتى فاطمـة يوم القيامة ومعها ثيـاب مصبوغة بدم فتتـعلق بقائمة من قوائم العرش فـتقول يا عدل ياجـبار احكم بينى وبين قاتل ولدى، قـال رسول الله ﷺ فيـحكم الله لابنتى ورب الكعبة. قـال الرسول ﷺ: «بى أنذرتم ثم بعلى بن أبى طالب اهتديتـم وقرأ (إنما أنت منذر ولكل قوم هاد)، وبالحـسن أعطيتم الإحـسان وبالحسـين تسعدون وبه تشـقون، ألا وإن الحسيـن باب من أبواب الجنة من عانده حرم الله عليه رائحـة الجنة» وعن جابر بن عبدالله قال: سـمعت رسول الله ﷺ يقول: «من سره أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة، وفى لفظ إلى سـيد شباب أهل الجنة فلينظر إلى الحـسين». وعن أبى هريرة قـال: «رأيت رسول الله ﷺ يـمتص لعاب الحسـين كما يمتص الرجل التمرة». وعن زيد بن زيـاد قال: «خرج رسول الله ﷺ من بيت عائشـة فمر على بيت فـاطمة فسـمع حسينًا يبكى فـقال: «ألم تعلمى أن بكاءه يؤذينى». وروى أحمـد أن بلالا أبطأ عن صلاة الصبح، فـقال له النبى ﷺ، ما حسبك؟ قال: مـررت بفاطمة وهى تطحن والصبى يبكى فقلت إن شئت كفيتك الرحى، وإن شئت كفـيتك الصبى، فقالت أنا أرفق بابنى منك فذاك يارسول الله الذى حبسنى عنك.

خرج الرسـول ﷺ فى ليلة لصـلاة العشاء وهو حـامل الحسـين رضى الله عنه، فوضعه ثم كـبر للصلاة فأطال سجدة الصلاة، قـال راوى الحديث: فرفعت

رأسى فإذا الصبى على ظهر رسول الله وهو ساجد، فرجعت إلى سجودى فلما قضى الصلاة، قيل يارسول الله: إنك سجدت بين ظهرى صلاتك سجدة أطلتها حتى ظننا أنه قد حدث أمر أو أنه يوحى إليك، قال: «كل ذلك لم يكن، ولكن ابنى ارتحلنى فكرهت أن أعجله». وعن أبى الزبير، عن جابر، قال: دخلت على رسول الله ﷺ وهو يمشى على أربع وعلى ظهره الحسن والحسين وهو يقول: «نعم الجمل جملكما ونعم العدلان أنتما» ومر الرسول عليهما وهما يلعبان، فطأطأ لهما عنقه وحملهما، وقال: «نعم المطية مطيتهما ونعم الراكبان هما». ويقول الرسول ﷺ: «أحشر أنا والأنبياء فى صعيد واحد، فينادى معاشر الأنبياء، تفاخروا بالأولاد فأفتخر بولدى الحسن والحسين». وعن حذيفة بن اليمان رضى الله عنه قال: رأيت رسول الله ﷺ آخذًا بيد الحسين بن على وهو يقول: «أيها الناس هذا حسين بن على فاعرفوه، فوالذى نفسى بيده لجد الحسين أكرم على الله من جد يوسف بن يعقوب، هذا الحسين جده فى الجنة، وأبوه فى الجنة وأمه فى الجنة، وعمه فى الجنة، وعمته فى الجنة، وخاله فى الجنة، وخالته فى الجنة، وأخوه فى الجنة، وهو فى الجنة».

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال: كنا مع رسول الله ﷺ وإذا بفاطمة رضى الله عنها قد أقبلت تبكى، فقال لها النبى ﷺ: «مايبكيك؟ لا أبكى الله لك عينًا»: يا أبت، إن الحسن والحسين قد ذهبا منذ اليوم ولم أعلم أين ذهبا، وإن عليًا مشى على الدالية منذ خمسة أيام ليسقى البستان، وقد استوحشت لهما، قال ﷺ لها: «لاتبكين، فإن خالقهما ألطف بهما منى ومنك» ثم قال: «يا أبا بكر، اذهب فاطلبهما، وأنت ياسلمان» ولم يزل يوجه حتى مضت طائفة فى طلبهما، فرجعوا ولم يصيبوهما فاغتم النبى ﷺ، ثم قام ووقف على باب المسجد وقال: «إلهى بحق إبراهيم خليلك وبحق آدم صفوتك، إن كان قرتا عينى فى بر، أو بحر، أو سهل، أو جبل فاحفظهما وسلمهما لأمهما فاطمة سيدة نساء العالمين» فنزل الأمين جبريل وقال: «السلام عليك يارسول الله، الحق يقرئك السلام ويقول

لك: لاتحزن ولاتغتم، الغلامان هما الفاضلان فى الدنيا والآخرة وهما سيدا شباب أهل الجنة، وإنهما فى حديقة بنى النجار، وقد وكلت بهما ملكا يحفظهما، إن قاما أو قعدا أو ناما أو استيقظا» ففرح النبى ﷺ فقام ومعه صحابته حتى دخل الحديقة فوجدهما نائمين، فجثا النبى ﷺ على ركبتيه وانكب عليهما يقبلهما، ويقول: «حبيبى، حبيبى» حتى استيقظا فحملهما النبى ﷺ على كتفيه، الحسن على عاتقه الأيمن والحسين على عاتقه الأيسر، وكان يقول كلما قبلهما: «من أحبكما فقد أحبنى، ومن أبغضكما فقد أبغضنى» فقال أبو بكر رضى الله عنه: «أعطنى أحمل أحدهما يارسول الله» قال: «نعم المطى مطيهما، ونعم الراكبان هما» ولم يزل النبى ﷺ سائراً حتى دخل المسجد وبعث بهما إلى ابنته فأخذتهما الروحة والهزة وتولاها السرور والحبور. وعن أم أيمن، قالت: جاءت فاطمة إلى النبى ﷺ، فقالت يارسول الله أنحلهما، قال: «نحلت هذا الكبير المهابة والحلم، ونحلت هذا الصغير المحبة والرضا»، وبفضل هذه النحلة النبوية ترى الناس فى كل قرن مجمعين على محبته منكبين على التقرب من حضرته[1].

يظهر فى قانون الوراثة بأنها على صنفين وراثة تاريخية ووراثة تأثرية أو انفعالية ونعنى بالأولى انتقال الصفات النفسية التى للأجداد إلى المولود وبالثانية انتقال أنواع الشعور التى تتأثر بها الأم إلى الجنين. هذا الصنف من الوراثة ثابت الأثر وهو قانون طبيعى تخضع له جميع قوى الإنسان ومداركه المادية والعقلية والأدبية وما يسمى اليوم بالجينات الوراثية فقد اكتشفته الهندسة الوراثية، فقد مال آل هاشم منذ أقدم التاريخ إلى التدين والتخصص بالشؤون الدينية فكانوا يشرفون على المناسبك فى الجاهلية ويتولون أعمالها بين أيدى الناس، وكان لهم بحكم هذا التخصص تربية خاصة تتصل اتصالا وثيقًا بإبداع الضمير الدينى وإزكاء الشعور ذى اللون التألهى، وبالفعل نرى أكثر رجالاتهم فى الجاهلية يضفو عليهم شعور من هذا القبيل، فهاشم وعبدالمطلب وأبو طالب ثلاثتهم على لون واحد من الأخذ

---

1 ـ توفيق أبو علم ـ نفس المرجع ص432.

الدينى والانتزاع الاجتماعى، وقد كـملت الوراثة الدينية برسول الله محمد ﷺ إذ كان مظهراً للضمير الدينى على أتم أشكاله وأكمل أوضاعه، فالحسين كان إذاً غنيا ما فى ذلـك شك بما تراكب فى دمه من الوراثات الدينيـة المتصلة على طـول حبل النسل الممدود فى أعماق الماضى البعيد، ولقد كان لهذه الوراثة بواد ظاهرة فى كل تصرفـات الحسـين الخاصة والعـامة مما يضـفى من أحاسيس تنزع بصـاحبـها إلى المحافظة والتمسك بأهداب المثل وإيقاع الجهود بسبيل صيانتها[1].

نعلم أن السيدة فـاطمة وضعت الحسـين ولها من العمر عشـرون عامًا وهى لاتفتأ جاهدة على أعـمال التقوى فمن ناحية أثر الوراثة التـأثرية ففى العام الثالث للهجرة كان فيها الحسين جنينا وقعت غزوة أحد وهذه أحدثت أبلغ الأسى وأعمقه فى النفوس عـامة ونشرت على الـوجوه نوعا من الكآبة ومـسحتـها بسحـابة قاتمة بسبب ما أصاب المسلمين والنبى أصيب بعمه حمزة (رضي الله عنه) وجزعت السيدة فاطمة من نتـائج هذه الغـزوة وأدركـها الأسى الـعمـيق والحـزن المرير، ومـعنى هذا أن الانفعـالات التى تأثرت بها ورثتهـا لجنينها وهى أخـذ النفى بأعمال البـر والتعلق بحبائل التقـوى، وغلبة الشعور بنوع من الأسى، فقد كـانت هذه الظاهرة واضحة عند الحسـين فى حيـاته ولذا نراه قليل المرح قليل العـبث كثيـر التفكيـر بمستـقبل الإسلام والأمة الإسلامية، ولاشك أن السيدة فاطمة قد ملك مشاعرها للانتقام من أعداء أبيها وهذا الشعور ورثه الحسين وشاءت الظروف أن يكون أعداء جده رسول الله ﷺ الذين وتروه فى أحد كفار قريش وزعيمهم أبو سفيان الأموى، هم أعداء الحسين يوم استقبل الأمويين معـاوية وابنه يزيد بالكفاح وقد وتروه أيضا، فالحسين كان مـثقلا بمتـارك الوراثة التأثرية والتاريخـية الدينية وهو من بيـن هاتين الوراثتين كانت له سـيرته الخـاصة ينزل منه منزلة الطبع لايجـور ولا يحول وسـاعدته لون التربية فى الطفولة ومشاهد الرجـولة ومروره بعدة ثورات لها خطرها كالثورة على عثمـان وثورة الخوارج على أبيه وثورة أهل المدينة فـهذه الوراثة وما اقتـرن بها من

1 ـ عبدالله العلايلى ـ نفس المرجع ص290.

التربية والمشاهدات أعـدت منه رجلا كبيراً خليقا بأن يـقوم بتطبيق أفكار الإصلاح الشامل التى أعـدها جده العظيم رسـول البشرية مـحمـد ﷺ ووالده الإمام على رضي الله عنه[1].

حفل رسـول الله ﷺ بمولوده الحسـين، ثم انصرف إليه يـمارس فيـه عمل الإنسان الكامل حتى إذا تركـه ترك فيه إنسانية رفـيعة على الشكل الذى وضع الله تصميمه فى القرآن، فالنبى ﷺ كان يحـاول أن يفرغ ما انطوت عليه نفسه الكبيرة من مكنونات إفراغًا فى روح الفـتى الحسين بأسلوب كما تشـاء الطفولة يجمع بين طراوتها وبين جد المعنى الكبير الذى يعده له وكان يعمل على أن ينقضى فى رقعة نفس الفتى الحسين ما اجتمع فى رقعـة نفسه وإنما استوى فى نفسه (ﷺ) الإنسانية المثالية الأتم للحق والإيمـان، فالمربت النبوى أخرج اثنين فقط كان أحـدهما مثالا لكلمة الحق الهادئة وكان الآخر مثالا لتلك الكلمة أيضا ولاتجلو طبيعة الإنسان إلا صرخـة الحق المدوية، وأراد النبى (ﷺ) أن يشيع الغرض التـربوى فى نفس الفتى الحسين وكذلك الإمام على (رضي الله عنه) من بعده الذى ما فتئ يمـده بالمعنوية المتدفقة، فأدبيـات الإسلام ومـثاليـاته عادت فى نفس الأب من الصنف اللاإرادى، فـالنبى (ﷺ) كذلك أراد سبطـه فبارك طفولته وأخـذه بضرب من التهذيب العـميق الذى كانت له نتائج مثلى. فالحسين (رضي الله عنه) عايش جده إلى ما بعـد السادسة من عمره ولاريب فى أنها سن تسمح لصاحبها بأن ينقل إلى دخيلة نفسه كثيراً من مشاهداته يساعده على ذلك الخلو النـفسى وهذه المشاهدات تركت فى نفسه آثاراً لهـا شأنها ولها خطـرها. وإذا نظرنا إلى أن النبى (ﷺ) علقه وأخـاه حتى عـدهما ريحـانته وقفنا على مـقدار ما زودهما به النبى (ﷺ) من آيات تربيـته العالية ومـا أغدق به عليهما من هبات نفسه الكبيرة. والظاهرة البادية فى تربية النبى التى كانت لاتخفى حتى كأنهـا المدار التربوى هى الأخلاق والأخلاق قبل كل شىء فـهى عامل تقدم وبقاء. وقد عنيت فاطمـة بالحسين ببث المثل الإسلامية الاعتقادية لـتشيع فى نفسه

---

1 ـ عبدالله العلايلى ـ الإمام الحسين ـ ص280.

فكرة الفضيلة على أتم معانيها وأصح أوضاعها فالسيدة فاطمة أنمت فى نفسه فكرة الخيـر والحب المطلق والواجب ومدت فى جوانحـه وخوالجه أفكار الفضـائل العليا بأن وجهت المبادئ الأدبية فى طبيعته الوليدة من أن تكون هى نقطة دائرتها إلى الله الذى هو فكرة يشترك فيها الجميع[1].

أخلاق الحسين: كان ملء العين والقلب مـن خلق وخلق وفى أدب وسيرة وكانت فيه مـشابهة من جده وأبيه إلا أنه كان فى شدته أقـرب إلى أبيه. وقد كان الغالب على الحـسن الحلم والأناة كالرسول ﷺ، وعلى الحـسين الشدة، كـالإمام والده، وكان كثيـر الصوم والصلاة والحج، وحج الحسين بن على عليـهما السلام خمسًـا وعشرين حجة مـاشيًا على قدمـيه وكان يجالس المساكـين ويقرأ: (إن الله لايحب المتكبرين)، ومر على صبيان معهم كسرة، فسألوه أن يأكل معهم فأكل ثم حملهم إلى منزله فأطعمهم بعض ما أقدر عليه. وروى أن أعرابيًا من البادية قصد الحسين عليه السـلام، وكان جالسًا فى مسجد الرسول ﷺ فـسلم عليه، فرد عليه السلام وقال: «يا أعرابى فـيم قصدتنا» قال: قصدتك فى دية مـسلمة إلى أهلها، قال: «أقصدت أحدًا قبلى» قال عتبة بن أبى سفيان فأعطانى خمسين دينارًا فرددتها عليه، وقلت: لأقصدن من هـو خير منك وأكرم، فقال عتـبة: ومن هو خير منى وأكرم لا أم لك، فقلت: إما الحسن بن على، وإما عبدالله بن جعفر. وقد أتيتك بدءًا لتقيم بهـا عمود ظهرى وتردنى إلى أهلى. فقال الحسـين: «والذى فلق الحبة وبرأ النسمة، وتجلى بالعظمة ما فى ملك ابن بنت نبـيك إلا مئتا دينار فأعطه إياها يا غلام، وإنى أسائلك عن ثـلاث خصال إن أنت أجبتنى عنهـا أتممتها خمـسمائة دينار، وإن لـم تجبنى ألحقتك فـيمن كان قبلى. فقال الأعرابى: أكل ذلك احـتياجًا إلى علمى، أنتم أهل بيـت النبوة ومـعـدن الرسالة، ومـختـلف الملائكة. فقـال الحسـين: لا، ولكن سمـعت جدى رسـول الله ﷺ يقول «أعطوا المعـروف بقدر المعرفة»؟ فـقال الأعرابى: فسل، ولا حـول ولا قوة إلا بالله. فقال الحسـين: ما

---

1 ـ عبدالله العلايلى ـ نفس المرجع ص285.

النجاة من الهلكة؟ فقال: التوكل على الله. فقال: أى الأعمال أفضل؟ قال: الثقة بالله. قال: أى شىء خير للعبد فى حياته؟ قال علم معه حلم. قال: فإن خانه ذلك؟ قال: مال يزينه سخاء وسعة. فقال: فإن أخطأه ذلك؟ قال: الموت والفناء خير له من الحياة والبقاء. وناوله الحسن خاتمه وقال: بعه بمائة دينار، وناوله سيفه وقال: بعه بمائتى دينار، واذهب فقد أتممت لك خمسمائة دينار. فقال الأعرابى:

طربت وما هاج لى معبق	وما بى سقام ولا موبق
ولكن طربت لآل الرسول	ففاجأنى الشعر والمنطق
فأنت الهمام وبدر الظلام	ومعطى الأنام إذا أملقوا
أبوك الذى فاز بالمكرمات	فقصر عن وصفه السبق
وأنت سبقت إلى الطيبات	فأنت الجواد وما نلحق
بكم فتح الله باب الهدى	وباب الضلال بكم مغلق

وجاءه رجل من الأنصار يريد أن يسأله حاجة فقال يا أخا الأنصار صن وجهك عن ذلة المسألة وارفع حاجتك فى رقعة فإنى آت فيها ما هو سارك إن شاء الله، فكتب يا أبا عبد الله إن لفلان على خمسمائة دينار، وقد ألح بى فكلمه أن ينظرنى إلى ميسرة، فلما قرأ الحسين رضى الله عنه الرقعة دخل إلى منزله فأخرج صرة فيها ألف دينار وقال له: «أما خمسمائة فاقض بها دينك، وأما خمسمائة فاستعن بها على دهرك ولاترفع حاجتك إلا إلى ثلاثة إلى ذى دين أو مروءة أو حسب، فأما ذو الدين فيصون دينه، وأما ذو المروءة فإنه يستحى لمروءته، وأما ذو الحسب فيعلم أنك لم تكرم وجهك أن تبذله فى حاجتك فهو يصون وجهك أن يردك بغير قضاء حاجتك». ولما أخرج مروان بن الحكم الأموى الفرزدق من المدينة أتى الفرزدق الحسين رضى الله عنه فأعطاه الحسين أربعمائه دينار، فقيل له إنه شاعر فاسق فقال إن خير مالك ما وقيت به عرضك، وقد أثاب رسول الله ﷺ كعب بن زهير وقال فى العباس بن مرداس اقطعوا لسانه عنى. وروى ابن عساكر

فى تاريخ دمشق أن سائلا خرج يتخطى أزقة المدينة حتى أتى باب الحسين فقرع الباب وأنشأ يقول: (1)

لم يخب اليوم من رجاك ومن حرك من خلف بابك الحلقة

فأنت ذو الجود أنت معدنه أبوك قد كان قاتل الفسقة

وكان الحسين واقفًا يصلى فخفف من صلاته وخرج إلى الأعرابى فرأى عليه أثر ضر وفاقة فرجع ونادى بقنبر فأجابه: لبيك يا ابن رسول الله ﷺ، قال ما تبقى معك من نفقتنا؟ قال مائتا درهم أمرتنى بتفريقها فى أهل بيتك، فقال هاتها فقد أتى من هو أحق بها منهم فأخذها وخرج يدفعها إلى الأعرابى وأنشأ يقول:

خذها فإنى إليك معتذر واعلم بأنى عليك ذو شفقه

لو كان فى سيرنا عصا تمد إذن كانت سمانا عليك مندفقه

لكن ريب الزمان ذو نكد والكف منا قليلة النفقه

فأخذها الأعرابى وولى وهو يقول:

مطهرون نقيات جيوبهم تجرى الصلاة عليهم أينما ذكروا

وأنتم أنتم الأعلمون عندكم علم الكتاب وما جاءت به السور

وجاءه رجل من العرب أخنى عليه الدهر يستجديه بقوله:

لم يبق عندى ما يباع ويشترى يكفيك ظاهر منظرى عن مخبرى

إلا بقية ماء وجه صنته عن أن يباع ونعم أنت المشترى

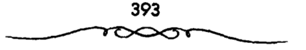
فأعطاه رضى الله عنه ما بيده وقال

عاجلتنا فأتاك عاجل برنا نزرًا ولو أمهلتنا لم نقتر

فخذ القليل وكن كأنك لم تكن بعت المصون وأننا لم نشتر

---

1 ـ عبدالله العلايلى ـ نفس المرجع ص289.



جاء رجل إلى أخيه الحسن يستعين به فى حاجته فاعتذر باعتكافه فذهب إليه فقضى حاجته، وقال: لقضاء حاجة فى الله عز وجل أحب إلى من اعتكافى شهرا. ويقول فى ذلك: «اعلموا أن من نعم الله عليكم حوائج الناس إليكم فلا تملوا من تلك النعم فتعود نقمًا واعلموا أن المعروف يكسب حمدًا ويعقب أجرًا فلو رأيتم المعروف رجلا لرأيتموه رجلا جميلا يسر الناظرين، ولو رأيتم اللؤم رجلا لرأيتموه رجلا قبيح المنظر تنفر منه القلوب وتغض دونه الأبصار»[1]

تواضعه وزهده: كان الإمام الحسين سيدًا زاهدًا ورعا صالحا ناصحا حسن الخلق، ذهب ذات يوم مع أصحابه إلى بستانه وكان فى ذلك البستان غلام له، اسمه صافى، فلما قرب من البستان رأى الغلام قاعدًا يأكل خبزًا، فنظر الحسين إليه وجلس عند نخلة مستترًا لايراه، فكان يرفع الرغيف فيرمى بنصفه إلى الكلب ويأكل نصفه الآخر، فتعجب الحسين من فعل الغلام، فلما فرغ من أكله قال: «الحمد لله رب العالمين، اللهم اغفر لى واغفر لسيدى وبارك له كما باركت على أبويه برحمتك يا أرحم الراحمين». فقام الحسين، وقال: ياصافى!! فقام الغلام فزعًا، وقال: يا سيدى وسيد المؤمنين، إنى ما رأيتك فاعف عنى فقال الحسين: اجعلنى فى حل ياصافى لأنى دخلت بستانك بغير إذنك. فقال صافى: بفضلك ياسيدى وكرمك وسؤددك تقول هذا.

فقال الحسين: رأيتك ترمى بنصف الرغيف للكلب وتأكل النصف الآخر فما معنى ذلك؟ فقال الغلام: إن هذا الكلب ينظر إلى حين آكل فأستحى منه يا سيدى لنظره إلى، وهذا كلبك يحرس بستانك من الأعداء فأنا عبدك وهذا كلبك فأكلنا رزقك معا. فبكى الحسين وقال: أنت عتيق الله وقد وهبت لك ألفى دينار بطيبة من قلبى. ومر الحسين رضى الله عنه بمساكين وهم يأكلون كسرًا على كساء فسلم عليهم فدعوه إلى طعامهم، فجلس معهم وقال: لولا أنه صدقة لأكلت معكم،

---

1 ـ توفيق أبو علم ـ المرجع السابق ص442.

ثم قال قوموا إلى منـزلى فأطعمهم وكساهم وأمر لهم بدراهـم. ومر عليه السلام بمساكـين يأكلون فى الصفـة، فقالوا الـغذاء فنزل وقال إن الله لايحب المـتكبرين فتغذى، ثم قال لهم قد أجبتكم فـأجيبونى قالوا نعم فمضى بهم إلى منزله، وقال للرباب أخرجى ما كنت تدخرين»[1].

عبادته وعاداته: الإمام الحسين رضى الله عنه، رجل متعبد، طيب القلب، نقى الضمير فاضلا، كثير الصـوم والصلاة والحج والصدقة وفعل الخير، وقد كان يصلى فى اليوم والليلة ألف ركعة. وقد روى ابن عـبد ربه فى العقد الفريد: قيل لعلى بن الحـسين: ما كـان أقل ولد أبيك، قـال: العجب كيف ولـدت له، كان يصلى فى اليوم والليلة ألف ركعة فمتى كان يتفرغ للنساء.

أما عاداته فى معيشته فكان ملاكها: لطف الحس وجمال الذوق والقصد فى تناول كل مباح. وروى أنس بـن مالك أنه كان عنده، فدخلت عليـه جارية بيدها طاقة من ريحان فحـيته بها. فقال لها: «أنت حرة لوجـه الله تعالى». فسأله أنس متعجبًا: «جـارية تجيئك بطاقة ريحان فتعتقـها؟». قال: كذلك أدبنا الله، قال الله سبحانه وتعالى: (**وإذا حيـيتم بتحيـة فحيوا بأحـسن منها أو ردوها**) وكان أحسن منها عـتقـها. وجنى بعض مـواليه جناية توجب التـأديب، فأمر بتـأديبه فـقال يا مولاى: قـال الله تعالى: (**والكاظمـين الغيظ**). قـال عليه السـلام: «خلوا عنه كظمت غيظى». فـقال: (**والعافـين عن الناس**). قال عليـه السلام: «قد عـفوت عنك». فقال: (**والله يحب المحسنين**). قال: «أنت حر لوجه الله تعالى» وأجازه بجائزة سنية[2].

أهل بيته: أما أهل بيته من أبنائه وأخوته وبنى أخيه وبنى عمه، فكانوا خيرة أهل الأرض وفاء وإباء وشجاعة وإقدامًـا، وعلو همم وشرف نفوس وكرم طباع، أبوا أن يفارقوه وقـد أذن لهم؛ وفدوه بنفوسهم وبذلوا دونه مهـجهم، وقالوا له لما

---

1 ـ توفيق أبو علم ـ نفس المرجع ص446.
2 ـ توفيق أبو علم ـ نفس المرجع ص451.

أذن لهم بالانصراف: ولم نفعل ذلك لبقى بعدك لا أرانا الله ذلك أبداً، ولما قال لبنى عقيل: حسبكم من القتل بصاحبكم مسلم، اذهبوا فد أذنت لكم.

لم يقم الشيعة بأى ثورة ضد «معاوية بن أبى سفيان»، طوال مدة خلافته (41 ـ 60هـ)، وإنما اندلعت أول ثوراتهم بقيادة سبط رسول الله محمد ﷺ الإمام «الحسين بن على عليهما السلام» فى خلافة «يزيد بن معاوية»، بعد أن رفض «الإمام الحسين عليه السلام» بيعة «يزيد»، وكان قد رفض من قبل تعيينه وليا للعهد فى زمن أبيه[1].

ولم تكن شيعة أهل البيت مقصورة على الكوفة ولكنها كانت منتشرة فى آفاق البلاد، تقل فى بعضها وتكثر فى بعضها الآخر. وكانت أمزجتها تختلف فى المعارضة باختلاف كثرتها وقلتها، وباختلاف سياسة الولاة لها، فكانت تتفق قبل كل شيء على أن ولاية معاوية شر ليس من احتماله بدّ، حتى تتهيأ الفرصة للتخلص منه، إما باستراحة الأبرار وحسن استعدادهم للخروج وقدرتهم عليه، وإما بموت الفجار وعودة الأمر شورى بين المسلمين. وكانت الشيعة تنشط أشد النشاط فى نشر الدعوة للإمام من أهل البيت بحيث يؤول الأمر إليه، حين يستشار المسلمون فى أمر خلافتهم، فكانوا يدعون إلى إمامهم فى السلم، يلينون فى هذه الدعوة ويشتدون، حسبما يكون لهم من الأمزجة وما يتاح لهم من الفرص والظروف. وكان الإمام الحسن عليه السلام نفسه وفيًا لمعاوية ببيعته، حفيظًا له على عهده، مستعينًا به إن احتاج إلى المعونة مهما يكن نوعها، ولكنه على ذلك كان معارضًا ولم يكن يستخف معارضته، وإنما كان يظهر منها ما يشاء فى المدينة حيث كان يقيم، وفى مكة حين كان يُلم بها أثناء الموسم. وكانت الفرص تواتيه أحسن المواتاة وأيسرها. فهو كان عذب الروح حلو الحديث كريم المعاشرة حسن الألفة محببًا إلى الناس، يحبه أترابه من شباب قريش والأنصار لهذه الخصال، ويحبه الشيوخ من أصحاب النبى لهذه الخصال ولمكانه من النبى، ويحبه عامة الناس لكل هذا ولسخائه وجوده وإعطائه المال حين يسأل وحين لايسأل. وكان يصبح فيصلى

---

1 ـ د. عبدالشافى محمد عبداللطيف ـ المرجع السابق ص37.

الصبح ويجلس فى مكانه، حتى إذا ارتفعت الشمس طاف بأمهات المؤمنين زائراً لهن متحدثًا إليهن، يبرهن ويبررنه، ويهدى إليهن ويهدين إليه، ثم يفرغ لبعض شأنه. فإذا صُليت الظهر جلس للناس فى المسجد فأطال الجلوس يسمع منهم ويقول لهم، يعلّم من احتاج منهم إلى العلم، ويؤدب من احتاج منهم إلى الأدب، ويسمع من شيوخ الصحابة من يفيده علمًا وأدبًا. وكان فى أثناء هذا كله إذا ذكر السلطان أو ذكر السلطان عنده يعرف الخير وينكر الشر فى أرق لفظ وأعذبه. ولكنه كان يشتد حتى يبلغ القسوة إن ذكر أبوه بغير مايحب، أو لقى من بغى أباه الغوائل أو سعى إليه بمكروه. وكان بعد هذا كله يحسن كما أحسن الله إليه، ولاينسى نصيبه من الدنيا. فكان، فيما اتفق المؤرخون والرواة عليه، مزواجًا مطلاقًا، حتى أنكر أبوه عليه ذلك، ونهى الناس عن تزويجه، فلم ينتهوا وكابروا أباه فى ذلك مداعبين له. كانوا يرون فى الإصهار إلى سبط النبى وابن أمير المؤمنين شرفًا أى شرف[1].

وكان معاوية رفيقًا بالحسن أعظم الرفق، واصلا له أحسن الصلة. ولكن معارضة الإمام الحسن عليه السلام كانت تبلغه، فيعاتبه فيها لينًا حينًا وشديداً حينًا. ولكن مكان الإمام الحسن عليه السلام من معاوية لم يكن محببًا إليه، فقد كان معاوية رجلا بعيد النظر، لم يكد يطمئن إلى الخلافة ويرى أنها قد اطمأنت إليه، حتى فكر فى أن يجعلها تراثًا بعده لآل أبى سفيان، وكان يفكر فى ابنه يزيد دائمًا، فيرى أن الإمام الحسن عليه السلام هو الحائل بينه وبين ما يريد من ذلك، فهو قد تعجل الصلح مع الإمام الحسن عليه السلام فعرض عليه ولاية الأمر من بعده. ومن الحق أن الإمام الحسن عليه السلام لم يقبل منه ذلك، وإنما اشترط عليه أن تكون الخلافة بعده شورى بين المسلمين، يختارون لها من أحبوا. وكان الإمام الحسن عليه السلام فى أكبر الظن يرى أن المسلمين لن يعدلوا به بعد وفاة معاوية أحداً. وكانت الشيعة تؤمن بذلك أشد الإيمان، وتدعو له فتلح فى الدعاء. توفى الإمام الحسن عليه السلام عام

1 ـ طه حسين ـ على وبنوه ص192.

خمسين للهجرة. وإن معاوية قد دس إليه من سمه ليخلو له ولابنه وجه الخلافة.
ومؤرخو أهل السنة مع ذلك يتحدثون بأن الإمام الحسن عليه السلام نفسه قال لبعض عائديه فى مرضه الأخير: «لقد سقيت السم مرات، ولكنى لم أسق قط سمًا أشد على من هذا الذى سقيته هذه المرة. ولقد لفظت آنفًا قطعة من كبدى». ويتحدثون كذلك بأن أخاه الإمام الحسين عليه السلام سأله عمن سقاه السم، فأبى أن ينبئه به مخافة أن يقتص منه. يئس الإمام الحسن عليه السلام من الحياة وكره أن يلقى الله وقد اقتص له. فآثر أن يكل هذا القصاص إلى الله عز وجل. وأن جعدة بنت الأشعث بن قيس زوج الإمام الحسن عليه السلام هى التى اختارها معاوية لتدس السم للحسن فى بعض شرابه أو طعامه، ورشاها فى ذلك بمائة ألف دينار. وأنه وعدها بأن يتخدها لنفسه زوجًا. فلما مات الإمام الحسن عليه السلام وفى لها معاوية بالمال وكره أن يتزوجها، مخافة أن تفعل به مافعلت بالحسن. وذهب بها أصحابها إلى ما عرف من كيد الأشعث بن قيس لعلى فأرادوا أن تكون ابنته هى التى كادت للحسن حتى أوردته الموت. عرف الموت بالسم فى أيام معاوية على نحو غريب مريب. مات الأشتر مسمومًا فى طريقه إلى ولاية مصر، فخلصت مصر لمعاوية وقال معاوية وعمرو: «إن لله لجندًا من عسل». ومات عبدالرحمن بن خالد بن الوليد مسمومًا بحمص فى خبر طويل. ومات الحسن بين هذين الرجلين مسمومًا، وخلصت الخلافة لمعاوية وابنه يزيد. وما ينبغى أن يذكر أمر الإمام الحسين بن على عليهما السلام، فإن الإمام الحسين عليه السلام لم يكن قد نصب نفسه للبيعة ولم يكن إمامًا للمسلمين، ولم يكن معاوية قد صالحه ولا وعده ولا شرط له. ومع ذلك فقد هم معاوية أن ينحى الإمام الحسين عليه السلام عن مكانه شيئًا لتخلص له الطريق من ابنى فاطمة وسبطى النبى. فقال ذات يوم لعبد الله بن عباس ممازحًا وهو يريد الجد: «أنت سيد قومك بعد الحسن»، ولكن عبدالله بن عباس لم ينخدع له وإنما أجابه فى صرامة: «أما وأبو عبدالله حى فلا». ومع ذلك فلم يتردد معاوية - فى أن يبايع بولاية العهد لابنه يزيد، وأكره الإمام الحسن عليه السلام كما أكره غيره من شباب المهاجرين على أن يسكتوا عن هذه البيعة، التى كانوا ينكرونها فى أنفسهم أشد

الإنكار. ومهما يكن من شيء فقد صارت رياسة الشيعة إلى الإمام أبى عبدالله الحسين بن على عليه السلام، بعد وفاة أخيه[1].

«وكان ابتداء ذلك وأوله من المغيرة بن شعبة، فإن معاوية أراد أن يعزله عن الكوفة ويستعمل عوضه سعيد بن العاص، فبلغه ذلك فقال: الرأى أن أشخص إلى معاوية فأستعفيه ليظهر للناس كراهتى للولاية. فسار إلى معاوية وقال لأصحابه حين وصل إليه: إن لم أكسبكم الآن ولاية وإمارة لا أفعل ذلك أبدا. ومضى حتى دخل على يزيد وقال له: إنه قد ذهب أعيان أصحاب النبى صلى الله عليه وآله وكبراء قريش وذوو أسنانهم، وإنما بقى أبناؤهم وأنت من أفضلهم وأحسنهم رأيا وأعلمهم بالسنة والسياسة ولا أدرى ما يمنع أمير المؤمنين أن يعقد لك البيعة. قال: أو ترى ذلك يتم؟ قال: نعم. فدخل يزيد على أبيه وأخبره بما قال المغيرة، فأحضر المغيرة وقال له مايقول يزيد، فقال: يا أمير المؤمنين قد رأيت ما كان من سفك الدماء والاختلاف بعد عثمان، وفى يزيد منك خلف، فاعقد له فإن حدث بك حادث كان كهفا للناس وخلفا منك ولا تسفك دماء ولاتكون فتنة. قال: ومن لى بهذا؟ قال: أكفيك أهل الكوفة ويكفيك زياد أهل البصرة وليس بعد هذين المصرين أحد يخالفك. قال: فارجع إلى عملك وتحدث مع من تثق إليه فى ذلك وترى ونرى، فودعه ورجع إلى أصحابه فقالوا: مه؟ قال: لقد وضعت رجل معاوية فى غرز بعيد الغاية على أمة محمد وفتقت عليهم فتقا لا يرتق أبدا. وسار المغيرة حتى قدم الكوفة وذاكر من يثق إليه ومن يعلم أنه شيعه لبنى أمية أمر يزيد، فأجابوا له بيعة، وجعل عليهم ابنه موسى بن المغيرة، وقدموا على معاوية فزينوا له بيعة يزيد ودعوه إلى عقدها. فقال معاوية: لاتعجلوا بإظهار هذا وكونوا على رأيكم. ثم قال لموسى: بكم اشترى أبوك من هؤلاء دينهم؟ قال: بثلاثين ألفا. قال: لقد هان عليهم دينهم»[2].

---

1 ـ طه حسين ـ نفس المرجع ص194.

2 ـ د. عبدالله فهد النفيسى ـ المرجع السابق ص86 وانظر: ابن الاثير ج3 ص503 ـ 504 الطبرى ج6 ـ ص168.

«ثم كتب معاوية بعد ذلك إلى مروان بن الحكم: إنى قد كبرت سنى ودق عظمى، وخشيت الاختلاف على الأمة بعدى، وقد رأيت أن أتخير لهم من يقوم بعدى، وكرهت أن أقطع أمرا دون مشورة من عندك، فاعرض ذلك عليهم وأعلمنى بالذى يردون عليك. فقام مروان فى الناس فأخبرهم به، فقال الناس: أصاب ووفق، وقد أحببنا أن يتخير لنا فلا يألو فكتب مروان إلى معاوية بذلك، فأعاد إليه الجواب بذكر يزيد، فقام مروان فيهم وقال: إن أمير المؤمنين قد اختار لكم فلم يأل. وقد استخلف ابنه يزيد بعده. فقام عبدالرحمن بن أبى بكر فقال: «كذبت والله يامروان وكذب معاوية ما الخيار أردتما لأمة محمد، ولكنكم تريدون أن تجعلوها هرقلية كلما مات هرقل قام هرقل». «ثم إن معاوية قال للضحاك بن قيس الفهرى، لما اجتمع الوفود عنده: إنى متكلم فإذا سكت فكن أنت الذى تدعو إلى بيعة يزيد وتحثنى عليها. فلما جلس معاوية للناس تكلم، فعظم أمر الإسلام وحرمة الخلافة وحقها وما أمر الله به من طاعة ولاة الأمر، ثم ذكر يزيد وفضله وعلمه بالسياسة وعرض ببيعته، فعارضه الضحاك فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: يا أمير المؤمنين إنه لابد للناس من وال بعدك وقد بلونا الجماعة والألفة فوجدناهما أحقن للدماء وأصلح للدهماء وآمن للسبل وخيرا فى العاقبة والأيام عوج رواجع والله كل يوم فى شأن، ويزيد ابن أمير المؤمنين، فى حسن هديه وقصد سيرته على ما علمت وهو من أفضلنا علما وحلما وأبعدنا رأيا فوله عهدك واجعله لنا علما بعدك ومفزعا نلجأ إليه ونسكن فى ظله. وتكلم عمرو بن سعيد الأشدق بنحو من ذلك ثم قام يزيد بن المقنع العذرى فقال: هذا أمير المؤمنين، وأشار إلى معاوية، فإن هلك فهذا، وأشار إلى يزيد، ومن أبى فهذا، وأشار إلى سيفه، فقال معاوية: اجلس فأنت سيد الخطباء. وتكلم من حضر من الوفود. فقال معاوية للأحنف: ما تقول يا أبابحر؟ فقال: نخافكم إن صدقنا، ونخاف الله إن كذبنا وأنت أمير المؤمنين أعلم بيزيد فى ليله ونهاره وسره وعلانيته ومدخله ومخرجه،

فإن كنت تعلمـه لله تعالى وللأمة رضى فلا تشـاور فيه، وان كنت تعلم فيـه غير ذلك فلا تزوده الدنيا وأنت صائر إلى الآخرة، وإنما علينا أن نقول سمعنا وأطعنا».

فأحـضر الإمام الحـسين بن على عليـهما السـلام، عبدالرحـمن بن أبى بكر وابن الزبير» وقال: قـد علمتم سيرتى وصلتى لأرحامكم وحـملى ما كان منكم، ويزيد أخوكم وابن عمكم وأردت أن تقدموه باسم الخلافة وتكونوا أنتم تعزلون وتؤمرون وتجبون المال وتقسمونه لايعارضكم فى شىء من ذلك. فـسكتوا فقال: ألا تجيبون؟ مرتين. ثم أقبل على ابن الزبير، فقال: هات لعـمرى إنك خطيبهم. فقال: نعم: نخيرك بين ثلاث خصال. قال: اعـرضهن. قال: تصنع كما صنع رسول الله ﷺ أو كما صنع أبو بكر أو كما صنع عمر. قال معاوية: ماصنعوا؟ قال: قبض رسول الله ﷺ، ولـم يستـخلف أحداً فارتضى الناس أبا بكر. قال: ليس فـيكم مثل أبى بكر وأخاف الاختـلاف. قالوا: صدقت، فاصنع كما صنع أبو بكر فـإنه عهد إلى رجل من قاصية قـريش ليس من بنى أبيه فاستخلفه، وإن شـئت فاصنع كما صنع عمر، جعل الأمـر شورى فى ستة نفر ليس فيـهم أحد من ولده ولا من بنى أبيه. قال معـاوية: هل عندك غير هذا؟ قـال: لا. ثم قال: فأنتم؟ قالوا: قـولنا قوله. قال: فـإنى قد أحببت أن أتقدم إليكم، إنه قد أعـذر من أنذر، إنى كنت أخطب فيكم فيـقوم إلى القائم منكم فيكذبنى على رؤوس الناس فـأحمل ذلك وأصفح، وإنى قائم بمقالة فأقسم بالله لئن رد على أحـدكم كلمة فى مقامى هذا لاترجع إليه كلمة غـيرها حـتى يسبقـها إلى رأسـه، فلا يبقـين رجل إلا على نفسـه، ثم دعا صاحب حرسـه بحضرتهم فـقال: أقم على رأس كل رجل من هؤلاء رجلين ومع كل واحـد سـيف، فـإن ذهب رجل منهم يرد عـلى كلمـة بتـصـديق أو تكذيب فليضرباه بسيفـهما. ثم خرج وخرجوا معه حتى رقى المنبـر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: إن هؤلاء الرهط سادة المسلميـن وخيارهم لا يبت أمر دونهم ولايقض إلا عن مـشورتهم، وأنهم قـد رضوا وبايعـوا ليزيد، فـبايعـوا على اسم الله! فبـايع

الناس، وكانوا يتربصون بيعة هؤلاء النفر، ثم ركب رواحله وانصرف إلى المدينة، فلقى الناس أولئك النفر فقالوا لهم: زعمتم أنكم لاتبايعون فلم أرضيتم وأعطيتم وبايعتم؟ قالوا والله ما فعلنا فقالوا: ما منعكم أن تردوا على الرجل؟ قالوا: كادنا وخفنا القتل»[1].

«بويع يزيد بالخلافة بعد موت أبيه ولم يكن ليزيد همة إلا بيعة النفر الذين أبوا على معاوية بيعته، فكتب إلى الوليد بن عتبة بن أبى سفيان وكان على المدينة يخبره بموت معاوية، وكتابا آخر صغيرا فيه: أما بعد فخذ حسينا ابن على وعبدالله ابن عمر وابن الزبير بالبيعة أخذا ليس فيه رخصة حتى يبايعوا والسلام». ولو أن معاوية كان أكثر اهتمامًا بسلطان الإسلام منه بسلطان بنى أمية، لوفر على الإسلام وعلى المسلمين كثيراً من المخاطر والمهالك التى أفضى إليها حرصه على ذلك السلطان والملك. لقد جشمه ذلك الحرص ما كان يعود عليه نفسه بالغرم الأكيد. وإنا لنذكر ـ مثلا ـ تشجيعه النزعة القبلية بإيثاره فى العطاء وفى المكانة بعض القبائل على بعضها الآخر، فهو يغدق على «القبائل اليمانية» ويميزهم فى العطاء. ويجعل لهم كيانًا عسكريًا قائمًا بذاته، ثم لايلبث أمرهم أن يعلو ويتفاقم، حتى راحوا يمنون عليه بما هو فيه من سلطان، ويقولون: لولا نحن ما كان معاوية. نرى أن الحلم الذى لم يعرف فى التاريخ بمثل ما عرف به نرى هذا الحلم وهو أبرز خلائقه ومميزاته لايغنى عنه شيئًا فى درء صفة القسوة والقتل عن عصره وحكمه، فمصرع «حجر بن عدى» وأصحابه بأمر معاوية وعلى مقربة من قصره بالشام بغير جريرة ولا ذنب، حدث يجلل سلطان معاوية بالسوء، لقد كان حادثًا بشعًا، حتى لقد ندم هو نفسه على اقترافه، وبقى إلى آخر عمره غصة تفزعه وتضنيه، ثم وصيته إلى ولده يزيد أن «إذا خرج عليك عبد الله بن الزبير فظفرت به فقطعه إربًا

---

1 ـ د. عبدالله فهد النفيسى ـ نفس المرجع ص89 وانظر ابن الاثير ج4 ـ الطبرى ج6 ص188.

. . إربًا»!! ثم قسوة ولاته، واستعلاؤهم على المسلمين بصورة تثير غيظ الحليم. !!

وفى مصر ـ مثلا ـ لنحفظ ونذكر خطبة أخيه عتبة بن أبى سفيان الذى ولاه أمرها بعد موت «عمرو بن العاص» إذ استهل حكمه وولايته بأن جمع أهل مصر الطيبين الودعاء، وقام فيهم خطيبًا بهذه القوارع: «يا حاملى ألأم أنف ركب بين أعين. . !! إنى إنما قلّمت أظفارى عنكم؛ ليلين محسنا لكم، فأما إذ أبيتم إلا الطعن على السلطان، فوالله لأقطعن بطون السياط على ظهوركم، فإن حسمتْ أدواءكم، وإلا فالسيف من ورائكم، يا أهل مصر، قد كنتم تعذرون ببعض المنع منكم لبعض الجور عليكم. وقد وليكم من إذا قال فعل. فإن أبيتم درأكم بيده، فإن أبيتم درأكم بسيفه. إن البيعة شائعة. لنا عليكم السمع، ولكم علينا العدل».

كانت مجزرة كربلاء سببا مباشرًا فى ضياع الملك من بيت معاوية وذريته إلى الأبد بعد أربع سنوات من وفاته، ثم انتقال هذا الملك إلى بطن آخر من بطون بنى أمية، أولئك هم بنو مروان. لقد اهتزت أعطاف «معاوية» بالإمارة والملك، أربعين عامًا كاملة، عشرين عامًا، أميرًا، وعشرين عامًا، ملكًا، أفما كان يكفيه ذلك، ثم يترك الأمر من بعده لاختيار المسلمين، ليكون فى ذلك على الأقل وفاء بالعهد الذى أبرمه مع سبط رسول الله محمد ﷺ الإمام «الحسن عليه السلام» والذى كان أهم شروطه للتنازل له عن الخلافة . . ؟؟ إن ذلك لم يحدث، ولقد قرر معاوية بتدبير منه، أو بإيحاء من بعض مشيريه، أو بهما معًا، أن يستبقى السلطان فى بيته وأسرته، واختار لذلك أبعد الناس عن الصلاحية للأمر ولده «يزيد». فحين أحسً خمود صحته. ودنو نهايته، شرع على عجل يفرض ـ يزيد ـ على الناس ويهيئ له مكانه وبدأ بالمدينة حيث كان بها نفر جليل من بقية الصحابة ولم يكد واليه عليها وقريبه فى نفس الوقت ـ مروان بن الحكم ـ يعرض الأمر على المسلمين الذين احتشدوا فى المسجد الكبير، حتى جابهته معارضة رهيبة. لقد وقف «عبدالرحمن ابن أبى بكر» يقول لمروان: «والله، ما الخيار أردتم لأمة محمد. ولكنكم تريدون

أن تجعلوها هرقلية، كلما مات هرقل، قام هرقل..» وتلاه «الحسين» فرفض فى كلمات قواطع هذا العبث بمصاير الإسلام والمسلمين وتلاه «عبدالله بن الزبير» فدمدم على مروان وعلى معاوية بكلمات كألسنة اللهب..!![1].

الاختلاف كان بين الأخوين الإمام الحسن والحسين عليهما السلام فى الطبع والمزاج والسيرة شديداً، وكان الإمام الحسن عليه السلام صاحب أناة ورفق، كرّها إليه الحرب وسفك الدماء وحملاه على أن يؤثر السلم ويترك خلافة تكلفه مثل ما كلفت أباه من أهوال الحرب. وكان الإمام الحسين عليه السلام كأبيه صارمًا فى الحق لايحب الرفق ولا الهوادة ولا التسامح فيما لاينبغى التسامح فيه. كره صلح أخيه وهم أن يعارض، فأنذره أخوه بأن يشده فى الحديد حتى يتم الصلح. وكان الإمام الحسين عليه السلام يعيب الصلح لأنه إنكار لسيرة أبيه. ثم لم يكن الإمام الحسين عليه السلام مزواجًا مطلاقًا، ولم يكن ميسراً على نفسه فى أمر الدنيا، ولا متبسطًا فى الحديث، ولا متحببًا إلى الناس، وإنما كان صارمًا على نفسه صارمًا على غيره، يتجرع مرارة الصبر على ما لايحب، رأى الوفاء لأخيه حقًا عليه فوفى له وأطاعه كما أطاع أباه من قبله. وفى أثناء هذه السنين، التى قضاها فى المدينة بعد صلح أخيه، كان يتحرق تشوقًا إلى الفرصة التى تتيح له استئناف الجهاد من حيث تركه أبوه. وقد أتيحت له هذه الفرصة شيئًا ما حين صارت إليه رياسة الشيعة. لأن الفرصة لم تتح له كاملة، فقد أصبح سيد قومه ورئيس حزبه، ولكنه بايع معاوية وما كان له أن ينقض بيعته أو ينحرف عما أعطى على نفسه من العهد والميثاق. وكان الإمام الحسين عليه السلام صاحب فطنة، حسن النظر فى الأمور، رأى الدولة منقادة لمعاوية قد ضبطت له أمصارها، وعرف هو كيف يسوس الناس بالحلم والرفق والسخاء، وكيف يولى فى الأمصار من يسوسون أهلها بالقسوة الصارمة والخوف المخيف، فلم يحاول الخروج حين أتيحت له الفرصة بما كان من نقض معاوية لما بايع الناس عليه، من الأخذ بكتاب الله وسنة رسوله. وقد نقض معاوية

---

1 ـ خالد محمد خالد ـ أبناء الرسول فى كربلاء ص66.

هذه البيعة ما فى ذلك شك، ونقضها مرتين: إحداهما حين استخلف يزيد، وجعل الخلافة وراثة ينقلها لابنه كما ينقل إليه ماله، مع أن أمر الخلافة ليس ملكًا خاصًا للخليفة، وإنما هو ملك عام لجماعة المسلمين. وكان إسراف معاوية فى أموال المسلمين وتوليته الجبابرة على الأمصار، وإسراف أولئك الجبابرة فى أموال الناس ودمائهم، كل ذلك كان نقضًا منه للبيعة التى أعطاها للناس، تبرئ ذمة الإمام الحسين عليه السلام لو أراد الخروج. وقد همت عائشة نفسها أن تخرج بعد قتل من قتل معاوية من أهل الكوفة، ولكنها أشفقت أن تثير فتنة عقيمًا كالتى أثارتها حين خرجت مع صاحبيها مطالبة بدم عثمان، فكفت نفسها عن الخروج. وقد رأى الإمام الحسين عليه السلام أن الأمر لايستقيم له إن هم بالثورة فصبر نفسه على ما تكره. ولكنه غير سياسة أخيه التى ساس بها الحزب، فأطلق لسانه فى معاوية وولاته حتى أنذره معاوية، ثم أغرى حزبه بالاشتداد فى الحق والإنكار على الأمراء ففعلوا. وكانت الكوفة خاصة مركز المعارضة العنيفة لمعاوية وعامله زياد ونلاحظ أن آثار هاتين السياستين ظاهرة أشد الظهور، فلم يؤذ الشيعة فى أنفسهم ولا فى أموالهم ما عاش الإمام الحسن عليه السلام، كانوا يعارضون فى لين وينكرون فى رفق، وكان معاوية وولاته يسمعون منهم ويكفون عنهم، وربما استصلحوهم بالقول والعمل. فلما صار أمر الشيعة إلى الإمام الحسين عليه السلام عنفت المعارضة وكادت تصبح ثورة فى الكوفة، فلقيها معاوية وولاته بالشدة بل بالإسراف فى الشدة، حتى تجاوزوا فى قمعها كل حد معقول. وكانت سياسة الإمام الحسين عليه السلام مقوية للشيعة ومضعفة لها فى وقت واحد. كانت مضعفة لها لأنها جرّت على كثير من أنصار أهل البيت محنًا قاسية. وكانت مقوية لها لأنها جعلت الشيعة مضطهدين أشد اضطهاد وأقساه. وليس شيء من سياسة الناس يروج للآراء ويغرى الناس باتباعها كالاضطهاد الذى يعطف القلوب على الذين تلم بهم المحن، وتصب عليهم الكوارث، وتبسط عليهم يد السلطان، والذى يصرف القلوب عن هذا السلطان الذى يدفع إلى الظلم ويمعن فيه، ويرهق الناس من أمرهم عسراً. ولذلك عظم أمر الشيعة فى الأعوام العشرة الأخيرة من حكم معاوية. وانتشرت دعوتهم أىَّ انتشار فى شرق الدولة الإسلامية وفى جنوب بلاد العرب. ومات

معاوية حين مات وكثيـر من الناس وعامة أهل العراق بنوع خاص يرون بغض بنى أمية وحب أهل البيت لأنفسهم دينًا[1].

أُبلغ أمر المعارضة إلى معاوية، فلم يحمله ذلك على إعادة النظر فى قراره. بل دفـعه إلى الإيغـال فى سرعـة إنجازه. فـأرسل إلى ولاته الآخـرين على بقيـة الأمصار، آمرًا إياهم أن يسوقوا الوفود إلى الشـام كى تبايع ليزيد. وشهدت الشام مهزلة البيعة ومأسـاتها على نطاق واسع، بعد أن أدى الذهب والسيف دورهما فى حمل الناس على المبايعة. ولكن موقف «المدينة» ظل يؤرقه، فـقرر السفر بشخصه إليها. وهناك حاول إقناع زعماء المعارضـة ـ عبدالله بن الزبير، والإمام الحسين بن على عليه السلام، وعبدالله بن عمر. فلما أعيـته الحيلة لجأ إلى القوة فى مظاهرة مسلحة عجيـبة، !! لكن الزعماء الثـلاثة صمدوا، ولم يتحـرك منهم لسان ببيـعة، وأمام مناورة الموت التى فاجأهم بها معاوية، لاذوا بالصمت، فاستغل هو صمتهم وأذاع فى الناس أنهم مبايعون..

حيث إنه أقـام على رؤوسهم شُرَطًا حـين خطب الناس، وتقدم إلى هؤلاء الشرط فى أن يضربوا عنق أيهم كذّبه فيما يقول. ثم خطب الناس فذكر بيعة يزيد بولاية العهد، وأن الناس أجـمعوا على قبول ما اخـتار لهم. وأن هؤلاء النفر من أعلام قريش وسادتها قد دخلوا فيما دخل الناس فيه. فبايع الناس وانصرف هؤلاء النفر يحلفون لمن لامـهم ما بايعوا ولا قبلوا. وأن معاوية قـد استكره هؤلاء النفر على الصمت بعد أن لم يستطع أن يستكرههم على البيعة. وهو بعد ذلك لم يؤامر الأمة فيمن اختار لخلافتهـا على أى نحو من المؤامرة، وإنما شاور قومًا من خاصته والطامعين فيه، فكلهم أغراه بذلك وحببه إليه. ولم يستطع أحد من خاصة الناس ولا من عامـتهم أن ينكر على معـاوية مما أراد شيئًـا. وكذلك استقـر فى الإسلام لأول مرة هذا الملك الذى يـقوم على البأس والبطش والخـوف، والذى يرثه الأبناء عن الآباء، وأصبحت الأمة كـأنها ملك لصاحب السلطان ينقله إلى من أحب من

1ـ طه حسين ـ المرجع السابق ص194.

أبنائه، كمـا ينقل إليه ما يمـلك من سائل المال وجامـده. وقد تم ذلك سنة ست وخمـسين للهجرة، أى قـبل أن يتنصف القرن على وفـاة رسول الله ﷺ. ورحم الله الحـسن البصرى فـقد كـان يقول فـيما روى الـطبرى: «أربع خصـال كن فى معـاوية، لو لم يكن فيـه منهن إلا واحدة لكانت مـوبقة: انتـزاؤه على هذه الأمة بالسفهاء حتى ابتزها أمرها بغير مشورة منهم، وفيهم بقايا الصحابة وذوو الفضيلة، واستخلافـه ابنه بعده سكيراً خميراً يلبس الحريـر ويضرب الطنابير؛ وادعاؤه زياداً (ابن أبيه أى ابن الفراش لأبى سـفيان)، وقد قال رسـول الله ﷺ: الولد للفراش وللعاهر الحجر؛ وقتله حُجر، ويل له من حُجر وأصحاب حُجر! ويل له من حُجر وأصحاب حُجر!». وقد استحـدث معاوية فى المسلمين بدعة جديدة طالما أنكروها من قبل، وهى توريث الملـك. وكانت عاقبـة هذه البدعة وبـالا على المسلمين أى وبال، فمـا أكثر ما اسـتحل الملوك من المحارم، ومـا أكثر ما سـفكوا من الدماء، وأهدروا من الحقوق، وضحـوا بمصالح الأمة فى سبيل ولاية العهد. ومـا أكثر ما كاد بعض الأمراء من أبنـاء الملوك لبعض فى سبيل هذا التراث الـذى لم يبحه لهم كتـاب ولا سنة، ولا عرف مألوف من صـالحى المسلمين. وإنما القول فى مـعاوية وملكه قول رجل من خيار الصـحابة اعتزل الفتنة، ولم يشارك فـيها من قريب أو بعيـد، وهو سعد بن أبى وقاص رحـمه الله. فقد تحـدث البلاذرى عن رواته أنه دخل على معاوية فقال: السلام عليك أيها الملك. فـضحك معاوية وقال: ما كان عليك يا أبا إسحاق رحمك الله لو قلت: يا أميـر المؤمنين. فقال: أتقولها جذلان ضاحكًا؟ والله ما أحب أنى وليتها بما وليتها به»[1].

برر معاوية أخذه البيعة ليزيد بحرصه على عدم نشوب الخلاف والصراع من جديد بين المسلمين. وإنه لتبرير يدينه أكثر مما يشفع له . . !! فلماذا خشى الصراع والفتنة إذا هو لم ينقـل الملك إلى يزيد . . ولم يخشهـما إذا هو وسد الأمر لغـير أهله وسلم قيـادة الدولة المسلمة إلى أكـثر العالمين بعـداً عن الصلاحيـة لها، وهو

1 ـ طه حسين ـ المرجع السابق ص227.

يزيد..؟؟!! إن هذه النظرة تكشف بوضـوح عن أن معـاوية كان ينظر إلـى الأمر على أنه سلطان بنى أمـية، أكـثر مما هو سـلطان الإسلام وسلطان المسلمـين..!! ووضع المسـألة على هذا النحو ـ وهو وضع غـير صـحيح ـ يجـعل المقاومـة أمراً محتـومًا وقدراً مقدوراً. ولقـد بدأت المقاومة بامتناع «الإمـام الحسين ﷺ، وابن الزبير، وابن عمر، وابن أبى بكر» بالمدينة عن البيعة. وبدأت بالتذمُّر الكالح الذى مـلأ صفـوف الجمـاهير فى كل مكان. والـذى ارتفع به الصوت داخل الأمـويين أنفسهم الذين كانوا يشمـئزون من يزيد، ويرون بين رجالهم من هو أحق وأجدر، كذلك شاع على ألسنة الذين بايعوا من عامة الناس مكرهين. ذلك أن «يزيد» كان شابًا عـابثًا لاهيا، والتاريخ يصـوره دائمًا بين بطانته، وهى بطانة سـوء. يلهون، ويشربون، ويعربدون. وحـتى حين أراد أبوه أن يضفى على سيـرته بعض التصون والوقار، فأرسـله إلى مكة حاجًا، ولم يغنه ذلك شيـئًا، فقد اصطحب يزيـد معه لهوه وعبثه وبطانته..!! ويزيد، قبل هذا، وبعد هذا، تنقصه كل مقومات الرجل المناسب للمكان المناسب، فهـو مفلس إفلاسًا تامًا من كل مـا كان لأبيه من دهاء، وشخصـية، وذكاء ومقـدرة ..!! ففيم استـخلافه..؟ وبأى رشد وأى ضـمير. يفرض واحد هذا شأنه على الإسلام وعلى المسلمين.؟؟ ثم أين عهده مع «الإمام الحسن ﷺ» على أن يتـرك الأمـــر بعـده شـورى. حـيث يخـتـار الناس من يرتضون..؟! لكن معاوية فعلها.. وفى العام السـتين للهجرة مات، لينتقل الأمر من بعـده إلى يزيد. وبدأ يزيد عـهده بإنفـاذ الوصيـة التى تركـها لهـا أبوه قبـيل وفاته[1]:

«إنى لا أخاف عليك سوى أربعة رجـال: الحسين بن على .. وعبدالله بن عمر .. وعبدالرحمن بن أبى بكر .. وعبدالله بن الزبير. فأما الحسين بن على؛ فإن أهل العراق لن يتركوه حتى يخرجوه إليهم؛ فإن فعل فظفرت به فاصفح عنه. وأما عـبدالله بن عـمر، فرجل قـد وقذته العبـادة، ولا يريد الخلافـة إلا أن تأتيه عفـواً. وأما عبدالـرحمن بن أبى بكر، فليس له عند الناس ما يـجعله يطمح إلى طلبها، أو يحاول التماسها إلا أن تأتيه عفواً. وأما الذى سيجثم لك جثوم الأسد،

1 ـ خالد محمد خالد ـ المرجع السابق ص69.

ويراوغك روغان الثعلب، حتى إذا أمكنته فرصة وثب عليك؛ فذلك هو عبدالله ابن الزبير، فإن فعل وظفرت به فقطعه إربًا إربًا، إلا أن يلتمس منك صلحًا . . فإن فعل فاقبل منه، واحقن دماء قومك بجهدك، وكف عاديتهم بنوالك، وتغمدهم بحلمك» ترى، هل كان معاوية يعرف لابنه هذا جهداً، أو نوالا، أو حلمًا يعالج به الأمور؟؟

نشأ يزيد نشأة تغاير هذه النشأة أشد المغايرة. ولد فى الشام فى قصر إمارة كثر فيه الترف وكثر فيه الرقيق. وورث عن أمه شيئًا من بداوة كَلْب وغلظتها، وعن أبيه شيئًا من ذكاء قريش ودهائها وسعة حيلتها وحبها للمال والتسلط، وتهالكها على اللذة حين تتاح لها الوسائل إليها. فشب فتى من فتيان قريش لم يعرف خشونة ولا شظفًا، ولم يتكلف لحياته اكتسابًا، ولم يعرف فى أثنائها شقاء ولا عناء، ولم يبذل جهداً إلا فى سبيل ما يرضيه ويلهيه. فكانت سيرته حين ولى أمر المسلمين مناقضة لسيرة أبيه أشد المناقضة، ثم مناقضة بعد ذلك لسنة النبى وخلفائه الراشدين أشد المناقضة أيضًا. كان قبل ولايته لعهد أبيه مسرفًا على نفسه فى طلب اللذة والعكوف عليها والاستهتار بها، حتى كثر حديث الناس فيه، وحتى أشار زياد عليه أن يتحفظ ويحتاط، وأشار على أبيه أن يأخذه بسيرة أرشد من سيرته ومذهب فى الحياة يلائم ما كان يرشحه له من ولاية العهد والنهوض بعده بأمر هذه الدولة الضخمة. فأخذه أبوه بشىء من الحزم وأغزاه بلاد الروم، وتتبع سيرته على نحو ما، ولكنه لم يبلغ من تأديبه وتقويمه ما أحب، كان مشغولا عنه بسياسة الدولة، وكان الفتى مشغولا عن أبيه بسياسة شهواته الجامحة. وقد مات أبوه وهو عنه بعيد، حتى احتاج الضحاك بن قيس إلى أن يقوم مقامه، فيعلن موت معاوية إلى الناس ونهوض ابنه يزيد بالأمر من بعده. فقد جلس يزيد حيث كان يجلس أبوه من قبل، وسيق الناس إليه يبايعونه ملكًا، بعد أن بايعوه من قبل أميراً. ثم أقبل الفتى فتلقى دولة عريضة غنية معقدة السياسة، لم يبذل فى تشييدها جهداً، ولم يحتمل فى تأييدها مشقة ولا عناء. وقد أقبل على الملك دون أن ينصرف إليه عن لذاته أو يقلع عما كان عاكفًا عليه من العبث واللهو والمجون.

أقبل علـى الملك واثقًا بأن الدنيـا قد أذعنت له، وبأن أمـوره ستجـرى على طريق سواء. ولم ينس إلا شـيئًا واحدًا، وهو الجـهد العنيف الذى بذله أبوه لتستـقيم له هذه الدنيا وليمهد ملكها لابنه. ولم يكن يزيد يحتمل أن يلتوى عليه أحد بطاعة، وإنما كان يرى أن طاعته حق على الناس جميـعًا، فمن التوى بها عليه فليس عنده إلا السيف. وقـد عرفت أمـر أولئك النفر الذين أكـرههم معاويـة إكراهًا على أن يسكتوا عن بيـعته بولاية العـهد، حين لم يستطع أن يـحملهم على قبولهـا. وقد كانوا أربعة، مـات منهم واحد قبل معاوية، وهو عـبدالرحمن بن أبى بكر، وبقى منهم ثلاثة فى المدينة[1].

اهتز كيـانه فزعًا، تحت ضغط مـشاعره الوجلة لوجود الإمـام الحسين عليه السلام وابن الزبير وابن أبى بكر وابن عـمر بالمدينة، فكتب على الفـور إلى عامله هناك ـ الوليد بن عتبـة بن أبى سفيان ـ بهذا الأمر الحاسم: «. . أما بعـد، فخذ حسينا، وعبـدالله بن عمر، وعبـدالله بن الزبير، وعبـدالرحمن بن أبى بكر بالبيعـة أخذا شديدا، ليس فيـه رخصة حتى يبايعـوا، والسلام». واستنجد الوليد بمشـورة قريبه مروان. وكان مروان واليًا على المدينة من قبل، ثم سخط قـرار معاوية أخذه البيعة ليزيد، إذ كـان يرى نفسـه بحكم سنه ومشـيخته فى بنى أميـة أحق بها وأولى. ولخص مروان مشـورته للوليد فى هذه الكلمات السود: «أمـا ابن عمر، وابن أبى بكر، فلا أراهما يريان القتال. ولكن عليك بالحـسين وعبد الله بن الزبير؛ فابعث إليهما فإن بايعا، وإلا فاضرب أعناقهـما قبل أن يذيع فى الناس نبأ معاوية؛ فيثب كل واحـد منهمـا فى ناحـية». . !! هكذا، وبكل يسـر واسـتهـتار يطوح مـروان بالرقاب!! اضـرب أعناقهـما. . ! هذا هو نهج الذين اغتـصبوا حق المـسلمين فى خلافـتهم، وأرادوا أن يجعلوه وقفًـا على أنفسهم وعلى ذراريهم حـتى آخر طفل فيهم وآخر رضيع!! ومروان هذا، الذى يشـير بقطع الرقاب، هو الذى سينقل إليه الملك بعد أربعة أعوام من ملك يزيد. وهو الذى سيظل الملك فى عقبه حتى يجىء العباسيون بعد عشرات مـن السنين، لا نرى فيها وفى كل أولئك الحاكمين من هو

1 ـ طه حسين ـ المرجع السابق ص237.

للقداسة أهل سوى «عمر بن عبدالعزيز» رضى الله عنه وأرضاه، هذا الخليفة العادل الذى سيضج من مظالم قومه وعائلته، ويبرأ إلى الله منها!! ونعود إلى الوليد بن عتبة والى المدينة، فنراه يرسل فى طلب «الإمام الحسين ﷺ، وابن الزبير». وفى طريقهما إليه يسأل ابن الزبير الإمام الحسين ﷺ: ترى فى أى أمر بعث إلينا هذه الساعة؟ ويجيبه الإمام الحسين ﷺ: أحسب أن معاوية قد مات، وقد بعث إلينا للبيعة، ويعودان أدراجهما دون أن يواصلا السير إلى الوليد. فأما «عبدالله بن الزبير» فقط انتظر مجىء الليل، ثم حمل متاعه، وركب راحلته، وسافر إلى مكة. وأما الإمام الحسين ﷺ، فيأخذ نفراً من أتباعه، ويسير بهم إلى الوليد فى دار الإمارة، ويأمرهم أن ينتظروه خارج الدار، فإن سمعوا حواراً غاضبا بينه وبين الأمير اقتحموا الدار ليكونوا بجانب الإمام الحسين ﷺ إذا أريد به السوء. بيد أن الوليد فى هذا الموقف كان خيراً من ألف من طراز مروان. ذلك أنه لم يكد يُنهى إلى «الإمام الحسين ﷺ» نبأ وفاة معاوية، داعيًا إياه إلى بيعة يزيد، حتى قال له «الإمام الحسين ﷺ» رضى الله عنه: «إن مثلى لايعطى بيعته سراً، فاجمع الناس ليبايعوا، وأبايع على ملأ». ولا نستبعد أن يكون الوليد، قد أدرك ما فى كلمات الإمام الحسين ﷺ من مناورة شريفة، آثر أن يتغافل عنها، حتى لايلوث يديه بجريمة العدوان الذى أشار به مروان بن الحكم الأموى. لذلك نراه، حين أصبح الصباح فى اليوم التالى على نبذ مشورته.. نراه يقول يومها لمروان بن الحكم الأموى: «أتشير على بقتل الإمام الحسين بن فاطمة، بنت رسول الله؟؟ والله، إن الذى يحاسب بدم الحسين يوم القيامة لخفيف الميزان عند الله»!!

ضرب إباءُ الإمام الحسين ﷺ للضيم ومقاومته للظلم واستهانته القتل فى سبيل الحق الأمثال وسارت به الركبان وملئت به المؤلفات وخطبت به الخطباء ونظمته الشعراء، وكان قدوة لكل أبىّ ومثالا يحتذيه كل ذى نفس عالية وهمة سامية ومنوالا ينسج عليه أهل الإباء فى كل عصر وزمان وطريقا يسلكه كل من أبت نفسه الرضا بالدنية وتحمل الذل والخنوع للظلم. وقد أتى الإمام الحسين عليه السلام فى ذلك بما حير العقول وأذهل الألباب وأدهش النفوس وملأ القلوب وأعيا

الأمم عن أن يشاركه مشارك فيه وأعجز العالم أن يشابهه أحد فى ذلك أو يضاهيه وأعجب به أهل كل عصر وبقى ذكره خالدا ما بقى الدهر، أبى أن يبايع يزيد بن معاوية وقال لمروان: « وعلى الإسلام السلام إذ قد بليت الأمة براع مثل يزيد» ولأخيه محمد بن الحنفية «والله لو لم يكن فى الدنيا ملجأ ولا مأوى لما بايعت يزيد بن معاوية» فى حين أنه لو بايعه لنال من الدنيا الحظ الأوفر والنصيب الأوفى ولكان معظما محترمًا عنده مرعى الجانب محفوظ المقام لا يرد له طلب ولا تخالف له إرادة لما كان يعلمه يزيد من مكانته بين المسلمين وما كان يتخوفه من مخالفته له وما سبق من تحذير أبيه معاوية له من الإمام الحسين عليه السلام فكان يبذل فى إرضائه كل رخيص وغال، ولكنه أبى الانقياد له قائلا: «إنا أهل بيت النبوة ومعدن الرسالة ومختلف الملائكة بنا فتح الله وبنا ختم ويزيد رجل قاتل النفس المحترمة ومثلى لا يبايع مثله» فخرج من المدينة بأهل بيته وعياله وأولاده، ملازما للطريق الأعظم لايحيد عنه، فقال له أهل بيته: لو تنكبته كما فعل ابن الزبير كيلا يلحقك الطلب، فأبت نفسه أن يظهر خوفا أو عجزا وقال: «والله لا أفارقه حتى يقضى الله ما هو قاض» قال له الحر: اذكر الله فى نفسك فإنى أشهد لئن قاتلت لتقتلن، أجابه الإمام الحسين عليه السلام مظهرا له استهانة الموت فى سبيل الحق ونيل العز فقاله له: «أفبالموت تخوفنى وهل يعدو بكم الخطب أن تقتلونى، وسأقول كما قال أخو الأوس وهو يريد نصرة رسول الله ﷺ فخوفه ابن عمه وقال أين تذهب فإنك مقتول، فقال:

سأمضى وما بالموت عار على الفتى إذا ما نوى حقًا وجاهد مسلما

أقدم نفسى لا أريد بقاءها لتلقى خميسًا فى الوغى وعرمرما

فإن عشت لم أندم وإن مت لم ألم كفى بك ذلا أن تعيش فترغما

يقول الإمام الحسين رضى الله عنه: ليس شأنى شأن من يخاف الموت، ما أهون الموت على سبيل نيل العز وإحياء الحق، ليس الموت فى سبيل العز إلا حياة خالدة، وليست الحياة مع الذل إلا الموت الذى لا حياة معه: أفبالموت تخوفنى؟! هيهات طاش سهمك وخاب ظنك لست أخاف الموت، إن نفسى لأكبر من ذلك

وهمى لأعلى من أن أحمل الضـيم خوفا من الموت، وهل تقدرون علـى أكثر من قتلى مرحبًا بالقتل فى سبـيل الله ولكنكم لاتقدرون على هدم مجدى ومحو عزى وشرفى فـإذًا لا أبالى بالقتل. وهو القائل: «مـوت فى عز خير من حـياة فى ذل» وكان يحمل يوم الطف وهو يقول:

الموت خيـر من ركوب العـار والعـار أولى من دخـول النار

والله مـن هـــذا وذا جـارى

رحل الإمام الحـسين عليه السلام إلى مكة، ذلك البلد الحـرام الذى يلتمس الناس فيه الأمن والملاذ. واصـطحـب معـه أختيه «السيدة زينب، والسـيدة أم كلـثوم» وإخـوته «أبو بكر، والعـباس، وجعـفر» وأولاد أخيـه «الحسن» وجمـيع من كان بالمدينة من أهل بيته، عدا أخاه، «محمد بن الحنفية» الذى آثر البقاء بالمدينة. وكان قد سبقـه إلى مكة كما ذكرنا، عبدالله بـن الزبير، كذلك كان قد سبق إليـها حبر الأمة «عبدالله بن عـباس». واستقر الحسين وآله فى مكة وأقـبل أهلها بل وأقبلت الوفود من خارجـها على ابن بنت رسول الله تلتمس منه الحـكمة والهدى والنور. ولقد كانت مكة آنئذ أنسب مكان يدبر فـيه «الإمام الحسين عليه السلام» خواطره وتفكيره حول القضية الجليلة التى تشغله، والوضع الخطير الذى حاق بالمسلمين، فهنا، وفى قديم الزمـان، كان هاشم، وعبـد شمس، أخوان وُلدا لعـبد مناف، ومن هاشم، جاء النـبى، وعلىّ، وبنو هاشم أجمـعون. ومن عـبد شـمس، جاء أمـية، وأبو سفيان، ومعاوية، ويزيد، وبنو أمية كافة. وهنا، كان هاشم يملأ مكة والجزيرة برًا ومجدًا وكرمًا، فهو الذى يطعم الحجيج، ويحمى الذمار، ويرسل قوافله إلى الشام وإلى اليمن لتعود موقرة بالخير والرزق للناس، حتى قال فيه شعراء قريش يومئذ:

عمرو الذى هشم الثريد لقومه قـوم بمـكة مسـنتين عـجـاف

سنت إليـه الرحلتان كـلاهمـا سفـر الشتـاء ورحلة الأصيـاف

بينما عبد شـمس مزمع أسفار دائمًا لايحمل تجاه قومـه ما يجب من تبعات وهنا، شهـدت مكة ذات يوم أروع منجزاتها الأخلاقـية والسياسيـة يوم أقرت كل قبائلها «حلف الفضول». . ذلك الحلف الذى كان مضمونه وفحواه أن ترد الحقوق إلى أهلها، وألا ينتصر ظالم على مظلوم، وأن يضحى المشـتركون فيه بحياتهم إذا تعرضت العـدالة لخطر . . ومن عجب أن كل قـبائل قـريش وبطونها، اشـتركت يومئذ فى هذا الحلف مـا عدا بنو عبد نوفل، وبنو عبـد شمس آباء الأمويين وهنا يستطيع «الإمام الحسين عليه السلام» أن يمد بصره فيرى الدار التى عـاش فيها وبزغ منها جده العظيم «محمـد رسول الله» هاتفًا بكلمة الله، حاملا معـوله الرشيد فى وجه وثنية الحجر، ووثنية البشر. ويستطيع أن يمد بصره؛ فيرى «زمزم» التى حفرها جده «المطلب» امتثالا لرؤيا صادقة، والتى كانت لقريش حياة وريًا، وصارت للمسلمين تراثًا ومنسكًا. ويستطيع أن يمـد بصره فيرى الدور التى خرج منهـا مهديون أبرار، آمنوا بالرسـول وآزروه فى دعوته ووحـدته، وفى مقدمـتهـا دار أبى بكر، ثم يرى الدور التى خرج منها أولئك الذين سخروا من دعـوته، واضطهدوا أهله وصحبه، وفى مقـدمتها دار أبى سـفيان. وهنا، يسـتطيع أن يرى ويسمع الأصداء الصـادقة الباهرة لصوت جده «أبى طالب» وهو يقول للرسول: «يا ابن أخى، ادع إلى سبيل ربك ما شئت، فو الله لا أسلمك إليهم أبدًا» ثم يقف إلى جـواره كالطود مضحيًا براحته، وأمنه ومكانته بين قومه كمـا يسمع الأصداء الصادقة الباهرة لصوت جدته «خديجة» وهى تقول للرسـول: «والله لا يخزيك الله أبدًا». ثم تنهض إلى جواره فى وجه قريش واضعة كل ثروتها وجاهها فى خدمة الدين الحق الجديد وهنا يسمع الإمام الحـسين عليه السلام بكل سمـعه وقلبه كلمـات جده الرسول الكريم التى تركـها للتاريخ الإنسانى بأسره قدوة ونبراسًا وهدى: «والله، لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى، على أن أترك هذا الأمر، ماتركـته حتى يقضيه الله، أو أهلك دونه» أجل هنا سيسمع الإمام الحسين عليه السلام صداها ويتراءى له المشهد، فينفجر فى نفسه بأسها، ونضالها، وتقاها[1].

1ـ خالد محمد خالد ـ المرجع السابق ص73.

ولسوف يسأل نفسه: ما هذا الأمر الذى رفض جده النبى أن يتخلى عنه ولو أوتى ملك الشمس والقمر وما بينهما ويجيبه قلبه: إنه كلمة الله ودينه ويعود يسأل نفسه: وأين دين الله اليوم، ومن الذى يحمل لواءه..؟؟ ويجيبه الواقع: إن دين الله اليوم فى محنة، إنه يتحول إلى ملك عضوض وإن الذى يحمل لواءه اليوم طاغية عربيد اسمه، يزيد. يعود يسأل نفسه: وما المصير. ويجيبه وعيه ورشده: المصير عودة الجاهلية وسيادة الوثنية، ودنو ساعة هذه الأمة حيث يرجع كل ما بنت وشادت ترابًا فى تراب. ألم يقل جدك الرسول عليه السلام. «إذا وسد الأمر لغير أهله، فانتظر الساعة» فها هو ذا قد وسد لغير أهله بل لشر أهله. ويعود سائلا نفسه: وما واجبى الآن؟ ويجيبه ضميره: المقاومة. الآن، وأبدا حتى يفوز الحق، أو تهلك دونه. على هذا النحو، لابد أن يكون «الإمام الحسين عليه السلام» قد أدار خواطره وتفكيره، وفى رأينا أن كل حوافز الثورة على هذا الضلال كانت كامنة فى وعيه ووجدانه، وكانت وليدة إدراكه السديد لحق الذين عليه واستعداده للتضحية فى سبيله. وليست نتيجة لموقف أهل الكوفة الذين أرسلوا إليه كتبهم ووفودهم يدعونه إليها ليبايعوه، وليسيروا تحت لوائه إلى مقاومة يزيد. أجل، ما كان «الإمام الحسين عليه السلام» ليدع دين الله ودنيا الناس ألعوبة فى يد يزيد بل كان سيبشر بالمقاومة، ويخلق ظروفها المواتية، ثم يضرب ضربته العادلة. وسواء دعاه أهل الكوفة أم لم يدعوه؛ فلقد كان يهتدى إلى مسئولياته بنور إيمانه وبصوت ضميره، وليس بتحريض قوة خارجية. ولقد عرفنا رأيه القديم فى صلح أخيه مع معاوية، إذ كان يعارض هذا الصلح، معلنًا أن آل أبى سفيان لا عهد لهم ولا أمان. فإذا كان هذا رأيه والخليفة بالأمس معاوية، فكيف يكون إذن، والمستخلف اليوم يزيد؟ ثم إن خروجه من المدينة إلى مكة، ورفضه البيعة ليزيد يشكلان إعلانًا لمبدأ المقاومة. فهو يعلم أن يزيد لن يتركه حتى يبايع، وهو لن يبايع أبدًا، وإذن ستكون المجابهة بينهما أمرًا محتومًا. ثم إن للحسين طبيعة جياشة ثائرة، يربطها بالحق ولاء وثيق وعجيب. وتستمد من فضائل الدين العالية، ومن تراث حسبه العريق زادًا لايفنى من الصمود والمثابرة. ولن يجد فى كيانه ذرة تصبر على رؤية يزيد بن

معاوية يجلس حيث جلس من قبل أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلى، إن ذلك يعنى ضياع مقدسات عزيزة وغالية. وإذا كانت الطبول تدق فى دمشق، معلنة قيام خلافة كاذبة لحفيد أبى سفيان. فلابد أن يجد الإسلام من يدفع عنه الكارثة ولابد أن يجد المسلمون من يدرأ عنهم الطوفان[1].

تلك هى القضية تمامًا وهذه حقيقتها التى تجلت أمام الإمام الحسين عليه السلام كفلق الصباح كما أنها ليست طموحًا شخصيًا، يحتاج إلى موازنة بين فرص النجاح واحتمالات الإخفاق. إنها قضية الحق وحده، حق دين، وحق أمة، وحق دولة، وحق مصير، فإما أن ينتصر هذا الحق، أو فليمت الأبرار دونه. ومن لقيادة الأبرار فى هذا المجال، كأبى عبدالله الحسين، خير ابن لخير آباء، وأكرم وارث لبيت التضحية والبذل والفداء. إن ملايين المسلمين فى كل العصور والأزمان، يصلون عليه فى صلواتهم آناء الليل وأطراف النهار أليس كل مسلم كان أو سيكون، يختم صلاته قائلا: السلام عليك أيها النبى، ورحمة الله وبركاته. السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين أشهد ألا إله الله، وأشهد أن محمداً رسول الله اللهم صل على محمد، وعلى آل محمد» وأليس «الحسين» من أولئك الآل أليس هو درتهم الفريدة والمجيدة. إذن، فإن لهؤلاء الذين يصلون عليه عبر الزمان والأجيال حقًا عظيمًا سيقتضيه تضحيات عظيمة. ومتى تكون التضحية، إذا لم تكن اليوم، ودين المسلمين يتحول إلى «مزرعة أموية»، وأمجادهم العظيمة يستولى عليها مخلوق عابث، ومصايرهم الكبرى تمسك بها أيدى وصوليين جباة، وجلادين طغاة. هكذا لم يكن للحسين بد من أن يقاوم، حتى لو لم يدعه من العراق داع، ولم يأته من الكوفة كتاب، كل ما صنعته وفود الكوفة وكتبها إليه. أنها عجلت خروجه. وهنا، لابد أن ننفى عن تفكيرنا وهمًا ردده كثيرون، هو أن الإمام «الحسين» رضى الله عنه ذهب ضحية خدعة لم يحسن تدبرها، أو ضحية أنصار لم يحسن تقدير إخلاصهم وثباتهم. كلا، إن «الإمام الحسين عليه السلام» إنما ذهب شهيد إيمان قرر مختاراً ومشتاقًا أن يكون شهيده وقربانه.

1 ـ خالد محمد خالد ـ نفس المرجع ص75.

كانت الفئـات المؤيدة للاتجاه الإسلامى فى الكوفة، قـد قطعت مرحلة جدية فى العمليـة التنظيمية والتـعبوية، تلك التى اندرجت فى الأربعـينيات، تحت اسم التشيع الذى استمد قضيـته وحتى اسمه، من مناصرة الإمام علىّ ﷺ وتأييد حقه فى السلطة، كـونه جسد برأيهم هذا الاتجـاه تنظيراً وممارسـة. وكان أول اجتـماع علنى، يعقـد فى منزل سليمان بن صرد، أحـد رواد الحركة الشيعـية، وذلك منذ انتقـال الحكم إلى البيت الأمـوى. وكان السبب المبـاشر لهذا الاجـتمـاع، مرتبطًا بخـروج الإمام الحسـين ﷺ إلى مكة، احـتجـاجا على إلزام السلطة له بـالبيـعة للخليفـة الجديد، فى وقت بدت الظروف مواتية لرفض الحكم الوراثـى. بالإضافة إلى ذلك، فإن معطيات جـديدة، شجعت الكوفة على المضى فى السلبيـة، متمثلة بانفلات الوضع السياسى فى العـراق، وخروج أبناء الصحابة من «المدينة»، وبروز الإمام الحسين ﷺ فى أعقاب الصدام مع والى يزيد، ومـعه شروط الدور القيادى ومؤهلاته، انطلاقًا من مواقـفه الحازمة المعروفة، فى مـواجهة السلطة الأموية رأى الإمام الحسين ﷺ فى معاهدة الصلـح بين الإمام الحسن ﷺ ومعاوية، ورفض الموافقة على بيعة يزيد بولايته العهد وبالخلافـة. وهكذا انتهى أركان الحركة الشيعية فى الكوفة، إلى قرار بدعوة الإمام الحسين ﷺ للعراق، من أجل قيادة الثورة التى قطعت شوطًا من النضـج، جاء فى النتيجـة محصـلا للمرحلة السرية وجـهودها المكثفـة، كإطار وحـيد للنضال السـياسى فى العـهد السابق. ومـا لبث الرسل أن توافدوا على مكة، لإبلاغ الإمام الحسين ﷺ بموقف الحركة فى الكوفة، فى وقت كان الأخير منكبًا على دراسة القرار الصـعب. فالبقاء فى مكة لم يكن سوى تدبير مرحلى، لأن السلطة الأمـوية لن تدعه فى مأمن من ملاحقـتها، قبل انتزاع بيـعته والاعتراف بخـلافة يزيد، دون أن يعنى الخيار الآخر فى هذه الحـالة سوى الثورة، أى الخيار الكوفى نفســه. وإذا كان القرار النهائى قد أصبح أمـراً لا مجال للبحث فـيه، فـإن الإمـام الحسـين ﷺ على الرغم من ذلك، لـم يتخل عن رصـانتـه التقليدية، التى جعلتـه حريصًا على استكمال دراسته للمـوقف السياسى العام فى العراق، وليس فى الكوفة وحدها، وذلك قبل الإقدام على تنـفيذ مشروعه انطلاقًا من هذه الأخيرة. فى ضـوء هذه الحقيقة، قرر إرسال اثنيـن من معاونية: الأول،

هو مسلم بن عقيل إلى الكوفة، والثانى (سليمان) ـ يعتقد أنه مرافق أو مولى له ـ إلى البصـرة. وإذا يضيع الأخير فى زحـمة التطورات المثيرة، وينتـهى مصلوبًا فى ساحة قـصر الإمارة، تلاحق الأحداث مـوفده الأموى. ولقد أجرى مـوفد الإمام الحسين عليه السلام منذ وصوله، سلسلة من الاجتماعـات واللقاءات فى الكوفة، متخذًا منزل المختار بن أبـى عبيد الثقـفى (من زعماء الحركة الشـيعية)، مـركز اتصالاته المكثفة التى انتهت إلى تكوين صورة إيـجابية عن الوضع العام فى المدينة، وإرسال تقرير عن ذلك إلى مكة. غـير أن «عيون» السلطة لم تكن مـغلقة، على الرغم مما حل بها من خسائر وتراجـعات فى العراق، حيث كانت تتابع عن كـثب مهمة ابن عقيل، علـى الرغم من السرية الشديدة التى أحيطت بهـا، وتجنب الوالى الأموى حينذاك، النعمان بن بشير الأنصـارى، التصدى لموفد الإمام الحسين عليه السلام والقبض عليـه، ما أدى إلى رفع الأمـر للخليـفـة، منبهـة إلى خطورة الوضع فى الكوفـة ومتهمة النعمان بالعجز.

فعندمـا جاءته كتب أهل الكوفة تدعـوه إلى القدوم عليهم لمبايعـته، ولدفع العار الـذى لحق الأمة باستـخلاف يزيد، لم يسـارع بامتطاء راحلـته، بل رأى أن يبعث إليهم مبعوثًا فطنًا وأمينًا يرى الموقف هناك علـى طبيعته، ثم يوافيه بالأنباء. واختار للمهـمة ابن عمه «مسلم بن عقـيل بن أبى طالب» وحمله إلى الكوفة هذه الرسالة: «بسم الله الرحمن الرحيم.. من الحـسين بن على، إلى من يبلغه كتابى هذا، من أوليائه وشيعته بالكوفة. سلام الله عليكم.. أما بعد، فقد أتتنى كتبكم، وفهـمت ما ذكرتم من محـبتكم، ورغبتكم فى قـدومى إليكم. وإنى باعث إليكم بأخى وابن عمرى وثقتى من أهلى «مسلم بن عقيل» ليعلم لى كنه أمركم، ويكتب إلى بما يتبـين من جمـعكم فإن يك أمركم عـلى ما جاءتنى به كـتبكم وأخـبرتنى رسلكم أسرعت الـقدوم إليكم إن شاء الله تعـالى» ومضى «مسـلم» إلى الكوفة، ولم يكد يستـقر بها حتى سارع الناس إلـيه يبايعونه على السـير تحت لواء «الإمام الحسين عليه السلام» مهـما تكن التضـحيات. وسـارع جواسيس يزيد إلى «النعـمان بن

بشير» والى الكوفة وحاكمها يطلعونه على مايدور ويجرى. وكان «النعمان» رضى الله عنه صحابيًا جليلا، فردَّ جواسيس يزيد خائبين، إذ قال لهم. «إنى لا أقاتل إلا من يقاتلنى، ولا أثِبُ إلا على من يثب على، ولا آخذ بالظنة أحدًا». وأجابه أحدهم قائلا: (هذا رأى المستضعفين)، فزجره النعمان قائلا: «لأن أكون من المستضعفين فى طاعة الله، خير من أن أكون من الجبارين فى معصيته». وانصرفوا من حضرة النعمان يائسين، ليكتبوا إلى سيدهم يزيد، يخبرونه أن «مسلم بن عقيل» استولى على أفئدة الناس، وأن «النعمان بن بشير» لايحرك ساكنا. وفى دمشق اجتمع يزيد مع مستشاريه. وكان أبرزهم ذلك الذى يسمى «سرجون» ترى بم يشير مجوسى كسرجون؟ أشار بعزل «النعمان بن بشير» وتولية عبد الله بن زياد والى البصرة، واليًا على الكوفة أيضًا. ولم يكن عجبًا أن يقع اختيار سرجون على ابن زياد بالذات، ذلك أن «مرجانة» أم ابن زياد، كانت هى الأخرى جارية مجوسية! وابن زياد هذا، من أحط وأشقى من حملت الأرض على ظهرها، لايفوق ولعه بالقتل وسفك الدماء، سوى ولعه بالقتل وسفك الدماء. فى نفس الوقت، كان الإمام الحسين ﷺ، قد أرسل مولاه «سليمان» إلى البصرة حاملا هذه الرسالة إلى نفر من زعمائها: «بسم الله الرحمن الرحيم.. من الحسين بن على، إلى مالك بن مسمع، والأحنف بن قيس، ومسعود بن عمرو، وقيس بن الهيثم، والمنذر بن الجارود.. سلام الله عليكم. أما بعد؛ فإنى أدعوكم إلى إحياء معالم الحق، وإماتة البدعة والباطل؛ فإن تجيبوا تهتدوا سبل الرشاد» إن رسالة «الحسين» إلى أهل البصرة، ترينا كيف كان يعرف مسئوليته ويمضى معها، فأهل البصرة لم يكتبوا إليه ولم يدعوه إلى بلدهم كما فعل أهل الكوفة، ومع هذا فهو يكتب إليهم ويُعدّهم للمجابهة المحتومة ـ ذلك أنه قرر أن ينهض بتبعات دينه وأمته، كان قراره هذا آتيًا من أعماق روحه وضميره، وليس من حركة أهل الكوفة ودعوتهم إياه.

لم يكد مبعوثه «سليمان» يصل البصرة، ويسلم رسالته لزعمائها، حتى سارع أحدهم وهو المنذر بن الجارود إلى ابن زياد حيث أفشى له سرها وأطلعه

عليهـا. وألقى ابن زياد القبض على «رسول الحسين» وفى وحشية تليق به، قام بقتله وصلبه، ثم تهيأ للسفر إلى الكوفة، ليباشر مهمته المجرمة هناك.! وقبل رحيله، دعا أهل البصرة إلى اجتماع عام خطبهم فيه فقال:

«يا أهل البصرة .. إن أمير المؤمنين يزيد!! قد ولانى مع البصرة الكوفة، وإنى سائر إليها. وقد خلفت عليكم أخى عثمان بن زياد. فإياكم والخلاف والإرجاف. فوالله لئن بلغنى عن أحد أنه خالف أو أرجف، فلأقتلنه ووليه، ولآخذن الأدنى بالأقصى. والبرىء بالمذنب، حتى تستقيموا ـ أنا ابن زياد. وقد أعذر من أنذر» هكذا تحدث إلى الناس بالبصرة حديث الطاغية. على أن التجربة تعلمنا أنه ليس هناك أجبن من الطغاة. وأن ما يتظاهرون به من بأس شرس وشجاعة زائفة؛ إنما يستمدونها مما يمسكون بأيديهم من سلطان. فابن زياد هذا، بكل طغيانه، وقسوته، وإجرامه، يخاف أن يدخل الكوفة سافرًا منظورًا، فيدخلها متنكرا، ومخفيًا سحنته ووجهه وراء لثام وقناع. ومن المفارقات الباسمة، أن أهل الكوفة الذين كانوا ينتظرون مقدم «الإمام الحسين عليه السلام» على شوق، لم يكادوا يرون قافلة ابن زياد، حتى حسبوها موكب «الإمام الحسين عليه السلام» فراحوا يفسحون له الطريق هاتفين: «مرحبًا بابن رسول الله .. قدمت خير مقدم» ولئن كانت هذه الحفاوة بالإمام الحسين عليه السلام قد ملأت نفس ابن زياد مرارة وحقدًا، إلا أنها ألقت على قلبه الجبان كثيرًا من الأمن، إذ اطمأن إلى أنهم لم يعرفوه، وبالتالى لن يصلوا إليه بسوء. وحين بلغ دار الإمارة، واحتمى بشرطتها وحرسها، راح ينصب شباكه ليقتنص رسول الحسين وابن عمه «مسلم بن عقيل» الذى كان يمارس نشاطه الجليل فى همة موفقه وناجحة. كان عزل «النعمان بن بشير» عن الكوفة، وتولية ابن زياد مكانه نذيرًا رهيبًا لمسلم بن عقيل. فبعد أن كان يجتمع بالناس فى غير تحرج ولا تخوف راح يغير مقره، فينتقل إلى دار أخرى، ويحيط نشاطه بكتمان كبير. كانت الدار الجديدة التى انتقل إليها هى دار «هانئ بن عروة» من أشراف مذحج كبرى قبائل اليمن ومن صفوة أهل الكوفة وأشرافهم. وكان ابن زياد قد اصطحب معه من البصرة بعض صفوتها وزعمائها، ومن بينهم «شريك بن

1 ـ خالد محمد خالد ـ المرجع السابق ص83.

الأعور». وكان «شريك» شيعيًا يكتم إيمانه وولاءه، كذلك كان صديقًا لـ «هانئ ابن عروة» الذى يتخفى «مسلم بن عقيل» فى داره. ورغب «هانئ» إلى صديقه «شريك» أن ينزل عليه ضيفًا فى داره فقبل دعوته، حيث التقى فيها بمسلم بن عقيل فبارك جهوده وجهاده وحثَّه على المثابرة. وهنا نلتقى بصورة من عظمة آل البيت وأخلاقهم وشرفهم فى النضال والقتال. ذلك أن «شريك بن الأعور» مرض، وخف ابن زياد لعيادته حيث هو فى دار هانئ بن مذحج. ورآها «شريك» نفسه فرصة سانحة للإجهاز عليه والتخلص منه. فاتفق مع «مسلم بن عقيل» أن يفاجئ ابن زياد عندما يجىء إليه، ويضربه بسيفه ضربة تريح منه البلاد والعباد. ولكن ابن زياد جاء، وجلس، وطالت جلسته، ثم غادر الدار دون أن يناله سوء[1].

بعيد انصرافه عاتب «شريك» «مسلمًا» وسأله: لماذا لم تنجز ما اتفقنا عليه وتتقرب إلى الله بقتله. .؟ فأجابه «مسلم»: «لقد منعنى من ذلك أمران: أولهما، كراهية هانئ أن يقتل فى داره. وثانيهما: أن رسول الله ﷺ نهانا عن الغيلة، وقال: لايفتك مؤمن». هذا هو الخلق الشريف الذى يناضل به أهل البيت الكرام. أما «مسلم» فقد واصل أخذ البيعة سرًا حتى بايعه ثمانية عشر ألفًا. وآنئذ، وأمام تلك الأعداد الكثيرة من الأنصار والمبايعين، أرسل «مسلم» «الإمام الحسين» يبشره بما تم، ويدعوه للقدوم. وآنئذ أيضًا، كان ابن زياد قد جن جنونه لإخفاقه فى القبض على «مسلم» وفشل شرطته فى معرفة مكانه، هنالك لجأ إلى حيله الخبيثة، فاختار واحدًا من مواليه، واسمه ـ معقل التميمى ـ وأعطاه صرة بها ثلاثة آلاف درهم، وأمره أن يجوب خلال الكوفة، مجردًا من نفسه شخصًا غير شخصه، زاعما ومتظاهرًا بأنه واحد من شيعة «الإمام الحسين عليه السلام» يريد أن يأخذ مكانه بين صفوف أنصاره، ويريد أن يسهم بما معه من مال فى شراء سلاح لأولئك الأنصار!! وبعد طول تطواف، وطول تعسس، اهتدى الجاسوس إلى ضالته المنشودة، فقد تعرف إلى رجل صالح من أصحاب «مسلم» قاده أخيرًا إلى مكانه ومقره. وأتقن الخبيث دوره حتى خدعوا به جميعًا، وأصبح أثيرًا لديهم، يزور

1 ـ خالد محمد خالد ـ نفس المرجع ص84.

«مسلمـا» كل يوم حيث يقضى معـه النهار كله، ثم يقضى الليل بأجمـعه مع ابن زياد، ناقلا إليه الأخـبار والأسرار. وحين تمكن ابن زياد من قنصـه الثمين، أرسل فى طلب «هانئ» وفاجـأه قائلا: «إيه يا هانئ بن عروة. ما هذه الأمـور التى تحاك فى دارك لأميـر المؤمنين(!!)، جـئت بمسلم بن عقـيل وأدخلته دارك وجـمعت له السلاح والرجـال وظننت أن ذلك يخـفى على». كان المفـاجأة أليمـة الوقع على هانئ، فـرأى أن يخادع ابن زياد بالإنكار ريثـما يسـتعـد لمجابهـته التى أصـبحت فوريتهـا محتومة لكن ابن زياد أذهـله بمفاجأته الثانية، فـدعا جاسوسه ـ مـعقلا ـ الذى انتصب أمام «هانئ» كليل الشـتاء طويلا بارداً وسأله ابن زياد: أتعرف هذا!! وأسقط فى يد «هانئ» وأدرك كل شىء وسـرعان ما سيطرت رجـولته على الموقف فى لحظة، وصاح بابن زياد:

«أجل أعرفـه وإن «مسلمًـا» فى دارى وهو ضيفى، ولن أسـلمه أبدًا» وجن جنون الطاغـية، فنادى جـلاديه وأمرهم أن ينزلوا به كل عـذاب دون القتل حـتى لايستـريح بالموت. وتناوشه المجـرمون، يكسـرون أنفه، ويمـزقون لحم وجـهه، ويهشمون عظامه، وهو صابر محتـسب. ولما شفى ابن زياد نفسه المظلمة بتعذيبه، أمرهم أن يخرجوا به إلى السوق ويضربوا عنقه. وطار خبر مصرعه واستشهاده إلى «مسلم بن عقيل» فجمع رجاله وأنصاره، وسار بهم إلى قصر الإمارة حيث ضربوا حوله حـصاراً رهيـبًا. لماذا لم يضرب «مـسلم» ضربتـه من فوره؟ لماذا لم يقـتحم القصر على ابن زياد، وقد كان معه ساعتئذ من الأنصار المسلحين أضعاف أضعاف الحرس الذين يحـرسون الطاغية؟؟ لماذا لم يسـتغل تلك الثورة العارمـة التى كانت تشتعل فى أنفس الناس نقمة وغضـبًا لمقتل «هانئ بن عروة»؟؟ هنا، ينجو ابن زياد مرة أخـرى من قتل مـحقق بسـبب أناة «مسلم» وفـضائله. فـ «مـسلم» يعلم أن «الإمام الحسين» إنما أرسله ليأخذ له البـيعة ولم يأذن له بقتال وهو حريص على أن يلتزم الحدود التى رسمها له ابن عمه وقائده وهكذا قضى اليوم كله مكتفيًا بالحصار الذى ضربه وأحكـمه بينما قـضى ابن زياد ومن معـه فى القصر يومـهم فى نسج الشباك وإعمال الحـيلة، فأوعز إلى بعض زعماء الكوفة وأشرافهـا الممالئين ليزيد،

والذين كانوا معـه داخل القصر، على أن يطلوا على المحاصرين سـاعة الغروب، ويخبـروهم أن جيش الـشام فى طريقـه إلى الكوفة سـيصلهـا غداً أو بعـد غد، وسيحيل أحياءها قتلى، ودورها ترابًا، ففعلوا ما أمرهم به ابن زياد، وأتقنوا عملية بث الرعب فى القلوب، ثم نصحوا الثوار أن ينصرفـوا على أن تعالج الأمور فيما بعد، بالتفاهم والمفاوضة. وانصرف الثوار ـ بعضهم صرفه الفرع، وبعضهم صرفه احتمـال الوصول إلى تفاهم يحقن الدمـاء وبذلك لم يثبتوا ولم يكد اللـيل يتقدم حتى كانوا قد تـفرقوا عن الفتى وتركوه وحيـداً يهيم فى سكك المدينة يلتمس داراً ينفق فيها بقية الليل. وفى الصباح انبثت شرطة ابن زياد فى طول الكوفة وعرضها باحثين عن «مسلم بن عـقيل» حتى عثروا عليه فى إحدى الدور، فـقاومهم وحده بسيفه وعـزمه، ولكن دون جدوى وحمل إلى الطاغية، حيث وقف أمامـه صامتًا ورافضًا أن يلقى عليه السلام. وسأله ابن زياد: أتراك ترجو الحياة والبقاء؟ فأجابه «مسلم»: «إذا كنت تريد قتلى، فدعنى أوص إلى بعض الذين هنا من قومى»[1].

أجل، لم تشغله حياته، إنما تشغله حياة ابن عمه «الحسين» الذى أرسل إليه من قبل يدعوه للقدوم وهو الآن فى طريقه إلى الكوفة! كـما تشغله ديون اقترضها منذ قدومه، حيث أسهم بها فى شراء العتاد والسلاح. وأجابه ابن زياد إلى طلبه، فأمر ـ عمر بن سعد ـ أن يستمع لوصيته وأوصاه «مسلم» فقال: «إن على بالكوفة دينًا اقترضتـه، فإذا قتلت فبع سيفى ودرعى، وخذ من غلتى بالمدينة حـتى تقضيه عنى، وإنى قد أرسلت إلى «الحسين» أخـبره أن الناس ينتظرونه، وأدعوه للقدوم، ولا أراه إلا مقبـلا. فابعث إليه من يرده ويخبره أن أهل الكوفـة لا عهد لهم» ثم أسلمه الطاغية لجلاديه، فضربوا عنـقه، ثم رموا رأسه الكريم من حالق إلى قارعة الطريق، وأتبعوا الرأس الجسد ثم انصرفوا إلى لـهوهم ومرحهم، فقد كانت الليلة ليلة العـيد. وفى الصـباح صلـى «ابن مرجـانة» فى المسجـد الجامع صـلاة عيـد الأضحى. ثم أمر برأس «مسلم بن عقيل» ورأس «هانئ بن عروة» فغرسا فى أسنة الرماح ثم أرسلهما إلى الشام، هدية لمن يدعوه أمير المؤمنين!!

---

1 ـ خالد محمد خالد ـ نفس المرجع ص87.

وكانت تلك أول تجـربة لكفاءة يزيد السيـاسية التى بدت محـدودة إلى حد كبير، بعد أن سارع إلى عزل واليه «الأنصارى» المعتدل، وتكليف عبيدالله بن زياد الذى ينتـمى إلى فئـة، إن لـم نقل أسرة، لا تتـورع حينذاك عـن استـخدام كـافة الوسائل حتى غيـر المشروعة فى خدمة السلطة، محـافظة على مواقع نفوذها لدى الأخيرة. وقد يرى البعض أن تعيين والى البصرة الحديدى، الذى ورث الكثير من صفات أبيه فى هذا المجال، كان مبعثـه خوف الخليفة الجديد على نظامه، مما دفعه إلى توسل العنف والشدة تحقيقًا لهذا الهدف الذى تتسوغ دونه كافة الطرق، مقبولة كانت أو غـير مقـبولة، ولكن يزيد على الرغم من قـصور نظره فى معـالجة هذه المشكلة، وحاجتـه إلى القليل من مرونة أبيه، فإن المجـابهة بدت حينذاك حتـمية للسلطة والمعارضة معًا، فقد حان وقتها بالنسبة للأخيرة ولكن دون أن تكون مرتهنة فقط لـ «ضعف» الخليفة الجديد، بينما كانت ضرورية للأولى، لإثبات وجودها أو شىء منه، فى أعـقاب الفتـور الإسلامى الذى اسـتقبلت به، وإن كـان بالإمكان تخفيف نتائجـها وذلك لمصلحة السلطة نفسها، ثم اللـجوء إلى وسائل أقل دموية إزاء محاولات المعارضة فى الكوفة والمدينة ومكة[1].

وهكذا، فى الوقت الذى تحرك فيه الإمام الحسين عليه السلام نحو العراق، معتمدًا على تقرير مسلم بن عقيل الإيجابى، كانت الكوفـة تشهد انقلابًا مضادًا ـ إذا جاز التعبيـر ـ للثورة، بقيادة عبدالله بن زياد. وإذا بالمعطيات تتـحول لمصلحة السلطة، بعيـد عمليات عنـف تركت بصماتهـا على حركة التـشيع التى فـقدت تلاحمـها الشديد، بعد إعدام اثنين من قادتها الكبار ـ مسلم بن عقيل (موفد الحسين) وهانى ابن عروة المرادى من قبائل مذحج اليمنية (من زعـماء الكوفة) ـ أول ضحيتين فى الثورة التى أجهضت فى المهـد. فى الوقت الذى كان رأس «مسلم وهانئ» يقطعان الفيافى من صـاحب العراق ابن زياد، إلى شام يزيد، كان «الإمـام الحسين عليه السلام» يقطع طريقـه من مكانه إلى الكوفة، دون أن يعلم بـعد، ما وقع بهـا من أهوال.

1 ـ د. إبراهيم بيضون ـ المرجع السابق ص186.

وكان قبل خروجه قد صمد لمعارضة عاتية من بعض أهله وأصحابه الذين خشوا عليه عواقب الخروج.

فهذا «عبدالله بن عباس» رضى الله عنه، يجرى معه حواراً طويلا يتوسل إليه خلاله كى يبقى حيث هو. يقول له «ابن عباس»: «يا ابن عم، إنه قد أرجف الناس أنك سائر إلى العراق، فبين لى ما أنت صانع؟» فيجيبه «الحسين»: «إنى قد أجمعت المسير فى أحد يومى هذين إن شاء الله تعالى». ويعود «ابن عباس» ليقول له: «إن كانوا قد دعوك إليهم بعد أن عزلوا أميرهم، ونفوا عدوهم، ووطأوا أكناف بلادهم، فسر إليهم، وإن لم يكونوا فعلوا، فإنهم إذن يدعونك لفتنة وقتال، وإن أهل الكوفة لا عهد لهم، وإنى أخشى عليك الهلاك. أقم بهذا البلد حيث أنت، وإذا كنت لابد خارجًا، فاذهب إلى اليمن، فإن به حصونًا وشعابًا، ولأبيك به شيعة» ويزداد «الإمام الحسين عليه السلام» تصميمًا ويقول: «يا ابن عم، إنى لأعلم أنك ناصح مشفق، ولكنى قد عزمت على المسير» وتضيق الأرض بابن عباس، وتحتدم أعصابه ويقول للحسين: «لولا أن يزرى الناس بى وبك، لشبثت يدى فى رأسك، فلا أدعك تذهب ولكن إذا كنت لابد سائراً، فلا تسر بأولادك ونسائك؛ فإنى أخشى أن تقتل وهم ينظرون إليك. وهذا «عبدالله بن عمر» لايعلم بمسيرته إلا بعد خروجه، فيمتطى ظهر راحلته، ويقطع الطريق وراءه وثبًا، حتى يلحق به على بعد ثلاثة أيام من مكة. ويسأله: أين تريد؟؟ فيجيبه: الكوفة، هذه كتب أهلها وبيعتهم، وإنى ذاهب إليهم. فيقول له ابن عمر: «إنى محدثك حديثًا. إن جبريل أتى النبى ﷺ، فخيره بين الدنيا والآخرة، فاختار الآخرة ولم يرد الدنيا، وإنك بضعة من رسول الله، والله ما يليها أحد منكم أبداً، وما صرفها الله عنكم، إلا للذى هو خير لكم». ولكن «الإمام الحسين عليه السلام» لاينقص عزمه، فيضمه «ابن عمر» إلى صدره ويقبله ويقول وهو يبكى: «أستودعك الله من قتيل» كذلك كان «أبو سعيد الخدرى» صاحب رسول الله قد حاول ثنيه عن عزمه قبل

---

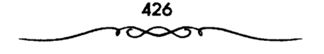
1 ـ خالد محمد خالد ـ المرجع السابق ص90.

خروجـه من مكة، وجلس يقول له: «لقد سـمعت أباك يقول وأنا معـه بالكوفة: والله لقد مللتـهم وأبغضتـهم، فما لهم ثبـات على أمر، ولا صبـر على السيف، ومن فاز بهم، فاز بالسـهم الأخيب»!! كل تلك المحاولات الحريصة على سـلامته وحياته، لم تلن له قناة، ولم توهن له عزمًا!

وصل كتاب مسلم إلى الإمام الحسين عليه السلام بمكة، فجعل يتأهب للمسير إلى الكوفة، وجعـل الناس يلحون عليه فى ألا يفعل. يخـوفونه بأس يزيد وبطش ابن زياد وغدر أهل الكوفة، ونصح لـه ابن عباس فى أن يمضى إلى اليمن فـيقيم فى شعب من شعابها بعيدًا عن يد السلطان وقريبًا من شيعته هناك. ونصح له عبد الله ابن جعفر، ورفق به عامل يزيد على مكة سـعيد بن العاصى، فأرسل فى إثره من يلح عليـه فى الرجوع إلى مكة، ويؤمنه على نفـسه وماله وأهل بيـته ويرغـبه فى الصلات، ولكن الإمام الحسين عليه السلام مضى لوجهه ولم يمض وحده، وإنما احتمل معه أهل بيـته، وفيهم النساء والصـبيان. ولم يسمع لمشورة ابن عـباس الذى أشار عليه إن لم يجد بدًا من المسـير أن يترك أهل بيته وادعـين آمنين، وأن يدعوهم إليه إن استقامت له الأمور، ولكنه أبى. ومـا أراه أبى عنادًا أو ركوبًا لرأسه، وإنما كان يعلم أن يزيد سـيأخذه بالبيعة أخـذًا عنيفًا، فـإن بايع غش نفســه وخان ضمـيره وخالف عـن دينه، لأنه كان يرى بيـعة يزيد إثمًـا، وإن لم يبايع صنع به يزيـد ما يشاء. ولم يكن الإمام الحسين عليه السلام مخطئًا فـيما قدر، فهو قد عـرف ما كان من غضب يزيد على ابن الزبير حـين امتنع عن البيعة. وأقـسم ألا يرضى حتى يحمل إليه ابن الزبير فى جامعة يقاد إليه كما يقاد الأسير. ولم يخطئ الإمام الحسين عليه السلام حين أبى أن يتـرك أهل بيته بالحـجاز، فلم يكن يأمن أن يأخذهم يزيد بمسـيره هو إلى العراق منابذًا للسلطان[1].

ذلك أن القضـية التى خرج البطل حـاملا لواءها، لم تكن قضـية شخصـية تتعلق بحق له فى الخلافة، أو ترجع إلى عداوة شخصـية يضمرها ليزيد، كما أنها لم تكن قضية طموح يسـتحوذ على صاحبه ويدفعه إلى المغامرة التى يـستوى فيها

1 ـ طه حسين ـ المرجع السابق ص193.



احتمال الربح والخسران. كانت القضية أجلّ، وأسمى، وأعظم. كانت قضية الإسلام ومصيره، والمسلمين ومصيرهم وإذا صمت المسلمون جميعهم تجاه هذا الباطل الذى أنكره البعض بلسانه، وينكره الجميع بقلوبهم، فمعنى ذلك، أن الإسلام قد كف عن إنجاب الرجال. معناه أن المسلمين قد فقدوا أهلية الانتماء لهذا الدين العظيم ومعناه أيضًا، أن مصير الإسلام والمسلمين معًا، قد أمسى معلقًا بالقوة الباطشة، فمن غلب، ركب. ولم يعد للقرآن، ولا للحقيقة سلطان. هذه هى القضية فى روع الحسين وبهذا المنطق أصر على الخروج. ومعنى آخر نبيل، أفصح عنه فى حواره مع ابن عباس حين كان يلح عليه أن يبقى فى مكة، فقال له: «إنى أخاف أن تستباح مكة بسببى» إنه برفضه مبايعة يزيد، وبتصميمه على مقاومته، يرى المجابهة أمرًا محتومًا ولم يرد لهذه المجابهة أن تقع فى البلد الحرام، فهو على بينة من سفالة خصومه، وهو يعلم أنهم لن يتورعوا عن هدم المسجد ذاته والكعبة ذاتها إذا اضطرهم القتال لذلك ثم إن أهل الكوفة قد دعوه، ووثقت دعوتهم بكتاب ابن عمه «مسلم بن عقيل» فقد صار لزامًا عليه وفق اقتناعه بعدالة قضيته أن يسارع إلى تلك الجبهة التى أعدت نفسها لمناصرته والمقاومة معه. ولكن، ماذا عساه يصنع، حين يعلم أن ابن عمه قتل .. وأن الذين بايعوه قد لاذو بالفرار..؟ لن يصنع شيئًا سوى المضى مع عزيمته وعزمه، ذلك أنه لم يخرج ليحرز نصرًا مضمونًا، بل خرج ليؤكد حق الإسلام فى حماية نفسه من الضلال والإفك، وليكفر فى تضحية مجيدة عن خطيئة الصمت التى اقترفها الناس طائعين، أو مكرهين وليكن بعد ذلك ما يكون!! إن الذى يعنيه من ناحية الجوهر، هو أن يؤدى ما رآه واجبًا مقدسًا عليه نحو دينه ونحو الحق. والذى يعنيه من ناحية الشكل، ألا تدور المعركة بينه وبين يزيد فى مكة فيكون سببًا فى استباحة حرمتها وقداستها. «لأن أقتل فى أى مكان من الأرض، أحب إلى من أن أقتل هنا، فيستباح البلد الحرام بسببى» وهكذا طاف بالبيت الحرام، مؤديًا له التحية التى لم يكن يدرى أنها تحية الوداع!! ثم تصدر القافلة التى انتظمت أهله المباركين من زوجات، وأخوات، وإخوة وأبناء عم، وأبناء إخوة، كما انتظمت نفرًا من أنصاره

وصحبه واثنـين من بنى عبدالله بن جعفر. ولقـد اصطحب معه من أهله كل هذا الجمع؛ لأنـهم ـ غالبًـا ـ تشبثـوا بالرحيل مـعه، ولأنهم وفـق التدبيـر الذى كان مرسومًا، سيقيمون فى البيوت التى ستعد لهم فى الكوفة، قريبين منه وتحت عينيه ورعايته، ولأنه أخـيراً ـ وربما كان هذا أهم دواعى اصطحابهم معـه ـ خشى حين يشتبك مع يزيد فى قتال، أن ينتقم منه فى شخص أهله هؤلاء من زوجات وإخوة وأخوات. فـيهاجم مكة؛ ويستـبيحهـا بسببـهم، الأمر الذى كان «الإمام الحسين عليه السلام» يخشاه دائمًا ويتوقاه. . !! ومضى البطل إلى غايته[1].

أخذت النذر تلقاه على طول طريقه، ففى أول الطريق لـقيه الفرزدق الشاعر قادمًا من الكوفة. وسأله «الإمام الحسين عليه السلام»: «كيف تركت الناس من ورائك»؟ فأجابه الفرزدق: «تركتهم، قلوبهم مـعك. . وسيوفهم مع بنى أمية». إنه نذير من رجل له بالأمـــور فطنـة وبصـر، لكــن البطل العظـيم لايزيد على أن يـتلو الآية الكريمة: (لله الأمر من قبل ومن بعد) ويمضى فى طريقه وبعد أيام يلقاه «عبدالله ابن مطيع» قادمًا هو الآخر من العـراق، فلا يكاد يرى «الإمام الحسين عليه السلام» حتى يتعلق بثيـابه صارخًا وراجيًا أن يعود. قـائلا له: «أناشدك الله ألا تذهب للكوفة، فوالله لئن أتيتها لتقتلن». فما يزيد على أن يتلو الآية الكريمة: (قل لن يصيبنا إلا ماكتب الله لنا) ويسـتأنف السير مع قدْره وقدَره، وبعـد مرحلة أخرى من الطريق يلقاه رجل من بنى أسـد، قادم من الكوفة أيضا، فـيسأله «الإمام» عن أخـبارها. فيجيبـه الرجل: لقد قتل (مسلم بن عقيل، وهانئ بن عروة). . !! نبـأ يهد الجبال ولكن، من هو بإيمـانه أقوى من الجبـال، ماذا تكون ردود فعل هذا الـنبأ الرهيب لديه. .؟ أرسل بصره فى الأفق البعيد، ثم قال: «إنا لله، وإنا إليه راجعون، عند الله نحتسب أنفسنا ولا خير فى العيش بعد هؤلاء». . !!

مصرع «مسلم وهانئ» كان كافيًا لصرف «الإمام الحسين عليه السلام» عن غايته، لو أنه كان فى موقفه وخـروجه إنما يستمد شجاعته وجـسارته من مساندة أهل الكوفة له، وليس من إيمانه واقـتناعه وضميره. فـمعنى قتل «مسلم وهانئ»، أن الجـبهة

1 ـ خالد محمد خالد ـ المرجع السابق ص92.

كلها قـد انهارت، وأن أهل الكوفة ـ على أحـسن الظنون بهم ـ قد باتوا عـاجزين عما كانوا قد جندوا أنفسهم له. وهذا كاف لكي يلوى «الإمام الحسين عليه السلام» زمام قافلته ويعود. لكن تصميمه الوثيق يقوده، وقدره العظيم كان يناديه. سار ـ رضى الله عنه ـ يقطع الصحـارى المتلظية، مجتازاً فـى مشقة وكبـد، أغوارها ونجودها، معانيًا لفـحها الضارب كريح السموم، حـتى بلغ مكانًا يدعى «بطن الرمة»، فحط رحاله، وضرب خيامه ليستريح ومن معه، ثم كتب لأهل الكوفة كتابًا يخبرهم أنه فى الطريق إليـهم، وأعطى الكتـاب واحداً من أصـحابـه هو: «قيس بن مـسهـر الصيداوى» وأمره أن يسبقه به إلى الكوفـة. ومضى «قيس» لسبيله، بيد أنه لم يكد يبلغ القادسية حتى لقيته قوات ابن زياد، فاعتقلته وصحبته معها إلى الكوفة. وهنا نرى مشهداً بطلا، لرجل بطل!! فقد أمره ابن زياد أن يشرف على الناس من شرفة قصره، ويلعن «الإمـام الحسين عليه السلام»، ويعلن على الملأ أنه ـ حاشـاه ثم حاشاه ـ كذاب وابن كذاب!! وتظـاهر «قيس» بالطاعة، وصعد مـع الحرس إلى حيث أراد ابن مرجانة ثم ألقى على الجموع التى جمعوها وحشدوها نظرة وابتسامة ثم صاح:

«أيا الناس إن «الحسين بن على» من خير خلق اللـه، فأجيبوه وانصروه وإن الكذاب ابن الكذاب، هو عبيد الله بن زياد؛ فالعنوه والعنوا أباه»!!

هل تستطيع كل فصاحـة البشر، أن تعلق على هذا الموقف بثناء، أو إطراء، أو تمجيـد!! كلا فلنلق نظرة مـزدرية على ابن زياد ولد مرجانـة؛ لنرى ما أنزل به موقف «قيس» العظيم من خزى وإذلال وسعـار. لقد جن كالكلب المسعور، وراح يلعن ويرجم شياطينه لأنهم امهلوه حيًا حتى أكـمل عبارته القاصمة. ثم أمرهم أن يلقوا به حـيًا من أعلى سور الـقصر، فقـذف به، حيث اندقت عظامـه، وغربت حيـاته. لم يعلم «الإمام الحـسين عليه السلام» بمصيـر «قيس» بعد ولقـد استأنف سـيره ومسراه حتى انتهى إلى مكان يدعى ـ زرود ـ وهناك أبصر فسطاطًا مضروبًا. فسأل عنه فعلم أنه لـ «زهير بن القين» فـأرسل «الإمام الحسين عليه السلام» فى طلبه، فتثاقل أول الأمر، ثم ذهب إلى لقائه ضجراً وحين التقيا، أسر «الإمام الحسين عليه السلام» إليه

حديثًا، لم يكد الرجل يسمعه حتى تهلل وجهه، وامتلأ غبطة وبشرا ثم سارع فنقل فسطاطه إلى جوار فسطاط «الإمام الحسين ﷺ» وقال لمن كان معه من أهله: «من أحب منكم أن يتبعنى، وإلا فإنه آخر العهد بيننا» ثم التفت إلى زوجته وقال لها: «أما أنت، فالحقى بأهلك؛ فإنى لا أحب أن يصيبك بسببى سوء» وانصرف أقرباؤه عائدين إلى موطنهم، مصطحبين معهم زوجته. ترى ماذا قال له «الإمام الحسين ﷺ» حين ناجاه؟![1].

هل وعده بمنصب، أو مغنم..؟؟ لو كان ذلك، ما سرح زوجته، ولا قال للذين كانوا معه مودعًا إياهم: «إنه آخر العهد بيننا» ثم بأى مغنم يعده «الإمام الحسين ﷺ» وقد جاءته الأنباء بمقتل رسله، وشراسة عدوه؟؟ إنه حدثه عن قضيته العادلة، ثم ختم حديثه معه قائلا: تلك هى القضية، ففيم إبطاؤك عن الجنة؟ وتابعت القافلة سيرها، كاسبة هذا النصير الجديد، ومنتظمة رجالا آخرين كان ينضمون إليها خلال عبورها بقراهم وخيامهم عبر الطريق الطويل. وبعد مسيرتهم من جديد، أبصروا فارسًا يثير النقع، ويطوى الأرض. لقد كان رسول ـ عمر بن سعد ـ الذى أوصاه «مسلم بن عقيل» ـ قبل مقتله بأن يرسل للحسين يخبره بما حدث، وينصحه بالرجوع. لم يبق فى الأمر إذن شك ولا ريب. ولم يدر فى خاطر الإمام الحسين ﷺ أدنى تردد، بل انتضى عزمه وواصل سيره. كل ما هنالك، أنه أعفى أولئك الذين تطوعوا لنصرته من رجال القبائل التى مر بها خلال سفره. لقد انضموا إليه على أمل النصر. أما الآن فالأمل فى الاستشهاد وحده ومضى فى صحبة أهله، وخاصته، والنصير الجديد «زهير بن القين».

وكان الإمام الحسين ﷺ حينذاك، ما يزال متابعًا طريقه ومعه مجموعة صغيرة، هى عائلته وبعض خلصائه، دون معرفة بمتغيرات الأمور. ثم جاءت الصدمة التى وضعته على أخبار المحنة، بعد أن نقل إليه عبدالله بن مطيع ـ وكان قادمًا بالمصادفة من العراق ـ الصورة القاتمة للوضع المستجد فى الكوفة. ولكن الإمام الحسين ﷺ، كان ما يزال قادرًا على الاختيار الصعب، وربما أكثر إصرارًا

---

1 ـ خالد محمد خالد ـ نفس المرجع ص95.

من مكة، حين اتخذ قراره الحاسم والنهائى بمتابعة الطريق إلى العراق، دون أن تحمله على التراجع أو الوهن أخبار «الانقلاب» الأموى فى الكوفة. ولعله راهن حينذاك على آخر أوراقه، فى محاولته الاقتراب من الكوفة والاتصال بقاعدته ومادة الثورة، أو لعله كان على ريبة من جرأة السلطة فى حرق نفسها حتى الانتحار، للحيلولة دون بلوغه الكوفة، تلك المعادلة التى وصلت إلى قمة الاختلال، عندما خرق الحكم الأموى فى عهد يزيد، البديهيات من شروطها وقواعدها العامة. ومن هذا المنطلق، توالت الأحداث على الجبهة الأموية كما هو مرسوم لها، بعد أن حزم عبيدالله بن زياد أمره لاستكمال الفصل الثانى والمثير من القضية التى انتهت عمليًا دون أن تتم فصولها، لكنها كرمز، ظلت متوهجة عبر عشرات القرون. ذلك أن الوالى الأموى، كان حريصًا على تحدى سبط رسول الله محمد ﷺ الإمام الحسين عليه السلام والوقوف فى طريقه، منتدبًا إحدى الفرق الصغيرة بقيادة الحر بن يزيد التميمى لمراقبة تحركاته، وسرعان ما أعقبها بفرقة أخرى كبيرة، اختار لقيادتها ابن أحد الصحابة التاريخيين، وهو عمر بن سعد بن أبى وقاص، ومعها أوامر مشددة بحسم الأمور فى كربلاء، حيث عسكر الإمام الحسين عليه السلام مع جماعته، وقد حاول ابن سعد ـ حسب الروايات ـ التخلص من المهمة الثقيلة، ولكن دون نتيجة، لاسيما وأنه سمى لوقت قريب واليًا على «الرى»، مما وضعه ذلك فى مأزق الاختيار بين الولاية والمهمة. وبعد نحو أسبوع من المفاوضات، كان القائد الأموى قد اتخذ قراره بتنفيذ أوامر السلطة فى الكوفة، والإمام الحسين عليه السلام بدوره رفض شرط ابن زياد الأخير، بـ «المثول» لديه فى قصر الإمارة. وفى العاشر من محرم من عام إحدى وستين للهجرة، حدث ما كان متوقعًا دون مفاجآت تذكر، سوى التحاق الحر بن يزيد، قائد الفرقة الأولى، بقافلة الإمام الحسين عليه السلام، بعد أن تهيب الموقف الخطير، تلك القافلة التى اختارت نهايتها البطولية فى كربلاء. وهكذا فإن آخر فصول الثورة الكوفية التى أعدت ليقودها الإمام الحسين عليه السلام، أبرز شخصيات البيت الهاشمى وسبط رسول الله محمد ﷺ حينذاك، تحول إلى مأساة دموية، اضطربت لها ضمائر المسلمين واهتزت أركان النظام الأموى ومعه الخليفة نفسه الذى حاول مسح يديه من المجزرة وإلصاقها بابن زياد.

مذبحة كربلاء لأبناء رسول الله محمد (ﷺ):

فرض ابن زياد، حول الكوفة حصاراً محكمًا، فلا يخرج من أهلها أحد، مخافة أن ينضموا لموكب البطل القادم إلى الكوفة. ولم يأذن لأحد من أهلها بالخروج إلا إذا كان ذاهبًا للحج، شريطة ألا يكون يحب «الإمام الحسين عليه السلام» أو التشيع له. وفى نفس الوقت، أطلق من وراء مشارفها وحدودها البعيدة طلائعه وسراياه، آمراً إياها أن تتربص بقافلة «الإمام الحسين عليه السلام». فإذا التقت بها إحداها احتجزتها حيث هى، ثم أرسلت بالخبر لابن زياد. وعند إحدى القرى الرابضة على حدود العراق، التقى ركب «الإمام» بإحدى تلك الطلائع. كانت تضم ألف فارس، تحت إمرة «الحر بن يزيد التميمى». ولم يكن «الإمام الحسين عليه السلام» يراهم قادمين نحوه، يتصببون عرقًا من وقدة الحر وقد تيبست شفاههم من الظمأ، حتى أمر فتيانه أن يستقبلوهم بالماء، فشربوا حتى رووا، ثم جلسوا فى ظلال خيولهم، وأذن مؤذن لصلاة الظهر، فسأل «الإمام الحسين عليه السلام» الحر بن يزيد: (اتصلى بأصحابك وأصلى بأصحابى)..؟ وأجابه الحر قائلا: «بل نصلى جميعًا بصلاتك» ومضى الوقت بعد الصلاة فى حديث وتحاور. ثم صلوا العصر حين جاء موعده. واستأنفوا بعد الصلاة الحوار قال «الإمام الحسين عليه السلام» لهم: «إنى لم آتكم حتى أتتنى كتبكم، وقدِمَت علىَّ رسُلُكم، فإن أعطيتمونى ما أطمئن إليه من عهد وميثاق دخلت معكم مصركم، وإن تكن الأخرى انصرفت عنكم». لكن ـ الحر بن يزيد ـ أنبأ «الإمام الحسين عليه السلام» رضى الله عنه أنه لايدرى من الأمر شيئًا، وأنه كلف من أمير الكوفة والبصرة ـ عبيد الله بن زياد ـ بمهمة محددة، هى انتظار ركب «الإمام الحسين عليه السلام» حين يجىء، ثم قيادته إلى ابن زياد بالكوفة .. ابن زياد بالكوفة؟!! يا لهوان الدنيا حين يمسك بتقاليدها السفلة، وتهيض فيها أقدار الكرام.

قال سبط رسول الله محمد ﷺ الإمام الحسين عليه السلام: «الموت أدنى إليك مما تريد»!! ثم أمر أصحابه، فحملوا متاعهم، وركبوا رواحلهم، ثم تقدمهم فى المسير منصرفًا عن الكوفة، مغيراً اتجاهه. لكن «الحر بن يزيد» أمر فرسانه فقطعوا

عليهم الطريق. وصاح به الإمام الحسين ﷺ: ماذا تريد؟ قال الحر: أن تصحبنى إلى ابن زياد. قال سبط رسول الله محمد ﷺ الإمام الحسين ﷺ: إذن والله لاأتبعك. وأجابه الحر: إذن والله لا أدعك. وصاح سبط رسول الله محمد ﷺ الإمام الحسين ﷺ: إنها الحرب إذن.!! وهنا لانت عريكة الحر بن يزيد فقال «إنى والله لا أريد قتالكم ولم أومر به، وإنى لأرجو أن يرزقنى الله فيك العافية، ولا أبتلى بشىء من أمرك. ولقد أمرت إن أنا لقيتك ألا أفارقك حتى أخبر الأمير ابن زياد، فإن رأيت فاتخذ طريقًا لاتدخلك الكوفة ولا تردك عنها حتى يأتينا رأى الأمير». ومضى ركب «الإمام الحسين ﷺ» يضرب فى تلك الرقعة من الأرض، يتيامن مرة، ويتياسر أخرى. وفرسان ابن زياد بقيادة الحر التميمى يذودون الركب عن البادية كلما همَّ أن يدلف إليها ويدفعونه تجاه الكوفة فى رفق. ولم يكد الركب يبلغ «نينوى» تلك القرية التى قيل إنها كانت موطن النبى «يونس» عليه السلام، حتى تراءى لهم من النقع المثار، راكب يغذ السير ويطوى الرمال. ولبثوا مكانهم ينتظرون، فإذا هو رسول ابن زياد للحر بن يزيد يحمل إليه كتابًا يقول فيه: «أما بعد، فشدد على «الحسين» فى المكان الذى يوافيك عنده كتابى، ولاتنزله إلا بالعراء، فى غير حصن وعلى غير ماء، وقد أمرت رسولى ألا يفارقك حتى تأتينى بإنفاذ أمرى، والسلام». وتلا ـ الحر التميمى ـ الكتاب، ثم ناوله «الحسين» فتلاه، وأراد الحسين أن يستأنف سيره متجهًا صوب مسيل ماء، فمنعه ـ الحر التميمى ـ الذى كانت تحاصره نظرات الرقيب الوافد من عند ابن زياد، وغير سبط رسول الله محمد ﷺ الإمام «الحسين ﷺ» اتجاهه، وسار بركبه والفرسان عن جانبيه. ولكن إلى أين؟ لقد خشى الحر أن تفلت الفرصة منه، فتصدى للركب السائر، وأصر على النزول حيث انتهت خطواته ونزل الركب من فوق رواحله. وألقى الإمام الحسين ﷺ بصره على الفضاء الموحش حوله فى كربلاء. وكربلاء فى طرف البرية عند الكوفة واشتقاقه من الكربلة رخاوة فى القدمين، يقال: جاء يمشى مكربلا أى كأنه يمشى فى طين، فيجوز على هذا أن تكون أرض هذا الموضع رخوة فسميت بذلك. ويقال كربلت الحنطة إذا هززتها ونقيتها، فيجوز على هذا أن تكون هذه الأرض منقاة من الحصى والدغل فسميت بذلك. والكربل: اسم نبت

الحماض. وقد روى أن الإمـام الحسين عليه السلام لما انتهى إلى هذه الأرض قال لبعض أصحابه: ماتسمى هذه القـرية؟ وأشار إلى العقر. فقالوا له: اسمهـا العقر، فقال الإمام الحسين عليه السلام: نعوذ بالله من العقر (من عقر الفرس والناقة وغيرهما، حصد قوائمها بالسـيف) ثم قال: فما اسم هذه الأرض التى نحن فيـها؟ قالوا: كربلاء. فقال: «أرض كرب وبلاء» وأراد الخروج منها فمنع[1].

فاختفى تفاؤله وراء إحسـاسٍ بالجزع، وتذكَّر ذلك اليوم الذى تحدثنا عنه من قبل، يوم كان «الإمام علىّ عليه السلام» فى طريقه إلى «صفِين» فوقف على نفس المكان، وقال: «هنا، محط رحالهم، ومهـراق دمائهم» تذكر «الإمام الحسين عليه السلام» المشهد كله، فقـد كان يومـئذ مع أبيـه وذاب الوجود من حوله فى لحظـات تأمل حارة، صاهرة كربلاء ها هى ذى بين نـبوءة الأمس، وواقع اليوم، ومصيـر الغد: أى سر للقدر، ينشره ويطويه، يظهره ويخفيه وأية حكمـة إلهية، تقود حياتنا بين مطالعها ومـغاربهـا مذعنة لقـدرها الحكيم، وتقـديرها العليم!! لقـد راح البطل يستـعيـد بخواطره ذلك اليـوم، وتلك الواقعة، وتلك النبوءة!! وراح يهـز رأسه المضىء فى حركة متأملة، كمن أدرك الحكمة وطالع المصير. .

خطب الإمام الحـسين عليه السلام خطبة وجـيزة ذات معنى عـميق حينمـا قال مما قال: «الناس عـبيد الدنيا، والديـن لعق على ألسنتهم، يحوطونه مـا درت عليهم معايشهم، فإذا محصوا بالبلاء، قلَّ الديانون. . » ثم حمد الله وأثنى عليه. وصلى على النبى وآله وخطب قائلا: «أمـا بعد: فقد نزل بنا من الأمـر ما قد ترون، وإن الدنيا قد تغيـرت وتنكرت وأدبر معروفها: فلم يبق منها إلا صبـابة كصبابة الإناء، وخسيس عيش كالمرعى الوبيل. ألا ترون أن الحق لايعمل به، وأن الباطل لايتناهى عنه، ليرغب المؤمن فى لقاء الله محقًّا. فإنى لا أرى الموت إلا سعادة والحياة مع الظالمين إلا برمًـا» ويعد هذا الخـطاب، أول خطاب ألقاه الإمـام فى كربلاء. أمـا رجاله فـمن المؤمنين المخلصين البـواسل، ليس فيـهم مَصلحى نفـعى واحد قط.

---

1 ـ محمد رضا ـ الحسن والحسين سبطا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ـ ص135.

فنزول كـربلاء كان إيذانًا بالتـخلص من جمـيع عشـاق الدنيا. لذا، فـإن أسلوب الخطاب هذا، وما سبقـه من الكلمات المذكورة وصيغها، جـاءت تخاطب العقول والقلوب المؤمنة، متـعاملة مع روح المعانى السـامية التى يعـشقها المؤمن ـ النصـير الحسينى ـ ويضحى متفانيًا فـى جنبها . . فكلماته عليه السلام تهز القلوب، وترن فى الآذان: فنحن عترة نبيك ـ كما ناجى الرحمن ـ والناس عبيد الدنيا. وأن الدنيا قد تغيـرت وتنكرت وأدبر معروفها. وأن الحق لايعـمل به والباطل لايتناهى عنه، وليرغب المؤمن الحـقيقى فى لقـاء الله على حقه، لاسـيما والإمـام القائد لا يرى الموت إلا سعادة والحياة مع الظالمين إلا برمًا. تـلك العبارات الصادقة التى خرجت من الصميم الحسـينى، لتدخل قلوب أنصاره الذين ما فتئـوا معه مُذ انطلقوا، أو التحقـوا، أو انضموا. كلمات دخلت قلوب الأنصـار ذلك اليوم، وتدخل قلوب أنصاره فى كل عـصر ومصر، إلى اليـوم، حيث يرددها أتباعـه وأنصاره وشيعـته ويتغنون بها وهم يستمدون منها القوة العارمة والعطاء السخى. ونهض أنصاره بعد إنهاء الإمـام خطبتـه، ليعـقبـوا، وليؤكـدوا له ما هم عليـه. وكان أولهم كـلامًا وأسبقهم قولا النصير المقدام زهير البجلى الذى حمد الله وأثنى عليه ثم قال:[1]

«قد سمـعنا هداك الله يا ابن رسول الله مقالتك، والله لو كـانت الدنيا لنا باقية، وكنا فـيها مخلدين، إلا أن فـراقها فى نصرك ومواسـاتك، لآثرنا النهوض معك على الإقامة فـيها» فدعا له الإمام وجزاه خـيرا، ثم عقب بعد ذلك الخطاب مجاهد آخر، قام برير بن خضير الهمدانى فقال:

«والله يا ابن رسول الله، لقد مـن الله بك علينا أن نقاتل بين يديك وتقطع فيك أعضـاؤنا. ثم يكون جدك شفيـعنا يوم القيامة» فكل من زهيـر البجلى وبرير

1 ـ محـمد على عابدين ـ التـسير الذاتى لأنصار الحـسين ص205 وانظر تاريخ الطبرى ج4 ص305 وعن أبى جعفر الطبرى: فإن ذلك حدث بمنطقة ذى حسم. وانظر ذخائر العقبى لمحب الدين الطبـرى ص149ـ150 واللهـوف لابن طاووس ص30 بتـفـاوت لفظى فى النص.

الهمدانى على أتم الاستعداد للفداء وأكمله من أجل الإمام الحسين عليه السلام ورسالة الحسين والله غالب على أمره. ثم عقب النصير البطل نافع بن هلال الجملى بقوله المطول نسبيًا: «يا ابن رسول الله، أنت تعلم أن جدك رسول الله لم يقدر أن يشرب الناس محبته، ولا أن يرجعوا إلى أمره ما أحب. وقد كان منهم منافقون يعدونه بالنصر، ويضمرون له الغدر، يلقونه بأحلى من العسل، ويخلفونه بأمر من الحنظل، حتى قبضه الله إليه. وإن أباك عليا رحمة الله عليه قد كان فى مثل ذلك. إلا قوم قد أجمعوا على نصره وقاتلوا معه الناكثين والقاسطين والمارقين حتى أتاه أجله، فمضى إلى رحمة الله ورضوانه. وأنت اليوم عندنا فى مثل تلك الحالة، فمن نكث عهده، وخلع بيعته فلن يضر إلا نفسه والله مغن عنه. فسر بنا راشداً معافى، مشرقًا شئت أو مغربًا، فوالله ما أشفقنا من قدر الله، ولا كرهنا لقاء ربنا وإنا على نياتنا وبصائرنا، نوالى من والاك ونعادى من عاداك.» وهكذا. فتلك نماذج رفيعة عظيمة من منطق رجال الركب الحسينى وإنها لمجرد نماذج إذ لم نحظ بنصوص كلمات باقى عمالقة كربلاء إلا أن لمحة تقول: «وتكلم أكثر أصحاب الإمام بمثل هذا الكلام، وقد شكرهم الإمام على هذا الإخلاص والتفانى فى سبيل الله» ثم تحرك موكب المجاهدين الثابتين حتى بلغوا الساحة الموعودة والميدان المعلوم فى السماء كما صار معلومًا فى الأرض، إنه المكان المكنون فى ضمير الغيب، هو كربلاء التحرير، كربلاء البطولة، كربلاء الابن والنبل والعظمة، فقد قال الإمام علىّ عليه السلام ما سبق أن أوردناه «ها هنا محط رحالنا ومقتل رجالنا هاهنا» أجل هناك سترتفع منائر عمالقة التحرير. هناك مثوى شوامخ الحرية. هناك مراقد الذين جسدوا المثل، وكتبوا الإسلام بمداد دمائهم. فكل من حط الرحال فى كربلاء كان مرابطًا لله، صابراً محتسبًا، ممن أخلص ووفى بعهده، فضلا عمن التحق بالجبهة الحسينية خلال الأيام الأخيرة فى أعقاب أحلك الظروف وأخطرها

---

1 ـ محمد على عابدين ـ نفس المرجع ص206 وانظر: بحار الأنوار ج44 ص382 ـ 383 ـ حياة الإمام الحسين ج3 ص100.

وأقساها وارتسمت أمام خاطره بحروف كبار آية القرآن العظيم: **﴿قل لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم. وليبتلى الله ما فى صدوركم، وليمحص ما فى قلوبكم. والله عليم بذات الصدور﴾**. ونهض فى قوة وطمأنينة، وراح يشارك صحبه فى شد الخيام، فقد آن للعقيلات والأخوات أن يسترحن، بعد ما أضناهن لغوب السفر، ومشقة الطريق وراح وهو يعمل، يردد فى حبور وتهلل آية الله فى كتابه: **﴿إن وليى الله الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين﴾**[1].

كان اليوم، غرة المحرم والعام، الواحد والستين للهجرة والمكان، كربلاء، على مقربة من نهر الفرات وقبل أن نبلغ اليوم العاشر من المحرم، يوم الواقعة الرهيبة، والمهيبة. يوم الآلام، والمجد، يوم الفاجعة، والبطولة، يوم المأساة، والعظمة. قبل أن نبلغ هذا اليوم، علينا أن نتابع الأحداث التى سبقته، وكانت جزءاً من صميمه. إن ابن زياد فى الكوفة يعمل ليل نهار فى إعداد ضربته الآثمة المجرمة التى تلهث وراءها روحه المظلمة المسعورة. وها هو ذاك، يختار قواده للمعركة، ويحشد المقاتلين. وحين يرى الناس يهربون من الانضمام لجيشه. يلجأ إلى طريقته فى معالجة العصيان، فيجمع أهل الكوفة أمام قصره. ثم يأتى بأحد المضربين عن الاشتراك فى جيشه فيأمر بضرب عنقه، ثم يلقى برأسه ليتدحرج على الأرض أمام الناس الذين يفزعهم المشهد، فيقبلون على طاعته كارهين ومكرهين. وتذكرّ ابن زياد أن لديه جيشًا مجهزاً، قوامه أربعة آلاف فارس، كان قد أعده تحت قيادة ـ عمر بن سعد ـ لمجابهة ثورة الديلم فى أرض همذان. كما كان قد عين ـ عمر بن سعد بن أبى وقاص ـ هذا واليا على الرى، فدعاه إليه وأمره أن يخرج بجيشه إلى كربلاء.

واعتذر عمر بن سعد، فراراً من أن تتلوث نفسه ويداه بجريمة لايطيقها ضمير به مسكة من رشاد. لكن الطاغية هدده بحرمانه من الولاية التى كان يطمح

1 ـ خالد محمد خالد ـ المرجع السابق ص100.

إليها ويعزله عن الجيش كله، فضعفت مقاومة عمر بن سعد بن أبى وقاص وغاب رشده، وقبل القيام بالمهمة البشعة، وسار بجيشه إلى كربلاء. وكان مستشار ابن زياد لهذه الحملة الباغية، مسخ شائه الخَلْق والخلُق، اسمه شِمْر بن ذى الجون. رجل مدخول الإسلام، انشقت عنه الأرض بغتة فى الأيام الأولى لفتنة الخوارج الذين ناصبوا الإمام عليًا العداء. فأدلى معهم بدلوه، عاملا لحساب نفسه الخبيثة، أو لحساب قوة خفية شريرة. ومن تلك الأيام، وهو يكيد للإسلام، ويخرب فى صفوفه متخفيًا وراء ذلك القناع المشبوه ـ قناع انتمائه للخوارج وتسلله بمبادئهم إلى أغراضه المنكرة وأغراض القوى التى يعمل لحسابها. ولقد نفث فى روع ابن زياد أن هذه فرصة عمره، إذا استطاع أن يجهز على «الإمام الحسين» ويقدم رأسه هدية لسيده يزيد. نحن الآن فى اليوم الثانى من المحرم وقد وافى كربلاء ـ عمر بن سعد ـ فى جيشه المكون من أربعة آلاف فارس، كما ذكرنا من قبل. ولقد عسكر هناك على مقربة من معسكر «الإمام الحسين» الذى لايزيد عن اثنين وسبعين من أهله وأنصاره وابتدأ عمر بن سعد، مهمته باختيار أحد رجاله، واسمه قرة بن سفيان الحنظلى، آمرًا إياه أن يذهب إلى الإمام «الحسين» رضى الله عنه، فيسأله: لماذا جاء؟ وأجابه «البطل»: «إن أهل هذا المصر ـ يعنى الكوفة ـ كتبوا إلىَّ يذكرون أنهم لا إمام لهم، ويسألوننى القدوم عليهم، فجئت إليهم وفى الطريق علمت نكوصهم، فأردت الرجوع، فمنعنى الحر بن يزيد، وسار بى إلى هذا المكان».

وفرح عمر بن سعد، بهذه الإجابة التى أثلجت صدره إذ رأى فيها بادرة لإمكان الوصول إلى حل سلمى ينجيه من خوض قتال يتمنى ألا يطوق عنقه بأوزاره الثقال. فبادر بالكتابة إلى طاغية الكوفة، الذى أجابه على الفور بكتاب يقول فيه، «قد بلغنى كتابك، فاعرض على الإمام الحسين عليه السلام البيعة ليزيد؛ فإذا بايع ومن معه فأخبرنى وسيأتيك رأيى». وعرض ابن سعد كتاب الطاغية على «الإمام الحسين عليه السلام» فكان جوابه «لا أجيب ابن زياد إلى ذلك أبدًا. وإن يكن الموت فمرحبًا به». ويرسل عمر إلى أميره برد «الإمام الحسين عليه السلام» فيكتب ابن زياد إليه: «امنع الحسين وأصحابه الماء، وحل بينهم وبينه حتى لايذوقوا منه حسوة، كما فعلوا بالتقى عثمان بن عفان» يا للفجار حين يتوقحون ترى هل سأل ابن زياد

نفسه: أين كان يوم منع «عثمان» الماء وأين كان «سبطى رسول الله محمد ﷺ الإمام الحسن والحسين وأبوهما الإمام». أما هو، فكان جيفة تنتقل فى مراتع الإثم. وأما «الإمام»، ومعذرة إلى الله عن هذه المقابلة التى نلجأ إليها مضطرين. نقول: أما «الإمام» فقد كان يحمل قربة الماء على كاهله، ويخوض بها بين الثوار مقتحمًا صفوفهم، متحديًا حصارهم. يذودهم ويذودونه، ويدفعهم ويدفعونه، حتى سقطت عمامته من فوق رأسه، وحتى أنفذ الماء إلى الخليفة الظمآن!!

وكانت الرقابة التى فرضت قد بلغت أوجها، فلا يتمكن فرد من الخروج من الكوفة لنصرة الإمام الحسين عليه السلام، أو يتسلل من بين صفوف الكتائب الهائلة، ليلحق بجبهة الجهاد وعمالقة الرسالة. بيد أن الذى لايتمكن من ذلك إنما هو ضعيف الإرادة خائر العزيمة متردد النية، وهو من الكوفيين المتخاذلين بينما التابع لأهل بيت الرسالة المحمدية، والشيعى الحقيقى يرى نفسه على أتم الاستعداد وأعظمه لبلوغ النصرة الحسينية بشتى الأساليب والوسائل لتحقيق مسؤوليته. وسوف نلمح إلى أولئك الذين سحقوا جميع القوانين الحكومية، والأحكام العرفية التى أعلنتها السلطات، واتصلوا بالقيادة الحسينية وانضموا إلى صفوف أنصارها ولم يفارقوا ما وطنوا أنفسهم له وعليه، حتى فارقت أرواحهم أجسادهم[1]. نشير إلى عدد ممن اندفعوا ذاتيًا والتحقوا، منهم البطل (أبو ثمامة الصائدى) قد بلغ الركب قبل نزوله بكربلاء، وكذلك المجاهد (عمر بن جندب الحضرمى) والمجاهد (جندب بن حجير الخولانى) وكذلك هو شأن بعض من التحق (كأبى الشعثاء الكندى) وأنه التحق قبيل لقاء الحر، بدلالة الرواية التى تنص على حضور الكندى عندما وصل رسول ابن زياد للحر فأمره بأن يجعجع بالركب، وقد قام الكندى بتوبيخ ذلك الرسول، وهدده بنار جهنم[1].

وهناك أفراد من ذوى الإيمان الكبير، قد تحركوا فى غمرة الظروف الرهيبة من الكوفة إلى كربلاء رأسًا، وبعزيمة الحسينيين الأفذاذ، وكان من أبرز أولئك

---

1 ـ محمد على عابدين ـ المرجع السابق ص214 ـ وانظر: وسيلة الدارين ص98 ـ 176 ـ 114 وذكرت اسمائهم فى كتاب (أنصار الحسين) ص89 ـ 87 ـ 64.

الأفذاذ، العقائدى العالم تلميذ الإمام على سلام الله عليه، زعيم بنى أسد: (حبيب بن مظاهر الأسدى) وقد قيل بأن غلامًا كان معه قد رفض البقاء، وأكد لحبيب عشقه للمضى بنيته الخالصة لجهاد أهل الانحراف، وليكون مع الإمام القائد سبط الرسول الأعظم. كما أنه انطلق غير هذين، عدد من أهل البصائر من الأنصار البواسل مثنى وفرادى، منهم: (قاسط بن زهير التغلبى) وأخوه: (كردوس) و(كنانة بن عتيق التغلبى) ثم: (مسلم بن كثير الأعرج) و(حنظلة بن أسعد الشبامى) و(جبلة بن على الشيبانى). و(سالم بن عمرو مولى بنى المدينة الكلبى). و(سوار بن منعم بن جابس الهمدانى)، و(عمر بن عبدالله الجندعى) و(عبدالرحمن الأرحبى)، و(يزيد بن الحصين المشرقى)، و(أنيس بن معقل الأصبحى)، والغفاريان: (عبدالله وعبدالرحمن) وغيرهم ممن التحق من الكوفة حالما سمع بنزول الإمام سلام الله عليه فى صحراء كربلاء وكان كل منهم منفردًا أو مع نصير ثان، وندر أن كانوا ثلاثة. ولقد كانت الظروف من العسرة والضيق بحيث لم يتمكن رجالات الإخلاص من الكوفيين أولئك، ومن شيعة آل الرسول، أن يقوموا باتفاق للخروج بشكل جماعى[1].

وأما «الإمام الحسين وأخوه الحسن» فقد كانا هناك بأمر من أبيهما، يحرسان الخليفة عثمان بن عفان ويذودان عنه عوادى الثوار. ولقد جرحا، وسال منهما الدم، ورغم ما بذلاه من طاقة وجهد؛ فإنهما لم ينجوا بعد استشهاد «عثمان» رضى الله عنه من لوم أبيهما الشديد، بل ولطمهما بيديه، وهو يصرخ فيهما: «لماذا لم تموتا دونه». والآن، يزعم هذا الغر الكذوب أنه يثأر لعثمان، ولايتورع عن اتخاذ ذكراه وسيلة دنيئة يبرر بها وحشيته وحرمان أبناء الرسول فى تلك الأرض القائظة من شربة ماء. وعاد الحوار بين «الإمام الحسين عليه السلام» وعمر بن سعد، فاستمسك «الإمام الحسين عليه السلام» بموقفه فى رفض مبايعة يزيد. يقول «عقبة ابن سمعان» وهو أحد اثنين من أصحاب «الإمام الحسين عليه السلام» خلصا من المعركة:

1 ـ محمد على عابدين ـ نفس المرجع ص215.

«صـحـبت «الإمام الحـسـين عليه السلام» من المدينة إلى مكة، ومن مكة إلى الـعراق، وسمعت جـميع أحاديثه حـتى يوم مقتله فو الله ما زاد علـى أن قال لهم: دعونى أرجع إلى البلد الذى أقبلت منه، أو دعونى أذهب فى هذه الأرض العريضة؛ حتى ننظر ما يصير إليه أمر الناس، فلم يفعلوا». (1)

ولا مناص هنا من الـتسـاؤل عن الـقوى المسـاندة لـنظام الملك الجـديد فى دمشق؟ إنه من الصعب تحـديد هذه القوى تحديدًا دقيقًـا، ولاسيما تحديد موقـعها الاجتـماعى والطبـقى، ولكن بعض الإشارات الواردة فى النصـوص التى وصلتنا تسمح بالقول بأن الفئات الاجـتماعية التى ارتبطت مصالحها السيـاسية والاقصادية بالنظام السيـاسى الجديد فى دمشق هى التى دعـمت الاتجاه الذى تزعمه مـعاوية، وقاومت أنصار التيار الثانى الذى تزعـمه الإمام على، ثم ابنه الإمام الحسين رضى الله عنهما، فهذا سليمـان بن صرد يقول: إن قتلة الإمام الحسين عليه السلام هم أشراف الكوفة، وقد صور الموقف فى الكوفة بدقة مـجمع بن عبدالله العائذى، وهو أحد النفر الأربعة الذين جاؤوا إلى الإمام الحسين رحمه الله حين سألهم: أخبرونى خبر الناس وراءكم، فقال له مجمع: «أمـا أشراف الناس فقد أعظمت رشوتهم وملئت غرائرهم، يستمال ودهم، ويستخلص به نصـيحتهم، فهم إلب واحد عليك، وأما سائر الناس بعد، فإن أفئدتهم تهوى إليك، وسيوفهم غدا مشهورة عليك». وأبادر إلى القول هنا بأن موقـف أشراف الكوفة، والفئات المتنفـذة سياسيًا واقـتصاديًا فى الأمصار الأخـرى لم تكن مؤيدة عن اقتناع بشرعيـة حكم معاوية، أو يزيد، وإنما دفاعًا عن المصالح والامتيازات، ومن أبلغ الأمـثلة على ذلك موقف عمر بن سعد ابن أبى وقاص قائد الجـيش الأموى يوم كربلاء وخاصـة الحوار الذى دار بينه وبين الإمام الحـسين رحـمة الله عليه، وقـد نقل روايته أبو مـخنف عن أبى جناب عن هانئ بن ثبيـت الحضرمى، وكـان قد شهـد قتل الإمام الحـسين عليه السلام، تقول هذه الرواية إن الإمام الحـسين رضى الله عنه توجـه إلى عمر بـن سعد قـائلا: «اخرج

---

1 ـ خالد محمد خالد ـ نفس المرجع ص106.

معى إلى يزيد بن معاوية وندع العسكرين، قال عمر: إذن تهدم دارى، قال: أنا أبنيها لك، قال: إذن تؤخذ ضياعى، قال: إذن أعطيك خيراً منها من مالى بالحجاز. قال: فتكره ذلك عمر، قال: فتحدث الناس بذلك، وشاع فيهم من غير أن يكونوا سمعوا من ذلك شيئًا ولا علموه»[1].

تسيل دموع عمر بن سعد على خديه ولحيته حين يسمع السيدة زينب ابنة فاطمة بنت محمد رسول الله ﷺ رحمة الله عليهما تقول له: «أيقتل أبو عبدالله وأنت تنظر إليه!»، ولكن ذلك لايمنعه أن ينتدب بعد حين عشرة من فرسانه ليدوسوا بخيولهم جثة الإمام الحسين رضى الله عنه!! فقد كان سبط رسول الله محمد ﷺ الإمام الحسين عليه السلام يمثل - إذن - التيار الذى تزعمه أبوه رحمة الله عليه فى صفين، وبقى مخلصًا له، وهو الدفاع عن مبادئ الدعوة الإسلامية، ومقاومة جميع مظاهر الزيغ والانحراف، ومقاومة كل المحاولات لتحويل مؤسسة الخلافة إلى كسروية، وكان سبط رسول الله محمد ﷺ الإمام الحسين عليه السلام يمثل ضمانًا لعدم انتهاك حرمة الإسلام، وحرمة قريش والعرب عامة، وخشى كثير من المسلمين من انتهاك حرمة الإسلام بعد مقتل الإمام الحسين عليه السلام، وأن يلحق الذل بالمسلمين وهو ما حدث فعلا، فقد انتهكت حرمة الحرمين الشريفين، وأصبح المسلمون يكرهون ليس على البيعة ليزيد بالخلافة فحسب، بل على أنهم خول له»! فلا غرابة - إذن - أن نجد فى صفوف التيار الذى يمثله الإمام الحسين عليه السلام عدداً كبيراً من الشخصيات الإسلامية التى عرفت بتمسكها الشديد بقيم الدعوة الإسلامية الجديدة، ومقاومتها لكل مظاهر الظلم والانحراف، وعرفت بورعها ونسكها، فلما حاول زياد بن أبيه أن يزور شهادة شريح بن هانئ الحارثى ضد حجر بن عدى كتب إلى معاوية يقول: «بسم الله الرحمن الرحيم، لعبد الله معاوية أمير المؤمنين من شريح بن هانئ أما بعد، فإنه بلغنى أن زياداً كتب إليك بشهادتى على حجر بن عدى، وأن شهادتى على حجر أنه ممن يقيم الصلاة،

---

1 - د. الحبيب الجنحانى - المرجع السابق ص168.

ويؤتى الزكـاة، ويديم الحج والعمرة، ويأمـر بالمعروف، وينهى عن المـنكر، حرام الدين والمال، فإن شئت فـاقتله، وإن شئت فدعه». إن هذه الصـفات ليست نادرة فى صفوف أنصار الإمام الحسين رحمة الله عليه وعلى آله وأصحابه[1].

طالما كان الباطل بهذه الصفة وبهذه المثابة، فإن سبيله الوحيد لبقائه واستمرار دوام وجـوده هو الإغراء والإرهاب، أى أسلوب إثارة الأطمـاع، وتهـييج النزعـة النفعية، وأسلوب إثارة الفزع والخوف والهلع. أما أن يستعمل أسلوبًا مغايراً لذينك الأسلوبين فأمر لايضمن حياته لفترة وإلى حين. فالقسر والجبر والإكراه، والإغراء بتقديم الأمـوال، أو التهديد بالسجن والـسيف، كلها قوام وجود الكـيان المنحرف والفاشل بنفس الوقت. وقد عمد آل أبى سفـيان إلى جملة أساليب كان أبرزها ما ذكرناه. وحـسبنا الإشارة إلى الكيفـية التى تجمع فيـها أعداء الإمام الحـسين عليه السلام ريحانة حبيب الله صلى الله عليه وآله، دون أن نتناول بالتـخصيص الشخصيات التى اسـتخدمها الحكم الأموى لتنفيذ الجريمة التاريخية بحق الله ورسوله، وإنما نشير إلى عموم من جرفهم التيار الأموى بآلة الإغراء، واكتسحتهم الموجات الجاهلية بسيف الإرهاب. فى الكوفة، كما فى كل إقليم آخر عدد من الوجهاء البارزين الذين كانوا يسمونهم آنذاك الأشراف. ومن هؤلاء عـدد انتهازى وصـولى مصلحى، حتى إن مـراسلته للإمام الحـسين عليه السـلام كانت انسيـاقًا مع جو المراسلـة وأملا فى الحظوة عند الإمام فـيما لو حكم البلاد، وحبًا بالدنيا ومـا تدره من عطاء رخيص لايلبث أن يفنى ويزول، فهؤلاء البشر كان من السـهل عليهم أن يتخلوا عن عهودهم المكتوبة فى الرسائل قبل أيام، طالما نالوا ما يحبون من الدنيا واستلموه نقداً من يد ابن زياد الذى قدم لهم الرشاوى وأشبع المطامع، حيث عنـى بهم نظراً لتأثيرهم على عموم الجمهـور، تلك الزمرة من الخونة المرتزقة المأجـورة هى التى ذكرها المؤمنون الذين استقبلوا الإمام فى الطريق وكان معهم الطرمـاح الطائى فيما أخبروا الإمام قائلين: «أما أشـراف الناس فقـد أعظمت رشوتهم، وملئت غـرائرهم، ويستـمال ودهم. ويستـخلص به نصيحـتهم، فهم إلب واحـد عليك، وأما سائر الناس بعـد، فإن

---

1 ـ د. الحبيب الجنحانى ـ نفس المرجع ص168.

أفئدتهم تهوى إليك وسيوفهم غدا مشهورة عليك». لاغرو، فتلك طبيعة السياسة الأموية، وصاحبها الذى سنها «معاوية بن أبى سفيان» كان من (حلمه) ودهائه وإنفاقه أنه يشترى الأديان والضمائر بأموال بيت المال الإسلامى وكأنه خزانة ورثها عن أبيه، وهذا خلفه يزيد يكتب إلى زياد وقت الأزمة بدعم عمليات الإحباط بالدراهم والدنانير فيهرج ابن زياد قائلا بعد مدحه لمعاوية:[1]

«إن يزيد ابنه المتقيل (أى المتشبه) له السالك لمناهجه المحتذى لمثاله، قد زادكم مأة مأة فى أعطياتكم».

ويهش ابن زياد لهذه الرسالة وهذه الأساليب الخادعة المضللة فيأمر بجمع الناس فى رحبة مسجد الكوفة الأعظم، ويحشرهم حشراً ويخطب قائلا: «أيها الناس، إنكم بلوتم آل أبى سفيان فوجدتموهم كما تحبون. وهذا أمير المؤمنين يزيد قد عرفتموه حسن السيرة محمود الطريقة محسنًا إلى الرعية، يعطى العطاء فى حقه. وقد أمنت السبل على عهده، وكذلك كان أبوه معاوية فى عصره، وهذا ابنه يزيد يكرم العباد ويغنيهم بالأموال وقد زادكم فى أرزاقكم مائة مائة، وأمرنى أن أوفرها عليكم، وأخرجكم إلى حرب عدوه الحسين فاستمعوا له وأطيعوا» وبالرغم من كل هذا فإن الجميع، جميع جمهور الكوفة، سوف لاينخرطون بمجرد الإغراء بالدراهم، لذا كان لابد من استخدام أسلوب أشد روعة وألما ووقعًا على قلوب الضعفاء، وهو الدفع بقوة الجبر والقسروالإكراه. فقد هدد ابن زياد وأزبد وأرعد، ثم وعد بالسيف القاطع للرؤوس جزاءً لكل من يتخلف عن الخروج لحرب الإمام الحسين، وقد أمر مرتزقته بالمناداة فى شوارع الكوفة وسككها وأزقتها بهذا النداء: «ألا برئت الذمة ممن وجد فى الكوفة ولم يخرج لحرب الحسين!..» ويصادق على هذا سجاياه وسياسته بالقبض والقتل على الظنة والتهمة بلا محاكمة وبلا إلقاء نظرة على القضية، لذا فقد قبض جلاوزته على رجل من أهل الشام،

---

1 ـ محمد على عابدين ـ المرجع السابق ص208 وانظر: تاريخ الطبرى، ج4 ص236 وابن الأثير جـ3 ص281 ـ انساب الأشراف، ج3 ص178.

وصل الكوفة طالبًا لدين له من رجل كوفى وقيل ميراث له، فسأله ابن زياد عما جاء به ولم لا يحارب الإمام الحسين عليه السلام، فقال بأنه دائن جاء ليتقاضى الدين، لكن ابن زياد اغتنمه فريسة سائغة، إذ أمر بقتله: «اقتلوه ففى قتله تأديب لمن لم يخرج بعد» وقتل فعلا ثم ألقى رأسه.

وهكذا تمكن من إسناد قيادات متعددة دعمًا لعمر بن سعد بن أبى وقاص الذى أرسله كأول قائد يحارب الإمام الحسين عليه السلام، ثم تتابعت الكتائب العسكرية، كما أصدر أوامره إلى كل عريف ومنكب - وهم شخصيات توظفهم الحكومة وفى مسؤولية كل واحد منهم عدد من الناس أوقات الحرب والسلم - جاء فيها: «فلا يبقين رجل من العرفاء والمناكب والتجار والسكان إلا خرج فعسكر معى (بمنطقة النخيلة) فأيما رجل بصرناه بعد يومنا هذا متخلفًا عن المعسكر برئت منه الذمة» وشاع هذا الإنذار بين صفوف الكوفيين المتخاذلين، على لسان مجموعة من عملاء الحكم الأموى ومرتزقته، مثل محمد بن الأشعث، وكثير بن شهاب الحارثى، والقعقاع بن سويد بن عبدالرحمن المنقرى. وأسماء بن خارجة وغيرهم ممن أخذ يتجول ويطوف آمراً الناس بطاعة الحكم الفاسد اللاشرعى، ومحذراً من مغبة العصيان، ثم لحق أولئك العملاء بالمعسكر الأموى فى النخيلة حيث كان ابن زياد يوجه وينظم الصفوف ويقسم الكتائب ويبعث بها إلى عمر بن سعد بن أبى وقاص. بينما كان الناس يخشون ارتكاب تلك الجريمة الشنعاء بحق الله وحق سيد المرسلين فقد كان عبد الله بن يسار يحث ببطولة على ضرب الأموية ونصرة ابن رسول الله. فقد كان ابن يسار هذا يخذل الناس عن مناصرة الحكم اللامشروع، فطورد واختفى، وأخيراً قبض عليه ومضى ضحية الكلمة الحرة والقضية العادلة حيث قتل فى السبخة - محلة كوفية. وفى النخيلة حيث ابن زياد كان يهيمن على الأوضاع، كانت ثمة محاولة لاغتياله وقتله وإنهاء المفاسد. إذ تربص به البطل الإسلامى (عمار بن أبى سلامة الدالانى) ولكن ابن زياد كان قد أحاط نفسه بكثير من الجلاوزة والحرس والقوات الخاصة، وكثف حواليه السيوف

والرماح بما لا مجال لبطل ولا فرصة لمجاهد من أن ينال منه، ولما تحير عمار الدالانى ويئس من اغتيال إمام الكفر والفساد عطف واتجه نحو كربلاء لينضم فى جبهة الحسينيين، ثم كان من شهداء الثورة العملاقة. تلك لمحة عن أسلوب العنف والإرهاب الذى سير العدو فيه قطعان جيشه لحرب سيد شباب أهل الجنة سلام الله عليه. ولكن على الرغم من أسلوبى الإغراء والإكراه فقد أخفق الحكم فى إخضاع كل الجمهور تمامًا، بل كان من يتظاهر بالخضوع لايلبث أن يراه البعض متسللا قد اختار الرجوع[1].

كانت بواعث أولئك السائرين كلها خسيسة ورخيصة، الأمر الذى يفت بعضدهم ويثبطهم ويجعل بعضهم يفكر بالرجوع والتهرب بطريقة ما، كما حاول الكثير ذلك وتوسلوا بعدة طرق للامتناع عن حرب سبط سيد الرسل، وجدير بالذكر أن أولئك ليسوا من شيعة أهل البيت الرسالى وإنما كانوا يندفعون بالضمير والوجدان وخشية نهاية العواقب ومحاكمة الرحمن، فالموالى لأهل بيت الرسول محمد ﷺ لايهرب أبدًا، بل لابد أن يصل ويتصل بالحسين وأنصاره، فالتهرب ذاك، لم يكن من كتائب الضلال فحسب، بل من نصرة الإمام، حيث كان الذين يتسللون لواذًا من ها هنا وها هنا، يقومون بذلك فرديًا وجماعيًا، حتى كانت الكتيبة الواحدة التى تبلغ الألف جندى تصل إلى الساحة بكربلاء، قد هبط عدد أفرادها إلى النصف أو أقل منه. ويقول البلاذرى: أن القائد يبعث على ألف مقاتل لايصل إلى كربلاء إلا ومعه «ثلاث مائة أو أربع مائة أو أقل من ذلك. فهم يفرون كراهة منهم لهذا الوجه. لقد كانوا على يقين لايخامره أدنى شك بضلالة هذه الحرب وأنهم إنما يحاربون الله ورسوله، ويقاتلون من أمروا بمودته وطاعته.». فبداهة، كان البون شاسعًا بين أنصار القضية المشروعة وبين حشود أنصار القضية اللامشروعة فلا قياس بينهم بوجه من الوجوه. وقد حفل التاريخ الإسلامى بصور عديدة لمن خرجوا واستشهدوا عن رضى وقناعة، ولكن الفارق كبير بين ذوى الحوافز العقائدية والدوافع الذاتية الكامنة «وبين أن يخرج جندى طاعة لأوامر

---

1 ـ محمد على عابدين ـ نفس المرجع ص211 وانظر: انساب الأشراف ج3 ص179.

الرؤساء، خوفًا من بطشهم ودعمًا للشر وسعيًا وراء مصلحة خاصة أو نفوذ مطلوب، واعتمادًا على وفرة فى العدد والعدة، وأملا فى نصر رخيص يحقق به إذلال البشر وإهدار كرامتهم وقيد حريتهم.» «شتان بين خروج من أجل تثبيت دين الله ونشر العدل والرخاء والحرية والسعادة. وخروج من أجل القتل والتدمير والحرق ونشر المظالم ودفع الإنسانية إلى مواطن الذلة والمسكنة». ولقد وصلت أخبار الإنسلال والتهرب اللذين ذكرناهما إلى ابن زياد، فقام بتنظيم للحد من ذلك الخطر، لاسيما وأن الذين يتهربون لا تنظيم لهم يحفزهم، فتنظيم العدو سينجح مؤكدًا[1].

تم ضبط الحدود وأحكمت السيطرة على الكتائب، وتم إقفال مداخل الكوفة والهيمنة على كل الجيش الذى كان يصل تحت القيادات للانضمام إلى القيادة العامة الأموية العليا لحرب الإمام الحسين عليه السلام، حيث يترأسها عمر بن سعد بن أبى وقاص فقد وضع العدو حدًا لمن يتهرب، وربما تمكن من معرفة وإرجاع من هربوا حينما عادوا إلى بيوتهم فى الكوفة. وهكذا!! كانت كلها حياة ظلم وجور وعنف وإرهاب وطمع. فمنطق الدنانير ولغة السياط، والتعامل بالخوف، كله ساد يومذاك حتى سيطر، كأمر لا مناص منه وحال صعبة لا محيد عنها. وحسبنا الإشارة إلى أن الحاكم الأموى فى الكوفة نفسه، ابن زياد، والقائد الأعلى للجيش نفسه، ابن سعد، قد كانا أسرى أساليب الإغراء والإرهاب فضلا عن مشاهير عملائهما. فمعروف أن ابن زياد نفسه كان يصله تهديد رهيب إذا ما تهاون فى قتل الإمام، فقد كان يكتب له والى مكة - عمرو بن سعيد الأشدق الأموى - فيقول برسالته: «أما بعد، فقد توجه إليك الحسين، وفى مثلها تعتق أو تكون عبدًا تسترق كما تسترق العبيد!». ومعروف ما أغرى به ابن زياد قائده ابن سعد حيث (ملك الرى) وسلطان جرجان، حياة كلها إرهاب وإغراء وأناس كلهم أسرى ذلك الشر وخطرات الشيطان، ونزعات إبليس، من الجندى إلى قائد الكتيبة إلى القائد

1 - محمد على عابدين نفس المرجع ص213 وانظر: حياة الإمام الحسين ج3 ص118 - الاستراتيجية العسكرية الإسلامية، لمحمد فرج ص103.

العسكرى الأعلى فالأمير الوالى، أحدهم يغرى الآخر، وبعضهم يهدد البعض ويرهبه «وكذلك نولى بعض الظالمين بعضًا بما كانوا يكسبون».

رفض الإمام الحسين عليه السلام الذهاب إلى الكوفة للقاء ابن زياد ثم رفض طلب ابن زياد، بأن يبايع يزيد وها هو ذا الهول يحيط به وهو صامد، يرفض الإذعان لعصابة البغى والإثم فى عزة المتقين، وإباء الأكرمين. وضاق صدر ابن زياد بصمود البطل، ففزع إلى مستشاره الزنيم شمر بن ذى الجون، فأشار عليه أن يقسو على ـ عمر بن سعد ـ فى خطابه، ويأمره أن يجيء بالحسين ومن معه إلى الكوفة عنوة، فإن أبوا، قاتلهم حتى الموت. ويلمح شمر، الممتلئ بقذارة النفس وخبث الطوية يلمح فى ذلك الحوار الدائر بين «الإمام الحسين عليه السلام» وعمر بن سعد بادرة قد تفضى إلى مهادنة أو تفاهم ـ الأمر الذى لايشبع نهمه الخبيث إلى التقويض والتخريب اللذين يعمل لهما منذ زعم الإسلام وادعاه. هناك هداه تفكيره الخبيث إلى أن ينتقل بنفسه إلى أرض القتال، ليتولى إضرام النار، إذا هى لم تضرم نفسها وليصل بالمعركة بعد شبوبها إلى الغرض الذى يريد وهكذا اقترح على ابن زياد أن يحمل كتابه بنفسه إلى قائد جيشه عمر بن سعد، ويبقى هناك عينًا لابن زياد ورقيبا، ومقاتلا أيضا. واشترك مع أميره الطاغية فى صياغة كتابه إلى ابن سعد، ثم هرول به إلى كربلاء.

جاء رفض ابن زياد المرجانية على ماعرض عليه الإمام الحسين عليه السلام فأبى إلا أن ينزل على حكمه وكتب بذلك إلى عمر بن سعد بن أبى وقاص وأرسل الكتاب مع شمر وقال له أقرئه الكتاب وانظر مايصنع فإن نهض لقتال الإمام الحسين عليه السلام فأقم معه رقيبا عليه حتى يفرغ من أمره وإن أبى أو تثاقل فاضرب عنقه وكن أمير الجيش. «من عبدالله بن زياد أمير الكوفة والبصرة، إلى عمر بن سعد، فإنى لم أبعثك إلى «الحسين» لتكف عنه، ولا لتكون له عندى شفيعًا. ادع «الحسين» إلى ما أمرتك، فإن نزل وأصحابه على الحكم مستسلمين، فابعث بهم إلىّ. وإن أبوا، فازحف عليهم حتى تقتلهم وتمثل بهم. وبعد أن يقتل «الحسين» أوطئ الخيل صدره وظهره، فإن مضيت لأمرنا، جزيناك جزاء السامع

المطيع، وإن أبيت فاعتزل جندنا، وخل بين شمر بن ذى الجوشن والعسكر والسلام». لم يكد عمر بن سعد، يتلو خطاب أميره حتى أدرك ما وراءه من كيد ابن ذى الجوشن حتى نهض لقتال الإمام الحسين عليه السلام. وقال له: «لقد أفسدت علينا أمرا كنا نرجو صلاحه، والله لن يستسلم الحسين أبدًا». فأجابه شمر: «امض لأمر أميرك وقاتل، أو فخل بينى وبين الجند» ومرة أخرى، غلب ابن سعد على دينه، واستسلم لأطماعه وهواه، فرضى أن يبقى قائدًا لحملة رجيمة، وجيش ظلوم!! وضحت النوايا إذن، أمام «الحسين». إنهم يريدون إذلاله، أو يريدون حياته. أما المذلة؛ فالممات دونها وأما حياته، فليس هو أول من يجود بها فى سبيل الحق من آل بيته العظيم، ولن يكون آخر من يجود بالحياة منهم. الصعب فى الأمر، أنهم لايريدون أن يقاتلوا قتال الشرفاء، بل ولا قتال الآدميين!! إنهم لايقنعون بمواجهته فى أربعة آلاف فارس، بينما كل الذين معه من أهل وصحب، اثنان وسبعون لاغير. أجل، إنهم لايقنعون بتفوقهم العددى الساحق، فيحولون فى صغار ولؤم، بينه وبين الماء، وهم يرون مَن وراءه فى الخيام من سيدات، وأطفال، ومرضى!!

لقد حاصروا الطريق إلى شريعة الماء بخمسمائة فارس، وجفت القرب التى كان أخوه «العباس بن على» قد ملأها من قبل عنوة، وقبل أن يضرى حولها الحصار. ولقد يصبر سبط رسول الله محمد ﷺ الإمام «الحسين عليه السلام» ويصبر رجاله على الظمأ إلى حين، ولكن الأطفال والنسوة الذين لم يعد يطاق مشهدهم وهم يترنحون تحت وطأة الظمأ القاتل!! ماذا يصنع البطل لهم. ترى هل أسف على خروجه من مكة إلى حيث هو الآن؟ إن المؤمنين لا يأسفون على خطر، ولايجزعون من قدر. ولعله قد أسف لشىء واحد، هو أنه لم يستمع لنصح ابن عمه «عبدالله بن عباس» الا يصحب معه الحرائر والأبناء. ومع هذا، فلله الأمر من قبل ومن بعد!! ولسوف يصبر على واجبه، ويعانق مصيره بما عرف عن بيته الكريم من رضا وثبات وولاء. هكذا وقف ابن الرسول الأكرم، وقف ابن «على»

البطل، و«فاطمة» الزهراء الموقف اللائق به، والمقدور له. كان يستطيع أن يخادعهم، والحرب خدعة. بل كان من حقه لو شاء أن يبايع بلسانه، حتى إذا عاد بأهله إلى مكة واطمأن على سلامتهم، خلى البيعة وألقى بها إلى التراب، وله من دينه فى مثل ذلك رخصة سجلها القرآن فى بعض آياته فقال: (إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان) لكنه سليل بيت، ليس من طرازه سواه. وابن رجال لايركبون الرخص، بل يعانقون العزائم!! إن عاقبة المعركة الواضحة مقروءة، فاثنان وسبعون، لن يهزموا، بل يفلتوا من أربعة آلاف فارس ضربوا حول القلة الصامدة أبشع حصار، إنه لا أمل فى النصر. ولكن، أى نصر هذا الذى لا أمل فيه؟ النصر العسكرى فى معركة غير متكافئة؟؟ ليكن ذلك، فأين النصر الآخر، الأعظم، والأكرم، والأبقى؟ النصر الذى يتحقق ويتمثل فى بذل الحياة من أجل الواجب، وفى إعطاء القدوة بروعة الثبات، وفى إضاءة ضمير الحياة بجلال التضحية. هذا النصر، هل فقد «الإمام الحسين ﷺ» الأمل فيه؟؟ لا بل لقد تجسدت فيه كل آماله وآمال الذين معه، ومن ثم تشبث وتشبثوا به فى وله عظيم، وراح يقاتل ويقاتلون فى سبيله على نحو يجل عن النظير. وإننا لنظلم يوم كربلاء ظلمًا كبيراً، حين نظنه مأساة لا غير، وفاجعة لا أكثر، ونتخذه مناسبة لاجترار الأحزان والآلام. لا، ثم لا، يا رجال. إنه مأساة وفاجعة إذا نظرنا إلى الشكل الخارجى للمعركة، فرأينا السفلة الأدعياء ينتصرون، ورأينا الوحشية المجرمة تفتك بأبناء رسول الله محمد ﷺ لكن يوم كربلاء ليس مأساة وفاجعة، إذا نفذنا ببصائرنا إلى جوهره النضير، فرأينا عظمة الثبات، وروعة البطولة، وعزة الإيمان، وجلال التضحية، فى مهرجان للحق، هيهات أن يكون له نظير.

نحن الآن مع اليوم التاسع من المحرم، وقد ولى نهاره، ودلف ليل جديد. ولقد أخذ جيش ابن زياد يتحرك للوثوب. ورأى الحسين تحركاتهم. وتذكر واجبًا لابد من أدائه قبل أن يبدأ القتال هنالك أرسل إلى قائدهم عمر بن سعد بن أبى وقاص طالبًا إرجاء القتال إلى غد وأجابه ابن سعد إلى ما طلب، ولعله ظن أن وراء هذه الرغبة فى الإرجاء عزمًا على طلب التسليم وعلى بيعة يزيد. ترى، لماذا

طلب «البطل» إرجاء القتال؟ هل ليدير خواطره من جديد حول موقفه؟ هل اقترب اليأس من عزمه، فأراد أن يفكر مع نفسه فى البحث عن مخرج يُوَقِّيه وأصحابه ما ينتظرهم من هول؟ كـلا لم يكن لشىء كـهذا أى وجـود فى روع البطل، ولا فى تفكيره. فـهو قد وطن نفـسه على الموت من أولى ساعـات المؤامرة التى بدأت مع طلائع جيـش ابن زياد. وهو لايعرف خيـاراً، بين أمرين، ثانيـهمـا خذلان الحق وبيعـة يزيد. إن أمامه طريقًا واحـداً، ليس لمثله أن يسلك فى هذه القضيـة سواه، ذلكم هو سبيل التضحية بالحيـاة، ولو أمكن؛ فبألف حياة. إنما طلب إرجاء القتال إلى الغـد؛ لأنه عظيم جد عظيم، ليس لعظمـة نفســه منتهى، وليس لنـبل روحه حدود. انظروا عندما استبانت له نتيـجة المعركة. أراد أن يدفع حياته وحدها زلفى لها وقربانًا. لم يشأ أن يدفع لسيوف البغى حياة أنصاره الخمسين، ومعهم الأشبال والرجال من أهله وأبنائه بعد أن تغير الموقف بالنسبة لهم[1].

ورغم ذلك الموقف، بل تلك المواقف البطوليـة العقائدية، فقـد خص الإمام أحد أنصاره على انفـراد بالإذن بالانسحاب، ولكنه أعرب عن عـزمه على النصرة بشكل لاتراجع فيه، وهذه الحالة تكشـف بدورها عن أصالة كل فرد على حدة فى عقيدته ومبدئيته، والرواية كما يلى: خرج الإمام الحسين من خيمته ليلا وأخذ يتفقد المنطقة وساحـة الحرب الميدانية ويرى ما ينبـغى اتخاذه من إجراء مناسب. ولاحظ نافع بن هلال الجملى خروج الإمام وحده، فأخذ يسير خلفه. فالتفت الإمام وسأل عمن خلـفه فصـرح نافع باسمـه. «نعم جعلت فـداك يا ابن رسول الله» فـقال له الإمام: «نافع ما أخـرجك فى هذا الليل؟» فرد بقوله: «سيـدى أزعجنى خروجك ليلا إلى جهة هذا البـاغى.» فقال الإمام: «خرجت أتفقد هذه التلعـات مخافة أن تكون مكمنًا لهجوم الخيل على مخـيمنا يوم يحملون وتحملون..» ثم رجع الإمام وهو قابض على يسار نافع يقول: «هى هى والله، وعـد لا خلف فيه» أى المنطقة ذاتها التى ستكون مثوى أجسادنا وضحايا القضية الكبرى، والليلة الموعودة المعهودة

1 ـ خالد محمد خالد ـ المرجع السابق ص111.

من رسول الله ﷺ. ثم التفت بعد ذلك لنافع وأذن له بالانصراف والنجاة وحده في هذا الليل، وكلمه منفرداً بقوله: «يا نافع ألا تسلك بين هذين الجبلين؟ وانج بنفسك» فتصلب البطل واعتد بقوة قائلا: «سيدى، إذن ثكلت نافعًا أمه إن سيفى بألف وفرسى بمثله. فو الله الذى من على بك فى هذا المكان لن أفارقك أبا عبد الله، حتى يكلاَّ عن فرى وجدى». لقد كلمه بمعزل عن الآخرين، وخصه بمفرده بالإذن كيلا يقال مثلا: إن بعض الأنصار يخجل من بعض. فهذا وحده وله فرصة سانحة، ولا يدرى به أحد لكن هذا النصير لايقل عن أولئك إيمانًا وصبراً على الرزايا والجهاد. ولقد صادقوا على ما قالوه وما أكدوه، وما عبروا عنه بألسنة لاتعرف التلكؤ ولا الكذب ولا الخداع[1]: «رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه وما بدلوا تبديلا».

ثمة أفراد من الأنصار يملكون العذر المستساغ لو انصرفوا وانسحبوا، وقد أعذر الإمام بعضهم. ولكنهم رابطوا وجاهدوا حتى الرمق الأخير بحوافزهم محض العقائدية الذاتية الجليلة، فى حين كان بعض الناس يختلق لنفسه العذر حتى لو لم يملكه، كأولئك الذين حكى عنهم القرآن الكريم ممن تذرعوا ليتخلفوا فقالوا: «إن بيوتنا عورة!». فيما يلى مرور سريع بالمعذورين الذى سحقوا الأعذار وأهملوها: بشير بن عمرو الحضرمى: أو بشر من أهل حضرموت اليمن، قبيلة قحطانية، وهو فى عداد كندة ـ القبيلة اليمنية المعروفة ـ جاء من الكوفة بين صفوف الكتائب الأموية ثم مال ومعه أحد أولاده إلى جهة الإمام الحسين عليه السلام بشجاعة وجرأة وجدارة فائقة. قد سمع خطاب الإمام الآنف وكان ممن وطن نفسه على عدم الانسحاب أبداً. لكن خبراً ما بلغه، ومفاده أن ولده عمرو قد أسره الديلم بمدينة الرى. فلم يفت ذلك بعضده أو يثبط من عزمه، ورفض

---

1 ـ محمد على عابدين ـ المرجع السابق ص233 وانظر: الوثائق الرسمية لثورة الإمام الحسين ص132 ـ 133 والمجالس الفاخرة، للسيد شرف الدين ص92. وقيل بأن اسمه (محمد بن بشير الحضرمى) برواية ابن طاووس فى اللهوف ص36.

الانصياح لرغبة إنقاذ ولده حتى سُمع يقول: «عند الله أحتسبه ونفسى، ما كنت احب أن يؤسر وأن أبقى بعده!.» والحقيقة أن كرهه للحياة لا كرهًا لأسر ولده كما يتخيل البعض، فكلمته تلك ممعنة بالإيحاء إلى كونه موطنًا نفسه على الجهاد. شأنه فى قوله شأن «خيثمة بن سعد» فى قوله للرسول الأعظم ﷺ. حينما طلب الإسهام بالجهاد مرة أخرى بقصد نيل الشهادة التى أفلتت منه ببدر ورزقها أحد أولاده، فقال: «والله يارسول الله أصبحت مشتاقًا إلى مرافقته فى الجنة» وهذا لايعنى أنه لم يجاهد من أجل الفكر والمبدأ وإحقاق الحق، وإنما ذكر ولده تأكيداً لتصميمه على القتال فى سبيل الله. لقد سمع الإمام قضية بشير الحضرمى هذا، فأذن له بحكم عذره الكبير، فقال: «رحمك الله، أنت فى حل من بيعتى فاذهب واعمل فى فكاك ابنك» فتصلب بشير وأكد حتمية نصرته مهما بلغت حراجة الموقف، فقال[1]:

«أكلتنى إذن السباع حيًا إن أنا فارقتك، وأسأل عنك الركبان وأخذلك مع قلة الأعوان! لايكون هذا أبداً يا أبا عبدالله».

إن ولده الذى كان معه وهو (محمد) سلمه الإمام أثوابًا ثمينة جداً وأمره بفك أسر أخيه. وإن ابن بشير الحضرمى هذا ممن استشهد بكربلاء. أى أنه لم يذهب لإطلاق سراح أخيه خشية فوات أوان الجهاد بين يدى الإمام الحسين عليه السلام. ولقد نلاحظ شدة ارتباط بشير بالقضية الحسينية العادلة، ومدى تفانيه للحق الحسينى وحبه لشخص الإمام القائد بالذات، خصوصًا حين تخيل كونه يذهب لإرجاع ولده وفى الطريق يظل يسأل من يصادفهم بلهفة عارمة وشوق مؤلم ممض عن خبر الإمام الحسين ﷺ فلا يحصل على اطمئنان أبداً، ولا يخبره أى راكب يصادفه بحقيقة الأمر، إذن فلن يترك موقفه أبدا «وأسأل عنك الركبان!.» فالموت أحب إليه من ذلك الخذلان «أكلتنى إذن السباع حيًا».

---

1 ـ محمد على عابدين ـ نفس المرجع ـ ص234 وانظر: اللهوف لابن طاووس، ص36، وأعيان الشيعة، ج4 ق1 ص209 ـ وسيلة الدارين ص110.

أرسل ابن مسعود النهشلى، وهو أحد أقطاب البصرة التابعين لآل الرسول ومن الشيعة المخلصين، بكتاب إلى الإمام الحسين عليه السلام يبدو منه أنه يشير فيه إلى تهيئته مع جماعة من البصريين لنصرته. وقد حمل الرسالة (الحجاج بن زيد السعدى) وصحبه (قعنب بن عمرو النمرى) ووصلا كربلاء. وبينما هما يطلعان على الوضع إذ أصر كل منهما على أن لايعود لإرجاع الخبر، فى حين أن الرجوع بالخبر عذر مستساغ، فلا بد للرسول من إتمام مهمته بأن يرجع بالجواب وينقل ما اطلع عليه. بيد أنهما بقيا ولم يرجعا قط، كيلا يفوتهما الجهاد بين يدى الإمام الحسين سلام الله عليه. وكان يرابط عدد من موالى آل الرسول وموالى بعض الأنصار، وهو بحكم صفتهم يملكون عذراً بالانصراف والانسحاب بلا حرج. بل لقد أذن الإمام لهم ولكنهم جميعا أبوا إلا انتهاج نهج سادات الأمة وأئمة الحق[1].

وخرج أنصار الإمام الحسين ﷺ معه على حساب أن الكوفة فى انتظارهم، ليبدأوا منها وبها مقاومة مشروعة، يدحضون بها ضلال حاكم الشام، ويدرأون بها عن الإسلام خبث بنى أمية. لكنهم فوجئوا بالكوفة تنتظرهم بوجه آخر كالح وعبوس. فرسل «الإمام الحسين ﷺ» صرعوا، واستشهدوا والألوف التى أعطت بيعتها لمسلم بن عقيل، تبددت واختفت كالجرذان وبدلا من أن يجد البطل فى استقباله كتائب الحق من شيعته وأنصاره، وجد عصابات البغى تنتظره بالغدر والمنايا. إذن، الموقف قد تغير بالنسبة للذين معه من أهل وأنصار وإن لم يكن قد تغير بالنسبة له، ولما وطن عليه إرادته، وعزمه، وضميره. وهكذا طلب إرجاء القتال، ليجعل أهله وأصحابه فى حل من كل التزاماتهم تجاهه[2]!! جمع الإمام الحسين عليه السلام أصحابه بعدما رجع عمر بن سعد بن أبى وقاص وذلك عند

---

1 ـ محمد على عابدين ـ نفس المرجع ص335.

2 ـ خالد محمد خالد ـ نفس المرجع ص112.

قرب الماء. قال الإمام على زيد العابدين: فدنوت منه لأسمع وانا مريض فسمعت أبى وهو يقول لأصحـابه: أثنى على الله تبارك وتعالى أحسن الـثناء وأحمده على السراء والضراء اللهم إنى أحمدك على أن أكرمتنا بالنبوة وعلمتنا القرآن وفقهتنا فى الدين وجعلت لنا أسماعًا وأبصاراً وأفئدة ولم تجعلنا من المشركين.

أما بعـد، فإنى لا أعرف أصحـابًا خيراً من أصحـابى، ولا أهل بيت أبرّ، وأوصل من أهل بيتى، فجـزاكم الله خيراً؛ فقد بررتم وأعنـتم وإنكم لتعلمون أن القـوم لا يريدون غيـرى، وإن يومى معـهم غد، وإنى قـد أذنت لكم جمـيعًـا، فـانطلقوا فى غـير حـرج. ليس عليكم منى ذمـام. هذا هو الليل قـد غشـيكم، فانطلقـوا فى سواده قبل أن يـطلع النهار، وانجوا بأنفـسكم». من لمثل هذا الموقف المعجز، مـثل ابن «على»، وحفيد «رسول الله محـمد ﷺ» من، يارجال وهو لم يقلها لأهله وصحـبه استدراراً لعطفهم؛ فماذا يغنى عطفـهم فى هذا المقام إنما كان يعنى تمامًـا كل كلمة قالهـا، كان يعنى تمامًـا ألا يحملهم مـسئوليـة الموقف الذى اختـاره، والهول الذى قـرر أن يواجهـه فى استـبسـال. ترى، هل يتقـبل الأهل والأنصار رأيه هذا، وتوجـيهه؟ كلا، ولماذا؟ لأن العظمة، ولأن البطـولة كانتا فى ذلك اليوم على موعد مع هؤلاء الأبرار جـميعًا فتيانًا وكهولا؛ لتـحققها بهم أروع مشاهدهما، وأسمى أمجـادهما. من أجل ذلك، لم يكد البطل يفرغ من كلماته، حتى تحولوا جميعًا إلى أسـود تزأر بالكلمات، وتشرق بالدموع. صاح أخوه لأبيه «العباس بن على»: «معاذ الله والشهر الحرام، وماذا نقول للناس إذا رجعنا إليهم؟ نقول: تركنا سـيدنا وابن سيـدنا غرضًا للنبال، ودريـئة للرماح، وحرزاً للسـباع، وفررنا عنه رغبة فى الحياة؟ معاذ الله، معاذ الله، بل نحيا بحياتك، ونموت معك» وصاح بمثل ذلك «بنو عقيل» و «بنو جعفـر» وتقدم ابنه «على بن الحسين» فتى لم تجاوز سنه التـاسعـة عشر. وسـأل أباه. «ألسنا على الحق يا أباه؟؟» قال الحـسين «بلى، والذى أنفسنا بيده» فصاح فتاه العظيم: «إذن، والله لانبالى».

ومن أصحابه وأنصاره، قـام «زهير بن القين» يزأر وينادى: «والله، لوددت أن اقتل ثم أبعث ثم أقـتل ثم أبعث هكذا ألف مرة، أكون فـيها ردئًا عن حـياتك وحيـاة هؤلاء الفتيـان من آل بيتك» وتلاه «مـسلم بن عوسجـة الأسدى»: «أنحن نتخلى عنك، ولم نعذر إلى الله فى أداء حقك؟؟ أمـا والله لا أفارقك حتى أكسر فى صـدورهم رمحى، وأضـربهم بسـيفى مـا ثبت قائـمة بيـدى ولو لم يكن لى سلاح، لقـذفتهم بالحجـارة دونك حتى أموت معك»!! وقـال سعيد بن عـبدالله الحنفى: والله لانخليك حتى يعلم الله أنا حفظنا غيبة رسول الله محمد ﷺ فيك والله لو علمت أنى أقتل ثم أحيا ثم أحرق حيا ثم أذرى يفعل ذلك بى سبعين مرة ما فارقتك حتى ألقى حـمامى دونك فكيف لا أفعل ذلك! إنما هى قتلة واحدة ثم هى الكرامة التى لا انقضاء لها أبدًا[1].

وقام آخر، وآخر، وآخر، هبوا جميعًا يعطون أمجد بيعة فى تاريخ التضحية والفداء، بيـعة على موت مـحقق، فليس هناك لما دون الموت أدنى احتـمال! وإن العظمة والبطولة أرادتا أن تجعلا من ذلك اليوم مـهرجانًا وعيدًا. لقد ارتفع الأبطال جميعًا إلى مـستوى الموقف المجيد، الذى سيجعلون منه درسًـا لأجيال الدنيا كلها فى الولاء الباهر للحق، وفى التضحـية الشاهقة من أجله، وهاهم أولاء، يعودون لمضاربهم وخيامهم، يتهيأون للقاء الغد بالصلاة والابتهال ويشحذ سيوفهم، وبرى سهامـهم، وصقل رماحهم. ومن طريف ما حـدث فى ليلتهم تلك، أن «نافع بن هلال البجلى» رضى الله عنـه وعنهم أجمعين، قـضى شطر ليله فى كتابة اسـمه على سهام نبله، إمعانًا فى طلب المثـوبة والأجر، وإمعانًا فى السخرية من الخطر، وإمعـانًا فى التـرحيب بالموت. وقـال الإمام على زين العـابدين عليه السـلام انى جالس فى تلك العشيـة التى قتل أبى صبيحتهـا وعمتى زينب عندى تمرضنى، إذ اعتزل أبى بأصـحابه فى خباء له، وعنده حوى مولى أبى ذر الغـفارى وهو يعالج سيفه ويصلحه وأبى يقول:

---

1 ـ سلامة قاقيش ـ وقفة مع الإمام الحسين شهيد الحرية، ص61.

يادهــر أف لــك من خلـيـل كــم لك بالإشــراق والأصــيل

من صــاحب أو طــالب قــتـيل والدهــر لايقنـع بالبـــديل

وإنمــا الأمـــر إلى الجــلـيـل وكل حـى سـالك الـسـبـيل

قال: فـأعادها مـرتين أو ثلاثا حتى فهـمتـها، فعـرفت ما أراد، فخـنقتنى عبـرتى، فرددت دمعى ولزمت السكـون، فعلمت أن البلاء قـد نزل، فأما عـمتى فإنها سمـعت، وهى امرأة، وفى النساء الرقة والجزع، فلم تملك نفـسها أن وثبت تجر ثوبها، وإنهـا لحاسرة حتى انتهت إليه، فـقالت: واثكلاه! ليت الموت أعدمنى الحيـاة! اليوم ماتت فاطمـة أمى وعلى أبى وحسن أخى، ياخليفـة الماضى، وثمال الباقى، قـال: فنظر إليها الحسين عليه السـلام فقال: يا أخـيه، لايذهبن حلمك الشـيطان، قالت: بأبى أنت وأمى يا أبـا عبـدالله! استـقتلت نفـسى فداك، فـرد عصته، وترقرقت عينه، وقال: لو ترك القطا ليلا لنام، قالت: يا ويلتى، أفتغصب نفسك اغتصابا، فذلك أقـرح لقلبى، وأشد على نفسى! ولطمت وجهها، وأهوت إلى جيبهـا وشقته، وخرت مغـشيا عليها، فقـام إليها الحسين فصب علـى وجهها الماء، وقـال لها: يا أخـيه، اتقِ الله وتـعزى بعـزاء الله، واعلمى أن أهل الأرض يموتون، وأن أهـل السماء لايبـقون، وأن كل شىء، هالك إلا وجـه الله، الذى خلق الأرض بقدرته، ويبـعث الخلق فيعـودون، وهو فرد وحده، أبى خـير منى، وأمى خير منى، وأخى خير منى، ولى ولهم ولكل مسلم برسول الله أسوة، قال: فعزاها بهذا ونحوه، وقال لها: يا أخـية، إنى أقسم عليك فأبرى قسمى، لاتشقى على جيبا، ولاتخمشى عـلىّ وجها، ولاتدعى على بالويل والثبور إذا أنا هلكت، قال: ثم جاء بها حتى أجلسها عندى، وخرج إلى أصحابه فأمرهم أن يقربوا بعض بيـوتهم من بعض، وأن يدخلوا الأطناب بعـضهـا فى بعض، وأن يكونوا هم بين البيوت إلا الوجه الذى يأتيهم منه عدوهم(1).

1 ـ سلامة قاقيش ـ نفس المرجع ص63.

فلمـا أمـسى الإمـام الحـسـين عليه السلام وأصـحـابه قـاموا اللـيل كله يصلون ويستغـفرون، ويدعون ويتضرعـون وخيل الأعداء تمر حولهم تحرسـهم، والحسين عليه السـلام يقرأ ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ [آل عمران ـ 178 ـ 179] وعبأ الحسـين أصحابه، وصلى بهم صلاة الغداة، وكان معه اثنان وثلاثون فارسـا وأربعون راجلا، وجعلوا البيوت فى ظهورهم، وأمـر بحطب وقصب كان من وراء البـيوت أن يحرق بالنار مخـافة أن يأتوهم من ورائهم. . وكان الحسين عليه السلام أتى بقصب وحطب إلى مكان من ورائهم منخفض كأنه ساقية، فحـفروه فى ساعة من الليل، فجعلوه كالخندق، ثم ألقوا فيـه ذلك الحطب والقصب، وقالوا: إذا عـدوا علينا فقاتلونا ألقينا فـيه النار كيلا نؤتى من ورائنا، وقاتلنا القوم من وجه واحد. ففعلوا، وكان لهم نافعا.

لما خرج عمـر بن سعد بالناس كان على ربع أهل المدينة يومئـذ عبدالله بن زهير بن سليم الأزدى وعلى ربع مذحج واسد عبـدالرحمن بن أبى سبرة الجعفى، وعلى ربع ربيعة وكندة قيس بن الأشـعث بن قيس، وعلى ربع تميم وهمدان الحر ابن يزيد الرياحى، فشهد هؤلاء كلهم مـقتل الإمام الحسين عليه السلام إلا الحر بن يزيد فإنه عدل إلى الحـسين، وقتل معـه، وجعل عمر على مـيمنته عمـرو بن الحجاج الزبيدى، وعلى مـيسرته شمر بن ذى الجـون بن شرحبيل بن الأعـور بن عمر بن معاوية ـ وهو الضـباب بن كلاب ـ وعلى الخيل عزرة بن قـيس الأحمسى، وعلى الرجال شبث بن ربعى الرياحى، وأعطى الراية ذويداً مولاه.

عن غلام لعبد الرحمن بن عبد ربه الأنصارى، قال: كنت مع مولاى، فلما حضر الناس وأقبلـوا إلى الإمام الحسين عليه السلام، أمر الحسين بفـسطاط فضرب، ثم أمـر بمسك فمـيث فى جفنه عظـيمـة أو صحـفة، قـال: ثم دخل الحسـين ذلك الفسطاط فتطلى بالنورة، قـال: ومولاى عبدالرحمن بن عبدربـه وبرير بن حضير الهمـدانى على باب الفسطاط تحتك مناكـبهما، فـازدحما أيهـما يطلى على أثره،

فجعل برير يهازل عـبدالرحمن فقال له عبد الرحمن: دعنا فـو الله ما هذه بساعة باطل، فقال له برير: والله لقد علم قومى أنى ما أحـببت الباطل شابا ولا كهلا، ولكن والله إنى لمسـتبشـر بما نحن لاقون، والله إن بيننا وبين الحـور العين إلا أن يميل هؤلاء علينا بأسـيافهم، ولوددت أنهم قد مـالوا علينا بأسيافهم. قـال: فلما فرغ الحسين دخلنا فاطلينا، قال: ثم إن الحســين ركب دابته ودعا بمصحف فوضعه أمامه، قال: فاقـتتل أصحابه بين يديه قتالا شديدا، فلمـا رأيت القوم قد صرعوا أفلت وتركتهم. لما صبحت الخيل الحسين رفع يديه فقال: اللهم أنت ثقتى فى كل كرب، ورجـائى فى كل شدة، وأنت لى فى كل أمر نزل بى ثقـة وعدة، كم من هم يضعف فيه الفؤاد، وتقل فيه الحيلة، ويخـذل فيه الصديق ويشمت فيه العدو، أنزلته بك، وشكوته إليك، رغبة منى إليك عمن سواك، ففـرجته وكشفته، فأنت ولى كل نعمة، وصاحب كل حسنة، ومنتهى كل رغبة[1].

يقول الضحاك المشرقى، لمـا أقبلوا نحونا فنظروا إلى النار تُضرم فى الحطب والقصب الذى كنـا ألهبنا فيـه النار من ورائنا لئلا يأتونا من خلفنـا، إذ أقبل إلينا منهم رجل يركض على فرس كامل الأداة، فلم يكلمنا حتى مر على أبياتنا، فنظر إلى أبياتنا فـإذا هو لايرى إلا حطبا تلتهب النار فـيه، فقفل راجـعا، فنادى بأعلى صوته: ياحســين، استعجلت النار فى الدنيا قـبل يوم القيامة! فقـال الحسين: من هذا؟ كأنه شمـر بن ذى الجون! فقالوا، نعم أصلحك الله! هـو هو، فقال «يا ابن راعية المعـزى، أنت أولى بها صليا»، فقـال له مسلم بن عوسجـة: يا ابن رسول الله، جعلت فـداك! الا أرميه بســهم! فإنه قد أمكننى، وليس يسـقط منى سهم، فالفـاسق من أعظم الجبارين، فقال له الحـسين: لاترمه، فـإنى أكره أن أبدأهم، وكان مع الحسين فـرس له يدعى «لاحقا» حمل عليه ابنه عليـا بن الحسين، قال: فلما دنا منه القـوم عاد براحلتـه فركبهـا، ثم نادى بأعلى صوته دعـاء يسمع جل الناس: أيها الناس، اسمعوا قـولى، ولاتعجلونى حتى أعظكم بما لحق لكم على،

1 ـ سلامة قاقيش ـ نفس المرجع ص65.

وحتى أعتذر إليكم من مقدمى عليكم، فإن قبلتم عذرى، وصدقتم قولى، وأعطيتمونى النصف، كنتم بذلك أسعد، ولم يكن لكم على سبيل، وإن لم تقبلوا منى العذر، ولم تعطوا النصف من أنفسكم ﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلا تُنظِرُونِ﴾ [يونس 71]، ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ [الأعراف 196].

فلما سمع أخواته كلامه هذا صحن وبكين، وبكى بناته فارتفعت أصواتهن، فأرسل إليهن أخاه العباس بن على وعليا ابنه وقال لهما: أسكتاهن، فلعمرى ليكثرن بكاؤهن، فلما ذهبا ليسكتاهن قال: لايبعد ابن عباس، قال فظننا أنه إنما قالها حين سمع بكاءهن، لأنه قد كان نهاه أن يخرج بهن، فلما سكتن حمد الله وأثنى عليه، وذكر الله بما هو أهله، وصلى على محمد ﷺ وعلى ملائكته وأنبيائه، فذكر من ذلك ما الله أعلم وما لايحصى ذكره، قال: فو الله ما سمعت متكلما قط قبله ولابعده، أبلغ فى منطق منه، ثم قال: أما بعد، فانسبونى فانظروا من أنا، ثم ارجعوا إلى أنفسكم وعاتبوها، فانظروا، هل يحل لكم قتلى وانتهاك حرمتى؟ ألست ابن بنت نبيكم (ﷺ) وابن وصيه وابن عمه، وأول المؤمنين بالله والمصدق لرسوله بما جاء به من عند ربه! أو ليس حمزة سيد الشهداء عم أبى! أوليس جعفر الشهيد الطيار ذو الجناحين عمى! أو لم يبلغكم قول مستفيض فيكم: أن رسول الله (ﷺ) قال لى ولأخى: «هذان سيدا شباب أهل الجنة»! فإن صدقتمونى بما أقول ـ وهو الحق ـ فو الله ماتعمدت كذبا مذ علمت أن الله يمقت عليه أهله، ويضربه من اختلقه، وإن كذبتمونى فإن فيكم من إن سألتموه عن ذلك أخبركم، سلوا جابر بن عبدالله الأنصارى، أو أبا سعيد الخدرى، أو سهل بن سعد الساعدى، أو زيد بن أرقم، أو أنس بن مالك، يخبروكم أنهم سمعوا هذه المقالة من رسول الله ﷺ لى ولأخى. أفما فى هذا حاجز لكم عن سفك دمى! فقال له شمر بن ذى الجون، هو يعبد الله على حرف إن كان يدرى ما يقول! فقال له حبيب بن مظاهر: والله إنى لأراك تعبد الله على سبعين حرفا، وأنا أشهد أنك

صادق ما تدرى مايقول، قد طبع الله على قلبك، ثم قال لهم الحسين: فو الله ما بين المشرق والمغرب ابن بنت نبى غيـرى منكم ولا من غيركم، أنا ابن بنت نبيكم خاصـة. أخبـرونى، أتطلبـونى بقتـيل منكم قتلتـه، أو مال لكم اسـتهلكـته، أو بقصـاص من جراحة! قال: فـأخذوا لايكلمونه، قـال: ويايزيد بن الحارث، ألم تكتبـوا إلى أن قد أينعت الثمـار، واخضر الجناب، وطمت الجـمام[1]، وإنما تقدم على جند لك مـجند، فأقبل! قـالوا له: «لم نفعل»، فقـال: «سبـحان الله! بلى والله، لقد فعلتم»، ثم قـال: «أيها الناس، إذ كرهتمونى فـدعونى أنصرف عنكم إلى مأمنى من الأرض»، قال: فقـال له قيس بن الأشعث: «أولا تنزل على حكم بنى عـمك، فإنهم لـن يروك إلا ماتحب، ولن يصل إليكـم منهم مكروه؟» فقـال الحسـين: «أنت أخو أخـيك، أتريد أن يطلبك بنو هاشم بأكـثر من دم مـسلم بن عقيل، لا والله لا أعطيـهم بيدى إعطاء الذليل، ولا أقر إقرار العبيـد. عباد الله، إنى عذت بربى وربكم أن ترجمون أعـوذ بربى وربكم من كل متكبر لايؤمن بيوم الحساب، قال: ثم إنه أناخ راحلته، وأمر عقبة بن سمعان فعقلها، وأقبلوا يزحفون نحوه[2].

قال أبو مخنف: فحدثنـى على بن حنظلة بن أسعد الشامى، عن رجل من قومه شهد مـقتل الإمام الحسين عليه السلام حين قتل يقال له كثيـر بن عبدالله الشعبى، قال: لما زحـفنا قبل الإمام الحـسين عليه السلام خرج إلينـا زهير بن قين عـلى فرس له ذنوب[3] شاك فى السلاح، فقـال: يا أهل الكوفة، نذار لكم من عذاب الله نذار! إن حقا على المسلم نصيحة أخـيه المسلم، ونحن حتى الآن أخوة وعلى دين واحد وملة واحدة، ما لم يـقع بيننا وبينكم السيف، وأنتم للنصيحـة منا أهل، فإذا وقع السيف انقطعت العصمة، وكنا أمة وأنتـم أمة، إن الله قد ابتلانا وإياكم بذرية نبيه محمد صلى الله عليه وسلم لينظر مانحن وأنتم عاملـون، إنا ندعوكم إلى نصرهم وخذلان الطاغية

---

1 ـ طم الماء: علا وغمر. والجمام: جمع جمة، وهو المكان يجتمع فيه الماء.
2 ـ سلامة قاقيش ـ نفس المرجع ص68.
3 ـ فرس ذنوب : وافر شعر الذنب.

عبيد الله بن زياد، فإنكم لاتدركون منهما إلا بسوء عمر سلطانهم كله ليسملان أعينكم، ويقطعان أيديكم وأرجلكم، ويمثلان بكم، ويرفعانكم على جذوع النخل، ويقتلان أماثلكم وقراءكم، أمثال حجر بن عدى وأصحابه، وهانئ بن عروة وأشباهه» وقال فسبوه، وأثنوا على عبيد الله بن زياد، ودعوا له، وقالوا: والله لا نبرح حتى نقتل صاحبك ومن معه، أو نبعث به وبأصحابه إلى الأمير عبيد الله سلما»، فقال لهم: «عباد الله، إن ولد فاطمة رضوان الله عليها أحق بالود والنصر من ابن سمية، فإن لم تنصروهم فأعيذكم بالله أن تقتلوهم، فخلوا بين الرجل وبين ابن عمه يزيد بن معاوية، فلعمرى أن يزيد ليرضى من طاعتكم بدون قتل الحسين»، قال: فرماه شمر بن ذى الجون بسهم وقال «اسكت أسكت الله نأمتك، أبرمتنا بكثرة كلامك! فقال له زهير: يا ابن البوال على عقبيه، ما إياك أخاطب، إنما أنت بهيمة، والله ما أظنك تحكم من كتاب الله آيتين، فأبشر بالخزى يوم القيامة والعذاب الأليم، فقال له شمر: «إن الله قاتلك وصاحبك عن ساعة»، قال: «أفبالموت تخوفنى! فوالله للموت معه أحب إلى من الخلد معكم»، قال: ثم أقبل على النا س رافعا صوته، فقال: عباد الله لايغرنكم من دينكم هذا الجلف الجافى وأشباهه، فوالله لاتنال شفاعة محمد ﷺ قوما أهرقوا دماء ذريته وأهل بيته، وقتلوا من نصرهم وذب عن حريمهم»، قال: فناداه رجل فقال له: «إن أبا عبدالله يقول لك: أقبل فلعمرى لئن كان مؤمن آل فرعون نصح لقومه وأبلغ فى الدعاء، لقد نصحت لهؤلاء وأبلغت لونفع النصح والإبلاغ[1].

طلع الصباح، وأقبل اليوم المشهود، العاشر من المحرم، بدأ البطل يومه المجيد بصلاة الفجر، أم فيها أهله وصحبه وطلعت الشمس على سبعين، أو اثنين وسبعين بطلا فى جانب وأربعة آلاف ذئب فى الجانب الآخر. ووقف «الإمام الحسين عليه السلام» يعبئ رجاله فجعل «زهير بن القين» على الميمنة و«حبيب بن مظهر» على الميسرة، وأعطى الراية أخاه «العباس بن على» وتقدم شباب آل البيت،

1 ـ سلامة قاقبش ـ نفس المرجع ص69.

ليأخذوا مكانهم فى الصف الأول فدفعهم عنه الأنصار قائلين: «معاذ الله أن تموتوا ونحن أحياء، نشهد مصارعكم. بل نحن أولا، ثم تجيئون على الأثر». وهكذا وقفوا فى الصف الثانى وراء القائد والأنصار. وفى الجانب الآخر وقف ـ عمر بن سعد بن أبى وقاص يعبئ جيشه، وينظم ميمنته وميسرته. ياويحهم ألا يخجلون؟! أربعة آلاف، لاثنين وسبعين! وفى سبيل ماذا؟. فى سبيل باطل يرونه رأى العين، وفى سبيل أكذوبة صغيرة اسمها ـ يزيد ، وجريمة منكرة، اسمها ابن زياد. ومن عجب أنهم كما يحدثنا التاريخ، خرجوا لجريمتهم تلك بعد أن صلى بهم قائدهم صلاة الصبح! أصحيح أنهم صلوا، وقرأوا فى آخر صلاتهم «اللهم صل على محمد، وعلى آل محمد؟» إذن ما بالهم ينفتلون من صلاتهم ليحصدوا بسيوفهم الآئمة آل محمد؟! لكَم كان «نافع بن هلال البجلى» صادقًا وهو يقول لابن ذى الجون الشقى: «والله لو كنت من المسلمين: لعظم عليك أن تلقى الله بدمائنا فالحمد لله الذى جعل منايانا على أيدى شرار خلقه». أجل، الحمد لله، فتلك مزية ادخرها القدر للحسين وأصحابه ـ أن يجيء مصرعهم المقدر على أيدى شرار لايقيم الله لهم وزنًا فى الدنيا ولا فى الآخرة. فلكَم يشق على الأنفس المؤمنة أن تجيء مناياها على أيدى قوم خيار. أتذكرون كلمات أمير المؤمنين «عمر بن الخطاب» عندما أفاق من غشية الطعنات الغادرة التى وجهها إليه وهو يصلى، أبو لؤلؤة المجوسى؟ لقد تهلل وجه «عمر» حين عرف هوية قاتله. وحمد الله كثيراً، إذ لم تجئه الضربة من بر تقى. وجاءت من ذلك المجوسى الزنيم. ومن الحظوظ الوافية للحسين وأصحابه، أن خصومهم فى تلك المعركة كانوا أشراراً. أشراراً من الرأس إلى القاع. ولم يكن فيهم خير واحد، ولا بر واحد يمكن أن يشكل وجوده بينهم أمارة احتجاج أو علامة استفهام[1].

اتضح أن استشهاد الإمام الحسين جاء تتمة لحلقات من التجارب النضالية التى خاضها أنصار التيار الرئيسى الثانى الذى أعلن ممثلوه منذ البداية معارضتهم

---

1 ـ خالد محمد خالد ـ نفس المرجع ص116.

للانحراف الذى بدأ يبرز وضوحًا فى دمشق أيام حكم معاوية، وابنه يزيد، فإنه من الطبيعى - إذن - أن يرفض الإمام الحسين البيعة ليزيد رغم التهديد بالقتل. إن أهل الأمصار، وخصوصًا أهل الكوفة لم يرفضوا بيعة يزيد، ويكتبوا إلى الإمام الحسين ليقدم عليهم ليبايعوه لأنه سبط الرسول ﷺ، وابن الإمام على كرم الله وجهه فقط، بل لأنه أولا وقبل كل شىء يقود تيارًا إسلاميًا معارضًا، ومخالفًا لسياسة الحكم الأموى التى وصفتها رسالة زعماء الكوفة إليه، فقد كتبوا يقولون: «... أما بعد، فالحمد لله الذى قصم عدوك الجبار العنيد الذى انتزى على هذه الأمة فابتزها أمرها، وغصبها فيئها، وتأمر عليها بغير رضا منها، ثم قتل خيارها، واستبقى شرارها، وجعل مال الله دولة بين جبابرتها وأغنيائها، فبُعدًا له كما بعدت ثمود! إنه ليس علينا إمام، فأقبل لعل الله أن يجمعنا بك على الحق».

ومقابل هذه السياسة الأموية التى تشرحها رسالة أهل الكوفة يعبر الإمام الحسين عن واجبات الإمام فيقول: «فلعمرى ما الإمام إلا العامل بالكتاب، والآخذ بالقسط، والدائن بالحق، والحابس نفسه على ذات الله»، وكتب فى رسالته إلى أهل البصرة يقول: «وأنا أدعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، فإن السنة قد أميتت، وإن البدعة قد أحييت، وإن تسمعوا قولى، وتطيعوا أمرى أهدكم سبيل الرشاد والسلام عليكم ورحمة الله». ويقارن عبدالله بن الزبير فى خطبته فى أهل مكة بعد مقتل الإمام الحسين رضى الله عنه بين زعيمى التيارين الرئيسيين المشار إليهما: الإمام الحسين بن على رضى الله عنهما، ويزيد بن معاوية فيقول: «أفبعد الحسين نطمئن إلى هؤلاء القوم (يعنى الأمويين)، ونصدق قولهم، ونقبل لهم عهدًا!! لا، ولا نراهم لذلك أهلا، أما والله لقد قتلوه طويلا بالليل قيامه، كثيرًا فى النهار صيامه، أحق بما هم فيه منهم، وأولى به فى الدين والفضل، أما والله ما كان يبدل بالقرآن الغناء، ولا بالبكاء من خشية الله الحداء، ولا بالصيام شرب الحرام، ولا بالمجالس فى حلق الذكر الركض فى تطلاب الصيد - يعرض - بيزيد - فسوف يلقون غيًا»[1]

1 - د. الحبيب الجنحانى - المرجع السابق ص 171.

أوضح نص يعبر عن منهج التيار المعارض كان الذى يمثله الإمام الحسين رحمه الله فى خطبته بالبيضة، فبعد أن حمد الله وأثنى عليه قال: «أيها الناس، إن رسول الله ﷺ قال: (من رأى سلطانًا جائرًا مستحلا لحرم الله، ناكثًا لعهد الله، مخالفًا لسنة رسول الله، يعمل فى عباد الله بالإثم والعدوان، فلم يغير عليه بفعل ولا قول، كان حقًّا على الله أن يدخله مدخله) ألا وإن هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان، وتركوا طاعة الرحمن، وأظهروا الفساد، وعطلوا الحدود، واستأثروا بالفىء، وأحلوا حرام الله، وحرموا حلاله، وأنا أحق من غيّر» وقد كان رحمه الله مدركًا لميزان القوى العسكرية، وأنه لا يستطيع مواجهة قوى الظلم المحدقة به فى كربلاء، ولكنه كان يرفض الذل، والخضوع لقوى البغى، فطلب وأصحابه الموت شهادة فى سبيل مقاومة الظلم، فقد قام بذى حُسُم، فحمد الله، وأثنى عليه، ثم قال: «إنه قد نزل من الأمر ما قد ترون، وأن الدنيا قد تغيرت وتنكرت، وأدبر معروفها واستمرت جدًا، فلم يبق منها إلا صبابة كصبابة الإناء، وخسيس عيش كالمرعى الوبيل. ألا ترون أن الحق لايعمل به، وأن الباطل لايتناهى عنه! ليرغب المؤمن فى لقاء الله محقًا. فإنى لا أرى الموت إلا شهادة، ولا الحياة مع الظالمين إلا برمًا» إنه ليس من السهل إدراك مغزى قرار الإمام الحسين عليه السلام الإقبال على الشهادة رفقة أهله وأصحابه فى سبيل مقاومة الحاكم الجائر المستبد، وقد يرى فيه البعض ضربًا من ضروب المثالية، وضعف الحنكة السياسية، وسوء تقدير للمعطيات السياسية والعسكرية، ويعنى هذا المنطق المراوغة وقبول المساومة فى الحق، وهو مارفضه دائمًا قادة التيار الذى يمثله الإمام الحسين رحمة الله عليه. إن لقرار الإمام الحسين الإقدام على الاستشهاد فى معركة الدفاع عن الحق، وعن القيم الإسلامية، وفى سبيل مقاومة الظلم والطغيان، والانحراف عن النهج القويم معانى عميقة سامية، ودروسًا خالدة خلود مسيرة النضال البشرى ضد الظلم، وفى سبيل بناء مجتمع الحق، والحرية، والعدل الاجتماعى، فلما سمع الإمام الحسين عليه السلام بمقتل رسوله إلى أهل الكوفة: قيس بن مسهر الصيداوى

ترقرقت عيناه، ولم يملك دمعه، ثم قال: «منهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا»[1].

وكان نفر يسير من أصحاب عمر بن سعد قد ضاقوا برفض ابن زياد ما عرض عليه الإمام الحسين عليه السلام من الخصال، ففارقوا جيشهم وانضموا إلى الإمام الحسين عليه السلام، فقاتلوا معه حتى قتلوا بين يديه. ونظر المسلمون فإذا قوم منهم - على رأسهم رجل من قريش من أبناء المهاجرين، أبوه أول من رمى بسهم فى سبيل الله، وأحد العشرة الذين شهد النبى لهم بالجنة، وقائد المسلمين فى فتح بلاد الفرس، وأحد الذين اعتزلوا الفتنة فلم يشاركوا فيها من قريب ولا من بعيد - نظر المسلمون فإذا قوم منهم، عليهم هذا القرشى عمر بن سعد بن أبى وقاص، يقتلون أبناء فاطمة بنت رسول الله، ويقتلون أبناء الإمام علىّ عليه السلام، ويقتلون ابنى عبدالله بن جعفر بن أبى طالب الطيار شهيد مؤتة ثم يحزون رءوسهم ثم يسلبونهم، ويسلبون سبط رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم الإمام الحسين عليه السلام حتى يتركوه متجرداً بالعراء، ويصنعون بهم ما لايصنع المسلمون بالمسلمين. ثم يسبون النساء كما يسبى الرقيق، وفيهم زينب بنت فاطمة بنت رسول الله[2]. أوشك القتال أن يبدأ ولكن قبل أن تنقذف أول سهامه، وقع حادث عجيب. «الحر بن يزيد التميمى» قائد الطليعة التى أرسلها ابن زياد من الكوفة، والذى التقى بركب «الإمام الحسين عليه السلام» واضطره للنزول فى كربلاء. إنه لم يكد يرى القتال على وشك البدء، حتى أحس فداحة الجريمة التى ستلوثه، وبشاعة الوزر الذى سيحمله، وظلام المصير الذى سيكون له عند الله، فخرج بجواده من صفوف فرسانه، واقترب من قائد الجيش - عمر بن سعد - وصاح به: أصلحك الله! مقاتل أنت هذا الرجل؟ قال: أى والله قتالا أيسره أن تسقط الرؤوس وتطيح الأيدى، قال: أفمالكم فى واحدة من الخصال التى عرض عليكم رضا؟ قال عمر

---

1 - د. الحبيب الجنحانى - نفس المرجع ص174.
2 - طه حسين - المرجع السابق ص241.

ابن سعد: «أما والله لو كان الأمر إلى لفعلت، ولكن أميرك قد أبى ذلك»، قال: فأقبل حتى وقف من الناس موقفا، ومعه رجل من قومه يقال له قرة بن قيس، فقال: ياقرة، هل سقيت فرسك اليوم؟ قال: لا، قال: إنما تريد أن تسقيه؟ قال: فظننت والله أنه يريد أن يتنحى فلا يشهد القتال، وكره أن أراه حين يصنع ذلك، فيخاف أن أرفعه عليه، فقلت له: «لم أسقه، وأنا منطلق فساقيه»، قال: «فاعتزلت ذلك المكان الذى كان فيه، قال: فوالله لو أنه أطلعنى على الذى يريد لخرجت معه إلى الحسين، قال: فأخذ يدنو من حسين قليلا قليلا، فقال له رجل من قومه يقال له المهاجر بن أوس: ماتريد يا ابن يزيد؟ أتريد أن تحمل؟ فسكت وأخذه مثل العرواء[1]، فقال له يا ابن يزيد، والله إن أمرك لمريب، والله ما رأيت منك فى موقف قط مثل شىء أراه الآن، ولو قيل لى: من أشجع أهل الكوفة رجلا ماعدوتك، فما هذا الذى أرى منك! قال: إنى والله أخير نفسى بين الجنة والنار، ووالله لا أختار على الجنة شيئا ولو قطعت وحرقت، ثم ضرب فرسه فلحق بحسين عليه السلام فقال له: جعلنى الله فداك يا ابن رسول الله! أنا صاحبك الذى حبستك عن الرجوع وسايرتك فى الطريق، وجعجعت بك فى هذا المكان، والله الذى لا إله إلا هو ما ظننت أن القوم يردون عليك ماعرضت عليهم أبدا، ولايبلغون منك هذه المنزلة. فقلت فى نفسى: لا أبالى أن أطيع القوم فى بعض أمرهم، ولايرون أنى خرجت من طاعتهم، وأما هم ... لون من حسين هذه الخصال التى يعرض عليهم، ووالله لو ظننت أنهم لايقبلونها منك ماركبتها منك، وإنى قد جئتك تائبا مما كان منى إلى ربى، ومواسيا لك بنفسى حتى أموت بين يديك، أفترى ذلك لى توبة؟[2].

قال: نعم، يتوب الله عليك، ويغفر لك، ما اسمك؟ قال: أنا الحر بن يزيد، قال: أنت الحر كما سمتك أمك، أنت الحر إن شاء الله فى الدنيا والآخرة، انزل، قال: أنا لك فارسا خير منى راجلا، أقاتلهم على فرسى ساعة، وإلى

1 ـ العرواء كغلواء: الرعدة تكون من الحمى.

2 ـ سلامة قاقيش ـ المرجع السابق ص70.

النزول مايصير آخر أمرى. قال الحسين: فاصنع يرحمك الله مابدا لك. فاستقدم أمام أصحابه ثم قال: أيها القوم، ألا تقبلون من حسين خصلة من هذه الخصال التى عرض عليكم فيعافيكم الله من حربه وقتاله؟ قالوا: هذا الأمير عمر بن سعد فكلمه، فكلمه بمثل ما كلمه به قبل، وبمثل ما كلم به أصحابه، قال عمر: حرصت، لو وجدت إلى ذلك سبيلا فعلت: فقال: «يا أهل الكوفة، لامكم الهبل والعبر إذ دعوتموه حتى إذا أتاكم أسلمتموه، وزعمتم أنكم قاتلوا أنفسكم دونه، ثم عدوتم عليه لتقلتوه، أمسكتم بنفسه، وأخذتم بكظمة، وأحطتم به كل جانب، فمنعتموه التوجه فى بلاد الله العريضة حتى يأمن ويأمن أهل بيته، وأصبح فى أيديكم كالأسير لايملك لنفسه نفعا، ولايدفع ضرا، وحلأتموه ونساءه وصبيته وأصحابه عن ماء الفرات الجارى الذى يشربه اليهودى والمجوسى والنصرانى، وتمرغ فيه خنازير السواد وكلابه، وهاهم قد صرعهم العطش، بئسما خلفتم محمدا فى ذريته! لاسقاكم الله يوم الظما إن لم تتوبوا وتنزعوا عما أنتم عليه من يومكم هذا فى ساعتكم هذه. فحملت عليه رجالة لهم ترميه بالنبل، فأقبل حتى وقف أمام الحسين. وكما صنع «الحر بن يزيد» صنع بطل آخر، هو «يزيد الكندى»، لقد غادر مكانه فى جيش ابن زياد، وبصق عليه، ثم انطلق يعدو بجواده إلى جبهة «الحسين» العظيم!!

زحف عمر بن سعد نحوهم، ثم نادى: «ياذؤيد ادن رايتك»، فأدناها ثم وضع سهمه فى كبد قوسه، ثم رمى فقال: اشهدوا أنى أول من رمى. قال أبو مخنف عن عذاء بن السائب، عن عبدالجبار بن وائل الحضرمى، عن أخيه مسروق ابن وائل، قال: كنت فى أوائل الخيل ممن سار إلى الحسين، فقلت: أكون فى أوائلها لعلى أصيب رأس الحسين، فأصيب به منزلة عند عبيد الله بن زياد، قال: فلما انتهينا إلى حسين تقدم رجل من القوم يقال له ابن حوزة، فقال: أفيكم حسين؟ قال: فسكت حسين فقالها ثانية، فسكت حتى إذا كانت الثالثة قال: قولوا له: نعم، هذا حسين، فما حاجتك؟ قال: يا حسين، أبشر بالنار، قال، كذبت، بل أقدم على رب غفور وشفيع مطاع، فمن أنت؟ قال: ابن حوزة، قال، فرفع

الإمام الحسين عليه السلام يديه حتى رأينا بياض إبطيه من فوق الثياب ثم قال: اللهم حزه إلى النار، قال: فغضب ابن حوزة، فذهب ليقحم إليه الفرس بينه وبين نهر، قال؛ فعلقت قدمه بالركاب، وجالت به الفرس فسقط عنها، قال: فرجع مسروق وترك الخيل من ورائه، قال: فسألته، قال: لقد رأيت من أهل هذا البيت شيئًا لا أقاتلهم أبدا، قال: ونشب القتال. قال هشام، عن أبيه محمد بن السائب، عن القاسم بن الأصبغ بن نباته، قال: حدثنى من شهد الإمام الحسين عليه السلام فى عسكره أن حسينا حين غلب على عسكره ركب المسناة يريد الفرات، قال: فقال رجل من بنى ابان بن دارم: «ويلكم! حولوا بينه وبين الماء لاتتأم إليه شيعته»، قال: وضرب فرسه واتبعه الناس حتى حالوا بينه وبين الفرات، فقال سبط رسول الله محمد صلى الله عليه وآله وسلم الإمام الحسين عليه السلام: اللهم اظمه، قال: وينتزع الابانى بسهم، فأثبته فى حنك الحسين، قال: فانتزع الحسين السهم، ثم بسط كفيه فامتلأت دما ثم قال سبط رسول الله محمد صلى الله عليه وآله وسلم الإمام الحسين عليه السلام: اللهم إنى أشكو إليك ما يفعل بابن بنت نبيك، قال: فو الله إن مكث الرجل إلا يسيرا حتى صب الله عليه الظمأ، فجعل لايروى[1].

وتلاه على الأثر، بروز صف من رجال ابن سعد يطلبون المبارزة من صفوف الأبطال خرج إليهم أكفاؤهم الأشداء. هذا «عبدالله بن عمر الكلبى». . مؤمن من الكوفة لم يكد يعلم باحتجاز سبط رسول الله محمد صلى الله عليه وآله وسلم الإمام الحسين عليه السلام» عند كربلاء، حتى اصطحب زوجته معه وشد إليه الر[illegible] ها هو ذا يوفى لله بيعه. وها هو ذا يخرج إلى مبارزه، فيصرعه من فوره. وكان استهلالا باهراً، أطار صواب الآخرين، فهجم عليه الشياطين المرقة حيث ضربه أحدهم بسيفه فطارت أصابع كفه فى الهواء. لكنه انثنى على ضاربه فصرعه فى لحظة. وتكالب عليه آخرون، تنكروا حتى لشرف المبارزة وقواعدها، لاسيما حين رأوا أن جميع مبارزيهم صرعوا بأيدى الذين خرجوا إليهم من أنصار سبط رسول الله محمد صلى الله عليه وآله وسلم الإمام «الحسين عليه السلام». ولم يتركوا الرجل إلا عندما أبصروا فريقًا من أصحابه يقتربون منهم بسيوفهم المشرعة. عندئذ ولوا عنه، وهو مثخن بجراحه واشرأبت

1 ـ سلامة قاقيش ـ نفس المرجع ص72.

زوجته من بعيد، فبصـرت به، وانطلقت تهرول إليه حاملة، بيمناها حربة طويلة. حتى إذا بلغته راحت تحتضنه بين ذراعيـها لينهض قائما وهى تقول له: «فداك أبى وأمى قاتل دون الطيبيـن من ذرية محمد» لكنه يصيح بها، ويضـرع إليها كى تعود إلى خبـائها، فإذا هى تـلعلع بصوتها الواثق: «لا، لـن أعود. ولن أدعك تذهب إلى الفردوس وحدك» لكـنه يزحف بجسده المثخن، ويدفعـها أمامه نحـو الخيام. فتستعصى عليه، وتستميت دون الرجوع.

ويلمح سبط رسول الله محـمد ﷺ الإمام «الحسين عليه السلام» المشهد من بعيد فيناديها: «جـزيتم عن أهل بيتى خيراً. ارجعى يرحـمك الله، فليس عليكن قتال» وآنئذ لا غير، تمتـثل وتطيع، فإنها لاتستطيع لأمر ابن الرسول عصـيانًا. ويستأنف «عبدالله بن عمـر الكلبى» زحفه فوق أرض جاشت بالصراع، ضـاربًا بسيفه ذات اليمين وذات اليـسار، حتى غاضت حـياته تحت وطأة الهول الذى كان جـسده قد تلقاه. ومرة أخـرى، تندفع إلى أرض القتال زوجته التـى صممت على ألا يذهب قـبلها. وألا يذهب دونهـا إلى الجنة. وراحت تبـحث بين جثث الشـهداء حـتى وجدته، فـجلست بجواره تسجـيه بحنانها، وتضمـه بكيانها، وتقـبّل الجراح التى رصعـت جسده وهـى تصيح: «هنيـئًا لك الجنة». ثم ربضت إلى جـواره، ويدها على مـقبض سـيفـه، لتحـرس جثـمانه من الوحـوش الذين كانوا يعـودون إلى الشهداء، ليـحتزوا رؤوسهم. لكن الشقى الزنيم ـ شمـر بن ذى الجون ـ أبصرها، فأمـر واحداً من شياطينه، غـافلها من الخلف وهشم رأسهـا، وهكذا لم تحرم من صحبة زوجها إلى الفردوس الأعلى. التحمت الجبهتان التحامًا رهيبًا. ورأى جنود زياد كثرة القتلى الذين يسقطون منهم رغـم كثرتهم الهائلة، فجن جنونهم، وهجم فرسانهم فى ضراوة. وبرز لهم فرسان سبط رسول الله محمد ﷺ الإمام «الحسين عليه السلام» الذين لم يكونوا أكثر من اثنيـن وثلاثين فارسًا، فدمروا هجومـهم تدميراً، وجاوزوا الدفـاع إلى الهجوم فى سـرعة ماحـقة، وأحاطوا بفـرسان ابن زياد، ثم مرقوا داخل صفوفهم يطوحون برؤوسهم كالذباب[1].

---

1 ـ خالد محمد خالد ـ المرجع السابق ص119.

وسقط فى يـد قائدهم (عروة بن قـيس) فنادى (عمـر بن سعـد) من فوق صهوة جواده، كى يدركه بالرماة!! وأمر (ابن سعد) جيشه فتقدم بأجمعه، يتقدمه خمـسمائه من الرماة. وكـبر سبط رسول الله مـحمد ﷺ الإمام «الحـسين عليه السلام» تكبيـرة هزت الأرض ونادت زلزالها. وانقذف يضـرب بسيفـه، فكأنه قدر، لاراد لأمره ولا مهرب من حكمه. كان يشد كالليث على غريم فيصرعه، ثم يبصر آخر فى طريقه بسـيفه الغـادر إلى بعض أصحابه؛ فـيثنى إليه كالصـقر ويرديه. وحل روحه الغلاب فى أفـئدة أصحابه، فـاشتعل حمـاسهم، واتقد مضـاؤهم وامتلأت أفئدتهم المؤمنة عزمًا وشوقًا، ووراحوا يضربون ويقاتلون، فى استبسال عظيم. كانوا كلما قل عـددهم بوقوع الشهـداء منهم، ازدادوا إقدامًا وقـوة، لكأنما كانت أرواح شهدائهم تستأنـف بعد انطلاقها من أجسادها، نضالها وقتـالها. لم يكن أصحاب سبط رسول الله محمد ﷺ الإمام «الحسين عليه السلام» يتعجلون النصر؛ فما أبعد النصر عن قوم يقاتلون فى مثل ظروفهم وبمثـل عددهم. إنما كانوا يتعجلون الجنة؛ إذ لم يكن لديهم ريب فى أنها المنتهى والمصير. وركـز رماة الأعداء ضرباتهم على الجياد التى يمتطيهـا فرسان سبط رسول الله محمـد ﷺ الإمام «الحسين عليه السلام» فعقروها جـميـعًا. وهبط الفـرسان إلى الأرض ليـقاتـلوا مع إخوانهم. كـان كل بطل من أصحاب سـبط رسول الله محمد ﷺ الإمـام «الحسين عليه السلام» يتكاثر عليه عشرات من جـيش ابن زياد وهذه وحـدها، ترينا كـيف كـانت ضـراوة القتـال وعظمـة الاستـشهاد ورغم مـا كان لجـيش الباطل من تفوق، فـقد كان الـفزع من نصيـبه وحده[1].

وليس هناك ما يصور هذه الحقيقة مـثل إقدامهم على حرق المضارب والخيام التى كانت لأهل سبـط رسول الله محمد ﷺ الإمـام الحسين عليه السلام وأنصاره. لقد أحرقـوها؛ ليشـغلوا بإطفاء نارها المندلعـة تلك القلة الصامـدة لقتالـهم والمطوحة برؤوسهم. كان الإمـام الحسين عليه السلام قد أقام فسطاطًا له، وجـمع النساء والأطفال فيه، وكان أصحابه يقـاتلون أشد القتال ولا يقدر أعداؤهم على أن يأتوهم إلا من

1 ـ خالد محمد خالد ـ نفس المرجع ص120.

وجه واحد لقرب أبنيتهم بعضها من بعض، فلما رأى ذلك عمر بن سعد، أرسل رجالا يقوضونها ليحيطوا بها فقتلهم أصحاب الإمام الحسين عليه السلام فأمر عمر بإحراقها فقال الإمام الحسين عليه السلام: دعوهم فليحرقوها، فإنهم لو أحرقوها لم يستطيعوا أن يجوزوا إليكم منها، وكان ذلك كذلك، وأخذوا لايقاتلونهم إلا من وجه واحد فحمل شمر بن ذى الجون حتى طعن فسطاط الإمام الحسين عليه السلام برمحه ونادى: عليَّ بالنار حتى أحرق هذا البيت على أهله فصاح النساء، وخرجن من الفسطاط وصاح به سبط رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم الإمام الحسين عليه السلام: «يا ابن ذى الجون، أنت تدعو بالنار لتحرق بيتى على أهلى، حرقك الله بالنار» فقال له حميد بن مسلم: «سبحان الله، إن هذا لايصلح لك أتريد أن تجمع خصلتين؛ تعذب بعذاب الله (يعنى بالنار)، وتقتل الولدان والنساء؟!! والله إن فى قتلك الرجال لما ترضى به أميرك». فقال: «من أنت؟». قال: «لاأخبرك» وخشى أن يضره عند الأمير. فجاءه رجل يسمى شبث بن ربعى فقال له: «ما رأيت مقالا أسوأ من قولك؛ ولا موقفًا أقبح من موقفك؛ أمرعبًا للنساء صرت؟» فاستحى وانصرف[1].

واشتعلت الحرائق عالية، فنادى سبط رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم الإمام «الحسين عليه السلام» فى ثبات عجيب. «لابأس. اجعلوا الحريق وراء ظهوركم؛ فلا يستطيعوا اجتياز النار إليكم» ونجا فسطاط «الإمام الحسين عليه السلام» من الحريق وفى خضم هذا الهول الذى شكّله القتال الضارى الوبيل، وقف «البطل» يقلب وجهه فى السماء. لقد كان ينتظر مقدم عزيز لم يخلف قط موعده معه ـ ذلكم هو الصلاة. أجل، لقد انتصف النهار، وجاء ميقات الظهر، وموعد صلاته وللصلاة فى ميدان القتال طريقة خاصة. وهكذا نادى «الإمام الحسين عليه السلام» لصلاة الظهر ـ صلاة حرب وقتال. هل رأى الناس شيئًا كهذا، فى جلاله، وجماله، وعظمته حتى والموت ينوشه وينوش أصحابه من كل جانب، لايغفل عن واجب ربه، ولا عن فرائض

1 ـ محمد رضا ـ المرجع السابق ص132.

دينه. ويفـرغون من صلاتهم، لـيواصلوا جهـادهم، وقد بدأ النصف الـثانى من النهار. أى إعـجاز كان هذا الذى حـدث وكيف صمـد اثنان وسبـعون طيلة هذا الوقت لأربعة آلاف فارس، ورام، وكيف ستظل بقيـتهم صامدة حتى آخر النهار. أو كل هذا الثبـات، يهبه الحق أتباعـه وأشياعه؟ أجل، وأكـثر من هذا يمنح الحق ويعطى. لقد أحاط الباقون من أصحاب «الإمام الحسين عليه السلام» به يقاتلون من حوله ويذودون عنه، وكل أمـانيهم أن تواتيهم منـاياهم وهم بين يديه، أو عند قدمـيه. فـهذا «حنظلة بـن سعـد الشبـامى» ينادى أعـداء الحق. «إنى أخـاف عليكم يوم التناد.. فإياكم وقـتل سبط رسول الله مـحمد صلى الله عليه وسلم الإمام «الحـسين عليه السلام»؛ فقد خاب من افـترى» ثم يثبـت بين يديه كأنه جبل، لاتزحـزحه عن مكانه عـشرات السيوف والرمـاح التى اتخذته هدفًا. ويظل يقاتل حتى يقع شهـيداً. وهذا «سيف ابن الحارس وأخوه مالك» يقتربان من البطـل، ويعانقانه، ثم يقولان له: «موعدنا الجنة» ويقاتلان مـعه ومن حوله حتى تدركهـما الشهادة. وهذا «عـبدالله بن عروة وأخوه عـبدالرحمن» يخـوضان فى صفـوف الأعداء ويصليـانهم سعيـراً. ويثقل جسـداهما بالطعن وبالضرب والجـراح، فيقـعان على الأرض خائرة قواهما، ثم لاتكاد أعينهـم المجهدة تقع على البطل يقـاتل وحده عـشرات من الأعداء القـساة حتى تنتفض فيهـما من جديد عافية الأسود، ويتضرم بأسـهما، وينهضان من بين يديه فى قتال مرير حتى يقع أجرهما عـلى الله شهيدين عظيمين. وهذا «شوذب» و«عـبـاس بن أبى شـبـيب» و«نافع بن هلال البـجـلى» و«سـويد بن أبى المطاع» وعشرات من إخوانهم المـباركين، راحوا يقاتلون فى جسارة وغـبطة.. كلما سقط أحدهم جريحًا نهض فـوق جراحه، وسبح فوق دمائه حتى يعود فـيقاتل. ويقاتل فى عزم شـامخ وثبات مكين؛ حتى لحقـوا جميـعًا بإخوانهم الذين سبـقوهم أول النهار ـ «زهيـر بن القين» و«عـبدالله بن عـمر الكلبيى» و«الحـر بن يزيد» و«يزيد الكندى» أولئك الأبطال الذين قـاتل الواحد منهم وكأنه جـيش وحده والذين أبلوا فى المعركة بلاء يتعاظم كل وصف وكل إطراء[1].

---

1 ـ خالد محمد خالد ـ المرجع السابق ص122.

لما أحيط بالحسين بكربلاء وقيل له: انزل على حكم بنى عمك قال: لا والله ـ لا أعطيكم بيدى إعطاء الذليل ولا أقر إقرار العبيد فأختار المنية على الدنية وميتة العز على عيش الذل. وقال: ألا إن الدعى ابن الدعى قد ركز بين اثنتين السلة والذلة وهيهات منا الذلة يأبى الله ذلك لنا ورسوله والمؤمنون وجدود طابت وحجور طهرت وأنوف حمية ونفوس أبية ولا تؤثر طاعة اللئام على مصارع الكرام. أقدم الإمام الحسين عليه السلام على الموت مقدمًا نفسه وأولاده وأطفاله وأهل بيته للقتل قربانا وفاء لدين جده ﷺ بكل سخاء وطيبة نفس وعدم تردد وتوقف قائلا بلسان حاله[1]

إن كان دين محمد لم يستقم إلا بنفسى ياسيوف خذينى

ومما لاشك فيه أن شجاعته هى الصفة الأولى فيه، وهى صفة ورثها عن الآباء وأورثها الأبناء بعده، وقد شهد معظم الحروب، وحضر مع أبيه وقائعه جميعًا من الجمل إلى صفين، وليس فى بنى الإنسان من هو أشجع قلبًا ممن أقدم عليه فى كربلاء، وقد تعلم الإمام فنون الفروسية كركوب الخيل والمصارعة من صباه. وروى ابن أبى حديد فى شرح نهج البلاغة أنه فيما فخرت به بنو هاشم على بنى أمية قولهم من مثل الإمام الحسين بن على عليهما السلام ويوم الطف، ما رأينا مكثوراً قد أفرق من إخوته وأهله وأنصاره أشجع منه، كان كالليث المحارب يحطم الفرسان حطمًا. وقال فى موضع آخر: سيد أهل الآباء الذى علم الناس الحمية والموت تحت ظلال السيوف اختياراً له على الدنية الإمام أبو عبدالله الحسين بن على رضى الله عنهما عرض عليه الأمان وأصحابه فأنف من الذل، وخاف من ابن زياد أن يناله بنوع من الهوان مع أنه لايقتله فاختار الموت على ذلك، وسمعت النقيب أبا زيد يحيى يروى: أن الإمام الحسن عليه السلام لما صالح معاوية قال أخوه الإمام الحسين عليه السلام: «لقد كنت كارهًا لما كان طيب النفس على سبيل أبى حتى عزم على أخى، فأطعته وكأنما يحذ أنفى بالمواسى». ابن زيد

1 ـ توفيق أبو علم ـ المرجع السابق ص449.

العلوى البصرى يقول كأن أبيات أبى تمام فى محـمد بن حميد الطائى ما قيلت إلا فى الإمام الحسين عليه السلام:[1]

وقد كان فوت الموت سـهلا فـرده إليه الحفاظ المرء والخـلـق الوعـر

ونفـس تعـاف الضيم حـتى كأنـه هو الكفر يوم الروع أو دونه الكفـر

فاثبت فى مسـتنقع المـوت رحـله وقال لهـا من تحت أخمصك الحشر

تردى ثياب الموت حمـراً فما أتى لها الليل إلا وهى من سندس خضر

تقدم آل بيت الحسـين. تقدم أبناء الرسول نحو مصايرهم العظيـمة. لم يعد الذى يضنيهم، الظمأ إلـى الماء الذى حرمهم منه المجرمون بل الظمـأ إلى الشهادة والشوق إلى الجنة!! لقـد كانوا فى لحظاتهم المجـيدة تلك، يشمـون عبيـر جدهم الرسول. وجدتهم خديجة وعـبير حمزة. وجعفر وعلى وفـاطمة، فيدركون أنهم صاروا فى الجنة على قرب ذراع، فينطلقـون نحوها فى هيام. وكان أولهم انطلاقًا «على بن الحسين» فتى لم يجاوز التاسـعة عشرة من عمره. انظروا ها هو ذا ـ فى نضرة شـبابه وريعـان إهابه فى روعة بأسـه وشرف نفسـه يتوسط حـراب الأعداء وسـيوفـهم، وهو ينشـد أنا على بن الحسـين بن على. نحن ورب البـيت، أولى بالنبى. تالله، لايحكم فينا ابن الدعى. تمامًا، كما كان يصنع من قبل جده «الإمام على» حين كان يقـتحم المعارك فى عنفوانه اللجب، وهو يـزأر. أنا الذى سمتنى أمى حيدرة كليث غابات، كريه المنظرة. أوفيهمو بالصاع كيل السندرة. ها هو ذا، ابن التاسعة عشرة، يعيد إلى الحـياة مرة أخرى بطولات جده العظيم. ذرية بعضها من بعض. ويمـضى، يضـرب ويضرب حـتى تصـيبه طعنة رمح؛ فـيـقع على الأرض، وقبل أن يتحـامل على جراحه لينهض من جديد كانت عشـرات السيوف الباغية قد مزقت جسده الغض الشريف. ويراه الإمام الحسين ـ مجّد الله الحسين ـ

---

1 ـ توفيق ابو علم ـ نفس المرجع ص450.

فيسرع نحوه ويسرع معه شباب بنى هاشم وفى رباطة جأش تذهل كل حى، حمل البطل ابنه الحبيب، ثم سجاه على ذراعى واحد من بنى عمومته، وأمره أن يذهب به إلى فسطاطه. ولا تكاد الطاهرة البتول «زينب بنت على» رضى الله عنها وأرضاها لاتكاد تبصر جثمان ابن أخيها حتى تعلو زفرات أساها. أهذا الذى كان من دقائق معدودة، يملأ الأعين شبابه، وبهاؤه، وسناؤه. هنالك انكبت على الأشلاء الطاهرة الناضرة، تضخها بدموعها وشجنها. وأثر فى البطل مشهد أخته، فسار إليها يسألها الصبر ويقودها فى رفق إلى خبائها. وعاد هو إلى ساحة القتال. لم يكن هناك على أرض المعركة سوى أهل بيته أما أصحابه وأنصاره، فقد رحلوا جميعًا شهداء ممجدين. ولقد استفتح آل البيت بفتاهم العظيم «على بن الحسين». ومن بعده تقدموا جميعًا كالصقور الكواسر. هاهم أولاء إخوته لأبيه: عبدالله بن على بن أبى طالب، وجعفر، وعثمان، ومحمد الأصغر، وأبو بكر، والعباس، يقذفون بأنفسهم وسط الهول، وأخوهم العباس يهتف فيهم قائلا: «تقدموا؛ حتى أراكم قد نصحتم لله ولرسوله». فيتقدمون إلى قلب الجيش المسعور بسيوفه العاوية، ورماحه الباغية. وكلما لمحوا خطرًا يقترب من أخيهم البطل «الإمام الحسين عليه السلام» تلقوه بأجسادهم حتى سقطوا جميعًا صرعى بل قولوا: صعدوا جميعًا شهداء. وعلى ثراها تمددت أجسادهم الكريمة يسبقها جثمان «العباس بن على» الذى كان لبهاء طلعته، وتألق شخصيته، يلقب بـ «قمر قريش».

تقدم أبناء «الحسين» وأبناء «الحسن»: أبو البكر بن الحسين وعبدالله بن الحسين والقاسم بن الحسن. كما تقدم أبناء جعفر بن على بن أبى طالب: عون ومحمد وعبدالله. وأبناء «عقيل بن أبى طالب». عبدالله الأكبر وعبدالله الأصغر. وجعفر. وأبناء «مسلم بن عقيل» الذى قتله ابن زياد بالكوفة: محمد وعبدالله كما تقدم محمد بن أبى سعيد بن عقيل تقدموا جميعًا فى بطولة تتحدى نفسها[1].

---

1 ـ خالد محمد خالد ـ نفس المرجع ص125.

أقبل الحسين إلى ابنه، وأقبل فتيانه إليه، فقال: احملوا أخاكم، فحملوه من مصرعه حتى وضعوه بين يدى الفسطاط الذى كانوا يقاتلون أمامه. ثم إن عمرو ابن صبيح الصدائى رمى عبدالله بن مسلم بن عقيل بسهم فوضع كفه على جبهته، فأخذ لايستطيع أن يحرك كفيه، ثم انتحى له بسهم آخر ففلق قلبه فاعتورهم الناس من كل جانب. فحمل عبدالله بن قطبة الطائى ثم النبهانى، على عون بن عبدالله ابن جعفر بن أبى طالب فقتله. وحمل عامر بن نهشل التيمى على محمد بن عبدالله بن جعفر بن أبى طالب فقتله. وشد عثمان بن خالد بن أسير الجهنى، وبشر بن سوط الهمدانى ثم القابضى على عبدالرحمن بن عقيل بن أبى طالب فقتلاه. ورمى عبدالله بن عزرة الخثعمى جعفر بن عقيل بن أبى طالب فقتله. قال حميد بن مسلم: خرج إلينا غلام كأن وجهه شقة قمر، فى يده سيف، عليه قميص وإزار ونعلان قد انقطع شسع أحدهما، ما أنسى أنها اليسرى، فقال لى عمرو بن سعد بن نفيل الأزدى: والله لأشدن عليه فقلت له: سبحان الله وما تريد إلى ذلك؟ يكفيك قتل هؤلاء الذين تراهم قد احتولوهم. فقال: والله لأشدن عليه، فشد عليه فما ولى حتى ضرب رأسه بالسيف، فوقع الغلام لوجهه، فقال: ياعماه. فجلى الحسين كما يجلى الصقر، ثم شد شدة ليث غضب فضرب عمرا بالسيف فاتقاه بالساعد، فأطنها من لدن المرفق، فصاح، ثم تنحى عنه، وحملت خيل لأهل الكوفة ليستنقذوا عمرا من حسين، فاستقبلت عمرا بصدورها، فحركت حوافرها وجالت الخيل بفرسانها عليه، فوطأته حتى مات، وانجلت الغبرة، فإذا أنا بالحسين قائم على رأس الغلام، والغلام يفحص برجليه، وسبط رسول الله محمد ﷺ الإمام الحسين عليه السلام يقول: بُعدا لقوم قتلوك، ومن خصمهم يوم القيامة فيك جدك، ثم قال: عز والله على عمك أن تدعوه فلا يجيبك، أو يجيبك ثم لاينفعك، صوت الله كثر واتره، وقل ناصره، ثم احتمله فكأنى أنظر إلى رجلى الغلام يخطان فى الأرض وقد وضع الإمام الحسين عليه السلام صدره على صدره. فقلت فى نفسى: مايصنع به فجاء به حتى ألقاه مع ابنه على بن الحسين

وقتلى قد قتلت حوله من أهل بيته، فسألت عن الغلام، فقيل: هو القاسم بن الحسن بن على بن أبى طالب[1].

مكث الإمام الحسين ﷺ طويلا من النهار، كلما انتهى إليه رجل من الناس انصرف عنه، وكره أن يتولى قتله وعظيم إثمه عليه. وإن رجلا من كندة يقال له مالك بن النسير من بنى بداء، أتاه فضربه على رأسه بالسيف، وعليه برنس له، فقطع البرنس، وأصاب السيف رأسه، فأدمى رأسه، فامتلأ البرنس دما. فقال له سبط رسول الله محمد ﷺ الإمام الحسين رضى الله عنه. لا أكلت بها ولا شربت، وحشرك الله مع الظالمين. فألقى ذلك البرنس، ثم دعا بقلنسوة فلبسها، واعتم، وقد أعيا وبلد، وجاء الكندى حتى أخذ البرنس، فلما قدم به بعد ذلك على امرأته أم عبدالله ابنة الحر أخت البدى، أقبل يغسل البرنس من الدم، فقالت له امرأته: وأسلب ابن بنت رسول الله ﷺ، تدخله بيتى أخرجه عنى، فذكر أصحابه أنه لم يزل فقيرا بشر حتى مات. ولما قعد سبط رسول الله محمد ﷺ الإمام الحسين ﷺ أتى بصبى له فأجلسه فى حجره زعموا أنه عبدالله بن الحسين. قال عقبة بن بشير الأسدى: قال لى أبو جعفر محمد بن على بن الحسين إن لنا فيكم يا بنى أسد دما. قلت: فما ذنبى أنا فى ذلك رحمك الله يا أبا جعفر وما ذلك؟ قال: أتى الحسين بصبى له، فهو فى حجره، إذ رماه أحدكم يا بنى أسد بسهم فذبحه، فتلقى الحسين دمه، فلما ملأ كفيه صبه فى الأرض ثم قال: رب إن تلك حبست عنا النصر من السماء فاجعل ذلك لما هو خير، وانتقم لنا من هؤلاء الظالمين. قال: ورمى عبدالله بن عقبة الغنوى أبا بكر بن الحسين بن على بسهم فقتله. وشد هانئ بن ثبيت على عبدالله بن على بن أبى طالب فقتله. ثم شد على جعفر بن على فقتله وجاء برأسه. ورمى خولى بن يزيد الأصبحى عثمان ابن على بن أبى طالب بسهم. ثم شد عليه رجل من بنى أبان بن دارم فقتله،

---

1 ـ موسى محمد على ـ سيد الشهداء الإمام الحسين ص111.

وجاء برأسه. ورمى رجل من بنى أبان بن دارم محمد بن على بن أبى طالب فقتله وجاء برأسه. قال هانئ بن ثبيت الحضرمى: رأيته جالسا فى مجلس الحضرميين فى زمان خالد بن عبدالله وهو شيخ كبير، فسمعته وهو يقول[1]

كنت ممن شهد قتل الإمام الحسين عليه السلام، فوالله إنى لواقف عاشر عشرة ليس منا رجل إلا على فرس، وقد جالت الخيل وتصعصعت، إذ خرج غلام من آل الحسين وهو ممسك بعود من تلك الأبنية، عليه إزار وقميص، وهو مذعور، يتلفت يمينا وشمالا، فكأنى أنظر إلى درتين فى أذنيه تذبذبان كلما التفت، إذ أقبل رجل يركض، حتى إذا دنا منه مال عن فرسه، ثم اقتصد الغلام فقطعه بالسيف. وقال جابر الجعفى: عطش سبط رسول الله محمد ﷺ الإمام الحسين عليه السلام حتى اشتد عليه العطش، فدنا ليشرب من الماء، فرماه حصين بن تميم بسهم، فوقع فى فمه، فجعل يتلقى الدم من فمه، ويرمى به إلى السماء، ثم حمد الله وأثنى عليه، ثم جمع يديه فقال: اللهم احصهم عددا، واقتلهم بددا، ولاتذر على الأرض منهم أحدا. وقال القاسم بن الأصبغ بن نباتة: حدثنى من شهد الإمام الحسين عليه السلام فى عسكره أن حسينا حين غلب على عسكره ركب المسناة يريد الفرات. فقال رجل من بنى أبان بن دارم: ويلكم حولوا بينه وبين الماء لاتتام إليه شيعته: وضرب فرسه، وأتبعه الناس حتى حالوا بينه وبين الفرات. فقال الحسين: اللهم أظمه. قال: وينتزع الأبانى بسهم، فأثبته فى حنك الإمام الحسين عليه السلام. فانتزع الإمام الحسين عليه السلام السهم، ثم بسط كفيه فامتلات دما، ثم قال الحسين رضى الله عنه: اللهم إنى أشكو إليك مايفعل بابن بنت نبيك. فو الله ان مكث الرجل إلا يسيرا حتى صب الله عليه الظمأ، فجعل لايروى. وقال القاسم بن الأصبغ: لقد رأيتنى فيمن يروح عنه والماء يبرد له فيه السكر وعساس فيها اللبن، وقلال فيها الماء، وإنه ليقول: ويلكم اسقونى قتلنى الظمأ، فيعطى القلة أو العس كان مرويا أهل البيت فيشربه، فإذا نزعه من فيه اضطجع الهنيهة ثم يقول: ويلكم اسقونى قتلنى الظمأ. قال: فو الله ما لبث إلا يسيرا حتى انقد بطنه انقداد بطن البعير. ثم إن شمر بن ذى الجون أقبل فى نفر نحو من عشرة من رجاله أهل الكوفة قبل منزل سبط رسول الله محمد ﷺ الإمام الحسين عليه السلام الذى فيه ثقله

---

1 ـ موسى محمد على ـ نفس المرجع ص132.

وعياله فمشى نحوه، فحالوا بينه وبين رحله. فقال سبط رسول الله محمد ﷺ الإمام الحسين عليه السلام: ويلكم إن لم يكن لكم دين، وكنتم لاتخافون يوم المعاد، فكونوا فى أمر دنياكم أحرارا ذوى أحساب، امنعوا رحلى وأهلى من طغاتكم وجهالكم. فقال ابن ذى الجون: ذلك لك يا ابن فاطمة قال: وأقدم عليه بالرجالة، منهم أبو الجنوب ـ واسمه عبدالرحمن الجعفى ـ والقشعم بن عمرو بن يزيد الجعفى، وصالح بن وهب اليزنى وسنان بن أنس النخعى، وخولى بن يزيد الأصبحى، فجعل شمر بن ذى الجون يحرضهم فمر بأبى الجنوب وهو شاك فى السلاح. فقال له اقدم عليه: قال: وما يمنعك أن تقدم عليه أنت. فقال له شمر: ألى تقول ذا؟ قال: وأنت لى تقول ذا فاستبّا. فقال له أبو الجنوب ـ وكان شجاعا: والله لهممت أن أخضخض السنان فى عينك[1].

فانصرف عنه شمر وقال: والله لئن قدرت على لن أضرك ثم إن شمر بن ذى الجون أقبل فى الرجالة نحو سبط رسول الله محمد ﷺ الإمام الحسين عليه السلام، فأخذ الإمام الحسين عليه السلام يشد عليهم فينكشفون عنه. ثم إنهم أحاطوا به إحاطة، وأقبل إلى سبط رسول الله محمد ﷺ الإمام الحسين عليه السلام غلام من أهله، فأخذته أخته زينب ابنة الإمام على عليه السلام لتحبسه، فقال لها الإمام الحسين عليه السلام: احبسيه، فأبى الغلام، وجاء يشتد إلى الإمام الحسين عليه السلام، فقام إلى جنبه، قال: وقد أهوى بحر بن كعب بن عبدالله ـ من بنى تيم الله بن ثعلبة بن عكابة ـ إلى الإمام الحسين عليه السلام بالسيف. فقال الغلام: يا ابن الخبيثة، أتقتل عمى فضربه بالسيف، فاتقاه الغلام بيده فأطنها إلا الجلدة، فإذا يده معلقة، فنادى الغلام: يا عماه فأخذه الإمام الحسين عليه السلام فضمه إلى صدره، وقال: يا ابن أخى، اصبر على ما نزل بك، واحتسب فى ذلك الخير، فإن الله يلحقك بآبائك الصالحين، برسول الله ﷺ وعلى بن أبى طالب وحمزة وجعفر والحسين بن على، ﷺ وعليهم أجمعين. قال حميد بن مسلم: سمعت الحسين يومئذ وهو يقول: اللهم أمسك عنهم قطر السماء، وامنعهم بركات الأرض. اللهم فإن متعتهم إلى حين ففرقهم فرقا، واجعلهم طرائق قددا، ولاترض عنهم الولاة أبدا، فإنهم دعونا لينصرونا، فعدوا علينا فقتلونا. قال: وضارب الرجالة حتى انكشفوا عنه، قال: ولما بقى سبط

1 ـ موسى محمد على ـ نفس المرجع ص134.

رسول الله محمد ﷺ الإمام الحسين عليه السلام فى ثلاثة رهط أو أربعة، دعا بسراويل محققة[1] يلمع فيها البصر، يمانى محقق، ففزره ونكثه لكيلا يسلبه. فقال له بعض أصحابه: لو لبست تحته تبانا. قال: ذلك ثوب مذلة، ولا ينبغى لى أن ألبسه. قال: فلما قتل أقبل بحر بن كعب فسلبه إياه فتركه مجردا. قال محمد بن عبد الرحمن: إن يدى بحر بن كعب كانتا فى الشتاء ينضحان الماء، وفى الصيف ييبسان كأنهما عودة. قال عبدالله بن عمار بن يغوث البارقى: وعتب على عبدالله ابن عمار بعد ذلك مشهد، قتل الإمام الحسين عليه السلام، فقال عبدالله بن عمار: إن لى عند بنى هاشم ليدا. قلنا له: وما يدك عندهم؟ قال: حملت على الإمام الحسين عليه السلام بالرمح فانتهيت إليه، فو الله لو شئت لطعنته، ثم انصرفت عنه غير بعيد، وقلت: ما أصنع بأن أتولى قتله يقتله غيرى. قال: فشد عليه رجال ممن عن يمينه وشماله، فحمل على من عن يمينه حتى ابذعروا، وعلى من عن شماله حتى ابذعروا، وعليه قميص له من خز وهو معتم، قال: فو الله ما رأيت مكسورا قط قد قتل ولده وأهل بيته وأصحابه أربط جأشا، ولا أمضى جنانا ولا أجرأ مقدما منه، والله ما رأيت قبله ولا بعده مثله، إن كانت الرجالة لتنكشف من عن يمينه وشماله انكشاف المعزى إذا شد فيها الذئب[2].

قال حميد بن مسلم: كانت عليه جبة من خز، وكان معتما، وكان مخضوبا بالوسمة، قال: وسمعته يقول قبل أن يقتل، وهو يقاتل على رجليه قتال الفارس الشجاع يتقى الرمية، ويفترض العورة، ويشد على الخيل، وهو يقول: أعلى قتلى تحاثون أما والله لاتقتلون بعدى عبدا من عباد الله أسخط عليكم لقتله منى. وأيم الله إنى لأرجو أن يكرمنى الله بهوانكم، ثم ينتقم لى منكم من حيث لاتشعرون. أما والله أن لو قد قتلتمونى لقد ألقى الله بأسكم بينكم، وسفك دماءكم، ثم لايرضى لكم حتى يضاعف لكم العذاب الأليم.

لك الله، أبا عبدالله!! وهل اختارتك المقادير لهذا العبء الذى يدغدغ الجبال، إلا وأنت له كفؤ وبه جدير؟؟ الا صبراً آل محمد، فهذا دوركم فى الحياة، وحظكم من الدنيا، ياسادة الآخرة، ويا ملوك الجنة!! راح الأبرار يسقطون

1 ـ ثوب محقق: محكم النسج.

2 ـ موسى محمد على ـ نفس المرجع ص136.

فى الحومة أبطالا، وسبط رسول الله محمد ﷺ الإمام «الحسين عليه السلام» يصول هنا، ويقاتل هناك، ودمه الزكى يتفجر من فمـه الذى اخترمه سهم وهو يحاول أن يأخذ جرعة مـاء ووقف وحيداً أمام أعـدائه. وحيداً.. فقـد رحل الأهل جميعـًا، بعد رحيل الأصـحاب كلهم عانقـوا الشهادة فى سـبيل الحق. وأحاط بـه القتلة الذين سمروا فى أمـاكنهم، زائغة أبصارهم، واجفـة قلوبهم. لقد كانوا ـ على كـثرة ما اقترفوا من جريمة وسفكوا من دم ـ يهـولهم دم سبط رسول الله محمد ﷺ الإمام «الحسين عليه السلام» فيتـفادى كل منهم وزر الإجهـاز على حياته. وهنا انبعث أشـقاها (شمر بن ذى الجون) فصرخ فيهم؛ ليختطفوا رأس البطل، فاقتربوا منه، لكنه رغم جراحه ووحدته ينقض عليهم بسيفـه، ويواجه البطل أعداءه فى جولة أخيرة، فتقع ضربة سيف على رأسه الشريف فتدميه، فيشده بعصابة، ويحمل سيفه والدم ينزف من كل جسمه، هـذا الحسين الذى قال عنه رسول الله محمـد ﷺ: الحسين بضعة منى، فأين الحـسين من أمة محـمد هذا اليوم وهو يقـتل وأين أمة محـمد عنه؟.

والمجـرمون يضـربون، ويضربـون، بيد أنهم لايزالون يرهـبون دمـه، ويتجنبـون مقاتله!! ومرة أخرى، تخرج «السيـدة زينب» من خدرها. فترى أخاها وحيداً بين الوحوش، فتتقدم إلى حيث يسمعها «عمر بن سعد» قائد جيش ابن زياد، وتصيح به: «يا عمر أيقـتل أبو عبدالله وأنت تنظر» ؟؟ فيطرق «ابن سعـد» خزيًا وندامة، ويصرف وجـهه عنها وقد تفـجرت عيناه بالدموع، لكنـه لا يستطيع أن ينسلخ من الموقف الذميم الذى ورطه فيه هواه، أين أمة محمد ﷺ من الحسين الذى قال عنه رسول الله ﷺ: الـلهم أحب من أحب الحسن والحـسين وأبغض من أبغـضهـما.

يضرع «البطل» إلى أخته كى تعود إلى مكانهـا، ثم يصيح فى القتلة: «أعلى قتلى تجتمعون؟ إنى لأرجو الله أن يكرمنى بهوانكم، ثم ينتقم لى من حيث لاتشعرون» ويطير صواب شمـر بن ذى الجون، فينادى فرسانه من جديد، ويـأمرهم أن يقفوا من وراء مشاتـه ورماته؛ ليمنعوهم عن النكوص إلى وراء. ثم يصـرخ فى الرماة، متـوعداً إياهم المصير، عندمـا يرجعون لابن زياد، ويهـتاج كالمسعـور طالبًا رأس البطل. ويتـقدم من ريحانة رسـول الله محمـد ﷺ الإمام «الحـسين عليه السلام» واحد فيضربه بسيفـه الأثيم على معصم يسراه، فتطير كفه، ثم يتقدم ثان فـيضربه بسيفه الظلوم على عاتقه، فيقع على الأرض ويحسبون أنه انتهى، فينصرفون عنه، لكنهم

يفاجأون به ينهض من جديد متوكئًا على سيفه فنادى شمر فى الناس: ويحكم، ماذا تنتظرون بالرجل اقتلوه ثكلتكم أمهاتكم، هذا الحسين الذى قال عنه رسول الله محمد ﷺ إنه سيد شباب أهل الجنة، فأين هؤلاء من رسول الله محمد ﷺ وسيد شباب الجنة أم أنهم ليسوا مسلمين؟؟. قال: فحمل عليه من كل جانب فضربت كفه اليسرى ضربة، ضربها زرعة بن شريك التميمى، وضرب على عاتقه، ثم انصرف وهو ينوء ويكبو، قال: وحمل عليه فى تلك الحال سنان بن أنس بن عمرو النخعى فطعنه بالرمح فوقع. ثم قال الخولى بن يزيد الأصبحى: احتز رأسه، فأراد أن يفعل، فضعف فأرعد. فقال له سنان بن أنس فت الله عضديك. وأبان يديك فنزل إليه فذبحه واحتز رأسه الشريف الذى كان رسول الله محمد ﷺ يحنو إليه وهو صغير وكان يقول لفاطمة لا تجعليه يبكى فإن صوته يؤذينى!!!، ثم دفع إلى خولى بن يزيد، وقد ضرب قبل ذلك بالسيوف وكل ذلك لقاء بضعة دراهم من ابن معاوية. قال جعفر بن محمد بن على: وجد بالحسين عليه السلام حين قتل ثلاث وثلاثون طعنة وأربع وثلاثون ضربة. قال: وجعل سنان بن أنس لايدنو أحد من الحسين إلا شد عليه مخافة أن يغلب على رأسه، حتى أخذ رأس سبط رسول الله محمد ﷺ الإمام الحسين عليه السلام فدفعه إلى خولى، قال: وسلب الحسين ما كان عليه. فأخذ سراويله بحر بن كعب. وأخذ قيس بن الأشعث قطيفته. وأخذ نعليه رجل من بنى أود يقال له الأسود. وأخذ سيفه رجل من بنى نهشل بن دارم، فوقع بعد ذلك إلى أهل حبيب بن بديل. قال: ومال الناس على الورس والحلل والإبل وانتهبوها. وقال زهير بن عبدالرحمن الخثعمى: إن سويد ابن عمرو بن أبى المطاع كان صرع فأثخن، فوقع بين القتلى مثخنا، فسمعهم يقولون: قتل سبط رسول الله محمد ﷺ الإمام الحسين عليه السلام، فوجد إفاقة، فإذا معه سكين وقد أخذ سيفه، فقاتلهم بسكينه ساعة، ثم إنه قتل، قتله عروة بن بطار الثعلبى، وزيد بن رقاد الجنبى، وكان آخر قتيل. قال حميد بن مسلم: انتهيت إلى الصبى على بن الحسين بن على الأصغر وهو منبسط على فراش له، وهو مريض، وإذا شمر بن ذى الجون فى رجالة معه يقولون ألا نقتل هذا؟ قال: فقلت: سبحان الله أنقتل الصبيان إنما هذا صبى. قال: فما زال ذلك دأبى أدفع عنه كل من جاء حتى جاء عمر بن سعد فقال: ألا لايدخلن بيت هؤلاء النسوة أحد، ولايعرضن

لهذا الغلام المريض، ومن أخذ من متاعهم شيئا فليرده عليهم. وقال: فو الله ما رد أحد شيئا فقال على بن الحسين: جزيت من رجل خيرا فوالله لقد دفع الله عنى بمقالتك شرا[1].

وانتهى كل شيء، ليبدأ كل شيء!! انتهى اليوم الرهيب بآلامه وأمجاده.. ليبدأ من جديد بدروسه وبحصاده!! ولقد ألف المؤرخون والكتاب أن يتمثلوا حصاد كربلاء، فيما أصاب قتلة سبط رسول الله محمد ﷺ الإمام «الحسين عليه السلام» بعد حين، من قتل وتدمير، ثم فيما شاده المطالبون بثأره من امبراطوريات ودول سادت الأرض وعمرتها قرونًا طوالا. أما نحن، فلنا وجهة نظر تختلف تمامًا فصحيح أن جميع الذين اشتركوا فى قتله وقتاله، لقوا حتفهم على أبشع الصور وأشدها مذلة وهوانا. كلهم، من ابن زياد، إلى شمر بن ذى الجون، إلى آخر واحد من الذين تحمسوا للباطل لابن معاوية، ووقفوا من ابن بنت الرسول موقف التحدى والعدوان، ومن عجب أن التاريخ تتبع مصارعهم، فإذا هم جميعًا يقتلون فارين هاربين ليس فيهم من مات ميتة رجل. وكأنما كانت هذه أولى بشائر دعوة سبط رسول الله محمد ﷺ الإمام «الحسين عليه السلام» عليهم حين صاح فيهم، وهو صامد وحده وسط سيوفهم ورماحهم قائلا «إنى لأرجو الله أن يكرمنى بهوانكم» كلهم قتلوا وديست جيفهم بالأقدام[2]. قال الناس لسنان بن أنس: قتلت سبط رسول الله محمد ﷺ الإمام حسين بن على وابن فاطمة ابنة رسول الله ﷺ، قتلت أعظم العرب خطرا، جاء إلى هؤلاء يريد أن يزيلهم عن ملكهم، فأت أمراءك الأمويين فاطلب ثوابك منهم، لو أعطوك بيوت أموالهم فى قتل سبط رسول الله محمد ﷺ الإمام الحسين عليه السلام كان قليلا، فأقبل على فرسه، وكان شجاعا شاعرا، وكانت به لوثة، فأقبل حتى وقف على باب فسطاط عمر بن سعد ابن أبى وقاص فنادى بأعلى صوته:

---

1 ـ موسى محمد على ـ المرجع السابق ص139.

2 ـ خالد محمد خالد ـ المرجع السابق ص133.

أو قـر ركـابى فـضـة وذهبـا أنا قـتلت الملـك المحـجبـا

قـتلت خيـر الناس أما وأبا وخـيـرهم إذ ينسبـون نسبـا

فقال عـمر بن سعـد: أشهد أنك لمجنون ما صـححت قط، أدخلوه على، فلما أدخل حـذفه بالقضيـب ثم قال: يامجنون، أتتكلم بهـذا الكلام أما والله لو سمعك ابن زياد لضرب عنقك. قال: وأخذ عمر بن سعد عقبة بن سمعان. فقال له: ما أنت؟ قـال: أنا عبد مملوك فخلى سـبيله فلم ينج منهم أحد غـيره. إلا أن المرقع بن ثمامة الأسدى كان قد نثر نبله وجثا على ركـبتيه، فقاتل، فجاءه نفر من قومه، فـقالوا له: أنت آمن، اخرج إلينا، فخـرج إليهم، فلما قدم بـهم عمر بن سعد بن أبى وقـاص على ابن زياد وأخبره خبره سيـره إلى الزارة. ثم إن عمر بن سعد بن سـعد بن وقاص نادى فى أصحـابه: من ينتدب للحسين ويوطئـه فرسه؟ فانـتدب عشـرة: منهم إسحـاق بن حيـوة الحضـرمى، وهو الذى سلب قمـيص الحسـين، وأحبش بن مرثد بن علقـمة بن سلامة الحـضرمى، فأتوا فداسـوا سبط رسول الله محمـد ﷺ الإمام الحسين عليه السلام بخيولهم حـتى رضوا ظهره وصدره، فبلغنى أن أحبش بن مـرثد بعد ذلك بزمان أتاه سهم غـرب، وهو واقف فى قتال فلق قلبه، فمات. فـقتل من أصحاب سبط رسول الله محمـد ﷺ الإمام الحسين عليه الـسلام اثنان وسبـعون رجـلا، ودفن الإمام الحـسين عليه السلام وأصحـابه وأهل الغاضرية من بنى أسد بعد ما قتلوا بيوم. وقتل من أصحاب عمر بن سعد بن أبى وقاص ثمانية وثمانون رجلا سوى الجـرحى، فصلى عليهم عمر بن سعد ودفنهم. قال: وما هو إلا أن قتل سبط رسول الله مـحمد ﷺ الإمام الحسين عليه السلام، فسرح برأسه من يومه ذلك مع خـولى بن يزيد، وحميد بن مسلم الأزدى إلى عـبيد الله ابن زياد.

فأقبل به خولى فأراد القصر، فوجد باب القـصر مغلقا، فأتى منزله فوضعه تحت إجانة فى منزله، وله امـرأتان: امرأة من بنى أسد، والأخرى من الحـضرمى يقال لهـا النوار ابنة مالك بن عقـرب، وكانت تلك الليلة ليلة الحـضرميـة. قالت النوار بنت مالك: أقـبل خولى برأس سبط رسول الله مـحمد ﷺ الإمام الحـسين عليه السلام فوضعه تحت إجانة فى الدار، ثم دخل البـيت، فأوى إلى فراشه، فقلت له:

ما الخبر؟ ما عندك؟ قال: جئتك بغنى الدهر، هذا رأس سبط رسول الله محمد ﷺ الإمام الحسين عليه السلام معك في الدار. قالت: فقلت: ويلك ـ جاء الناس بالذهب والفضة وجئت برأس ابن رسول الله ﷺ؟ لا والله لايجمع رأسى ورأسك بيت أبدا. قال: فقمت من فراشى، فخرجت إلى الدار، فدعا الأسدية فأدخلها إليه، وجلست أنظر، قالت: فو الله ما زلت أنظر إلى نور يسطع مثل العمود من السماء إلى الإجانة، ورأيت طيرا بيضا ترفرف حولها. فلما أصبح غدا بالرأس إلى عبيد الله بن زياد، وأقام عمر بن سعد بن أبى وقاص يومه ذلك والغد، ثم أمر حميد ابن بكير الأخمرى فأذن فى الناس بالرحيل إلى الكوفة، وحمل معه بنات سبط رسول الله محمد ﷺ الإمام الحسين عليه السلام وأخواته ومن كان معه من الصبيان، وعلى بن الحسين مريض. قال قرة بن قيس التميمى: نظرت إلى تلك النسوة لما مررن بحسين وأهله وولده، صحن ولطمن وجوههن، فاعترضتهن على فرس، فما رأيت منظرا من نسوة قط كان أحسن من منظر رأيته منهن ذلك (اليوم) والله لهن أحسن من مها يبرين فقال: فما نسيت من الأشياء لا أنس قول زينب ابنة فاطمة حين مرت بأخيها الإمام الحسين عليه السلام صريعا وهى تقول: يا محمداه، يامحمداه، صلى عليك ملائكة السماء، هذا الحسين بالعراء، مرمل بالدماء، مقطع الأعضاء، يا محمداه وبناتك سبايا، وذريتك مقتلة، تسفى عليها الصبا. فأبكت والله كل عدو وصديق[1]، فأين كانت أمة محمد ﷺ من ذاك الحدث؟؟

يتقدم شمر بن ذى الجون، رجس البشرية كلها، فيحتز رأس البطل سبط رسول الله محمد ﷺ. ثم يحتفظ به ليحمله هدية إلى ابن زياد والى الأمويين، ويزيد. تمامًا، كما قدم من قبل رأس «يحيى بن زكريا» عليه السلام، هدية لبغى من بغايا بنى إسرائيل. كان النهار قد لفظ آخر أنفاسه. ومالت الشمس للغروب، مخلفة وراءها شفقًا عجيبًا فى حمرته الزاهية، ووهجه المتألق. ولقد امتد على طول الأفق، وكأنه بساط وضع ومهد لتعرج عليه إلى جنان الله أرواح الشهداء. وعلى غير عادة الطقس والمناخ فى ذلك الحين وفى تلك الأرض، دوت طلقات

---

1 ـ موسى محمد على ـ نفس المرجع ص141.

قوية صادعة كأصوات الرعود. ولقد حسبها المجرمون نذيراً لهم. ولكن لا، فهم أهون على الله من ذلك. إنما هى السماء، كانت تطلق مدافعها تحية. تحية إجلال، للمهمة التى أنجزها الشهداء. وتحية استقبال للأرواح التى كانت قد بدأت رحلة خلودها .. حيث تتلقى من يمين الرحمن ما أعده لها من مثوبة، ونعيم وعطاء[1]. وقطف رءوس الباقين، فسرح باثنين وسبعين رأسا مع شمر بن ذى الجون، وقيس بن الأشعث، وعمرو بن الحجاج، وعزرة بن قيس، فأقبلوا حتى قدموا بها على والى الأمويين عبيد الله بن زياد.

عدد القتلى من أصحاب الإمام الحسين: قتل الإمام الحسين عليه السلام أول سنة 61 الموافق يوم الجمعة وقيل يوم السبت لعشر مضين من المحرم وهو يوم عاشوراء بكربلاء بأرض العراق، وقبره مشهور يزار، وهو ابن سبع وخمسين سنة. وقتل من أصحاب الإمام الحسين عليه السلام 72 رجلا فى أول مجزرة جماعية فى الإسلام دفنهم أهل الغاضرية من بنى أسد بعد ما قتلوا بيوم. وجىء برءوس من قتل مع الإمام الحسين عليه السلام من أهل بيته وشيعته وأنصاره إلى والى الأمويين عبيد الله بن زياد وكان عددها 70. وهذه أسماء من قتل من آل بيت رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم: (1) الحسين بن على بن أبى طالب. (2) العباس بن على، أبو الفضل قتل وله 34 سنة. (3) جعفر بن على قتل وله 19 سنة. (4) عبد الله بن على قتل وله 25 سنة. (5) محمد بن على، وهو محمد الأصغر. (6) أبو بكر بن على. (7) عثمان بن على قتل وله 21 سنة. (8) على بن الحسين وهو الأكبر، ويكنى أبا الحسن وأمه ليلى لاعقب له. (9) عبدالله بن الحسين وأمه أم البنين قتل وهو ابن 25 سنة لا عقب له. (10) أبو بكر بن الحسن. (11) عبدالله بن الحسن. (12) القاسم بن الحسن. (13) عون بن عبدالله بن جعفر بن أبى طالب. (14) محمد بن عبدالله بن جعفر بن أبى طالب. (15) جعفر بن عقيل بن أبى طالب. (16) عبدالرحمن بن عقيل. (17) عقيل بن أبى طالب. (18) مسلم بن عقيل. (19) عبدالله بن مسلم بن عقيل. (20) محمد بن أبى سعيد بن عقيل. (21) سليمان مولى الحسين بن على. (22) منجح مولى الحسين. (23) عبدالله ابن بقطر، رضيع الحسين.

---

1 ـ خالد محمد خالد ـ المرجع السابق ص128.

وعدد القتلى من جيش الأمويين بقيادة عمر بن سعد بن أبى وقاص 88 رجلا سوى الجرحى، فصلى عليهم عمر ودفنهم ولم يكن فيهم أحد من أهل الشام[1].

قال حميد بن مسلم: دعانى عمر بن سعد بن أبى وقاص فسرحنى إلى أهله لأبشرهم «بمجزرة آل بيت رسول الله محمد ﷺ»، فأقبلت حتى أتيت أهله، فأعلمتهم ذلك، ثم أقبلت حتى أدخل فأجد ابن زياد قد جلس للناس، وأجد الوفد قد قدموا عليه، فأدخلهم، وأذن للناس، فدخلت فيمن دخل، فإذا رأس سبط رسول الله محمد ﷺ الإمام الحسين عليه السلام موضوع بين يديه، وإذا هو ينكت بقضيب بين ثنتيه ساعة، فلما رآه زيد بن أرقم لا ينجم عن نكته بالقضيب، قال له: اعل بهذه القضيب عن هاتين الثنيتين، فو الذى لا إله غيره لقد رأيت شفتى رسول الله ﷺ على هاتين الشفتين يقبلهما، ثم انفضخ الشيخ يبكى، فقال له ابن زياد: أبكى الله عينيك فو الله لولا أنك شيخ قد خرفت وذهب عقلك لضربت عنقك[2]. فنهض فخرج، فلما خرج سمعت الناس يقولون: والله لقد قال زيد ابن أرقم قولا لو سمعه ابن زياد لقتله. قال: فقلت: ما قال؟ قالوا: مر بنا وهو يقول: ملك عبد عبدا، فاتخذهم تلدا، أنتم يامعشر العرب العبيد بعد اليوم، قتلتم ابن فاطمة، وأمرتم ابن مرجانة، فهو يقتل خياركم، ويستعبد شراركم، فرضيتم بالذل، فبعدا لمن رضى بالذل. فلما دخل برأس سبط رسول الله محمد ﷺ الإمام الحسين عليه السلام وصبيانه وأخواته ونسائه على عبيد الله بن زياد لبست زينب ابنة فاطمة أرذل ثيابها، وتنكرت، وحفت بها إماؤها، فلما دخلت جلست، فقال عبيد الله بن زياد: من هذه الجالسة؟ فلم تكلمه، فقال ذلك ثلاثا، كل ذلك لاتكلمه. فقال بعض إمائها: هذه زينب ابنة فاطمة بنت رسول الله محمد ﷺ فقال لها عبيد الله: الحمد لله الذى فضحكم وقتلكم وأكذب حدوثتكم. فقالت: الحمد لله الذى أكرمنا بمحمد ﷺ وطهرنا تطهيرا، لا كما تقول أنت إنما يفتضح

1ـ محمد رضا ـ المرجع السابق ص133.

2 ـ موسى محمد على ـ المرجع السابق ص143.

الفاسق، ويكذب الفـاجر. قال: فكيف رأيت صنع الله بأهل بيـتك وبيت رسول الله محمد ﷺ؟ قالت: كتب عليهم القتل، فبروزا إلى مضاجعهم، وسيجمع الله بينك وبينهم، فتحاجون إليه، وتخاصمون عنده. فغضب ابن زياد واستشاط، فقال له عمرو بن حريث: أصلح الله الأمـير إنما هى امرأة، وهل تؤاخذ المرأة بشىء من منطقها إنها لاتؤاخذ بقول، ولاتلام على خطل. فقال لها ابن زياد: قد أشفى الله نفسى من طاغـيتك، والعصاة المردة من أهل بيـتك فبكت ثم قالت: لعـمرى لقد قتلت كهلى، وأبرزت أهلى، وقطعت فرعى واجتثثت أصلى، فإن يشفك هذا فقد اشتفـيت. فقال لها عبـيد الله: هذه شجاعة، لعـمرى كان أبوك شاعرا شـجاعا. قالت: ما للمرأة والشجاعة إن لى عن الشجاعة لشغلا، ولكن نفثى ما أقول.

ورأى الجبان أنه أمام بطلة صعبـة المراس، فراح يجيل بصره فى بقية آل بيت رسول الله محـمد ﷺ حتى وقع على غلام مريض ظن ابن زياد أنه فـرصة ليدير معه حديثه المتوقح محاولا إظهار صلفه وغروره. كان هذا الغلام «على بن الحسين الأصغر» الذى صار فـيما بعد إمامًا عظيمًـا عرف باسم «على زين العابدين» ومن هذا المريض الصغير خرج وتكاثر عقب سبط رسول الله محمد ﷺ، ومنهم الأئمة الاثنى عشرة ذريتهم إلى يومنا هذا. سـأله ابن زياد: من أنت . .؟؟ فأجابه الشبل الكريم: قـال: أنا على بن الحـسين، قال: أو لم يقـتل الله على بـن الحسـين فسكت. فـقال له ابن زياد: مـالك لاتتكلم. قال: قـد كان لى أخ يقـال له أيضا على، فـقتـله الناس. قال: إن اللـه قد قـتله، فـسكت على، فـقال له: مـالك لاتتكلم. قال: «الله يتوفى الأنفس حين موتها» «وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله». قال: أنت والله منهم، ويحك انظروا هل أدرك؟ والله إنى لأحـسبه رجلا، فكشف عنه مرى بن مـعاذ الأحمرى. فقـال: نعم قد أدرك. فقال: اقـتله، فقال على بن الحسين: من توكل بهؤلاء النسوة؟ وتعلقت به زيـنب عمته فقالت: يا ابن زياد، حسـبك منا، أما رويت من دمائـنا؟ وهل أبقيت منا أحدًا؟ قـال: فاعتنقـته فقالت: أسألك بالله إن كنت مؤمنا إن قتلته لما قتلتنى معه قال: وناداه على فقال: يا ابن زياد، إن كانت بينك وبينهن قرابة فابعث معهن رجلا تقيا يصحبهن بصحبة

الإسلام «ويقصد محرم من المحارم»، قال: فنظر إليها ساعة، ثم نظر إلى القوم فقال: عجبا للرحم والله انى لأظنها ودت لو أنى قتلته أنى قتلتها معه، دعوا الغلام، انطلق مع نسائك. ولما دخل عبيدالله القصر ودخل الناس، نودى: الصلاة جامعة فاجتمع الناس فى المسجد الأعظم، فصعد المنبر ابن زياد فقال: الحمد لله الذى أظهر الحق وأهله، ونصر أمير المؤمنين يزيد بن معاوية وحزبه، وقتل الكذاب ابن الكذاب، سبط رسول الله محمد ﷺ الإمام الحسين بن على وشيعته، فلم يفرغ ابن زياد من مقالته حتى وثب إليه عبدالله بن عفيف الأزدى ثم الغامدى، ثم أحد بنى والبة ـ وكان من شيعة الإمام على كرم الله وجهه، وكانت عينه اليسرى ذهبت يوم الجمل مع الإمام علىّ عليه السلام، فلما كان يوم صفين ضرب على رأسه ضربة، وأخرى على حاجبه، فذهبت عينه الأخرى، فكان لايكاد يفارق المسجد الأعظم يصلى فيه إلى الليل ثم ينصرف.

فلما سمع مقالة ابن زياد، قال: ياابن مرجانة، إن الكذاب ابن الكذاب أنت وأبوك والذى ولاك وأبوه، يا ابن مرجانة، أتقتلون أبناء النبيين، وتكلمون بكلام الصديقين؟ فقال ابن زياد: على به، فوثبت عليه الجلاوزة فأخذوه، فنادى بشعار الأزد: يا مبرور. فقال: ويح غيرك أهلكت نفسك، وأهلكت قومك، وحاضر الكوفة يومئذ من الأزد سبعمائة مقاتل، فوثب إليه فتية من الأزد فانتزعوه فأتوا به أهله، فأرسل إليه من أتاه به، فقتله وأمر بصلبه فى السبخة، فصلب هنالك. ثم إن عبيد الله بن زياد نصب رأس سبط رسول الله محمد ﷺ الإمام الحسين بالكوفة أسوة بما فعله قتلة نبى الله المسيح ابن مريم، عندما صلبوه وها هو سبط رسول الله محمد ﷺ يمثلون برأسه الشريف أمام أعين المسلمين وسمعهم ولم يحرك أحدهم ساكنا ولم يمض على وفاة رسول الله محمد ﷺ بضع سنين؟، فجعل يدار به فى الكوفة، ثم دعا زحر بن قيس فسرح معه برأس سبط رسول الله محمد ﷺ الإمام الحسين ورءوس أصحابه إلى يزيد بن معاوية وكان مع زحر أبو بردة بن عوف الأزدى وطارق بن أبى ظبيان الأزدى، فخرجوا حتى قدموا بها الشام على يزيد بن معاوية[1].

---

1 ـ موسى محمد على ـ المرجع السابق ص145.

تسريح رأس الإمام الحسين ورءوس أصحابه إلى يزيد بن معاوية بدمشق:

دعا عبيد الله بن زياد زحر بن قيس فسرح معه برأس الحسين ورءوس أصحابه إلى يزيد بن معاوية ليظهر للخليفة أنه قهر آل بيت رسول الله محمد ﷺ أعداءه وانتصر عليهم وقطع رءوسهم انتقامًا له، أى ليزيد بن معاوية بن أبى سفيان، وأنه أهل لثقته وقد برهن عبيد الله على أنه أقسى الحكام قلبًا، لا يبالى بسفك الدماء فى آل بيت رسول الله محمد ﷺ ولا تأخذه شفقة على أحد. وكان مع زحر، أبو بردة بن عوف الأزدى وطارق بن أبى ظبيان الأزدى فخرجوا حتى قدموا بها الشام على يزيد بن معاوية. أقبل زحر حتى دخل على يزيد فقال له يزيد «ويلك ما وراءك وما عندك؟». فقال «أبشر يا أمير المؤمنين بفتح الله ونصره. ورد علينا سبط رسول الله محمد ﷺ الإمام الحسين بن على فى ثمانية عشر من أهل بيته وبيت رسول الله محمد ﷺ وستين من شيعته. فسرنا إليهم. فسألناهم أن يستسلموا وينزلوا على حكم الأمير عبيدالله بن زياد أو القتال، فاختاروا القتال على الاستسلام. فعدونا عليهم من شروق الشمس فأحطنا بهم من كل ناحية حتى إذا أخذت السيوف مأخذها منهم هام القوم، يهربون إلى غير وزر (مأوى) ويلوذون منا بالآكام والحفر لواذا كما لاذ الحمائم من صقر. فو الله يا أمير المؤمنين ما كان إلا جزر جزور أو نومة قائل حتى أتينا على آخرهم فهاتيك أجسادهم مجردة، وثيابهم مرملة وخدودهم معفرة، تصهرهم الشمس. وتسفى عليهم الريح. زوارهم العقبان والرخم فى سبسب»[1].

وبذلك يفتخرون بهذه المجزرة الرهيبة فى آل بيت رسول الله محمد ﷺ وبانتصارهم على الحسين وشيعته وهم نفر قليل (18 من أهل بيته و60 من شيعته فيكون مجموعهم 78 حسب ما أحصاهم زحر) وليدخل السرور فى نفس يزيد بن معاوية وشرح كيف قاتلوهم ومثلوا بهم وتركوهم طعمة للجوارح والوحوش كأن ذلك مما يدعو إلى الفخار والتيه والعجب وإن يزيد قال:

يفلقن هامًا من رجال أعزة ... علينا وهم كانوا أعق وأظلما

1ـ السبسب: المفازة، وقيل الأرض المستوية البعيدة.

أما والله يا حسين لو أنا صاحبك ما قتلتك. وفى رواية أخرى للطبرى: لما وصل رأس الشهيد سبط رسول الله محمد ﷺ الإمام الحسين إلى يزيد بن معاوية، حسنت حال ابن زياد عنده وزاده ووصله وسره ما فعل، ثم لم يلبث إلا يسيراً حتى بلغه بغض الناس له ولعنهم وسبهم؛ فندم على قتل الإمام الحسين عليه السلام فكان يقول: وما على لو احتملت الأذى وأنزلت الحسين معى فى دارى وحكمته فيما يريد وإن كان على فى ذلك وهن فى سلطانى حفظًا لرسول الله ﷺ ورعاية لحقه وقرابته، لعن الله ابن مرجانة فإنه اضطره وقد سأله أن يخلى سبيله ويرجع فلم يفعل أو يضع يده فى يدى[1].

على بن الحسين بين يدى يزيد: دعا يزيد بن معاوية أشراف الشام فأجلسهم حوله ثم دعا بعلى بن الحسين وصبيان الحسين ونسائه فأدخلوا عليه والناس ينظرون فقال يزيد لعلى: «يا على أبوك الذى قطع رحمى، وجهل حقى، ونازعنى سلطانى. فصنع الله به ما قد رأيت». فقال الصبى الصغير على: «ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها». فقال يزيد لابنه خالد، اردد عليه، فما درى خالد ما يرد عليه، فقال له يزيد، قل: «ما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير». قد كان ابن بيت النبوة على بن الحسين يحفظ القرآن ويحتج به على صغر سنه وكان حاضر البديهة طلق اللسان. ثم دعا يزيد بالنساء والصبيان فأجلسوا بين يديه فرآهم فى هيئة قبيحة. فقال: قبح الله ابن مرجانة (عبيد الله بن زياد) لو كانت بينه وبينكم رحم أو قرابة ما فعل هذا بكم هكذا. وعن فاطمة بنت على قالت: «لما جلسنا بين يدى يزيد بن معاوية، رق لنا وأمر لنا بشىء وألطفنا، وقام رجل من أهل الشام إلى يزيد فقال: يا أمير المؤمنين! هب لى هذه (يعنينى) وكنت جارية وضيئة. فأرعدت وفرقت وظننت ان ذلك جائزة لهم وأخذت بثياب أختى زينب وكانت أختى زينب أكبر منى وأعقل وتعلم أن ذلك لايكون. فقالت: «كذبت والله ولؤمت. ما ذلك لك وله». فغضب يزيد. فقال: «كذبت والله إن شئت أن أفعله لفعلت». قال: «كلا والله ما جعل الله ذلك لك إلا أن تخرج من ملتنا وتدين بغير ديننا» فغضب يزيد

---

1 ـ محمد رضا ـ المرجع السابق ص141.

واستطـار، ثم قال: «إياى تستـقبلين بـهذا؟ إنما خرج من الديـن أبوك وأخوك».
فقالت زينب «بدين الله وديـن أبى ودين أخى وجدى هديت أنت وأبوك وجدك».
قال: «كذبت ياعدوة الله». قالت: «أنت أمير مسلط. تشتم ظالمًا وتقهر بسلطان».
قالت فو الله لكأنه استحيى فسكت. ثم أعاد الشامى فقال: «يا أمير المؤمنين! هب لى هذه الجارية» فقال يزيد: «اغـرب. وهب الله لك حتفًا قاضيًا» لأنه كـان سببًا فى هذه المشـادة بينه وبين حفـيدة رسـول الله محـمد ﷺ زينب. ثم قـال يزيد: «يانعمان بن بشير! جهزهم بما يصلحـهم وابعث معهم رجلا من أهل الشام، أمينا صالحًا. وابعث معه خيلا وأعوانًا فيسير بهم إلى المدينة ثم أمر بالنسوة أن ينزلن فى دار على حدة. معهن ما يصلحهن وأخوهن معهن، على بن الحسين فى الدار التى هن فيها»[1].

فخرجن حـتى دخلن دار يزيد. فلم تبق من آل معاوية امرأة إلا استـقبلتهن تبكى وتنوح على الشهيد سبط رسول الله محمد ﷺ الإمام الحسين عليه السلام. فأقاموا عليه المناحة ثلاثة. وكـان يزيد لايتغدى ولايتعشى إلا دعا على بن الحـسين إليه. فدعـاه ذات يوم ودعا عمرو بن الحـسين بن على وهو غلام صغـير فقال لعـمرو: أتقاتل هذا الفـتى؟ (يعنى خالداً ابنه) قـال: لا. ولكن أعطنى سكينًا واعطه سكينًا ثم أقاتله!! فقام له يزيد وأخذه فضمه إليه ثم قال: «شنشنة أعرفها من أخزم، هل تلد الحيـة إلا حية». هل هكذا يقـال لأبناء بيت رسول الله محمـد ﷺ؟؟ ويقول القاسم بن بحيت: لما أقبل وفد أهل الكوفة برأس الشهيد سبط رسـول الله محمد ﷺ الإمام الحـسيـن، دخلوا مسـجد دمـشق فقـال لهم مروان بن الحكم: كـيف صنعتم؟ قالوا: ورد علينا منهم ثمانية عشر رجلا، فأتينا والله على آخرهم، وهذه الرؤس والسبايا، فـوثب مروان فانصرف. وأتاهم أخوه يحيى بن الحكـم فقال: ما صنعتم؟ فأعادوا عليه الكلام، فقال: حجبتم عن محمد يوم القيامة، لن أجامعكم على أمـر أبدا ثم قام فـانصـرف. ودخلوا على يزيد فـوضعـوا الرأس بين يديه، وحدثوه الحديث فسمعت دور الحديث هند بنت عبدالله بن عامر بن كريز ـ وكانت تحت يزيد بن معاوية فتقنعت بثوبها، وخرجت فقالت:

1 ـ محمد رضا ـ نفس المرجع ص145.

يا أمير المؤمنين، أرأس الحسن بن فاطمة بنت رسول الله ﷺ؟

قال: نعم فأعولى عليه، وحدى على ابن بنت رسول الله ﷺ وصريحة قريش، عجل عليه ابن زياد فقتله. قتله الله. ثم أذن للناس فدخلوا والرأس بين يديه، ومع يزيد قضيب فهو ينكت به فى ثغره ثم قال: إن هذا وإيانا كما قال الحصين بن الحمام:

يفلقن هاما من رجال أحبة   إلينا وهم كانوا أعق وأظلما

فقال رجل من أصحاب رسول الله ﷺ يقال له أبو برزة الأسلمى: أتنكت بقضيبك فى ثغر سبط رسول الله محمد ﷺ الإمام الحسين؟ أما لقد أخذ قضيبك من ثغره مأخذا لربما رأيت رسول الله ﷺ يرشفه. أما إنك يا يزيد تجىء يوم القيامة وابن زياد شفيعك، ويجىء هذا يوم القيامة ومحمد ﷺ شفيعه، ثم قام فولى. وقال عنوانه بن الحكم: لما قتل عبيد الله بن زياد سبط رسول الله محمد ﷺ الإمام الحسين بن على وجىء برأسه إليه. دعا عبدالملك بن أبى الحارث السلمى فقال: انطلق -تى تقدم المدينة على عمرو بن سعيد بن العاص فبشره بقتل سبط رسول الله محمد ﷺ الإمام الحسين - وكان عمرو بن سعيد بن العاص أمير المدينة يومئذ. فذهب ليعتل له، فزجره - وكان عبيد الله لايصطلى بناره - فقال: انطلق حتى تأتى المدينة، ولايسبقك الخبر، وأعطاه دنانير وقال: لاتعتل، وإن قامت بك راحلتك فاشتر راحلة. قال عبدالملك: فقدمت المدينة فلقينى رجل من قريش، فقال: ما الخبر؟ فقلت: الخبر عند الأمير. فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، قتل سبط رسول الله محمد ﷺ الإمام الحسين بن على؟ فدخلت على عمرو بن سعيد فقال: ما وراءك؟ فقلت: ما يسرّ الأمير، قتل سبط رسول الله محمد ﷺ الإمام الحسين بن على. فقال: ناد بقتله، فناديت بقتله، فلم أسمع والله واعية قط مثل واعية نساء بنى هاشم فى دورهن على سبط رسول الله محمد ﷺ الإمام الحسين، فقال عمرو بن سعيد بن أبى وقاص وضحك:

عجت نساء بنى زياد عجة   كعجيج نسوتنا غداة الأرنب

ثم قال عمرو بن سعد بن أبى وقاص: هذه واعيـة بواعية عثمان بن عفان، ثم صعد المنبر فأعلم الناس قتله. وعن عـبدالرحمن بن عبيد أبى الكنود، قال: لما بلغ عبـدالله بن جعفر بن أبى طالب مـقتل ابنيه مع الإمام الحـسين ﷺ، ودخل عليه بعض مواليه والناس يعزونه فقال: هذا ما لقينا ودخل علينا من الإمام الحسين ﷺ. فحـذفه عبداللـه بن جعفر بنعلـه، ثم قال: ياابن اللخناء، أللحسـين تقول هذا؟ والله لو شهدته لأحببت ألا أفارقه حتى أقتل معه، والله إنه لما يسخى بنفسى عنهما، ويهون على المصـاب بهما، إنهما أصيبا مع أخى وابن عـمرى مواسين له صابرين معه، ثم أقبل على جلسائه فقـال: الحمد لله عز وجل على مصرع الإمام الحسين ﷺ، ألا تكن آست حسـينا يدى، فقد سـاه ولدى. ولما أتى أهل المدينة مقتل سبط رسـول الله محمد ﷺ الإمام الحسين خـرجت ابنة عقيل بن أبى طالب ومعها نساؤها وهى حاسرة تلوى بثوبها وهى تقول:

مـاذا تقولون إن قـال النبى لكم ... مـاذا فعلـتم وأنتم آخـــر الأمم

بعـترتى وبأهلى بعـد مفـتـقدى ... منهم أسـارى ومنهم ضرجـوا بدم

وقال هشـام: حدثنى بعض أصـحابنا بسنده عن عـمرو بن عكرمـة، قال: أصبحنا صبيحة قتل سبط رسـول الله محمد ﷺ الإمام الحسين بالمدينة، فإذا مولى لنا يحدثنا قال: سمعت البارحة مناديا ينادى وهو يقول:

أيها القاتلون جهلا حســينا ... أبشروا بالعـذاب والتنكيل

كل أهل السماء يدعو عليكم ... من نبى ومـلاك وقبـيـل

قد لعـنتم على لســـان داو ... د وموسى وحامل الإنجيل

قال الكلبى: سـمعت هذا الصوت. وبعد فـقد أخرج على بن محـمد عن جعفر بن سليمان الضبعى قال: قال الإمام الحسين رضى الله عنه: والله لايدعونى حتى يستخرجوا هذه العلقة من جوفى، فإذا فعلوا ذلك سلط الله عليهم من يذلهم

حتى يكونوا أذل من قـرم الأمة، فقتل بنـينوى يوم عاشوراء سنة إحدى وسـتين.
وقال سفـيان حدثنا شهـاب بن حراس عن رجل من قومه قـال: كنت فى الجيش الذى بعثهم ابن زياد إلى سـبط رسول الله محمد ﷺ الإمـام الحسين، رضى الله عنه وكانوا أربعـة آلاف يريدون قتال الديلم، فـعينهم ابن زياد وصرفهم إلى قـتال الحسين رضى الله عنه[1].

نتائج مجزرة كربلاء:

ويلقانا من حصاد مجزرة كربلاء ودروسها العظيمة، جلال الإيمان وسلطانه القاهر، فـالحسين رضى الله عنه حـين خرج إلى الكوفـة لم يكن طالب دنيا ولا جاه. إنما كـان مسـتجيـبًا لسلطان الإيمـان الذى لايعصى ولا يغـلب. ولقد رأى الإسلام بكل قيمه الغالية وأمجاده العاليـة، يتعرض لمحنة قاسية يفرضها عليه بيت أبى سفـيان. ورأى خطيـئة الصمت والسـكوت تجتاح الناس رغـبة حـينًا، ورهبة أحيانًا. كانت بيعة يزيد دعمًا لسلطان الجاهلية على حساب الدين، ودعما لسلطان القبيلة والأسرة على حـساب الأمة. وهكذا صارت مقاومتـها دعمًا لسلطان الدين والأمة مـعًا. ولئن فـات «الحسـين» دعم هذا السلطان فى النظام العـام عن طريق الخلافـة، التى لم يكن له من أمـرها شىء، فإنه لم يتـخل عن واجب دعمـه فى الضمير، عن طريق التضحيـة والصمود والفداء. وهكذا، وفى سبيل إيمانه الوثيق والعريق ضحى البـطل الشهيد براحتـه، ثم بحياته، وضحى مـعه أهله الأقربون، وصحبه الأكرمون. ولقد يبدو لبعض الذين يفكرون فى عجلة، أن «الإمام الحسين» ومن قبله والده «الإمام على» كانا بإيمانهـما، وبما ينشدان للحياة وللحكم من ورع وتقوى يمثلان جمـودًا لم تعد تطيقه الحياة بعد التطور البعيـد الذى حققه الإسلام وانفعل به. فالحق أنـهما على العكس تمامًا، كانا يـمثلان روح التقدم وضـميره، بينما كان الآخـرون من بنى أمية بتحـويلهم الدين إلى مزرعة أموية، وبتـحويلهم الخلافة إلى ملك يحتكرونه ويتوارثونه، وبتحويلهم السلطة إلى سوط، وبإشاعتهم

---
1 ـ موسى محمد على ـ المرجع السابق ص155.

النزعة القبلية بعد أن أذابها الإسلام فى وحدته الصلبة. كانوا بذلك كله يمثلون الرجعية المتكسة إلى عادات الجاهلية وتقاليدها، لقد كانت تضىء إيمان الإمام الحسين عليه السلام وتستجيشه دومًا، تلك الكلمات الصادقة التى قالها جده العظيم رسول الله ﷺ:

«هلاك أمتى على أيدى أغيلمة من قريش»

وها قد جاء زمان الأغيلمة الأمويين ممثلا وممثلين فى يزيد، وابن زياد، وما حولهما من بطانة الإثم والسوء. وهناك حقيقة كان يدركها «الإمام الحسين عليه السلام» تمامًا، ويدركها أبوه «الإمام» من قبله ـ هى أن بلاط معاوية وجيش الشام نفسه قد أفسحا مكانًا رحبًا وعريضًا لكثيرين من الموتورين الذين تظاهروا بالإسلام ليندسوا بين صفوفه مخربين ومدمرين. فالإيمان الذى حمل الإمام «الحسين» لواءه، وذهب شهيده كان لهذا كله، وبهذا كله، إيمانًا مستنيراً وواعيًا ورشيداً. وكذلك نواجه من حصاد مجزرة كربلاء ودروسها، ذلك الدرس العظيم عن عظمة التضحية، وقداسة الحق، فالقدر الحكيم، يرتفع بالتضحية فى «كربلاء» إلى أعلى مستوياتها المرموقة، ويجعل منها ومن الحق «قيمة مطلقة» تحقق ذاتها داخل ضميرها أولا، ثم تعكس جلالها وسلوكها على الزمان والمكان بعد ذلك، إنه يفصلها عن كل شىء عداهما، حتى عن النصر ذاته. وهكذا رأينا اثنين وسبعين مقاتلا يصمدون لأربعة آلاف فارس يومًا بأكمله ثم يستشهدون جميعًا بعد أن ينزلوا بعدوهم خسائر فادحة تمثلت فى زيادة أعداد قتلاه عن عدد أولئك المستشهدين كأنما أراد القدر أن يقول لنا: إن الدرس الذى أريد إلقاءه اليوم، ومن فوق منصة كربلاء الشاهقة، لايتمثل فى قدرة القلة المؤمنة على إحراز النصر على الكثرة الساحقة، فطالما ألقيت دروسًا من هذا الطراز. إنما درس اليوم عن عظمة التضحية وقداسة الحق. درس اليوم فحواه أن التضحية قيمة بذاتها، وأن الحق قيمة بذاته. وهما لايستمدان جدارتهما ومكانتهما مما يحرزان من نصر. أو يكتسبان من مغنم وسلطة. فالانتصارات والمغانم يظفر بهما الباطل أحيانًا، ويحققهما الإذعان أحيانًا. وإذن فالصفة المميزة

للتضحية، أنها التضحيـة وحسب، والصفة المميزة للحق، أنه الحق وكفى، والمثوبة العظمى التى ينفرد بها أبطال التضحية وأبـناء الحق، هى انتماؤهم العظيم للتضحية وللحق. أجل، هذا هو الدرس الجليل الذى كـان القدر يلقيـه على الدنيا فى يوم كربلاء، متخذاً من حركة القتال وسير المعركة وسائل إيضاح[1].

فهو يدع الآلاف الأربعـة من فرسان ابن زياد يترنحـون تحت ضربات «اثنين وسبـعين» لا غيـر من أنصار «الإمام الحـسين ﷺ» وأبناء الحق؛ ليكشف ـ أعنى القـدر ـ عن قـدرته على إبادة ذلك الجـيش لو أراد، لكنه لايريد؛ لأنه يعـد هذه المعركـة وذلك القتال لمغزى آخـر يؤكد شرف التـضحية وقـداسة الحق مستـعليين بذاتيهـما عن كل شيء حـتى عن النصر والنـجاح. ولقد أبرزت بطـولات كربلاء شرف التضـحية على نحو باهر وجليل، حتـى لنكاد نحسب أن الأقدار إنما أرادت ذلك اليوم بكل أهواله وتضـحياته لتؤكد شـرف التضحية فى وعى البـشرية كلها، ولتضىء بمغزاه العظيم ضمير الحـياة، من أجل ذلك، اختارت لها فى يوم كربلاء، نماذج رفيـعة، بالغة الرفـعة، وقضـية عادلة، بالغـة العدالة ونضـالا باسلا، بالغ البسالة. إذن هى شرف الإنسـان وشرف الحياة. ومادامت التضحيـة شرفًا، فيجب أن يصرف النظر عن الشكـل الذى يفرضه عليـها الاضطهاد والبغـى. فالتضحـية ليست حفلا سـاهراً. وسواء على البطل أن يستشهد وجـسده سليم.. أو يقضى، وجسده ممزق. أن يبـقى رأسه مكانه من الجسد، أو يفصل الرأس ويمـثل بالجسد. كل ذلك، وأكثر من ذلك يغطيه شـرف التضحية، ويحوّل أساه إلى مجـد وفواجعه إلى بطولات. ومن شاء فلينـظر، فهؤلاء نفر من أكـرم الخلق، وأتقى الناس، تمزق أجسادهم بسيـوف الباغين، ثم تحتز رؤوسهم ـ اثنان وسبـعون رأسًا ـ وتغرس فى أسنة الرماح. فهل انتقص ذلك مـثقال ذرة من شرف التضحيـة وعظمتها؟ أبداً بل زادها تألقا وشـرفًا. إن الأجـساد بمجرد إلقـائها النفس الأخيـر يزايلها الإحـساس بالألم، ثم تنال الأرواح مكانها العالى عند الله بقدر بلائها وتضـحياتها، كما تنال مكانها العـالى فى ضمير التـاريخ بقدر بذلها وعطائها. ومن ثم فـالناس يخطئون

1 ـ خالد محمد خالد ـ المرجع السابق ص141.

عندما يقفـون أمام شكل التضحية ومـا يصاحبها من ألم وفاجـعة، ثم لايجاوزون هذا الشكل إلى جوهر التضحية، حيث العظمة والجلال. ولقد أدرك هذه الحقيقة، وعبـر عنها فى أصالة عظيمـة، بطل الإسلام العظيم «خالد بن الوليـد» حين تمثل مأساة حـياته فى موته على فراشـه، محرومًا من شرف القـتل على أرض المعارك والنضال. فقال قولته المأثورة[1]:

«لقد شهدت كذا، وكذا زحفًا وما فى جسدى موضع إلا وفيه ضربة سيف، أو طعنة رمح، أو رميـة سهم، ثم ها أنذا أمـوت على فراشى حتف أنفى، كـما يموت البعيـر، فلا نامت أعين الجبناء» ويتألق فى مجـرزة كربلاء هذه ذلك المغزى تألق النهـار. فإذا كـانت فى شكلهـا الخارجى تبـعث الأسى والحـزن، فإنهـا فى جوهرها العظيـم تستجيـش كل ما فى النفس البشـرية من إعجاب وإجـلال. إنها تبدو، وكـأنها مهـرجان للحق بالغ الروعة. وتبـدو، وكأنها عيـد للتضحـية نادر المثال. إن المسلمين يحتفلون كل عام مرة بعيـد الأضحى، ويسمونه «العيد الأكبر» فماذا كانت مناسبة هذا العيد فى التاريخ؟ كانت مناسبته التضحية ولاشىء سواها. فخليل الرحمن «إبراهيم» أراد القدر أن يلقن البشـرية عن طريقه درسًا ليس كمثله درس فى تقديس مشيئة الله وتلبـية ندائه وأمره. فدعاه أن يذبح ولده، فسارع من فوره، وشـحذ سكينه، وتل ولده للجبـين وفى اللحظة الباهرة مـلأ الوحى روعه وفؤاده: (**يا إبراهيم، قـد صدقت الرؤيا. إنا كـذلك نجزى المحـسنين**) فهل اتـخذ الإسلام من تلك المناسـبة عيـدًا، لأن الله افتـدى «اسماعيـل» بذبح عظيم؟ كلا، فلقد كـان سيـحتـفل بها أيضـًا لو انتهى الأمر إلـى أن يكون «إسماعـيل» الذبيح والقربان. ذلك أن الإسلام يحتفل بمضمون المـوقف وجوهره ـ التضحية بأعز شىء وفى سبيل رب كل شىء، وإله كل شىء. ولقد وقف سبط رسول الله محمد ﷺ الإمام «الحسين» وأهله وأصحابه من أجل الحق موقـفًا استحق ببطولاته وتضحياته أن يكون للتضـحية عـيدًا، أى عيـد!! لقد رفـضوا الباطل، واخـتاروا الحق. ثم

---

1 ـ خالد محمد خالد ـ نفس المرجع ص143.

رفضوا الصمت، وآثروا المقاومة ثم رفضوا المساومة، وصمدوا مع إيمانهم. ثم لما رأوا أنفسهم اثنين وسبعين، وسط أربعة آلاف فارس ورام، ولم يعد هناك أدنى ريب فى أن الموت هو الذى ينتظرهم، اقتحموا الهول فى مشهد مجيد، مقررين بمحض اختيارهم وإرادتهم أن يمنحوا أمتهم،بل والبشرية كلها هذه القدرة الرائعة فى التضحية وهذا العيد الممجد للفداء وفى جلال المفتدين، وإخبات المتقين، راحوا يؤدون مهمتهم القاسية والعالية، حتى أنجزوها فى نجاح عظيم[1].

لم يعرف التاريخ على مدى عصوره جميعا مجزرة بشرية أو مذبحة وإبادة جماعية أو مأساة كمأساة سبط رسول الله محمد ﷺ الإمام الحسين لا فى عالم الواقع ولا فى عالم الإنسانية. إنها مأساة إنسانية عامة، لا مجرد مجزرة أو مأساة فردية أو طائفية أو عربية أو إسلامية، بل هى مأساة كونية، ولكن فى صورة إنسانية. هاتان قضيتان نود أن نتجه إليهما بكل ما لدينا من قوى واعية، مهما تختلف بيننا الملل والنحل والأعراف والعنعنات. وهناك قضية ثالثة نود أن تنال حقها من التأمل والتقدير. هذه القضية الثالثة هى أن مجرزة سبط رسول الله محمد ﷺ الإمام الحسين لم تبدأ مع بداية الأيام الثلاثة الأخيرة من حياته حين بدأ خصومه يحاصرونه فى كربلاء، ثم يشتدون فى الحصار عليه وعلى من صحبوه من آل بيته، ومن تبعوه من أنصاره، ثم يشتطون فى القسوة عليه وعلى جماعته الصغيرة، فيمنعون عنهم الماء والنوم والراحة، ويسلطون عليهم الظمأ المحرق بمن فيهم من الأطفال والنساء والحيوانات العجم، إلى أن استراح بقتلهم إياه تلك القتلة البشعة، وإن كانوا هم لم يستريحوا منه حتى بعد أن احتزوا رأسه، ومثلوا بجثته تمثيلا شنيعا لم يعهده المسلمون من قبل بل لم يعهده العرب فى أشد عهود الجاهلية الأولى ظلما وظلاما، بل إن خصومه لم يستريحوا منه حتى الآن، ولن يستريحوا منه طالما ذكرت الإنسانية مأساته الفاجعة، وذكروهم معها، بأنهم الجناة الذين ارتكبوا جريمة تعذيبه وقتله والتمثيل به على مشهد من النساء من آل بيته الذين هم آل بيت النبى عليه وعلى آله وأوليائه السلام. فينبغى عقلا وخلقا أن

---

1 ـ خالد محمد خالد - نفس المرجع ص144.

يدان كل منهم فى هذه الجريمة الشيطانية بمقدار ما أسهم فيها، ولايقتصر فى إدانته على مقدار مـا شارك فيها بعمله وتحـريضه فحسب، بل على مقدار نيـته الشريرة فيها، وشعوره بالرضا عنها والتشفى بها، سواء قبل وقوعها أو خلال ارتكابها، أو بعد نهايتها الدامـية. إن مجزرة الشهيد سبط رسول الله محـمد ﷺ الإمام الحسين لم تبدأ ببدء أيام الحصار فى كـربلاء، بل بدأت منذ تلقى الحياة من أبويه الكريمين أبيه: (على) فتى الفـتيان فى تاريخ العرب جمـيعه بل فى تاريخ البشرية جمـيعا، وأمه فاطمة البتول بنت محـمد عليه وعلى آله السلام. ولم تكن أيام الحصار التى انتهت بقـتله والتمـثيل بجثـته الكريمـة إلا ذروة الصراع فى مأسـاته، أو نهايتـها الفـاجعـة. أو هى تبدو كـذلك، إذ ليس من المقبـول عقـلا، ولا من المألوف فى الواقع، ولا فيمـا يقتضيه التـاريخ فى حركاته أن يكون المرء فجـأة أهلا للشهادة، ولاسيما الشهادة التى ترتقى إلى أعلى المعارج كرما ونبلا. وليس من المقبول عقلا ولا عادة، فى الواقع أن يتمم المرء تأهبه لشهادة عظيمة كشهادة الشهيد سبط رسول الله محمد ﷺ الإمام الحسـين أو دونها خلال سنة أو سنتين، بل لاتكفى لتكوينها عشرات السنين ما لم يكن متـأهبا للشهادة بموروثاته ومأثوراته من آبائه الكرام، ثم بنشأته الكريمة فى حجور مربيه ومـربياته، ثم بجهاده بعد ذلك على وعى بها فى سيرته، سواء بنياته وكلماته أو بعزماته ونزعاته[1].

هذا ما يقتضيه الواقع عقلا وعادة، وما يقتضيه التاريخ أيضا فى الحكم على الشهادة، والحكم علـى الشهداء وأولادهم بذلك كبارهم الذين ينهـضون بتكاليف الشهادة فى وعى وصبر وعزم وحماسة، لأنهم مطبوعون على الإيمان بما يرون أنه الحق، كما أنهم مطبوعون على الأريحية والنجدة والفداء فى سبيله. وهكذا ينبغى أن ننظر إلى مجـزرة سبط رسول الله محمـد ﷺ الإمام الحسين ونتـأملها قبل أن نحكم فيها برأى، سواء قدرناها بمعيار الواقع، أو قدرناها بمعيار التاريخ. إن علينا أن نعرف البواعث العاتية التى كانت تزلزل نفس سبط رسول الله محمد ﷺ الإمام الحسـين من أعماقـها، قبل أن يتـجه من المدينة إلى مكة، ثم إلى الكوفـة، حتى دفعت به إليها مختارا كمضطر، أو مضطرا كمختار، ونحن إن لم نحط خبرا بتلك

1 ـ سلامة قاقيش ـ المرجع السابق ص79.

البواعث وجبروتهـا فى ضميره ـ لن نصل إلى فهم تلك المجزرة، كـما ينبغى لها الفهم والشعور. يقولون «إذا ظهر السـبب بطل العجب» ونرى نحن أنه من اليسير فهم أسباب هذه المجزرة وقد يبطل عجبنا بعد ذلك أو يستمر، ولكن الذى لاشك فيه هنا ـ بعد كل هذا أو ذاك ـ أن المرء الذى يدرك هذه البواعث الثقيلة الجبارة فى ضمير الإمام الحسين عليه السلام، ثم فى ضمائر أنصاره يومذاك، ويحسها بكل قوتها ـ لن يميل بعطفه وتقديره إلا نحـو الإمام الحسين عليه السلام ومن والوه فى محنته، ولن يميل بشىء من العطف ولا بشىء من العـذر إلى خصومه ولو عـرف كل ما قالوه وقيـل عنهم من أعذار وتعـلات، ولايمكن أن يميل إلى أخـذهم بالإشـفاق دون العدل (الصارم) أنه لامعنى للإشفـاق هنا إلا الإذعان والتسليم لطائفة من الأشرار أو السفهاء ليعيثـوا فسادا كما يشتهون، فيضيعوا غـيرهم كما يضيعون هم، وليس فى ذلك مصلحـة لهم ولا للجماعـة التى تسلمهم القـياد فتملـى لهم فى التسلط والطغيـان. ولو وعينا تلك البواعث العـاتية فى نفس الإمام الحسين عليه السلام ـ كما تدفقت فى أعماقه بإمداد من موروثاته ومأثوراته عن آبائه وأمهاته، ومن تربيته بين أنبل النبلاء من مربيه ومـربياته، ثم من سيرته مستقـلا ـ ولكن على منهج أسلافه الصالحين الأطهار ـ إذن لما وجدنا فى موقف الإمام الحسين عليه السلام فى كربلاء إلا أنه الخاتمة المنتظرة لسيـرته الكريمة منذ حملت به أمه البتـول إلى أن اتجه للكوفة، بل منذ كان غـيبا فى أصـلاب آبائه وترائب أمهاته. ومهـما نعرف لهـذه المجزرة من أسبـاب فلن نستطيع أن ننظر إلى الإمام الحـسين عليه السلام فى جميع أطـوار حياته إلا بالعطف والتـقدير والإعـجاب، وأولى مواقـف حياته بـكل ذلك هو موقـفه فى كربلاء، فهو موقف لن نجد له نظيرا فى التاريخ وفى عالم الواقع(1).

حركة الإمام الحسين عليه السلام فى شهره الأخير من مكة إلى الكوفة هى الحركة المباشرة التى أدت إلى مصرعه فى كربلاء، أو هى ـ على الأصح ـ قد انتهت فعلا بمصرعه هناك، فلو أن الدولة التى قـتل جندها الإمام الحسين عليه السلام مبخوسة الحظ من فقه الدين وفقـه الأخلاق معا، ثم كانت على حظ وافر من فقه السـياسة وفقه

1 ـ سلامة قاقيش ـ نفس المرجع ص81.

العرف العربى قبل الإسلام وبعده، أو كانت تعرف مصلحتها الذاتية على مدى الأشواط البعيدة، لا فى مدى الشوط القصير على خطوة واحدة منها - إذن لما عدمت وسيلة تشل بها حركة الإمام الحسين ﷺ، وتعطل كل آثارها، ولو فى شوط بعد شوط، فتحفظ بذلك سلطانها، ويحفظ لها ولاتها وجندها نفوذهم ونفوذها، دون أن يسقطوا ويسقطوها معهم فى الورطة التى لاخروج منها لمن يهوى فيها، وهذه الورطة هى سفك دم الإمام الحسين ﷺ والتمثيل بجثته فى صورة بشعة زرية، ولم تملك هى بعد ذلك لأسبابها التى قبلتها مضطرة أو مختارة - إلا أن تتغاضى عن هذه الجريمة النكراء، فلما أزعجتها عواقب الجريمة بعد قليل لم تملك إلا زيادة التورط فى فتكاتها الشنعاء، التى يود الناظر إليها - ولو بخياله - أن يغلق دونها بصيرته، أو يلوى وجهه لو كان يستطيع، وإن كان قد ألف مناظر القتل والتمثيل[1]. وأصبح للشيعة ثأر عند الخوارج لأنهم قتلوا عليا غيلة، وللخوارج عند الشيعة ذحول لأن عليا قتل من قتل منهم فى النهروان وفى غير النهروان من المواقع، وأصبح للشيعة ثأران عند بنى أمية، لأن معاوية قتل حجراً وأصحابه، ولأن يزيد قتل الإمام الحسين ﷺ وأهل بيته وجماعة من أصحابه. وكان بنو أمية يزعمون أن لهم عند الشيعة ثأراً، أو قل عند الشيعة والخوارج، لما كان من قتل عثمان بأيدى الثائرين من المسلمين، الذين وفى بعضهم لعلى وخرج بعضهم عليه. ثم لبنى أمية ذحول أخرى عند عامة المسلمين، لقتل من قتل منهم من الكفار يوم بدر. وقد ذكر يزيد، هذه الذحول فى هذا الموطن حين أنشد بعد وقعة الحرة:

ليت أشياخى ببدر شهدوا　　جزع الخزرج من وقع الأسل

ومهما يكن من شيء فقد أصبح الخلاف بين هذه الجماعات لايقوم على تباعد الرأى فى الدين وحده، وإنما يقوم على الذحول والأوتار والدماء. لكل جماعة من هذه الجماعات ثأر عند الجماعتين الأخريين. ومعنى هذا كله أن

---

1 - سلامة قاقيش - نفس المرجع 81.

العصبية أصبحت أساسًا من أسس الفتنة، التى دفعت المسلمين إلى كثير من الشر، والتى لم تنقض بقتل الإمـام الحسين ﷺ ولا بموت يزيد، وإنما اتصلت بعد ذلك دهرًا طويلا وبقـيت آثارها فى حيـاة المسلمـين إلى الآن. والشىء الذى ليس فيـه شك، هو أن أهل العـراق لم يكونوا وحـدهم هم الذين قـربوا القـرابة وباعـدوا الدين، كما قـال لهم زياد فى خطبته البتراء، وإنما عـمت المحنة بذلك أهل العراق وأهل الشام وأهل مـصر وأهل الحجـاز. وقد يقال إن الإمام الحـسين ﷺ قد ثار بيزيـد ورفض بيعتـه، وثار إلى الكوفة يـريد أن يخرج أهلهـا عن طاعتـه ويفرق جمـاعة الناس، ويرد الحرب بين المسلمـين إلى ما كانت عليـه أيام أبيه. فلم يكن يزيد وأميـره فى العراق بادئين فى الشـر مثيـرين للفتنة، وإنما زادا عن سلطانهـما وحافظا على وحدة الأمـة. وقد كان هذا يستقيم لو أن الإمـام الحسين ﷺ مضى إلى حربه مصممًا عليها، لايقبل فيها مفاوضة ولا يقبل عنها رجوعًا، ولكن الإمام الحسين ﷺ عرض خـصاله الثلاث تلك التـى عرضهـا. وكانت العافـية فى كل واحدة منهن، فـلو قد خلى بينه وبين الرجـوع إلى الحجاز لعـاد إلى مكة التى لم يكن يحب أن تسـفك فيهـا الدماء، لأنهـا بلد حرام، ولأنها لم تحـل لرسول الله نفسه إلا ساعة من نهـار. ولو قد خلى بينه وبين اللحاق بيزيد لكان من الممكن أن يبلغ يزيد منه الرضى علـى أى نحو من الأنحـاء، أو أن يقيم عليـه حجـة ظاهرة لاتقبل مراءً ولا جـدالا. ولو قد خلى بينه وبين المسير إلى ثغـر من ثغور المسلمين لكان رجلا من عـامة الناس يجاهـد العدو ويشارك فى الفـتح، لايؤذى أحدًا ولا يؤذيه أحد من المسـلمين. ولكن أصحـاب ابن زياد أبوا إلا أن يستنزلوه ويسـتزلوه على حكم رجل لم يكن الإمام الحسين ﷺ يراه كفؤًا ولا ندًا. فلم يكن ما وقع من الشر إلا طغيـانًا وإسرافًا فى التجـبر والبغى، وكأن ابن زياد ظن أنه سـيجتث الفتنة من أصلها بقـتل الإمام الحسين ﷺ، فيوئس الشيـعة من أمرها، ويضطرها إلى أن تنحرف عما كانت تعلل نفـسها به من الآمال والمنى إلى الإذعان لما ليس بد من الإذعان له[1].

1 ـ طه حسين ـ المرجع السابق ص244.

ولكنك سترى، أن ابن زياد لم يزد الفتنة إلا استعاراً، وأن الشر يدعو إلى الشر. والدماء تدعو إلى الدماء، وهذا الإسراف فى القتل والتنكيل بالمقتولين وبمن تركوا من الأطفال والنساء. فقد سلب القتلى وفيهم ابن فاطمة حفدتها، وسلب أبناء على وغيرهم من أصحاب الإمام الحسين عليه السلام، ونزع من النساء كل ما كان معهن من حلى وثياب ومتاع، واضطر يزيد بعد ذلك إلى أن يعوضهن ما أخذ منهن. وكان الإمام على عليه السلام رحمه الله يتقدم إلى أصحابه فى حروبه ألا يتبعوا هاربًا، ولايجهزوا على جريح، ولا يأخذوا من المنهزمين إلا ما أوجفوا به من خيل أو سلاح، وكان الأمر يجرى على ذلك فى صفين. فسيرة ابن زياد هذه التى سارها فى الإمام الحسين عليه السلام وأصحابه كانت بدعًا منكراً مما ألف المسلمون حتى فى فتنهم الشنيعة، ثم هو لم يلق من يزيد فى ذلك عقابًا ولا لومًا، وإنما لقى منه رضى وإيثاراً. وقد تمت بهذه الموقعة محنة لعلى فى أبنائه لم يمتحن بمثلها مسلم قط قبل هذا اليوم. فقد قتل من بنيه الحسين بن فاطمة والعباس وجعفر وعبدالله وعثمان ومحمد وأبو بكر، فهؤلاء سبعة من أبنائه قتلوا معًا فى يوم واحد، وقتل على بن الحسين الأكبر وأخوه عبدالله، وقتل عبدالله بن الحسن وأخواه أبو بكر والقاسم، وهؤلاء الخمسة من حفدة فاطمة. وقتل من بنى عبدالله ابن جعفر الطيار محمد وعون. وقتل نفر من بنى عقيل بن أبى طالب فى الموقعة، بعد أن قتل مسلم بن عقيل فى الكوفة. وقتل غير هؤلاء سائر من كان مع الإمام الحسين عليه السلام من الموالى والأنصار. فكانت محنة أى محنة للطالبيين عامة وأبناء فاطمة خاصة. ثم كانت محنة أى محنة للإسلام نفسه، خولف فيها ما هو معروف من الأمر بالرفق والنصح وحقن الدماء إلا بحقها وانتهك أحق الحرمات بالرعاية، وهى حرمة رسول الله ﷺ التى كانت تفرض على المسلمين أن يتحرجوا أشد التحرج، ويتأثموا أعظم التأثم، قبل أن يمسوا أحداً من أهل بيته. كل ذلك ولم يمض على وفاة النبى ﷺ إلا خمسون عامًا. فإذا أضفت إلى ذلك أن الناس تحدثوا فأكثروا الحديث، وألحوا فيه بأن الإمام الحسن عليه السلام قد مات مسمومًا لتخلص الطريق ليزيد إلى ولاية العهد، عرفت أن أمور المسلمين قد صارت أيام معاوية وابنه إلى شر ما كان يمكن أن تصير إليه[1].

1 ـ طه حسين ـ نفس المرجع ص245.

إننا نكاد نرى المعركة أمامنا، وأرى وقع السيوف، وقذف الحراب، أرى قطع الرقاب، وتمزيق الأجساد، أرى وحشية المجرمين، وصمود المتقين، أرى ذلك كله؛ فلا يخدعنى الشكل الفاجع عن الجوهر المجيد ولا تصرفنا مأساة الموت، عن عظمة الشهادة. ولا يشغلنا مأتم الأرض، عن انبهار السماء. أجل. لكأننا نرى السماء يومها مبتهية وهى ترى الحق يستعيد قداسته فى ذلك اليوم الرهيب، ويثبت استعلاءه بهذا الصمود العجيب، ثم وهى ترى حكمة الله فى اختياره تتجلى فقديمًا، وعندما كان الرسول محمد ﷺ فى بداية دعوته، قال كفار قريش: أو لم يجد الله غير ذلك البيت الهاشمى الفقير ليختار منه رسوله فأجابهم الوحى صادعًا رائعًا: (الله أعلم حيث يجعل رسالته) أجل، الله أعلم وها هو ذا علمه يتألق للدنيا، ولا كمثله تألق النهار فالرسول لم يكن وحده بطل التضحيات، لأنه رسول بل ها هو ذا عمه «حمزة» بطل الإسلام فى «أحد» تمزقه السيوف والأحقاد، حتى تستقر كبده بين أنياب «هند» زوجة أبى سفيان وها هو ذا «جعفر» ابن عم الرسول، بطل «مؤتة» تحصد جسده سيوف الروم وها هو ذا «الإمام علىّ عليه السلام» ابن عم الرسول بطل الإسلام فى كل غزواته ومشاهده وبطله فى وجه الوثنية الأموية التى أرادت أن تحوله إلى ملك عضوض ـ يمضى هو الآخر شهيد اغتيال أثيم وها هو ذا «الإمام الحسن عليه السلام» بطل السلام فى الإسلام، تغتال عصابة الشيطان حياته بالسم، ويأخذ مكانه العالى بين الشهداء ثم ها هم أولاء، أبطال كرام من نفس البيت الممجد والعظيم، يصارعون أربعة آلاف مدججين بالجريمة والسلاح وليس معهم فى ذلك اليوم الرهيب سوى خمسين ناصراً أو مقاتلا إنهم لم يقدموا على تضحية يرجى من ورائها النصر. بل أقدموا على التضحية من أجل التضحية ذاتها وهكذا جعلوها وسيلة وغاية. كما أكدوا معنى أنها مثوبة نفسها، وأنها قيمة بذاتها[1].

---

1 ـ خالد محمد خالد ـ المرجع السابق ص148.

لاحاجة بنا لتتبع كل آثار هذه الجريمة فى تعـاقبها وتصرفات الدولة الأموية عقبها، حين أرسلت جندها إلى المديـنة لإخماد ثورتها، ثم إلى مكة لإخماد ثورة أخرى، وكانت قد ربت هؤلاء الجند بكل وسائل التـرغيب والترهيب مدى أربعين سنة، ليطيعوها طاعة عـمياء، حتى صاروا فى تحقيق رغائبهـا «لا يميزون بين ناقة وجمل» كما قال أحد الدهاة، وكـانوا «أطوع الناس لمخلوق وأعصاهم لخالق» كما قال داهية آخر، وكلاهما بهم خبـير، أو كما قال الأحنف بن قيس زعيم بنى تميم فى أحد رؤسـائهم «لو طلب منه أن يهتك عرض أمـه لفعل» ولم تكن الدولة فى قيادة جندهـا - المتعبد بطاعتـها ـ فى حاجة إلى غـير القادة من الأمسـاخ البشرية المطبـوعة على الإجـرام والخسة والصلف، حـتى ليـحار المرء كـيف يصف هذه الأمساخ وما انطوت عليه نفوسهـا من عفن اللؤم والحقد، وضراوة الشر والفتك، واستـهتـار بسفك الدماء وهتك الأعـراض، سواء فى مكة حـرم الله (كمـا كانوا يؤمنون) بحكم إسلامهم، أو فى المدينة حرم رسـول الله محمد ﷺ الذى يؤمنون بدينه، فإنهم ـ كما قال ابن كثير فى تاريخه ـ قـد استباحوا حول قبره «من المفاسد العظيمة ما لايحد ولايوصف. واستعرضوا أهلها بالسيف جزرا كما يجزر القصاب الغنم، حتى سـاخت الأقدام فى الدم، وقتل أبناء المهاجـرين والأنصار، فكان من قتل من أهلها كثيـر خلال القتال حولها، واستباحـة الجند لها ثلاثة أيام ـ كما رأى قـائدهم ـ وقد بلغ القـتلى ـ فى رواية ابن قـتيـبة ـ ألفـا وسبع مـئة من الأنصـار والمهاجرين والوجـوه، ومن سائر الناس عشرة آلاف، سوى النساء والصـبيان»[1].
أى أكثر بكثير ممن قتل من كفار الأمويين وقـريش بقيادة أبى سفيان زعيم المشركين فى معركة بدر وهذا يعتبر انتقامًا لمقتل كفار الأمويين كما يقول يزيد بن معاوية بن أبى سفيان.

---

1 ـ سلامة قاقيش ـ المرجع السابق ص82.

ومما يثير الاشمئزاز تلك التصرفات المؤلمة التى قاموا بها بعد مقتل الإمام الحسين عليه السلام. فبعد تلك الطعنات والضربات التى ألحقت به بعد مقتله حمل رأسه بعد فصله عن الجثة والتمثيل بجثته وانتزاع ملابسه عن جسده، وقد فصل هذا المشهد (تاريخ الطبرى) وابن الأثير وابن كثير. تقول تلك المراجع: وسلب الإمام الحسين عليه السلام ما كان عليه، فأخذ سراويله بحر بن كعب، وأخذ قيس بن الأشعث قطيفته ـ وكانت من خز، وكان يسمى بعد قيس قطيفة ـ وأخذ نعليه رجل من بنى أود يقال له الأسود، وأخذ سيفه رجل من بنى نهشل بن دارم، فوقع بعد ذلك إلى أهل حبيب بن بديل، ومال الناس على الورس والحلل والابل وانتهبوها، ومال الناس على نساء الإمام الحسين عليه السلام وثقله ومتاعه، فإن كانت المرأة تنزع ثوبها عن ظهرها حتى تغلب عليه فيذهب به منها[1]. وبعد، فأكاد أسمعكم تقولون: إنك لم تحدثنا عن أجساد الشهداء الأبطال، أين استقرت ولا عن رأس سبط رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم الإمام «الحسين العظيم» أيان مصيره ومرساه. أما أجسادهم الكريمة، فقد استقرت تحت الثرى الدامى لأرض كربلاء لعلى أثر رحيل جيش ابن زياد، وخف ـ إلى مكان المعركة نفر من بنى أسد، كانوا ينزلون بالقرب منها، فدفنوا جثمان البطل العظيم وعند قدميه دفنوا جثمان ابنه الحبيب «على الأكبر بن الحسين»، ومن حولهما دفنوا أجساد بقية الشهداء الممجدين وحيث وقع «العباس بن على» أخو «الإمام الحسين» شهيداً، دفنوا جثمانه الكريم. وأما رأس البطل، فقد راحت البقاع الإسلامية تتنافس ادعاء شرف إيوائه، فيدعى كل منها أن الرأس عندها يعطر أرضها، ويبارك حماها لكن لايعرف على وجه اليقين أين هو وذلك أمر يتسق مع حياة البطل ومصيره. فرأس الإمام الحسين عليه السلام، بكل ما مثله من صمود وعظمة وتضحية لم يعد ملكًا للحسين، ولا ملكًا لجسده لم يعد ملكًا لأرض بل ولا لدين دون دين لقد صار ملكًا للبشرية الراشدة فى كل زمان ومكان صار ملكًا للحق، يرفعه فى أوديته العامرة والثائرة لواء وقدوة، ويملأ بسناه إرادة

1 ـ تاريخ الطبرى ـ ج5 ص453 وابن الأثير ج3 ص142.

الحيـاة عزمًا، وضمـيرها نوراً وكذلك صارت رؤوس أهله وصـحبه مشـاعل فوق طريق الحق، والشرق، والإيمان[1].

ولا حاجـة بنا لتتبـع هذه الشناعات وسردها، وكلهـا تمت فى عهـد القائم بالدولة الأموية عند مقتل الإمام الحسين عليه السلام، وذلك خلال أقل من أربع سنوات، وبموت هذا الطاغية زالت السـفيانية إلى الأبد، فلم تقم لهـا قائمة فى أى بلد من بلاد الإسلام شرقا أو غربا حتى اليوم. وإن تعـجب هنا فعجب لدولة تستعمل كل وسائل الترغـيب والترهيب أربعين سنة لإقـامتها ثم توطيدها، ثم تـنهار بعد أربع سنوات بلا قيامة. فأما الدولة التى قامت بـعدها فدولة مروانية، ولم يكن شعورها إزاء الدولة السفيانية المولية شـعور رضاء أو ولاء، مهما يكن الرأى فى صواب هذا الشعـور أو خطئه، وبره أو عـقوقه. يســمى المؤرخون الدولة التى حكـمت العالم الإسلامى بعد الخلفاء الراشدين «الدولة الأموية» (40 ـ 132هـ) وهم على صواب ولكن ينبغى أن نفطن إلى أنهما دولتان لا واحدة، أولاهما الدولة السفيانية (40 ـ 64هـ) التى قتل الإمام الحسين عليه السلام فى نهاية حكمها، فانهارت بقتلها إياه، وتلتها الدولة المروانية، التى حكمت بعد قـتل سبط رسول الله محمد ﷺ الإمـام الحسين عليه السـلام. لقد كانت الدولة السـفيانيـة أشبه بالحـصن العملاق الذى جـهدت السياسـة بكل وسائلها فى ترسيخ أسسه، وتمكين أسـواره وأبراجه، وإعلاء ذراه، حتى ظن أهله أنه سيستمر أجيـالا بعد أجيال، وكان الإمام الحسين عليه السلام هو اللغم الذرى الذى تسـرب إلى أعمـاق هذا الحصن، فلم يجـد حمـاته الأذكياء وسـيلة يتخلصـون بها من هذا اللغم إلا أن يفـجروه وهو فى أعماق الحـصن لظنهم أنهم يخلصون منه بدلا من أن يبطلوا آثاره أو ينحوه عنه فلما انفجر تهافت الحصن وكل من فيه فذهب كـما ذهبوا هباء. ولكن الإمام الحسـين عليه السلام بقى فى قلوب المسلمين وفى لسـان كل من يقول فـى صلاته «اللهم صلِّ على مـحمـد وعلى آل محمد . . .».

1 ـ خالد محمد خالد ـ المرجع السابق ص149.

فالثورة عندما قامت استمدت عزمها من روحية الشريعة وكانت تهدف إلى إعادة بث هذه الروحية فى نفس كل مسلم، ولو كان التصور يقف عند حدود إزالة الأمويين، لما عنى سبط رسول الله محمد ﷺ الإمام الحسين عليه السلام نفسه بهذه الثورة، لكنه عليه السلام كان عارفا بأنه خاسر معركة ليكسب الإسلام الحرب، الحرب على الظلم عامة، والانتصار على مسببات ضعف العقيدة، وأكبر دليل على ذلك أنه كان بإمكانه عليه السلام أن يلجأ إلى نفس الأساليب التى لجأ إليها خصمه يزيد، فيشترى الأنصار ويبذل المال لشراء الضمائر، نعم، كان الإمام الحسين عليه السلام قادرا على فعل ذلك، إلا أنه لم يرض بهذا الأسلوب الوقتى النفعى، وهذا ما أعلنه فى خطابه للذين بايعوه، كى تظل ثورته صافية، لايتهم بأنه استأجر لها أنصارا ولأفكاره مؤيدين، إضافة لكونه عليه السلام كان عارفا بأن ثورته فى حساب الخسارة والربح، لابد خاسرة لكنه كان يستقرئ المستقبل لربح أعظم يتعلق بدوام صفاء العقيدة، وإلا لكان بإمكانه الاعتصام فى شعاب الحجاز وقيادة ثورته من ركن قصى آمن، موفرا نفسه وأنفس أهل بيته، وخلص أصحابه، ولكن كذلك لم يكن كافيا لإقناعه عليه السلام ونقول إقناعه ونحن على فهم تام بأن عدم قناعته كانت تستند إلى وحى إلهى لإتمام المسيرة التى لابد منها لخير الأمة. لقد قتلوا كل رجاله، وكل فتيان بيته وولدانهم، فلما لم يبق فى المقاتلة إلا هو لم يهن، وقد أحاطته كل أسباب الوهن من داخل معسكره ومن أعدائه، وكلها تطبق عليه وترهق نفسه وجسمه المثقلين بالغصص والجراح كأشد ما تكون الأزمات، وظل يقاتل وحده والدماء تنزف منه، حتى خر صريعا، إذ لم يبق له النزيف أدنى قوة تقيمه على رجليه، أو تمكنه من القبض على سلاحه، أو التحرك من مكانه، فقد وجدت فى جسمه عشرات من ضربات السيوف والحجارة وعشرات طعنات الرماح والسهام، حتى قيل إنها زادت على مئة[1].

وما العذر بعد ذلك ـ وقد مات ـ فى أن يجتزوا رأسه ثم تدوسها سنابك الخيل ذهابا وإيابا حتى يحطموا عظامه، وينزعوا عنه ملابسه بعد أن مزقتها

1 ـ سلامة قاقيش ـ المرجع السابق ص106.

عشرات الضربات والطعنات ولطختها الدماء، وامتزجت بالتراب، فلم يتركوا عليه إلا مايستر عورته وهو سراويلات مزقها قبل أن يتأزر بها صبيحة يومه الأخير، لكى يتركوها تستر عورته وكان قد تفرس فى عنفهم وخستهم أنهم لن يزهدوا فيها ما لم تكن زهيدة بحيث لاتصلح لشىء وأيقن من أنهم لابد أن يمثلوا بجثته. ثم ما العذر فى نهب ما على النساء من الثياب والحلى فى هذه الحالة النكراء، ولو أن ماعندهم أضعاف مايمكن جمعه مئات المرات لما نفعت كثيرا بين أربعة آلاف من طلاب المغانم الأمويين. وما العذر فى إمرار النساء والصغار من أهل بيته وغيرهم على جثته المنبوذة على التراب شبه عارية، ومن حولها جثث أصحابه من أقارب بعض هؤلاء النساء والصبيان؟ وما العذر بعد ذلك فى تعليق رأسه على طرف رمح، ليطاف به فى البلدان من كربلاء، إلى الكوفة، حتى دمشق، وهل هناك شبه بينه وبين صلب السيد المسيح عليه السلام فى الشام، ثم ما شاءوا من بلاد المسلمين كأن الناس فى حاجة إلى ما يسرهم شماتة بالحسين، أو يردعهم فيحملهم على الطاعة ولو مكرهين. لم يرتكب سبط رسول الله محمد ﷺ الإمام الحسين جرما يستحق عليه شيئا من السوء الذى أنزلوه به، وكان له إلى جانب ذلك شفاعات كثيرة توجب عذره لو احتاج إلى عذر، وماهو فى حاجة إلى ذلك. أظهر شفاعات الحسين وأيسرها فهما وألصقها بالقلوب يومئذ أنه حفيد محمد الذى هم بنبوته مؤمنون، وهذه شفاعة فوق الكفاية لو كان فى قلوبهم العفنة بقية من كرم أو حياء، فإن الحسين وأخاه الحسن - كما يعلم هؤلاء المتواطئون عليه - كانا مهجة قلب رسول الله محمد ﷺ، وغاية ما هفت إليه نفسه الكريمة من الأبناء بعد أن يئس فى كبره من الذرية، وكانا طفليه الأثيرين اللذين رباهما فى حجره ولم يكن يطيق فى رحمته الأبوية التى شملت كل البشر أن يسمع من أيهما شكوى أو صيحة بكاء مع علمه أكثر من غيره أن الأطفال سراع إلى الشكوى والبكاء! ومحمد هذا - جد الحسين - هو الذى جاء بالإسلام الذى يدين به هؤلاء الخصوم كما يدين به الملايين من أتباع هذه الدولة التى تحكم باسم الإسلام، ومع ذلك قتل سبط رسول الله محمد ﷺ الإمام الحسين بسلطانها جهارا، وقد جاء رسول الله

محمد ﷺ بالإسلام رحمة للعالمين، وأول من نال رحمته هم هؤلاء العرب من حاكمين ومحكومين، وبينهم من قتل الإمام الحسين ومثل به وطاف برأسه[1].

ورسول الله محمد ﷺ هذا ـ كما يعلمون ـ هو الذى جاء قومه وهم همل متفرقون يختصمون ويقتتلون، فوحد بينهم بدينه وعظمة شخصيته وكرم أخلاقه ونبل سياسته ففتح لهم بذلك سبل الطمأنينة والرغد والعزة ومكن لهم من السيادة والسلطان ليقودوا الأمم فى طريق الله رب العالمين. ورسول الله محمد ﷺ هذا ـ كما يعلم الخصوم وغيرهم يومئذ من الحاكمين والمحكومين ـ لم يكن قد انقضى على غيابه عن أعينهم إلا خمسون سنة، لم تكن تكفى بنيهم لنسيان فضله عليهم وعلى البشر جميعا، لترديدهم دائما سيرته، وتعبدهم ليل نهار بالقرآن الذى جاء به. كل هذا بل بعضه كان شفيعا كافيا للحسين لو كان للشفاعة موضع فى هذه القلوب الغلف، والآذان الصم والأعين العمى، ولكن هذه الشفاعات لم تغن الإمام الحسين عليه السلام شيئا عند الدولة وأعوانها، لأن الدولة نفسها مخلوق ولد مسخا شائها يحمل فى بنيته المتضخمة بأورامها ما يكفى من الآفات للقضاء العاجل عليه، فهو لم يأت ليعمر، ولا قدرة لأبرع الحكماء أن يمده بسبب من أسباب البقاء، فلا تغفل عنه الرعاية المكثفة حتى يختلج ويتخبط كى يسلم أنفاسه الأخيرة، وقد لايثير سقوطه من الإشفاق بقدر ما يثير من الدهشة للمفارقة بين ضخامة بنيانه وتهافته السريع فجأة، وصدقت الآية ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾ [سبأ][2].

يعتبر سبط رسول الله محمد ﷺ الإمام الحسين عليه السلام من الرجال القلائل الذين يذكرهم التاريخ بالشجاعة والإقدام والبأس، فلم تكن هذه القضية التى قدم نفسه ثمنا لها قضية شخصية، ولا لهوا فى نفسه إنما هى دفاع عن حق رأى من واجبه أن يدافع عنه لو كلفه حياته. كان يقول قبل أن يقتل وهو يقاتل على رجليه

---

1 ـ سلامة قاقيش ـ نفس المرجع ص108.

2 ـ سلامة قاقيش ـ نفس المرجع ص109.

قتال الفرسان الشجعان لايهاب المنية يتقى المنية ويفترض العورة - بتعبير الطبرى - ويشد على الخيل، وهو يقول: «أعلى قتلى تحاثون أما والله لاتقتلون بعدى عبدا من عباد الله، الله أسخط عليكم لقتله، منى، وأيم الله إنى لأرجو أن يكرمنى الله بهوانكم، ثم ينتقم لى منكم من حيث لاتشعرون. أما والله أن لو قد قتلتمونى لقد ألقى الله بأسكم بينكم، وسفك دماءكم، ثم لايرضى لكم حتى يضاعف لكم العذاب الأليم». والإمام الحسين هو الذى دعا الناس إلى المبارزة، فلم يزل يقتل كل من برز إليه حتى قتل مقتلة عظيمة، وهو الذى حين سقط عن فرسه إلى الأرض وقد أثخن بالجراح، قاتل راجلا قتال الفارس الشجاع، يتقى الرمية ويفترص العورة، ويشد على الشجعان، وهو يقول: «أعلىّ تجتمعون» وهو الذى جبن الشجعان وأخافهم وهو بين الموت والحياة حين بدر خولى ليحتز رأسه، فضعف وأرعد، وفى ذلك قيل:

عفيراً متى عاينته الكما ... ة يختطف الرعب ألوانها

فما أجلت الحرب عن مثله ... قتيلا يجبن شجعانها

وهو الذى صبر على طعن الرماح، وضرب السيوف، ورمى السهام حتى صارت السهام فى درعه كالشوك فى جلد القنفد، وحتى وجد فى ثيابه مائة وعشرون رمية بسهم، وفى جسده ثلاث وثلاثون طعنة برمح، وأربع وثلاثون ضربة بسيف[1]. وكان استشهاد سبط رسول الله محمد ﷺ الإمام الحسين فى كربلاء أسوة لكل القوى المناضلة ضد الظلم بشتى أصنافه، فلم تمر إلا مدة قصيرة حتى اندلعت ثورات إسلامية متعددة ضد النظام الأموى نذكر منها على سبيل المثال الثورة التى تزعمها نجدة بن عامر الحنفى باليمامة، وثورة سكان المدينة عام 63هـ، ثم انتفاضة أهل الكوفة، وغيرها من الحركات المناهضة التى اتخذت من كربلاء قدوة، ونموذجًا[2].

---

1 - توفيق أبو علم - المرجع السابق ص450.

2 - د. الحبيب الجنحانى - المرجع السابق ص176.

إن من السذاجة أن نقدم هذه الأحداث الخطيرة التى عرفها مجتمع صدر الإسلام باعتبارها صراعًا على السلطة، أو عودة صراع قديم بين بنى هاشم وبنى أمية، إن القضية ـ فى نظرنا ـ أعمق من ذلك بكثير، وماتشير إليه النصوص القديمة أحيانًا من مظاهر التحالف القبلى، وغيرها من القضايا هو فى رأينا يمثل عوامل ثانوية جدًا أمام الاختلاف الجذرى بين اتجاهين رئيسيين بدأت تتبلور مميزاتهما منذ خلافة عثمان. وإننا نجد اتجاهين ضمن التيار المعارض لسياسة التحول السياسى والاقتصادى الاجتماعى التى برزت ملامحها فى النصف الثانى من خلافة عثمان رحمة الله عليه، ودعمت أركانها أيام معاوية: اتجاهًا معارضًا، ولكن معارضته سلبية، ويمثله أولئك الذين اعتزلوا المشاركة فى الشؤون العامة للأمة، أما الاتجاه الثانى، وهو مايمكن أن نطلق عليه بلغة اليوم «الاتجاه الثورى» فهو الذى شهر السلاح، مدافعًا عن مبادئ الإسلام، ولاسيما مبدأ رفض الظلم السياسى والحيف الاجتماعى، وهو الاتجاه الذى تزعمه الإمام على عليه السلام، ثم ابنه الحسين عليه السلام فيما بعد، فقد كان الإمام على عليه السلام أمير المستحقين المحرومين، وكان الإمام الحسين عليه السلام سيد الشهداء فى الدفاع عن العدل السياسى والاجتماعى فى مجتمع صدر الإسلام. وإننا لاننكر الفرق بين مفهوم العدل الاجتماعى فى عصر الإمام الحسين عليه السلام، ومفهوم «العدالة الاجتماعية» اليوم، فالظروف التاريخية اليوم مختلفة أشد الاختلاف عما كانت عليه قبل أربعة عشر قرنًا، ولكننا نختلف مع من ينظر إلى هذا الاتجاه نظرة تاريخية ماضوية بحتة، لأننا نؤمن عميق الإيمان بضرورة الاستفادة من هذا الرصيد الثمين فى تراثنا الإسلامى للنضال فى سبيل إرساء أسس المجتمع الإسلامى الجديد القائم على مبادئ المساواة، والعدالة الاجتماعية والحرية والديمقراطية، إننا نؤمن بتوظيف التراث حسب منهجية جديدة، وفى سبيل رؤية عصرية متكاملة للمجتمع الإسلامى البديل.

إن مفهوم الدولة، وأساليب تسيير شؤون الأمة قد تطورت تطوراً كبيراً منذ عصر مجتمع صدر الإسلام إلى اليوم، ولكن القيم التى دافع عنها أنصار التيار المعارض لمظاهر التحول بقيت حية، متجددة إلى يومنا هذا، وستستمر خالدة خلود نضال الإنسان ضد جميع أنواع الظلم السياسى، والحيف الاجتماعى. تنطلق الاستفادة من هذه التجربة من التعمق فى دراسة تاريخ المجتمع الإسلامى بجميع مظاهره، وفى شتى عصوره دراسة علمية، نقدية، متعمقة، ومستفيدة، من أحدث ما بلغته المنهجية المعاصرة فى مجال الدراسات الإنسانية والاجتماعية، وبعيدة كل البعد عن مظاهر التعصب والانغلاق، أو الانسياق وراء العاطفة الجامحة، وإصدار الأحكام المسبقة. إن مثل هذه الدراسة هى التى ستسمح لنا بفهم التركيبة السياسية والدينية والاجتماعية المعقدة لمجتمع صدر الإسلام من جهة، والتناقضات الكبرى التى عاشها المجتمع الإسلامى بين النظرية والتطبيق فى كثير من مراحله من جهة أخرى، ونعنى بالتناقضات بين النظرية والتطبيق تلك التناقضات بين أصول إسلامية واضحة وبين عالم الفعل، ولا سيما حول قضايا أساسية ومصيرية، مثل قضية أسلوب الحكم، وقضية الحرية، وقضية العدل الاجتماعى، وغيرها من القضايا[1].

ولو كانت حركة الإمام الحسين عليه السلام فى شهره الأخير تختص بقضية تعنيه أو تعنى بيته وأنصاره معه فحسب لانتهت كل القضية بانتهاء حركتهم مدحورين مخذولين فى كربلاء ولعفى عليها الزمن كما عفى على كثير من القضايا والحركات الخاصة بأهلها، ولكن القضية التى دفعت الإمام الحسين عليه السلام ومعه أنصاره إلى حركته الأخيرة، ليدافع عنها، ويستشهد وإياهم غيرة عليها، لم تكن قضية فرد ولا أسرة ولا حزب فى طلب الملك وتسخير الناس لخدمته بكل وسيلة، ولكنها كانت قضية قيم إنسانية تعنى الناس جميعا بحكم إنسانيتهم كما تخدم مصالحهم جميعا، أو هكذا ينبغى أن تعنيهم وتكون مناط عطفهم وتقديرهم وإعجابهم، بحكم أنهم ناس، لا لأنهم أتباع ملة أو نحلة، أو لأنهم فريق خاص بأموره، فإذا

1 ـ د. الحبيب الجنحانى ـ نفس المرجع ص177.

أهمل الناس هذه القيم الإنسانيـة، أو ساوموا فيها ضاعـوا وأضاعوا، وسقطوا فى الهالكين، لأنهم ليسوا أهلا لأى حياة حرة كـريمة لا فى حاضر ولا فى مستقبل. فلولا أن سبط النبى مـحمد ﷺ كـان ضنينا بمبدأ، ولو لم تكن له عقليـة متطورة موحى لـها، لما استـطاع أن يفلت من رقة الأطمـاع التى كانت بمثـابة دين ثان فى ذلك العهد، ولما ارتفع بنبل قل نظيره فـوق الدوامة التى لفت الجميع، فإن أولئك المتزلفـين ليزيد كانوا على خطى من سـبقهم فى التـزلف لوالده معاوية. والسـيرة العطرة لحياة سيد شباب أهل الجنة، واستشـهاده الذى لم يسجل التاريخ شبيها له، كان عنوانا صريحا لقيمة الثبات على المبـدأ وعظمة المثالية فى أخذ العقيدة وتمثلها، فغدا حبه كـثائر واجبا علينا كبشر، وحـبه كشهيد جزءا من نفثات ضـمائرنا، فقد كان عليه السـلام شعلة الإسلام التى أضاءت ممثلة ضـمير الأديان إلى أبد الدهور، وكان درعا حمى العقيدة من أذى منتهـكيها، وذب عنها خطر الاضمحلال، وكان انطاؤه فوق أرض كربلاء مرحلة أولى لاشتعال أبدى، كمثل التوهج من الانطفاء، والحياة فى موت[1].

كان ﷺ لو شاء لأصبح بانحناءة رأس بسيطة، أميرا مطلقا على ولاية، أو يقنع بزعامة شيـعة أبيه عليه السلام بينما تنتهك حـرمات الدين على يد الخليفة أو أمير مـؤمنين مزيف. لكنه لم يؤثر السلامـة، ولم يرن إلى تطلعات أرضيـة، فقد كان هدفه أعظم، ورسالته أعمق غورا وأبعد فهما لعقلية الإنسان آنذاك. كان يريد أن يقول: مادامت السنة قـد نزلت، ومادام الإسلام وليدا يحبـو، فما على المسلم إلا أن يكون حفيظ سنته، وراعى عقـيدته، لا من أجله فحسب، بل من أجل كل من سيـولد فى الأحقـاب التاليـة على هذه السنة، فجـاءت صيحـته نبراسـا لبنى الإنسان فى كل عصر ومصـر، وتحت أية عقيدة انضوى، إذ أن أهداف الأديان هى المحبة والتمـسك بالفضائل، لتنظيم علاقة الفرد بربه أولا، وبأخيـه ثانيا. فلعمرى أية ثورة تقوم على الحق الصراح الخالى من أغراض الهـوى، ولاتجد لها سبيلا إلى

1 ـ سلامة قاقيش ـ المرجع السابق ص11.

المنهج والحنايا؟ ألـم تكن دعـوة الإمام الحـسـين ﷺ دعـوة للتـفـريق بين الحق والباطل؟ أما قيل إعـجابا بهذه الثورة: «إن الإسلام بدؤه محمـد وبقاؤه حسينى»؟ ولعل خـير من وصف هـذه الثورة كـان «ماربـين» الألمانى فى كتـابه «السـياسـة الإسلامية» إذ قال: «إن حركة الحسـين فى خروجه على يزيد إنما كانت عزمة قلب كبير عـز عليه الإذعان وعز عليه النصر العاجـل، فخرج بأهله وذويه ذلك الخروج الذى يبلغ به النصر الأجل بعد موته، ويحيى به قضية مخذولة ليس لها بغير ذلك حياة[1].

يتضح من هذا الفهم أن قضـية السنة الإسلامية كانت قضيـة مخذولة عندما قام الإمام الحسين ﷺ بثورته، وما كـان له محيص من السيـر بها بالشكل الذى بدت به، غير ضـان بنفسه وبأنفس أهل بيتـه وصحبه الأطهار، لعلمـه الأكيد بأن ثورته وإن كانت ضعيفة بتركيبتها المادية، إلا أن لها صلابة الصخر والمبدأ بتركيبتها الروحيـة والرمزية، وأنه بالغ بها النصـر والاستمرار للعـقيدة، ما لم يكن ليـبلغه بإيثار السلامة من مذبحة كربلاء. والإمام الحسين ﷺ عندما ثار لم يثر لأجل نيل كرسى الحكم إذ لـم تكن منطلقاه من قـاعدة فردية أو زمنيـة، بل كانت أهدافـها تتعداه إلى الأحقاب والأجيال القادمة، التـى ستعرف كيف كان شكل الفداء دفاعا عن عقيدة سلمت لهـا متلألئة. وإنها عقيدة الشهـداء البررة التى لاتنخذع بسراب المطامع الدنيـوية، ولاترضى بمبـدأ المساومـة فى ميـدان العقـيدة. ورفض الخـداع والمساومة، مـقرون دومًا بالاستعـداد لبذل الحياة وإطفاء شـعلة النفس إذا كان فى إطفائها مـاينير شمعـة تهدى السائرين على طرق الحق والعدل. وهذا المبـدأ المنبثق عن هكذا عقيدة من الصعب إدراك معانيه فى أوانه سيما إذا كانت الموازين آنذاك، هى الموازين التى نصبها حكام ظالمون لأمة تدجنت روحهـا، وذبلت عقيدتها، فما عادت تفـرق بين الخطأ والصواب. وعلى هذا المقيـاس الذى لايرفعه إلا الصـفوة المختارة من الصالحين. أصاب الإمام الحسين ﷺ بثورته فى المدى البعيد، وأخفق

1 ـ سلامة قاقيش ـ نفس المرجع ص112 وانظر السياسة الإسلامية ـ لماربين ص213.

فى المدى القريب، طلب إحقاق الحق فى وقته، فلم يصل إليه، لكن أمة الإسلام أدركته بمماته، ولم يقف الأمر عندها على مستوى إدراكه فحسب، بل صار جزءا من وجدانها العقائدى، وضميرا يستصرخها ويستحثها فى كل مواقف الضعف، وحيال مختلف أشكال التدجين والظلم والانحراف عن السنة[1].

تشتعل الثورة عارمة فى مكة، وفى المدينة حيث يجرد لها ـ يزيد ـ من جنده وقواده من ينزلون بالحرمين المقدسين من الدمار والقتل والإفك ما يخجل الشيطان من اقترافه. ولكن الجذوة المباركة لاتخبو، حتى يموت بحسرته يزيد، ويخلفه ابنه «معاوية الثانى» وهنا يوجه القدر الحكيم أذكى ضرباته، فيقف ابن يزيد نفسه ليحمل شعلة الإمام الحسين ﷺ، ويزيد الجذوة إضرامًا، حين يجمع الناس ليوم مشهود، ثم يعلن فيهم ـ كما أسلفنا من قبل ـ أن جده وأباه اغتصبا الحق من أهله، وأنه يبرأ إلى الله مما جنت أيديهما وأنه يربأ بنفسه وبتقواه عن أن يجلس على العرش الملوث بالجريمة. ثم يعلن عليه اعتزاله منصبه ويعتكف فى بيته حتى يأتيه الموت، فليقى الله تقيًا، نقيًا، سعيدا[2].

قال أبو جعفر الحسين شارحًا الأسباب التى أوجبت محبة الناس لعلى: «فمعلوم أن عليا عليه السلام كان مستحقًا محرومًا، بل هو أمير المستحقين المحرومين، وسيدهم وكبيرهم، ومعلوم أن الذين ينالهم الضيم، وتلحقهم المذلة والهضيمة، يتعصب بعضهم لبعض، ويكونون إلبًا ويدًا واحدة على المرزوقين الذين ظفروا بالدنيا، ونالوا مآربهم منها، لاشتراكهم فى الأمر الذى آلمهم وساءهم، وعضهم ومضهم، واشتراكهم فى الأنفة والحمية والغضب والمنافسة لمن علا عليهم، وقهرهم، وبلغ من الدنيا ما لم يبلغوه، فإذا كان هؤلاء ـ أعنى المحرومين ـ متساوين فى المنزلة والمرتبة، وتعصب بعضهم لبعض، فما ظنك بما إذا كان منهم رجل عظيم القدر جليل الخطر كامل الشرف، جامع للفضائل محتو على

---

1 ـ سلامة قاقيش ـ نفس المرجع ص113 وانظر: الحسين فى الفكر المسيحى ـ انطون بارا.
2 ـ خالد محمد خالد ـ المرجع السابق ص139.

الخصائص والمناقب، وهو مع ذلك محـروم محدود، وقد جرعته الدنيا عـلاقمها، وعلته عـللا بعد أن نهل من صـابها وصبـرها، ولقى منها برحًـا بارحًا، وجـهداً جهيداً، وعلا عليه من هو دونه، وحكم فيه وفى بنيه وأهله ورهطه من لم يكن ما ناله من الإمرة والسلطـان فى حسابه، ولا دائراً فى خلده، ولا خـاطراً بباله، ولا كان أحـد من الناس يرتقب ذلك له ولا يراه له ثم كان فى آخر الأمـر أن قتل هذا الرجل الجليل فى محـرابه، وقتل بنوه بعده، وسـبى حريمه ونسـاؤه، وتتبع أهله وبنو عـمه بالقتل والـطرد والتشريد والـسجون، مع فـضلهم وزهدهم وعبـادتهم وسـخائهم، وانتـفاع الخلق بـهم، فهل يمكن ألا يتـعـصب البشـر كلهم مع هذا الشخص! وهل تسـتطيع القلوب ألا تحبه وتهـواه، وتذوب فيه وتفنى فى عشـقه، انتصاراً له، وحمـية من أجله، وأنفة مما ناله، وامتعاضـًا مما جرى عليه، وهذا أمر مركوز فى الطبائع، ومخلوق فى الغرائز»[1].

بعد استشهاد ثلة من أبناء الرسول محمد ﷺ وصفوة المؤمنين والأصحاب، فلتكن هذه البقـية شهادة شـاهد من أهلها. وهذا الشاهد هو: «مـعاوية بن يزيد» ثالث خلفاء بنى أمـية فقبل أن يمـوت ـ يزيد ـ فى العام الرابع والستين لـلهجرة، خلع الخلافة أو بتعبير أصح خلع الملك على أكبر أبنائه ـ معاوية ـ الذى عرف باسم «معاوية الثانى»: وكان «معاوية» هذا، شابًا تقيًا، ورعًا، عابداً وسبحان من يخرج الحى من الميت، والهـدى من الضـلال وعلى الرغم مـن أنه تسلم الملك شـابًا لم يجاوز الخامـسة والعشرين، فإن تقـوى روحه، كانت أقوى من إغـراء شبابه، فلم يلبث فى منصبه إلا بضعة أشهر حتـى ضاق به، ودعا المسلمين إلى مؤتمر مشهود، ونهض يخطب الجـمع الحاشد فـقال: «أيها الناس إن جـدى معـاوية، نازع الأمر أهله، ومن هو أحق به منه لقـرابته من رسول الله وسـابقتـه فى الإسلام، وهو: على بن أبى طالب ولقد ركب بكم ماتعلمون حتى أتته منيته، فصار فى قبره رهين أعمـاله. ثم تقلد أبى ـ يزيد ـ الأمر مـن بعده، فكان غيـر أهل له وركب هواه،

---

1 ـ ابن أبى الحديد ـ ج10 ص224.

وأخلفه الأمل، وقصـر به الأجل، ثم صار فى قبره رهين ذنبه، وأسيـر جرمه وإن من أعظم الأمـور علينا علمنا بسـوء منقلبه، وقـد قتل عـترة رسـول الله، وأباح الحرم، وخـرب الكعبة. وما أنا بالمتـقلد أمركم، ولا بالمتحـمل تبعاتكم فاخـتاروا لأنفسكم واللـه، لئن كانت الدنيا خـيراً فلقـد نلنا منها حظًا. ولئن كـانت شراً؛ فكفى ذرية أبى سفيـان ما أصابوا. ألا فليصل بالناس حسـان بن مالك، وشاوروا فى خلافتكم، يرحمكم الله» ثم غادر منبره إلى داره، ولبث بها عاكفًا على عبادة الله، حتى لقيه راضـيًا مرضيًا. إن هذه الكلمات التى قالهـا «معاوية الثانى» ابن ـ يزيد ـ وحفيد ـ مـعاوية بن أبى سفيان ـ لتشكل برهانا باهراً على عـدالة القضية التى هى فى غنى عن كل برهان. وهذا الشـاب الصالح الذى أثقلت ضميـره الحر أوزار آبائه، قدم بوقـفه ذاك. . أو بالأحرى قدم الـقدر به وبموقفه، وثيـقة الإدانة كاملة وصـادقة لأولئك الذين وقـفوا من الإمـام، ومن أبنائه، ومن القضـية التى حملوا مشعلها، مواقف الكيد والعداء. وإننا اليوم، وبعد مضى مايقرب من أربعة عشـر قرنًـا على ذلك الصراع، لنجـد حرارة الصـدق ووضوح الحق فى مـوقف «الإمـام على» من «معـاوية» ثم فى مـوقف «الإمـام الحسـين عليه السلام» من يزيد إننا نتصور عصر النبوة، كما كان فى عـهد منشئه وبانيه «محمد رسول الله ﷺ». ثم نتصـور كما كـان فى عهد خليـفتيـه النادرين الباهرين «أبى بكر، وعـمر». فنرى جـلالا يسحـر القلوب والألباب. !! ويأخـذنا الأسى ونحن نرى بعض الغـواشى تغشىَ ذلك الجلال فى عهد «عثمان» لابسبب قصور فى صلاحه وتقواه، بل بسبب ذلك النفر مـن الأمويين الذين أساءوا اسـتغـلال سلطانهم وكذلك بسـبب عوامل تاريخية كان لها دورها المسؤول[1].

وسواء كـان يزيد المسؤول أو واليـه المخلص والأداة المنفذة، فـإن النظام هو الذى حمل عمليًا وزر التصرف الارتجـالى الذى عولجت به هذه الحركة. كما أثبت رأسه ـ أى يزيد بن معاوية بن أبى سـفيان ـ فشله الذريع فى قيادة مـصير المسلمين

---

1 ـ خالد محمد خالد ـ المرجع السابق ص37.

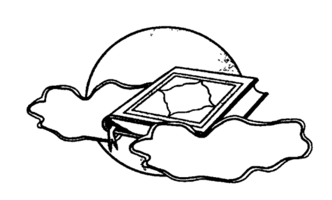
وشؤون الدولة، وسقط عند أول امتحان لقدراته المتواضعة فى السياسة. وكانت محاولة الإمام الحسين عليه السلام، أول انتفاضة على مستوى الثورة والتغيير، ضد حكم الأقلية التى استأثرت بالحكم وحولتها إلى ملك وراثى، متجاهلة الأكثرية المجبرة على الصمت والمكرهة على تقبل الواقع. فالحسين، وهو الممثل الطبيعى للاتجاه الإسلامى - الإصلاحى، كان صوت الجماهير المفجوعة بآمالها ومواقعها التى اكتسبتها فى دولتى الرسول وعمر وحاولت استردادها فى عهد الإمام علىّ عليه السلام، تلك التى التزمت بأفكاره، وتابعت نضالها من بعده فى أجواء القهر والملاحقة.

ومن هذا المنظور فإن تقويم هذه الحركة، يتجاوز البعد الكوفى الضيق، أو الشخصى الأضيق، كونها مجرد تسجيل لموقف خاص من الخليفة، إلى أن تصبح ثورة على النظام القائم وعلى مبدأ الوراثة فى السلطة، وعلى واقع يسوده الظلم وتتآكله العصبيات المختلفة. لقد شحنت ثورة الإمام الحسين عليه السلام الفكر السياسى فى الإسلام، بمادة جديدة من التحدى الصعب والانتصار على الذات والتضحية من أجل المبدأ، فكانت حدثًا غير عادى فى التاريخ العربى الإسلامى، حين اجتاحت فى أعقابها دولة الأمويين عاصفة ثورية عارمة، كان من نتائجها القريبة إسقاط الحكم السفيانى، دون أن ينجو منها الحكم المروانى على المدى الأبعد.

ويصبح الموقف السياسى العام مباشرة بعد «كربلاء» على النحو التالى: فى الحجاز عصيان مسلح فى المدينة وإعلان ابن الزبير دولته فى مكة. وفى العراق تطورات مذهلة، انعكست خاصة على الحركة الشيعية التى اشتدت عليها وطأ الملاحقة، كما أثقلتها عقدة الذنب والتقصير، مما أدى إلى إفراز حركة التوابين الانتحارية، وحركة المختار الثقفى ومعها أول سلطة شيعية منذ تنازل الإمام الحسن عليه السلام. أما فى الشام، فقد تراكمت كل سلبيات الانهيار السياسى هذا الذى تعاظم بعد وفاة يزيد الفجائية، مما أوقع الأسرة الحاكمة فى الفراغ والانقسام[1].

1 - د. إبراهيم بيضون - نفس المرجع - ص189.

الفصل التاسع



الثورات ضد النظام الأموى

- فكر الخوارج.
- مذهب الخوارج.
- ثورات الخوارج على الأمويين.
- الثورات فى الولايات الأموية.
- ثورات الحجاز.
- التوابون وعقدة الشعور بالذنب.
- نهاية عبد الله بن الزبير.
- أمر العصبية القبلية.
- تمرد عبد الرحمن بن الأشعث.
- ثورة العبيد.
- ثورة الترك.
- حرب العصبيات فى إسبانيا.
- ثورات المغرب العربى.

فكر الخوارج

اصطلح إطلاق لفظة الخـوارج على تلك الجمـاعة التى شايعـت الإمام على عليه السـلام فى نزاعه مع معـاوية ثم خرجت عليه إبان حـادثة التحكيم. ويرجع ظهور الخوارج إلى أسـباب سياسية واقتـصادية واجتماعيـة، وإن الفهم الموضوعى لعصر الدولـة الإسلامية الأولى والثانيـة يضع العامل الدينى فى الاعتـبار، فظهور الخوارج مرتبط بمسائل السياسة والحكم إضـافة إلى التطور الاقتصادى والاجتماعى الذى عم الدولة الإسـلامـية بعـد الفـتـوحات وكـان ذلك يجـرى فى إطار دينى إسلامى. وقد يكون ظهـور الخوارج يعبر عن رغبـة القبائل اليمنية وهى الغـالبية العظمى والكبـيرة من القـبائل العربيـة إضافـة إلى قوتهـا فى المعارك حـيث كانوا يشكلون أغلبيـة القبائل وأقواها فى صـفوف الإمام على عليه السـلام وكذلك فى صفوف خصمـه معاوية بن أبى سفيان، ولذلك رأت القبـائل اليمنية من الخوارج إقصاء قـريش عن التشبث بالخلافـة والاستئثار بالحكم. فـالخوارج من هذه الزواية حزب سيـاسى ولهذا أرادوا التخلص من الإمام على عليه السـلام ومعاوية بن أبى سفيان باعتبارهما من قريش.

ووجود العامل الاقـتصادى ـ الاجتـماعى فى ظهور الخوارج، هو انتـفاضة لعرب البادية الذين استوطنوا الكوفة والبصـرة بعد الفتوح الأولى، فهؤلاء وخاصة من كان منهم من قبيلة تميم كانوا قبل الإسلام يعيشون فى فقر مدقع كما كانوا من القـبائل الدنيـا أو الوضيـعة والطبـقة المهـمشة الأخـيرة، ولم تتـحسن أحـوالهم الاجتمـاعية والاقتـصادية كثيراً فى ظـل الإسلام بينما كانت القـبائل الأخرى من قريش واليمن تنعم بالثراء مترفل فى التـرف فامتلأت قلوبهم حقداً وغيظًا وزاد فى ثورتهم تمسكهم الشديد بالتـعصب القبلى والولاء للقبيلة ومـن هذا المنطلق انضموا إلى القبـائل اليمنية الكبـيرة والقوية المعـارضة لحكم قريش، ومن هنا كـان ظهور الخوارج مرتبطًا بتطورات اقتصادية واجتماعية عميقة غيرت بنية المجتمع الإسلامى على أثر حركـة الفتوح الإسـلامية الكبرى، فـبرزت قوى اجـتماعيـة جديدة ذات

مصالح متعارضة وتبلور الصراع بين هذه القوى حول مسألة سياسية دينية هى قضية الخلافة، فكان الدين والدولة إذ ذاك شيء واحد والجماعة السياسية انبثقت من الجماعة الدينية وبالتالى يعتبر الخوارج والشيعة من أولى الأحزاب السياسية الدينية وإن التاريخ الإسلامى حتى العصر الأموى اتخذ شكل حركات سياسية دينية[1].

تبلور الصراع الاجتماعى فى خلافة عثمان حول مسألة الإمامة أو الخلافة، فقد نجمت بعد وفاة رسول الله محمد ﷺ مشكلات لا ننكر أن الثغرات القبلية والأطماع الشخصية كانت تغذيها لكنها بوجه عام اتخذت طابعًا دينيًا واضحًا. فقد أخذ المسلمون يتلمسون فى القرآن والسنة مخرجًا فكثر الجدل والتأويل وتعددت الآراء وتشعبت وزعم كل طرف أو وجهة نظره هى الحق ونجم عن ذلك ظهور الفرق الإسلامية التى عبرت عن تناقضاتها فى صورة خلاف اجتهادى «فى مسائل دينية ظنية» وما لبث هذا الخلاف أن تحول إلى صراع دموى عبر عنه الشهرستانى بقوله: وأعظم خلاف بين الأمة خلاف الإمامة إذ ما سل سيف فى الإسلام على قاعدة دينية مثلما سل على الإمامة». وتأسيا على ذلك نرى أن ظهور الخوارج مرتبط بمشكلة الإمامة والاجتهاد حولها ومما يؤخذ على الخوارج تشددهم وتطرفهم فى معتقداتهم ومن هنا كل متطرف فى الإسلام يسمى بالخوارج مجازاً.

ظل عرب العاربة من البربر فى العصر الأموى بمعزل عن السياسة العامة، ومن هنا نؤكد المسؤولية فى الشرق عما جرى فى بلاد المغرب من تمايز عنصرى قائم على أوضاع طبقية، وقد نختلف فى هذا الصدد مع بعض الدارسين المحدثين الذين يبرئون الحكام من مسؤولية المساوئ التى استشرت فى المغرب آنذاك ويلقون بتبعتها على الولاة وحدهم، وكتب التراجم والطبقات لاتقدم سجلا للولاة العمال وسياساتهم فحسب، بل تقدم صورة واضحة صادقة عن حياة المجتمع بعناصره وطبقاته، بفقهائه وعلمائه، بصناعه وزراعه ورعاته وتجاره، إلى غير ذلك من المعلومات التى تصور حياة الشعب وتسجل تاريخه غير المكتوب، لذلك فقيمة تلك

1 ـ د. محمود إسماعيل ـ المرجع السابق ص37.

الكتب جد هامة فى الإفادة من مادتها للكشف عن زيف التاريخ الرسمى المكتوب. ومن أهم هذه الكتب «رياض النفوس» للمالكى و«طبقات علماء افريقية» لأبى العرب تميم و «طبقات الإباضية» للدرجينى، و«معالم الإيمان» للدباغ ومن تلك المصادر جميعًا وغيرها نستقى مادتنا فى تفسير تاريخ الثورة الاجتماعية فى المغرب، ففى العقدين الأولى من القرن الثانى الهجرى نجح الدعاة الصفرية فى بث الدعوة بين قبائل المغرب الأقصى والأوسط من عرب العاربة البربر والبرانس على السواء، فضلا عن الأقليات العنصرية المضطهدة مثل الأفارقة وزنوج السودان. هذا فى الوقت الذى كان فيه دعاة الأباضية ينشرون مذهبهم بين قبائل المغرب الأدنى والأوسط. ولم يقدر لهم أن يحرزوا ما أحرزه الصفرية من نجاح إلا فى العقد الخامس من القرن الثانى الهجرى. ويخيل إلينا أن السبب فى ذلك يعزى إلى بعد بلاد المغربين الأوسط والأقصى عن مقر الولاية فى القيروان فضلا عن شقة البعد بينها وبين مصر التى كانت تنفذ منها جيوش الخلافة لدعم نفوذها فى المغرب. لذلك كان الصفرية سباقين إلى نشر مذهبم كما كانوا سباقين أيضا إلى المبادرة الثورية إذ اندلعت ثورتهم الكبرى عام 121هـ، تلك التى تزعمها ميسرة «سقاء القيروان»[1].

مذاهب الخوارج

كان الخوارج من أنصار «الإمام على بن أبى طالب»، وشهدوا معه معركتى «الجمل»، و«صفين»، ثم انشقوا عليه قبل التحكيم بينه وبين «معاوية»، فسموا الخوارج، لخروجهم على إمامهم، ولما بالغوا وتطرفوا فى عدائهم له، وعاثوا فى الأرض فساداً؛ اضطر إلى مقاتلتهم فى معركة «النهروان». وكانوا فى مبدأ أمرهم فرقة واحدة، يدور خلافهم مع بقية الأمة حول الخلافة ومن أحق بها، ومجمل أمرهم أن الخلافة حق لمن يصلح لها من المسلمين، وتتوافر فيه شروطها من العلم والأمانة والشجاعة، وليس من الضرورى أن يكون عربيًا فضلا عن أن يكون

1 ـ د. محمود إسماعيل ـ نفس المرجع ص149.

قرشيًا. ولو أنهم حصروا خلافهم مع غيرهم فى جدا وحوار نظرى يقوم على مقارعة الحجة بالحجة والدليل بالدليل لم يكن فى الأمر شىء ولكن الخطر كل الخطر جاء من لجوئهم إلى العنف واستخدام السيف فى فرض آرائهم، وقد بدأ مع «الإمام على بن أبى طالب» مما جعل خصومهم يواجهون القوة بالقوة، وتكبدت الأمة الإسلامية عشرات الآلاف من الضحايا من أبنائها نتيجة هذه الخصومة العنيفة. وظل الخوارج فرقة واحدة، تتبنى أفكاراً ومبادئ واحدة حتى وفاة «يزيد بن معاوية» سنة (64هـ)، ثم بدأ الشقاق والخلاف يدب بينهم هم أنفسهم، فانقسموا فرقًا وأحزابًا، حتى وصل عددهم إلى ثلاثين فرقة، ثم تطور تفكيرهم بمرور الزمن، وبدءوا يخوضون فى قضايا تدخل فى صلب الدين، مثل مباحثهم فى مرتكب الكبيرة هل هو مؤمن أو كافر، وغير ذلك من القضايا، وأشهر فرق الخوارج التى ناصبت الدولة الأموية العداء وشنت عليها الحرب، وهى[1]:

1. **الأزارقة:** هم أتباع «نافع بن الأزرق»، أحد زعماء الخوارج الكبار، وهى تعد أشد فرق الخوارج تطرفًا فى أفكارها السياسية والدينية، فهى ترى الخروج على الخليفة الذى يخالفها فى آرائها وقتاله، وأتباعها يتبرءون ممن لا يوافقهم على ذلك، ويعدونهم من القاعدين، ويكفرون مرتكب الذنوب الكبيرة ويحكمون بخلوده فى النار، مخالفين فى ذلك صريح القرآن الكريم، حيث يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء: 48] ويبيحون دماء مخالفيهم فى الرأى

2. **النجدات:** وينسبون إلى «نجدة بن عامر»، وهم أقل تطرفًا من «الأزارقة»، لأنهم لا يقولون بكفر مرتكب الكبائر.

3. **البيهسية:** وينسبون إلى زعيمهم «بيهس»، وهم أقل تطرفًا من «الأزارقة»، ويرون أن مخالفيهم فى الرأى منافقون، تجرى عليهم أحكام المنافقين، لكنهم يجيزون حوارهم، والتزاوج معهم، وميراثهم.

---

1 ـ د. عبدالشافى محمد عبداللطيف ـ المرجع السابق ص36.

4. الصفـرية: أتبـاع «زياد بن الأصـفـر»، وهم كـذلك أقل تطرفًا من «الأزارقة»، ومعتدلون فى أفكارهم.

نتلمس التفسـير السياسى للثورة فى آراء الدكتور حـسين مؤنس إذ ينفى عن الحركة سماتها المذهبية ويقـول «وربما كان الأحرى أن نشك فى نسبة هذه الحركات إلى الصفرية والأباضية خاصة لأن أسبابها كانت سياسية قبل أن تكون دينية، ولسنا نجد على أى الأحـوال فى أخبـار هذه الثورة الكبـيرة دليلا واضـحًا على صـفرية القائمين بالحركة أو أباضيتهم، والأسلم أن نسـميهم خوارج - سياسيين لا خوارج دينيـين» وأستاذنـا محق فى ان العـامل المذهبى لم يكن عمـاد الثورة ومـحركـها الوحيد، لكن لا ننكر أن ساعد على اذكائها بأن قدم لها «التبرير الشرعى» وأكسبها دفعة الحماس الدينى، وهو أمر فطن إليه الدكتور حسن محمود حيث ذكر أن ثورة ميسرة لم يكن مبعثها الأسباب السـياسية فحسب، بل كان من أهم أسبابها الدعوة لمذهب الخوارج ونجـاح هذا المذهب فى المغرب ولم يكن نجـاح هذا المذهب إلا لما انطوى عليه من جوانب اجتـماعية تنشد مبادئ العدالة والمسـاواة، والدكتور حسن محـمود حين عول على انتـشار الخارجيـة فى المغرب للثورة ألمح إلى ذلك البـعد الاجتماعى، فاخـتلف عن بعض المستشرقين الذين فسروا الثورة تفسـيرًا دينيًا بحتًا من أمثال المؤرخ ألفريد بل الذى تطابقت نظرته مع مؤرخى الفرق القدامى، فاعتبر تاريخ المغرب كله مـحض صراعات بين الملل والنحل. وهاك ترجـمة لما أورده فى هذا الصدد، يقول بل «فالحركات الجماهيرية، والصراعات، والثورات التى اندلعت فى المغرب منذ التحرير الإسلامى قامت فى الغالب الأعم - بغض النظر عن بعض الاستثناءات الضئيلة - من أجل الدين، أو احتـجاجًا على الدين أحيانًا» بل امتدت نظرته تلك إلى تاريخ المغرب العربى فى العصور القديمة، كما انسحبت أيضا على تاريخه الحديث والمعاصر، ولاغـرو فقد فسر الجزائر المعاصرة تفـسيرًا دينيًا بالدرجة الأولى. ونحن لاننكر دور الدين فى التاريخ والحضارة عمومًا، ولانغفل أهميته فى

تاريخ المغرب العربى، إنما نقيم وزنًا للرؤية الاجتماعية الشاملة التى يشكل العامل الدينى أحد جوانبها[1].

• ثورات الخوارج على الأمويين:

لجأ الخوارج إلى القوة واستخدام السيف فى فرض أفكارهم وآرائهم على الناس، وأبدوا فى صراعهم الدموى مع الدولة الأموية كثيراً من ضروب الشجاعة والتضحية والإقدام وكانت الأعداد القليلة منهم تهزم جيوشًا جرارة للدولة، ولو أن شجاعتهم وبطولاتهم اتجهت اتجاهًا صحيحًا، ووحدوا جهودهم مع الدولة الأموية فى مجال الفتوحات الإسلامية ومحاربة أعداء الإسلام، لكان ذلك أجدى وأنفع، والعجيب أن أغلبهم لم يكونوا من طلاب الدنيا، والتطلع إلى المال والمناصب، وإنما كانوا طلاب آخرة، ولكنهم أخطئوا الطريق إليها، كما قال لهم «عمر بن عبدالعزيز». أعلن الخوارج وبخاصة «الأزارقة» حربًا شعواء على الدولة الأموية منذ قيامها، ولم تفلح معهم سياسة «معاوية بن أبى سفيان»، فثاروا فى وجهه عام (41هـ الموافق 661م) - أى عام الجماعة - قبل أن يغادر «الكوفة»، وكان أول من ثار عليه «عبدالله بن أبى الحوساء» فى مكان قريب من «الكوفة»، ثم ثار عليه «المستورد» ابن علنة الطائى». وكان عجيبًا أن تشب هذه الثورات فى «الكوفة» أيام واليها «المغيرة بن شعبة» الذى انتهج سياسة متسامحة، لكنهم تمردوا من أجل تطبيق الشريعة الإسلامية وقام «المغيرة» إلى التصدى لهم والقضاء على ثوراتهم. ثم ازداد ضغط الدولة عليهم منذ أن ولى«زياد بن أبى سفيان» ولاية «البصرة» عام (45هـ الموافق 665م) فأخذ يتعقبهم فيه «المغيرة بن شعبة» فى «الكوفة»، حتى ضيق عليهم الخناق، وضرب عليهم بيد من حديد، حتى ضعفت شوكتهم. وعلى الرغم من ذلك فقد استأنف الخوارج نشاطهم على نحو أعنف بعد وفاة «معاوية» عام (60هـ الموافق 679م)، فأرسل إليهم «يزيد بن معاوية» حملة بقيادة «عبدالله

---

1 - د. محمود إسماعيل - المرجع السابق ص107.

ابن زياد»، فتصدى لهم بقوة، ثم ازدادت ثوراتهم بعد وفاة «يزيد» عام (64هـ الموافق 683م)، مستغلين فى ذلك حالة الفوضى التى سادت «العراق»، و لما استقامت الأمور للأمويين كلف «عبدالملك بن مروان» «المهلب بن أبى صفرة»، بمواجهة الخوارج، فاستطاع أن يكسر شوكتهم، ويخمد أنفاسهم، فاستكانوا فترة طويلة تزيد على العشرين عامًا (78 ـ 100هـ الموافق 697 - 718م)، ولم تقم لهم ثورة خلالها، ثم عاودوا نشاطهم فى عهد «عمر بن عبدالعزيز»، فاستعمل معهم أسلوب الحوار، فاستجابوا له لما أقنعهم بخطأ أفكارهم المتطرفة، ووعدوه بالهدوء، لكنهم هبوا من جديد بعد وفاته عام (101هـ الموافق 719م)، ولم تهدأ ثوراتهم التى استمرت حتى آخر أيام الدولة الأموية. وبلغت حركة الخوارج أقصى درجات العنف فى عهد «مروان بن محمد» آخر خليفة أموى (127 ـ 132هـ الموافق 744 - 749م)، الذى شهد آخر ثورات الخوارج وأشدها خطرًا، بقيادة «الضحاك بن قيس الشيبانى» فى «العراق»، و«أبى حمزة الخارجى» فى جنوبى الجزيرة العربية. وقد شغلت هذه الثورات «مروان» واستنزفت طاقته، وشغلته عن مواجهة خطر العباسيين الزاحف عليه من «خراسان»؛ حيث اشتعلت ثورتهم المسلحة ضده، واكتسحت قواته فى «خراسان»و «العراق»، وانتهى به الأمر إلى القتل وزوال الدولة الأموية، ولعل هذا يؤكد أن ثورات الخوارج كانت من عوامل انهيار الدولة الأموية أمام أعدائها.

الثورات فى الولايات الأموية:

لم يستطع الحكم الأموى وعلى المدى البعيد، اكتساب «الشرعية» الكافية إزاء الجمهور الإسلامى الذى بقيت له تحفظاته واعتراضاته، على الرغم من المحاولات التى بذلها لتحقيق هذا الهدف واتخاذ صفة جماعية أو غير فئوية على الأقل. والواقع أنه، إذا ما استثنينا الشام وبعض ملحقاتها، فإن الموقف السياسى فى الولايات الأخرى، كان يتراوح بين الرفض والصمت والولاء الجزئى المحدود. لإعادة النظر فى الموقف من الحكم الأموى، حين اتضحت معالمه فى الخمسينيات

التى شهدت الدعـوة لولاية العهد وتنفيـذها ومن ثم ظهور أول انتفاضـة منذ قيام الدولة المتجـهة حينذاك نحـو الملك، على يد حجر بن عـدى الكندى، تلك التى اعتـبرت سابقـة هامة، ولكن دون أن تكون مـتبوعـة بمحاولات أخرى، تتـجاوز الموقف الحجازى من ولاية العـهد. ذلك أن معاوية حال دائمـا وارتفاع الأصوات غير المؤيدة لنظامـه، فى الوقت الذى وجد أصحابها صعـوبة فى التحرك وخطورة فى المواجهة، فى ظل أجـواء مغلقة وأدوات بشرية قامعـة سواء فى الحجاز أم فى العراق. نجـد أن مصـادر التاريخ الإسـلامى حافلة بالأخـبار عن أسـاليب الظلم والطغـيان التى اسـتعـملتـها السلطة الأمـوية ضد كـل أشكال المعارضـة للملك الأموى، فقد وصف هذه الأساليب زهير بن قـين مخاطبًا أهل الكوفة يوم كربلاء قائلا: «إنا ندعـوكم إلى نصرة ذرية محـمد ﷺ، وخذلان الطاغـية عبـيدالله بن زياد، فإنكم لا تدركون مـنهما إلا بسوء عمـر سلطانهما كله، ليسـملان أعينكم، ويقطعـان أيديكم وأرجلكم، ويمـثـلان بكم، ويرفـعـانكم على جـذوع النخل، ويقتـلان أماثلكم وقـراءكم، أمثال حـجر بن عـدى وأصحابه، وهـانئ بن عروة وأشباهه». وبدأت هذه الأسـاليب باستعمال الدهاء السيـاسى، وتزوير الشهادات، ثم شراء الأنصار بأموال من بيت المال، وعندما لم تجـد المناصب والأموال استعمل النفى، وسوء القتلة وقبح المثلة، والدفن حيا لإرهاب المعارضين، وحمل أول رأس فى الإسلام من الموصل إلى المعاوية فى دمشق[1].

ثم تطورت المعارضة ضد الحكم الاستبدادى الأموى فاتخذت شكل المعارضة الجماعية تزعمها قادة معروفون بورعهم، ودفاعهم عن القيم الإسلامية والاستشهاد فى سبيلها. إن حـركة حجر بن عدى بن جبلة الكندى، وأصحـابه: شهداء مرج عذراء لم تكن حركة شخص، أو جماعة قليلة، بل كـانت تعبيرا عن نقمة واسعة

---

1 ـ د. الحبـيب الجنحانى ـ التـحول الاقتـصادى والاجـتمـاعى فى مجـتمع صـدر الإسلام ص165.

عمت الأمصار الإسلامية الكبرى، وخصوصًا المدينة، والبصرة، والكوفة بالرغم من وسائل البطش والإرهاب التى استعملها عمال دمشق فى هذه المدن، وقد بلغت موجة الغضب صفوف أشراف الكوفة من أنصار الحزب الأموى وعشائرهم، وقد اعترف زياد بذلك حين وثب بأشراف الكوفة، فقال: «يا أهل الكوفة، أتشجون بيد، وتأسون بأخرى! أبدانكم معى وأهواؤكم مع حجر! هذا الهجهاجة الأحمق المذبوب أنتم معى وإخوانكم وأبناؤكم وعشائركم مع حجر! هذا الله من دحسكم وغشكم! والله لتظهرن لى براءتكم، أو لآتينكم بقوم أقيم بهم أودكم وصعركم! فوثبوا إلى زياد، فقالوا: معاذ الله سبحانه أن يكون لنا فيما ها هنا رأى إلا طاعتك وطاعة أمير المؤمنين، وكل ما ظننا أن فيه رضاك، وما يستبين به طاعتنا وخلافنا لحجر فمرنا به..»وقد بلغ الظلم الأموى حدًا جعل التململ يبلغ صفوف أسماء شهيرة أيدت بالأمس القريب الأمويين فى مطالبتهم بدم عثمان، ثم فى صراعهم المسلح ضد الإمام على رحمة الله عليه، وتواصلت سياسة تعقب كل معارض، وإخماد صوته بطريقة أو أخرى إلى أن بلغت ذروتها يوم كربلاء[1].

ثورة الحجاز

نحدد بعض الأحداث التاريخية التى كانت لها صفة الثورة الإسلامية أو المعارضة تجاه الحكم الاستبدادى غير الشرعى الأموى، وكان من آثارها انعكاسات فكرية وضعت حركة تطور الفكر العربى، فى أواخر القرن السابع وأوائل القرن الثامن، أمام الواقع الاجتماعى والسياسى وجهًا لوجه، وأقامت بين الفكر والواقع رباطا لم تستطع أن تخفيه عن الأنظار حتى تلك الاستقلالية النسبية التى يتمتع بها الفكر عادة حين يملك القدرة المتطورة على خوض المسائل النظرية التجريدية، أو على التحليق فى مناخات الإبداع الفنى البعيدة عن أرض الواقع المباشر. كانت الأحداث التاريخية هذه متلاحقة بصورة مثيرة ومعقدة فى وقت واحد. وإن الكثير من الصحابة والتابعين فى «المدينة» كانت نقمتهم على نظام معاوية الوراثى

1 ـ د. الحبيب الجنحانى ـ نفس المرجع ص166.

الاستبــدادى ذات دلالة خاصة، وكذلك شأن مكة، فــهما المدينتان المقــدستان عند جمــيع المسلمين، وأهلهــا يرون أن صلتهم بالإســلام هى صلة أهل القضــية التى رعوها بأنفسهم وبتـضحياتهم وعاشت وترعرعت مرتبطـة بحياتهم. من هنا كانت غيرتهم على قضية الإســلام ذات حساسية متميزة. ولقد عـد بعضهم عمل معاوية فى تحــويل نظام الخلافـة عن طابعــه الراشدى بدعـة فى الإســلام لا تناقض نهج الراشدين وحــسب، بل تناقض ـ بالدرجة الأولى ـ طبيـعة الخلافـة مبدئيًا، كـما أشرنا من قـبل. وذلك فضــلا عن موقف أنصار الإمـام على بن أبى طالب الذين يعتقدون بأن الخلافة منصــب إلهى يأتى النص على صاحبه من الله بوساطة النبى، وأن النص قد أتى بالفـعل باختيــار «الإمام علىّ عليه السلام» خليفـة بعد النبى مبـاشرة. هذان موقفــان من خلافة معــاوية يمكن وصفهمــا بالمبدئية إسلامــيا. ولكن هناك مواقف أخرى فى «المدينة» كانت غــير راضية على خلافة معاوية لأسبــاب سياسية ذاتية، وأسبــاب اجتماعية طـبقية. فالأولى ترجع إلى طمــوح بعض أبناء الصحابة إلى الخلافة كمصــعب بن الزبير وأخيه عبدالله. والثانية ترجـع إلى أن انتقال مركز الخلافة من «المديــنة» إلى دمشق قد أفقد «المدينــة» مكانتها شبه المركــزية فى العالم العربــى والإسلامى، وأفقــد أغنياءهــا، وكذلك أغنيــاء مكة، مصــالح جمـة كانا يجنونها من تلك المكانة المفقودة وعطل نشاطهم الاقتصادى والسياسى وسد الطريق دون مطامــحــهم المتعــددة الجــوانب، وجـعلهم فى عــزلة عن المسرح الســيــاسى والاجتماعى كله تقــريبًا. لقد كانت قوة معاويــة وكان دهاؤه، ثم كان الصراع بين «الإمام علىّ عليه السلام» ومعاوية وتألب كثــير من الفرقاء المشار إليهم لمخــاصمة «الإمام علىّ عليه السلام» ـ كــان هذا كله من العوامل التى حــالت دون انتــفاضــة «المدينة» على معــاوية فى حــياته. ولكن، مــا أن جلس ولده يزيد على عرش الخــلافة الأمــوية بدمشق بعد والده، بصفة وراثية، حتى بدأت تلـك النقمة المكبوتة من قبل تتحرك لتتفجر. وهــنا نعود إلى شخصية يزيد ذاته، لنراها كما وصــفناها سابقا، فإذا هى بخصائصــها تلك ذات أثر كبير فى تحــرك النقمة نحو الانفــجار. ولم يبق ليزيد، إذن، سوى الاعــتماد على ذوى المصلحة المبــاشرة فى بقائه ولى أمــر المسلمين فى

دمشق، بل في بقاء العرش الأموى ذاته، وهؤلاء هم ممثلو الطبقة المسيطرة في بلاد الشام من جهة، والقبائل اليمنية القوية حلفاء الأمويين هناك من جهة ثانية. كل ذلك كان يحمل الإنذار بحدوث انفجار قريب في «المدينة»، وفي مكة أيضا، كما كان التفجر قد بدأ يحدث بالفعل منذ مصرع سبط رسول الله محمد ﷺ الإمام الحسين بن على عليه السلام في العراق، حين كان يتركز في العراق نشاط الحركتين المناوئتين للأمويين رغم تناقضهما: حركة الشيعة، وحركة الخوارج. ثم حدث الانفجار في «المدينة». فقد أظهر أهلها تمردًا وامتناعًا عن مبايعة يزيد بالخلافة، فوجئه هذا جيشه الشامى المؤلف من أولئك الحلفاء، فقضى على التمرد. ثم تابع جيش يزيد مسيرته إلى مكة فحاصرها وارتكب أثناء حصارها حماقة عجيبة أثارت مشاعر المسلمين في كل مكان، وظلت تثيرها على مدى الزمن، إذ أخذ يقصف الكعبة نفسها مع سائر بيوت السكان، وأشعل فيها الحرائق. لم يعش يزيد بعد ارتكابه هذه الحماقة. فقد مات في العام نفسه (عام 683م) وخلفه ابنه معاوية الثانى الذى اعترض على أفعال أبيه يزيد وجده معاوية وتنازل عن الحكم واتجه إلى الله وبذلك انتقل عرش الخلافة الأموية إلى الفرع الأموى الآخر، فرع بنى مروان ابن الحكم الذى كان أول حاكم بعد السفيانيين الثلاثة: معاوية الأول، ويزيد، ومعاوية الثانى[1].

كانت الحجاز حاضرة الإسلام الأولى، عبر قادتها من أبناء الصحابة، وزعماء الأنصار، أول من أثار قضية الحكم الوراثى، وذلك بشيء من التحدى لمؤسس الدولة الأموية. وفي مستهل عهد يزيد، كانت السابقة أيضًا إلى رفض الأمر الواقع وإعلان موقفها مرة أخرى، مع نزوع إلى الثورة المسلحة،. فمنها خرجت حركة الإمام الحسين عليه السلام التى انتهت بمأساة دموية في العراق وأوقعت النظام الأموى في ارتباك شديد، ومنها أيضًا انبثقت حركة ابن الزبير التى اتخذت من مكة أرضيتها الأولى والمركزية، لتنتشر من هناك إلى حيث كانت الثورة على الحكم الأموى. وعلى الرغم من خلو هذه الحركة من أية أطروحة إصلاحية لافتة،

1 ـ حسين مروة ـ المرجع السابق ص484.

إلا أن زعيمها (ابن الزبير)، استفاد من الفراغ القيادى فى المعارضة السياسية، مستثمراً ما أمكنه النقمة المتعاظمة على الخليفة. و«المدينة» نفسها كان لها أيضًا موقفها الخاص من هذه التطورات المثيرة، حيث كانت مسرحًا لانتفاضة مسلحة، جاءت محصلة لمخزون مكبوت من الثورة ضد ممارسات السلطتين المركزية والمحلية، مندرجًا ما بين تقييد الحرية الشخصية لأبناء الصحابة التابعين أخذ تابعو التابعين، فجمعوا أقوال من تقدمهم وصنفوا التفاسير، وأول من دون التفسير فى الصحف مجاهد المتوفى عام 104هـ الموافق 722م. ومن العلوم الدينية الحديث، ويراد به مايروى عن الرسول من قول أو فعل، وقد أخذ الناس الحديث عن الصحابة الذين طالت صحبتهم برسول الله محمد ﷺ ومنهم السيدة عائشة وعمر ابن الخطاب، ثم ظهرت طبقة التابعين الذين أخذوا الحديث عن الصحابة. ولم يدون الحديث إلا فى أواخر القرن الثانى الهجرى فى خلافة عمر بن عبدالعزيز، وكانت الأحاديث تحفظ فى صدور الرجال أو تكتب فى صحائف متفرقة، ولما كان بعض الأحاديث قد انتحلت لتلبية حاجة البدع والنزعات، فقد حرص عمر بن عبدالعزيز على تدوين الأحاديث الصحاح، فأمر بعض من كان يثق بهم من علماء الحديث بجمعها، فكتبت فى دفاتر وأرسلت منها نسخ إلى أنحاء الدولة الإسلامية. ومن أشهر المحدثين فى العصر الأموى سفيان بن سعيد بن مسروق الثورى بالبصرة (161هـ) وله من الكتب الجامع الكبير الذى يجرى مجرى الحديث، وأبو عبدالرحمن محمد بن عبدالرحمن.

كان تحرك المعارضة فى «المدينة»، قد بدأ بحملة انتقادية صريحة ضد استبداد وظلم الخليفة، بلغت حد التجريح بشخصيته والطعن فى سلوكه وشرعيته. وأعقبتها موجة من السخط، استهدفت الوالى الأموى عثمان بن محمد بن أبى سفيان الذى وصف بأنه قليل التجربة، ليأتى مقتل سبط رسول الله محمد ﷺ الإمام الحسين وأصحابه فى كربلاء، بمثابة الشرارة التى ألهبت الموقف وفجرت ما

فى النفوس. وكانت خلافة الأمويين المثقلة بهـمومها الكبيرة، تتابع بقلق تطورات الموقف فى الحجـاز، ومن ثم تبادر إلى مجـاورة زعماء الحـركة، حين جـرى لقاء فاشل، بين يزيد ووفد من «المدينة»، لم يضف سوى التشنج على الوضع السياسى فى هذه الأخيرة. وانتهى الأمـر إلى قرار بالعصيان، فى الاجتـماع الذى عقد فى المسجـد وأسفر عن تعـيين عبدالله بـن حنظلة الأنصارى على إدارة المدينة وبيعـته رئيسًـا لثورتها المعلنة. وتجلـت المظاهر الأولى للعصيـان، فى الهجوم على قـصر الإمارة ومنزل مـروان بن الحكم شيخ الأمويين فى الحـجار، حيث اجـتمع هؤلاء لمناقشة تطورات الأزمة المحـدقة بهم ومواجهة حملة التعبـئة ضدهم. ولم يجدوا - ومعـهم الوالى - سوى الرضـوخ لقرار النفى إلـى الشام، مؤديًا ذلـك إلى خروج «المدينة» من دائرة النفوذ الأموى وإعلان سلطة مؤقتة فيها، فى الوقت الذى وصل فيه المنفيـون من بنى العاص الأمويين إلى دمشق، وسط أجواء سيطر عليـها الحقد والتشنج والرغـبة فى الانتقـام. ولم يلبث الرد على هذه المبادرة، أن جاء بمسـتوى الحقـد الأموى المعروف على «المدينة»، حـيث كان ذلك واضحًـا فى تشكيل القوة المكلفة بقمع الثورة الإسلامية، قـيادة وجندًا، بعد أن غرقت دولة يزيد فى تطرفها إزاء المعارضـة، وبات من الصعوبة البالـغة الخروج من هذه الدائرة الدموية. فـقد عهدت بقيادتها إلى عسكرى محـترف، وذى ميول غريزية نحو العنف، هو مسلم بن عقبـة المرى، من قبائل الشام اليـمنية الموالية للبيت الأموى والمـقاتلة تحت رايته منذ صفـين، وإلى جانبـه قائد آخـر، يمثل الذهنيـة والتجربة نفـسهـا فى الحرب والموالاة، هو الحـصين بن نميـر السكونى. ومـا لبثت الحـملة الشـاميـة هذه، أن أحكمت الحصار حول «المدينة» التى قاوت بضراوة، مـتوسلة شتى الطرق الدفاعية لصد الهـجوم الأموى، ولكن دون أن تصمـد سوى أيام قليلة أمام ضغـط الحصار الشديد والجيش المتفوق والقيادة المحترفة. وسرعان ما استبيحت للجنود المنتصرين، دافعة الثـمن غاليا جدًا لموقـفها السلبى من خلافـة دمشق، ومفجوعـة مرة أخرى

بأحلامها السلطوية التى انهارت مع سقوط الثورة المريع فى موقعة «الحرة» الشهيرة. ولم يتح للقائد الشامى المنتصر، استكمال مهمته الحجارية بعد القضاء على ثورة «المدينة»، حيث أن فصلا آخر منها كان بانتظاره فى مكة، لإعادتها بالقوة على غرار سابقتها إلى السلطة المركزية.

لقد كان لمكة نصيب آخر من الهزات التى ظهرت فى العهد الأموى. وذلك إذ برز بين طالبى الخلافة، بعد موت معاوية الثانى، عبدالله بن الزبير، وقد كان أبوه الزبير من كبار صحابة النبى، ثم رأيناه فيما سبق يقاتل عليا بن أبى طالب فى «حرب الجمل» بالبصرة، محرضا عائشة وخائضا معها هذه الحرب طلبا بثأر الخليفة الثالث عثمان، وقد قتل فى المعركة يومئذ. وذا ولده عبدالله يظهر الآن فى الحجاز داعيا نفسه خليفة، حين رأى عرش الأمويين يتزعزع فى دمشق منذ مقتل سبط رسول الله محمد ﷺ الإمام الحسين بن على فى العراق، ثم رأى هذا العرش يتعرض للزوال بعد موت يزيد وموت ولده معاوية الثانى. لقد حانت الفرصة إذن لهؤلاء الفتيان من أبناء الصحابة الذين عزلهم معاوية الأول عن مسرح الحياة العربية والإسلامية بإنشائه الخلافة الأموية فى بلاد الشام بعيدا عن مكة والمدينة، عاصمتى العرب والمسلمين من قبل. لقد حانت الفرصة إذن لهؤلاء الفتيان الطامحين إلى مراكز الحكم، وهم يرون أنفسهم جديرين بذلك بحكم كونهم أبناء الزعامة المكية و«المدينية» معا، بل يرون أنفسهم أحق من أبناء أبى سفيان الذى كان حربا على النبى محمد ﷺ والإسلام فى حين كان آباؤهم من كبار صحابة النبى. نهض عبدالله بن الزبير ليعيد الخلافة إلى منبتها الأول فى الحجار، مستغلا ذلك الصراع القبلى القديم الذى استغله معاوية من قبل. نعنى به صراع القبائل الحجارية وقبائل اليمنية. وفى الوقت نفسه وجد الحجازيون فى دعوة ابن الزبير فرصة لهم أيضا تمكنهم من الغلبة على اليمنيين وانتزاع مواقع القوة من أيديهم، وهى المواقع التى اكتسبوها من حلفهم مع معاوية زمنا طويلا. وها قد زال معاوية ويكاد عرش دولته أن يزول. فليبادروا إذن لنصرة عبدالله بن الزبير والاعتراف به خليفة قبل أن

يظهر أموى جديد فى بلاد الشام يفوت هذه الفرصة عليهم. هكذا برز الصراع الحجازى ـ اليمنى من جديد، فكانت معركة مرج راهط قرب دمشق بين الفريقين، ولكن الغلبة الكاسحة كانت فى المعركة الهائلة لليمنيين الأقوياء، وظهر الأموى الجديد الذى كان الحجازيون يخشون ظهوره، فإذا هو مروان بن الحكم، فاعترف به اليمنيون خليفة جديدا على عرش الأمويين فى دمشق الذى كان لهم فضل إنقاذه من الزوال. غير أن عبدالله بن الزبير لم ينهزم بانهزام الحجازيين فى مرج راهط، لأن قبائل عربية أخرى فى العراق وإيران كانت تؤيده ضد الأمويين، فى حين كان العلويون غير قادرين حينذاك على مقاومة بنى أمية بعد مذبحة كربلاء، ولم يقم زعيم علوى يتولى قيادة الثورة على الحكم الأموى. كان إذن، لابن الزبير ما يسنده فى البقاء على دعوته الخلافة لنفسه فى مكة حيث تسلم بالفعل مركز السلطة[1].

فقد كان عبدالله بن الزبير يتخذ من الكعبة ملجأ للاعتصام بثورته من الملاحقة الأموية، دون أن تثنيه عن قراره، المأساة الجديدة التى حلت بالمدينة. بيد أن حسن الحظ الذى رافقه منذ التجائه إلى مكة، لم يتخل عنه هذه المرة أيضا. فمن مقتل الإمام الحسين، المنافس الرئيس، إلى وفاة مسلم بن عقبة فى منتصف الطريق تحت وطأة المرض والسن، إلى وفاة يزيد المفاجئة فى وقت لاحق، إلى آخر هذه المصادفات التى كان ابن الزبير المستفيد الأول منها، ولكن دون أن تكون لديه الكفاءة، أو لعلها سرعة الحركة، لتوظيف هذه الفرص فى الوقت والمكان المناسبين[2].

أما الحملة الأموية التى كانت تأخذ طريقها إلى مكة، فقد أصبح قائدها الحصين بن نمير الذى نفذ بدقة مهمة سلفه، وفرض الحصار على ابن الزبير فى

---

1 ـ حسين مروة ـ المرجع السابق ص485.

2 ـ د. إبراهيم بيضون ـ المرجع السابق ص192.

مكة، حيث كانت المقاومة عنيفة تعززها مشاركة بعض الحلفاء من خصوم الحكم الأموى، كالخوارج. وبعض الهاربين من «المدينة»، فضلا عن الزعيم الشيعى مختار الثقفى الذى أخذ اسمه فى البروز منذ أحداث الكوفة الأخيرة. وقد صمد المدافعون عن مكة، على الرغم من القرار الجرىء باستخدام الحصين مجانيقه فى ضرب الكعبة، متجاوزاً الضجة المترتبة لدى الرأى العام، فى ظل مناخ ماتزال العقيدة الدينية، على رغم التراجع، تأخذ دورها المؤثر والطليعى فيه. وظل الحصين بن نمير محاصراً مدينة مكة، حتى وصله خبر وفاة الخليفة يزيد بن معاوية. وكان خلال فترة الحصار يشتبك مع أنصار ابن الزبير بين الفينة والأخرى، حتى إنه أقدم على نصب المجانيق ورمى الكعبة بالحجارة والنار فاخترقت الكعبة وتصدع منها ثلاثة مواضع واحترق ما كان فيها من خشب وما عليها من كسوة. وتقول معظم الروايات التى أتت على ذكر حريق الكعبة، إن أهل الشام المحاصرين هم الذين أحرقوا الكعبة عن قصد وسابق تصميم، وعندما علم الحصين بن نمير بحقيقة وفاة الخليفة يزيد، تفكر بالأمر مليًّا وخلص به التفكير إلى أن يعرض الصلح على ابن الزبير وأن يبايعه بعد أن وجد أنه لامناص ولا جدوى من القتال وإراقة الدماء، بشرط أن يقوم ابن الزبير بالخروج إلى الشام مع الحصين بن نمير وهناك يعلنوه خليفة للمسلمين، لكن هذا الرأى لم يعجب ابن الزبير، فانقطعت المفاوضات نهائيا، حيث ستنتهى الأمور إلى خروج الخلافة من آل سفيان إلى المروانيين، وخسر بذلك ابن الزبير فرصة غالية، لو تمكن من استغلالها لتبدل مجرى التاريخ العربى الإسلامى خلال هذه الفترة. ومهما يكن الأمر فقد بقى يزيد ابن معاوية بن أبى سفيان لفترة طويلة موضع اهتمام المؤرخين والباحثين، الذين أجمعوا على ذمه ولعنه، فهو بنظرهم رجل غير أهل للخلافة، حصل عليها بغير حق بمساعدة أبيه ورغبته الأكيدة، وقد اتهموه بتهم متعددة، كالمجون واللهو والشرب وما إلى ذلك من أعمال غير لائقة بخليفة للمسلمين. فى هذا الجو السياسى العاصف، خلف معاوية بن يزيد (معاوية الثانى) أباه، وإنه خشى الفتنة

الجامحة فآثر اعتزال الخلافة، وترك الأمـر بعده فوضى. لما مات معاوية الثانى كان المطالبون بالخلافة كثيراً: [1]

1 ـ آل على بن أبى طالب، ولكن لم يكن فيهم بعـد مأساة كربلاء من يليق بالخلافة أو يجسر على الإقـدام على المطالبة بها. فقد كان فيهم مـحمد بن الحنفية ابن الإمام على من زوجته خولة، وهى من بنى حنيـفة، لم يكن راغبا فى الخلافة على مايبدو، على الأقل خلال هذه الفترة الـصعبة، وعلى بن الحسين بن على بن أبى طالب وهو زين العابدين، وكان لايزال حدثًا.

2 ـ سائر قريش، وتمثلت بعدة أشخاص هم، خالد بن يزيد أخو معاوية بن يزيد، والوليد بن عتبة بن أبى سفيان ابن عم يزيد بن معاوية، وعثمان بن عتبة بن أبى سفيان، وعمرو بن سعيد بن العاص، ومروان بن الحكم شيخ بنى أمية وكاتب عثمان بن عفان، وكان مروان يعـد فى عصره من دهاة العرب، وعبدالله بن الزبير شيخ الحـجار والثائر على يزيد بن معـاوية، وعبيـد الله بن زياد بن أبيه. لم يكن بين هؤلاء المتنافسين من يعـتمد على حزب قوى وأنصار كثـيرين سوى مروان بن الحكم وعبدالله بن الزبيـر. إلا أن مركز عبدالله بن الزبير كـان أقوى، إذ كان قد نادى بنفســه خليفة بعـد مقتل الإمام الحـسين عليه السلام فبـايعه أهل الحجـاز والكوفة والبصرة ثم لمـا مات معاوية الثانى بايعـت القبائل الحجارية فى الشـام ابن الزبير، لأنهم كانوا ناقمين على يزيد وابنه معاوية اللذين قدما اليمانيين فى مراتب الدولة.

التوابون وعقدة الشعور بالذنب

كان العـراق، وهو المعنى أساسًا بمأسـاة كربلاء، الإقليم الأكثـر تشنجا من أحداثـها، كأسـباب ونتـائج وتفاعـلات، فالكوفـة التى احتلت مـركز الثـقل فى استقطاب المعارضة السياسية، كانت الحركة الشيـعية فيها تجتاز أزمة تقصير وشعور فادح بالإثـم، بعد إجهـاض ثورتها بانقـلاب مضـاد من جانب السلطـة الأموية،

---

1 ـ د. إبراهيم زعرور، ود. على أحمد: تاريخ العصر الأموى السياسى والحضارى ـ ص36.

وانتهاء الإمام الحسين ﷺ مع أصحابه إلى مجزرة دموية، دون أن يتاح لهم دخول المدينة. ثم كانت الحملة القمعية العنيفة التى قادها عبيد الله بن زياد واستهدفت زعماء الحركة وقادتها، بحيث كان شبح كربلاء حاضرا فى كل التصورات السريعة التى شهدتها الكوفة فى ذلك الحين. ومن هذا المنظور، فإن الموقف فرض نوعًا ما من المحاسبة العفوية للذات، وتطلب بإلحاح القيام بأية مبادرة، تخفف أثقال الخطأ وخيانة الالتزام. خصوصًا لدى تيار كان الأكثر حماسة فى الحركة الشيعية لمثل هذا الموقف. غير أن الأجواء السياسية فى الكوفة ـ فى وقت كان التشنج أيضًا، هو المحرك لقرارات السلطة الأموية، بعيد اهتزازها تحت وطأة النتائج التى أسفرت عنها كربلاء ـ لم تكن مشجعة على السير فى اتجاه صدامى جديد مع السلطة. فعلى المستوى الشعبى، حالت إجراءات الملاحقة الدائمة، دون تحقيق التعبئة المطلوبة ودون تشجيع بعض قيادات الحركة الشيعية من جانبها هذا الاتجاه، إذ أن التحرك برأيها مازال فى غير أوانه وأقرب إلى المغامرة منه إلى الثورة. وعلى مستوى السلطة. فقد حاولت أجهزتها فى الكوفة الإمساك بزمام الأمر، دون أن تتورع عن استخدام أكثر الوسائل عنفًا لفرض الهيبة ومنع الانفجار، بعد أن تورطت حتى الذروة فى مجابهة الرموز والمقدسات، تصفية (كربلاء) واستباحة (المدينة) وخرقًا (الكعبة). وهكذا فإن ثمة عوائق كانت تحول دون الثورة الشيعية السريعة، ردًا على سقوط الحسين وأصحابه، من غير أن تكون السلطة الأموية مصدرها فقط، إذ انطلق بعضها من أسباب ذاتية تعود إلى اضطراب الجبهة الشيعية التى تنازعتها حينذاك، اتجاهات ثلاثة:[1]

1 ـ فريق متحمس، كانت معظم عناصره من المخضرمين والمتقدمين فى السن الذين كان هاجسهم «غسل الآثام» فى تلك المرحلة المتأخرة من حياتهم المديدة، وعرفوا نتيجة لذلك بـ «التوابين» الذين نحن فى صدد الحديث عنهم.

2 ـ فريق آخر، يمثل الجيل الثانى من التشيع، كان أكثر واقعية فى خطه

---

1 ـ د. إبراهيم بيضون ـ المرجع السابق ص196.

السياسى المبرمج وتحـركه المدروس لاستلام السلطة، متعدية القضـية لديه الانتقام، محور تحرك التوابين.

3 ـ فريق مـتذبذب، هو الأقرب إلى السلـطة الأموية، إن لم يكن متـعاونًا معها بصورة فعلية. وكان يتخذ مواقفه فى ضوء الاعتبارات المصلحية، مع المحافظة على علاقة مـا بالفريقين السابقين، سـرعان ما خبت تماما فى أعـقاب الفرز الذى تعرضت له الحركة الشيعية فى العهد المروانى. تلك هى أبرز الاتجاهات فى الكوفة بعيد القضاء على ثورتها، دون أن ننسى القوى السياسية الأخرى، المتحالفة عضويًا مع السلطة والمنسقة معها فى مواجهة خطط المعارضة وعرقلة مشاريعها، وذلك من منطلق الحرص على امتيازاتها التقليـدية، غير المتناقضة فى كل الأحوال مع السلطة والاتجاه القبلى الداعم لها. بدأت الفكرة مع الهـاجس الانتقامى لدى التوابين، من أنفسهم ومن المسؤولين عن مقتل سبط رسول الله محمد ﷺ الإمام الحسين فى آن واحد. وقد عاشت أولا بصورة سرية فى ضمـير خمسة من الزعماء المسنين الذين رافقوا نضال الحركة الشيعية منذ بدايات تكوينها، وهم: سليمان بن صرد الخزاعى والمسيب بـن نجبة الفـزارى وعبـدالله بن سعـد بن نفيل الأزدى وعبـدالله بن وال التميـمى ورفاعة بن شداد البجلى. وقـد اجتمع هؤلاء فى منزل كبيـرهم سليمان الذى وصف بأنه «صحـابى جليل»، مما كان له دلالة على بـلوغه من العمـر حدًا متـقدمًا، ساعـده على تصدر هذا الاجتمـاع، ومن ثم على تزعمه للحـركة التى انبثقت عنه. وكان موضوع التوبة والغفـران، هو الذى استأثر بلقاء الخمسة الشديد السرية، اتقاء لشرطة الوالى الأموى المنبثة فى أحياء ومسارب الكوفة. فقرروا أنهم مساهمون فى مأساة الإمام الحسين عليه السلام، وذلك بتقصيرهم عن نصرته وخذلانهم له، وبالتالى فإن ثمة عملا لابد من القـيام به، لتصحيح الأخطاء ومسح الذنوب، وهو ما عبر عنه زعيم الحركـة بقوله: «إنه لايغسل عنهم ذلك الجرم، إلا بقتل من قتـله أو القتل فـيه». وهكذا دأب التـوابون (الاسم الغالب عليـهم والمقتـبس من التوبة) على اجـتماعـاتهم السرية والدعـوة الحذرة فى أوساط الشـيعة طوال عـهد

يزيد، ثم خرجت حركتهم إلى العلن فى أعقاب التطورات التى مرت بها الدولة الأموية من فراغ الحكم فى دمشق، وامتداد الثورة الزبيرية إلى العراق، بعد تمرد البصرة على واليها ابن زياد ولحاق الكوفة بها وطردها نائبه الأموى. وإذ أعلنت الأولى ولاءها لابن الزبير، تحفظت الثانية فى تحديد موقفها النهائى، دون أن تحظى حركته بالعطف الذى لاقته فى البصرة، انطلاقا من تناقضات ما فى الخط السياسى واختلافات فى النهج الثورى بينها وبين الحركة الشيعية. غير أن النفوذ الزبيرى كان أقوى من أن يقاوم، وما لبث الوالى الذى اختارته الكوفة، أن اعترف بالأمر الواقع وأعلن الولاء لخليفة الحجاز، ليصبح المناخ السياسى أكثر ملاءمة أمام حركة التوابين فى ذلك الوقت. فانصرفوا إلى تعبئة الأنصار فى الكوفة وخارجها وإلى جمع السلاح، ومن ثم إلى تحديد موعد التحرك، حيث كانت «النخيلة» ـ المعسكر التقليدى فى الصراع بين العراق والشام ـ المكان الذى وقع الاختيار عليه لاستقطاب المتطوعين فى هذه الحركة. غير أن اختلاف الظروف السياسية، لم يفد التوابين إلا بمقدار ضئيل بعد تعثر الاستجابة الواسعة لدعوتهم التعبوية، كما كانوا يطمحون إليها، فى تركيزهم على نقطة حساسه لدى الشيعة. والواقع أن هذه الحركة، لم تنطو على طرح سياسى أو اجتماعى مقنع، مقتصراً برنامجها على الانتقام، سواء بالسعى وراء الشهادة من أجل الإمام الحسين عليه السلام أو بالثأر من قاتليه. فالمثالية التى كانت طابع الحركة، أبعدتها بصورة خاصة عن قيادات الجيل الثانى من الشيعة، تلك التى لم تستهوها شعارات التوابين المحصورة فى نطاق التضحية والغفران، مؤثرة السير فى اتجاه أكثر جذرية، واجدة ضالتها أو بعضا منها، فى شخصية ذكية برزت على مسرح الأحداث، وحاولت قطف ثمرات التعبئة النفسية والموقف المشحون ضد الأمويين، ومن ثم استغلال الفراغ القيادى فى الكوفة، أعنى بذلك المختار بن أبى عبيد الثقفى الذى ارتبط منذ فجر حياته بالحركة الشيعية وتحمس لها. ولم تكن قناعات المختار ـ الهادف إلى تحقيق دور خاص له تحت مظلة التشيع ـ متجانسة مع أفكار التوابين إلا فى الثأر للحسين. وما عدا ذلك فقد شن عليهم حملة دعائية واسعة، واصفًا حركتهم بالسذاجة، ومتهما زعيمهم بقصر النظر

وعدم الكفاءة لقيادة الثورة الشيعـية، وإذا كان المختار قد اخفق فى أن يكون البديل القيادى لسليـمان، فإنه نجح إلى حد ما فى حملة الـتشكيك التى ساهمت بدورها فى تحجـيم الحركة وتقليص الاستـجابة الشعبـية لها. وما لبث أن تحـول من ناقد مرتاب، إلـى مؤيد مشـجع، لاعتـقاده أن غـياب التوابـين عن المسرح السـياسى سيمنحه الفرصة الأفضل لتحقيق طموحه فى الكوفة[1].

أما الموقف الزبيرى من الحركة التوابية، فكان أقـرب إلى التأييد غير المباشر، فقـد جمعت الطرفـين خصومـة الأمويين واسـتنزاف قوى العدو المشـترك. وكل مـايصب فى خدمـة المصالح الـزبيرية. بيـد أن عبـدالله بن مطيع، والى الكوفـة حينذاك، كـان مخلصًا فى تنبـيه التوابين إلى خطر المغـامرة ودعوتهم إلى البـقاء، لصد الهجوم الأموى الذى يقوده ابن زياد تنفيذاً لأوامر الخليفة الجديد، فى أعقاب السيطرة على الموقف فى دمـشق لمصلحة بنى العاص وشيـخهم مروان بن الحكم، الذى تولى خـلافة الأمويين فى دمـشق، فقـد أمسك بالسلطة هنـاك تؤيده، عدا القبائل اليمنية، طبقـة الأغنياء المسيطرين على الثروات الكبرى والأراضى، إذ كان هو من ممثلى هذه الطبقة. وهو الذى كـان فى عهد الخليفة الراشـدى عثمان، من أسباب السيطرة الأموية على الثروات والعقارات والاستئثار بها، ومن أسباب الثورة على عثمان، لأنه كان كاتبا للخليفة عثمان، ومسيطرا على إرادته، حتى إن بعض المؤرخين يـصفه بأنه كـان الحاكم الفـعلى فى ذلك العهـد. من هنا يتضح امـتداد الطابع السياسى والاجتـماعى لحكم الأمويين كما كان فى عـهد معاوية المؤسس. فقـد ظهر مروان لا منـقذا لهذا الحكم وحـسب، بل جاء لينقـذ كذلك امتـيازات الأغنياء والملاكين وكبـار الأمويين وحلفائهم، الطبقة الغنية المحلية وقـبائل اليمنيين . ولكن مروان لم يعش طـويلا فى الحكم. فقد خنقـته زوجتـه بسبب سوء مـعاملة مروان لابنها خـالد بن يزيد بن معاوية بن أبى سفيـان، كما ذكرنا سابقًـا، فخلفه

1 ـ د. إبراهيم بيضون ـ نفس المرجع ص 200.

على العرش الأموى ولده عبدالملك بن مروان. جاء عبدالملك إلى الحكم فإذا أمامه حركتان قويتان تعزلان سلطته عن الحجاز والعراق وإيران: حركة عبدالله بن الزبير الذى يحكم مكة، وحركة الخوارج. بالإضافة إلى ثورة المختار بن أبى عبيد الثقفى فى العراق، القائم بحركة الثأر لدم الإمام الحسين بن على وملاحقة قاتليه للقضاء عليهم جسديًا. غير أن حركة ابن الزبير كانت أشد خطراً على الخلافة الأموية، فكان على عبدالملك أن يقضى على هذا الخطر قبل كل شيء[1].

وفى الموعد الذى حدده التوابون لخروجهم إلى معسكر «النخيلة» كان عددهم دون الأربعة آلاف مقاتل، وهو الرقم النهائى الذى استقر أو كاد، على الرغم من الشعارات الحماسية والاستعراضات المسلحة فى أسواق الكوفة وأحيائها لجذب الأنصار والمؤيدين. وكانت المحطة الأولى فى مسيرتهم الانتقامية فى كربلاء، حيث كان تجمعهم حول قبر الإمام الحسين عليه السلام فى تلك الصورة المأسوية المفجعة، جزءاً من التحرك الذى حان تنفيذه. فهو بمثابة عهد تكرسوا له بملء إرادتهم وعزمهم، وموقف رهيب تعايشوا فيه مع أجواء التضحية والشهادة، وبعد ليلة من البكاء - كان الغضب والانفعال، قد أخذوا منهم حتى العمق - قرروا السير نحو دمشق، لأنهم وجدوا أنه الطريق الأجدى لتحقيق الانتقام، حيث كبار المتهمين ومعهم النظام، المسؤول الرئيس، بينما سقط الاتجاه الداعى إلى تعقب الأفراد المشاركين فى الجريمة، لأن هؤلاء، فى رأيهم، كانوا فقط الأداة التى نفذت أوامر السلطة المركزية. وفى قرقيسيا، مقر الزعيم زفر بن الحارث الكلابى، كانت محطة التوابين التالية، حيث كان للأخير موقف إيجابى منهم. غير أنهم اكتفوا بالتزود بما يحتاجون إليه من المدينة، رافضين نصيحته بالعدول عن قرارهم الانتحارى، أو الاعتصام معه لمجابهة القائد الأموى الذى يستهدف الزعيم زفر بن الحارث أيضا. ثم مضوا إلى مصيرهم، فالتقوا بالقوات الأموية فى «عين الوردة»،

---

1 - حسين مروة - المرجع السابق ص486.

وخاضوا معها معركة بطولية، أسفـرت عن تدمير قوتهم ومقتل زعمائهم، باستثناء خامـسهم، رفاعـة بن شداد الذى تراجع بالبـقية القليلة منهـم إلى الكوفة. ومن البديهى أن حـركة التوابين، كانت حـاملة معهـا بذرة الفشل، لعجزها عن إقـامة توازن عسكرى ضد أعدائها الأمويين الذين كـانوا مايزالون ممسكين بزمام التفوق. ولكنها كحركة «تكفـيرية» فى الصميم لا تخلو من خلفيات سياسيـة غير مباشرة، نجحت فى تحقيق الحد الممكن من أطروحـتها، وهو الانتقام الذاتى. أما دورها فى إطار حركة النضـال الشيعى، فلم يخل أيضا من تأثيرات إيجـابية، بعد أن تركت وراءها مناخا مثاليًـا للتحرك، وتعبئة جمـاهيرية عريضة، سيسهل اسـتثمارها لأية حركة مـستجدة. فقد سـجلت من هذا المنظور، تحولا خطيراً فى مسـار المعارضة الشيعـية، فى وقت أصبحت فيه الكوفـة مركز الاستقطاب الدائم ومـحور النضال السياسى والمسلح، المناهض للأمويين نحو مايزيد على النصف قرن من الزمن[1].

المختار الثقفى و«الانقلاب» الشيعى فى الكوفة:

نجح المختار فى استثمار المناخ الثورى فى الكوفة، الذى تبلور مع قيام الحركة التوابية. فما كادت فلول التوابين تعـود من عين الوردة، حتى تلقاها المختار واعداً ومشـجعًا، وبالتـالى مقرنا القـول بالفعل، حين قـام بانقلابه السـريع فى الكوفة وسيطر على قصر الإمارة فيها، معلنًا السلطة الشيعية باسم البيت العلوى. والمختار منذ اليفـاعة متحمس لهـذا الاتجاه، حيث نشأ فى كنف عـمه (سعد بن مـسعود) الذى كان عامـلا لعلى على المدائن، ومتعاطفًـا مع خطه السياسى إلى حد كـبير. ومن هذه الأخيرة تنطلق مسيرة الثقفى الشاب والطموح فى الحياة السياسية، وأبرز ملامحها خاصتان متلازمتان وهما: الاتجاه الشيعى والنزعة إلى السلطة، وإن كانت الأولى فى الغالب مـرتهنة للثانيـة. ولعل المؤشر اللافت لهذه الحـقيقـة، كان فى المدائن أيضًا، مع بواكير نشاطه السياسى، حـيث فكر بصفقة كبيرة، وهى القبض

---

1 ـ د. إبراهيم بيضون ـ نفس المرجع ص200.

على الإمام الحسن ﷺ وتسليمه إلى معاوية، ذلك الخاطر الذى أثار غضب عمه وتعنيفه حسب الرواية التاريخية. ومن هنا إلى مؤشر آخر، نجد استهواء السلطة يفوق أى هوى فى شخصية المختار، دون أن يتردد من هذا المنطلق، فى الالتحاق بحركة ابن الزبير فى مكة، فى وقت لم يكن ثمة قاسم مشترك أو حد أدنى منه بين الرجلين. ولكن يبدو أن شهوة السلطة لم تلغ الانتماء الشيعى للمختار، فقد اعتبر دائما أحد زعماء هذا الاتجاه البارزين فى الكوفة. وهو منذ تحرك الإمام الحسين ﷺ، واسمه يتردد فى سجلات الحركة الثورية التى اتخذت مسرحها هذه المدينة، مخترقًا بذلك مألوف الموقع الثقفى الموالى للدولة الأموية. فكان أول من التقاه مسلم بن عقيل من رجالات الكوفة للاطلاع على الموقف السياسى فيها، فضلا عن دوره الهام فى التعبئة الشعبية عشية خروج الإمام الحسين ﷺ، إلى حد الصدام المسلح مع ابن زياد، مما دفع الأخير إلى وضعه فى السجن مع بقية الزعماء ورؤساء القبائل، بعد إحكام سيطرته على المدينة. وبعد الإفراج عنه، عاش وقتًا فى الطائف ـ مركز ثقيف ـ حيث كان إطلاقه على ما يبدو مشروطًا بالابتعاد عن العراق. وفى الحجاز خاض تجربة فاشلة عندما تحالف مع ابن الزبير، حملته على الاقتناع بأن الكوفة هى الأرضية المناسبة لبناء آماله السلطوية. فعاد إليها بعد موت يزيد، ومعه شعار الثأر للحسين، محاولا من خلاله استقطاب جماهير الحركة الشيعية التى أفقدت الشخصية القيادية المحركة بافتقاد الإمام الحسين ﷺ. ولكن المختار يجد من سبقه فى الكوفة إلى طرح هذا الشعار، وهم التوابون الذين نجحوا عبر تنظيمهم السرى، وفى جذب جزء من النخبة الشيعية وتعبئتها ضد السلطة الأموية وممثليها فى العراق. وقد حال ذلك دون إيجاد أى دور له أو قيام تنسيق ما، على الرغم من وحدة الشعار بين الطرفين، إذ كانت الحركة التوابية مبالغة فى مثاليتها السياسية، بينما المختار تجاوز بطموحه الهدف التفكيرى إلى استلام الحكم. والواقع أن الظروف كانت مهيأة لاتخاذ دوره المنشود، فى وقت فقد الحكم المركزى بريقه مع محنة الخلافة الأموية، من الفراغ، إلى التشرذم، إلى التحدى الكبير فى حركة الحجاز، أما السلطة المحلية فى الكوفة، فكان ارتباطها واهيا بابن الزبير،

واقتصر على الموقف الرسمى، لتسويغ الخروج من الإطار الأموى. وفى نفس الوقت لم يأبه المختار لفشله فى استقطاب التوابين، لأن القوة الحقيقية للشيعة كانت ما تزال خارج الناطق الاستقطابى، الظاهرى على الأقل، وتبحث بدورها عن وسائل مجدية للتحرك. هذه القوة نفسها، هى التى راهن على قيادتها المختار، منذ أن تطلع إلى الكوفة كأرضية مثالية لتحقيق طموحه السياسى. ولقد حاور حينذاك أحد أبرز قياداتها، وهو إبراهيم بن الأشتر، الذى كان أشد خصوم الأمويين تطرفًا، ولكن مع رؤية واقعية خاصة، تناقضت مع الفكر التوابى الانفعالى. غير أن الزعيم الكوفى لم يكن شديد الحماسة للمختار، فقد ارتاب منذ البدء فى إخلاصه للبيت العلوى الذى كان إبراهيم ملتزما توجيهاته، واجدا فيه ربما مجداً انتهاريًا يتسلق الموجة وراء مصالحه الشخصية. ولعله كان على جانب من الموضوعية، فى استنكافه عن الاستجابة لحركتى التوابين والمختار، بعد أن وجد فى الأولى تحركا فى غير أوانه، بينما وجد فى الثانية نوعًا من الاستثمار الشخصى لتراث الحركة الشيعية النضالى، دون أن تكون كلتاهما أكثر من استنزاف لطاقات الأخيرة، لن يخدم فى النهاية سوى مصالح الأمويين فضلا عن ابن الزبير[1].

وفى الوقت الذى خرج فيه التوابون إلى قدرهم فى «عين الوردة»، كان المختار الثقفى مرة أخرى وراء قضبان السجن. فقد كان الحليف السابق ابن الزبير، أكثر الناس ارتيابا بهذا الرجل، بعد أن خبره عن كثب، فضلا عن تحذير جماعته الكوفيين من نشاطه المكثف ودعوته الدائبة إلى تكتيل تحت زعامته. ولكن الفرصة تعيد نفسها، ويغادر المختار سجنه بعد تدخل صهره لدى ابن الزبير، بالشروط السابقة نفسها، وهى الابتعاد عن الكوفة. غير أن القرار بقى دون تنفيذ، إذ لم يشأ المختار إضاعة فرصته الأخيرة، بعد القضاء على التوابين وانعكاس ذلك تشنجًا على أجواء الكوفة. ولم يعدم تسويغًا لإخلاله بالعهد الذى التزم بتنفيذه: «ما أحمقهم حين يرون أنى آفى بأيمانهم هذه، أما حلفى لهم بالله فإنه ينبغى لى إذا

1 ـ د. إبراهيم بيضون ـ نفس المرجع ص202.

حلفت على يمين فـرأيت ماهو خير منها، أن أدع مـا حلفت عليه وآتى الذى هو خير وأكفر يمينى، وخروجى عليهم خير من كفى عنهم». وقبل أن يتحول المختار إلى هدف لملاحقة الشرطة الزبيرية بادر فوراً إلى التـحرك، خشية أن لايبقى الوقت حليفه الدائم. وكانت الخطة على جانب كبير من الذكاء، حين فاجأ الناس بإعلان برنامجه السياسى، بالنيابة عن محمد بن على (ابن الحنفية) الذى أصبح بعد موت أخويه الإمـام الحسن والحسين عليـهما السلام، الزعـيم الأبرز فى البيت العلوى، زاعـمًا المخـتار أنه يحـمل وثيقـة بالدعوة له فـى الكوفة. على أنه رغم المداهمـة الناجحة والتأثير السـريع الذى لقيه ذلك فى أوساط الحركة الشيعـية، فقد ظهر من ارتاب فى هذا الزعم ومدى صحـة العلاقة بين المختار والـزعيم العلوى. وكان فى طليعـة المرتابين ابن الأشتر الـذى انتدب وفداً للاتصـال بابن الحنفية، حـيث كان يعـيش تحت المراقبـة فى الحجـاز، شأن بعض الزعـماء الذين لم يطمـئن لهم ابن الزبير. ولكن ابن الحنفية الذى عاش المعاناة فى ظل عهدين، كان ثانيهما (الزبيرى) أشد ضغطًا عليه، لم يجد مايمنعه من تأييد المختار أو التعاطف معه، ولكن بشىء من الحذر. ولعله فى موقفـه غير الحازم كان يخشى فى الوقت نفـسه توتر العلاقة مع ابن الزبير، ومـا يترتب على ذلك من نتـائج سلبيـة، لابد أنها منعكسـة عليه وعلى الحركة الشيعية معًا، أو أنه وجد فى المختار شخصية تتجاوز بطموحها، دور الداعية الانضباطى، الأمر الذى ترك هذه المسألة محاطة بالشك ومنطوية على كثير من الغموض. وسواء جاءت «الأوامر العلوية» مموهة أم واضحة، فإن زعامة الحركة الشيعـية انعقدت للمختـار الذى أصبح فجأة سيد الموقف فى الكوفـة، بعد القرار «الحزبى» بتـأييده والاعتـراف «الخجول» من جـانب ابن الأشتـر به. ولم يعد من الصعوبة، وقد اجتمعت الطاقات الشـيعية تحت قيادة واحدة، السيطرة على الوضع فى الكوفة. ولقـد تم ذلك أو كاد عبـر انقلاب أبيض، فى الوقت الذى كان فـيه صاحب الشرطة الزبـيرى متعقـبًا آثار المختار للقبض عليـه، ولكنه اصطدم بالقائد العسكرى للحركـة (ابن الأشتر)، مما أدى إلى مقتله على يد الأخـير. وكانت هذه الحادثة، مؤشراً للانتقال إلى طور التنفيذ، بعد تقديمه يومين عن الموعد المحدد له.

وبسرعة مذهلة تم الاستيلاء على السلطة فى أعقاب هزيمة القوة التى أرسلها الوالى الزبيرى (عبدالله بن مطيع) بينما غادر الأخير قصره متخفيا ومواريا عن الأنظار. وهكذا نجح «الانقلاب» الشيعى فى الكوفة، بقيادة المختار الثقفى وحليفه القوى ابن الأشتر، وتمت السيطرة على الحكم لأول مرة منذ تنازل الإمام الحسن عليه السلام عن الخلافة، وذلك بالقليل من الوقت والتضحية. ولو شئنا تقويم هذا النجاح الذى استأثر به المختار دون غيره من قيادات الحركة الشيعية فى تلك الفترة، لوجدنا مجموعة من العوامل، تكاملت مع بعضها وهيأت المناخ المناسب لهذا النجاح[1].

1 ـ الأرضية الملائمة، حيث العواطف ثائرة والنفوس مشحونة، فى وقت كانت نخبة الحركة الشيعية تلقى مصيرها الذى اختارت، عبر عملية انتحارية كان لها صداها المأساوى فى الكوفة. ومن ناحية أخرى فإن حركة ابن الزبير لم تأخذ مواقعها السياسية، المدعمة بالحضور العسكرى المكثف فى هذه الأخيرة، بل كانت ماتزال معتمدة وجهة النظر الهادفة إلى تطاحن «الحزبين» الأموى والشيعى، ومايترتب على ذلك من استنزاف لهما، تكون هى المستفيدة الأولى من نتائجه.

2 ـ الشخصية القيادية البارزة التى تمتع بها المختار، فى الوقت الذى غابت فيه عن الكوفة الزعامة السياسية المحورية، القادرة على توحيد اتجاهات الحركة الشيعية واستيعاب التطورات المتلاحقة. ولا نهمل أيضًا المرونة والدهاء لدى المختار، وهما من أبرز صفات السياسى الناجح، فضلا عن إتقان المناورة والاحتفاظ دائما بأوراق غير مكشوفة لاستخدامها فى الوقت المناسب.

3 ـ الطرح الإصلاحى فى فكر المختار، كان المدخل الاستقطابى للفئات الشابة المنتمية إلى الجيل الثانى من الحركة الشيعية التى تستجيب عادة لدعوات التغيير، دون أن ننسى الفئات المسحوقة غير العربية (الموالى) التى وجدت فى حركته المتنفس لتحقيق أهدافها فى المساواة وتحسين أوضاعها الاجتماعية.

1 ـ د. إبراهيم بيضون ـ نفس المرجع ص204.

4 ـ فشل السلطة الزبيرية فى الكوفة فى أن تكون البديل المقبول، فى وقت كانت الغالبية العظمى تنشد التغيير الجذرى على أكثر من صعيد. فهى لم تضف إلى سابقتها الأموية أى تطوير فى الممارسة أو فى النهج العام، بل كادت تكون استمراراً طبيعيًا لها، حتى فى العلاقات المحلية والتحالف مع «الأرستقراطية» القبلية نفسها، وكذلك استخدام بعض من شاركوا فى قتل الإمام الحسين ﵇ وأصحابه فى كربلاء. كانت هذه أبرز العوامل التى أسهمت فى إنجاح «الانقلاب» الشيعى والسيطرة على الحكم فى الكوفة. ولكن المسألة لم تكن فى تحقيق هذا الإنجاز بقدر ما كانت فى المحافظة عليه، فقد تجلت متاعب المختار الجدية بعيد «الانقلاب»، مع الفشل فى تحويله إلى ثورة متكاملة الأطر الشعبية والتنظيمية، دون أن يحالفه النجاح فى معالجة هذه الثغرة أو التقليل من شأنها بعد الوصول إلى الحكم. ذلك أن التلاحم الشيعى وراء المختار كان مرحليا ومصطنعا، بينما المجابهة مع التحديات فى المقابل كانت مقلقة وغامضة، فالاحتفاظ بالسلطة وسط تلك الدائرة الواسعة والمعقدة، كان مصحوبا بأخطار محلية وخارجية محدقة، وكانت «الأرستقراطية» القبلية المتذبذبة (الأشراف) تشق الانسجام الكوفى، كونها تملك القدرة المادية والمعنوية على إثارة المشاكل الخطيرة ضد المختار، والاستعداد الدائم لاتخاذ نفسها معبراً للطرف المتنصر إلى الكوفة. كانت تلك صورة الوضع الداخلى، بينما فى الخارج اقتربت قوات الأمويين من الموصل، بعد القضاء على التوابين فى عين الوردة، دون ثمة ارتياب بأن الكوفة هدفها المباشر لاعتبارات سياسية وجغرافية، فى مرحلة استعادة مركزية السلطة الأموية عبر المدخل الكوفى.
وما بين متاعب الجبهة الداخلية والتهديد الأموى، كان هنالك خطر ثالث، لايقل شراسة يتربص بالمختار، وهو الطرف الزبيرى الذى أمسك حينذاك بزمام النفوذ الرئيسى فى العراق. وفى غمرة هذه المتاعب، كان لابد من تكتيل الجهود لصد الهجوم الأموى الوشيك، وهو ما كانت تشجع عليه الحركة الزبيرية التى تراقب تطاحن الطرفين الشيعى والأموى. فتوجهت فرقة من الكوفة لتأخير تقدمه، بانتظام استكمال العمليات الأمنية فى الأخيرة، بينما الحملة الرئيسية تولاها إبراهيم بن

الأشتر. وما كـاد هذا القائد يغادر الكوفة بالجزء الأكبر من الـقوة العسكرية، حتى كان «الأشراف» يفاجئون المختار بانقلاب مضاد، وضعه فى غاية الحرج والارتباك. ولعل دافعهم كـان مبنيًا ـ كما تشيـر الروايات ـ على الاستياء من متغـيرات حركة المختـار، لاسيما الجـانب الإصلاحى منها وما رافـقه من تضارب مع الامتـيازات التقليدية لهذه الفئة. وكان التوقيـت مناسبًا لتحرك «الأشراف» الذين اعتمدوا على قوتهم الذاتيـة وعلى الدعم الزبيرى، دون أن يكون لدى المخـتار من القـوة، حتى الدفاعية لإنقـاذ نفسه من هذا المأزق. ولكن المناورة التى برع فيهـا، بقيت سلاحه المتفوق، إذ نجح فى استدراج زعماء «الانقلاب» إلى مفاوضات عقيمة، فى الوقت الذى استدعى قائده ابن الأشتر، فى ظل جو بالغ التكتم إلى الكوفة.

ولم يأخذ قمع التمرد «القبلى» غير وقت قصير من المختار، حين نجح قائده ومعـه بقايا التـوابين بقيـادة رفاعة بـن شداد فى إخمـاده والقضـاء عليه من غـير صعوبة. ثم عـاد ابن الأشتر إلى مهمتـه الأساسية، بعد أن اثبت أنه يتمـتع بألمعية قيادية، ستكون أكـثر بروزاً فى معركته الطاحنة ضد الأمـويين التى جرت عند نهر «الخازر»، وأسـفرت عن تدمير قـوتهم ومقتل قـائدهم المعروف عبـيد الله بن زياد وكبار أصحابه. فـبلغ المختار حينذاك قمة مجده السـياسى، فى أعقاب أول هزيمة عسكرية للأمويين ومـقتل أحد أبرز المسؤولين عن مأساة كـربلاء، مما كان له صداه العميق فى قواعد الحـركة الشيعية وقياداتها فى الكوفة والحـجاز. غير أن الوصول إلى القمة لايعنى الاحتفاظ بها، ونشوة الانتصار الباهر لاتسمح بالمتاعب الكبرى، لاسيـما تلك التى كانت تحاصـر المختار وتضـيق الخناق على حركته، إثر انتـصار «الخازر» وما انطوى عليه من نتائج لم تكن بمجملها واضحة، إذا ماتوقعنا عند بقاء إبراهيم بن الأشتر فى الموصل، مـكرسًا بداية الافتراق عن حليفـه الثقفى. والواقع أن ثمة تناقضا بين الرجلين، لم تخـفه النجاحات التى حققتها الحركـة الشيعية فى الكوفة، حيث بقى زعيم الأشتر وأقوى شخصيات الأخيرة على حذره من حليفه، مشكلا ذلك نقطة الضعف الأخطر فى حركته. ولعله وجد فى المختار الذى كانت

له طريقته فـى السلطة، وربما نظرته الخاصة، ما لا يتطابق تماما مع النهج الصارم لابن الأشتـر، فضـلا عن الارتياب بعـلاقتـه المبهـمة بالبـيت العلوى. ومن هذا المنظور، فإن الزعـيم الكوفى الذى ورث الالتزام المطلق بالاتجاه الشيـعى عن أبيه، أحد أبرز المقربين من الإمام علىّ عليه السلام والمقاتلين تحت رايتـه حتى الموت، لم يجد على الأرجح فى المختار، الزعامة المخلصة والمنـضبطة، وبالتالى القادرة على إقامة نواة الدولة الإسلامية، وفقًا للطرح السياسى والاجـتماعى الذى اكتسبه ابن الأشتر بالفطرة والانتماء والمعايشة للحركة الشيعية.

ومن المعتقد أن ابن الأشتر كان له تقويمه الموضوعى، للمجابهة غير المتكافئة التى بدت حينذاك بـين المختار وخـصومه الأقـوياء، مدركًا اسـتحالة المجـازفة مع حليف ضعيف يتوكـأ عليه والمراهنة على سلطة شيعية مـستقلة، وسط هذا المحيط العدائى فى الكوفة. وكانت المبادرة مـاتزال، فى العراق على الأقل، فى قبضة ابن الزبير، مما دفع ابن الأشـتر إلى الالتقـاء مع أخيه مصـعب، حول أكثـر من قاسم مشتـرك، كحليف مرحلى وند كفـؤ فى مواجهة العـدو الأموى. وهكذا، لم يكد المختـار يصحو من نشوة الفـرح التى غمرته والحـركة الشيـعية، بهزيمـة الأمويين ومحاسـبة المتهمين بقتل الإمـام الحسين عليه السلام، حتى وجد حكمه متـهاويا بالسرعة نفسـها التى صعـد بها إلى القمـة. فقد فـوجئ بقوات مصـعب بن الزبير ـ والى البصـرة ـ تشق طريقها إلى الكـوفة، فى ظل ظروف غيـر مواتية عـسكريا، حيث فرغتَ الأخيرة من قـوتها المقاتلة التى كان معظمهـا فى الموصل، دون أن تتحمس للدفاع عنه سوى قلة قليلة من جزئها المتبـقى فى الكوفة. بالإضافة إلى ذلك، فقد اتخذ رؤسـاء القبائل (الأشـراف)، بعد التجاء غـالبيتـهم إلى البصرة فى أعـقاب «انقلابهم» الفـاشل، دوراً تحريضيـا لمصلحة ابن الزبير وقـواته المتفوقـة. وما لبث المختار أن تلقـى أخبار الكارثة التى حلت بقواته فى «حـروراء» وتراجع بقاياها إلى الكوفة، فـخرج من قصر الإمـارة بعد اشتـداد وطأة الحصار عليه، ومـعه قلة من رجاله، ليـخوض معهم مـعركة بطوليـة انتهت بهم جمـيعًا إلى القتل. لقـد كان

«انقلاب» المختار، المحاولة الوحيدة الناجحة التى قامت بها المعارضة الشيعية لاستلام الحكم فى العهد الأموى، وهى بدون ريب، ثمرة نضال طويل فى عهد معاوية، وتضحيات جسيمة فى عهد يزيد، تُوجت بسقوط سبط رسول الله محمد ﷺ الإمام الحسين عليه السلام مع جماعته فى كربلاء، ومن لحقهم من التوابين فى عين الوردة. ومن البديهى أن الفراغ القيادى فى الحركة الشيعية التى كانت ماتزال تستجمع صفوفها الممزقة والملاحقة، قد أعطى المختار فرصته النادرة لقيادة هذه الحركة، مسجلا بذلك سابقة فريدة، ولكن دون أن تتكرر فيما بعد. ولعلها ثغرة أخرى هامة فى حسابات المختار الخاطئة، أن قاعدة الحركة الشيعية وقيادتها، كانتا وحتى إشعار آخر، ترفضان أية زعامة غير علوية. ولقد شكلت هذه المسألة إحدى الثوابت المتلازمة مع التحرك السياسى والثورى، حتى ما بعد سقوط الدولة الأموية، إذ بقيت الزعامة معقودة من دون جدال للبيت العلوى. ولعل هذه النظرية انبثقت عن المفهوم العام للسلطة عند الشيعة، كما تبلور فى وقت لاحق، جاعلا من الإمام ـ الخليفة ـ الظل والمؤهل دائما لاستلام الحكم والجامع فى يديه، بين دوره الدينى وبين مهامه السياسية[1].

التخلص من مصعب بن الزبير: استتب الأمر لمصعب فى العراق بضع سنوات، بعد أن تم له القضاء على المختار. وفى عام 72هـ/ 792م التقى عبدالملك بن مروان مصعب بن الزبير عند مسكن، وهى قرية على نهر دجلة. وكان مع عبدالملك آنذاك الحجاج بن يوسف الثقفى. ووقعت بين مصعب وعبدالملك معارك كثيرة أنهكتهما. ثم دارت الهزيمة على مصعب، وخر مصعب قتيلا وبهذه السرعة المذهلة انتهت حياة مصعب بن الزبير، ودخل عبدالملك الكوفة وحصل على البيعة من أهلها، وبايعته القبائل المتعددة النازلة فيها، وولى عليها أخاه بشر بن مروان، وولى على البصرة خالد بن عبد الله بن أسيد، ثم عاد إلى دمشق ليلتفت إلى أمر عبدالله بن الزبير، الذى كان ما يزال سيد الحجاز.

---

1 ـ د. إبراهيم بيضون ـ نفس المرجع ـ ص209.

فتنة عمرو بن سعيد الأشدق: نصت بعض مقـررات المؤتمر الذى عقد بالجابية، على أن يكون منصب الخلافة لعمرو بن سـعيد الأشدق بعد موت مروان ابن الحكم، لكن ذلك لم يؤخـذ به وتناساه مروان بن الحكم، عنـدما بايع لولديه عبدالملك وعبدالعزيز، الأمر الذى أثار غضب عمرو، بعكس خالد بن يزيد، الذى انصرف إلى شؤونه واهتمـاماته العلمية، ولاسيما فى ميدان عـلم الكيمياء. وكان عمرو من الشخصـيات الأموية البارزة، فقد شغل دورا مهـما فى أمر الصراع على الخلافة بعد وفاة يزيد، ويقال إنه لم يبايع لعبد الملك، فصار سكان الشام فرقتين، واحدة مع عبدالملك، وواحدة مع عمرو بن سعيد، وقد تدخل بعض المتنفذين وتم الاتفاق على أن تكون الخلافة بعد عبدالملك لعمرو بن سعيد لكن على ما يبدو لم يكن عـبدالملك راغـبا فى تنفـيذ هـذا الاتفاق. وبدأت شـرارة الفتنة عند خـروج عبدالملك من دمشق إلى قرقيسيا وفيـها زفر بن الحارث، فتحصن عمرو فى دمشق وأعلن العصيان على عبدالملك فاضطر عبدالملك إلى العودة إلى دمشق، ووقع قتال بين الطرفين انتـهى بعقد صلح بينهمـا. لكن عبدالملك، بقى يكن الحقـد لعمرو، واستطاع أن يجـره إلى قصره، وذبحـه ولفه فى بساط، وحـاول أصحابه مـقاتلة عبدالملك، لكن عبد الملك أغراهم بالمال فتركوا الأمور تجرى على هوى عبدالملك، وكان هذا الحادث عام 70هـ/ 960م[1].

نهاية عبدالله بن الزبير:

كان عبـدالله بن الزبير من المعارضيـن الكبار، الذين أقضوا مضـجع البيت الأموى وأقلقوا عبد الملك بن مروان منذ اللحظة الأولى لاستلامه منصب الخلافة. وقد سـاعد القضـاء على أخيه مـصعب بن الزبير عـبدالملك من البدء فى عـملية التخلص من عبدالـله بن الزبير، الذى انحصر نفوذه فى عهـد عبدالملك بن مروان فى منطقة الحجاز. عهد عـبد الملك بن مروان إلى الحجاج بن يوسف والى الكوفة بمحاربة عبد الله بن الزبيـر، وأمره بالمسير إلى الحجاز، فسـار الحجاج حتى وصل

1 ـ د. إبراهيم زعرور ـ المرجع السابق ص52.

إلى مـدينة الطائف فأقـام بهـا مدة، ثم زحف إلى مـكة المكرمة فى مـوسم الحج ونصب المجانيق على جبل أبى قبيس، فتـحصن ابن الزبير بالمسجد، كان ذلك فى عام 72هـ/ 692م. فطال الحصـار على مكة وتخلى عن ابن الزبير عدد كبـير من أتباعه وجـنده، حتى إن ولديه حبيـبًا وحمزة تركـاه والتحقا بالحـجاج. ويبدو أن عبـدالله بن الزبير، رغم مـواقع القوة التى يسـتند إليهـا من كسـبه معـظم القوى المعارضـة للأمويين، لم يكن من الحنكة السـياسيـة وبعد النظر بحـيث يستطيع أن يستفيد من هذه المواقع، أو يحتفظ بها. فقد كان يرتكب حماقات مثيرة للمؤمنين، كتلك الحماقة التى ارتكبها يزيد بن معاوية بضربه الكعبة بالمنجنيق من قبل، فهو ـ أى ابن الزبير ـ كان يحكم بالتـسلط والبطش من جهة، ويعلن إلحاده واستـخفافه بالدين وهو جالس فى الكعـبة، من جهة ثانية. من هنا لم يـستطع أن يقف بوجه الجيش الأموى الذى أرسله عبدالملك بن مروان إلى مكة لاخضاعه. فقد تفرق عنه أنصاره لسوء تصـرفه، وجاءه الجيش الأموى وهو على هذا الضـعف، فحاول أن يختبئ فى الكعبة، ولكن أمه أسماء بنت أبى بكر شجعته على قتال الأمويين وجها لوجه، فخرج لقتالهم فى شوارع مكة، لكن سرعان مـا لقى حتفه قتيلا، وانتصر جيش عبدالملك[1].

فى جمادى الثـانية من عام 73هـ/ سبتـمبر 692م، قتل عبد الله بن الزبير وله من العمر ثلاث وسبعـون سنة وفى أثناء الحصار على مكة، أرسل الحجاج بن يوسف جماعة من جنده سيطروا على مـقاليد الحكم بالمدينة المنورة وأخرجوها من تحت سيطرة ابن الزبير. وتؤكد معظم الروايات على أن الحجاج قام بضرب المسجد الحرام بمكـة بالمجانيق، ولولا ذلك لما كـان عبـدالله بن الزبير قـد خرج لمواجـهة الحجاج وإلقاء ورقته الأخيرة، هذا بالإضافة إلى أن مؤن وذخائر جنده قد شارفت على الانتهاء، وهى الخطة التى كـان قد رسمها الحجاج وأراد أن تثـمر بهزيمة ابن

1 ـ حسين مروة ـ المرجع السابق ص486.

الزبير. وقد قاتل ابن الزبير قتالا بطوليا شـديدا حتى قتل عامة مؤيديه، فأحدق به جند الحجاج من كل جانب فضربوه بسيـوفهم حتى قتل، وأمر به الحجاج فصلب بمكة، أما عـروة بن الزبير فقد فـر من الحجاج إلى الشـام، واستجار بعـبد الملك فأجاره.

أمر العصبية القبلية:

حارب الإسلام العصبية والطائفية والعنصـرية فقد كانت العصبية تحكم حياة المجتمع العربى فى الجـاهلية. فبقدر عراقة النسب كان يتـحدد الوضع الاجتماعى للفرد، وكان ظهور الإسلام يمثل ثورة اجتمـاعية كبرى إلى جانب كونه ثورة دينية عقائدية، فقد أطاحت مبادئه فى المساواة بقـيم المجتمع الجاهلى التقليدية ومن بينها التعصب للقبيلة أو العنصر، وحرر الفرد من قيود التبعية العمياء للقبيلة، كما حرر العبيد من وصاية أسـيادهم. وتبرز مبادئ الإسلام قيمـة الفرد بالقياس لدوره البناء فى خدمة الجماعة، وتقيم أسـاسًا جديدًا للمفاضلة بين المسلم والمسلم على أساس «التقـوى» لا على أساس العرق والنسب والعنصر كـما كان سائدًا من قـبل. وقد حارب رسـول الله ﷺ نزعات الجـاهلية التى كـانت تظهر بين الحـين والآخر فى سلوك بعض الذين لم يتأهل الإسلام فى قلوبهم ممن أسلمـوا بعد فتح مكة ومات رسول الله ﷺ وهو مطمـئن إلى نجاحه فى كـبح جماح تلك النزعـات العصبـية والطائفيـة وقال فى خطبـة الوداع. .«أيها الناس إن الله تعالى أذهـب عنكم نخوة الجاهلية وفـخرها بالآباء» لكن تلك النخوة عادت للظهـور على أثر وفاته ممثلة فى حركة الردة فقمـعها أبو بكر دون هوادة، وخلفه عمر فاستأسد فى اسـتئصالها فلم نسمع طوال حكمه على أثر لها ولم تبرز إلا فى خلافة عثمان وفى العصر الأموى استـفحل خطرها خاصة وأن بـنى أمية عملوا على إذكـاء النعرات القبليـة وأعانوا بعض القبائل العـربية على بعضها الآخر لإحداث نوع من التـوازن السياسى يكفل لحكمهم البقاء والاستمرار فى الوقت الذى كان عمر استئصل شأفة النزعات القبلية والعنصرية[1].

---

1 ـ محمود إسماعيل ـ قضايا فى التاريخ الإسلامى ـ ص26.

قال الطبرى إن عمر كبح جماح أسرته وبنى جلدته «بنى عدى» حين راموا وضعا متفوقًا يجعلهم حيث جعل الله خليفة للمسلمين لكنه وبخهم وأنزلهم منزلتهم فى ديوان العطاء وفقا للمعيار الذى استنه فى هذا الصدد وهو المفاضلة على أساس القرابة من رسول الله ﷺ ثم السابقة فى الإسلام وحسن الأثر فى الدين وقال الطبرى أن عمر زجر أسرته بقوله: «بخ بخ يا بنى عدى أردتم الأكل على ظهرى وان أهب حسناتى لكم، لا والله حتى تأتيكم الدعوة وإن أطبق عليكم الدفتر وأن تكتبوا آخر الناس»، ولقد ضرب عمر المثل بموقفه من قومه بل بنفسه أيضا عندما قال: «ما أحد أحق بالمال إلا عبد مملوك وما أنا فيه إلا كأحدهم»، ولم تكن للعصبية أدنى أثر فى المفاضلة بين المسلمين على أساس التقوى حيث قال: «لا نجعل من ترك دياره وأمواله مهاجراً إلى النبى ﷺ كمن دخل الإسلام كرها». ونستخلص من هذا المبدأ أيضا وقوفه فى وجه الذين أسلموا بعد الفتح من الأرستقراطية القرشية وخاصة بنى أمية وفرع أسرة أبى سفيان ومروان الذين أسلموا بعد الفتح يمثلون الأرستقراطية القرشية. ذكر الطبرى فى هذا الصدد أن عمر «فرض للمسلمين الفروض ودون واعطى العطايا على السابقة، فأعطى صفوان بن أمية والحارث بن هشام وسهيل بن عمرو وأهل الفتح أقل مما أخذه منه قبلهم فامتنعوا من أخذه وقال: لا نعترف أن يكون أحد أكرم منا، والقائل: إنى إنما اعطيتكم على السابقة فى الإسلام لا على إلا حساب»[1].

بمقتل عبدالله بن الزبير انتهى عبدالملك بن مروان من أكبر متاعبه السياسية، فشعر بالاستقرار بعد قلق طويل إلى حد كبير، ساعده على ذلك وجود الحجاج ابن يوسف الثقفى فى مقاطعة العراق، التى كانت إلى جانب الحجاز مصدر تعب للأمويين. بقى عليه بعد ذلك أن يعمل على تجميع القبائل التى طالما عاشت متفرقة بفعل أخذها بسياسة العصبية القبلية البغيضة. فقد شعرت الحجازية بخيبة أمل مريرة بعد خسارتها لنفوذها العام بعد معركة مرج راهط، وراحت تضمر

1 ـ محمود إسماعيل ـ نفس المرجع ص27.

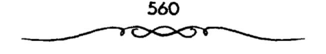
الحقد والضعينة والبغضاء لليمانية، وتعمل فى الخفاء وبشتى الوسائل للانتقام. وقد وقف الحكام الأمويون من هذا الأمر مواقف متباينة، فبعضهم تمكن من التغلب على هذا الوضع الصعب، وبعضهم لم يتمكن من فعل شيء يذكر. مثال ذلك أن معاوية بن أبى سفيان تمكن من كبح جماح العصبية القبلية، فأقام توازنًا ناجحًا بين القبائل، أما فى فترة ابنه يزيد ومروان بن الحكم، فإن الأمور عادت إلى أسوأ ما كانت فى الجاهلية، وبذلك يمكن القول، إن الإسلام على الرغم من تأكيده على احتقار العصبية القبلية، فإنه لم يتمكن من الدخول فى نفوس الناس على الأساس الذى تنتفى معه العصبية القبلية وتختفى من الحياة العامة، كما أرادها رسول الله محمد ﷺ. وقد انتبه عبدالملك بن مروان بنظرة ثاقبة إلى خطورة بقاء العصبية القبلية راسخة فى النفوس، فسلك مسلكًا وسطًا ومعتدلا، فترك التعصب لليمنية وقرب الحجازية بقدر ما كان يقرب اليمنية، الأمر الذى أدى إلى التخفيف من قوة زخم السيطرة اليمنية وقد عبر عن ذلك الأمر أحد الشعراء بقوله:

فلولا أمير المؤمنين لأصبحت قضاعة أربابًا وقيس عبيدها

وحصد عبدالملك من هذا التصرف الحكيم، أن الحجازية عزفت عن سياسة المعارضة له وسارت تحت لوائه على أتم وجه، وبالمقابل فقد أحسن إليها وقرب زعماءها، وأسند لهم المناصب كما هو حال الزعماء من اليمانية، مثال ذلك أن زفر ابن الحارث الكلابى وأولاده أصبحوا من ألمع رجالات بلاط عبدالملك بدمشق. وقد أدت هذه السياسة على المدى البعيد، أنها جعلت الشاميين يشعرون بضرورة اتفاقهم، لأن فى ذلك مصلحة لهم فى جميع الميادين وبالتالى فقد أدى ذلك إلى جعل مايجرى فى الأقاليم الأخرى من معارضة ومخالفة صغيراً لا قيمة له، طالما أن حاضرة الخلافة قوية راسخة البناء[1].

تمرد عبدالرحمن بن الأشعث: كان للظروف العسكرية التى حدثت فى جبهة المشرق أثرها البالغ فى ظهور عبدالرحمن بن الأشعث على الساحة

1 ـ د. إبراهيم زعرور ـ نفس المرج ـ ص54.



السياسية، وقيامه بحركة تمرد ضد السلطة الأموية، التي مثلها يومذاك عبدالملك بن مروان. ففي مدينة كابل في أفغانستان الحالية، قامت حركة مناوئة للعرب هناك بقيادة رجل اسمه (رتبيل) ولم يتمكن والي سجستان آنذاك عبيد الله بن بكرة من القضاء على هذه الحركة، التي هددت وجود العرب في تلك المنطقة، وتشاء الظروف أن عبدالرحمن بن الأشعث، الذي كان معدوداً من أشراف مدينة الكوفة، كان موجوداً بالقرب من سجستان، فقام الحجاج بتكليفه بهذه الولاية، وفي الوقت نفسه أمده بجيش قوي بالعدة والعدد، وذلك ليتمكن من إعادة الأمور إلى كابل والتخلص من زعيم التمرد فيها، وقد ظهرت عبقرية عبدالرحمن منذ اللحظات الأولى لتسلمه ولاية سجستان، وتكليفه بحرب (رتبيل) ذلك لأنه ابتعد عن الأسلوب القتالي القديم، الذي يعتمد على الهجوم السريع المباغت، والذي لايضع الاستقرار بعد النصر في الحسبان، وأراد أن يكون فتحه للمنطقة بالتدريج، ينتقل من موقع إلى موقع آخر بعد أن يرتب أمور الموقع الأول وهكذا حتى سيطر على منطقة واسعة الأرجاء، وأخبر الحجاج بكل الذي فعله، لكن هذا لم يعجب الحجاج، وأمره بالإسراع في إنجاز مهمته وإلا فإنه سيرسل له أمر العزل. وهذا إن دل على شيء، فإنه يدل بغير شك على عدم بعد نظر الحجاج في هذا الأمر على الأقل، فهو بعيد عن مجريات الأحداث ولا يعرف طبيعة المنطقة وسكانها. وقد أثار طلب الحجاج هذا غضب عبدالرحمن بن الأشعث، فبادر إلى إطلاع رجاله بالذي حدث بينه وبين الحجاج، ووافقوه على القيام ضد الحجاج الذي أظهر حماقة ظاهرة، وبايعوه أميراً عليهم وكلموه بالتوجه إلى العراق لخلع الحجاج. بعد ذلك بدأ عبدالرحمن بن الأشعث بترتيب أموره في سجستان فصالح رتبيل وعين عمالا يمثلونه في مناطق وجوده. وفي عام 81هـ/701م غادر المنطقة باتجاه العراق، بعد أن تجمع معه جيش قوي، عاهده جميع رجاله على خلع الحجاج وعبدالملك بن مروان. في هذا الوقت بالذات، كان المهلب بن أبي صفرة موجوداً في خراسان كعامل عليها. فلما علم بخبر خروج ابن الأشعث، بادر إلى إخبار الحجاج وأشار عليه ألا يتعرض لرجال ابن الأشعث حتى يصلوا إلى ديارهم لأن

معظمــهم كانوا من أهل العــراق، الأمر الذى يجــعلهم يلجأون إلى أهلــهم بمجرد وصولهم إلى العراق[1].

رفض الحجاج نصيحة المهلب، وجرد جيـشًا بقيادته لقتال ابن الأشعث وقد تلاقى الطرفـان على نهر الدجـيل فى الأهواز، ووقع بينهمـا قتال صـعب، تمكن بنتيجتـه ابن الأشعث من هزيمة الحجاج وجيشه، الذى لم يقـبل بنصيحة المهلب، وبرهن على حماقة أخرى اقترفها دون تفكير أو ترو، فدخل أصحاب ابن الأشعث إلى البصرة، لكنه لم يتمكن من المحافظة على تفوقـه، فانسحب إلى الكوفة معقل أنصاره، الأمر الذى أفسح المجال للحجاج من دخـول البصرة، وأصدر عفواً عامًا عن أهلها. ثم تركهـا بعد أن رتب أمورها باتجاه مديـنة الكوفة، ونزل إلى الغرب منها. فقـام ابن الأشعث بالمجىء إلى دير الجماجم فـور سماعه بقـدوم الحجاج. وطال القتال بين الـطرفين، على الرغم من تركيز عبـد الملك بن مروان على ذلك بإرساله أخيه محمد بن مروان وولده عبدالله للاشتراك فى القتال، وتعثرت الأمور إلى درجة قام عبد الملك بالسمـاح لقادته أن يعرضوا بعض الحلول، التى كان منها عـزل الحـجاج عن العـراق، وتكليـف ابن الأشعث بـحكم أية مـدينة يريدها فى العراق. لكن الحجاج انزعج من ذلك وكتب لعـبد الملك بن مروان، وحرضه ضد العراقيـين، وأنهم لو استلموا حكم العراق، فلن يكونوا مـواطنين صالحين. لكن عبـد الملك لم يلتفت إلى كلام الحـجاج، الذى كان يشـعر على ما يبـدو أن أحد الأسباب لثورة العراقيين، يتجسد بوجود الحجاج حاكمًا عليهم، لكن حظ الحجاج كان أحـسن من حظ العراقـيين، الذين رفـضوا مـا عرضه عـليهم عبـد الملك بن مروان، على الرغم مـن موافقـة زعيمـهم ابن الأشعث على ذلك، فـأصروا على إصرارهم والتـمسك برأيهم، وقـاموا وخلعـوا الخليفـة والحجـاج فى وقت واحد ودخلوا فى حرب مع أنصـار الخليفـة دام قرابة مئـة يوم، أحرز فى نهايتـه أنصار الخليفة نصراً مؤزراً أنقذ السلطة الأموية فى ولاية العراق، وفر المنهزمون من أنصار

1 ـ د. إبراهيم زعرور ـ نفس المرجع ـ ص58.

ابن الأشعث إلى البصرة من جديد، وغادرها بعد إقامة قصيرة إلى بلدة مسكن على الدجيل، فتبعهم الحجاج وهزمهم بعد قتال شديد، فلجأ ابن الأشعث بعد هذه الهزيمة القاسية إلى المشرق فتبعه أنصار الحجاج بقيادة عمارة بن تميم إلى سجستان وكرمان، وهناك اعتقل ابن الأشعث، اعتقله بعض قادة المنطقة، وكان بوده إرساله إلى الحجاج ليقتله، لكن رتبيل تدخل فى المسألة، وتمكن من افتكاك ابن الأشعث من معتقله، وأخذه إلى كابل وظل ابن الأشعث فى حماية ورعاية رتبيل فى كابل، حتى اقتنع بتسليمه إلى الحجاج بعد مراسلات واتصالات طويلة جرت بين رتبيل والحجاج، وعندما سلم إلى الحجاج صعد إلى القصر وألقى بنفسه من على جداره فمات عام 85هـ/ 704م وهكذا تخلص الأمويون بأعجوبة من حركة تمرد، كانت ستغير المنطقة فيما لو تمكن العراقيون من استغلالها، لكنهم خسروا كل شىء بفعل موقفهم، الذى لم يعتمد العقل فى تسييره، فتعزز موقف الحجاج من جديد، وستزيد سطوته عليهم[1].

ثورة العبيد: هذه المرة يواجه العرش الأموى فى شخص عبدالملك نفسه انتفاضة طبقية من نوع جديد. فهى - أولا - تنبع من الداخل، أى فى المعقل الحصين الأمين للأمويين، فى الشام ذاتها. وهى - ثانيا - تنبع من أعماق المجتمع، أى من إحدى فئات الناس البسطاء المظلومين المضطهدين. وهى فئة العبيد. فقد ثار العبيد هؤلاء فى دمشق، فقصدوا إلى السجون وأخرجوا كل من فيها من السجناء، ثم ذهب العبيد والسجناء المحررون إلى حيث اعتصموا خارج دمشق فى الجبل المطل عليها. لكن هذه الثورة، كشأن ثورات العبيد كلها فى العصور السابقة. لم يكن لها أن تظفر بشىء من النجاح، لأن الثائرين لا يملكون السلاح حتى للدفاع عن أنفسهم. ولأنهم لا يملكون كذلك المساندة من القوى الاجتماعية الأخرى المضطهدة أيضا من فقراء الفلاحين وغيرهم من المستثمرين. وكان لايزال

---

1 - د. إبراهيم زعرور - نفس المرجع - ص59.

للرق مكان من النظام الاجتماعى، وان كان الإسلام جاء بتشريعات تفرض على مالك العبيد فى بعض الحالات تحرير بعضهم تكفيراً عن بعض الخطايا: من أفطر عمدا فى شهر رمضان فكفارته إما صوم شهرين متتابعين أو عتق عبد يملكه أو إطعام ستين مسكينا. وكذلك يجب العتق فى كفارة اليمين الكاذبة، وفى التكفير عن القتل الخطأ. أخفقت ثورة العبيد هذه فى دمشق إذن، وقضى عليها جيش عبد الملك. لكن قائد هذا الجيش نهى جنوده عن قتل العبيد الثائرين احتراما لملكية «اسيادهم»[1].

ثورة الترك: اشتهر عبدالملك بن مروان والوليد بن عبدالملك بإصلاحات تنظيمية حضارية متميزة فى تاريخ الدولة الأموية. منها صك النقود العربية (وذلك أول عمل من نوعه)، وتعريب سجلات الدولة لأول مرة، ومحاولة فصل سلطان «الدواوين» بعضها عن بعض لضبط أعمال كل منها، وتوسيع الفتوحات فى أقسام واسعة من آسيا وأفريقية، بل فى أوروبا كذلك. وإذا كانت هذه الفتوحات قد وسعت رقعة الدولة العربية وجعلت سلطان العرب والإسلام يشمل بلدانا وشعوبا عدة كان لدخولها فى تاريخ العرب السياسى أثر ملموس فى تنويع الثقافة العربية وإخصابها، فإنها - أى هذه الفتوحات - قد تركت آثارا سلبية فى السياسية الاقتصادية والإدارية والاجتماعية، لأنها - أولا - أدت إلى إضعاف مركزية الدولة، إذ اقتضت سياسة التوسع بالفتوح أن يصبح حاكم كل ولاية وكأنه صاحب سلطة مستقلة أو دولة ضمن الدولة حتى لم يكن يدفع لسلطة الخلافة المركزية سوى جزء من واردات الضرائب ويستبقى لديه سائر أجزائها، ولم يكن ما يقدمه لهذه السلطة من غنائم الفتح فى المعارك سوى الخمس ويستولى هو على أربعة أخماسها يتصرف بها كما يشاء. وأما - ثانيا - فقد أدى هذا التوسع بالفتوحات إلى المزيد من الإنفاق على الجيوش وحماية الأراضى المفتوحة وتنظيم الشؤون العامة. ومن طبيعة الدولة التى حكمها ممثلو الطبقة الغنية المستثمرة للأكثرية أن تلقى بمعظم تكاليفها على

1 - حسين مروة - المرجع السابق ص486.

اكتاف هذه الاكثرية. وذلك ما حدث بالفعل فى سياسة الدولة الأموية من ذلك العهد، فصاعدا حتى انهيار هذه الدولة تحت وطأة الانتفاضات الاجتماعية، فضلا عن وطأة الصراعات السياسية المتداخلة مع تلك. ومن هذه الانتفاضات، كنموذج، ما حدث فى بلاد الترك بآسيا الوسطى عام 73هـ الموافق 692م. فقد حفلت مؤلفات المؤرخين العرب بأخبار الأحداث الجارية هناك فى العام نفسه والأعوام التالية له. ويبدو واضحا من أخبار المؤرخين هذه أن السياسة المالية التى اتبعها حكام بنى أمية كانت العامل الأهم فى حدوث الاستياء الذى تراكم وتفاقم حتى تحول إلى انتفاضات مسلحة كادت تقضى على سلطة الأمويين فى بلاد الترك. فإن كثيراً من السكان هناك دخلوا فى الإسلام، ولكن سياسة الحكم الأموى لم ترفع عنهم الجزية رغم إسلامهم، بل أضافت إليها ضرائب جديدة، وقد استغل ملوك الترك، وعلى رأسهم «الخاقان الأعظم» استياء البسطاء لاستعادة سلطانهم فحاربوا الدولة حروبًا طويلة مرهقة، وقد وقف بعض العرب هناك من دعاة المذهب المعروف بـ «المرجئة» إلى جانب السكان المستائين يؤيدون حقهم على السلطة الأموية أن تخفف عنهم أعباء الضرائب وقسوة الجباية[1].

حرب العصبيات فى إسبانيا: أما الموضوع الثانى الذى سنعنى بدراسته فى عصر الولاة فهو حرب العصبيات فى البلاد: النزاع بين القبائل العربية نفسها، وبين عرب الجنوب وعرب الشمال ثم النزاع بين العرب والبربر. وقد نسأل: لماذا اشتد اهتمامنا بحرب العصبيات هذه فى إسبانيا؟ الحقيقة أن اهتمامنا بهذا الموضوع، يرجع إلى الأثر الذى تركه هذا النزاع فى تاريخ البلاد، فقد طبع الحياة الإسلامية فى إسبانيا بطابع فريد ظل يميزها طوال العصور الإسلامية وترك أثرا فى الحياة الثقافية، وفى معركة الإسلام من أجل الانتصار خارج حدود البلاد. وسنبدأ الحديث عن انقسام العصبية العربية على نفسها وقيام النزاع بين عرب اليمن وعرب الحجاز. الحقيقة أن العصر الأموى هو عصر العصبية العربية فى أوضح صورها

---

1 ـ حسين مروة ـ نفس المرجع ص487.

حتى ليقال إن الحكم الأموى كان إحياء للقرشية الجاهلية القديمة من تكوين الأحلاف القبلية وصراع الأحلاف بعضها ببعض إبقاء لنفوذهم. ونحن لاننكر أن العصبية كانت أقوى من أن يقضى عليها فى وقت قصير، وأن العرب إذا كانوا قدسوا القبيلة فى بلاد العرب فإنهم كانوا أحوج إليها فى غربتهم إبقاء على عنصرهم ودمائهم، غير أن الأمويين كان فى إمكانهم أن يعالجوا هذه الحالة، وأن يتموا ما بدأه الراشدون، ولكنهم استفادوا من العصبية وعملوا على النفخ فى نارها حتى لايجتمع العرب على كرههم. واندلعت نار هذه الحرب الضروس وما صحبها من صراع على السلطان فى بلاد الشام قلب النفوذ الأموى، ولكن الخصام ما لبث أن امتد إلى جميع البلاد الإسلامية فى وقت واحد رأيناه فى خراسان والعراق وفى الشام ومصر وفى بلاد المغرب. وانتقل النزاع إلى إسبانيا بعد الفتح مباشرة وعلى إثر هجرة قبائل عربية كثيرة، إما من بلاد العرب رأسا أو من بلاد المغرب، وكان المهاجرون ينضمون إلى من يجدونه من أبناء العشيرة فتتجمع كور القبائل وتتكون الجماعات الحجازية، ولم تكن العصبية كلها بسبب النزاع القبلى، ولاننكر أن المهاجرة إلى إسبانيا كانت قلوبهم تفيض بالحقد والمرارة حينما تستعيد ذكريات الصراع الدموى فى بلاد الشام، ولكننا نعتقد أن الذى كان يثير هذه الأحقاد القديمة التنازع على الغنائم والسلطات والمصالح الجديدة التى تكتشف أمام العرب فى البلاد، فقد كانت المغانم كلها فى أول الأمر لليمانية لأنه يبدو أنهم كانوا أقدم القبائل هجرة كما حدث بالضبط فى مصر. ولكن كثرة أعداد المهاجرة من الحجازية الشاميين لم يرضوا بهذا الوضع واشتبك الجانبان فى صراع حياة أو موت شغل شطراً كبيراً من عصر الولاة، وقد اشتبك الطرفان فى معركتين حاسمتين فى تاريخ هذه الفترة من تاريخ إسبانيا الإسلامية.

موقعة اقوة برطورة: وقد كان عرب اليمانية بزعامة عبدالرحمن بن علقمة اللخمى وقطن بن عبدالملك ومن معهما من العرب من إقليم أربونة، وقد ساروا بجمعهم نحو قرطبة للقاء الحجازية الشاميين بزعامة بلج بن بشر، ثارت العصبية

فى إسبانيا كلها وتسارع اليمنيون للانضمام إلى عبدالرحمن، وجمع بلج من استطاع جمعه من الحجازية ومن انضم إليهم من الموالى وأهل البلاد وكانت جموع اليمانية أكبر، فيقال إن عددهم بلغ أربعين ألفا وقيل مائة ألف. ولم يزد عدد الحجازية عن 12 ألفا والتقت هذه المجموع المتخاصمة فى معركة دموية لم تشهد البلاد مثلها واستمر القتال أياما، وانتهز الشاميون فرصة سنحت لهم فانزلوا باليمانية هزيمة عظمى وكانت الهزيمة ساحقة بحيث أخضعت اليمانية وأقصتهم عن ميدان السياسة والقيادة.

موقعة شقندة: ولبس الصراع لبوسًا آخر فقد اتفق اليمانية عام 100 هـ ـ 747م على محاربة الصميل بن خاتم ومن معه من الحجازية وقد عجل الصميل باستنفار الحجازية كافة فساروا إليه واستنفر اليمانية جموعهم[1].

زحف اليمانيون إلى قرطبة حتى نزلوا على نهر قرطبة بقرب شقنده، وعبر الحجازية النهر للقائهم وبدأ التناحر. كان صراعا لا يدانيه صراع صفين بين الإمام علىّ عليه السلام ومعاوية ومن الغريب أن عامة أهل قرطبة أيدوا الحجازية فى هذه الحرب وانحازوا إليهم فرجحوا كفتهم وهزم اليمانيون اليوم كما هزموا من قبل، وروى على لسان أحد زعماء اليمانية قوله: لو أن دماء أهل الشام جمعت لى فى قدح لشربتها. كان هذان هما الصراعان الكبيران اللذان خاضتهما اليمانية والحجازية. وقد حفل تاريخ الفترة بصورة أخرى من النزاع ليست بهذه الشدة أو بهذا العنف. وكانت هذه الهزائم عظيمة الأثر فى تاريخ إسبانيا الإسلامية، فقد انصرف اليمانيون إلى الأعمال المدنية كالزراعة والتجارة وبرعوا فيها وأصبحوا من أغنى أهل إسبانيا وأوفرهم مالا، وتفرقوا فى ريف البلاد واشتغلوا بالزراعة واختلطوا بالسكان وعملوا على نشر الإسلام واللغة العربية حتى كانت لهجة أهل إسبانيا لهجة يمانية وكان أغلب أهل المدن يرجعون إلى أصول يمانية وقد ظهر أثرهم فى ميدان العلم وأصبحوا أساتذة إسبانيا الإسلامية فى الفقه وشئون الدين. كانوا فى

---

1 ـ د. حسن احمد محمود ـ المرجع السابق ص67.

الحقيقة طليعة الحركة العلمية فى البلاد، وكونوا خلال هذه الفترة الحافلة بالعواصف حزبا معارضًا ظل ينتظر فرصة مواتية للعودة إلى الحكم، فلما أطل عبدالرحمن بن معاوية ظنوا أن الفرصة مواتية فأيدوه. ولم يكن هذا الصراع بين العرب أنفسهم فحسب بل سرعان ما تصارع البربر والعرب، هؤلاء البربر الذين فتحوا البلاد بسواعدهم وسيوفهم ودماء شهدائهم والذين وفدت جموعهم على البلاد بكثرة بعد الفتح نظرا لقربها من موطنهم الأصلى، ومن الغريب أن العرب والبربر الذين اشتركوا معا فى القتال تحت راية الجهاد فرقتهم الأطماع وتصدعت لفرقتهم جبهة الإسلام القوية. ويطيب لنا أن نستقصى الأسباب التى جعلت الفريقين يقفان وجها لوجه فى صراع دموى عنيف. ويفسر بعض المؤرخين هذا الخلاف بأن العرب اختصوا أنفسهم بخير بقاع إسبانيا، ولم يتركوا للبربر إلا النواحى القاحلة فى الشمال والشمال الغربى. وليس هذا التفسير صحيحًا إلى حد كبير، فقد كانت جماعات بربرية كثيرة قد استقرت فى أخصب نواحى إسبانيا فى الجنوب والشرق والغرب، بل كادت ناحية الجزيرة الخضراء أن تكون مقصورة عليهم لكثرة من نزلها من عشائرهم.

هذا، ولم يكن العرب من الكثرة بحيث يستطيعون الانفراد بكل سهول بلد عظيم واسع كإسبانيا، ثم إن الكثيرين منهم كانوا أهل جهاد مقيمين فى إسبانيا وأطرافها ولم تكن بقية العرب من الكثرة بحيث تستطيع احتلال سهول إسبانيا فى الشرق والجنوب والوسط. هذا، وقد استقرت جماعات من العرب فى أقصى الشمال وفى نواحى الهضاب الشمالية المجاورة لمواطن الأسبان والنصارى. لكن البربر غضبوا لاستبداد العرب بأمر الحكم واعتبارهم شعبًا محكومًا لايترك لهم نصيب فى الحكم والإدارة، ولم يكن البربر يعتبرون أنفسهم أقل من العرب دينا أو كفاية أو مساهمة فى الجهاد ولأنهم من العرب العاربة أصلاً. ولم يقف الأمر بالعرب عند مجرد الانفراد بالسلطة والاستبداد بها، بل امتدت أيديهم إلى البربر بسوء المعاملة والإهانة والامتهان. وقد اندلع الصراع بين العرب والبربر فى الغرب الإسلامى كله، اشتعلت الثورة أول الأمر فى بلاد المغرب وهزم العرب فى معركة

تسمى «معركة الأشـراف» بسبب كثرة من قتل فيها من أشراف العـرب وفر كثيرون من العرب بأنفسهم واعتصموا فى إسبانيا. ثم امتد لهب الثورة إلى إسبانيا نفسها. ثار بربر شمال إسبانيا على عربها المقيـمين فى الأجزاء الشمالية فقتلوا منهم أعدادا وأسرع من بقى منهم بالهـرب صوب الجنوب. وما كاد البربر يـحرزون هذا النصر حتى اتخـذت ثورتهم طابعًا خطيرًا شـاملا يدل على أنهم كانوا يـخضعون لقـيادة واحدة تنظم صـفوفهم وتـرسم لهم الخطط التى تكفل لهم النجاح، فـقد جمـعوا ثلاث جيـوش كبيرة، كـان الأول منها وجهتـه طليطلة، والثانى قرطبـة، والثالث الجزيرة الخضراء ليتصل بالبربر الشـوار فى الغرب وليقطع صلات العرب فى الشرق فيحاصـرون حصارا لا مفر منه. وقد عـبرت جموع من الحجارية إلى إسـبانيا فى هذه الآونة الحاسـمة من تاريخ العرب عـبروا من سبتـه عام 123هـ الموافق 740م بقيادة بلج بن بشر وكـان عددهم عشرة آلاف من خيرة فرسان الشـام. وقد نهضوا للعمل الذى أتوا من أجله وهو لقاء البربر والقـضاء على ثورتهم. وقد اتجهوا أول الأمر إلى القضاء على الجيش البربرى الذى كان يتجه صوب الجزيرة الخضراء، وقد هزم هذا الجيش فى معركة شذونة، واتجه العرب بعد هذا إلى جيش قرطبة فقضى عليه، أما الكتلة البـربرية الثالثة التى كانت تحاصر طليطلة فـقد كانت أشد خطرًا، فقد كانت كبيرة العدد ونجحت فى حصار المدينة نحوا من شهر[1].

سارت القوات العربية لقتالهم ودارت المعركة الحاسمة بين الجانبين عند وادى سليط، واستطاع الشـاميون القضاء على هذه الجـموع والانتصار عليـها أوائل عام 124هـ ـ 741م. فلما تم للعرب إخماد ثورات البـربر على هذا النحو تعقبوهم فى كافة نواحى الجزيرة يـقتصون منهم فبدأ البربر يضـيقون بالحياة فى إسبـانيا واتجهوا نحو الجنوب فى طريق العودة إلى أوطانهم الأصلية. وكانت جموع البربر المهاجرة من الكثرة بحيث أدت إلى اضطراب الحياة الاقتصادية فى البلاد، إذ دخلت المزارع والقرى منهم وانتشرت المجاعة فى البلاد، كما أدت هذه الهجرة إلى إخلاء مناطق

---

1 ـ د. حسن أحمد محمود ـ نفس المرجع ص69.

فى شمال إسبانيا وغربها كادت تـخلو من المسلمين تماما. وانتهز النصارى الفرصة المواتية فاتسعـت دولة الأسبان فى جيليقية واسـتوريس اتساعًا مفاجـئًا إذ أصبحت ضعف حجمها الأول بين سنتى 751م، 753م لخلو البلاد من السكان المسلمين، ولـم يكتف الأسبان بهذا القدر فقد اسـتولوا على اشترقة وليون، وانحدرت حدود إسبـانيا الإسلاميـة إلى الخط الممتد من قلمـرية على المنديجو إلى قورية وطلبـيرة وطليطلة على التاجه إلى وادى الحجارة وتطيلة. وقد خـسر المسلمون بهذا نحو ما فتحوه من البلاد ونمت المقاومة النصـرانية عبر الحدود، وتخلفت فى نفوس العرب والبربر رواسب من الكراهية ظلت قائمة قرونا طويلة. وبعد. ماذا كان حصاد هذه السنوات الدموية فى تاريخ إسبانيا؟. كـان حصادها هذه الحروب بين من وحدهم بالأمس كفاح وهدف واحد وخضبت أرض إسـبانيا بدماء كان يجب أن تسفك من أجل أغراض أسمى. اسـتنفذت قوة لو اندفعت عـبر البرانس، لاكتسـحت فرنسا كلها ولما كـانت لدولة الفرنجـة قائمة، فـقد طعن هذا الصـراع المد الإسلامى وراء البرانس طعنة نجلاء وسينحصر هذا المد بعد الغافـقى إلى غير رجعة، بل ستتعرض إسبانيا نفسها للعدوان فى عهـد شرلمان. لو كانت هذه القوة قد تضافرت فى جهد مشتـرك للقضاء على المقـاومة النصرانية فى مـأواها القاحل فى الشمال لمـا استرد هؤلاء الثوار أنفـاسهم ولما تطاولوا على ديار المسلمين بالإغارة ولمـا انتهى الإسلام إلى المصير الذى انتـهى إليه، فقد شغل المسلمـون عن بقايا القوط فثبـتت أقدامهم واستردوا البـلاد التى أخلاها البربر، حتى إذا قـامت الإمارة الأموية وهدأت ريح الفتنة وتوحدت الصـفوف وانتهت الفرقة وجـد أمراء بنى أمية إمارات إسـبانية فى الشمال قوية قادرة على النضال والمقاومـة يأتيها المدد من دولة الفرنجة ومن البابوية فكانت نواة مـعركـة صليـبيـة فى الغرب سـتصل إلـى الذروة فى عهـد المرابطين والموحدين[1].

---

1 ـ د. حسن أحمد محمود ـ نفس المرجع ص70.

ثورة المغرب العربى: اندلعت الثورة الاجتماعية فى المغرب فى أواخر العصر الأموى ومعلوم أن العنصر العربى كان عصب النظام الأموى، بينما كان الحكم العباسى يستند على الفرس والخراسانيين معظم العصر العباسى الأول، وبديهى أن يتسنم العرب قمة البناء الطبقى فشكلوا أرستقراطية عسكرية تشبثت بصدارتها طوال العصر الأموى، لكنها أرغمت على ترك مكانتها للعناصر الإيرانية بقيام الدولة العباسية، فتصدرت العناصر الجديدة الهرم الاجتماعى كأرسهتقراطية عسكرية بيروقراطية هيمنت على مصائر الحكم ومقدرات السياسة وقيادة الجيوش وخاصة بعد إسقاط العرب من ديوان العطاء. ولم يكن الأمر محض إحلال عنصر محل آخر، أو تصارع عصبيات فى حلبة السياسة، فالصراع السياسى كان يعكس تناحراً للاستئثار بوضع اجتماعى متفوق. أما العنصر العربى فينقسم إلى شعبتين أساسيتين: عرب الشمال ويعرفون بالحجازية، وعرب الجنوب ويعرفون باليمنية ومعلوم أن الصراع بين الطرفين كان مريراً وشاقًا فى عصور الجاهلية، وكتب الأدب تسجل ملاحمة الدموية فيما يعرف «بأيام العرب». وبفضل الإسلام إختفت النعرات القبلية وأصبح الجميع بنعمته إخوانا، جنبًا إلى جنب شاركوا فى حركة الجهاد تحت راية الإسلام الذى حول طاقاتهم لخدمة الدعوة، بعد أن كان بأسهم بينهم شديداً. وفيما يتعلق بفتح بلاد المغرب كان للعرب اليمنية فضل السبق، وكانت حركة الفتح تواكبها الهجرة والاستقرار فى الأمصار، فنزحت كثير من القبائل اليمنية إلى بلاد المغرب واستقرت فى المدن التى كانت أشبه بقلاع عسكرية، كما وفدت موجات أخرى من عرب الشمال - الحجازية - وتمتع الطرفان جميعًا بميزات الفاتحين، فشكلوا طبقة مميزة عن بقية السكان وكانت أرستقراطية بيروقراطية عسكرية بطبيعة الحال، فمنهم الولاة والعمال. وهم عماد الجيش فى الولاية، إذ تفرغوا للقتال، وتركوا الحرف والصناعات الأخرى للسكان الأصليين. ومعنى احترافهم الحرب تمتعهم بامتيازات غير محددة، فمن «ديوان الجند» تصرف لهم مرتبات وأعطيات ثابتة فى أوقات الحرب والسلم على السواء، ومغانم الحروب من أموال الفيء والسبايا، والأراضى المفتوحة عنوة لهم وحدهم حقا مشروعًا. بل وجد من سادات العرب من كان يمنح أعطيات ثابتة على أساس تسجيل أسمائهم

فى ديوان العطاء دون أن يشتركوا فى الحروب. وكان النظام الإسلام كما وضعه عمر بن الخطاب لايتيح للجند امتلاك الأرضى والضياع، لكن تلك السنة ضرب بها عرض الحائط فى العصر الأموى، فوجدنا الولاة والعمال يقتنون الضياع الواسعة فى الشرق والغرب على السواء ويديرونها لحسابهم، تقليدا لسادتهم من أفراد البيت الأموى، ويصف الطبرى الضياع الواسعة والبساتين التى امتلكها خالد ابن عبدالله القسرى فى العراق ويقدم إحصاء بأسمائها. وفى المغرب يخبرنا ابن عذارى عن مدى جودة وخصوبة مزارع الوالى يزيد بن حاتم ووفرة غلتها. ونعلم من الرقيق القيروانى أن مراعى أحد أبنائه كانت تغص بقطعان من الأغنام هالت كثرة أعدادها يزيداً حين خرج يومًا للنزهة خارج القيروان. تلك الأمثلة وغيرها تنهض دليلا على الوضع الطبقى المتميز الذى تمتع به العرب فى بلاد المغرب[1].

يمكن القول إن الأستقراطية العربية فى النظام الأموى تصدرت السلم الاجتماعى على حساب السواد الأعظم من سكان المغرب بكافة عناصره من البربر والأفارقة والزنوج الذين انضموا جميعًا فى طبقة واحدة عرفت «بالموالى». وجدير بالذكر أن التناقضات داخل الطبقة العليا سهلت من مهمة الثوار. وقد برزت تلك التناقضات فى صورة إحياء الخصومات القبلية والنعرات العنصرية. كما وأن ظهورها كان محكومًا بالمصالح الاقتصادية بالدرجة الأولى. أما الخصومة القبلية، فقد عادت من جديد بين عرب الحجازية وعرب اليمنية، كيف كانت تلك الظاهرة من أسباب هزيمة الجيوش العربية أمام الثوار. والخلافة الأموية مسؤولة عن ذلك إلى أبعد الحدود، إذ شجعت على إذكاء الضغائن والسخائم بين القبائل بقصد إحداث نوع من التوازن يكفل لها البقاء والاستمرار فكانت تارة تتعصب للحجارية وأخرى تشايع اليمنية. وكان ولاتها فى المغرب يتعصبون بالتالى لبنى جلدتهم ويؤثرونهم بالحظوة ويبطشون بالفرع الآخر. ففى بداية الأمر غلب نفوذ اليمنية

---

1 ـ د. محمود إسماعيل ـ قضايا فى التاريخ الإسلامى ـ ص113 وانظر الطبرى ج2 ص165.

أثناء ولاية موسى بن نصير، لكن الوالى الحجـازى محمد بن يزيد نكل بآل موسى واليمنية معا، وعاد نفوذ اليمنية من جديد إبان ولايتى يزيد بن أبى مسلم وبشر بن صفـوان، فأسرفا فى إذلال الحـجازية، وما لبث أن دارت الدائرة على اليـمنية فى عهود ولاة هشام بن عبدالملـك على المغرب. ومن هنا حق لبعض الدارسين القول بأن الفـوضى السيـاسيـة التى ترتبت على الخصـومات القـبلية كـانت من الدوافع الأســاسيــة لثورات البــربر على الحكم الأمــوى. قصــارى القــول أن التناقضــات الاجتمـاعية داخل الأرستقراطيـة المتسلطة كانت من العوامل الممهـدة لنشاط القوى الثورية ولعل من أهم ما يميز الطابع الاجتماعى للثـورة احتوائها عناصر وعصبيات شتى، فـإلى جانب عرب البـربر سكان البلاد الأصليين ضم مـعسكر الثوار كـافة الأقليات غير الوطنية التى اعتنقت الإســلام بعد الفتح من الأفارقة والزنوج، فضلا عن المستـنيرين من العرب الذيـن قاتلوا فى صفـوف الثوار احـتجاجًـا على تسلط الطبقة الحاكمة، وتمشيا مع روح الإسلام فى الحض على مناهضة الحكم الجائر.

إن السياسة الأموية الجائرة مسـؤولة عن عدم إقبال عرب البربر على الإسلام والتعريب، فحتى خلافة عمر بن عـبدالعزيز كان إسلام عرب البربر سطحيًا، ولم يقدم البربر على تعلم اللغة العربية إلا فى وقت مـتأخر. لما اعتنق البربر الإسلام، وجدوا تناقـضا صـارخًا بين دعوته للعـدالة والمساواة، وبين سـياسـة الحكومة بما تنطوى عليه من خروج عن الشريعة، فعولوا على الثورة، والتأم البتر والبرانس معا فضــلا عن العناصر الأخـرى من غير الـبربر فى محـاولة لإقرار عـدالة الإسلام، فقاموا بالثــورة. واشترك فى الثورة من غير عرب البربر أقليـة عرفت «بالأفارقة»، وقد توحى تلك التســمية - نسبة إلى افريقـية (أى تونس) - بأنهم من سكان البلاد الأصليين، والواقع أنهم عاشوا فى تلك الولاية حقـا منذ أمد طويل من الفينيقيين القرطاجيين وكونوا أقلية أكثر حضـارة من البربر، لهم لغتهم الخاصة ونمط حياتهم المميز. وقد دافعوا الفتح الإسلامى فى البداية ولما انتصر العرب لم يغادر الفينيقيون القرطاجيون البلاد - كما فعل البيزنطيون - إنما اعتنقوا الإسلام، لكن ولاة بنى أمية

عاملوهم معاملة عـرب البربر، فتعرضوا للاسترقاق والسـبى وعوملوا معاملة أهل البلاد التـى فتحت عنوة، وازدادت أحـوالهم سوءًا فى أواخـر العصـر الأموى من جـراء استـبداد الولاة الذين أرهـقوهم بالمغـارم والجبـايات. لذلك سـخطوا على الحكومة الأموية وانضموا إلى البربر فى الثورة عليها، حتى إن زعيمهم شغل مركزًا قيـاديًا بعد نجـاحها إذ تولى حكـم مدينة طنجة. كـما ضم مـعسكر الثـوار طائفة «الزنج» أو «السودان» وتـقع مواطن الشعـوب الزنجيـة جنوبى الصحـراء الكبرى، ويفصلهـا عن البربر سلسلة من الفـواصل الجبلية تتـخللها بعض الممرات المعـروفة «بالمفاوز». وتلك الشعوب تتكون من أخلاط شتى يمكن التـمييز بينها على أساس قبلى، فـهناك قبائل زغاوة وصـوصو وكوكو والتكرور وغـيرها، ويصفهـا صاعد الأندلسى بالفـوضى والهـمجـيـة، ولكل منهـا عاداتهـا وتقـاليدهـا وطواطمهـا ومعبـوداتها. وقبل الإسلام كـانت تلك الشعوب تتاجر مـع بلاد المغرب، وكانت القوافل تختـرق المفاوز الجبلية محملة بالذهب والأبنوس وسن الفـيل لتعود بالملح والنحاس. وبديـهى أن يستقـر بعض السودانيـين فى المدن المغربية لمـتابعة حـركة القوافل الدائبة بين الشمال والجنوب، وازدهرت حركة التجارة بعد الفتح الإسلامى وعمل المـغاربة وسطاء فى تجـارة الرقيق حيـث صدورا الرقيق الأسـود إلى أوروبا والشرق، كما كانوا يرسلون بالرقيق الأبيض إلى الشرق كذلك[1].

وإذا كان الإسلام قد شجع على عتق العبيد، فإن بنى أمية لم يراعوا تعاليمه فى هذا الصدد، وغصت قـصورهم وقصور ولاتهم وعمالهم بجـيوش من الرقيق الأبيض والأسـود على السـواء. وعلى الـرغم من اعـتناق السـودانيـين بالمغـرب الإسلام، وتفانيهم فى الإخلاص له فلم تكن حالهم فى ظل النظام الأموى بأحسن منها زمن الرومان والبيزنطيين. لذلك رحبوا بدعوة الخوارج والعلويين التى لاتفرق بين المسلم والآخر على أساس اللون أو العرق. واستطاعـوا تجنيد أعداد غفيرة من

---

1 ـ د. محمود إسماعيل ـ المرجع السابق ص120.

السودان اشتركت فى الثورة على الأمويين. وإذا كانت ثورة العناصر المستضعفة من بربر وأفارقة وسودان استهدفت الإطاحة بالأرستقراطية العربية فى العصر الأموى، فلم نعـدم من العـرب من انضـوى فى مـعسكر الثـوار، وقـاد الثـورة فى بعض مراحلهـا. وإذا كانت بعض هذه العناصر تبنـت قضية الثـوار عن إيمان بعدالتـها وحرصًـا على إرساء العدالة الاجتـماعيـة فى الإسلام، كعبـد الأعلى بن السمح المعافرى الذى قاد الثورة فى المغرب الأدنى؛ فلا شك أن كثيرين من العرب انضموا إلى الثورة لأسـباب أخرى منها التنافس بين العـرب الحجازية واليمنيـة، وهو أمر أذكاه خـلفاء بنى أمـية، كـانوا يؤثرون فرعًـا على الآخر فـيسندون إليـه المناصب الإدارية والمالية والعسـكرية. وكان الفرع الآخر لايحظى بمثل تلك الامـتيازات بل كان يخـسف حقه فى الأعطيات والمرتبـات. شكل هذا الفرع المغضـوب عليه من الحكومة الأمـوية «الطبقـة الوسطى» بين الأرستقـراطية والموالى، وقـد لعبت تلك الطبقة دوراً بارزاً فى ثورات الموالى فى العصر الأموى وتصدت لقيادتها فى المشرق والمغرب على السـواء، وحسبنا فى هذا الصـدد ثورات المختار، وعبـدالرحمن بن الأشعث، ويزيد بن المهلب. وبدأ تشـرب بعض تلك القيادات «البـورجوازية» إلى بلاد المغرب فى صحبـة الجيوش الأموية وقامت بدور ملحوظ فى مـساعدة الثوار. وقد اتهم أحد ولاة بنى أمية فى المغرب العربى بتـعاطفه مع الثوار. قصارى القول أن قوى الصـراع تمثلت فى الأرستقـراطية العسكرية الحـاكمة، العرب فى العـصر الأموى، بينما ضم معـسكر الثوار كافة العناصر «المستـضعفة» التى اندرجت تحت طبقة الموالى من البربر والأفارقة والسـودان وبعض العناصر المستنيرة والانتهازية من العرب، وهو أمر ينفى عن الثورة تهمة الشعوبية، ويعطيها طابعًا اجتماعيًا مميزاً.

أسباب الثورة: البحث فى أسباب الثورات ودوافـعها، يقود إلى تعدد تلك الأسباب وتنـوعها ما بين سيـاسية واقتـصادية وعنصرية ودينية، وإن كـان العامل الاقتصـادى هو المحرك الفعال وراء تلك الأسبـاب جميعًا، ومـع أهمية الدين فى تفسيـر تاريخ الإسلامى - فى الشرق والغرب على السـواء - لا مناص للباحث فى

هذا الميدان من وضع العامل الاقتصادى فى المحل الأول؛ فكافة الأحداث والوقائع التى اتخذت مظهراً دينيًا كانت تنطوى على أبعاد اقتصادية كامنة فيها.

العامل السياسى: فالفوضيوية السياسية عمت بلاد المغرب طوال عصر الولاة، فإن الحركة الاستقلالية فى المغرب كانت مبكرة جدا، فقد ظهرت على شكل ثورات ابتداء من عام 123هـ الموافق 740م على وجه التحديد، فهى من أسبق الحركات الاستقلالية ظهوراً فى التاريخ الإسلامى، الأمر الذى يدل على أن المغرب العربى كان أسبق الأقطار انفعالا بالحياة الإسلامية، وأن المغاربة كانوا من أسرع الشعوب دخولا فى الإسلام وتقبلا للحياة الإسلامية. ولعل ذلك نتيجة لسياسة المشاركة التى سار عليها الأمويون والتى أدت إلى استقرار الأمور فى المغرب ومكنت العرب من فتح إسبانيا ومحاولة التوسع فى جنوب فرنسا. ولم ترتبط الحركة الاستقلالية فى المغرب بظهور الإمارات المستقلة إنما كانت أسبق زمنًا من ظهور هذه الإمارات. وقد تجلت فى ثورات المغاربة التى عمت البلاد والتى كانت تظهر وتختفى أحيانًا حتى ظهور كل من الأغالبة والأدارسة. ثورات المغاربة إذن من أهم الأحداث فى تاريخ المغرب؛ لأنها تصور لنا التعبير الأول للحركات الاستقلالية فى المغرب، ويجب أن يعاد النظر فى هذه الثورات وأن تقيم تقييما جديداً، وأن نتعرف على ملامح الحركة الاستقلالية التى عبرت عنها. ومن الخطأ أن نفسر أحداث هذه الثورات على أنها مجرد رد فعل لعسف أمير أو ظلم والى، فهى أشد عمقًا من هذا. كما أنه من الإسراف أن نقبل تفسير المستشرقين الفرنسيين أمثال جوتية لأحداث هذه الثورات على أنها ثورات عرب العاربة من البربر أصحاب المصلحة الحقيقية فى البلاد فى وجه العرب الجدد، وأنها رغبة حقيقية فى التخلص منهم وأن النزاع بين البربر والعرب إنما تتعمق جذوره فى تاريخ المغرب لتصل إلى أحداث هذه الثورة التى اشتعلت فى عام 123هـ الموافق 740م. والحقيقة أن هذه الثورات كانت انفعالا لمغرب أظله الإسلام وانفعل به انفعالا

عميقًا وأراد أن يعبر عن نفسه تعبيراً إسلاميًا واضحًا كما عبرت الأمصار الإسلامية الأخرى عن نفسها. فقد كانت الشخصية المغربية ذات الشكل الإسلامى تبحث لها عن إطار تريد أن تتجلى فيه وتتلمس طريقا إسلاميًا تسلكه لكى تبلغ أهدافها. وقد وجدوا فى دعوة الخوارج والعلويين ضالتهم المنشودة وجدوا فى تعاليمهم المثل التى ترشى تكبرهم وتحقق أهدافهم. فهى فرقة تخلط بين الجهاد وبين الدعوة إلى الإسلام، الأمر الذى يجد قبولا وصدى فى نفوس المغاربة، ثم نزعة لإسقاط امتيازات طبقة الأرستقراطية العربية، وتسوى بين العرب وغير العرب ثم هى حرب عنيفة على السلطان الأموى، وهى تريد أن تعود بالمجتمع الإسلامى إلى مثله القديمة[1].

بسبب الصراع بين العرب وبعضهم البعض فى العصر الأموى، هذا الصراع الذى يبدو سياسيًا، كان يعكس مواقف قوى وطبقات اجتماعية لها مصالحها ومطامعها. وأن الصراع الدموى على السلطة فى المغرب أسفر عن حالة من الفوضى السياسية هيأت مناخًا ملائمًا للعمل الثورى، فبقدر غلواء الصراع وإنهاكه للقوى المتصارعة، بقدر ما كان العمل الثورى يتعاظم أسلوبًا وتنظيمًا وانتشاراً. ولو وجدت حكومة سياسية مستقرة فى المغرب تمسك بناصية أمور، لكان دور الثوار صعبًا ونصيبهم من النجاح محدوداً. لكن الفوضى السياسية سهلت من مهمة الثوار، وهاك صورة موجزة لتطور الأحوال السياسية فى المغرب فى ذلك الحين.
فتحت بلاد المغرب فى العصر الأموى، ومنذ ولاية موسى بن نصير أصبح حاكم البلاد أميراً يقيم بالقيروان ويعين من قبل الخليفة بدمشق، وكان الوالى يوكل أمور الولاية إلى بنى جلدته وعشيرته، وكان هم هؤلاء الإثراء على حساب بيت المال والرعية معا، فالمشتغلون بالجندية منهم أثروا إثراء غير مشروع باستئثارهم بمزيد المغانم ووافر الأعطيات السنوية، فشكلوا أرستقراطية عسكرية لها وزنها. والعاملون بالدواوين وشؤون الحكم أسرفوا فى اختلاس أموال الدولة، والجباة منهم اشتطوا فى عسف الأهالى وتحميلهم من الجبايات والمغارم ما يفوق طاقتهم، وشكل هؤلاء

1 ـ د. حسن احمد محمود ـ المرجع السابق ص115.

أرستقراطية بيروقراطية لها مكانتها، ولأن الصلة بين الولاة والارستقراطية العسكرية والبيروقراطية صلة رحم ومنفعة فى آن واحد، كان الولاة يغمضون أعينهم عن سياسة جهازهم الحربى والإدارى لارتباط سلطتهم بنفوذ ذويهم من رجال عصبيتهم، ولما كان خلفاء بنى أمية كثيرى التقلب والانحياز لأحد الفرعين العربيين من الحجازية أو اليمنية، فقد كثر تغيير الولاة فى المغرب وبالتالى تغيير أجهزة الحكم وهو أمر أفضى إلى حالة من الفوضى السياسية، وأنها كانت سببًا فى ثورات عرب العارية من البربر. فقد شهدت بلاد المغرب العربى صراعًا بين الفرعين العربيين ـ الحجازية واليمنية ـ وكان نفوذ اليمنية غلابًا أول الأمر لأن الوالى موسى بن نصير كان يمنيًا، لكن الحجازية بزع نجمهم فى ولاية محمد بن يزيد الحجازى الذى بطش بآل موسى وأتباعه من اليمنية، ثم عاد اليمنية للظهور فى ولايتى يزيد بن أبى مسلم وبشر بن صفوان فأسرفا فى إذلال الحجازية. وعاد الميزان فى صالح الحجازية بعد ولاية بشر حتى نهاية الحكم الأموى لأن خلفاء بنى أمية عولوا على تعيين ولاتهم من الحجازية، فامتحن اليمنية أشد المحن ولقوا عنتًا شديدًا، واستصرخ شاعرهم الخليفة هشام بن عبدالملك لإنقاذهم من محنتهم مذكرًا إياه بأفضالهم على الخلافة الأموية فى قصيدة قال فيها[1].

وقيناكم حر القنا بسيوفنا — وليس لكم خيل سوانا ولا رجل

فلما تيقنتم نيل ما قد أردتموا — وطلب لكم فينا المشارب والأكل

تغافلتم عنا كأن لم تكن لكم — صديقًا وأنتم ما عملتم لنا وصل

ويمكن القول إن الصراع السياسى بين العرب ـ الحجازية ويمنية ـ كان يعكس مصالح كلاً من الحزبين، وأن تنكيل الولاة الجدد بالولاة السابقين وعمالهم كان فى الغالب «الحصول عما اكتنزوه غدرًا من الأموال» على حد قول باحث معاصر، فضلا عن «العبيد والإماء والجوارى المتخيرة والخصيان والخيل والدواب والذهب

1 ـ د. محمود إسماعيل ـ نفس المرجع وانظر ـ د. سعد زغلول تاريخ المغرب العربى ص245.

والفضة والآنية» كما نطالع عند ابن عبدالحكم، وليس أدل على مدى الفوضى السياسية فى المغرب العربى فى أواخر العصر الأموى من نجاح أحد المغامرين العرب - ويدعى عبدالرحمن بن حبيب - فى اغتصاب السلطة فى القيروان والاستيلاء على بيت المال، وتوريث الحكم لبنيه من بعده، ولم يكن بوسع خلفاء دمشق الأواخر إقصاؤه عن ولايته واستبدال آخر به، نظراً للمشكلات الكثيرة التى واجهتهم فى المشرق. لذلك لم يجد مروان بن محمد - آخر خلفاء بنى أمية - مناصًا من الاعتراف بشرعية حكم ابن حبيب.

التفرقة العنصرية: وتتضح سطحية التفسير العنصرى للثورة ليس فقط فى دخول معترك الصراع عناصر أخرى غير العرب والبربر بل وانضواء بعض العناصر العربية فى معسكر الثوار، وأيضًا فى عدم تفرقة السلطة الحاكمة بين البتر والبرانس، إنما تتجسد سافرة فى وجود سياسة أموية عامة قائمة على التفاضل بين العرب وبين غيرهم من الشعوب الأخرى كالفرس والروم والبربر والقوط ممن دخلوا الإسلام وأصبحوا «موالى» فأصبحت البنية الاجتماعية للمجتمع الإسلامى تتشكل فى العصر الأموى من طبقتين أساسيتين، الأرستقراطية العربية، والعامة من الموالى. وإن ولاة المغرب كانوا يمثلون مشيئة الدولة الأموية وينفذون سياستها، وأن الحكام الأمويين درجوا على اختيار ولاة على شاكلتهم، وإلا فما تفسير الإصلاحات التى شهدتها بلاد المغرب إبان ولاية اسماعيل بن عبيد الله. لقد كان هذا الوالى التقى معينًا من قبل الخليفة الزاهد عمر بن عبدالعزيز. والظلم الذى حاق بالبربر على يد يزيد بن أبى مسلم إنما تم تحت سمع الخلافة وبصرها، فالخليفة يزيد بن عبدالملك عرف بالطمع والجشع وحب المال الذى جمع له عماله منه ما لم يجمع لأحد من قبل، وإذا كان الحجاج بظلمه فى المشرق قد أشبع نهمه، فإن يزيدا فى المغرب قدم له المزيد. ولا غرو فقد قال فيها عبارته الشهيرة «ما مثلى ومثل الحجاج وابن أبى مسلم بعده إلا كرجل ضاع منه درهم فوجد ديناراً». وكان الخلفاء يستحبون طرائف المغرب ويبعثون إلى عمالهم فى طلبها

وخاصة «الوصائف». ولدينا من النصوص التى أوردها الطبرى - والتى لايتسع المجال لذكرها - ما يدين حكام الأمويين ويؤكد تواطؤهم مع ولاتهم وعمالهم فى المغرب، بسبب جشعهم فى طلب المال «فكان الحاكم الأموى يكره العمال على امتصاص دم الرعايا». ومن مظاهر التمايز العنصرى تجنيد عرب البربر كرجالة «مشاة» فى الحملات والجيوش التى كان الولاة يبعثونها لغزو الجزر البحرية فى البحر المتوسط، أو فى المغرب الأقصى وبلاد السودان، وحرم عليهم العمل كفرسان إذ حظى العرب وحدهم بتلك الميزة. أكثر من ذلك كان البربر يتقدمون الصفوف، فيفنى منهم من يفنى لتلقيهم الضربات الأولى، وبعد المعارك كان العرب وحدهم يستأثرون بالمغانم والفىء من دون البربر. وبعبارة أخرى اتخذ العرب من البربر وقوداً للحروب التى خاضوها فى جزر صقلية وسردينية وبلاد السوس الأقصى فى أعوام 101هـ الموافق 719م، 109هـ الموافق 727م، 117هـ الموافق 735م والتى لم يكن لها من هدف سوى السلب والنهب.

اشتط بعض الولاة فى إهدار كبرياء عرب العاربة من البربر وإشعارهم بالمذلة والخنوع فكان يزيد بن أبى مسلم يطبق تقليداً اتبعه البيزنطيون من قبل وهمَّ أن يشم حرسه من البربر فى أيديهم، فكان يكتب اسم الرجل على راحة يده اليمنى، وصفته على راحة يده اليسرى فيكتب عليها كلمة «حرس»، وقد أنف عرب العاربة من البربر من هذا التقليد واعتبرون نوعًا من التفرقة التى لاتتفق ومبادئ الإسلام، فكانوا يقولون «جعلنا بمنزلة النصارى» ونحن نعلم ما اتصف به البربر من شمم وإباء فضلا عن شدة المرأس وقوة البأس والميل الغريزى للعنف، لذلك دبروا مؤامرة فى الخفاء أسفرت عن اغتيال الوالى الأموى. على أن الذى أثار حفيظة البربر وأهدر كبرياءهم معاملة نسائهم وبناتهم معاملة الجوارى والسبايا، فمنذ الحملات الأموية الأولى على بلاد المغرب وأسواق الرقيق فى الشرق تزخر بالإماء البربريات. والمراجع تحفل بمعلومات وفيرة عن تلك التجارة المربحة التى ازدهرت إبان الفتوحات العربية فى بلاد المغرب وبعد الفتوحات كذلك، وعن الوعود

الكثيـرة التى كان القـواد يعدون بها الحكام الأمـويين فى إرسال المزيد من السـبايا البربريات اللائى ازدادت أعـدادهن فى قصور ملوك بنى أمـية وكبـار رجال الدولة ومياسير الناس. وبعد فتح البلاد واعـتناق أهلها الإسلام لم يغير ولاة بنى أمية من سياستهم فى معاملة المسلمات من عـرب البربر، فاعتبروا بلاد المغرب «دار حرب» وطفقوا يرسلون الحمـلات تثخن فى أصقاعها من أجل الأمـوال والسبايا؛ فالوالى عبيد الله بن الحـبحاب منى الخليفة هشام بن عبـدالملك بمزيد من الإماء البربريات، فعهد إلى ابنه إسماعيل بولاية السوس الأقصى فاستبد إسماعيل بالبربر هناك «وكثر عبثه بذراريهم»، بل دفـعه طعمه إلى تجنيد حملة لنفس الغـرض أسند قيادتها إلى حبيب بن أبى عـبيدة «أصابت من السبى والذهب أمراً عظيـمًا». ويلخص الطبرى سيـاسة بنى أميـة فى التمايز العنصـرى فى الحوار الذى جرى بين وفـد من عرب البربر وبين حاجـب الملك هشام بن عبد الملك فى دمشق حـين ذهب الوفد يشكو للملك جور عمـاله، لخص الطبرى الشكوى فيما يلى « . . قـالوا أبلغ أمير المؤمنين أن أميـرنا يغزو بنا وبجنده، فـإذا أصاب نفلهم دوننا وقال هم أحق بـه، فقلنا هو أخلص لجهادنا لأنا لا نأخذ منه شيـئًا، إن كان لنا، فهم منه فى حل وإن لم يكن لنا لم نره. وقالوا إذا حـاصرنا مدينة قـال تقدموا وأخـر جنده، فقلنا تقدمـوا فإنه ازدياد فى الجهـاد ومثلكم كـفى إخوانه، فـوقيناهم بأنفـسنا وكفـيناكم. . ثم إنهم ساومونا أن يأخذوا كل جميلة من بناتنا، فقلنا هذا ليس فى كتاب ولاسنة، ونحن مسلمون»[1]. .

العـامل الاقـتـصـادى: كان العامل الاقـتصادى هو العامل الفـعال فى دفع المغاربة إلى الثـورة على بنى أمية، يشهـد على ذلك سوء الأحوال الاقتـصادية فى بلاد المغرب عشية قيام الثورة. وإذا كانت هذه الأحوال السيئة ترجع إلى طول مدة الفتح وما ارتبط به من تخريب المزارع، وإحراق المراعى، وإهمال التجارة، فلاشك أن السيـاسة المالية الأموية الجـائرة زادت تلك الأحوال تفاقـمًا. فمسـؤولية الدولة

1 ـ د. مـحـمـود إسـمـاعـيل ـ نفس المرجع ص135 وانظر ـ تاريخ الأمم والملوك، جـ4، ص264.

الأموية ترجع إلى أطماعها فى خيرات بلاد المغرب منذ السنوات الأولى للفتح حيث بلغ جشع بعض قوادها مداه، فكانوا يسترقون أبناء عرب البربر حين يعجزون عن دفع ما عليهم من أموال، وتطالعنا المراجع عن وفرة الغنائم والفىء الذى كان يوزع على الفاتحين بعد المعارك العسكرية، فمعاوية بن حديج أسفرت حملته عن «غنائم كثيرة ورقيق وأصنام منظومة بالجوهر».

وبعد إتمام الفتح عول الولاة فى القيروان على اتباع سياسية مالية جائرة فأرهقوا عرب البربر بالمغارم والجبايات واعتبروا بلادهم «دار حرب» حتى بعد اعتناقهم الإسلام. وفى ذلك خروج على تعاليم الإسلام، وعدول عن النظم والقوانين المالية الإسلامية كما شرعها من قبل عمر بن الخطاب. فقد طبقت السياسة التى استنها الحجاج فى كافة الولايات الإسلامية لأنها ضمنت للخلافة مزيداً من الأموال، وتقضى هذه السياسة بعدم إسقاط الجزية عن الموالى أسلموا أم لم يسلموا، فضلا عن إرهاق الفلاحين بمزيد من الضرائب غير ضريبة الخراج التى ضوعفت فى بعض الأحيان، «فكان كل فرد ملزمًا بأن يبين قيمة كسب طيلة العام فيترك له الوالى ثمن الكسوة والغذاء وبعض النفقات الضرورية ثم يستولى على ما بقى باسم بيت المال، ناهيك عن أطماع الولاة والعمال الخاصة وإسرافهم فى طلب الأموال بأوجه غير مشروعة إرضاء للخلافة من ناحية وكسبًا للأتباع والأنصار وإشباعًا لنهمهم من ناحية أخرى، يدل على ذلك ما شاع على الألسن فى ذلك العصر من إطلاق تعبير «أكل الولاية وحلبها كما تحلب الناقة» على منصب إمارة البلدان. وقد حاول الخليفة عمر بن العزيز وضع حد لتلك المظالم فعاود تطبيق سياسة عمر بن الخطاب تمشيًا مع الشريعة الإسلامية، ففى المغرب العربى أسند الإمارة إلى والٍ تقى هو إسماعيل بن عبيد الله، وأمره بإسقاط الجزية عن البربر المسلمين وتحرير من استرق من نسائهم، كما أمره بإعادة الأرض إلى أصحابها يجنون ثمارها ويدفعون عنها خراجها المعلوم، وأشار عليه بأن يجمع بين أعباء الحكم من إدارة وحرب إلى جانب جمع الخراج والصدقات ليحول دون جورهم

واستبدادهم، ويستعيد ثقة البربر فى الحكومة الإسلامية. لكن هذه السياسة الرشيدة ضرب بها عرض الحائط بعد موت عمر، وعادت الخلافة الأموية إلى سيرتها الأولى، فاستبدل الخليفة يزيد بن عبدالملك بإسماعيل بن عبيد الله يزيد بن أبى مسلم، فاستبد بالبربر وقضى على الإصلاحات التى أنجزها سلفه، ولما كان يزيد كاتبًا للحجاج الثقفى فى العراق قبل ولايته المغرب؛ فقد تأثر به، واشتط فى معاملة عرب البربر، ففرض الجزية عليهم جميعًا ليتسنى له الحصول على مزيد من الأموال والتنصل من دفع الأعطيات للمسلمين من عرب البربر. واتبع الولاة من بعده نفس النهج وخاصة عبيد الله بن الحبحاب الذى اعتبر عرب البربر فيئًا وعاملهم كأرقاء[1]. واتبع عماله نفس سياسته، فعامله على طنجة أساء السيرة وتعدى فى الصدقات والقسم، وأراد أن يخمس البربر وزعم أنهم فىء المسلمين وذلك ما لم يرتكبه عامل قبله. ويذكر ابن عذارى أن سياسة ابن الحبحاب وعماله فى المغرب كانت مرضاة للخلافة فى الشرق، يخبرنا ابن خلدون أن الخليفة طالبه بالوصائف البربريات والأودية العسلية الألوان وأنواع طرف المغرب؛ فكان يتغالى فى جمع ذلك وانتحاله حتى كانت الصرمة من الغنم تهلك بالذبح لاتخاذ الجلود العسلية من سخالها، ولا يوجد منها مع ذلك إلا الواحد وما قرب منه». وفى نفس المعنى ذكر الطبرى أن عمال ابن الحبحاب «كانوا يعمدون إلى الماشية فجعلوا يبقرونها عن السخال يطلبون الفراء البيض لأمير المؤمنين، فيقتلون ألف شاه فى جلد». معنى ذلك أن ولاة بنى أمية هددوا البربر الرعاة فى مصدر رزقهم من الأغنام والماشية، كما أجحفوا الزراع بما فرضوه من ضرائب وجبايات باهظة، ومن هنا يمكن تفسير الأزمات الاقتصادية الكثيرة التى عمت بلاد المغرب العربى فى العصر الأموى، والتى كانت أهم الأسباب التى دفعت بالبربر إلى الثورة.

---

1 ـ د. محمود إسماعيل ـ نفس المرجع ص139 وانظر: ابن عبدالحكم، ص287. وابن عذارى، جـ1، ص52.

Hopkins: Medieval Moslem Government in Barbary,

العامل الإيديولوجي الإسلامي: نقصد بالعامل الإيديولوجي أثر اعتناق البربر الإسلام وفهم تعاليمه في العدالة والمساواة في وقوفهم على انتهاك السياسة الأموية لهذه التعليم، وبالتالي إقبالهم على اعتناق مذهب العلويين الخوارج الذي يحض ـ باسم الإسلام ـ على الثورة ويعطيها طابعها الشرعي. فأيديولوجية الثوار إذن تمثلت في الخلاص من الظلم الاجتماعي الذي عانوه، وتحقيق المبادئ العادلة للإسلام عن طريق الثورة المشروعة التي تبنتها تعاليم العلويين. وعلى ذلك فالثورة لم تكن ثورة دينية أو مذهبية، إنما اتخذت من الدين والمذهب تبريراً لتغيير الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية الجائرة، والطابع الديني الذي غلفت به الثورات في الشرق والغرب على السواء كان نتيجة خروج الحكام في سياساتهم على تعاليم الإسلام. وفي هذا المعنى يقول فلهوزن «.. فبعد أن حادت الحكومة عن المبادئ التي يجب أن تقوم عليها الحكومة التيوقراطية جاء الإسلام الثائر فجعل تلك المبادئ أساساً لمحاربة نظام الحكم الذي كان قائماً إذ ذاك» وخاصة ثورة الإمام الحسين عليه السلام الإسلامية. في ضوء ذلك يمكن تفسير رفع معظم كافة الثورات الاجتماعية شعارات العدالة والمساواة باسم الله وباسم الدين. ومن ذلك نستطيع أن نقرر أن أحزاب المعارضة السياسية الدينية التقت في أهدافها مع مطالب الثورات الاجتماعية فشرعت في استقطاب الجماهير الساخطة وتنظيمها بما لها من خبرة سياسية؛ في ذات الوقت الذي أفادت فيه الثورات الاجتماعية من الفكر السياسي الديني لأحزاب المعارضة في صياغة أيديولوجيتها، وإكساب حركتها طابعها الشرعي. وإذا كانت بلاد الشرق الإسلامي قد غلب على ثوراتها الاجتماعية طابع التشيع والأرجاء، فإن مذهب الخوارج والعلويين السنة ساد بلاد المغرب بلا منازع، ومن مبادئه صيغت أيديولوجية الثورة الاجتماعية فيها. فالمغاربة لم يقبلوا أول الأمر على اعتناق الإسلام، نظراً لسياسة الفاتحين الأوائل التي دأبت على الابتزاز واستعمال العنف أكثر من تعويلها على نشر الإسلام. حتى ليذكر المؤرخون أن البربر اعتنقوا الإسلام وارتدوا عنه لكن بفضل جهود عقبة بن نافع وحسان بن النعمان وموسى بن نصير أقبل عرب العاربة من البربر على اعتناق

الإسلام. وتعاظمت حركة إسلامهم فى عهد الخليفة عمر بن عبدالعزيز، حيث «غلب الإسلام على المغرب» ولم يبق من عرب البربر يومئذ أحد إلا أسلم[1].

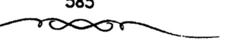
انتقلت دعوة الخوارج إلى المغرب فى النصف الأخير من العصر الأموى منذ أيام عبد الملك بن مروان فصاعدا وكانوا يرحلون إلى الغرب بأعداد وفيرة هربا من تنكيل الأمويين واضطهادهم، وكانوا يجدون فى البلاد الملاذ والمأوى يعتصمون بجبالها النائية أو يلجأون إلى القبائل فى النواحى البعيدة من المغرب الأقصى خصوصًا إقليم طنجة والسوس الأقصى. وجد البربر المسلمون بونًا شاسعًا بين عدالة الإسلام كما فهموها وبين سياسة الحكام كما عانوها، وضاقوا ذرعًا بما حل بهم من مظالم لكنهم لن يستطيعوا تحويل السخط الكائن فى الصدور إلى عمل إيجابى ثورى إلا بفضل الدعاة الذين وفدوا على المغرب فى ذلك الحين هربًا من بطش الخلافة فى الشرق ورغبة فى بث دعوتهم بين البربر وظلت الدعوة إلى الثورة قائمة على أكتاف القادمين من المشرق وانتشرت انتشاراً عظيمًا ولقيت قبولا واسعًا حتى تأصلت فى نفوس الناس وبدأت منذ عام 122هـ الموافق 739م تتخذ لها قيادات مغربية خالصة. وكانت الموجة الأولى من ثورات يقودها ميسرة المطغرى وهو رجل من قبيلة مطغرة وينسب إلى بيت كبير من بيت هذه القبيلة، وكان من رواد المجالس العلمية فى مسجد القيروان وكان يسقى الماء احتسابًا لوجه الله فسمى ميسرة السقاء. وقد اعتنق مذاهب الخوارج الصفرية وآمن بها فى عمق كبير وأراد أن ينشرها فى بلاده واتجه إلى ديار قومه مطغرة فى إقليم طنجة وسافر إلى هناك وأخذ يدعو للمذهب ويكسب الأنصار، ورفع راية العصيان. ولم تلبث الدعوة ان امتدت حتى شملت مكناسة فأقبلت بجموعها وانضمت إلى ميسرة، وكذلك فعلت برغواطة وانضمت القبائل الثائرة بعضها إلى بعض وجعلت تترقب الفرصة

---

1 ـ د. محمود إسماعيل ـ نفس المرجع ص125 وانظر: أرنولد: الدعوة إلى الإسلام ص349.

Fournel: Les Berberes, Vol. I, P. 552.

البلاذرى: ص273.



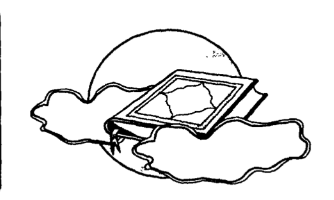
المواتية لإعلان الثـورة على بنى أمية. ولم تلبث أن حانت الفرصـة وذلك بانشغال عبيـد الله بن الحبحاب بغزو صـقلية عام 122هـ الموافق 739م، ومعه خيرة الجند فاستولى الثوار على طنجة وقتلوا عامـلها وساروا إلى بلاد السوس واستولوا عليها وخرج المغرب الأقصى من يـد المسلمين. والتقى العرب بقوات ميـسرة على مقربة من طنجة فهزموا وقتل منهم الكثير وعـاد ميسرة إلى طنجة منتصراً وادعى الخلافة وبويع له هناك واتخذ لقب أمير المؤمنين. وأعد ابن الحبحـاب جيشًا كبيراً وسميت بموقعـة الأشراف ولم تفلح حملات هشـام بن عبد الملك المتكررة فى إخـماد هذه الثورة. ثم بدأت الموجة الثانية من ثورات البربر بقـيادة خالد بن حميد الزناتى بعد وفاة ميسرة، وكـان ذلك إيذانا بثورة عارمة جديدة من عرب العاربة البـربر جميعًا على من معهم من العرب سواء كانوا من رجال الدولة أو غيرها.

فقامت ثورة فى طرابلس يحركها الخوارج الصفرية وانهزم العرب وقام البربر بحصار القيـروان وكان الجيش العربى يقوده كلثوم بن عيـاض. وقد انقسم العرب إلى فريقين، العرب الوافدون من الشام والعرب المقيمون فى البلاد، والتقى الجيش المنقسم مع البـربر يقودهم خالد بن حـميد الزناتى خليـفة ميسـرة فى بلدة نقدروه على مقربة من تاهرت على مجرى نهـر سبو، وانقض البربر على العرب وأحاطوا بهم وأعملوا فيهم السيوف وانتهت المعركة بهزيمة كبرى للعرب ليؤكد المؤرخون أن ثلث هذا الجيش العربى الكبير قد قتل وأن ثلثه الآخر سبى، أما الباقون فقد تفرقوا فلولاً مهـزومة لا تكاد تلوى على شيء. وزادت ثورة عرب العـاربة من البربر فى المغرب عنفـا وقام من البربر فى كـل ناحية زعيـم يقود مواطنيـه فى هذا الكفاح. نكب العرب إذن فى معركة الأشراف ثم هزموا عند بقدروة وكان واضحًا أن الثورة إذا استمرت على هذا النحو فربما كانت نتيـجتها خروج المغرب عن طاعة الخلافة، وأرسل هشام حنظلة بن صفوان لإنقاذ الموقف، وقد انتصر ودخل القيروان وجمع العرب تحت لواء واحد للدفاع عن النفوذ الأموى. وانتـهت المعركة بانتصار العرب وانقصم ظهر الثورة، وأخذت تهدأ عام 125هـ الموافق 742م، وساد السلام ربوع

البلاد وأخـذ العرب يطمئنون إلى مصـيرهـم ولزم البربر السكون بعـد هذه الهزائم القاسـية. ثم احتل عبـدالرحمن بن حبـيب القيروان واسـتـقر بها، وكان انـتـصار عبدالرحمن بن حبيب وسيادته على المـغرب العربى بداية استقرار أهل البلاد حتى سقوط الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية[أ] وبعد ذلك نجحت دعوة العلويين بين صفوف عرب البربر والتى تحض على الثورة ضد الحكام الجائرين، فقد وجد عرب العاربة من البربر فى مـبدأ العلويين مبرراً شـرعيًا يقول لثورتهم يتـواءم مع مبادئ العلويين ممثلة فى ثورة الإمام الحسين عليه السـلام ضد الظلم والطغيان والانحراف عن الإسلام وإعادته إلى ما جاء به رسـول الله ﷺ. حيث نجحت هذه الدعوة فى ظهور «الأدارسة» و«الفاطميـين» و«الموحدين» والمرابطين والأغالبة والعلويين حكام المغرب الحالين وكذلك السنوسيين وغيرهـم.

أ ـ د. حسن أحمد محمود ـ المرجع السابق ص165.

الفصل العاشر



سقوط النظام الأموى

- تميزات الدولة الأموية ومآثرها.
- موقف الموالى من الأمويين.
- الشعوبية.
- الهجرة بعيدا عن دمشق.
- موقف العلويين من الأمويين.
- القدرية والانقسام بين أفراد الأسرة الأموية.

مميزات الدولة الأموية ومآثرها:

قامت الدولة العباسية على أنقاض الدولة العربية. ويجدر بنا قبل الكلام عن هذه الدولة الجديدة أن نصفى حساب الدولة العربيـة المنهارة، فنبين مميزاتها ومآثرها التى خلدت ذكراها، ثم نـعدد عيوبهـا ومثالبـها التى أدت إلى سقـوطها. والمراد بالدولة العربيـة هى الدولة التى قامت بقيام الإسـلام واتسعت بالفتوحـات الكبرى التى قـام بها العـرب أيام الخلفاء الراشـدين وخلفاء بنى أمـية. ثم انتـهت الدولة العربية بسقوط الدولة الأموية عام 132هـ (749م). فالدولة العربية إذن هى ظاهرة تاريخية مركبة نبتت صغيرة أيام الدعـوة الإسلامية ثم أخذت تنمو وتتسع أيام عمر بن الخطاب فى عصر الخلفاء الراشدين ثم فى أيام الوليد بن الملك فى عصر الخلافة الأموية حتى شـملت أجناس المشرق والمغرب. وهكذا نجد أن الدولة العـربية مرت بثلاث مـراحل: مرحلة الدعوة الإسـلامية، ومـرحلة الخلفاء الراشـدين ثم مرحلة الخلافة الأموية، فالدولة الأموية هى المرحلـة الثالثة والأخيرة من مراحل نمو الدولة العربية، وقد انتهت على أيدى العباسيين عام 132هـ الموافق 749م. ولقد وصفت هذه الدولة بالعـربيـة لأن الجنس العـربى هو الذى كان حـامـلا لواءها ومـصرفًـا لشؤونهـا حتى نهـاية الدولة الأموية. فلمـا قامت الدولة العبـاسيـة آل الأمر إلى الأعاجم أو إلى الـشعوب التى تحـولت إلى الإسلام كـالخرسانـيين والأتراك. وقد لاحظ المؤرخون هذا الفرق بين الدولتين، فقالوا إن دولة بنى العباس دولة إسلامية ودولة بنى أميـة دولة عربية وسقوط الدولـة العربية فى حد ذاته أمـر طبيعى، لأن الدول ـ كمـا يقول ابن خلدون ـ كالأفـراد والكائنات الحيـة تمر فى أدوار ومراحل مختلفـة من نمو وقوة وضعف ثم فناء. إنما المهم هنا ما تـتركه هذه الدول من آثار إيجابيـة تخلد ذكراها. ولكن فى مـجملها العـام إذا ما تركنا الجنس، فـإنها دولة إسلامـية ولهذا يمكن القول إن دولة الرسـول محمد ﷺ تعـتبر الدولة الإسلامـية الأولى والخلفاء الراشدون الدولة الإسلامية الثانيـة والأموية الدولة الإسلامية الثالثة والعباسية الرابعة والفاطمية الخامسة والعثمانية السادسة.

مآثر الدولة العربية كثيرة تكتفى بذكر أهمها وهى[1]:

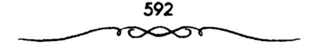
أنها زادت فى مساحة الدولة الإسلامية الجديدة، فدفعت حدودها شرقًا إلى أواسط آسيا، وغربًا إلى المحيط الأطلسى. ففتحت بلاد ما وراء النهر على يد قتيبه ابن مسلم، وإقليم الهند فى شمال غرب الهند على يد محمد بن القاسم الثقفى والمهلب بن أبى صفره، كما فتحت الشام على يد خالد بن الوليد، ومصر على يد عمرو بن العاص، والمغرب والأندلس وجزر البحر المتوسط على يد عدد من كبار القادة العرب أمثال عقبة بن نافع وحسان بن النعمان وموسى بن نصير وغيرهم.

الدولة العربية صبغت هذه المساحة الشاسعة من الأراضى بالصبغة العربية وذلك عن طريق نشر الجنس العربى فى أنحاء تلك البلاد. فكثير من القبائل العربية قد تركت موطنها الأصلى فى الجزيرة العربية، وهاجرت إلى البلاد المفتوحة بقصد المعيشة فيها والدفاع عنها واتخاذها وطنًا لها. فهذه الهجرة لم يكن الغرض منها استغلال البلاد وثرواتها كما يفعل المستعمرون حديثًا، وإنما كانت تهدف إلى الاستقرار فيها والاختلاط بأهلها والمشاركة فى تعميرها، حينما ضحوا بوطنهم فى سبيل المعيشة فى البلاد التى فتحوها ونشر جنسهم وثقافتهم فيها.

ونجد أن الدولة العربية كانت لها سياسة عربية مرسومة وموضوعة وقد نجحت فى ذلك نجاحًا كبيرًا بحيث أصبحت لغتها العربية أداة التخاطب الوحيدة بين أبناء العالم العربى إلى اليوم وهذا يعتبر من مآثرها كدولة عظيمة. ورغم الإقرار الحقيقى بأن بوادر العنف فى الدولة قد بدأت قبل قيام الدولة الأموية ومنذ وقت مبكر، منذ بداية خلافة عثمان بن عفان وما تمخضت عنه حادثة الثورة أو المعارضة الإسلامية، ولقد حاول بعض رجال المسلمين احتواءها فلم يتمكنوا، ورافقت أحداثًا جسامًا كحرب البصرة وصفين التى أدت فى النهاية إلى زوال عصر الراشدين وقيام عصر الأمويين. إن انتهاء عصر الراشدين، ومجىء الأمويين للسلطة قد غير الصورة الحقيقية للدولة تماما، وخاصة بعد أن غير معاوية الأمر

---

1 ـ د. أحمد العبادى ـ الدولة العربية ص10.



وجعله وراثة فى بيت بـعينه، وتمكن من نقل الدولة من النظام الإسـلامى وتطبيق الشريعة الإسلامية إلى النظام القمعى الاستبدادى الذى يقوم على أساس التوريث. وبذلك أصـبحت الخـلافة الأمـوية أقرب إلى السـياسـة منها إلى الدين. بـعد أن جعلوها ملكا لهم. وقد جـرت هذه السياسة إلى الكثيـر من الأخطاء والتجاوزات التى برزت فى عهدهم فى فـرض العقوبات والحدود وعدم تطبيق مـبادئ الشريعة الإسلامية. هذه الـسياسة وما رافقهـا من أحداث كانت من أكبر أسبـاب المعارضة للأمويين والتى شكـل العلويون والعباسـيون التيار الأقـوى فيهـا. وهكذا كان رد الفعل العنيف من قـبل العباسـيين ضدهم وما نفـذوه من سياسـة مجافيـة للشرع وتجاوزات فى فرض العقوبات والحدود تعتبر بحق تكرارا لما عمله أو نفذه الأمويون من قبلهم، وتحـديا صارخا لمبدأ تطبـيق الشريعة الإسلامـية. ويفسر لنا اليـعقوبى والطبرى والمسعـودى، ما قام به الأمويون من تصرفـات مجافية للشرع لجـأوا إليها لحمـاية دولتـهم التى ولدت والمعارضـة تحيط بهـا من كل جانب، مما دعـاهم إلى اللجوء إلى العناصر العربيـة المتعصبة لمساندتهم ضد تيارات المعـارضة القوية سواء من الداخل من العلويين والعباسيين والخوارج وغيرهم، أو من الخارج من الأعداء المجاورين كالبيزنطيين، مما حملهم على إحياء العـصبية القبلية التى حاربها الإسلام من قـبل. مما أدى إلى إذكاء روح المـعارضـة الشديدة للـدولة، وأصبـحت الدولة الأموية فى نظر المعـارضين لا تمثل رأى الأمة، وما أقـره الشرع فى إقامة الجـماعة الإسلامـية على أسـاس من الأخوة، وما أمـر الدين الإسلامى من المحـافظة على وحدتها وأمنها. هذه الظاهرة السياسية تكـررت فى عهد العباسيين، وبشكل خطير فى أيام أبى جـعفـر المنصور، لأن دهشـة الانتقـال عندما زالت وأفـاق الناس إلى حقـيقة مـا حدث تبينوا أن الأمـر فى النهاية لم يتـغير كـثيرا عـما كان فى عـهد الأمويين، لأن الخليفـة المنصور مثلا لايختلف فى سياسـة أو طريقة إدارته للأمور عن هشام بن عبـدالملك، فمازالت المظالم قائمـة، والضرائب ترهق الناس، ونظام الحكم مختـلا، والحكم القائم بعـيدا فى روحه ومظهـره عن إقامة شـرع الإسلام وعدله. لذا اتجـه العبـاسيون إلى الفـقهـاء والمؤيدين لإيجاد سند شرعـى لدولتهم ليظهرهـا بمظهر الدولة الشرعـية، وقـد تحقق لهم ذلك فى عـهد الخليفـة محـمد

المهدى. وهكذا فإن نقل الخلافة إلى الأمويين وبالصورة التى نقلتها لنا المصادر، وبدون إشراك رأى الأمة بشكل حقيقى وفعال، أحدث تغيرا ونقلة كبرى فى مسار الخلافة الأموية ظهرت آثاره فيما بعد فى ضعفها وتدهورها وبالتالى سقوطها وانتهائها[1].

اتصفت الدولة الأموية بالعربية لاهتمامها بجنس العرب وحده، وإغفال حقوق الشعوب المفتوحة التى تحولت إلى الإسلام. أما الخلافة العباسية التى قامت على أكتاف الأعاجم أو الشعوب التى أسلمت بعد الفتح فقد اتصفت بالدولة العربية الإسلامية، لأنه آل الأمر إلى الأعاجم من خراسان والترك... إلخ.

التعريب: من المعروف أن الخليفة عمر بن الخطاب قد ترك إدارة البلاد المفتوحة أجنبية بمعنى أنه أبقى على تحرير الدواوين بلغة أهلها: فديوان الشام كتب بالرومية (اليونانية) وديوان العراق وفارس بالفارسية، وديوان مصر القبطية. لكن عبد الملك بن مروان بعد أن استتب له الأمر أمر أن تكون اللغة العربية وحدها هى لغة الدواوين جميعها. فقد نقل ديوان الشام من اليونانية إلى العربية، وكذلك ديوان العراق من الفارسية إلى العربية أيضًا بينما تأخر نقل ديوان مصر إلى أوائل عهد الوليد بن عبد الملك. وقد تبع هذه الخطوة خطوة ترمى إلى تقوية الحكم العربى بضبط ميزانيته واقتصادياته. فأمر عبدالملك بن مروان بضرب العملة ونقشها، ونهى على أن يضربها غيرهم وقد عرفت هذه العملة الرسمية باسم «السكة الإسلامية» ولم تتغير وحدة العملة بتعريبها، فبقى الدينار الذهبى والدرهم الفضى والقطع من الدرهم مثل الدانق والمثقال[2].

تدوين الحديث الشريف: بدأ الاهتمام بكتابة السيرة النبوية منذ النصف الثانى من القرن الأول للهجرة نظرا للحاجة إلى الحديث النبوى الشريف، وبما أن

---

1 ـ د. عبدالجبار منسى العبيدى ـ قراءة جديدة فى أسباب سقوط الدولة الأموية مجلة عالم الفكر ـ العدد الثالث ـ مجلد الخامس عشر ـ أكتوبر 1984 ص271.

2 ـ د. إبراهيم أيوب ـ التاريخ العباسى السياسى والحضارى ص9 وانظر ابن خلدون ص21 والخطط 1/ 158

الحديث النبوى الشريف يعد المصدر الثانى للعقيدة الإسلامية بعد القرآن، نظراً للحاجة إليه فى التشريع الإسلامى، والتنظيم الإدارى، فقد قام بعض رجال الصحابة بتدوين الحديث من تلقاء أنفسهم وعلى رأسهم عبدالله بن عمرو بن العاص بالرغم من أن الرسول نهى عن كتابة الحديث حتى لا يختلط الحديث بالقرآن أو ينشغل المسلمون بشىء آخر غير كتاب الله. وتأخرت عملية التدوين حتى خلافة عمر بن عبدالعزيز الذى اختلط بأتقياء أهل المدينة مثل أنس بن مالك جامع الأحاديث المشهور، أو لثقافته بإقباله على دراسة علم الدين، فكان أول من أمر بجمع الأحاديث وتدوينها. ويعد محمد بن مسلم بن عبيدالله بن شهاب الزهرى (توفى عام 124هـ الموافق 741م) أول من حاول تدوين الحديث إذ إنه كان يحفظ ألفين ومائتى حديث، ثم توالت بعد ذلك محاولات التدوين والتفسيرات المشهورة ودراسة الأحاديث النبوية وتفسيراتها كان لها الفضل الأكبر على انتشار اللغة العربية بين المسلمين وبخاصة منهم الموالى، فاشتهر الإمام الليث بن سعد بفضل كتابه «الجامع الصحيح» وأخيراً لا آخراً فقد أنشأت الدولة العربية بذور الحضارة الإسلامية التى تفاخر بها اليوم[1].

عندما جاء الإسلام، جاء ليعلن نهاية العصور القديمة التى كانت السيادة فيها على الناس لطبقة محدودة، تملك زمامهم، وتتصرف فى أموالهم، وتحجر على حرياتهم، وتعتدى على دمائهم دون أن تخشى رقيبا أو حسيبا. والباحث فى تاريخ العرب قبل الإسلام يجد شواهد كثيرة لهذا الواقع المتردى آنذاك سواء على مستوى القبيلة أو على مستوى الأفراد. هذا الواقع دعاهم إلى ضرورة التفكير فى تغيير هذا الواقع المؤلم الذى يحيط بهم. فحين جاء الإسلام جاء ليقول للناس حكاما ومحكومين أن هناك رقيبا هو الله. ومن هنا فإن دعوة الإسلام إلى الوحدانية المطلقة وإلى عبادة الله وحده، معناها تحويل البشرية جمعاء إلى أمة إله واحد رقيب حسيب، قادر وخالق، وأن الناس لابد أن يلتفوا حول هذا اللواء

1 ـ د. إبراهيم أيوب ـ نفس المرجع ص9 وانظر الكامل فى التاريخ 4/ 53 فتوح البلدان 4/ 54.

الكبير القـوى وقد جاء الإسلام بمبادئ اخـلاقية أرسى دعائمـها فى سنيه الأولى. هذه المبـادئ هى فى ذاتها مـبادئ سيـاسيـة لأن الأمة لو سـارت عليهـا لصلحت سياسـتها وسارت فى الطريق القويم الذى رسمـته الشريعة لها. فـعندما يقول الله سبحـانه وتعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ... ﴿١٠٣﴾﴾ [آل عمران] فمعنى ذلك أن الاعـتصام بأمر الله أمـر، وعدم التفريق أمـر وليس هو خيارا ولا اسـتثناء فى هذا ولا ذاك. وفـى قوله تعـالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾﴾ [الأنبيـاء]، فمـعنى ذلك أن الأمة ينبـغى أن تكون واحدة، ولا يجوز لأى جماعة أن تنصرف عن هذه الوحدة لأى سبب من الأسباب، ولهذا قال الرسول (ﷺ): «لا تجـتمع أمـتى على ضلالة»، أى أن إجـماع الأمـة واجتـماع كلمتـها لابد أن يكون خيـرا. والذى حدث أن بعض المسلمـين تصور أن العقـيدة الدينية هى عقيدة دينيـة فحسب، بينما هى فى ذاتها قواعد سيـاسية، فالدين معناه منهج الحياة المتكامل عـقيدة وشريعة وأسلوب حيـاة. ويقوم المنهج الإسلامى على المساواة الكاملة بين أفراد الأمـة، فلا يتميز حـاكم على محكوم، إلا بما يقضى به الشرع، لأن الله لم يمـيز إنسانا على إنسـان إلا باتباعه لأوامر الله وهذا مـايسمى بالتقوى. ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ [الحجـرات]. والشريعة الإسلامـية تسوى بين الحاكم والمحكوم فى سـريان القانون وفى مسؤولية الجمـيع عن التصرف أيا كان نوعه، ومـن أجل ذلك فإن الحاكم لا يتمـتع بصفة القداسة ولايـمتاز على غيره وإذا ارتكب أحدهم مخـالفة للشريعة عوقب عليها كـما يعاقب أى فرد آخر. وإذا ما خرج عـلى نهج الشريعة وجب على جمـاعة المسلمين الوقوف فـى وجهه وعزله عن السلطة، أو الثـورة عليه وإزاحته من ساحـة الحكم بالقوة والعنف. إن سياسـة الخلفاء الراشدين التزمت بهـذا الاتجاه، فقد اعـتادوا طرح سياسـتهم أمام الرعيـة، فهـذا الخليفة أبو بـكر يقول: «أيها الناس إنى قـد وليت عليكم ولست بخيـركم، فإن أحـسنت فأعـينونى وإن أسأت فـقومونى، أطـيعونى مـا أطعت الله ورسوله، فإذا عـصيت الله ورسوله فـلا طاعة لى عليكم». والخليفة عـمر يقول: «أيهـا الناس إنى قد وليت عليكم ولولا رجـاء أن أكون خـيركم وأقـواكم عليكم

وأشدكم اضطلاعا بما ينوب من مهم أموركم ما توليت ذلك منكم» وانسحب ذلك على الخليفتين عثمان والإمام عليّ عليه السلام. ولعل من نافلة القول أن نشير إلى أن بعض الولاة الأمويين الذين عينهم عثمان حاولوا الاستفادة من الأوضاع آنذاك لتحقيق بعض الأطماع السياسية والشخصية مما سبب تكثيف المعارضة للخليفة عثمان من قبل معارضيه في الدولة. وهنا يبدو لنا كأن بعض المسلمين لم يعد قادرا على فهم طبيعة الأمة الإسلامية، وهي أنها جماعة من المؤمنين متساوون وأحرار يديرون شؤون جماعتهم بالتفاهم بين بعضهم وبعض على أساس مبادئ الإسلام التي تتلخص في وحدة الأمة والتمسك بالمثل الأعلى تمسك إيمان واقتناع، لأن الآية القرآنية تقول: «ولله المثل الأعلى»، واعتبار الأمة وحدة عقيدية تقوم على مبادئ أخلاقية قبل أن تقوم على نظم إدارية. ففي أيام الرسول محمد ﷺ وأبي بكر وعمر لم يكن بالدولة موظفون مسلطون على الناس، ولم تكن هناك سجون بالمعنى العام الذي نفهمه الآن، وإنما كانت حدود الله تطبق على المعتدين، وكان الناس متساوين في الحقوق والواجبات، ولهذا كان الشعور بالمسؤولية تجاه الله والدولة راسخا وواضحا في نفوس الناس دونما حاجة إلى رقابة من أحد. وتلك أعلى درجات الالتزام بالقيم الأخلاقية والمثل الإنسانية. وحتى الأموال التي كانت تجبى لا تخرج عن الزكاة وأعشار الأراضي وبعض موارد التجارة. وكان المال كله للأمة، فكانت الخزانة تسمى بيت مال المسلمين، وأي تغير في هذه الأوضاع، لابد أن يؤدي إلى تغير في طبيعة الأمة الإسلامية. والخليفة عمر بن الخطاب عندما وضع الديوان، لم يضع إلا ديوانا واحدا هو ديوان الجند والعطاء الذي يعطي لهم وينظم أمورهم، ولكنه لم ينشئ دفاتر تحصي فيها أموال الناس، ولم يستبح الخليفة أموال الناس وأرواحهم ولم يستبد بالأمر دونهم[1].

ثمة ومضة اختبار في حياة كل أمة تمثل منعطفا خطيراً على أساس ما يتخذ فيه من (قرار) يحدد مصير الدولة، إن هذا القرار سوف يحدد بالضبط هل بقيت

1 ـ د. عبدالجبار منسي العبيدي ـ نفس المرجع ص272.

لدى هذه القوة مـؤهلات القيادة، وأنها قـادرة على الاستئناف والانقلاب مـلائمة للتحديات أو أنها قد انهزمت من داخلهـا ولـم تعد قادرة على المبادرات الحضارية. وبالنسبة للأمويـين فى التاريخ حدثت لهم (ومضة الاختبـار) هذه مرتين: مرة فى المشرق وقد أخفقوا فيها وكان ذلك عام 100هـ الموافق 718م. ففى هذا العام ـ أى فى الاختبار الأول ـ حاول عمر بن العـزيز إحداث هذا الانقلاب. كان سليمان قد نجح حين ولى عـمر بن عبـدالعزيز على خلاف الـسنة المعهودة فى الولاية فـقدم الفـرصة أمـام الدولة للاسـتئناف فى ظـل دم جديد لكن بنى أمـيـة رفضـوا هذا الإقلاع، وخـافوا أن يخرج عمـر بن عبد العزيز مـا فى أيديهم من الأموال، وأن يخلع يزيد من ولاية العهد بعده. وبموت عمر بن عبد العزيز الغامض والذى تثور حوله الشبهات عـاد بنو أمية سيرتهم الأولى وأجهز الخليفـة بعده على إصلاحاته. وجـاهد هشام طيلة عـشرين سـنة دون أن يكون فى مسـتوى الإقـلاع الحضـارى المنشود، ودون مستوى عمر بن العزيز ورؤيته الحضارية الشاملة. ومرة فى إسبانيا، بعد أن نزحوا ببقية قوتهم إلى هناك بعـيداً العباسيين وأنشأوا ملكا لهم عام 138هـ الموافق 755م، وقد حدثت ومضة الاختبار لهم هناك بعد أن كانت دولتهم تعيش فوضى عاتية وقد نجحـوا وولوا عبدالرحمن الناصر دون أن تكون الولاية له فنجح فى قيادة السفينة المترنحة فكأن بنى أمية استفادوا من درس المشرق[1].

وفى عصر الخليفة عثمان بن عفان تغير الأمر، لأن طبيعة الخلافة اختلفت، فالخليفة كان يعتمد على اجتهاده الشخصى واستقلاله فى تعيين الولاة من الأمويين فى مناصب الدولة الهامة. ولما كان مـحتاجا إلى مساعدين، فقـد اختار المساعدين من أهل بيته وخاصة مروان بن الحكم الذى كان رسول الله محمد ﷺ قد نفاه إلى خارج المدينة نتيجـة لسلوكه وتصرفاته غير اللائقـة، وكان مروان بن الحكم الرجل الثانى، وكاتب ووزير عثمان بن عفان، إضافة إلى ذلك فقد كانت أسرة عثمان بن

---

1 ـ محمد عبدالحليم عويس ـ سقوط الدولة الأموية ص79.

عفان من الأمويين الذين كانوا رجال قبيلة قوية طامحة إلى المال والسلطان، فاتجهت همتهم إلى الاستبداد دون النظر إلى رأى الأمة مستغلين سماحة ولين الخليفة الجليل، الأمر الذى أغضب منه كبار الصحابة من أهل الشورى وأسخط عليه أهل الورع والتقوى من المسلمين وأثار الناس على سلطان قريش واستئثارها عن باقى القبائل. ويذكر الطبرى المحاورة التى جرت بين سعيد بن العاص والى الكوفة ومالك الأشتر فيقول: قال سعيد: «إنما هذا السواد بستان قريش، فقال الأشتر: أتزعم أن السواد الذى أفاءه الله علينا بأسيافنا بستان لك ولقومك، والله ما يزيد أوفاكم فيه نصيبا إلا أن يكون كأحدنا، وتكلم معه القوم». فنقل الخبر مضخما إلى الخليفة مما حدا به أن يكتب إلى سعيد بن العاص عامله على الكوفة ليرسلهم إلى معاوية فى الشام لتأديبهم ومعاقبتهم، فازداد الأمر سوءا حين استغل معاوية هذا الإجراء لصالحه.

الموالى: والموالى هم أهالى البلاد المفتوحة الذين اعتنقوا الإسلام. وهؤلاء كانوا فى عهد الدولة الأموية يعاملون معاملة غير معاملة العرب، فقد حرموا من المساواة السياسية والاجتماعية بالعرب. حرموا من الوظائف الكبرى فى الدولة، ومن العطاء الذى يستحقونه نظير التحاقهم بالجيش، بل وفرضت عليهم الجزية رغم إسلامهم. وهذه التفرقة لم يكن مصدرها الإسلام، لأن الإسلام لم يفرق بين العناصر والأجناس. بل ينص صراحة على أن المسلمين أخوة فى الدين، ولا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى وإنما مصدر هذه التفرقة هو سياسة الدولة الأموية التى تقوم على أساس سيادة الجنس العربى. ومن يتصفح الشعر العربى فى عهد الدولة الأموية، يجد تعبيراً واضحًا لهذه السياسة العربية. فالعربى فى نظر الشعراء الأمويين قد خلق ليسود، بينما خلق غيره ليخدم، وصاروا لا يفخرون إلا بمن كان الدم العربى يجرى فى عروقه، ويحتقرون من سواه، ويميزون بين الصريح والدخيل. وهذا كان مدعاة لتذمر الموالى. وقد حاول الخليفة عمر بن عبدالعزيز

(ت101هـ الموافق 719م) اصلاح هذه الحالة فأمر عماله بأن يضعوا الجزية عمن أسلم قائلا عبارته المشهور: «إن الله بعث محمد هاديا ولم يبعثه جابيًا». وكان من أثر هذه السياسة العمرية أن ازداد اعتناق أهل الذمة للإسلام ولكن فى الوقت نفسه نقص إيراد بيت المال فى الوقت الذى كانت فيه الدولة فى حاجة ماسة إلى بذل الأموال فى مشروعاتها التوسعية وفتوحاتها الكبرى. ومن هنا حدث تضارب بين السياسة المالية والسياسة الدينية فى الدولة، وانتهى الأمر بفشل هذه السياسة بعد موت صاحبها عمر بن عبدالعزيز، والعودة من جديد إلى فرض الجزية على الموالى. ولهذا يرى بعض المؤرخين أن سياسة عمر الإصلاحية، كانت سببًا غير مباشر فى سقوط الدولة الأموية، لأنها أيقظت فى نفوس الموالى آمالا كبيرة لم تلبث أن خابت بعد موته. انتشر التذمر الاقتصادى والاجتماعى بين الموالى فى كل مكان وصاروا ينضمون إلى كل خارج على الدولة الأموية. كذلك ظهر هذا التذمر أيضًا على شكل حركة كلامية وهى المعروفة بحركة الشعوبية. وهذه الحركة كانت تطالب بالمساواة بين الشعوب مستندة فى ذلك على قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ... ﴿١٣﴾﴾ [الحجرات]. (قيل إن المقصود بالقبائل هم العرب، والشعوب هم المسلمون من غير العرب) وقد عرف أصحاب هذه الحركة أيضا باسم أهل التسوية لأنهم كانوا ينادون بالمساواة. الشعوبية حركة اجتماعية أدبية سياسية هدفها الطعن فى السيادة العربية وفى الجنس العربى، وليس فى الدين الإسلامى بطبيعة الحال لأن أصحابها مسلمون وكان موالى خراسان أكثر الناس تذمرًا لأنهم أسلموا قبل غيرهم فى البلاد الأخرى، وشاركوا العرب فى جهادهم ضد الترك فى بلاد ما وراء النهر، وضد الهنود فى إقليم السند بل وفى فتح مصر أيضًا حيث نسمع عن فرقة من الخرسان كانت تدعى بالحمراء شاركت فى جيش عمرو بن العاص. وعلى الرغم من كل هذه الخدمات فإن الدولة حرمتهم من عطاء الحرب وفرضت عليهم الجزية لدرجة أن بعض العناصر العربية فى خراسان قامت بحركات ثورية

تنتصـر فيهـا لإخوانهم الخراسانيـين ضد سوء إدارة بنى أمـية. ومن زعـماء هذه الحركة نذكر أبا الصيداء صالح بن طريف الذى عاقبته الدولة بالسجن[1].

إن تاريخ العراق السـياسى، كأحـد المحاور الاستقـطابية الأولى التى ناوأت الحكم الأموى، يكاد يكون المدخل الضـرورى لدراسة هذا العصر وتبيان مـلامحه الخاصة. فقد بدأ هذا النظام كدولة موحدة من العراق، ولكنها كانت بداية الغالب والمغلوب التى لم تلـبث أن أصبـحت نهج السـياسة الأمـوية بجـميـع مراحلهـا المتلاحـقة. ولعل النهـاية ستـأخذ طريقـها أيضا من هذا الإقـليم، كنتيـجة لذلك الصـراع الطويل بين العـراق والشـام، ومـا ينطوى عليـه من تنافـر فى الأهداف والمصالح والمستوى الاجتماعى. فالتحرك المتواصل عبر الاتجاهات السياسية المختلفة ممثلة بالشيعة والخوارج، فضلا عن بعض حـركات «الأرستقراطيين» التى كانت لها دوافعها الخاصة، ولكنها عمليا كانت قـادرة على شحن الجماهير وتفجيرها بصرف النظر عن التباين المصلحى بين الطرفين، كل ذلـك جعل من العراق البؤرة الثورية الخطيرة التى أنهكـت نظام الأمويين واستنزفت طاقـاته فى معركـة جانبيـة ولكنها مسـتمرة. وفى بدايات القـرن الثانى للهجـرة، كان على المعارضـة السياسـية فى العراق، أن تأخـذ مســارا جديدا، أكثـر بلورة فى نضالهـا التقليدى ضـد السلطة الأموية. غـير أن التغـييـر قد تناول الأطر العامـة للمعـارضة، دون أن يستـهدف المضامـين المبدئيـة، إلا فى جوانب محـددة، أكثر مـا أصابت الاتجـاه الإسلامى، وذلك مع ازدياد تأثير الفئات المسحوقة فى المجرى العام للتحرك الثورى.

مـوقف الموالى من الأمـويين: لم يهـتم الأمويين بـإسلام شـعوب البـلاد المفتـوحة، وإنما كان همـهم أخذ خيـراتهم، وألا تنقص إيراداتهم، فاستـمروا فى فـرض الجزيـة والخراج عليـهم، بل أطلقـوا على من أسلـم منهم اسم: «الموالى» ومفردها مـولى أى الخاضعين لـقبائل العرب. وقـد حاول عمر بن عبـدالعزيز أن

1 ـ أحمد مختار العبادى ـ الدولة العباسية ص15.

يصلح الأمور بين العرب والموالى، وينفذ الاتفاقات الأولى بينهم أثناء الفتوح، فمنحهم المساواة فى كل شىء، لكن عمال الأمويين عادوا بعده إلى ما كانوا عليه من تفرقة، فكانت محاولة عمر بن العزيز تنبيهًا لهم إلى حقوقهم. لذلك ظهرت فى أواخر عهد الدولة الأموية الحركة التى عرفت «بالشعوبية» أى المطالبة بحقوق الشعوب التى أسلمت بالمساواة. وامتدت هذه الحركة فى المطالبة بالمساواة إلى شعوب مختلفة من عجم، وبمعنى آخر، فإنها شملت معظم الدولة الأموية[1].

الشعوبية

بدأت الحركة الشعوبية كلامية، اعتمدت فى تأييد حقها فى المساواة على آيات من القرآن، مثل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ... ﴿١٣﴾﴾ [الحجرات]، وعلى أحاديث نبوية، مثل: «ليس لعربى على أعجمى فضل إلا بالتقوى». وقد انقسم العرب إزاء ذلك إلى: فريق من أتقياء العرب الذين كانوا يعطفون على هذه الحركة، فيما رأوا من سوء معاملة أفراد الطبقة الحاكمة لإخوانهم المسلمين من غير العرب، مما لا يتفق مع شريعة الله ومبادئ الرسول. وفريق متعجرف لم يعترف بسوء سياسة الحكام. ثم بدأت الاتهامات والتجريح بين الحكام والمحكومين، حتى قال العرب: «لا يقطع الصلاة إلا ثلاثة: حمار أو كلب أو مولى». أما الموالى فأخذوا يصغرون من شأن العرب ويفتخرون بملوكهم وتاريخهم. ولكن هذه الحركة لم تظهر بقوتها مثلما ظهرت بين الفرس، لأن الموالين لم يهتموا بإسلامهم، وأطلقوا عليهم اسم: «العجم أو العلوج». أى الذين يتكلمون لغة غير مفهومة. لذلك، ومنذ عهد مبكر، اعتنق الفرس المبادئ التى تناوئ الأمويين، بخاصة المبدأ الشيعى، الذى كان يدعو إلى ولاية أسرة النبى الخلافة، لاسيما وأنهم نظروا لهذه الأسرة نظرة احترام

1 ـ د. إبراهيم أيوب ـ المرجع السابق ص14 وانظر العقد الفريد 2/ 86.

وتقديس، إذ كان الحسين بن على عليه السلام قد تزوج بابنة يزدجرد الثالث آخر ملوك الساسانيين، فقد كان معظم الفرس من الشيعة يومذاك[1].

فالموالى الذين عاشوا فى إطار التبعية المطلقة للأقلية الحاكمة فى العراق، أخذوا يتحررون تلقائيا من هذا الموقع المهزوم، حين أصبحوا جزءاً من المجتمع العربى الإسلامى، على الرغم من المحاولات المضادة التى بذلها بعض المتطرفين فى الإدارة الأموية، للحد من نتائج هذا الانقلاب الذى هدد مباشرة معادلات النظام التقليدية. وكان مؤشر التناقض بين السلطة الأموية، التى رفضت عمليا الاعتراف بمبدأ المساواة الإسلامية فى العراق وبين الموالى، القوة الفاعلة فى المعارضة الإسلامية السياسية، هو انتقال التيار الثورى قيادة وجماهيراً إلى الفئات غير العربية، ففى المشرق، أخذ الموالى يتحركون بحثًا عن شخصيتهم المفقودة فى إطار ما عرف بتيار «الشعوبية» التى ظهرت فى أواخر العصر الأموى، متلمسين طريقهم إلى الثورة فى الدعوة العباسية. وفى المغرب أخذ عرب العاربة من البربر وهم أكثر حداثة بتراثهم الإسلامى، يتحسسون بدورهم طريق التغيير، خصوصًا وأن هجرة الخوارج بأفكارهم المعروفة إلى هذه المنطقة، قد تركت بصماتها الواضحة على أفكار عرب العاربة من البربر وموقفهم من السلطة التى مثلها متطرفو الحزب الحجازى من الولاة الأمويين. امتازت هذه الفترة بتعاقب عدد من الولاة الحجازيين على حكم المغرب، الذين ساهموا بتعصبهم فى انفجار ثورة البربر الكبرى، المعاصرة للخليفة هشام بن عبدالملك. وهكذا حدث تحول ملموس فى حركات المعارضة التى ناهضت الحكم الأموى، وذلك باتخاذها اتجاهات غير عربية، بعد انتقال ثقلها الجماهيرى إلى الموالى فى المشرق وعرب البربر فى المغرب. وهذا ما أدى إلى اكتساب التيار الثورى بعداً اجتماعيًا فى الصميم، خلافًا للحركات الثورية السابقة، حين كانت مضامينها الراجحة سياسية أو فكروية. وكان ذلك نتيجة حتمية لانتقال المبادرة فى هذا المجال إلى الفئات المسحوقة، التى استغلت الاختلال

1 ـ د. إبراهيم أيوب ـ نفس المرجع ص16 وانظر الانسانى 4/ 334، أبو يوسف 1/ 30.

فى قاعدة المساواة، للمطالبة بحقوقها فى المجتمع، متوسلة لذلك مختلف الطرق بما فيها الثورة[1].

النزاعات الدينية: إن المذاهب الخارجية التى اتخذت، فى الولايات الغربية البعيدة، أشكالا من المقاومة الوطنية، ثم ظهرت وكأنها قضى عليها فى الولايات القريبة من الخلافة، بعد عمليات القمع القوية التى قام بها الحجاج، ظلت تشغل النفوس، ولن تتأخر فى معاودة الظهور تبعا لضعف الحكومة المركزية فى دمشق. فمنذ عام 127هـ الموافق 745م حشدت الخارجية قواها من جديد حول الكوفة وخلقت مشاكل خطيرة للأسرة الأموية. فقد قام الضحاك بن قيس الشيبانى الخارجى، وانتهز فرصة انقسام الأمويين عقب قتل الوليد بن يزيد وزحف على الكوفة (عام 127هـ الموافق 744م) بأنصاره الذين بلغوا زهاء 100ألف رجل ثم خرج إلى الموصل ونصيبين، قبل أن يقضى عليه مروان عند ماردين عام 128هـ الموافق 745م التالية، وفى جزيرة العرب، قام خارجى آخر بمكة هو أبو حمزة وسار إلى حضرموت عام 128هـ الموافق 745م ثم إلى المدينة عام 130هـ الموافق 747م ولكنه قتل فى نفس السنة. وفى العراق قاعدة المذهب، حيث عاد إلى الظهور كان المذهب قد أصيب بضعف شديد فى عهد الخليفة هشام نتيجة للدعاية لصالح العلويين. فكما عمل أهل الكوفة منذ ستين عامًا من قبل، على استدعاء الإمام الحسين ﷺ، استدعوا من المدينة أحد أفراد الأسرة العظيمة وهو الإمام زيد ابن على (زين العابدين بن الحسين بن على عام 121هـ/ 739م على أيام هشام بن عبدالملك)، وأعلنوا إمامته وطالبوا له بالخلافة. وطيلة عشرة أشهر فشلت التدابير التى اتخذتها دمشق ضد ثورة العراق. وفى النهاية قبض على اثنين من أنصار زيد، وتتبع أثر المطالب بالخلافة، وقتل رميا بالسهام (فى يناير عام 740م/ صفر 122هـ) وهكذا أراق الأمويون من جديد دم حفدة النبى، وكان أصحابه قد دفنوه فى ساقية وأجروا الماء على قبره خوفًا أن يمثل به، ولكن عرف القبر ونبش وأخرجت الجثة وصلبت ثم أحرقت وذر رمادها فى الفرات[2].

---

1 ـ د. إبراهيم بيضون ـ المرجع السابق ـ ص288.

2 ـ د. سعد زغلول ـ المرجع السابق ص26.

ولعل التساؤل يفرض نفسه، لمعرفة مدى الجدية فى موقف الخلافة الأموية إزاء هذا «الانقلاب» الخطير فى هيكلية المعارضة الذى تبلور فى الثلث الأخير من تاريخها؟ ذلك أن أى خليفة أموى لم يكن لديه التصور الواقعى لمشاكل دولته، التى أخذت تستفحل مع تزايد مساحتها وارتفاع أعداد سكانها. فقد ظلت المعادلة الأولى التى استخدمها معاوية ـ المعتمدة على التوازن النسبى بين القبائل، والمتجاهلة أوضاع الشعوب غير العربية ـ هى السائدة لدى خلفائه حتى الكبار منهم أمثال عبدالملك والوليد. ولاشك أن طبيعة النظام الأموى الذى قام أساسًا فى ظروف غير عادية، كانت وراء الأسباب التى جعلت من الخلفاء يتخذون تلك الشخصية الصدامية، محافظة على هذا النظام المهدد دائمًا بالسقوط. ولذلك نستطيع القول إن جهود الخلفاء الأمويين كانت منصبة فى اتجاهين: الأول هو التصدى للتيارات السياسية المناوئة وإحباط المحاولات الثورية، والآخر هو تشجيع الاتجاه التوسعى الذى تحول إلى هدف فى ذاته، وليس مدخلا إلى علاقة متكافئة، تأخذ فى الاعتبار مصالح مختلف الأطراف بمن فيها الشعوب «المغلوبة». وكان عمر بن عبدالعزيز، أول خليفة فى الأسرة الأموية، يشذ على القاعدة التقليدية، ويعطى هذه المشكلة نصيبها من الاهتمام ومن الجدية. فهو يختلف عن أقرانه فى الأسرة الحاكمة، حتى فى حياته الخاصة التى وصفت بالبساطة والابتعاد عن المظاهر الملكية. وقد يبدو من أسباب ذلك أن الخلافة سعت إليه، وكان للصدفة ربما الدور الرئيس فى اختياره. فثمة ظروف غير عادية تدخلت فى هذا الأمر، أهمها موت الخليفة سليمان فى «دابق»، وهو يتابع أخبار حملته إلى القسطنطينية، تلك التى كان أحد قادتها ابنه داود، وهو على الأرجح ولى عهده. فكان أن استغل هذا الفراغ أحد الفقهاء المقربين منه وهو رجاء بن حيوة الذى توصل إلى إقناعه بتعيين عمر بن عبد العزيز خليفة له. وجاء القرار صدمة لأبناء عبدالملك، وفى طليعتهم هشام الذى رفض فى البدء الاعتراف بالأمر الواقع، ولم يبايع إلا مرغما الخليفة الجديدة. وهذا الموقف يكشف ذهنية الأسرة المروانية، التى وجدت فى هذا

الاختيار أمراً غير مألوف فى الاعراف السائدة، ونهجا لايتطابق والمقاييس المفروضة للخليفة المرشح[1].

وفى الفترة الإسلامية الأولى كانت الفكرة الجديدة ذات طاقات توسعية هائلة. وكانت طاقاتها هذه تنساق فى مجارى التوسع ولم يقم فى الوقت نفسه نظام داخلى يعادل أداة ذلك التوسع من حيث القوة. وهذا هو العامل ذو الأثر فى تاريخ الدولة الأموية، وهو عامل كثيرا ما أساء فهمه الدارسون من بعد، إما ذهاباً مع الهوى وإما افتقاراً إلى المعرفة التاريخية، أو افتقاراً إلى الإحساس بالنظرة التاريخية. وإن فكرة (الأيديولوجية) لم يتح لها خلال القرن الأول أو نحوه أن تتجسد فى أية نظم اجتماعية سوى نظام الحكومة. فإذا احتكرت الحكومة وحدها السلطة التى تمارسها لم يكن إلى جانبها نظام آخر ينازعها سلطانها - فلم يكن ثمة اختيار بين احتكار الحكومة للسلطة أو تنازلها عن بعضها لنظام آخر لأن هذا النظام الآخر لم يكن له وجود، والسلطة على أية حال شيء لايمكن نقله، إنما كان الاختيار الوحيد بين احتكار السلطة - سواء أكان يمارسها الأمويون أو غيرهم - وبين الفوضى[2].

إننا نجد أن تحول الطاقة لايضعف نظام الحكم مطلقًا فى أول أمره وذلك لأن مجموعة الطاقة المتوفرة هائلة، ولأن تحويلها يجرى على نحو متدرج بطيء. ثم إننا قد رأينا فيما يتصل بالأمويين أن القوة التوسعية التى بعثتها الفكرة الإسلامية أصلا إلى الوجود تمثلت فى واقع الأمر، فى صورة قوة توسعية قبلية عربية، ولما تلاشى حافز الفكرة الذى كان يحدو للتوسع الخارجى فى مرحلة تالية، كانت الحكومة ماتزال تستطيع الاعتماد على الطابع العدوانى، الذى وسمت به روح القبائل وأشربته نظرتها، وأن تستغله فى التوسع ومع هذا فلا بد من أن يأتى عاجلا أو آجلا وقت يحصل فيه توازن تقريبى بين قوى التوسع والقوى الخارجية،

1 - د. إبراهيم بيضون - نفس المرجع - ص289.

2 - د. محمد عبدالحليم عويس - المرجع السابق ص82.

وعند هذا الحد إما أن يكون حافز التوسع قد استنزف طاقاته وإما أن يكون قد أصبح أضعف من أن يتغلب على القوى المعارضة، وعندئذ يصبح نظام الحكم مضطراً إلى أن يقف موقفًا دفاعيًا. وهكذا أوشك أن يصل إلى المأزق الحضارى الذى وقعت فيه الدولة الأموية، إلا أن رؤيته المقيدة بالسوابق الثقافية قد حالت دون ذلك. مع أنه اقترب كثيراً من الحقيقة. ومهما يكن من أمر فإن الدولة الأموية لم تستوعب قانون الامتداد (بالفتوحات) كان عليها أن تمتد (بالدعوة) وإلا فقدت مؤهلها للبقاء والتقدم[1].

كما شهدت منطقة خراسان سياسة أموية مجحفة بجعلها موردا للشام وذلك بفرض ضرائب الجزية والخراج على أهلها والاستحواذ على الأراضى التى كان ملوكها يستصفونها لأنفسهم من الضياع العامرة وجعلها صافية لنفسه وأهل بيته. بالإضافة إلى ملايين الدراهم المتحصلة منهم كضرائب للموالى. كما ظهر تيار إسلامى متمثل بموقف الخوارج واستنكارهم من حيث المبدأ كل تمييز بين العرب والموالى ويطالب بتطبيق مبادئ الشريعة الإسلامية عليهم وإنصافهم من التعدى والظلم واعتبارهم مثل العرب فى الحقوق والواجبات، وليس هناك من سبب مباشر يدعو للتفريق بينهم وبين العرب، ما داموا قد دخلوا فى الإسلام وحاربوا فى صفوفه ضد الأعداء فى بلادهم وخارجها وأن إخلاصهم أصبح واضحا فى سبيله. هذا الأمر شعر به بعض خلفاء وولاة بنى أمية كعمر بن عبدالعزيز ونصر ابن سيار وحاولوا إصلاحه، لكن ظروف المجتمع فى خراسان وغيرها وحالة التداعى والتداخل حالت دون ذلك. ومع كل الذى يقال فى سياسة الدولة الأموية فى خراسان، فإن الشعوبية لعبت دورا بارزا فى التعتيم على الإصلاحات هناك وإبراز المساوئ لتشويه سمعتها وبالتالى إسقاط الحكم العربى وإظهاره بالمظهر غير الشرعى فى تلك البلاد، وقد تنبه نصر بن سيار عامل الأمويين إلى ذلك فكتب إلى الخليفة يدعوه إلى اليقظة والحذر مما يحاط بدولته من دسائس ومؤامرات بعد أن أعيته حيل الكرمانى فى خراسان وظهور أبى مسلم.

1 ـ د. محمد عبدالحليم عويس ـ نفس المرجع ص83.

ومما زاد الأمر تعقيدا على السياسة الأموية ما صرح به معاوية نفسه حين قدم المدينة يستطلع الأحوال فيها تمهيدا لمبايعة يزيد بولاية العهد، فردوا عليه بأن الخلافة ليست بقيصرية ولا كسروية يتوارثها الأبناء عن الآباء، وإنما هى فى قريش لمن كان لها أهل ممن ارتضاه المسلمون لأنفسهم، فعارضهم فى رأيهم معارضة شديدة. ولرغبة معاوية فى جعل الخلافة فى البيت السفيانى أثار حفيظة البيت المروانى مما أثار الشحناء بين البيتين وبالتالى إضعافهما، وهذا واضح من كتاب معاوية إلى مروان بن الحكم عامله على المدينة يطلب منه أخذ البيعة ليزيد، وكان جواب مروان ما يوحى به على غير ما يحب، فعزله معاوية وولى مكانه سعيد بن العاص، مما أغضب مروان وقرر العودة إلى الشام فى أهل بيته ووفد كبير فى أخواله من كنانة وناقش معاوية فى الأمر وبين له بأن لهم حق المشورة فى ذلك، وحاول معاوية إصلاح ذات البين بأن فرض له ألف دينار وفى أهل بيته مائة مائة. كما رفض سعيد بن العاص والى المدينة الجديد هذه السياسة أيضا وكتب إلى معاوية يقول: «العجب مما صنع أمير المؤمنين بنا فى قرابتنا، أن يضغن بعضنا على بعض، وإدخاله القطيعة بيننا والشحناء وتوارث الأولاد ذلك، فوالله لو لم نكن بنى واحد إلا بما جمعنا الله عليه من نصرة الخليفة المظلوم، واجتماع كلمتنا لكان حقا علينا أن نرى ذلك والذى أدركنا به خير»، فكتب إليه معاوية يتنصل من ذلك، وكان لهذه السياسة التى سلكها معاوية أثرها البعيد فى العلاقة بعد ذلك بين فرعى البيت الأموى، واستمرت العلاقة تتباعد حتى انقسم البيت الأموى إلى فرعين متميزين، الفرع السفيانى والفرع المروانى، وكما أبعد البيت السفيانى فرع مروان، فإن المروانيين حين وصل الحكم إلى أيديهم تداولوه بينهم ولم يجعلوا للفرع السفيانى منه شيئا. وهذا واضح من نقل مروان ولاية العهد لولديه عبدالملك وعبدالعزيز، وجعلهما وليى العهد. واستبعد خالد بن يزيد بن معاوية مما أدى إلى إضعاف البيت الأموى فى المدى البعيد. وهكذا فإن ما أقدم عليه معاوية من نظام

التوريث أثبت أنه لم يحسن التقدير، فقد ظهرت الخلافات بعد موت معاوية مباشرة وبدأ الانتفاض على يزيد منذ تولى الخلافة والتى جرت على الدولة الويلات والكوارث واستبيح بسببه الكثير من الحرمات والدماء، وذهب فى خلاله من يد بنى أبى سفيان الملك الذى ظن معاوية أنه وطده لبيته. أما مروان بن الحكم الذى جاء إلى الحكم على أثر مؤتمر الجابية الذى نجم عنه افتراق كلمة الحجازية واليمانية نتيجة اعتماده على سياسة القوة والعصبية القبلية مما أضعف العنصر العربى الذى تعتمد عليه الدولة، وقد سئم العرب السياسة الأموية التى تفرق بينهم وخاصة بعد موقعة مرج راهط المعروفة فلم يكن مروان بن الحكم محببا إلى الأمة أو إلى نفوس العامة.

الهجرة بعيدا عن دمشق: خلال هذه الصعوبات الشديدة حدث ما يمكن أن نسميه بتباعد روحى بين الأمويين وبلاد الشام. إذ كان من نتائج شعور الأمويين بعدم الأمن والاطمئنان فى عاصمتهم، ورغبتهم فى القرب من العرب الذين ربطوا مصيرهم بهم، أن قرر الخلفاء منذ عهد الوليد بن عبدالملك هجر دمشق مؤقتًا، فى أول الأمر، ثم بطريقة مستمرة بعد ذلك. ولم يعودوا يظهرون أمام الناس إلا فى الأعياد الدينية أو فى الاحتفالات الرسمية. فلقد استقر هشام فى وسط بادية الشام، فى شمال تدمر، فى مدينة سرجيوبوليس القديمة التى أعيد بناؤها وأصبحت تسمى الرصافة. وهكذا فضل الأمويون سكنى الصحراء على سكنى العاصمة. وهناك شيدوا القصور، مثل التى أقاموها فى شرق الأردن، كقصر عمرة ومشتى، اللذين يحتمل أن يكونا من تشييد الوليد بن يزيد، كما فضلوا محلات البدو كذلك، فهناك كانوا يتمتعون بحرية تلائمهم كرجال مولعين بالرياضة والصيد، وهناك كانوا يجدون الحياة العربية الحقيقية، منبع الشعر الصافى، حيث كان يمكنهم سماع الشعر الجاهلى الذى يحفظه الرواة والقصائد الجديدة التى تعيد الموضوعات التى كان يعالجها الشعراء قديمًا[1].

1 ـ د. سعد زغلول ـ المرجع السابق ص28.

العصر الأموى هو عصر نهضة حقيقية، وازدهار بالنسبة للشعر العربى. فالخلفاء الذين كانوا يقرضون الشعر أنفسهم أحاطوا مجالسهم بالشعراء وضربوا صفحا عما اتصف به هؤلاء من خروج على الأخلاق أو آداب الكلام. إذ كانوا كلهم يشربون الخمر ويحتفلون بمجالسها دون مداراة أو خجل، وشاعر الأسرة دون منازع هو الأخطل الذى كان مسيحيا مثل معظم أفراد قبيلته وهى تغلب، كما كان يجاهر بعقيدته. وإن ما أنعم به الأمويون على الأخطل والبارزين من معاصريه من الشعراء مثل جرير والفرزدق لتدل على مبلغ تذوق الخلفاء وأفراد أسرهم للشعر وحبهم للأسلوب الجميل والصور المبتكرة، وهذه كانت وسيلة من وسائل الحكم أيضًا. فالشعراء كانوا يمثلون قوة معنوية عظيمة فى مجتمع العرب. فمدائحهم التى كانوا يكثرون منها كانت تزيد من هيبة الخليفة وكبار موظفى الدولة من أعوانه، كما أن هجاءهم كان سلاحًا رهيبًا ضدهم[1].

إن اختيار خراسان مكانا لأغلب هذه الحركات يفسر لنا اختيار العباسيين لها حيث اتخذت الدعوة العباسية الوعد بتحسين أوضاع الموالى اجتماعيا وسياسيا واقتصاديا ومساواتهم بالعرب نتيجة السياسة الأموية وانطلاقا من الأساس الدينى الذى لايفرق بين عربى وأعجمى إلا بالتقوى برنامجا اجتماعيا لها. لذا فقد حاولت الدعوة أن تستغل هذا الشعار وتضم أكبر عدد ممكن من الأتباع والعناصر المناوئة للحكم. هذه العناصر التى كانت تشعر بضرورة التغيير لأنها أصبحت فى نظر العرب موالى أو مواطنين دون العرب، فهناك التقت مصلحة الخراسانيين والعباسيين معا لتحقيق الأهداف المشتركة، ألا وهى إسقاط الدولة الأموية، وتكوين دولة جديدة كل منها يستطيع تحقيق آماله وأمانيه فيها[2].

وإذا كان العرب والخراسانيون قد تأثروا دائمًا بأجواء الصراع السياسى فى العراق، فإنهم تأثروا كذلك وبصورة أعمق بالانقسامات داخل السلطة الأموية

---

1 ـ د. سعد زغلول ـ نفس المرجع ص28.

2 ـ د. عبدالجبار منسى العبيدى ـ المرجع السابق ـ ص289.

وتذبذب مواقفها مع تغير المواقف بين خليفة وآخر. فكان ولاتها فى خراسان، مرآة لسياسة الخلفاء الأمويين والوجه الحقيقى لهم، ربما بصورة أكثر تعبيراً من الولايات الأموية الأخرى. فهم يمنيون إذا كانت ميول الخليفة يمنية، وحجازيون إذا كان الأخير كذلك. ولعل أشهر الولاة الأمويين فى خراسان، الذين تركوا بصماتهم القبلية فى المشرق، المهلب بن أبى صفرة، من الأزد اليمنية، وقتيبة بن مسلم من باهلة الحجازية. فلم يتورع كلاهما عن التورط مباشرة أو غير مباشرة فى المسألة العصبية، على الرغم مما أصاباه من مكانة عالية، وما امتازا به من الدهاء، وهى صفة السياسى المحنك فى ذلك الحين. بيد أن ولاية المهلب على خراسان، كانت أكثر تأثيراً فى التركيب القبلى، الذى أصبح للأزديين فيه الشأن القوى، لاسيما بعد تحالف هؤلاء مع بكر وربيعة ضد التكتل المضرى. وكان لهذا التفوق الأزدى تأثير هام فى التطورات الخراسانية خلال السنوات الأخيرة من الحكم الأموى، إلا أن هؤلاء لم يثبتوا فى الموقع نفسه الذى رسم حدوده المهلب، بعد أن جنحوا إلى المعارضة المتطرفة فى مطالع القرن الثانى الهجرى. وتجلت حينذاك ظاهرة لافتة، وهى ارتفاع نسبة العرب، بعد استمرار التدفق القبلى على خراسان التى توفرت لها كافة عناصر الاستقطاب فى ذلك الحين، بدءا بخصوبة الأرض والثراء وانتهاء بالحصانة الجغرافية، حيث شجع بعدها عن مركز الخلافة، معارضى الأخيرة على الهجرة إليها، بحثًا عن الأمان لدى قبائلها القوية وذات النفوذ الكبير فى إقليم المشرق. ولكن الظاهرة الأهم حينذاك، كانت فى التعايش بين العرب والخراسانيين، إذ كان هؤلاء ما يزالون فى موقع التفوق العددى، على الرغم من كثافة التحرك القبلى إلى هذه المنطقة. وكانت بوادر هذا التعايش، قد ظهرت فى عهد الخليفة الأموى عمر بن عبدالعزيز الذى كانت له سياسة إصلاحية واضحة فى هذه المسألة. وعلى الرغم من حساسيات العلاقة أو بعضها التى تجلت بين العرب والموالى الفرس فى العراق، تلك التى بلغت ذروتها فى ثمانينيات القرن الأول، فإن ثمة نهجًا آخر شهدته هذه الولاية، عندما فرض التعايش العربى ـ الخراسانى نفسه، ليصبح نواة تيار إسلامى متجانس فى المصالح (اشتغال بعض العرب فى

الزراعة ـ حرفة الموالى ـ نتيجة للاستقرار وركود العمليات العسكرية)، وفى العقيدة مع تحول الكثير من الخراسانيين إلى الإسلام، وهو ما لم يحدث بالحماسة ذاتها على الأقل فى العراق.

إلى جانب توقف التوسع فى الخارج، صادف الإسلام صعوبات فى الأراضى التى كانت قد انضمت إلى الدولة منذ حوالى نصف قرن على الأقل. فقد كانت الولايات المتطرفة مضطربة نتيجة طبيعية لسياسة العرب بالنسبة إلى أهل البلاد الذين دخلوا فى الإسلام. فرغم إسلام هؤلاء فإنه كانت تقع على كاهلهم أعباء مالية لايخضع لها إخوانهم فى الدين من العرب، إذ أن حق الفتح كان ما يزال يميز العرب بالأرزاق وخاصة تحول أهل البلاد إلى الإسلام كان يقلل من الأموال اللازمة للعرب. والظاهر أن الأعباء المالية التى كانت خففت بعض الشىء على عهد عمر بن العزيز عادت أثقل مما كانت منذ تولى هشام، وكان هذا نتيجة طبيعية لتوقف الفتوحات وقلة الغنائم. وفى خراسان كما فى المغرب طالب الناس بالمساواة فى الأعباء المالية، كما وعد بذلك الإسلام، هذه المقاومة الوطنية كان عليها أن تأخذ طريقًا مختلفا حسب طبيعة البلاد وأحوال الناس والظروف العسكرية والدينية. كما أن هذه المقاومة ستتعقد وتزداد خطورة بفضل الخلافات التى أتى العرب بها. ففى خراسان يستنجد الفرس بالقبائل التركية التى كانت معادية لها من قبل لتؤيدها فى احتجاجها ضد الضرائب. وكان على الدولة أن تقاتل القائمين ضدها، كما كان عليها أن تقوى الحاميات، ولكن القوات العربية نفسها كانت تمزقها الخصومات القبلية والعصبيات التى كانت تتبعها فى كل مكان، والتى كان يشترك فيها أهل البلاد، أينما حل العرب. وأخيراً بدأت خراسان تستمع من رجال يقومون بالدعوة ضد الأمويين ويبشرون بعهد تكون فيه الخلافة لأسرة من آل البيت[1].

---

1 ـ د. سعد زغلول ـ المرجع السابق ص24.

ومن هذا المنظور، فإن العلاقة الاجتماعية بين العرب والخراسانيين، تصبح أقل تعقيداً فى خراسان من علاقة العرب ببعضهم الذين أوغلوا فى الانقسام، كلما ظهرت بوادر التقارب والتعايش مع الخراسانيين أو غيرهم فى هذه البلاد. ولعل دلالة هذه الظاهرة، أنها جعلت المجتمع الخراسانى يمثل اتجاهين مختلفين فى التركيب والطرح والمفهوم: الأول، هو الاتجاه القبلى الذى انطلق من أرضية الصراع الشمالى ـ الجنوبى أو الحجازى ـ اليمنى، ذلك الصراع الذى أحسن استغلاله فى وقت لاحق أبو مسلم الخراسانى فى الإجهاز على الدولة الأموية. والثانى، هو الاتجاه الإسلامى الذى يمثل العرب كما يمثل الخراسانيين، متجاوزاً حدود القبيلة العربية وقضية الموالى الخراسانية، وداعيًا إلى قيام دولة إسلامية عادلة ومتوازنة[1].

موقف العلويين من الأمويين: لم يعد باستطاعة الذرية العلوية عمل شىء يذكر ضد بنى أمية، بعد أن قتل معظم أفرادها فى كربلاء، وبذلك تأكد انتصار هؤلاء على بنى هاشم أكبر المنافسيين لهم. ولكن أصبحت البقية الباقية من آل أبى طالب مقدسة. وأخيراً قام المختار بن أبى عبيد بن مسعود الثقفى مناديًا بثأر آل البيت، وداعيًا إلى محمد بن الحنفية كما دعى سليمان بن صرد سراً بين العرب للانتقام للحسين، فعرف أنصاره بسبب ذلك باسم «التوابين» إلى أن قتله ابن زياد ـ عامل الأمويين على الجزيرة ـ فى عين الوردة من أرض الجزيرة مع عدد كبير من أصحابه، فقوى موقف المختار بموته حتى تمكن منه مصعب بن الزبير وقتله بقصر الإمارة فى عام 68هـ/ 687م وبذلك كان الانتصار على الشيعة العلويين، وبخاصة عندما تمكن الحجاج بن يوسف الثقفى ـ عامل الأمويين على العراق ـ من الانتصار على عبدالله بن الزبير، فأصبح المسلمون جماعة واحدة تحكمهم الدولة الأموية[2].

---

1 ـ د. إبراهيم بيضون ـ المرجع السابق ـ ص317.

2 ـ د. إبراهيم أيوب ـ المرجع السابق ص12 البلاذرى 5/ 308.

موقف الخوارج من الأمويين: ما أن هدأت حدة الصراع ضد الأمويين، حتى تأججت الثورة من جديد فى العراق، ولكن هذه المرة ليست من جانب الشيعة الذين كانوا قد ضعفوا، وإنما من قبل جماعة أخرى كانت مع الإمام على ابن أبى طالب فى صفين، وأنكرت عليه جعل حقه المقدس فى الخلافة موضع التحكيم بين الناس وقالت: «لاحكم إلا لله، أى أنها كانت ترغب فى استمرار المعركة، لتستمر وحدها حاملة لواء النزاع مع معاوية، وأنه لايجوز العدول عن حكم الله إلى حكم الرجال، فعرفوا بسبب قولهم هذا: «بالمحكمية»، وإنما انحازوا إلى قرية حروراء - بالقرب من الكوفة - فعرفوا أيضًا بالحرورية. وبدأت تختمر بين هذه الجماعة المنفصلة، فكرة الخروج على نظام الخلافة القائم، وجعلوها جائزة فى غير قريش، وأنها يجب أن تعود إلى أفضل الناس مهما يكن أصله أو جنسه ما دام عارفًا بالكتاب والسنة. أخذت هذه الجماعة تتجمع، بعيدًا عن البصرة والكوفة، عند وسط مجرى نهر دجلة، واختاروا لهم أميرًا أو إمامًا اسمه عبدالله ابن وهب الأزدى وبسبب هذا الخروج عرفوا أيضا «بالخوارج، وهو الاسم الذى غلب عليهم، وقد كفروا عليا ومعاوية وعثمان وأصحاب الجمل، وكل من رضى بتحكيم الحكمين، وحتى مرتكبى الذنوب الصغيرة. ساعد الخوارج معاوية فى تولى الخلافة بقتلهم الإمام على، ومع ذلك وقفوا موقف الأعداء الألداء من الأمويين الذين حاربوهم بواسطة عمالهم فى الكوفة والبصرة باستمرار حتى ملأوا السجون بهم، وقتلوا جماعة كثيرة منهم رجالا ونساء، فانتقلوا إلى بلاد الأهواز بين البصرة وفارس، وبدأوا من هناك بشن غاراتهم التى أزعجت الأمويين كثيرًا، وبخاصة فى أيام زعيمهم نافع بن الأزرق الذى كان السبب فى انشقاقهم إلى فرق متعددة بلغت عشرين فرقة. وقد تمكن عبدالملك بن مروان من القضاء على فتنة الخوارج عندما تمكن عامله على العراق، الحجاج بن يوسف الثقفى من إخماد أخطر فتن الخوارج بالمشرق، الأمر الذى جعل البغدادى يقول عن هزيمتهم «طهرت الأرض من الأزارقة، والحمد لله». وبذلك مهد عبدالملك لخلافته، و لمن جاء من الخلفاء بعده، الاستقرار[1].

1 - د. إبراهيم ايوب - نفس المرجع ص13، الأخبار الطوال ص205.

شهد الربع الأول من القرن الثانى الهجرى، انعطافًا بارزًا فى العلاقة بين الأسرة الأموية الحاكمة والقوى المتحالفة معها، وبين المعارضة السياسية التى اتخذت منذ مطلع هذا القرن طابعًا اجتماعيا ظاهرًا، بعد أن غلب الصراع السياسى على الحقبة السابقة، سواء تمثل بالمعارضة العلوية أو الخوارجية أو الحجازية (حركتا ابن الزبير بالمدينة). وإذا كانت السياسة المالية قد فجرت الوضع فى الجناح الغربى من الدولة - بقيام ثورة عرب العاربة من البربر الكبرى (122 - 125هـ الموافق 739 - 742م) التى كانت مفتاح ذلك التحول فى العلاقة مع الحكم المركزى، تلك التى أصبحت مضطربة حينًا، متقطعة فى أغلب الأحيان - فإن الجناح الشرقى من هذه الدولة، كان أكثر جذرية فى تحركه ونضجًا فى طروحاته التى اختمرت أخيرًا فى إطار تيار إسلامى عام، منسجم مع التغيير الذى طرأ على بنية هذه المنطقة الاجتماعية. فقد كان من مؤشرات الخلل الذى أصاب مؤسسة الخلافة وما رافقه من تحجيم دورها المتكامل - بعد طغيان الجانب الدنيوى فيها على الجانب الدينى - ذلك الفرز السياسى والاجتماعى بين فئتين متناقضتين فى الرؤية والمصلحة، الأولى ممثلة بالسلطة (الولاة والدهاقين)، والثانية ممثلة بـ «الحركة الشعبية» بعناصرها المختلفة، من العرب والخراسانيين والترك على السواء. وهكذا كان الاختلاف واضحا، بين «الحركة الشعبية» فى المغرب العربى وبين مثيلتها فى خراسان، فالأولى كانت أسيرة إقليميتها وتأثرها بالفكر الخارجى المتطرف والمهزوم فى المشرق، مما أدى إلى ذلك النطاق من العزلة الذى أحاط بها، ومن ثم فضلها فى اتخاذ صفة تمثيلية عامة، على غرار الحركة الأخرى المتزامنة معها التى لم تمس الصيغة القائمة للنظام السياسى شبه الإمبراطورى، وفى الوقت نفسه كانت مدخلا إلى التشرذم والتمزق السياسى.

لم يكن رد الفعل فى المغرب بأقل عنفا، إذ اتخذ هو الآخر شكلا خطيرًا. ومهما يكن من أمر، فإن أسباب الاضطراب كانت من نفس النوع. فأهل البلاد الذين أسلموا لم يعاملهم الولاة العرب معاملة حسنة. فيزيد بن مسلم مولى الحجاج ومعاونه فى إدارة العراق أخضع عرب العاربة من البربر لنفس الأعباء المالية

التى كانوا يخضعون لها قبل إسلامهم (الجزية). فلقد سار على نفس نهج الحجاج واستوحى النظام المسيحى البيزنطى ووشم على يد كل جندى من حرسه من البربر اسمه، كما وشم على اليد الأخرى كلمة «جندى» وكان من الطبيعى أن يثير هذا الإجراء خواطر أهل البلاد. واغتيل يزيد فعلا فى عام 102هـ الموافق 721م. إلا أن رد الفعل الذى سيأخذ شكلا خطيراً آخر حدث بعد حوالى عشرين سنة، نتيجة لاشتطاط، أحد ولاة طنجة فى طلباته. فعقب إحدى الثورات، ادعى أن البربر المسلمين الذين وقعوا أسرى كجزء من الغنائم وأراد أن يسترق خمسهم، وهو الخمس الذى كان من حق الخليفة. فثارت البلاد وقتل هذا الوالى وتمكنت الثورة من كل المغرب[1].

أعطى هذه الثورة صفة جد خطيرة أن قائدها، وهو رجل بربرى اسمه ميسرة، كان يذهب مذهب الخوارج الصفرية. وهكذا انتشرت الدعوة التى ظهرت فى المشرق أيام معاوية فى المغرب الأقصى وكانت بمثابة سلاح تسلح به عرب البربر الذى دخلوا فى الإسلام ضد استبداد الأمويين. فمذهب الخوارج الذى كان، كما هو معروف، متشبثا بفكرة الشورى، وحكم الجماعة فى الميدان السياسى ظهر فى المغرب بمظهر السنية الخالصة، الحريصة على إقامة المساواة المطلقة بين جميع المؤمنين دون النظر إلى أى تحيز عنصرى. وبذلك نفهم كيف قدر لهذه الحركة النجاح بين عرب البربر، ومدى الانتشار الذى ستبلغه وسيحرز عرب البربر انتصارين باهرين على الأمويين فى منطقة طنجة: الأول فى وقعة الأشراف حيث يخر فيها زهرة شباب الجيش الأموى صرعى والثانية سيكون والى المغرب وقائد قوات الخلافة من بين القتلى فيها. ووجد الوالى الجديد الذى أرسله الخليفة هشام أمام ثورة عظيمة كان عليه قمعها. وتمكن من ذلك بعد انتصارين دفع ثمنهما غاليا. وثانى هذين الانتصارين حيث هلك 180,000 من عرب البربر كما تبالغ الرواية العربية وقع فى مكان يسمى الأصنام على بعد يوم من القيروان[2].

1 ـ د. سعد زغلول ـ المرجع السابق ص25.

2 ـ د. سعد زغلول ـ نفس المرجع ص25.

كان المغـرب العربى رائد تلك النمـاذج الاستـقلالية المبكرة الـتى قامت فى أعـقاب ثورة عـرب العاربـة من البربر الآنفـة الذكـر. ومن الواضح أن التصـدى للتجـربة الرائدة ـ أى الخلافـة ـ وهى فى مراحل نموها وبدايات اسـتقـرارها، قد انعكس بصورة خاصـة على العلاقة بين الأمويين الحاكمـين، وبين شعوب البلدان التى خـضعت لهم، وبالتـالى فقد أسـهم فى ضعـضعـة الإطار الاحتوائـى لهذه المؤسسة، وهو أبرز مفاهيمها السياسية التى تبلورت فى العهد الراشدى الأول. فلم يكن ثمة تمايز آنذاك بين العقيدة وأصحابها الأوائل الذين حملوها إلى مناطق النفوذ الفارسى والبيزنطى، كما لم يكن ثمة استلاب لها أو تأقلم أو تدجين، على الرغم من شيوع النمط الإمبراطورى فى ذلك الزمن. فسقط هذا النظام أمام صيغة الخلافة المبتكرة، تلك الأداة التنفيذية والنموذجيـة للدعوة التى كان العرب مؤهلين حينذاك لقيادتها والقيام بهـذا الدور التاريخى، عبر مجموعة متضـافرة من العوامل النفسية والجغـرافية والاقتـصادية. ولم يكن ثمة مـايحول أيضًا دون انتـقال هذا الدور أو بعضه إلى شـعب آخر، ليست له تلك الريادة ولا ذلك الرصيـد الحضارى المتكافئ معـه. فقـد كانت العـقيدة الإسـلاميـة، الإطار الجامع الذى يسـتوعب مـختلف الشعوب، دون تناقض بين عالميـة الدعوة وبين الشخصية القومـية والحضارية لكل منها، بحيث تصبح القوميات المتعـددة التى يدين أصحابها بالإسلام، أشبه ماتكون بالجزر وسط محيط من التضامن الأخوى الذى تحكمه العـقيدة الإسلامية السمحة، مما ينفى التناقض العدائى بين القومية وبين العقيدة فى الإسلام، كما عبر عن ذلك مؤرخ معاصر. ومن البديهى أن حركة التوسع أو الفتوح، قد أسهمت بدون مجال للتردد فى إحياء النزعة الإمبـراطورية، مع اختلال نظام الخلافة الذى وضع موضع التنفيذ لبنة الولاء للدولة ـ المؤسسة. وقد جـاءت الانتصارات العسكرية نتيجة ذلك الانسـجام والتـعاطى المتكافئ مع الدولة، خـلافًا للفـتوح الأمـوية التى خضـعت لاعتبـارات متفاوتـة، سواء ارتبطت بسياسـات خاصة للخلفاء والولاة، أو إشـباع

رغبات الجند أو امتصاص النقمة الشعبيـة، فافتعال حملات عسكرية قد لايكون ما يسوغها فى كثير من الأحيان[1].

وبعد مقتل المختار على يد مصعب بن الزبيـر توجه عبدالملك لقتال مصعب حتى قتله عام 72هـ الموافق 691م. بالنسبة لمحمد بن الحنفية فإنه لم يدع إلى نفسه فى يوم من الأيام، ولم يعرف عنه أنه أوكـل مهمة الدعـوة باسمه للمخـتار، لأن المعروف أنه بايع لعبدالملك بن مروان عندمـا تبين له عدم جدوى أى عمل يقوم به العلويون ضد الأمـويين، والأمويون هم الأقوى. وبالرغم من أن المختـار قد دعا باسم ابن الحنفية إلا أن ابن الحنفـية لم يكن له أى دور فيها. وقـد خمد العلويون بعد تلك الأحـداث إلى أن قام بالدعوة لآل البـيت عبدالله بن مـحمد بن الحنفـية «أبوهاشم» فى نهـاية القـرن الأول الهـجرى. أمـا الإمـام زين العـابدين على بن الحسين عليه السلام فلم يعرف عنه أنه أشهر السلاح فى وجه الأمويين، وإن كان المذكور غير راض عن حكمهم وبرغم من إحجامـه عن الدخول فى مجال السياسة إلا أن ذلك لم يحل دون ملاحقته من قـبل السلطات الأموية، إذ يقال: بأن عبدالملك بن مروان أمر بحمله إلى الشام مقيداً بالأغلال[2]. وهذا هشام بن عبدالملك ـ قبل أن يكون خليفـة ـ عندما حج وطاف بالبـيت وأراد استلام الحـجر الأسـود فلم يقدر فنصب له منبر فجلس عليه، فبينمـا هو كذلك إذ أقبل الإمام على بن الحسين فى إزار ورداء، وكان أحسن الناس وجهًا، وأعطرهم رائحـة، وأكثرهم خشوعًا فطاف بالبيت، وأتى ليستلـم الحجر فتنحى له الناس هيبة وإجلالا، فـغاظ ذلك هشامًا، فقال لـه رجل من أهل الشام: من هذا الذى أكرمه الناس هذا الأكـرام، وأعظموه هذا الإعظام؟ فقـال هشام: لا أعرفـه. ويبدو أنه قال ذلك لئـلا يعظم فى صدور أهل الشام فقال الفرزدق: وكان حاضراً، أنا أعرفه وأنشد:

---

1 ـ د، إبراهيم بيضون ـ نفس المرجع ـ ص308.

2 ـ عبدالعزيز محمد اللميلم ـ العلاقة بين العلويين والعباسيين ـ ص28.

هذا الذى تعرف البطحاء وطأته والبيت يعرفه والحل والحرم

هذا ابن خير عباد الله كلهم هذا التقى النقى الطاهر العلم

إذا رأته قريش قال قائلها إلى مكارم هذا ينتهى الكرم

إلى أن يقول:

وليس قولك من هذا بضائره العرب تعرف من أنكرت والعجم

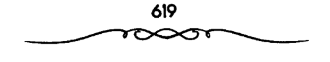
ثم إن هشامًا أمر بسجن الفرزدق بعد قصيدته تلك التى مدح بها عليًا زين العابدين وآل على، والتى هى فى نفس الوقت تحط من قدر الأمويين أمام أتباعهم مقارنة بالعلويين. وقد انطفأ أمر العلويين إلى أن قام بهذا الأمر أحد أحفاد الإمام الحسين بن على وهو «زيد بن على زين العابدين بن الحسين» الذى خرج على الأمويين فى عهد هشام بن عبدالملك فى الكوفة ودعا إلى نفسه وبايعه كثير من أهل الكوفة. ولعل السبب فى عدم قيام العلويين وشيعتهم بثورات ضد مملكة الأمويين فيما بين ثورة المختار، وثورة زيد هذا هو ما أصيب به العلويون وأنصارهم من الهزائم على يد بنى أمية، وعدم وجود من يطمئن إلى نجاح فيما لو قام بهذا الأمر وهذا هو ما جعلهم يحجمون عن القيام بأية ثورة ضد الأمويين[1].

كذلك ارتبطت الفتوحات بقضية أخرى ليست أقل تعقيداً، وهى العلاقة مع الشعوب التى خضعت للدولة الإسلامية. إذ كان محورها سياسة الضرائب، وهى من أبرز عوامل التفجير للأزمات بين هذه الشعوب والولاة الأمويين. وقد انهارات كل الضوابط والأطر التنظيمية، وفى طليعتها كبح الإثراء غير المشروع ومراقبة المداخيل (المقاسمة). وبذلك أصبح الخروج على قواعد الجباية عرفًا مألوفًا، لا تتورع الدولة عن توجيهه والاعتراف به، كواقع أو كضرورة للمحافظة على

---

1 ـ عبدالعزيز محمد اللميلم ـ نفس المرجع ص29 وانظر: الحصرى/ زهر الآداب وثمر الألباب جـ1 ص 103 ـ 104.

القلقشندى/ مآثر الإنافة فى معالم الخلافة جـ1 ص152.



مصادرها المالية. وكان يحدث أن تحاول التصدى أحيانًا لهذه المشكلة، إلا أن محاولاتها اتخذت اتجاهًا توفيقيًا فى معظمها، وكانت تنتهى لمصلحة العرب الحاكمين الذين تقع عليهم مسؤولية اضطراب معادلة المساواة وفشلها. بيد أنه على الرغم من اختلال العلاقة بين العرب وشعوب البلدان المفتوحة فى ذلك الوقت، فإنها لم تصل إلى المستوى الذى تصوره مستشرقو القرن التاسع عشر، وفى طليعتهم فون كريمر Von Kremer وغولدزيهر Goldzher وفان فلوتن Van Vkoren الذين بالغوا كثيراً فى تجسيد الخلل فى علاقة الأمويين بالموالى، وانحدار هؤلاء، حسب تعبيرهم إلى مستوى الرقيق. وهذا التصور مرفوض من عدة جوانب شديدة الوضوح، وفى أولها أن كلمة «مولى» التى أطلقت على المسلم غير العربى، خصوصًا من سكان الولايات الشرقية، لم يكن باعثها الاحتقار أو الاسترقاق، كما يوحى بذلك التفسير اللغوى للكلمة، بل كان لها مدلول الالتحاق بالقبيلة والموالاة لها والالتزام بمواقفها فى السلم والحرب، وذلك لاعتبارات أمنية واجتماعية، تفرضها بيئة تقوم عمليا على التوازن القبلى. كذلك فإن الرقيق بأشكاله الأوروبية التى ألفها المستشرقون فى عهود الإقطاع، لم تعرفه المجتمعات الشرقية، حتى فى «جمهورية مكة» التجارية قبل الإسلام. ومن المعروف أن الرق تحجم كثيراً فى ظل المجتمع العربى الإسلامى الذى نحا خطوات جريئة فى تحرير الإنسان، مهما اختلفت مشاربه وظروفه الاجتماعية. وخلافًا للمجتمع الكسروى الذى عانت منه الفئات المسحوقة حتى الاسترقاق، فإن المجتمع العربى الإسلامى، كانت له المقدرة والاستعداد لاستيعابها، موفراً لها - حتى عهود سيطرة «الثقفيين» على العراق والمشرق، حيث الأغلبية من الموالى - الحد الأدنى من الحرية الشخصية والدينية. وكانت السلطة الأموية التى دانت فى قيامها لتحالفات ومساومات سياسية وقبلية وارتهنت لها إلى حد ما، غير قادرة على تحقيق مجتمع متجانس ومتوازن، مما أدى إلى اتساع الهوة مع خصومها وإلى الافتراق عنهم فى المصالح والأهداف. وكان ثمة دور بانتظار الموالى، ما لبثوا أن تحسسوا بداياته، فى وقت كانت فيه حركة المعارضة تتنبه أيضًا إلى القوة الجماهيرية التى يمثلون. فتحولوا فى مطلع

العهد المروانى، من أكثرية صامتة إلى قوة ضاغطة، تؤثر جذريًا فى مسار التيار الثورى الذى عصف أخيراً بالدولة الأموية[1].

ولكن رياح الثورة لا تستقر فى دائرة المعارضة والحركة الشعبية فقط، بل تسللت إلى معاقل النظام نفسه، فتلقاها بعض أركانه، ممن رفضوا المضى بعيداً فى ركاب الانحراف أو السكوت عليه، وكذلك من الإصلاحيين بالفطرة والمنشأ، حيث السلطة، وهم فى ذروتها، لم تؤثر فى إيمانهم أو تمس قناعاتهم، بل زادتهم قوة وصلابة. ومن نماذج التحرك الأول، انتفاضة المطرف بن المغيرة الجريئة، باكورة الحركات التصحيحية من موقع السلطة. والمطرف يلتقى مع الخوارج فى الثورة على الحكم الأموى، وفى النظرة إلى المرحلة المبكرة من العهد الراشدى، كنموذج مثالى للمجتمع العادل، ولكنه اختلف معهم على «قرشية» الخلافة، ذلك العرف الذى رفضه الخوارج منذ إعلان حركتهم فى صفين. أما النموذج الثانى، فتمثله محاولة الخليفة عمر بن عبدالعزيز، الهادفة إلى تحقيق «ثورة فوقية»، تعيد الأشياء إلى أحجامها وتلغى كافة أنواع الاستغلال والاضطهاد لشعوب البلدان المفتوحة.

كانت الأرض المفتوحة قد اتسعت أكثر مما يقدرون وكان عمر بن العزيز قد حاول ـ بذكاء غريب سبقه إليه جده عمر بن الخطاب ـ أن يوقف هذا الامتداد فى الأرض، حتى يواكبه امتداد فى الدعوة، بحيث لاتطغى الأرض على الحضارة، ولا الدولة على الدعوة، ولاتصبح اعتبارات السياسة أهم من مبادئ الدين. وكان الأمويون لايعالجون ثورة إلا ويدخلون فى علاج ثورة أخرى، فحتى العباسيون الأشداء الذين ورثوهم لم يستطيعوا الحفاظ على المغرب وإسبانيا وأجزاء من المشرق كان حكمهم فيها شكليا. وقد ظن الأمويون أن الرجال الأشداء من أمثال المغيرة ابن شعية وزياد بن أبيه والحجاج وآل المهلب قادرون على إحكام قبضتهم وهو تصور ساذج، إذ أن الفراغ العقدى والنفسى والحضارى لا تكفى فيه هذه العوامل الخارجية الضاغطة بل لابد من تيار حضارى عقدى يملأ أركان الحياة[2].

1 ـ د. إبراهيم بيضون ـ نفس المرجع ص 321.

2 ـ د. محمد عبدالحليم عويس ـ المرجع السابق ص80.

كانت منطلقات المحاولة التى قام بها عمر بن عبدالعزيز داخلية بحتة، حيث كانت أزمة النظام الأموى وعلاقاته مع الفئات غير العربية، جوهر المشكلة أو المعضلة التى تطلبت حلولا موضوعية وسريعة. ومن ناحية أخرى، فقد عملت على توجيه العرب، الطاقة المقاتلة والمتفرغة للشؤون العسكرية، إلى مجالات إنتاجية فى ذلك المجتمع. ولعل ما هو أكثر أهمية، احتواء الدولة للجند وليس العكس، إذ كان هؤلاء يتعاملون مع تلك الفئات من خلال نزعة فوقية وشعور المنتصر نحو المهزوم. ومن هذا المنظور، كان فشل معظم العسكريين، عندما آلت إليهم مهمات إدارية، فى تحقيق الحد الأدنى من العلاقة المتوازنة بين الدولة وبين الشعوب التى خضعت لها، وهناك أمثلة عديدة، كان مسرحها منطقة ما وراء النهر على وجه الخصوص. على أن القرار العملى الذى توج هذه المحاولة، هو الموقف من «إسلام» هذه الفئات، والذى كان موضع طعن العهود الأموية السابقة، لما يعكسه من تأثير على مصادر الدولة المالية. فغالبًا ما لجأ بعض الولاة الذين تمتعوا بشىء من الاستقلالية - تحت تأثير العامل الجغرافى المساعد - إلى «تعهد» الضرائب والتزامها أمام الخلافة، بحيث تتحول مهمة الوالى إلى عملية تجارية، يجتهد بأن تكون رابحة ما استطاع سبيلا إلى ذلك. أما المعضلة الأساسية فى النظام الأموى، فكانت مشكلة الأراضى المفتوحة التى كانت مصدر الخلل الدائم، وانعدام التوازن بين محدودية القدرات الإدارية وحتى العسكرية، وبين الاتساع العظيم لهذه الدولة ومعها الطاقة السكانية الهائلة التى تعيش على هامش الإنتاج فيها. وكان التوجه إليها واستيعابها كقوة فاعلة ومنتجة، أحد أبرز ملامح هذه المحاولة الإصلاحية، إذ كانت هذه القوة مؤهلة، دون الحاميات العربية لضمان الاستقرار الفعلى والدائم فى مناطق الفتوح[1].

القدرية والانقسام بين أفراد الأسرة الأموية: إلى جانب هذه الحركة الأدبية المزدهرة لم تتمتع العلوم والفلسفة إلا بحظ ضئيل فى البلاد الأموى. ورغم ذلك

1 - د. إبراهيم بيضون - نفس المرجع ص 321.

يحق ذكر الجدل العنيف الذى أثارته عند المسلمين مسألة القضاء (والقدر) وظهور القدرية، وهم الفرقة التى تقول بحرية الإنسان فى تصرفاته. والقدرية ليسوا أتباع فكرة القضاء والقدر، بمعنى حتمية المصير الإنسانى، إنما هم الذين يحددونها. فالقضاء هو ما كتب الله على الإنسان وهو خير بحكم الضرورة أما الشر فهو حادث ويأتى عن طريق القدر، والإنسان مسؤول عنه وإن سمح الله بوجوده. وهذه الفرقة هى أصل المعتزلة الذين تفرعوا عنها، بعد أن خرج واصل بن عطاء وعمر بن عبيد على الحسن البصرى فى مسألة مرتكب الكبيرة، فقالا إنه فاسق، ليس بمؤمن ولا كافر واعتزلا مجلس الحسن. ولقد حاول الخليفة هشام إيقاف تضخم هذه الفكرة الهدامة فى نظر المتمسكين كما حاول ذلك الوليد بن يزيد الذى خرق القرآن بالسهام وقال:

تهدد من بجبار عنيد نعم أنا ذاك الجبار عنيد

إذا ما جئت ربك يوم بعث فقل يا رب خرقنى الوليد

وكان من الطبيعى أن تزداد المعارضة لوليد، وناصرت القدرية جماعة اليمنية التى ثارت عليه لميله إلى الحجارية، وهاجمته فى بعض قصوره حيث قتلته (عام 126هـ/ 744م)، وقد فتح المصحف بين يده، وقال: «يوم كيوم عثمان» ورفع اليمنية يزيد بن الوليد بن عبدالملك، الذى كان قدريا، على عرش الخلافة. ولكن هذا الاختيار كان بعيدا عن إرضاء الجميع، فسرى الاضطراب إلى كل الأقاليم. ففى حمص وفى فلسطين وفى العراق ظهر منافسون للخليفة، وأثناء هذه الأحداث توفى يزيد بهذا (خمسة) أشهر فقط من اعتلائه العرش. وكان أخوه إبراهيم الذى «كان ناس يسلمون عليه بالخلافة وناس بالإمارة، وناس ربما لايسلمون عليه بواحدة منهما»، أكثر عجزاً عن أن يسيطر على مثل هذا الموقف العسير. أما عن اليمنية فإنهم ناصروه نصراً فاتراً. وهكذا تقدم مروان بن محمد منافس الخليفة من العراق نحو الشام، وتمكن من اكتساب الحجارية إلى جانبه. وفى ربيع عام 127هـ الموافق

ديسمبر 744م كان قد سيطر على دمشق. هكذا انقسمت الأسرة الأموية، وقام مروان بن محمد الذى كانت أمه أم ولد كردية بانتزاع الخلافة من أبناء عمومته، أما عن مروان فقد كان ذا حيوية أسطورية حتى إنه عرف بلقب الحمار: لأنه كان لايجف له لبد فى محاربة الخارجين عليه، فكان يصل السير بالسير ويصبر على مكاره الحرب». ولكن الحنان نحو العراق حيث قضى مروان الجزء الأكبر من حياته جعله يحس بأنه غريب فى الشام، وبناء على ذلك فهو ينقل العاصمة إلى حران فى شرق الفرات حيث استصحب أفراد الأسرة الأموية. وكان هذا بمثابة الانفصال الصريح بين الأسرة والعالم الشامى الذى كان يمثل عصبيتها منذ عهد معاوية[1].

شبت الثورات، ولكى يخضع مروان البلاد عمل على تجريد المدن الرئيسية من تحصيناتها. فعندما ثار سليمان بن هشام واستولى على قنسرين ثم فر منها إلى حمص ثم إلى الكوفة، ولما لم تخضع حمص إلا بعد حصار عدة أشهر فإن مروان هدم أسوارها ثم إنه هدم تحصينات بعلبك ودمشق وبيت المقدس وغيرها من المدن الشامية. وكان عليه بعد ذلك أن يقمع الاضطراب الذى أثاره الخوارج فى العراق وفى جزيرة العرب، وكان الضحاك بن قيس الشيبانى الخارجى انتهز فرصة انقسام البيت الأموى وذلك بعد أن عزل مروان والى العراق عبدالله بن عمر بن عبدالعزيز وولى مكانه النضر بن سعيد القرشى فامتنع عبدالله بالحيرة وسار النضر لعقابه. وزحف على الكوفة (عام 127هـ الموافق 744م) والتف حوله خلق كثير (وخاصة من ربيعة التى أنكرت الخلافة على القرشيين) وهزم الأمويين ثم إنه سار بعد ذلك إلى الموصل ومنها إلى نصيبين حيث هزم ابن مروان ولكن مروان نفسه لحق به وتمكن من القضاء عليه عند ماردين عام 128هـ. وفى السنة التالية تمت هزيمة الخوارج فى العراق. وقبيل هذا الموقف الذى كان سلطان الأمويين قد انتهى فيه تقريبًا ثار العلويون بالكوفة وأعلنوا عبدالله بن معاوية إماما، الذى ادعى أن روح النبى انتقلت إليه عن طريق آبائه ومهد بذلك لمذاهب الشيعة الغلاة. ورغم انضمام

---

1 ـ د. سعد زغلول ـ المرجع السابق ص30.

الزيدية لهم وأخـذهم قلعة الكوفة تمكن والى الـعراق الأموى، وهو عـبدالله بن عمر بن العزيز، من هزيمتهم. ولكن لما كـانوا قد أخذوا عهداً بالخروج آمنين فإن العلوى ذهب إلى فارس حيث التف حوله كثيـر من الأتباع فأقام أولا بأصفهان ثم اصطخر حيث مـد سلطانه على ولايات أهواز وفارس وكرمـان. ولما كان قد آوى الخوارج الذين هزمهم والى مروان على ضفاف دجلة فـإن هذا الأخير هاجمه عام 128هـ، 747م فى مرو الشـاهجان. وهرب العلوى إلى خراسـان ولكنه لما كان منافسًا لأبى مسلم فقد قتله هذا الأخير. وفى نفس هذا الوقت ظهر زعيم خارجى جـديد هو أبو حمـزة الخارجى، وكـان يفد إلى مـكة لتأليب الناس على مـروان وحثهـم على قتاله، وتبعـه كثيرون ثم إنه خـرج إلى حضرموت هو وعـبدالله بن يحيى المعـروف بطالب الحق، وبايع هذا الأخيـر على الخلافة. وفى السنة التـالية (129هـ/ 746م) سـار الخـارجى إلى مكة والمدينة وتمكن من هـزيمة الحـامـيـة الأموية، ودخـل أبوحمزة المديـنة وأقام بهـا حوالى 3شـهور، انطلق بعـدها إلى الشام. ولكن جيشًـا مروانيًا سار إليه، وتمكن من القضـاء عليه فى وادى القرى. وسار قائد مروان، وهو عبدالملك بن محـمد السعدى، إلى المدينة ومنها إلى اليمن حيث قضى على عـبدالله بن يحيى منافس الخليفة. وهكذا ظهـر مروان وكأنه كان جديراً بإقـرار الموقف الخطير فى البلاد. ولكن الصـعوبات الخطيرة كان عليـها أن تأتى من التخوم الشرقية للدولة[1].

تسرب الفسـاد إلى الدولة الأموية فى أواخر أيامها، وبدأت الخلافـات تشتد فى البـيت الأمـوى بسبب التـسـابق والتنازع على الملك. فـقـد حاول هشـام بن عـبـدالملك (105 ـ 125هـ الموافق 723 - 742م) أن يعـزل الوليـد بن يزيد بن عبدالملك (125 ـ 126هـ الموافق 742 - 743م) عن ولاية العـهد ويوليهـا لابنه مسلمة لكن الأخير توفى قبل أبيه، مما هيأ للوليد الفرصة فى أن يلى الخلافة، بعد هشام كان الوليد بن يزيد بن عبدالملك مثل غيره من بعض خلفاء بنى أمية، يحب الذات، وشغل عن أمور الدولة، فما أن تولى الخلافـة حتى أظهر حبًا فى الانتقام

1 ـ د. سعد زغلول ـ نفس المرجع ص31.

والتشفى، إذ حجز أموال عمه هشام بالرصافة، وقبض على أولاده وجلد بعضهم، ثم انتقم من ولاة عمه على الأقاليم. هذه التصرفات جعلت الوليد بن يزيد بن عبدالملك يثقل على رعيته وجنده، وبخاصة اليمانية منهم لبغض الخلفاء لهم مثل هشام، وتقريبهم للحجازية، كما كرهه أفراد بيته. ثم أخذت العصبية القبلية مأخذها فى الدولة العربية إذ ثارت اليمانية لأول مرة ضد الوليد بن يزيد بن عبد الملك، وحرضت ابن عمه يزيد بن الوليد بن عبد الملك (126هـ/ 744م) على أخذ البيعة لنفسه. فاستولى الأخير على دمشق وأرسل جيشًا إلى الوليد فى القصر فدخلوا عليه وذبحوه فى عام (126هـ/ 744م). لكن اعتماد يزيد بن الوليد بن عبدالملك على تأييد اليمانية جره إلى العمل على إخماد ثورة الحجازية فى أماكن متعددة، حتى استتب الحكم له مدة ستة أشهر إلى وقت وفاته فى 19ذى الحجة عام (126هـ/ 744م) ووقف مروان بن محمد إلى جانب الحجازية ضد اليمانية فى نزاعه على الخلافة مع إبراهيم بن الوليد بن عبدالملك فى معركة عين الجر ولازم هذا التطاحن على الملك صراع شديد بين الحجازية واليمانية، وبخاصة أن هذه الأخيرة رأت فى توليه مروان بن محمد الخلافة انتصاراً للمضرية عليها، وهو صراع امتد حيث توجد المضرية واليمانية فى جميع أجزاء الدولة العربية، فعادت أيام العصبية القديمة. كما قامت الفتن من كل لون[1].

- وعندما التقى مروان بعبدالله بن على العباس فى معركة الزاب قرب الموصل عام 132هـ الموافق 749م كان معه أكثر من مائة ألف، وقيل فى مائة وخمسين ألفا وكان جيش العباسيين أقل من هذا بكثير ولقد قيل إنه عشرون ألفا ومع ذلك هزم مروان الشجاع لأنه فقد الروح، وفقدت القوة التى يدافع عنها قضيتها ووحدتها، وأصبحت عاجزة عن أن تبصر ما تحت الرماد وتستهلكها صراعات داخلية قاتلة. الحقيقة أن نتيجة معركة الزاب نتيجة غريبة فمروان أفضل من عبدالله

---

1 ـ د. إبراهيم أيوب ـ المرجع السابق ص11 وانظر الكامل فى التاريخ 4/ 283.

ابن على خبره ودربة وجيشه أكبر وأكثر خبرة. وظروفه الخارجية أفضل كذلك لأنه جيش ينتمى لدولة قائمة ومع ذلك فإن كل ذلك يضيع[1].

والسبب واضح فإن القضية لم تعد قضية المعركة بل قضية الدولة والعقيدة التى تقف وراء المعركة. لقد كان بنو أمية قد انتهوا، كانوا - فى الحقيقة - قد انتحروا وهم كبار أقوياء وخلال السنوات السبع الأخيرة أجهزوا على بعضهم وهزمت جيوش أموية جيوشًا أموية وكل هذا كان من مظاهر الانتحار. لقد وقع بنو أمية فى خطأ حضارى كبير وأقدموا على عمل خطير، لقد فشلوا فى إيجاد تيار حضارى بعد أن اتسعت رقعة الأرض التى يقفون فوقها، لقد كان بإمكانهم تحويل كل المناوئين إلى عاملين معهم فى مجال نشر الإسلام والعربية والقضاء على الفرق والطوائف والشيع بالحوار والفكر ونشر الإسلام الصحيح وترجمته إلى لغات البلاد المفتوحة وتحقيق إسلام وتعريب كاملين لهذه الأرض الشاسعة التى فتحها الله عليهم أى بإيجار تحقيق التوازن بين الدولة والدعوة والأرض والعقيدة والسياسة والفكر وكانت هذه رسالة عظمى لم يتقدم فيها الأمويون كما تقتضى طبيعة الظروف والتحديات وكما تقتضى الاستجابة الملائمة للتحدى. وهذا هو الخطأ الحضارى الكبير. وأما العمل الخطير الذى أقدم الأمويون عليه فهو أنهم انتحروا عندما تعاونوا على قتل الأسرة الأموية، وتبادلوا مواقع الموت وفى سبع سنوات كانوا قد أجهزوا على أنفسهم وقضوا على أسرتهم التى حملوا رايتها، إنه لأسباب حقيقية (أساسية) تذكر لسقوط بنى أمية فكل الأسباب التى ذكرها الدارسون أسباب لا تكفى لسقوط هؤلاء العظماء وهى أسباب تكاد توجد فى معظم الدول والحضارات بل بعضها من السنن الاجتماعية وكثير من الدول عاشت أضعاف ما عاشوا وهى تحمل جراثيم الفناء أكثر مما كانوا يحملون ولهذا، يمكن أن تتداعى كل الأسباب التى تساق فى هذا الطريق وليس هناك إلا هاتان الحقيقتان حقيقة أنهم انتحروا من داخلهم وحقيقة أنهم لم ينبعثوا بتيار حضارى يتمم تيارات الفتوحات

1 - محمد عويس - نفس المرجع ص95.

ويكملها ويمتص كـل حركات الخروج والفتن فهكذا تاريخ الأمم إمـا أن تتقدم أو تموت[1].

ويرغم انتـشار القـدرية فإنهـا لم تشكل خطرا على الدولة فى نهـاية عهـد هشام. لقد اضطرب وضع الأمويين بعد موت هشام فى عام 125هـ الموافق 742م ولا نجد بينه وبين آخـر خلفائهم مروان بن محـمد الجعدى سـوى الوليد بن يزيد الذى يضـرب به المثل فى الإهـمال والابـتعـاد عن الديـن، ويزيد بن الوليـد بن عبدالملك الذى كان وبالا على الدولة والبيت الأموى والذى مـات دون أن يحقق شيئا. أما مروان بن محمد الجـعدى آخر خلفاء بنى أمية فقد دفع ثمن أخطاء أهله وأسرته. إذ تميـز عهده بالفتن والصراع القـبلى. فقد تجدد نشـاط الخوارج، وثورة منظمة للعـباسيين ـ كـما نجد فتنـا أخرى ساعدت على نمو النشـاط الهدام وعلى انتشـار الثورة. كل هـذه العناصر يجـمعهـا هدف واحد هو الخـلاص من الدولة الأموية. لعـبت العصبـية القبليـة الدور الأهم، فقد خـالف مروان من سبـقه من الأمويين حيث تعصب للحـجازية تعصبا بلا حدود مما أثار حفيظة القـبائل اليمانية فى دمشق وبعض مدن الشام الأخرى. مما أضعف العنصر العربى الذى تعتمد عليه الدولة بانحراف القبائل اليمانية عنه وانضمامـهم إلى الدعوة العباسية. ولـم يقتصر الصـراع القبلى على مـدن الشـام بل شمل الولايات الأخـرى، وخاصـة ولايات خراسان المعروفة بعدائها للأمـويين مما أدى إلى حدوث معارك بين القبائل المتناحرة مثلما حدث فى بلخ. وكان لتعيين مروان ولاته وفى طلب سكان كل ولاية سبب فى إذكاء الفـتنة مما دعا هؤلاء الولاة إلى التعـصب لولاياتهم وقبـائلهم وبالوقوف بوجه الخـلافة كـما حـدث لثابت بن نعـيم الجذامى حيـن عينه مروان واليـا على فلسطين. ومـوقف سليـمـان بن هشـام الأمـوى الذى خـرج على مـروان وبايع العباسيين والذى كانت نهايته على أيديهم. إن مراعاة المصلحة العامة أمر ضرورى وجوهرى، فالذين لا يعرفون هذه الحقيقة أو يتجاهلونها هم واهمون، لأن تغليب

1 ـ محمد عويس ـ نفس المرجع ص61.

روح العشيرة ومصالحها الجزئية على روح الأمة ومصالحها الحيوية العامة يؤدى إلى تدمير الأمة ككل. أما الخوارج الذين ظهروا بعد حادثة التحكيم، وظلوا يعاصرون الدولة الأموية والذين دب فيهم الضعف والتمزق نتيجة مطاردتهم وقتل الكثير منهم، فإنهم ظهروا على مسرح الأحداث التاريخية فى عهد مروان مستغلين الانقسامات والفتن. فكانت حركة الضحاك بن قيس الشيبانى فى العراق التى انتهت بمقتله بعد أن سيطر على الكوفة والموصل وحركة سعيد بن بهدل الخيبرى فى الجزيرة بعد مقتل الوليد بن يزيد وانتهت الحركة بمقتله أيضا ثم قامت انتفاضة أخرى بقيادة شيبان بن عبدالعزيز اليشكرى الخارجى الذى لم يتمكن من منازلة مروان فهرب إلى الموصل وتحصن بها تسعة أشهر لكنه انتهى بالفشل والتشتت، وبمقتله ضعفت وتشتتت حركة الخوارج فى الجزيرة فكانت هناك محاولات يائسة لاستعادة القوة فقامت لهم حركة بالحجاز بقيادة المختار بن عوف الأزدى المعروف بأبى حمزة الخارجى وانتهت بمقتله أيضا وانتهاء حركاتهم، حتى مات نشاطهم فيما بعد[1].

التقى زيد بن على بهشام بن عبدالملك، فقال له هشام: قد بلغنى أنك تذكر الخلافة وتتمناها، وكيف يكون ذلك وأنت ابن أمة؟ فقال زيد: إن لك عندى جوابًا، قال: تلكم، قال زيد: إنه ليس أحد أولى بالله، ولا أرفع عنده منزلة من نبى ابتعثه، وقد كان إسماعيل من خير الأنبياء، وولد خيرهم محمداً ﷺ، وكان إسماعيل ابن أمه، وأخوه ابن صريحة مثلك، فاختاره ﷺ عليه وأخرج منه خير البشر، ولايضيرنى أن أكون ابن أمه وجدى محمدﷺ، فاستشاط هشام غضبًا، وقال لزيد: اخرج، فقال زيد: أخرج ثم لاترانى إلا حيث تكره. ولا شك بأن هذه العبارة التى قالها هشام لزيد والتى رد بموجبها زيد عليه كافية لإشعال نار الثورة ضد الأمويين مما حدا بزيد إلى أن يجيبه بأنه سيخرج، وأنه لن تراه إلا حيث يكره، وكان معنى هذا أن زيداً عندما خرج من عند هشام كان فى نيته

1 ـ د. عبدالجبار منسى العبيدى ـ المرجع السابق ص290.

الخروج عليه، وهذا هو ما حصل، وليت هشامًا اكتفى بما قاله لزيد بل إنه اتهمه بوديعة لخالد القسرى، فما كان من الخليفة إلا أن بعث بزيد إلى والى الكوفة يوسف بن عمر الثقفى، فاستحلفه يوسف، فحلف زيد بأنه ليس لديه مال لخالد فخلى سبيله[1].

عند ذلك خرج زيد إلى المدينة، ولكن أهل الكوفة لحقوا به، وحاولوا ـ بكل ما يستطيعون ـ إقناعه بالعودة، وأنهم سينضمون إليه ضد الأمويين، وأعطوه العهود والمواثيق بأنهم لن ينكثوا عهودهم معه كما فعلوا مع جده الإمام الحسين عليه السلام.

يقول الطبرى فى هذا: عندما خرج زيد من الكوفة، لحقت به الشيعة وقالول له: أين تذهب عنا ومعك مائة ألف رجل من أهل الكوفة يضربون دونك بأسيافهم غدًا، وليس قبلك من أهل الشام إلا عدة قليلة، فنشدك الله لما رجعت، فلم يزالوا به حتى ردوه إلى الكوفة، وكان معه داود بن على العباس فقال له: يا ابن عم، لايغرنك هؤلاء من نفسك، ففى أهل بيتك لك عبرة وفى خذلان هؤلاء إياهم، وقال أيضًا: أليس قد خذلوا من كان أعز عليهم منك؟ جدك على بن أبى طالب حتى قتل، والإمام الحسن عليه السلام من بعده بايعوه ثم وثبوا عليه فانتزعوا رداءه من عنقه، وانتهبوا فسطاسه وجرحوه، أوليس قد أخرجوا جدك الإمام الحسين عليه السلام، وحلفوا به بأوكد الأيمان، ثم خذلوه وأسلموه، ثم لم يرضوا بذلك حتى قتلوه؟ فلا تفعل، ولاترجع معهم، فقالوا: إن هذا لا يريد أن تظهر أنت ويزعم أنه وأهل بيته أحق بهذا الأمر منكم، فقال زيد لداود: إن عليًا كان يقاتله معاوية بدهائه ونكرائه بأهل الشام، وإن الحسين قاتله يزيد بن معاوية والأمر عليهم مقبل، فقال له داود: إنى لخائف إن رجعت معهم ألا يكون أحد أشد عليك منهم، وأنت

---

1 ـ عبدالعزيز محمد اللميلم ـ المرجع السابق ص30 وانظر الطبرى/ تاريخ الرسل والملوك جـ7 ص ص 165 ـ 166، الأزدى/ تاريخ الموصل ص44، ابن عبد ربه/ العقد الفريد/ جـ5 ص210.

أعلم، ومضى داود إلى المدينة، ورجع زيد إلى الكوفة ونفس الشيء بالنسبة لعبدالله بن الحسن بن الحسن عندما كتب إليه محذراً إياه من أهل الكوفة قائلا: يا ابن عم، إن أهل الكوفة نفخ العلانية خور السريرة، هوج فى الرخاء، جزع فى اللقاء، تشايعهم، ألستهم، ولاتشايعهم قلوبهم، ولايبيتون بعدة فى الأحداث، ولاينوءون بدولة مرجوة، ولقد واترت إلى كتبهم بدعوتهم، فصممت عن ندائهم، وألبست قلبى غشاء عن ذكرهم يأسًا منهم، واطراحًا لهم، وما لهم مثل إلا ما قال الإمام على بن أبى طالب عليه السلام: إن أهملتم خضتم، وإن حوربتم خزتم، وإن اجتمع الناس على إمام طعنتم وإن أجبتم إلى مشاقة نكصتم. وبالرغم من صدق تلك النصيحة التى تقدم بها داود بن على العباس ومحمد بن على - كما يشير إلى ذلك البعض - لزيد بن على بالنسبة لموقف أهل الكوفة من آل على إلا أنها تحمل فى طياتها معنى آخر وهو احتمال خوف العباسيين من نجاح ثورة زيد هذا والإطاحة بمشروعهم الذى خططوا له زمنًا ليس بالقصير، وبذلوا فى سبيله جهوداً مضنية[1].

ولم لايكون داود بن على خائفًا من نجاح ثورة زيد؟ لأنه إن تم ذلك فإن آل العباس سيخسرون كل شىء خططوا له، ومن ناحية أخرى ربما ينكشف أمر دعوة بنى العباس فى خضم الاضطرابات التى قد تنجم نتيجة تلك الثورة التى قادها زيد ابن على، ولهذا حاول داود جاهداً أن يثنيه عن التوجه إلى الكوفة مقر أعوانه وأنصاره فى نظر داود. ولاشك بأن ثورة الإمام زيد ونجاحها قد أثارت مخاوف العباسيين لأن حق العلويين فى الدعوة إلى الخلافة أوضح بكثير فى أذهان الناس من حق بنى العباس فيها، فزيد بن على بن الحسين علوى، والكوفة شيعة الإمام على لا شيعة بنى عباس، والعباسيون لايملكون التأييد الشعبى الذى يملكه العلويون هناك. وعلى أية حال فإن زيد لم يسمع نصح الناصحين، ولم يتعظ بما حصل لآبائه وأجداده من قبل من خذلان أهل الكوفة لهم، بل إنه صمم على

---

1 - عبدالعزيز محمد اللميلم - نفس المرجع ص31 وانظر: الطبرى/ تاريخ الرسل والملوك جـ7 ص ص 166 - 169.

الخروج على الدولة الأموية، وقد حصل ما كان متوقعًا، إذ انقض عنه أعوانه، وبقى فى فئة قليلة وقفت إلى جانبه، وحاربت معه إلى أن قتل الإمام زيد على يد أتباع يوسف بن عمر «الوالى على الكوفة آنذاك». وقد حمله أصحابه ودفنوه فى حفرة يؤخذ منها الطين ويكثر فيها الماء، وقيل فى ساقية ودفنوه بها وأجروا الماء على قبره خوفًا من التمثيل به، إلا أن غلامًا سنديا لزيد دل أصحاب يوسف بن عمر على مكان زيد الذى دفن فيه، فأخرج، وبعث برأسه إلى هشام بن عبدالملك، الذى أمر بأن ينصب الرأس على باب مدينة دمشق ثم المدينة، أما جسمه فقد صلب طيلة حكم هشام، فلما تولى الوليد بن يزيد أمر بانزاله ثم أحرق، ويشير القلقشندى[1]: إلى أن رأس الإمام زيد نصب بدمشق حتى مات هشام، ثم حملت الرأس إلى مصر ودفنت فى المشهد الذى بين الكيمان الآن المعروف بمشهد الرأس يقع المشهد بالقرب من جامع ابن طولون.

وقد كان لثورة الإمام زيد بن على تأثيرا واضحًا فى سير الأحداث التى وقعت فى العصر الأموى، إذ تمخض عنها نتائج خطيرة، وكان فشل الثورة بمثابة الدفع لحركات أخرى حذت حذوها، لعل من أبرزها هروب يحيى بن زيد إلى خراسان، وإعلان الثورة على الأمويين هناك، ويبدو أن يحيى قد قطع على نفسه عهدًا أمام والده قائلا: أقاتلهم والله لو لم أجد إلا نفسى. يقول الطبرى فى هذا: «لما قتل زيد عمد رجل من بنى أسد إلى يحيى بن زيد فقال له: لقد قتل أبوك، وأهل خراسان لكم شيعة، فالرأى أن تخرج إليها، قال: وكيف لى بذلك، قال: تتوارى حتى يكف عنك الطلب ثم تخرج، فواراه عنده ليلة ثم دفع به إلى عبدالملك بن بشر بن مروان الذى أبقاه عنده مدة، فلما سكن الطلب خرج يحيى ابن زيد إلى خراسان مع فئة من أصحابه، وعن أحداث هذه الثورة يقول

---

1 ـ عبدالعزيز محمد اللميلم ـ نفس المرجع ص37 وانظر: ابن أعثم الكوفى/ كتاب الفتوح جـ8 ص ص 121 ـ 222، أبو الفداء/ المختصر فى أخبار البشر جـ1 ص204، الكتبى محمد بن شاكر/ فوات الوفيات جـ2 ص35. مروج الذهب جـ3 ص225. وفيات الأعيان جـ5 ص123.

المسعودى: «ظهر يحيى بن زيد بن على فى أيام الوليد بن يزيد بالجوزجان من بلاد خراسان منكراً للظلم، وما عم الناس من الجور، فسير إليه نصر بن سيار سلم بن أجوز المازنى، فقتل يحيى فى المعركة بقرية يقال لها: «أرغونة» ودفن هناك وقبره مشهور إلى هذه الغاية إذ قتل بسهم أصابه فى صدغه فولى أصحابه عنه يومئذ، واحتز رأسه، فحمل إلى الوليد، وصلب جسده بالجوزجان، فلم يزل مصلوبًا إلى أن خرج أبو مسلم صاحب الدولة العباسية، فقتل أبو مسلم بن أحوز، وأنزل جثة يحيى فصلى عليها، ودفنت هناك[1].

أما تنظيمات آل البيت، فقد قامت لهم فى عصر مروان حركتان فشلت الأولى وكانت بقيادة عبدالله بن معاوية بن جعفر بن أبى طالب فى الكوفة، مستغلا اشتداد العصبية القبلية ومعاداة الكوفيين للأمويين التى انتهت بهزيمته وفراره إلى خراسان ووفاته هناك، أما الحركة الثانية فهى الدعوة العباسية ذلك التنظيم السياسى والعسكرى المحكم الذى كان من نتيجته تلك الطامة الكبرى بالنسبة للأمويين حيث ظهر أبو مسلم والحركة العباسية التى نجحت بقتل مروان بعد معركة الزاب الكبرى وإزالة البيت الأموى ونقل الخلافة إلى العباسيين. ولاشك أن هناك أسبابا أخرى اجتماعية واقتصادية ساعدت على تقويض الخلافة الأموية نمت وبان أثرها فى عهد مروان فقد تغيرت بنية المجتمع العربى الإسلامى بعد دخول الموالى فى الإسلام ومشاركتهم الفعالة فى التنظيمات السرية المناوئة للحكم الأموى واختلاط العرب بهم اجتماعيا. والاضطراب المالى فى الدولة بعد أن تحولت طرق التجارة من حوض البحر المتوسط إلى الخليج العربى والقسطنطينية وخاصة بعد أن هزم العرب فى معركتهم البحرية مع الروم عام 129هـ/ 747م. كان لهذه العوامل من الأثر الحاسم فى هز الكيان الأموى مايعادل قيام الدعوة العباسية كدعوة، كما كان للثورات المحلية الأخرى كتعابير نقمة من أثر، ولابد أن نقول إنه مادامت طبيعة نظام الأمة قد تغيرت، فقد استتبع ذلك أن تغيرت كل التفاصيل تبعا لذلك، فالخليفة لم يعد فى حقيقة الأمر والواقع خليفة رسول الله

1 ـ عبدالعزيز محمد اللميلم ـ نفس المرجع ص34.

ﷺ بل أصبح ملكا، والأمة لم تعد جماعة متعاونة مع هيئة الحكم لرفع شأنها وتوسيع نطاقها عن طريق الفتوح ونشر الإسلام، بل أصبحت رعية لا رأى لها، والمقاتلون لم يعودوا مجاهدين فى سبيل الله، بل أصبحوا جنودا للدولة مأجورين فيها لتحقيق أهدافها وخدمة رجالها، والأموال لم تعد تقتصر على ما يرضاه الشرع، بل أصبحت جبايات مفروضة من الخليفة ورجال دولته تستخدم لصالحهم، والجنود أصبحوا مأجورين من بيت مال الخليفة، لا من بيت مال المسلمين، وهذا يصور لنا باختصار الأسباب الأساسية فى تدهور الدولة الإسلامية، لأن لكل دولة من الدول طبيعة خاصة بها، إذا هى تخلت عنها خرج زمام أمرها من أيديها، وتغير كل شىء فى طبيعتها نتيجة لذلك. وإنها معادلة حضارية لم يستطع بنو أمية أن يصلوا إلى الفقه الصحيح بها. . فإن كل فكرة خلاقة تولد ـ كما يقول هاملتون جب ـ طاقة توسعية هائلة بما تغرسه فى نفوس أتباعها من حماسة للدعوة وهذه القوة لابد من أن تكون من الناحية المثالية، أداة للفكرة (الأيديولوجية) التى أوجدتها[1].

هذا ما حدث فى دولة الأمويين والذى أدى إلى ضعفها وتدهورها وسقوطها فى النهاية[2]. إن من يقرأ تاريخ الدولة الأموية منذ قيامها، ويدرس فتوحاتها ونظمها الإدارية، ومساهماتها الحضارية، وكفاءة خلفائها وولائها؛ ربما لايتوقع النهاية السريعة والسقوط المدوى لها، وبالفعل يعد سقوطها وانهيار بنيانها الشامخ من الأمور العجيبة فى التاريخ البشرى، غير أن ذلك العجب والدهشة يزولان، بعد دراسة العوامل والأسباب التى تفاعلت وعملت على تحقيق ذلك السقوط، وهى تتلخص فى الآتى:[3]. ثورات الشيعة المتتالية ضد الدولة، بدءا من ثورة سبط رسول الله محمد ﷺ الإمام «الحسين بن على بن أبى طالب» ضد «يزيد بن معاوية» واستشهاده فى «كربلاء» فى المحرم عام (61هـ)، ونهاية بثورة «الإمام زيد

1 ـ محمد عبد الحليم عويس ـ المرجع السابق ص81.
2 ـ د. عبدالجبار منسى العبيدى ـ نفس المرجع ص191.
3 ـ د. عبدالشافى محمد عبداللطيف ـ المرجع السابق ص108.

ابن على بن الحسين» عام (121هـ) ضد «هشام بن عبدالملك». وربما لا تكون ثورات الشيعة ذات أثر عسكرى على الدولة الأموية، باستثناء حركة «المختار الثقفى»، لكن أثرها كان بعيد المدى فى نفوس الناس، وشحنها بالعداء لبنى أمية، وهذا ما استفاده دعاة العباسيين فى مرحلة التحضير لثورتهم. وثورات الخوارج وهذه كانت من العنف والقوة بحيث أسهمت إسهاما واضحا فى إضعاف الدولة الأموية، فلم تتركها تستريح، وظلت تنفجر فى أماكن كثيرة، وبخاصة فى «العراق» والجزيرة العربية حتى آخر لحظة فى حياة الدولة، لهذا كان الحزب معارضًا للأمويين لأنهم جعلوا الخلافة ملكًا وراثيا. وقد اشترك هؤلاء الخوارج فى الفتن التى قامت ضد الدولة الأموية كما انتشر عدد إخماد ثورته عام 108هـ الموافق 726م. وجاء بعده الحارث بن سريج الذى قام بثورته (عام 116هـ الموافق 734م) يدعو فيها إلى العمل بالكتاب والسنة، وهاجر إلى أراضى الترك وأخذ يقاتل معهم جيوش الدولة الأموية احتجاجًا على سياستها التعسفية نحو الموالى واستطاع والى خراسان نصر بن سيار أن يقنع الخليفة الأموى بالعفو عن الحارث ابن سريج فعفا عنه، غير أن ابن سريج لم يلبث طويلا حتى عاد ورفع رايه العصيان من جديد ضد الدولة الأموية وانتهى الأمر بقتله عام 128هـ الموافق 745م. على أن هذه الحركة لم تخمد بموت ابن سريج إذ لم يكد يمضى على وفاته عام واحد حتى أشعل أبو مسلم الخراسانى نار الثورة على بنى أمية. ويكفى للدلالة على تأييد الموالى للخراسانيين لهذه الثورة[1]. فقد سبق القول إن الخوارج شغلوا آخر خليفة أموى، وهو «مروان بن محمد» بثوراتهم العنيفة عن التنبه للخطر الداهم الذى زحف عليه من «خراسان»، بقيادة «أبى مسلم الخراسانى».

وإذا تناولنا العنصر الحاكم، وهو العنصر العربى، نجد أنه كان عنصراً قويًا فعالا، إلا أنه كانت تسوده المنازعات القبلية القديمة بين اليمنية والحجازية وكان الولاة أنفسهم إما يمنيين أو حجازيين كثيراً ما كانوا يتحيزون لعصبيتهم فتقع

1 ـ محمد العبادى ـ المرجع السابق ص16.

حروب دامية تنتهى أحيانًا بقتل الوالى نفسه، كما حدث مثلا لقتيبة بن مسلم المضرى فاتح إقليم ما وراء النهر. وبدلا من أن يعمل خلفاء بنى أمية على حسم هذا النزاع، إذ بهم ينحازون إلى فريق دون آخر مما ساعد على اتساع الهوة بين العصبيتين. فالخليفة الوليد بن عبدالملك أخذ جانب الحجازية، ومن كبار عماله الحجازيين الحجاج بن يوسف الثقفى وقتيبة بن مسلم. ثم جاء بعده سليمان بن عبدالملك، وكان حانقًا على الحجاج وقتيبة لاعتراضهما على توليته، فانحاز إلى اليمنية، ومن أبرز رجاله يزيد بن المهلب بن أبى صفرة الأزدى اليمنى. ثم جاء عمر بن عبدالعزيز، فحاول التوفيق بين العصبيتين، على أن هذا الوفاق لم يلبث أن زال بعد وفاته، إذ جاء يزيد الثانى بن عبدالملك وأخذ جانب الحجازية ثم تلاه هشام بن عبدالملك فانحاز إلى اليمنية فى بادئ الأمر ثم تحول عنهم إلى المضرية مما أثار غضب اليمنية. وقد ازداد غضبهم فى عهد الوليد الثانى بن زيد بن عبدالملك عندما انحاز هذا الخليفة إلى الحجازية، فثار عليه اليمنيون وقتلوه. وولى بعد ذلك ابن عمه يزيد الثالث بن الوليد بن عبدالملك، فانضم إلى اليمنية الذين كانوا سببًا فى توليته. وأخيرًا جاء مروان بن محمد فتعصب للحجازية وقضى على ثورات اليمنية. ولاشك أن هذه الحروب الداخلية قد شغلت الخلافة الأموية واستنفدت قوتها. هذا ويلاحظ أن شعراء العرب فى ذلك الوقت كان لهم تأثير كبير فى إذكاء نار هذه العصبيات، ومن يقرأ أشعار الأخطل والفرزدق وجرير وغيرهم من شعراء القبائل المختلفة، تبدو له هذه الظاهرة بوضوح[1].

العصبيات العربية التى احتدمت بين القبائل، وبخاصة بين عرب الجنوب (اليمن) وعرب الشمال (الحجاز)، وكانت تلك العصبيات قد خبت وكمنت بفضل تعاليم الإسلام التى أعلت من رابطة العقيدة، وجعلت التقوى والعمل الصالح ميزان التفاضل بين الناس لا أنسابهم أو أجناسهم. ثم بدأت تطل برأسها فى عهد «عثمان بن عفان»، وكانت من أسباب الفتنة التى راح ضحيتها الخليفة نفسه،

1 ـ د. محمد العبادى ـ نفس المرجع ص12.

واستمرت فى خلافة الإمام «على بن أبى طالب ﷺ»، وكان لها أسوأ الأثر فى إفساد الأمر عليه، فزعماء القبائل اليمنية الذين معه مثل «الأشتر النخعى» و«الأشعث بن قيس» كانوا يتصرفون من منطلق قبلى، وأعلوا عصبيتهم فوق مصلحة «الإمام علىّ ﷺ»، بل فوق مصلحة الإسلام نفسه. فلما قامت الدولة الأموية استطاع «معاوية» بمهارته السياسية الفائقة أن يتعامل مع هذه العصبية القبلية بتوزان شديد؛ فاحتفظ بصداقة الجميع وطاعتهم، وكذلك فعل «عبدالملك بن مروان» وأولاده حتى «هشام بن عبدالملك» (105 ـ 125هـ). ثم انفجرت العصبيات القبلية، وفتحت فاها كألسنة النيران، دون أن يستطيع أحد أن يوقفها أو يسد فاها، لأن خلفاء الأمويين الأواخر لم يكونوا أهلا للقيادة فعجزوا عن التصدى لها، وزاد الأمر خطراً أن تلك العصبيات انفجرت فى الشام، الحصن الحصين للدولة الأموية، فانقلبت عليهم القبائل اليمنية، الحليف التقليدى لهم، بسبب تقلب سياسة الخلفاء وتذبذبها من الاعتماد على اليمنيين تارة وإلى القيسيين تارة أخرى.

الخصومات بين العصبيات العربية: كانت هذه الخصومات تعرقل شؤون الدفاع عن الدولة وتعقد أمور الحكومة التى كانت الأسرة الحاكمة تنتخب منها كبار عمالها وجندها، فمع أن انتصار اليمنية الدامى على الحجازية فى مرج راهط (65هـ/ 684م) أكد النجاح لمروان وعائلته، إلا أنه زاد من حدة الحقد بين العصبيتين. ففى بادية الشام ظلت الحرب مستمرة، كما كان الحال فى العصر الجاهلى وما قبل الإسلام. وكان على الخلفاء مداراة كل من الفريقين أو الوقوف إلى جانب الواحد منهما وإن كان فى الأمر مخاطرة، فاختيار وال من أحد الفريقين كان يغضب الفريق الآخر[1].

والأخطر من ذلك أن العرب حملوا خلافاتهم وعصبياتهم فى كل أرض يحلون بها، وبخاصة «خراسان» التى أصبحت التربة الخصبة للدعوة العباسية، بل إن بعض الولاة أسهموا فى تفاقم نار العصبية والعمل على إشعالها؛ بسوء

---

1 ـ د. سعد زغلول ـ المرجع السابق ص27.

سياستـهم وضيق أفقهم، فكان إذا جاء وال من «اليمن»؛ تعصب لقـومه وخصهم بالمزايا والوظائف واضطهـد الحجـازيين، وإذا جاء وال من «الحـجاز» فـعل عكس ذلك. وهكذا كـانت الأحوال فى «خـراسان» تنتقـل من سيئ إلى أسـوأ، مما دعا الدعاة العـباسيـين على إلحاق كل ذلك بخلفـاء الأمويين، وقد اسـتغل ذلك «أبو مسلم الخراسانى» واستثمره لمصلحة العباسيين. وبغض الموالى وبخاصة الخراسانيين الدولة الأموية، ومضـوا فى طريق العداء لها، فلم يتركـوا ثورة أو فتنة ضدها إلا انضموا إليـها واشتركوا فيهـا، مهما تكن هوية القائمـين عليها، من العلويين إلى خـوارج، إلى ثورة «ابن الأشـعث» إلى «ابن المهلب»، حـتى جـاءتهم الدعـوة العباسية، فانخرطوا فيها، وكانت على أيديهم نهاية الدولة الأموية.

والخلفاء الأمويون المتأخرون أسهـموا بدءًا من خلافة «الوليد بن يزيد» (125 ـ 126هـ الموافق 742 ـ 743م) فى سـقـوط الدولة وسـهلوا لكل خـصـومـهم مهمتهم للانقضاض على الدولة، وذلك لعدم كفاءتهم لقيادة دولة عملاقة كالدولة الأموية من ناحية، ولتناحرهم فيـما بينهم على الحكم والسلطان من ناحية أخرى. وكل هذه العوامل السابقة لو وجدت رجالات من طراز «معاوية بن أبى سفيان» أو «عبدالملك بن مروان» لكان من الممكن التغـلب والسيطرة عليها، لكن هؤلاء تركوا الدولة تتعرض لأشد المخاطر، وتفرغوا لمحاربة بعضهم بعضًا، حتى جاء من قضى عليهم جميعًا.

الدعوة العـباسـية: بدأت الدعوة الـعباسـية عـملها منذ نهـاية القرن الأول الهجـرى، فى خلافة «سليمـان بن عبدالملك» عندما انتـقلت الدعوة الشيعـية من «عـبـدالله بن مـحـمد بـن على بن أبى طالب» المكنى بأبى هـاشم إلى «على بن عبدالله بن العبـاس بن عبدالمطلب»، الذى كان يعيش فى قرية «الحـميمة» جنوبى الشام، حـين أسر إليـه «أبو هاشم» بأسرار الدعـوة وأسماء رجـالها. وقـد أظهر العباسيون، منذ أن تولى «على بن عبـدالله بن العباس» أمر الدعوة ومن جاء بعده من أبنائه، حصافة سـياسية ودهاءً منقطع النظير، فقد أدركـوا أن أهم أسباب فشل

العلويين فى الوصول إلى الخلافة هو التسرع، والاعتماد على حب الناس لهم، وعواطفهم نحوهم، دون عمل منظم، فحاولوا تفادى تلك الأخطاء، وصاغوا شعارا خادعًا لدعوتهم، هو الدعوة للرضا من «آل محمد»، فاقتنع كثير من الشيعة أن المقصود هو الدعوة لواحد من أولاد «الإمام علىّ عليه السلام» أحفاد النبى ﷺ. وأن خروج يحيى على الأمويين إضافة إلى الظلم الذى وقع على الناس كان الرجل موتوراً من بنى أمية نتيجة لما لاقاه العلويون من قتل على يد الأمويين كان آخرهم أباه زيداً، ولهذا قام بتلك الثورة التى كان مصيرها الفشل إذ لم تكن بأفضل مما سبقها من ثورات علوية بالرغم من وقوعها فى مكان بعيد عن مركز الخلافة الأموية، إلا أن ذراع الأمويين استطاعت أن تصل إليه وتنهى ثورته. وبالرغم من فشل ثورة كل من زيد وابنه يحيى إلا أن ثورتيهما قد مهدتا بطريق غير مباشر للقضاء على الدولة الأموية، إذ يقول اليعقوبى: «لما قتل زيد تحركت الشيعة بخراسان، وكثر من يأتيهم، ويميل معهم، وجعلوا يذكرون أفعال بنى أمية حتى لم يبق بلد إلا فشا فيه هذا الخبر» ولم يقتصر الأمر فى عهد الدولة الأموية على خروج من ذكرنا، بل إن واحداً من العلويين قد خرج فى عهد الخليفة الأموى مروان بن محمد هو: عبدالله بن معاوية بن عبدالله بن جعفر بن أبى طالب بالكوفة، ذلك أن أهل الكوفة رأوا اضطراب الأمور فى الدولة الأموية، فذهبوا إلى عبدالله بن معاوية، وبايعوه على ذلك، فقاتلهم أمير الكوفة، ولما رأى عبدالله أن لا قبل له بجيش الأمويين طلب الأمان هو وأصحابه، واتفق الفريقان على ذلك، عندها خرج عبدالله إلى بلاد الجبال وهمذان وأصفهان والرى، وغلب عليها، واستمر على ذلك حتى قويت شوكة أبى مسلم الخراسانى الذى أعد له جيشًا حاربه حتى قضى عليه، وأظهر الدعوة لبنى العباس. هذه فى الواقع هى أهم الثورات التى قام بها العلويون ضد الدولة الأموية، والتى كلفت العلويين الكثير من رجالاتهم دون أن يحرزوا نصراً ضد الدولة الأموية، وبالمقابل فإن تلك

الثورات التى قام بهـا العلويون من حين لآخر ضد بنى أميـة كان لها دور بارز فى إضعاف الدولة الأمـوية، إذا عرفنا أن العلويين قد قاومـوا الأمويين منذ أن قامت دولتهـم حتى سقـطت عام 132هـ الموافق 749م إذ كـانوا عامل هدم فى جـسم الدولة الأمـوية حـتى نهايـتهـا وأن تلك النكبـات التى حلت بالعـلويين على يد الأمويين من أقوى الأسباب للتقارب بين البيتين العلوى والعباسى، واتفاقهما على الإطاحة بالدولة الأموية، ولعـل ما يؤكد ذلك هو ذلك الاجتمـاع الذى عقد بين رؤوس العلويين والعباسـيين وقرروا فيه ترشيح إمام لهم إن قـدر لهم القضاء على الدولة الأموية[1].

ظهرت عبقـرية زعماء الدعوة من العباسيـين وهم «على بن عبدالله»، وابنه «محمد» وأولاده فى اختيار الدعاة بدقة بليغة، من ذوى الفصاحة والبلاغة والقدرة الفائقة على مخاطبة الناس بما يناسبـهم، ومن المخلصين للدعوة ورجالها، المتفانين فى سـبيلهـا، حتى إن الواحـد منهم إذا ألقى القـبض عليه، وحـقق معـه الولاة الأمويون يفضل الموت، ولايبوح بكلمة واحـدة عن الدعوة ورجالها. وكما تجلت عبقرية العباسيين فى اختيار دعاتهم تجلت أيضا فى اختيار المكان الذى ستنطلق منه الثورة المسلحة؛ لتكتسح الدولة الأموية، وهو «خراسان» فى منطقة قبائل الأوزباك والتركمـان؛ حيث العداء الدفين لـلأمويين، والعصبـية العربية المحتـدمة، وانطلق الدعاة يزرعون العداء، ويكشفون ظلم وفـساد وعبث الأمويين وكيف أن الوليد بن يزيد حاول شرب الخـمر فوق الكعبـة، وكانوا يقومون بذلك وهم على هيـئة تجار عـاديين، وفى أسلوب هادئ، حتى تحـولت مـشاعـر الناس ضد الدولة الأمـوية ورجالها. واستمـر هذا العمل الدؤوب نحو ثلث قرن (99 ـ 129هـ الموافق 717 ـ 746م)، وكان يجرى عبر محور «الحميـمة» الرئيسى حيث مقر زعماء الدعوة،

1 ـ عبدالعزيز محمد اللميلم ـ المرجع السابق ص34 وانظر: تاريخ اليعقوبى جـ2 ص392. ابن طباطبا/ الفخرى فى الآداب السلطانية ص ص 138 ـ 139.

وتخرج منهـا التعليمات إلى «الكوفـة»، ومنها إلى «خراسان». ولما حـانت ساعة العمل العـسكرى، عهـد الزعماء بهـذه المهمة إلى أبى مـسلم الخراسـانى، وكان مـسمـوع الكلمـة عند الخراسـانيـين، فأعلـن الثورة المسلحـة على الأمـويين فى «خراسان» عام (129هـ)، وزحف بقواته إلى الغرب مكتسحا قوات الأمويين حتى إذا وصل إلى «العراق»، أوقفه العباسـيون، وأسندوا القيادة إلى «قحطبة الطائى»، وهو قائد عربى، ولم يشاؤوا أن يقتحم «أبو مسلم» بقواته «العراق»، حتى لايثيروا مشـاعر العرب ضدهـم، وهذا من براعة العباسـيين فى القيـادة وفهمـهـم لنفوس الشعـوب. واصل «قحطبة» عـمله ضد قوات الأمـويين فى «العراق» حـتى قتل، فخلفه ابنه «الحسن بن قحطبة»، واستطاع أن يستولى على معظم «العراق». حدث ذلك كله والخليفـة الأموى «مروان بن مـحمد» مشـغول من رأسه إلى قدمـيه فى مـشكلات «العـراق» و«الشام»، وفى إخـمـاد الثـورات التى أشعلهـا ضـده أبناء عمومتـه، فضلا عن ثورات الخوارج، وقبل أن ينتهى من ذلك كـله داهمته قوات العباسـيين، وألحقت به هزيمة سـاحقة على يد «عبدالله بـن على بن عباس» فى موقـعة «الزاب» شمـالى «العراق» فى شـهر جمـادى الأولى عام (132هـ الموافق 749م)؛ فـفـر من المعـركـة، وأخذ يتـنقل من مكان إلى آخـر حـتى وصل إلى «مصر»، وهناك لاحـقته الجيوش العـباسية حتى قـتل على يد «صالح بن على بن عبدالله بن عـباس» فى ذى الحجة (132هـ الموافق 749م). وبمقتله انتهت الدولة الأموية فى المشـرق، وقامت الدولة العبـاسية، حيث بويـع «عبدالله بن محـمد» الملقب بأبى العـباس السـفاح بالخلافـة فى «الكوفة» فى ربـيع الأول عام (132هـ الموافق 749م)، قبل مقـتل «مروان بن محمـد» بشهور.[1] وسبحان الله القائل: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: 26].

---

1 ـ د. عبدالشافى محمد عبداللطيف ـ نفس المرجع ص110.



الفهرس

الموضوع	الصفحة



في هذا الكتاب

الفصل الأول: حكم أسرتى أبو سفيان وأبو مروان الأموية.

الفصل الثاني: نظام الحكم السياسى.

الفصل الثالث: الفتوحات الإسلامية.

الفصل الرابع: الحياة الإدارية.

الفصل الخامس: الحياة الاجتماعية.

الفصل السادس: الحياة الاقتصادية.

الفصل السابع: الحياة الفكرية.

الفصل الثامن: المعارضة العلوية وثورة سبط رسول الله محمد - الإمام الحسين.

الفصل التاسع: الثورات ضد النظام الأموي.

الفصل العاشر: سقوط النظام المرواني الأموي.

المؤلف في سطور

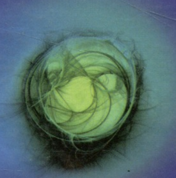
- من مواطني دولة الإمارات العربية المتحدة.

- رئيس مركز العيدروس للدراسات والاستشارات ومجموعة العيدروس التجارية.

- حاصل على الليسانس من لبنان والماجستير في التطورات السياسية في الإمارات العربية 1932 - 1971 والدكتوراه من مصر عام 1983 في العلاقات العربية الإيرانية 1921 - 1971.

- عمل في دائرة الإسكان والمشتريات بالحكومة المحلية في إمارة أبو ظبي 1970 - 1973 ثم مديراً للعلاقات الثقافية بالحكومة الاتحادية لدولة الإمارات العربية المتحدة 1979 - 1984، ثم جامعة الإمارات العربية المتحدة 1984 - 1993 وقام بالتدريس في كلية زايد العسكرية في مدينة العين وكذلك بكلية الظفرة الجوية في أبو ظبي، كما شارك في دورة تدريب الدبلوماسيين في وزارة الخارجية بدولة الإمارات العربية المتحدة، ثم في جامعة الكويت 1993 - 2000 ثم في جامعة روتردام الإسلامية بهولندا 2000 - 2002، ثم في القوات المسلحة لدولة الإمارات العربية المتحدة في الفترة من 2002 - 2006: الأمين العام لل[illegible] تاريخ العسكري، ثم رئيس [illegible] افيا للاتصال الثقافي والتجا[illegible] عام 2007 حتى الآن، وهو [illegible] من الجمعيات العلمية الإقلي[illegible] سو في الأمانة العامة لاتحاد الم[illegible] عام 1991 وحتى الآن ورئيس [illegible] اسات روتردام الإسلامية.

- صدر له أكثر من اثنى [illegible] وأكثر من أربعين بحثاً معظمها في الخليج العربي والدراسات العربية والإسلامية.



الدولة الإسلامية الثالثة
الخلافة الأموية
اسرة ابو سفيان ابو المروان الاموى